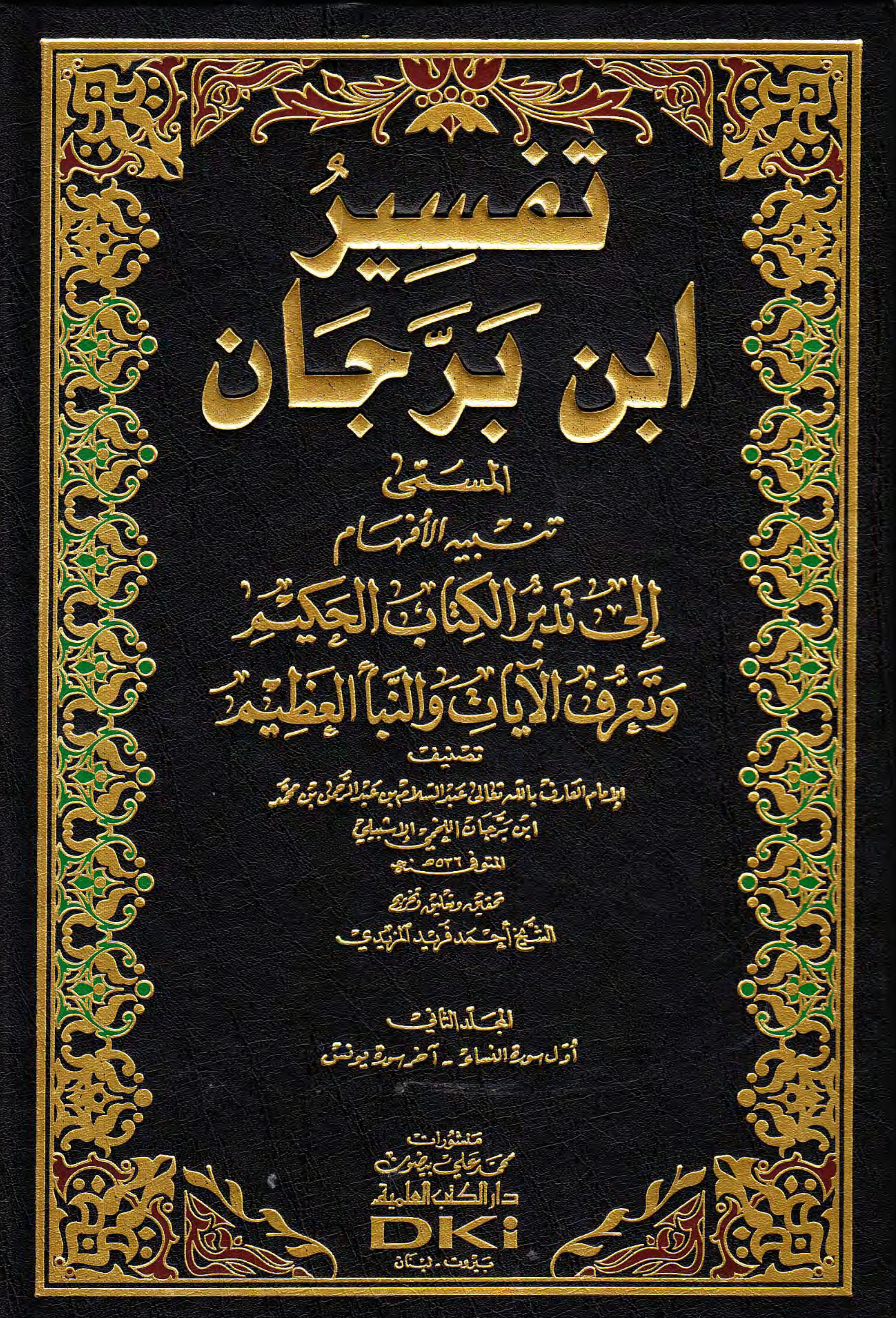

تفسير
ابن برجان
المسمى
تنبيه الأفهام
إلى تدبر الكتاب الحكيم
وتعرف الآيات والنبأ العظيم
تصنيف
الإمام العارف بالله تعالى عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد
ابن برجان اللخمي الإشبيلي
المتوفى ٥٣٦هـ
تحقيق وتعليق وتخريج
الشيخ أحمد فريد المزيدي
المجلد الثاني
أول سورة النساء - آخر سورة يونس
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
DKi
بيروت - لبنان

تفسير ابن برجان

تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم

تصنيف

الإمام العارف بالله تعالى عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد
ابن برجان اللخمي الإشبيلي
المتوفى ٥٣٦ هـ

تحقيق وتعليق وتخريج
الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الثاني

أول سورة النساء - آخر سورة يونس



دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKi
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

الكتاب : تفسير ابن برَّجان
المسمى: تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم
وتعرف الآيات والنبأ العظيم

Title : TAFSĪR IBN BARRAJĀN
AL-MUSAMMA
TANBĪH AL-AFHĀM ILĀ TADABBUR
AL-KITĀB AL-ḤAKĪM WA TA'ARRUF
AL-ĀYĀT WAN-NABA' AL-'AẒĪM

THE EXEGESIS OF IBN BARRAJAN
OF THE HOLY QUR'AN

التصنيف : تفسير قرآن

Classification: Exegesis of The Holy Qur'an

المؤلف: الإمام عبد السلام بن عبد الرحمن ابن برَّجان (ت 536 هـ)

Author : Al-Imam Abd As-Salam ben Abd Ar-Rahman ibn Barrajan (D. 536 H.)

المحقق : الشيخ أحمد فريد المزيدي

Editor : Ash-sheikh Ahmad Farid Al-Mazidi

الناشر : دار الكتـــب العلميـــة - بيـــروت

Publisher: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

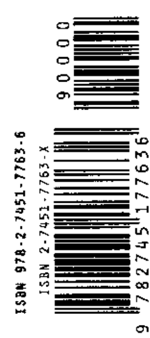
Pages (5 Volumes)	2880	**عدد الصفحات** (5 مجلدات)
Size	17* 24 cm	**قياس الصفحات**
Year	2013 A.D. -1434 H.	**سنة الطباعة**
Printed in : Lebanon		**بلد الطباعة** : لبنـــان
Edition : 1st (2 colors)		**الطبعة** : الأولى (لونان)

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ‎+961 5 804810/11/12
فاكس: ‎+961 5 804813
ص.ب: 11-9424 بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت 11072290



ISBN 978-2-7451-7763-6
ISBN 2-7451-7763-X

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة النساء[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا

---

(١) الجمهور على أن هذه السورة مدنية إلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ وقال النحاس: مكية، وقال النقاش: نزلت عند الهجرة من مكة إلى المدينة. انتهى. ولا خلاف أنّ فيها ما نزل بالمدينة. وفي البخاري: آخر آية نزلت ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلَالَةِ﴾ ومناسبة هذه السورة لما قبلها أنه تعالى لما ذكر أحوال المشركين والمنافقين وأهل الكتاب والمؤمنين أولي الألباب، ونبه تعالى بقوله: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم﴾ على المجازاة، وأخبر أنَّ بعضهم من بعض في أصل التوالد، نبه تعالى في أول هذه السورة على إيجاد الأصل، وتفرُّع العالم الإنساني منه ليحث على التوافق والتواد والتعاطف وعدم الاختلاف، ولينبه بذلك على أنّ أصل الجنس الإنساني كان عابدًا لله مفرده بالتوحيد والتقوى، طائعًا له، فكذلك ينبغي أن تكون فروعه التي نشأت منه، فنادى تعالى: دعاء عامًا للناس، وأمرهم بالتقوى التي هي ملاك الأمر، وجعل سببًا للتقوى تذكاره تعالى إياهم بأنه أوجدهم وأنشأهم من نفس واحدة، ومن كان قادرًا على مثل هذا الإيجاد الغريب الصنع وإعدام هذه الأشكال والنفع والضر فهو جدير بأنْ يتقي.

ونبّه بقوله: ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ على ما هو مركوز في الطباع من ميل بعض الأجناس إلى بعض، وألف له دون غيره؛ ليتألف بذلك عباده على تقواه، والظاهر في الناس: العموم؛ لأن الألف واللام فيه تفيده، وللأمر بالتقوى وللعلة؛ إذ ليسا مخصوصين بل هما عامان، وقيل: المراد بالناس أهل مكة، كان صاحب هذا القول ينظر إلى قوله: ﴿تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ لأن العرب هم الذين يتساءلون بذلك. [البحر المحيط ١٥/٨٠٠].

مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾[النساء: ١ - ٦].

قوله جلَّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً....﴾[1] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿رَقِيبًا﴾ [النساء:١] أمر الله تبارك وتعالى عباده أن يتقوه في اجتناب مناهيه، والعمل بما يرضيه، وتعرف ﷻ إليهم بأنه خلقهم.

وفي ضمن ذكره أنه خلقهم هو الذي رزقهم ويقوم عليهم، ثم يميتهم ثم يحييهم، ثم يجازيهم بأعمالهم خيرها وشرها وصف نفسه ﷻ بمحض الوحدانية، فهو الواحد خلق واحدًا، صوَّره أحسن تصوير خلق من ذلك المخلوق زوجه واحدًا أشبهه كافله وعائله، أولهما هو المخلَق منه، وهذا مقوم عليه معول مفصول مكفول وأنثى.

فاعلم بهذا الخطاب أن الكثرة عن الوحدة انفصلت وإليها ترجع، وأن الأول هو الفاضل والمؤخر هو المفضول، فيجمع ذرية آدم عليه السلام وزوجه عن آدم، وأن الأنواع وإن تكثرت فإنها ترجع إلى الجنس، وأن الأجناس فوق ذلك تكون أنواعًا لجنس واحد يجمعها؛ لذلك قال الله ﷻ: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام:١].

فأول ما أوجد الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه من شيء، فهو النور أوجده ﷻ عن نوره العلي النزيه الرفيع، ثم أوجد له ضدًا وهو الظلام أوجده جلَّ ذكره عن معنى متوهم، أوجده ﷻ إرصادًا للمحنة التي قدرها، والبلوى السابقة في علمه بها حكمة

(١) روي عن النبي ﷺ أنه قال عند نزولها عليه: «خُلِقَتِ الْمَرْأَةُ مِنَ الرَّجُلِ فَهَمَّهَا فِي الرَّجُلِ، وخلق الرجل مِنَ التَّرابِ فَهَمُّهُ فِي التُّرابِ». [النكت والعيون (٢٧٢/١)].

بالغة له في إتمام كلمته ﴿أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

وهذا المعنى المتوهم لا وجود له في الحقيقة، وإن كان الله جلَّ ذكره قد أثاره في أثناء الخليقة، وهو ما عبَّر عنه حرف النفي من قول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك» وهو أيضًا ما عبَّر عنه ما سبح عنه نفسه وتعالى عنه، وهو مستحيل الوجود معبر عن عدمه معرب عن استحالة وجوده في أكثر أنواع الأذكار، كقوله جلَّ قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ [الإسراء:٤٢].

﴿لَوْ أَرَادَ اللهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾ [الزمر:٤].

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ [الأنبياء:١٧].

هذا وشبه هذا مما قد شهدت به الشواهد، وأصفق جميع الوجود على الإجماع باستحالة وجوده ووجوب عدمه، فخلق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه من خالص النور ما شاء، وأوجد عن ذلك الظلام ما شاء، ثم من ممتزجها ما قد سبق به كتابه ووسعه علمه، فهو الله لا إله إلا هو الواحد الأحد، خلق واحدًا، أوجد عن ذلك الواحد واحدًا أوجد عنهما الكثرة العليم الحكيم.

فصل

في هذا الخطاب إيماء وتعريض بالحض، بل بالإيجاب باعتبار خلقه جملة المخلوقات، فمن حيث هو فاعلها وصانعها وخالقها دلَّ على وجوب وجوده العلي ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، كما دلت الكتابة على الكاتب والبناء على بانٍ والفعل على فاعل، ثم دلَّ بذلك على أن المفعول الجزئي لا يشبه فاعله، كما لا يشبه البناء بانيه، ولا الكتابة كاتبها؛ إذ هي أنواع لا تمام فيها سوى أنها مفعولات فقط، فقد أعطت من الدلالة دلالة على وجود الفاعل، لكن الباطن الناظر يحتاج أن يضيف إليها نظيرًا آخر، أو لما صعدت الموجودات إلى أجناس دلت بحياتها، على أن فاعلها حي ليس كمثله شيء، وبعلمها على أن فاعلها عالم وبإرادته قدرها، ونحو هذا كله صفة ومعنى على ما كانت عنه، ومن هو موجود له، ومنه وهو الحق أوجده

على الحق.

قال الله ﷻ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣].

قال رسول الله ﷺ: «**خلق الله آدم على صورته**»(١) مسلمًا مؤمنًا كالعالم الكلي سواء، فكل مكفول ومفعول، فناقص غير تام، وكل ما في العالم كذلك، فهو فقير إلى خالقه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، مفصول آخر عن أول هو خالقه وجاعله ومصوره، وهو القائم عليه الكافل له، سبحانه وله الحمد.

فصل

إذاً كان النظر في أبعاض الموجود الكلي، فإن أول وجود العقل من العلم وجود صانع الصنعة كما تقدم، ولا تشبه الصنعة صانعها، بل غاية كمال المفعول أن يكون بعضًا للكلي، وأن يشبه فاعله الأدنى في أنه جزئي من أفعال الفاعل الجزئي، شيء يشبه إلا ما كان منه على سبيل البنوة والنسل، وهو فعل سُخر له واضطر إليه، وهو مفعوله الكلي بالإضافة إليه، فإذًا المفعول لا يشبه فاعله إلا إذا كمل، ثم هو لا يشبهه من كل الجهات، وفاعله الحق هو الفاعل الأعلى ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بأمر نازل من عنده، وحلم جَزْمٍ؛ ليتم بذلك كلمته، ويظهر أمره وخلقة ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ﴾ [الواقعة:٥٨ - ٥٩].

وهو آية على مفعوله الفاعل الأعلى ﷻ مفعوله الكلي ﴿وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧] خلقه بالحق وأوجده بالحق، وكل ما يفعل إليه المفعول الكلي فأبعاض وأجزاء يكمل بها الكلي.

وكمال الجزئيات أن تكون معدة؛ ليكمل بها المفعول الكلي باجتماعها، أو على صورة ما هو مفعول كامل.

قال رسول الله ﷺ: «**تربت يمينك ومن أين يكون الشبه؟**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٢٠) ومسلم (٢٦١٢) وعبد بن حميد (٩٠٠) والدارقطني في الصفات (٤٨) وعبد الله بن أحمد في السنة (٤٩٨) واللالكائي (٧١٦) والديلمي (٧٣٠٩).

(٢) أخرجه مالك (١١٥) والدارمي (٧٦٣) وأبو داود (٢٣٧)، والنسائي في الكبرى (٢٠٣) وابن =

جعل الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه ما تقدم ذكره دلالة كلية على التوحيد الأعلى والإسلام الأرفع واليقين الأتم، ثم ما جعله الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه من أجزاء هذا الكلي وأبعاضه، وأجزاء أجزائه مما لم يؤم بعضها بعضًا منها إليها من منتهاه إلى أسفل إلى منتهاه الأعلى، جعل ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه أيضًا ذلك دلالة على النبوة والرسالة والاختصاص والاصطفاء، فإذًا كمال المفعول الكلي أن يكون على صورة فاعله، كالجزئي كماله أن يكون بعضًا للكلي كالعضو الجزئي من الجزء.

فصل

الموجود الجزئي مسخر له أبعاض الكلي عاطفة عليه أعضاؤه ومعاطفه، وما بين ذلك غذاء له ينشئه منشئه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، ويأوله إليه صورة وذاتًا، فـ﴿مَّا خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الروم:٨] وليظهره في صورة الحق المفعول عيانًا ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات:٢١ - ٢٣].

وكما أننا ننطق حقًّا لا مرية في ذلك، فكذلك ما نحن بسبيل تبيانه لا مرية فيه، فافهم.

فقد تبين بما تقدم ذكره أن الدنيا نبذة من الآخرة صورت على صورتها سرائها وضرائها، لكن على المزج والتقليل، وإن الذي يكون عن الماء ينزل من السماء إلى الأرض من جنات وعيون وزروع، ومقام كريم شبيه بما نُزل عنه، وكذلك في القسم الآخر ما يكون من سموم حر وزمهرير بتوابع ذلك كله.

قال رسول الله ﷺ: «**للجنة أقرب إلى أحدكم من شسع نعله والنار كذلك**»[1].

والله ورسوله أعلم إلى فيح جهنم بنفسيها المأذون لها فيهما، وقد تقدم ذكر

حبان (١١٦٦).

(١) تقدم تخريجه.

هذا فتبارك الله أحسن الخالقين، ما أحسن ما أوجد وأتقن ما خلق وأحكم، اللهم يا ذا الجلال والإكرام فهمنا عنك، ثم استعملنا بالذي يرضيك عنا.

فصل

المفهوم مما تقدم ذكره أنه ﷻ الطاهر الطيب القدوس السلام المؤمن المهيمن ﴿**وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [الروم:٢٧] ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى:١١] لم يزل على ذلك، ولا يزال أوجد ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه مخلوقاته جمعًا مما أوجد من أجله فوجوده حق محض، له المحامد كلها أوصاف وخلق.

كما قال عزَّ من قائل: ﴿**وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي**﴾ [طه:٤١].

﴿**وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي**﴾ [طه:٣٩].

و﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ [البقرة:٣٠] وما أوجده ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه لا لأجله، فهو خلق له ومقدور ليس لأجله ولا بتوليه إياه، فكذلك لزمه البعد وانضاف إليه المذام على قدر ما لزمه من هذا الوصف.

قال رسول الله ﷺ: «**من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه**»[1] فافهم وألقن، فإنه من لم يستدل على المعرفة بربه بصنعه لنفسه، فلم يعرف الله إلا بالاسم لا بحقيقة المعنى الذي دعا إليه، وهو معنى قول رسول الله ﷺ: «**أعرفكم بالله أعرفكم بنفسه**»[2].

قوله ﷻ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ**﴾ [النساء: ١] و﴿**اعْبُدُوا رَبَّكُمُ**﴾ [البقرة: ٢١] وتسميتهم بالناس، وسمى واحدهم إنسانًا، والجنس منهم ناس، ما معنى ذلك الذي إليه أن يكون مسلمًا مؤمنًا عالمًا حكيمًا برًا رحيمًا عفوًا غفورًا كريمًا سخيًا شكورًا، هكذا ثم على نحو التعبد بها في الأسماء.

وأما المعرفة التي تحصلت قبل هذا، ففي قوله ﷻ: ﴿**يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ**﴾

---

(١) أخرجه بنحوه أبو نعيم في الحلية (١٠/٢٠٨).

(٢) ذكره الغزالي في الإحياء (٣/٢١٩)، وهو قول عن بعض السلف.

[الانفطار:٦ - ٨].

وفي قوله جلَّ قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤] أي: على علم الفطرة وصورة الحق، فإن كان مؤمنًا مسلمًا صادقًا برًّا وصولاً سخيًا كريمًا إلى غير ذلك، فهو وإن كان كاذبًا كفورًا بما يتبع ذلك من أسماء وصفات، فذلك الذي رده إلى أسفل سافلين، وإن كان على المحمود هو ما دعاه إلى وِلاه ونسبه إليه، وكان معه كما تقدم.

اعلم - وفقنا الله وإياك - أن الناظر في كتاب الله ﷻ ربما اضطر عند تفهم المراد من سرٍّ أثناء الخطاب إلى ألا يعتمد على ترتيب أبنيته، ولا يركن إلى إعراب اسم ضرورة يجدها عند مطالعة التحقيق، ومبادئ أسماء ورؤوس معاني نتلقف الفهم عن إشارات مبادئ الخطاب.

وقد تقدمت إلى هذا المعنى إشارة فيما مضى؛ وذلك عن أمارة حال عبَّر عنها قوله ﷻ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة:١٦ - ١٧] فيما بين هذه الحال من متلقف الوحي، وبين الحال التي عبَّر عنها بقوله جلَّ قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة:١٨] حال قراءته امتزج ما ظهر منه للفهم بما لم يظهر بعد، وربما بدت لذلك جملة وخفيت أوائله، وقد تقدمت إلى نحو هذا إشارة، وإن كان التوجه فيما هذا سبيله غير المتوجه إليه بما عرضت إليه فلنقتصر. انتهى.

اختلف السلف - رحمهم الله - في المعنى الذي أوقع هذا الاسم على هذا الجنس من أجله؛ فقال منهم قائلون: إنه من النسيان، وتمثلوا في ذلك بقول بعضهم:

وسُـمّيت إنـسانًا لأنـك ناسـي

وعولوا في إثباته على قوله جلَّ قوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه:١١٥] واستمرت لهم الشواهد من معهود النسيان، ووجوده في الإنسان نسيان ترك ونيسان ذهول، وزوال ذكر المنسي بعينه.

وقال آخرون: هو مأخوذ من الحركة يقال من ذلك: ناس ينوس نوسًا إذا تحرك، والفاعل منه: نائس ونواس على التكثير، واستمرت لهم أيضًا بذلك الشواهد

بالوجود، والخبر بأن الإنسان لا بد متحرك إما ظاهرًا وإما باطنًا، أو بكليهما ما دام حيًّا بوجه.

حجته في ذلك إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ فأخبر أن الإنسان بما هو في حركة ما قولاً أو فعلاً أو لهما معًا، وبما هو إنسان مكلف هو في خسر ما لم يكن ذلك منه عن إيمان بالله ورسوله واقتداء، وهذا هو المستثنى بقوله ﷻ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:٣].

ومن ذلك: ما ذكر أن الخضر أوصى موسى - عليهما السلام - وقد سأله عن ذلك، فكان مما قال له: «يا موسى اعمل خيرًا، فإنك لا بد عامل شرًّا» وهذان الوجهان معًا وإن كانا موجودين في الإنسان، فإنه لا يتم وصفه إلا بالوجه الثالث، وهو بأن يكون مأخوذ من الإنس، وبذلك سمي الجنس.

وعلى ما تقدم من اعتقاد المقاربة قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنسِ﴾ وشواهد هذا في معهود الخطاب كثيرة جدًا، فتارة يبدو ممتزجًا بمعنى التوبيخ، وتارة باستدعاء وتلطف ونصيحة ممتزجة بمعاني ما تقدم ذكره من النسيان والغفلة، وغير ذلك كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [فاطر:٣].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الغَرُورُ...﴾ [فاطر:٥] حيث كان كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:٦ - ٨].

فهو - أعني: الإنسان - إن لم يأنس بربه أنس بسواه لا محالة، الأنس على ما تقدم [.....][١] تذكر بأوليّة منبهة على خصوصية الاتصال إلى قرب محل، كيف خلقه من تراب ممتزج بالماء، والتراب من الأرض الموصوفة بالتمهيد والاطمئنان ، والماء من السماء وحده طهورًا وبركة ورحمة، وكان عرشه على الماء، والماء على الهواء، والهواء على الروح، والروح على الروح ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾

(١) في الأصل، تقرأ: [عهدها كبيرة].

[الأنبياء: ٣٠].

وخلقه يوم خلقه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بيده، ونفخ فيه من روحه وأسكنه في جواره، واستخلفه في أرضه، ونوَّه به في الملأ الأعلى وباهى بعلمه فيما هنالك، ووالى فيه وعادى فيه، ولما أخطأ عفا عنه، وأعد له كرامة ذكر بها قبل إيجاده إياه، وهذه معاريض منه جلَّ ذكره بإيصال حبله بحبل خالقه ورازقه ومصوره ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

ثم عن هذه الثلاثة الأوجه تنبثق علوم علية بشواهد عليها سوية، منها خافية ومنها جلية على معاملات القلوب وحب المحبوب، وجهاد العدو ومكابدته بالجوانح والجوارح، ومعرفة اللمتين واتصاله بتعليم ومحادثة، وإلهام وتكليم، وإلطاف وإكرام، أو بُعد وحجب، نسأل الغفور الرحيم معافاته ورحمته.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وقال جلَّ قوله في موضع آخر: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [الزمر: ٦] نصَّ تعالى على أن كل زوج من كل جنس هو سكنه وبه أنسه؛ لأنه منه خلقه وعنه أوجده وفصله، والمخلوق الموجود عن أوله هو موجود مخلوق لخالقه فصله عن أوله الذي هو زوجه، هذا على العموم في كل الخليقة، وقد مضى من ذكر هذا ما يغني عن ترداده.

فالأول الذي هو الروح الثانية المنتزع منه تحب ما انتزع عنه وفصل منه؛ لأنه بعضه، ومحبته ليعقبه على التحقيق محبة لنفسه، هذا مثال لمحبة الوالدين ولدهما، وأمَّا محبة الزوج المنتزع المفصول عن أوله محبة لما هو عنه موجود هو أول له، فمحبته من قِبل محبة الغريب وطنه.

مثال هذا: محبة الولد لوالديه، ولله المثل الأعلى، محبة الخالق المخلوق، وثَمَّ محبة المولى العلي الأعلى عبده الولي.

شاهده: قول رسول الله ﷺ: «**لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل ضلت ناقته**

في أرض فلاة عليها طعامه وشرابه...» إلى قوله: «**أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح**»[١].

وقوله ﷺ: «**لله أرحم بعبده من والدة حلت بولدها في أرض مظلمة، فأرادت أن تضجعه بيدها إلى الأرض؛ لتنظر إن كان بها عقرب أو حية أصابتها دونه، فالله أرحم بعبده من هذه المرأة بولدها**»[٢].

ومصداق قول الله ﷻ: ﴿**وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾ [يوسف:٦٤] ومن هنا تتعرف الفردانية، فهو المفرد الحق أولاً وآخرًا، لا يزدوج إلى شيء ولا كمثله شيء.

ثم عبرة الثاني: محبة العبد ربه محبة العبد الولي لربه العلي الأعلى، قال الله ﷻ: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله**﴾ [البقرة:١٦٥].

قوله ﷻ: ﴿**وَاتَّقُوا الله الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ**﴾ [النساء:١] بنصب الميم وخفضها، أما النصب فبحذف فعل تقديره: «واتقوا الأرحام أن تقطعوها» وإنما يكون قطعها بالفساد في الأرض والكفر بالله ولزوم المعاصي جهارًا، فلا يجوز لمؤمن الموالاة على ذلك.

وأما بالخفض فتقديره: «واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام» والوعيد هنا على قطع الأرحام، والتحذير من ذلك تعريض بالناس من شفاعة المؤمنين يوم القيامة عند جواز الصراط للعاصين إخوانهم المؤمنين، يوم يحملون أوزارهم على ظهورهم.

والصراط أحدّ من الموسى وأرقّ من الشعرة، وقبله وبعده على ضفتي جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - ضحضاح النيران، ما يبلغ الركبتين والفخذين والحقوين والحسك بين الأرجل، وشوك كشوك السعدان، ولا واقي من عذاب الله ﷻ سواه.

وأهل الجنة قد صُفوا على ممرهم قد نجاهم الله بمفازتهم، فيعرف أحدهم المؤمن فيقول: أتعرفني ألست الذي وهبتك يوم كذا وكذا وضوءًا؟ ويقول الآخر:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٧).

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وأخرجه البخاري (٥٦٥٣)، ومسلم (٢٧٥٤) بنحوه.

ألست تعرفني يوم كذا وكذا إذ نفعتك في كذا؟ ويقول الآخر: أتذكر يوم كذا إذ نصرتك؟ ويتعرفون للمتقين فيعرفونهم، فيقول أحدهم لمخاطبه: سألتك بالله وبالأرحام؛ ألا ما شفعت فيَّ اليوم فيشفع فيه، فيستشفع.

فذكرهم رب العزة بسؤالهم بعضهم بعضًا وبالله وبالأرحام، وتوقير أهل التقوى ورؤية الحق لهم، واتخاذ اليد عندهم، وتقديم المعروف إليهم عدة لذلك اليوم، والخفض إعلام منه ﷻ أنهم يتساءلون بالله وبالأرحام يومئذٍ، فيكون ما تقدم ذكره تعريضًا.

أعقب ذلك قوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١] هو الرقيب في الدنيا، وشهيد الحكم في الآخرة إن الله كان عليكم في الدنيا رقيبًا، من أحسن منكم إلى أوليائه أو أساء.

فصل

التقوى من الوقاية، وهو ما تقي به نفسك، وما هو منك ولك، وهي على ضربين:

تقوى يُتقى بصالح الأعمال فسادها.

وتقوى يُتقى بها الله ﷻ، وأصله الحذر والخوف.

قال الله ﷻ: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ * وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣١ - ١٣٢].

وقال جلَّ قوله: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [البقرة:١٩٧].

وأمر ﷻ بالتقوى وأبدى فيها وأعاد، وهي وصيته في الأولين وعهد إلى الآخرين.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾ [النساء:١٣١] وهي قاعدة صفات المؤمنين وأعلى نعوت المؤمنين والأولياء الموقنين، وبها تصح المقامات، وترفع الدرجات وتحقق الصفات.

وقد جعلها الله مبدأ نعوتهم فبدأ بها - جلَّ وتعالى - في مفتتح التنزيل، فقال جلَّ قوله: ﴿الم * ذَلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١ - ٢] الذين

من وصفهم مجانبة المحرمات، ومفارقة الشهوات والمشتبهات، ومباعدة الإصرار على السيئات، وهو رقيبًا لله ﷻ في قلوب أوليائه، يحبهم ﷻ بذلك على الارتقاء في الدرجات في أول مقام وفي أعلى مقام، وفي أول كل نفس وفي آخر كل نفس، حتى إنهم إذا همَّ أحدهم بسوءٍ أو همَّ قاربهم لاحظ في الشاهد المشهود أو شهد في البينات في الوجود المطلوب، فاجأته التقوى ببيان التقدير قائلة له: إياك ثم إياك، أو تلك عظة الله في قلب كل مؤمن، هم درجات عند الله كما قال قائلهم:

ما إن ذكرتك إلا خالطت فكري ... هم الحشى وهو سري عند ذكراكا

حتى كأن رقيبًا منك يهتف بي ... إياك ويحك والتذكار إياكا

وأول التقوى: تقوى الشرك والكفر بالله ﷻ ظاهرًا وباطنًا، وذلك أول الهداية، فإذا اتقى جملة المناهي صار بذلك من أهل الولاية، ثم إذا اتقى هواه صار أمره غاية ونهاية.

وآفة التقوى: الغفلة.

وسببها: الميل إلى الدنيا والركون إليها، وذلك بسوء الغفلة عن التقوى في التقوى.

عبرة:

قد تقدم توهم الجملة وتشبهها بالسفينة بوجهٍ، وبرجل قائم يصلي بوجهٍ، عابد لربه قانت مراقب لرقيبه بوجهٍ، فأنت إن أردت العبادة العظمى الرفيعة ورفيع التقوى والقنوت العلا، فاترك نفسك مفردًا مع ربك حتى كأنه لا ينظر إلا إليك ولا يراقب سواك، وإنه لكذلك؛ إذ قد تحقق العلم بأنه لا يشغله شيء عن شيء، وأنت الجزئي المشبه بذلك الكلي قد أحاط بك علمه وقدرته، وقدره وتدبيره، وحفظه وإمساكه في ظاهرك وباطنك وأولك وآخرك، به حولك وقوتك وحركتك وسكونك، وله جميع أمرك، فأنزل نفسك مع ربك منزلة المتوهم الذي لا يخاف غيره، ولا تُرائي بعمله؛ إذ الغير فيما هنالك معدوم إنما هو نفسه وربه.

فكذلك أنت مع ربك مفردًا لشأنك لا تملك بذلك سواه نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، فاتكل عليه واعبده وحدك كما خلقك وحده، وأفرِدْه

بعبادتك كما أفردك بشأنك وراقبه وحده وخَفْهُ وحده وعظِّمه وحده، فهو أقرب إليك منك إليك، كما تقدم في إيمانك بالكلي مع خالقه العلي العظيم، فمتى صليت فاستشعر هذا.

ومتى نويت نية، أو توجهت وجهة أو ذكرته، فتوهم المذكور وقد أحاط بك إحاطته بالكلي، حتى كأنه ليس بحضرته مخلوق سواك، بل توهم أنك لا بمكان يحيط بك ولا زمان ولا كيف، ولا تابع من توابع المخلوقات سواء أمر ربك كالكلي، واستشعر من الأذكار أظهرها عظمة، ومن القرآن العزيز أعظمه كآية الكرسي وسورة الإخلاص، وما كان في معنى ذلك، واستغنِ بالله يُغنِك عن سواه، واستعن بالله يعنك، والله أسرع إليكم منك إليك، فأيقن بذلك واستشعره واسأله إياه، وتضرع إليه فيه، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قوله ﷻ: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ....﴾[1] إلى قوله:

---

(١) قال القرطبي في «تفسيره»: قال الله ﷻ: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ فيه خمس مسائل: الأولى: قوله تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾ وأراد باليتامى الذين كانوا أيتامًا، كقوله: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ ولا سحر مع السجود، فكذلك لا يتم مع البلوغ، وكان يقال للنبي ﷺ: «يتيم أبي طالب» استصحابًا لما كان، ﴿وَآتُوا﴾ أي: أعطوا، والإيتاء الإعطاء، ولفلان أتو، أي: عطاء، أبو زيد: أتوت الرجل آتوه إتاوة، وهي الرشوة، واليتيم من لم يبلغ الحلم، وقد تقدم في البقرة مستوفى، وهذه الآية خطاب للأولياء والأوصياء، نزلت في قول مقاتل والكلبي في رجل من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم، فلما بلغ اليتيم طلب المال فمنعه عمه، فنزلت، فقال العم: نعوذ بالله من الحوب الكبير! ورد المال، فقال النبي ﷺ: «من يوق شح نفسه ورجع به هكذا فإنه يحل داره» يعني جنته، فلما قبض الفتى المال أنفقه في سبيل الله، فقال ﷺ: «ثبت الأجر وبقي الوزر» فقيل: كيف يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «ثبت الأجر للغلام وبقي الوزر على والده» لأنه كان مشركًا. الثانية: وإيتاء اليتامى أموالهم يكون بوجهين: أحدهما: إجراء الطعام والكسوة ما دامت الولاية؛ إذ لا يمكن إلا ذلك لمن لا يستحق الأخذ الكلي والاستبداد كالصغير والسفيه الكبير، الثاني: الايتاء بالتمكن وإسلام المال إليه، وذلك عند الابتلاء والإرشاد، وتكون تسميته مجازًا، المعنى: الذي كان يتيمًا، وهو استصحاب الاسم، كقوله تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ أي: الذين كانوا سحرة، وكان يقال للنبي ﷺ: «يتيم أبي طالب» فإذا تحقق الولي رشده حرم عليه إمساك ماله عنه وكان عاصيًا، وقال أبو حنيفة: إذا بلغ خمسًا وعشرين سنة أعطي ماله كله على كل حال؛ لأنه يصير جدًا، قلت: لما لم يذكر الله تعالى في هذه الآية إيناس الرشد وذكره في قوله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى

=

حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ قال أبو بكر الرازي الحنفي في أحكام القرآن: لما لم يقيد الرشد في موضع وقيد في موضع وجب استعمالهما، فأقول: إذا بلغ خمسًا وعشرين سنة وهو سفيه لم يؤنس منه الرشد، وجب دفع المال إليه، وإن كان دون ذلك لم يجب، عملاً بالآيتين، وقال أبو حنيفة: لما بلغ رشده صار يصلح أن يكون جدًا فإذا صار يصلح أن يكون جدًا فكيف يصح إعطاؤه المال بعلة اليتم وباسم اليتيم؟! وهل ذلك إلا في غاية البعد؟! قال ابن العربي: وهذا باطل لا وجه له، لا سيما على أصله الذي يرى المقدرات لا تثبت قياسًا، وإنما تؤخذ من جهة النص، وليس في هذه المسألة، وسيأتي ما للعلماء في الحجر إن شاء الله تعالى. **الثالثة**: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ أي: لا تبدلوا الشاة السمينة من مال اليتيم بالهزيلة، ولا الدرهم الطيب بالزيف، وكانوا في الجاهلية لعدم الدين لا يتحرجون عن أموال اليتامى، فكانوا يأخذون الطيب والجيد من أموال اليتامى ويبدلونه بالرديء من أموالهم، ويقولون: اسم باسم ورأس برأس، فنهاهم الله عن ذلك، هذا قول سعيد بن المسيب والزهري والسدي والضحاك وهو ظاهر الآية، وقيل: المعنى لا تأكلوا أموال اليتامى وهي محرمة خبيثة وتدعوا الطيب وهو مالكم، وقال مجاهد وأبو صالح وباذان: لا تتعجلوا أكل الخبيث من أموالهم وتدعوا انتظار الرزق الحلال من عند الله، وقال ابن زيد: كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء والصبيان ويأخذ الأكبر الميراث، عطاء: لا تربح يتيمك الذي عندك وهو غر صغير، وهذان القولان خارجان عن ظاهر الآية، فإنه يقال: تبدل الشيء بالشيء أي أخذه مكانه، ومنه البدل. **الرابعة**: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ قال مجاهد: وهذه الآية ناهية عن الخلط في الإنفاق، فإن العرب كانت تخلط نفقتها بنفقة أيتامها فنهوا عن ذلك، ثم نسخ بقوله: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ وقال ابن فورك عن الحسن: تأول الناس في هذه الآية النهى عن الخلط فاجتنبوه من قبل أنفسهم فخفف عنهم في آية البقرة، وقالت طائفة من المتأخرين: إن «إلى» بمعنى مع، كقوله تعالى: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ﴾ وقال الحذاق: «إلى» على بابها وهي تتضمن الإضافة؛ أي: لا تضيفوا أموالهم وتضموها إلى أموالكم في الأكل، فنهوا أن يعتقدوا أموال اليتامى كأموالهم فيتسلطوا عليها بالأكل والانتفاع. **الخامسة**: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ أي: الأكل ﴿كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ أي: إثمًا كبيرًا، عن ابن عباس والحسن وغيرهما، يقال: حاب الرجل يحوب حوبًا إذا أثم، وأصله الزجر للإبل، فسمي الإثم حوبًا؛ لأنه يزجر عنه وبه، ويقال في الدعاء: «اللهم اغفر حوبتي» أي: إثمي، والحوبة أيضًا الحاجة، ومنه في الدعاء: إليك أرفع حوبتي، أي: حاجتي، والحوب الوحشة، ومنه قوله ﷺ لأبي أيوب: «إن طلاق أم أيوب لحوب» وفيه ثلاث لغات «حوبا» بضم الحاء وهي قراءة العامة ولغة أهل الحجاز، وقرأ الحسن «حوبا» بفتح الحاء، وقال الأخفش: وهي لغة تميم، مقاتل: لغة الحبش، والحوب المصدر، وكذلك الحيابة، والحوب الاسم، وقرأ أبي بن كعب «حابا» على المصدر مثل القال، ويجوز أن يكون اسمًا مثل الزاد، والحوأب بهمزة بعد الواو: المكان الواسع، والحوأب ماء أيضًا، ويقال: ألحق الله به الحوبة أي المسكنة والحاجة، ومنه قولهم:

=

﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء:٢] قد كتب الله جلَّ ذكره أن أرزاق عباده كما فرغ من آجالهم وأعمالهم ومآلهم، فمن أخذ حرامًا ورضي به حرم من الحلال بقدر ذلك.

واعلم أن الكسب ليس هو الرزق، إنما الرزق ما أكل العبد أو لبسه من ماله أو قدمه لآخرته، وعلى التحقيق والقول بالخصوص فهو الغذاء، فإذا أكل الأكلة من الحرام امتنع أكل الحلال يوجد هذا بالمشاهدة، ومن تجاوز القوت إلى السرف، فقد جاء النهي في ذلك في الآية، في قوله جلَّ قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ [النساء:٢].

ومعنى «إلى» ها هنا تنقسم إلى وجهين:

أحدهما: أن تكون بمعنى «مع» فهذا هو السرف المنهي عنه.

والمعنى الآخر: هو ما تقدم ذكره؛ أي: لا تأكلوا أموال اليتامى ظلمًا؛ لتقوا بها أموالكم ترجون ذلك أن يكون زيادة إلى أموالكم إنه كان حوبًا كبيرًا.

ثم جمع ذلك بقوله الحق ﷻ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾ [النساء:٦].

فصل

نهى الله جلَّ ذكره الأوصياء عن أكل أموال اليتامى ظلمًا، والظلم هو الإسراف، ومعنى ذلك أن تأكلوها مع أموالهم، وأن يقوا بها أموالهم، وندب ﷻ الغني منهم أن يستعفف ويحتسب نظره له ويحسمه، وأباح الفقير أن يأكل من مال يتيمه بالمعروف، ومعروفه مقدار العناء والمشقة فيه، وإن أغناه ما دون ذلك منه، فليقتصر عليه فإنه منهي عن الإسراف.

ونهاهم أيضًا ﷻ أن ينكحوا يتامى النساء إلا أن يقسطوا لهن، كما يرغبوا في نكاحهن لمالهن أو لجمالهن أو حسنهن، فيجزلوا لهن في المهر، وإلا فليعدلوا

=

بات بحيبة سوء، وأصل الياء الواو، وتحوب فلان أي تعبد وألقى الحوب عن نفسه، والتحوب أيضًا التحزن، وهو أيضًا الصياح الشديد، كالزجر، وفلان يتحوب من كذا أي يتوجع.

عنهن بالنكاح إلى غيرهن، وكذلك أن أنكحوهم بناتهم فعلى ما تقدم.

قال الله ﷻ: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ....﴾ [النساء:١٢٧].

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ [النساء: ٧ - ١١].

قوله جلَّ قوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾[1] [النساء:١١] أمر الله تعالى المؤمنين وصية من لدنه أن يعدلوا بين أبنائهم، وأن يعطوا ذكرانهم ضعف إناثهم للذكر مثل حظ الأنثيين.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا

(١) روى السدي قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون الجواري ولا الضعفاء من الغلمان، لا يورثون الرجل من ولده إلّا من أطاق القتال، فمات عبد الرحمن أخو حسان الشاعر وترك امرأة يقال لها: أم كُجّة، وترك خمس أخوات فجاءت الورثة فأخذوا ماله، فشكت أم كجة ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية. [النكت والعيون (١/٢٧٩)].

تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾ [النساء: ١٢ - ١٣].

ثم سرد ﷻ على هذا مقاسم المواريث، ثم ختمها بقوله جلَّ قوله: ﴿وَصِيَّةً مِّنَ الله وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ * تِلْكَ حُدُودُ اللهِ﴾ [النساء:١٢ - ١٣] ثم أوعد على تعديها أشد الوعيد، ووعد على طاعته في هذه خاصة، وفي غيرها عامة أجزل ثواب.

﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء: ١٤ - ١٨].

قوله ﷻ: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ [النساء:١٥] توجيه إيجاب الأربعة الشهود في الزنا أنه حق متوجه على اثنين، والمعهود في الشرع قبول شاهدي عدل في كل حق وجب، فكان إيجاب أربعة شهود اثنان لكل واحد منهما عدل في الحكم، مع ما في ذلك من رحمة الله ﷻ لعباده وستره عليه.

والمراد بالبينة هنا - والله أعلم - البكر والثيب من النساء، كالمراد بقوله جلَّ قوله: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ﴾ [النساء:١٦] أيضًا البكر والثيب من الرجال؛ لاختلاف الحكم فيهما، وقد يستدل بهذا على أن اللفظ المطلق إذا ورد بلفظ الجمع، ولم يدخل فيه النساء إلا بدليل آخر.

تنبيه:

الفائدة في إمساك الزناة في البيوت السجن، والتغييب وهو النفي، والتغريب المذكور في قصتهم؛ لقول رسول الله ﷺ: «**جلد مائة وتغريب عام**»(١) ولا يتوجه التغريب بصحة معنى إلا بمعنى السجن، وإلا فالتغريب على ظاهره إطلاق على الزناة، وإظهار للفاحشة وعون على إشاعتها وإفشائها، وفي طول السجن نأي، وطول النأي اتصال البعاد والغربة عن مكان الفتن انتظارًا لحدوث السلو عما تورطوا فيه حكمة، فإن ذلك موجود على الأغلب في هذا الأمر؛ لذلك قال بعضهم:

وكل محب أحدث النأي عنده ... سلو فؤاد غير حبك ما يسلو

وقال غيره:

سألت المحبين الذين تحملوا ... تباريح هذا الحب في سالف الدهر

فقلت لهم ما يذهب الحب بعدما ... تبوأ ما بين الجوانح والصدر

فقالوا شفاء الحب حب يزيله ... من آخر أو نأي طويل على هجر

أو اليأس حتى تذهب النفس بعدما ... رجت طمعًا واليأس عون على الصبر

كذلك كل هم غلب على النفس من حب دنيا أو غيرها استولى على القلب، والشفاء من ذلك العكوف على طلب العلم النافع، واستنباط غامض من الحكمة والتعوض، أو مما كان الشغل به المصر لزومه بوظائف العبادات من العلم والعمل.

قال الله ﷻ: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ يعني: المسجون ﴿حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً﴾ [النساء:١٥] يريد بشرع فيهن، أو بأمر يأمر به في

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٧٥)، ومسلم (١٦٩٧)، والطيالسي (١٣٣٣)، وأحمد (١٧٠٧٩)، والنسائي (٥٤١١)، والترمذي (١٤٣٣)، وابن ماجة (٢٥٤٩).

شأنهن، أو يتبين لإحداهن توبة، فيسَّر الله لها زوجًا فيكون أجلب للسلو.

وقال الله جلَّ قوله: ﴿فَآذُوهُمَا﴾ [النساء:١٦] سبًّا وتوبيخًا، ومع هذا فالإمساك في البيوت دليل على تسوية رسول الله ﷺ بين الرجال والنساء في ذلك بقوله جلَّ قوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ....﴾ [النور:٢].

وقال بعض المتقدمين: إنها منسوخة بما جاء في صدر سورة النور من ذكر الحدود، وليس ذلك بنسخ، وإنما هو بيان لمجمل قوله: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً﴾ [النساء:١٥].

والسبيل مجمل لا يعلم ما هو حتى نزلت سورة النور، فكان ذلك إنجازًا منه جلَّ ذكره لموعود وعد به في المستقبل من ذلك الحكم يومئذٍ من قوله: «حتى» وتفصيلاً لمجمل قوله: «السبيل».

وليست هذه سبيل النسخ قد يعبر عن السب والتوبيخ بالرجم، ومنه القذف قذف المحصنات وغيرهن، يقال: قذفه بالحجر وحذفه بالعصا، ويقال: أذلق بالقول فيه، كما يقال: أذلق بالحجارة، والله - عزَّ من قائل - يقول: ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ [الكهف:٢٢] فسمى القول عاريًا من العلم: «رجمًا» وكثير ما جاء هذا من عباراتهم.

فلما نزلت سورة النور قال رسول الله ﷺ: «**خذوا عني خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب الرجم**»[1] فجاء أيضًا لفظ «الرجم» على لسان رسول الله ﷺ مجملاً، يحتمل أن يراد به الأذية، ويحتمل القتل بالحجارة، كما جاءت لفظة «العذاب» مجملة في قول الله ﷻ: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ [النور:٨] فبين رسول الله ﷺ سنته فرجم ماعزًا بالحجارة، ورجم اليهوديين والعامرية، وأمر أنيسًا أن يغدو على امرأة الرجل الذي خاصم عبده عسيفه، فإن اعترفت فارجمها.

فكان هذا تبيينًا بالسنة لمجمل ما جاء به القرآن إعلامًا بانقضاء مدة الإرجاء من الله تعالى لهذا الحكم وليس بنسخ، بل هو النسيء، وإنما هو تبيين لمشكل

---

(١) تقدم تخريجه.

وتفسير لمجمل، وهو اسم الرجم والعذاب ما هما، والمدة والسبيل ما هو.

فصل

من حكمة الله جلَّ ذكره أن علَّق العقوبة في هذا الشأن برؤية ما لا يتهيأ في الأغلب، وعدة شهود يعسر إحضارهم على ضيق الوقت وتعذره، أو بمحمل لا يوجد إلى المخرج من طنه سبيل شبهة فيدرأ بها الحد، وأكثر العلماء لا يرجم به - أعني: المجمل - أو بإقرار وندب المتورط وتبيين التوبة إلى الله ﷻ.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠] ولكرم المؤمنين لديه سبَّح نفسه تعالى ذكره عند قذف المؤمنين بسوء أو فاحشة، وجعل من لم يأتِ بأربعة شهداء على تصديق ما زعم من ذلك الرؤية العسر حصولها كاذبًا، وحكم عليه بعقوبة القذف، وألا تُقبل منهم شهادة أبدًا إلا أن تتبين توبتهم من ذلك.

ووصى في ذلك أكثر الوصية جدًا بترك العود، وقال لهم في ذلك جلَّ قوله: ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٦] تعظيمًا لاسمه المؤمن، وتشديدًا لمن جاءت بغير البينة البالغة المبلغ المحدود فيه.

ثم قال جلَّ من قائل: ﴿لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ الله هُمُ الكَاذِبُونَ﴾ [النور:١٣] وكان من حكمة الله جل ثناؤه، ومن فضل الله ورحمته ونزاهة كلامه العلي إعظامه هذا الشأن، فأكثر في إحكام هذا النهي، والإبلاغ في التوبيخ والتوصية أن أنزل هذه الآيات، وشرع هذه الأحكام في هذه القضية في إفكٍ مفترى وقول زور محض، فوسع ذلك كله قوله الحق: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ الله هُمُ الكَاذِبُونَ﴾.

ثم جعل ذلك ﷻ حكمًا لازمًا لما بعدها، وهو العلي الحكيم ما أكرم خطابه وأصدق وأجل شأنه، وأرحمه وأرأفه بعباده سبحانه وله الحمد.

فصل

الزنى مأخوذ من زِنا السهم يزنو ويزني؛ وذلك بأن يضرب وتر القوس في

أعلى فوق السهم، فيضطرب السهم ويخرج بذلك عن مقصده الذي سدد إليه، وفُوِّق نحوه فيقال: سهم زانٍ، وقد مضى تفسيره.

وهادف: وهو الذي يقع في الهدف المجعول عليه الغرض.

وصادف: وهو الذي يمر على يمين الغرض أو شماله.

وغابر: وهو الذي يمر على رأس الغرض، وهو أيضًا الذي يرمي به على غير غرض.

وغالٍ: وهو الصاعد غلوًا في الهواء، الغلوة: رمية السهم في الهواء ﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [المائدة:٧٧].

وصائب: وهو الذي يصيب الغرض، وهو المقرطس أيضًا، فالزاني خارج عن مقصده الذي وجه إليه وجهته من خالص السلم، كالمشرك الخارج عن سبيل الهداية التي فطر الله عليها الخليقة، فالزنى إذًا منه صغير هو هذا المحدث في حال الإسلام، وكبير وهو الشرك بالله ﷻ والكفر به، وكذلك جعل ﷻ كُفْءَ الزاني زانية أو مشركة، وكفء الزانية زانٍ أو مشرك ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٣] يريد: الزنى ونكاح المشركين.

ولما تقدم ذكر من قول رسول الله ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»[1] ولما كان الزنى خروج عن الغرض المقصود به، كان المقصود به خروج باطن الزاني إلى باطن الزانية - أعني: قلبيهما - لأن ذلك منهما محل لإيمان الصغير منه التمني والنظر، والكبير فعل الفرج.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾ وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٢٥)، ومسلم (٥٧)، وأبو داود (٤٦٨٩)، والترمذي (٢٦٢٥) وعبد الرزاق (١٣٦٨٦)، وأحمد (١٠٢٢٠)، وعبد بن حميد (٩١٩) والبيهقي في شعب الإيمان (٥٤٩٧).

وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [النساء: ١٩ - ٢٢].

وحقيقة ما عبَّر عنه قول الله ﷻ في المباح، وقد ذكر معاشرة الزوجين التوصية بالمناصفة والأخذ بالفضل: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ...﴾ [النساء:٢٠] إلى قوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾[1] [النساء:٢١] فالميثاق هو ما اجتمعا عليه بكلمة الله وأمانته وسنة رسوله

---

(١) الآية فيها مسائل: الأولى: إنه تعالى في الآية الأولى لما أذن في مضارة الزوجات إذا أتين بفاحشة بين في هذه الآية تحريم المضارة في غير حال الفاحشة، فقال: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُّمُ استبدال زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ روي أن الرجل منهم إذا مال إلى التزوج بامرأة أخرى رمى زوجة نفسه بالفاحشة حتى يلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها ليصرفه إلى تزوج المرأة التي يريدها، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُّمُ استبدال زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ...﴾ والقنطار المال العظيم، وقد مرَّ تفسيره في قوله تعالى: ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ [آل عمران:١٤] المسألة الثانية: قالوا: الآية تدل على جواز المغالاة في المهر، روي أن عمر ﷺ قال على المنبر: ألا لا تغالوا في مهور نسائكم، فقامت امرأة فقالت: يا ابن الخطاب الله يعطينا وأنت تمنع وتلت هذه الآية، فقال عمر: كل الناس أفقه من عمر، ورجع عن كراهة المغالاة. وعندي أن الآية لا دلالة فيها على جواز المغالاة؛ لأن قوله: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾ لا يدل على جواز إيتاء القنطار كما أن قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢] لا يدل على حصول الآلهة، والحاصل أنه لا يلزم من جعل الشيء شرطًا لشيء آخر كون ذلك الشرط في نفسه جائز الوقوع، وقال ﷺ: «من قتل له قتيل فأهله بين خيرتين» ولم يلزم منه جواز القتل، وقد يقول الرجل: لو كان الإله جسمًا لكان محدثًا، وهذا حق، ولا يلزم منه أن قولنا: الإله جسم حق. المسألة الثالثة: هذه الآية يدخل فيها ما اذا آتاها مهرها وما إذا لم يؤتها؛ وذلك لأنه أوقع العقد على ذلك الصداق في حكم الله، فلا فرق فيه بين ما اذا آتاها الصداق حسًّا، وبين ما إذا لم يؤتها المسألة الرابعة: احتج أبو بكر الرازي بهذه الآية على أن الخلوة الصحيحة تقرر المهر، قال: وذلك لأن الله تعالى منع الزوج من أن يأخذ منها شيئًا من المهر، وهذا المنع مطلق ترك العمل به قبل الخلوة، فوجب أن يبقى معمولاً به بعد الخلوة، قال: ولا يجوز أن يقال: إنه مخصوص بقوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة:٢٣٧] وذلك لأن الصحابة اختلفوا في تفسير المسيس، فقال علي وعمر: المراد من المسيس الخلوة، وقال عبدالله: هو الجماع، واذا صار مختلفًا فيه امتنع جعله مخصصًا لعموم هذه الآية. والجواب: إن هذه الآية المذكورة ههنا

=

ﷺ، والإفضاء خروج الباطن حين انتهاء الوقاع.

وعبَّر عن هذا بعض القائلين في قوله:

كأن فؤادي ليس يشفي غليله سوى أن يرى الزوجين يمتزجان

وقال آخر:

كأنما حوى بدَنانا روح جسم مركب

ولولا أن الله ﷻ برأ الذوات وأخذ عليها الميثاق وأقررها فأقرت، ثم أوجدها على هداية الإسلام التي هي الفطرة، ثم سددها إلى الإيمان به وبما عنده، فعَنَدت هذه عن سبيل ما سُددت إليه؛ أعني: البواطن الزواني.

قال رسول الله ﷺ معبرًا عن حقيقة هذه الحال بأمة محمد: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا، يا أمة محمد لا أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته**»[1] يعظهم ﷺ في إيمانهم ويعلمهم أن المنجي بهم من عذاب الله جلَّ ذكره مع إيمانهم العمل بطاعة الله ﷻ واجتناب مناهيه.

وكما أحب الله جلَّ ذكره الذاكرين له على المشاهدة والحضور حال الذكر وأثنى عليهم، وجعل الدعاء هو العبادة؛ لقربه من المناجاة وتكليم المكافحة، وأعلم

=

مختصة بما بعد الجماع بدليل قوله تعالى: ﴿**وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ**﴾ وإفضاء بعضهم إلى البعض هو الجماع على قول أكثر المفسرين، وسنقيم الدلائل على صحة ذلك. المسألة الخامسة: اعلم أن سوء العشرة أما أن يكون من قبل الزوج، وإما أن يكون من قبل الزوجة، فإن كان من قبل الزوج كره له أنه يأخذ شيئًا من مهرها؛ لأن قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ أَرَدْتُمُ** استبدال **زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا**﴾ صريح في أن النشوز إذا كان من قبله، فإنه يكون منهيًا عن أن يأخذ من مهرها شيئًا، ثم إن وقعت المخالعة ملك الزوج بدل الخلع، كما أن البيع وقت النداء منهي عنه، ثم إنه يفيد الملك وإذا كان النشوز من قبل المرأة، فههنا يحل أخذ بدل الخلع؛ لقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ**﴾ [النساء:١٩]. [تفسير الرازي (٥/١٢٠ - ١٢١)].

(١) أخرجه مالك (٤٤٤)، وأحمد (٢٥٣٥١)، والبخاري (٩٩٧)، ومسلم (٩٠١)، وأبو داود (١١٨٠)، وليس فيه موضع الشاهد. والنسائي (١٤٧٤) وابن ماجة (١٢٦٣)، وابن الجارود في المنتقى (٢٤٩)، وابن خزيمة في صحيحه (١٣٨٧).

بإجابة المضطر وإعانة اللهفان بخلوص البواطن عندما تعرض من تلك الأحوال من الشوائب، وتوجيهها بحقيقة التوجه إلى الله جلَّ ذكره فبحسب ذلك يكون الذم على خروجه عن المقصد الذي خُلق له وسُدد نحوه إلى سواه بمحظور لم يتجه له، ولم يأذن له فيه بل نهاه عنه وأوعده عليه.

ولأنه خلق ﷻ عباده؛ ليثبت بعضهم من بعض وقدر ذلك، ورضيه منهم أباح ذلك لهم، لكن بكلمة الله وسنة رسوله، وبميثاق يأخذه بعضهم على بعض في تعيين الصداق، أو بملك يمين أقام ﷻ ذلك فيما بينهم في هذه مقام الزكاة للمزكيات، وتسميته عند المأكولات والتطهير للصلوات، وتقديم النيات بالإخلاص حين توجه المعاملات ﴿وَلَوْلا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ الله يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النور:٢١].

ولما هو - أعني: الزنى - عليه من القبح والظلم والبعد عن رضاه، وعن الصفات الحسنى أغلظ عليه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه في العقوبة التي لا يشبهها عقوبة المشرك الذي هو الزاني الأكبر، كما يفعل الرجل الحليم يؤدب ابنه على ما لا يؤدب عليه عبده، من الأخذ بمحاسن الأخلاق والأخذ به إلى نوافل البر وأنواع الصالحات، ويشد عليه الأدب، ويبالغ في تحذيره، وتهديده في ذلك تشديدًا لعباده، وإعلام منه بكبير من إثم وفاحشة.

أوسعنا في هذا القول تبيينًا للموعظة؛ لعظمها من خطبها، وقربها من خطرة النفوس ومجالس الأنس، فإنه قد ينافس النفوس مع يسير الغفلة بما فيها، أباح الله لها من يسببها، وللزوم الفتنة وعموم البلوى بها، وتزيين العدو إياها وأنها أشهى مصائده، والنفوس أسرع شيء إلى إجابته وإلى هذا، فإن الله هو الصبور الحليم ﷻ على تصديق ذلك، وإيجاب الحد فيه بتعيين يعسر، أو بإقرار من المتورط وهو غريب الوجود، وأوعد مع ذلك بإشارات من الشرع، وإيماء بما تعطيه المشاهدة منه بالستر والأمر بمعاجلة التوبة، وإن ذلك أولاً من إبذال الوجه بالإقرار والاستهداف بالنفس، وأن الفرار إلى الله جلَّ ذكره ومقابلة ذلك السوء بصالح العمل أولاً بذلك، وهو أعلم.

قال الله جلَّ ذكره: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾

[النور:١٠] حذف ها هنا - والله أعلم - العاجل الكاذب بالعقوبة، لكنه أبقى منتظرًا به.

وقال أيضًا: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ الله رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٢٠] حذف هنا - وهو أعلم - معنى هذا، فجعل الحد بعلامات، وهي أقرب وأظهر، ويعاجلكم بالعقوبات حين المواقعة، أو ما يكون في معنى هذا لقوله جلَّ قوله: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ....﴾ [النحل:٤٥].

قول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى الله لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٧] التوبة هي الرجعة من العبد إلى ما كان عليه من أصل إيمانه، وتوابع إسلامه بلواحقه وشروطه كلها، وكل من عمل سوءًا فبجهالة عمله؛ إذ لم يراقب الرقيب الأعلى ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، ولم يخفْ مقامه ولم يوقر مشاهدته، وكل من تاب قبل الموت وأناب إلى الله ﷻ قبل الفوت، فمن قريب تائب، إنما البعيد من التوبة الذي فاته أوانها بما قطع به عن قبولها منه بالموت وحضور أعلام الآخرة.

وقد حصل الإجماع بما أوجبه الشواهد الواردة بالشرع أن ظهور أعلام الآخرة علامة لرد التوبة من موحد ملي أو كافر شقي.

قال الله عزَّ من قائل: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِالله وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ الله الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ [غافر:٨٤ - ٨٥].

وقال جلَّ قوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ المَلائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان:٢٢] أي: ممنوع قبول التوبة، والرجعة إلى الدنيا بالإقالة من الموت والاستدراك لما فات.

سرد على ذلك التوصية بالنساء يمسكن بالمعروف؛ ليورثن أو يعضلن على النكاح، فيكلفن ويؤذين حتى يفتدين، وحرم ذلك منهن على الرجال إلا لمن يأتين بفاحشة مبينة، وسيأتي ذكر هذا فيما بعد - إن شاء الله تعالى - عند ذكر الحكمين.

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٣) وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۖ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ۚ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤) ﴾ [النساء: ٢٣ - ٢٤].

قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً...﴾ [النساء:٢٢] إلى قوله: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٢٣].

قوله - جلَّ قوله - هنا في الموضعين: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ على أي وجه يتخرج لا سيما قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ إن وجهنا ذلك إلى ما قد سلف في الجاهلية إنهم كانوا ينكحوهن، وما بلغنا ذلك من وجه صحيح إن ذلك كان شائعًا عنهم، فاستثناؤه لأي مغني إن كان ذلك قد سلف منهم، فالنهي يتناوله كما يتناول غيره من المنهيات كالشرك والزنى وشرب الخمر وغير ذلك، ولا يصح في خطاب أن يقال: ولا تشركوا بالله شيئًا إلا ما قد سلف، ولا تقربوا الزنى ولا تأكلوا الربا إلا ما قد سلف.

وكذلك قوله جلَّ قوله: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ﴾ يريد ﷻ: ما قد سلف من نكاح الأختين بصداق أو ملك يمين فيحرمها وينكح الأخرى، أو يكون ما قاله عثمان بن عفان ﷺ أحلتهما آية وحرمتهما آية فتوقف فيها.

وقال غيره: ما أحب أن أخبرهما فتورع أن يخبرهما بوطء إن كان قد وطئ أحدهما، فلا يجب أن يطأ الأخرى وإن حرم الأولى.

وعلى القول بالتحقيق فليس من نكح امرأة وطلقها، أو ماتت فنكح أختها بجامع بينهما، والفرق بينهما أن يكونا معًا في عصمته كما نهى عن الخليطين وفسره؛ فقال: ولا ينبذ التمر والبسر جميعًا ولا الزبيب والتمر جميعًا، ولا تجمعوا بينهما، فمن أحب فلينبذ هذا ناحية وهذا ناحية، فلم يجعل الجمع إلا ما كان موجودين معًا، فجاء على هذا قوله: «إلا ما قد سلف» لا موضع له من المعنى يحسن توجيهه إليه كالأول.

وقال في هذا: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ والمعهود من هذا أن ذكر المغفرة لا يأتي إلا بعد إتيان ذنب، ولم يجعل في النكاح ذنبًا فيما علمناه، والله أعلم.

تنبيه:

انتظام معنى قوله - جلَّ قوله - على مفهوم سر الخطاب والله أعلم: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ بقوله الحق: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء:١٧] إلا ما قد سلف، من قوله جل قوله في سورة آل عمران.

ثم ينتظم قوله: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٧] كذلك بنظام قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ الثاني بقوله وهو أعلم: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ [النساء:١٨] إلا ما قد سلف.

ثم ينتظم ذلك بقوله جلَّ قوله: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء:١٨] قطعًا على قوله جلَّ قوله: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ والمشار إليه بقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ الذي في سورة آل عمران.

قوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ...﴾ [آل عمران:٨٦ - ٨٧].

إلى قوله جلَّ قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ [آل عمران:٨٩ - ٩٠] فمعناه إلا ما قد سلف من حكمي ومشيئتي، فمن كان هذا شأنه فإني لا أتوب عليه، وإن تاب لا أقبل توبته.

كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ [آل عمران:٩٠] فهم لا يرشدون إلى التوبة، وما عرض بها لهم لم يتب الله عليهم من تاب من حيث هو، ولم يتب الله عليه لم يتم له توبة؛ إذ الله ﷻ هو الأول في كل شيء والآخر والظاهر فيه والباطن، فيضلون على التوبة؛ فلذلك قال جل قوله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ لأن الله لم يتب عليهم، فلم يحصل لهم توبة ولا تحققت.

ألا ترى أن نواصي العباد هو الآخذ بها؛ **فمن العباد**: من يموت على بعد من التوبة لا يراها ولا يسمع بها ولا يهم بها.

ومنهم: من تمر به على قرب منها فيبصرها عن جنب، فربما اشتهاها ويحال بينه وبينها.

ومنهم: من يمر عليها فربما أحبها وأخذ منها، فمرَّ به وأُسلي عنها فضلت التوبة عنه، فهذا وجه توبة من يتوب فلا تتقبل توبته.

وقد جاء الوعد الصادق عنه ﷻ أن التوبة مقبولة لكن عمن شاء، ألا تسمعه يقول جل قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى:٢٥].

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة:١٠٤] فأخبر نصًّا صريحًا أنه يقبل توبة عباده الخصوص، أضافهم إلى نفسه لحبهم وإثرتهم عنده، وبقي الآخرون على حكم الوقف، فبين الحكم فيهم وفي هذه الآيات من آل عمران.

فصل

ومرجوع قوله جل قوله: «إلا ما قد سلف» من مشيئي بهم، وتقدم من حكمي فيهم كقوله جلَّ قوله: «**هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، وهؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»[1].

---

(١) تقدم تخريجه.

وقوله جلَّ قوله: «**هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي**»[(١)].

مثال ذلك: رجل عاش مؤمنًا، ورجل عاش كافرًا ومات مؤمنًا، فهذان قد شملهما قوله جل قوله: «**هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون**» كما شملهما قوله جل قوله: « **هؤلاء للجنة ولا أبالي**» أي ذنوب تكون منهم.

ورجل عاش كافرًا ومات كافرًا، ورجل عاش مؤمنًا ومات كافرًا، فهذان شملهما قوله: «**هؤلاء للنار ولا أبالي**» بإيمان من آمن ولم يمت على إيمانه، ولا بعمل كافر وإن بلغ به ما بلغ مما عسى أن يبلغه حبطت أعمالهم، وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورًا.

وقال الله ﷻ في شأن الفريقين: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ...**﴾ [المؤمنون:٥٧ - ٥٩] إلى قوله جل قوله: ﴿**بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا**﴾ [المؤمنون:٦٣] يريد: الفريق الخاسر.

ثم قال جل قوله: ﴿**وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ**﴾ [المؤمنون: ٦٣] فهذا معنى ما توجه إليه معنى قوله الحق جلَّ قوله: ﴿**إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ**﴾ مني؛ يعني: من ردِّ هؤلاء وقبول هؤلاء، فتقدير الأول منها على ما انتظم عليه بمعناه: «ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إنه كان فاحشة ومقتًا وساء سبيلاً».

وتقديره في موضعه على معناه: ﴿**إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ**﴾ إلا ما قد سلف ﴿**وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾ [النساء:١٧] **عليمًا** بما يكون من مآل أمرهم إليه، حكيم في حكمه وإنفاذ مشيئته على علمه السابق الأزلي.

وتقدير الثاني: ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ...**﴾ إلى قوله ﴿**وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**﴾[(٢)] [النساء:٢٣ - ٢٤].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قال القاضي أبو بكر بن العربي: فيها مسائل: **المسألة الأولى**: اعلم أن التحريم أو التحليل لا

=

يتعلق بالأعيان، وإنما يتعلق بأفعال المكلفين من حركة وسكون غير أن الأعيان لما كانت محلاً للأفعال، تعلق ذلك بهما على سبيل المجاز. قال ابن عباس: حرم الله تعالى في هذه الآية سبعًا من النسب، وسبعًا من الصهر، فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ وثبت أن رسول الله ﷺ قال: «يحرم من الرضاع ما يحرم من الولادة». وثبت أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحرم المصة ولا المصتان، ولا الإملاجة ولا الإملاجتان». وقالت عائشة كان فيما قيل من القرآن: عشر رضعات محرمات، نسخ ذلك خمس رضعات، فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأن من القرآن، فقال به الشافعي، وأخذ مالك وأبو حنيفة بمطلق القرآن وقالا: إن المصة تحرم، ولأنه أحوط للفروج، وأخذ بعموم الرضاع. المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ يقتضي تحريم الرضاع في أي وقت وقع، فيتناول رضاع الكبير؛ وبه تمسكت عائشة، واستدلت بأن سهلة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، كنا نرى سالمًا ولدًا، وكان يأوي معي ومع أبي حذيفة في بيت واحد، وقد أنزل الله ما علمت؛ فقال لها ﷺ: «أرضعيه خمس رضعات تحرمي عليه». فأرضعته فكان لها ولدًا. وجوابه: إن ذلك رخصة منه ﷺ لسهلة، وأيضا فإن الله تعالى قد بين وقت الرضاع فقال: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ فبين زمانه الكامل، فتعين أن ما زاد على ذلك لا يعتبر. وأيضًا ففي الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء». وأما لبن الفحل، فإن يحرم لقوله ﷺ لعائشة في عمها من الرضاعة أفلح «إنه عمك فليسلم عليك». وبذلك قال الجمهور؛ وقال ابن المسيب والنخعي: لبن الفحل لا يحرم، لأن الله تعالى قال: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ والفحل ليس بأم. المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ روي عن علي وجابر أن العقد على البنت لا يحرم الأم حتى يدخل بها، كما العكس. وقال الجمهور: العقد على البنت يحرم الأم، ولا تحرم البنت حتى يدخل بالأم.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ﴾ واحدة ربيبة فعيلة بمعنى مفعولة. مأخوذة من ربها يربها، إذا تولى أمرها؛ وذكر الحجر ليس شرطًا، فإنه خرج مخرج الغالب. وقوله: ﴿اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ الدخول هنا الجماع، قاله الطبري والشافعي، وقال مالك وأبو حنيفة: المراد به مبادئ الوطء: من لمس وتقبيل، وقال عطاء وعبد الملك بن مروان: هو النظر بلذة، وقد اتفقت الأمة على أن الفروج إذا تعارض فيها تحليل وتحريم، فإنه يغلب التحريم؛ واختلف في الأموال أيهما يغلب فيها؟ والحليلة فعيلة بمعنى محلة. قالوا: والأبناء ثلاثة: ابن صلب، وابن رضاع، وابن تبن؛ وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» المسألة الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ﴾ تعلق أبو حنيفة بهذا، فقال: لا يجوز نكاح الأخت في عدة أختها، ولا نكاح خامسة في عدة رابعة، فإن ذلك جمع في أسباب الزوجية؛ ألا ترى أن العدة من أسبابها، فكأنها في حكم الزوجة، فيكون جامعًا بينهما في السبب، وإن لم يقع الجماع في الحل. وجوابه: إن العدة براءة الرحم لسبب من أسباب الزوجية، وقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ عند الجاهلية في نكاح أزواج الآباء؛ أما نكاح

=

وتقديره في موضعه على سابق معناه: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ [النساء:١٨] أي: الساعة إلا ما قد سلف؛ أي: من حكمي فيهم ومشيئتي منهم إن الله كان غفورًا رحيمًا.

﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾[النساء:١٨] عطفًا على قوله جل قوله: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ حضور الموت على معنيين بمعنى المقاربة كالمرض والخوف منه، كما قال عزَّ من قائل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الوَصِيَّةُ﴾ [البقرة:١٨٠].

وقد يكون الحضور بمعنى مشاهدة أعلام الآخرة، وهذه حالة تشغل عن الوصية وما سواها.

وقد يكون القرب المراد هنا ما جاء من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ...﴾ إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا﴾ [آل عمران:١٣٥] فهم إذا فعلوا فاحشة، وتكلموا بسيئة تداركوا ذلك بالتوبة والاستغفار.

وقد جاء في هؤلاء: «إن ملك اليمين يقول لملك الشمال صلى الله عليهما وعلى جميع الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين متى كان من صاحبهما مكروهًا: أنظره ساعة إلى ثلاث» وقد جاء: «تسع ساعات»[1] وذلك وقت رفع الصحف، فمثل هؤلاء هم الذين يتوبون من قريب قد عهدا ملكاه ذلك منه، وكانت توبة الله عليه معهودة، فيقع على ذلك قوله: ﴿فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء:١٧] إلا ما قد سلف؛ أي: من فعلهم بالإهمال لأنفسهم والتفريط في ترك توبتهم، ثم حكم الله من وراء ذلك معهود.

قوله ﷻ: ﴿كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:٢٤] نصب على الإغراء هذا الخطاب كما جاء، وعلى الوجه الذي نظمه ﷻ هو الحق، فتربص بفهمك عليه ففيه حكم الله خفي على الأكثر فتطلبه، فقد أمرك بذلك أيها التالي كتابه الطالب في كتابه.

الأختين، فقد كان شرعًا لمن قبلنا ثم نسخ عندنا.

(١) لم أقف عليه.

ألا تسمعه يصرح بالتنبيه في قوله جلَّ قوله: ﴿كِتَابَ الله عَلَيْكُمْ﴾ ولو كان ظاهر الخطاب هو المراد لم يكن هكذا بل قدم وأخَّر وأمر ونهي ونصح، وأعلم بالحق الذي إليه المصير إن شاء الله والحمد لله رب العالمين.

فدونك وإياه وهو أمر عزم بالتزام أحكام القرآن، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وتطلب معانيه وتعلم أنواع خطابه، وقد تقدم ذوق من جمع متفرقه في أثناء الخطاب من توصيل وتفصيل، ولذلك وهو أعلم كتاب الله عليكم إغراء بالتفهم عنه.

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النساء: ٢٥ - ٢٦].

أتبع ذلك ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ﴾ فنصَّ ﷻ على المحرمات، وأطلق التحليل على من سواهن ﴿أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِنْ بَعْدِ الفَرِيضَةِ إِنَّ الله كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا...﴾[1] [النساء:٢٤] إلى قوله جل قوله: ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ

(١) قال ابن عباس ومجاهد والحسن وابن زيد، وغيرهم: المعنى: فإذا استمتعتم بالزوجة ووقع الوطء ولو مرة، فقد وجب إعطاء الأجر وهو المهر، ولفظة «ما» تدل على أن يسيرالوطء يوجب إيتاء الأجر. وقال الزمخشري: فما استمتعتم به من المنكوحات من جماع أو خلوة صحيحة أو عقد عليهن، فآتوهن أجورهن عليه انتهى. وأدرج في الاستمتاع الخلوة الصحيحة على مذهب أبي حنيفة؛ إذ هو مذهبه، وقد فسر ابن عباس وغيره الاستمتاع هنا بالوطء؛ لأن إيتاء الأجر كاملاً لا يترتب إلا عليه، وذلك على مذهبه ومذهب من يرى ذلك. [تفسير البحر المحيط (٩١/٤)].

أَخْدَانٍ﴾[1] [النساء:٢٥] فذكر جلَّ ذكره كيف يُبتغى النكاح فيمن أحل من الحرائر والإماء، وشرط العفاف والتعفف في المنكحات والناكحين.

ثم ذكر جلَّ ذكره حد الأَمَة إذا حُصنت، وأنه نصف حد المحصنة الحرة، وقد كان تقدم أن حد الحرة جلد مائة أو الرجم للمحصنة، ولما لم يتبعض الرجم كان حدها نصف المائة جلدة.

فصل

هذا نصٌ على تحليل نكاح المتعة في القرآن العزيز أباحه رسول الله ﷺ حال الضرورة مرتين في غزة خيبر، وفي غزة عام الفتح، ثم نهى عنه حال السعة، وأبقى خطه في القرآن إرصادًا لمثلها، فليس إذًا بنسخ إنما هو بمثابة الأمر بالصبر على إذاء المشركين، والكف عنهم في حال الضعف، ثم الأمر بالقتال والانتصار منهم إلى مثل ذلك، فافهم.

قوله ﷻ: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: عن نكاح المتعة حال السعة ﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النساء:٢٥] لمن فعل ذلك، وربما قصر ذلك من ذكر المغفرة على حال الضرورة.

يقول الله جلَّ ذكره: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ فأمر ﷻ أن ينكح المؤمن المؤمنة من الإماء نكاحًا تامًا أو نكاح متعة بقوله: ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾.

وأخبر ﷻ أن الإحصان يقع بنكاح المتعة كما يقع بنكاح المعهود، ثم قال جلَّ قوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء:٢٥] أي: من نكاح المتعة لمن خشي العنت منكم، وأن تصبروا عن ذلك خير لكم؛ أي: لم

---

(١) ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ أي: ولا متسترات بالزنا مع أخدانهن، وهذا تقسيم الواقع؛ لأن الزانية إما أن تكون لا ترد يد لامس، وإما أن تقتصر على واحد، وهكذا كان زنا الجاهلية. قال ابن عباس: كان قوم يحرمون ما ظهر من الزنا ويستحلون ما خفي منه، والخدن: هو الصديق للمرأة يزني بها سرًا، فنهى الله تعالى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن. [البحر المحيط (٩٨/٤)].

تخافوا الخوف كله من مواقعة محذور الزنى.

كان نكاح الجاهلية على أربعة أضرب؛ منها هذا النكاح الذي أقره الإسلام، ثم أحكمه على كلمة الله وسنة رسوله، فعلى هذا يقع قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء:٢٢] [......][1] في قوله: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ﴾ [النساء:٢٣].

ثم استثنى من ذلك قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: من نكاحهم الفاسد كنكاح المتحابين وهم المتعاشقين ذوي الأخذان، وكنكاحهم الذي هو الزنى كيفما يمكن، وعلى أي وجه وجدوه.

ومن ذلك الرايات على أبوابهن من جاء دخل، فقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ من نكاح المتقدم الذي هو الزنى كذوات الأخذان والمساحقين والمساحقات، وهو إراقة الماء فحسب لا طلبًا لعقب، ولا إحصان مرتبط بكلمة الله وسنة رسوله بقوله - والله أعلم - بما نزل: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ من ذلك فلا حرمة له ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [النساء:٢٢] يعني: النكاح، وهو أيضًا ممقوت نكاح الرجل امرأة أبيه.

وكذلك قوله: النهي عن الجمع بين الأختين إلا ما قد سلف؛ يعني: من نكاحهم ذلك، فإنه لا حرمة له، وأن الإسلام قد هدمه إن الله كان غفورًا لذنوبكم تلك بالإسلام والتوبة، رحيم بكم في هدايته إياكم وإدخالكم في رحمته ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم﴾ من النكاح الصحيح إلا ما قد سلف لكم في جاهليتكم من سائر النكاح الذي لغير الرشدة، فذلك ليس بنكاح شرعي، فيتناوله عرف نكاح الشرع بل كان الفاحشة والمقت، وساء ذلك سبيلاً كما قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:٣٢].

وسئل ابن عباس ﷺ عن المتعة، فقال: والله لقد فعلت في عهد إمام المتقين، فقيل له: أسفاح هي أم نكاح؟ فقال: لا سفاح ولا نكاح هي المتعة كما قال الله جلَّ ذكره، فقيل له: هل لها من عدة؟ فقال: تفي عدتها حيضة، فقيل له: هل يتوارثان؟

---

(١) ما بين [ ] كشط في (ق)، وطمس في (ف).

قال: لا.

وروى الحسن أن رسول الله ﷺ لما قدم من عمرته تزين نساء أهل مكة، فشكى ذلك إليه أصحابه، فقال ﷺ: «**تمتعوا منهن واجعلوا الأجل بينكم وبينهن ثلاثًا، فما أحسب رجل يستمكن بمرأة ثلاثًا إلا ولاها الدبر**»[1] إنما أمرهم أن يجعلوا الأجل بينهم وبينهن إلى ثلاث؛ لأن الأجل الذي جعلت له قريش في المكث في مكة ثلاثة أيام، وإلا فقد قال الله جلَّ ذكره: ﴿**وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِنْ بَعْدِ الفَرِيضَةِ**﴾ [النساء: ٢٤].

وذكر ابن جريج عن عطاء أنه قال: سمعت ابن عباس يقول: «يرحم الله عمر ما كانت المتعة إلا رحمة من الله يرحم بها أمة محمد ﷺ، ولولا نهيه عنها ما احتاجوا إلى الزنى إلا قليلاً».

قال عطاء: وهي التي في سورة النساء ﴿**وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ**﴾ [النساء: ٢٤] إلا كذا من الأجل على كذا وكذا من صداق. هنا انتهى قول عطاء.

﴿**فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً**﴾ أي: شيئًا مفروضًا ﴿**وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِنْ بَعْدِ الفَرِيضَةِ**﴾ [النساء: ٢٤] أي: من أراد أكثر من المتفق عليه من أجلٍ وصداقٍ مما تراضيا به الزوجان مباح لهم.

وأتى ابن عباس ﷺ أن يتبدل عن فتياه بتحليلها، ولقد قال بعض الشعراء:

أقول وقد طال الثواء بنا ... يا صاح هل لك في فتيا ابن عباس

في طفلةٍ بتلةٍ خودٍ منعمة ... تكون مثواك حتى يرجع الناس

إنما كان رسول الله ﷺ حدَّ لهم أن يكون نكاحهم لهن ثلاثة أيام؛ لما كان أجل البقاء له ولأصحابه في مكة ثلاثة أيام، وكذلك انعقد بينهم الكتاب في يوم الحديبية، ولذلك قال الله ﷻ: ﴿**وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِنْ بَعْدِ الفَرِيضَةِ**﴾ [النساء: ٢٤].

ثم أكثر العلماء في تحريمها واجتنابها والتشريد عنها، والقول بأنها منسوخة

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٨٤٤).

غير صحيح يدل على ذلك إثبات خطها في المصحف، وإنما هو حكم مرصد لحالٍ ما على ما تقدم.

أتبع ذلك قوله عزَّ من قائل: ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾[1] أخبر الله جلَّ ذكره أنه مما بينه لنا، وهدانا إليه من سنن من كان قبلنا، وأن من سنتهم نكاح المتعة، وأنها توبة تاب الله بها على هذه الأمة، ورحمة رحمها بها كما ذكر ابن عباس ﷺ ختم الآية بقوله: ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء:٢٦].

---

(١) قال تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الذين مِن قَبْلِكُمْ﴾ فيه قولان: **أحدهما**: إن هذا دليل على أن كل ما بين تحريمه لنا وتحليله لنا من النساء في الآيات المتقدمة، فقد كان الحكم أيضا كذلك في جميع الشرائع والمِلَل، **والثاني**: إنه ليس المراد ذلك بل المراد أنه تعالى يهديكم سُنَنَ الذين من قبلكم في بيان ما لكم فيه من المصلحة كما بينه لهم، فإن الشرائع والتكاليف وإن كانت مختلفة في نفسها إلا أنها متفقة في باب المصالح، **وفيه قول ثالث**: وهو أن المعنى: إنه يهديكم سنن الذين من قبلكم من أهل الحق لتجتنبوا الباطل وتتبعوا الحق. ثم قال تعالى: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ قال القاضي: معناه: إنه تعالى كما أراد منا نفس الطاعة، فلا جرم بينها وأزال الشبهة عنها، كذلك وقع التقصير والتفريط منا، فيريد أن يتوب علينا؛ لأن المكلف قد يطيع فيستحق الثواب، وقد يعصي فيحتاج إلى التلافي بالتوبة. واعلم أن في الآية إشكالاً: وهو أن الحق إما أن يكون ما يقول أهل السنة من أن فعل العبد مخلوق لله تعالى، وإما أن يكون الحق ما تقوله المعتزلة من أن فعل العبد ليس مخلوقًا لله تعالى، والآية مشكلة على كلا القولين؛ أما على القول الأول: فلأن على هذا القول كل ما يريده الله تعالى فإنه يحصل، فإذا أراد أن يتوب علينا وجب أن يحصل التوبة لكلنا، ومعلوم أنه ليس كذلك، وأما على القول الثاني فهو تعالى يريد منا أن نتوب باختيارنا وفعلنا، وقوله: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ظاهره مشعر بأنه تعالى هو الذي يخلق التوبة فينا ويحصل لنا هذه التوبة، فهذه الآية مشكلة على كلا القولين. والجواب أن نقول: إن قوله: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ صريح في أنه تعالى هو الذي يفعل التوبة فينا، والعقل أيضا مؤكد له؛ لأن التوبة عبارة عن الندم في الماضي، والعزم على عدم العَوْد في المستقبل، والندم والعزم من باب الإرادات والإرادة لا يمكن إرادتها وإلا لزم التسلسل، فإذن الإرادة يمتنع أن تكون فعل الانسان، فعلمنا أن هذا الندم وهذا العزم لا يحصلان إلا بتخليق الله تعالى، فصار هذا البرهان العقلي دالاً على صحة ما أشعر به ظاهر القرآن، وهو أنه تعالى هو الذي يتوب علينا، فأما قوله: لو تاب علينا لحصلت هذه التوبة، فنقول: قوله: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ خطاب مع الأمة، وقد تاب عليهم في نكاح الأمهات والبنات وسائر المنهيات المذكورة في هذه الآيات، وحصلت هذه التوبة لهم فزال الإشكال، والله أعلم. [تفسير الرازي (١٧١/٥)].

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾[النساء: ٢٧ - ٣١].

ثم قال - جلَّ قوله - وقوله الحق: ﴿وَاللهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا﴾ [النساء:٢٧] والميل العظيم: هو الزنى.

﴿يُرِيدُ اللهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ في الرخصة في ذلك ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨].

ألا ترى إلى رسول الله ﷺ لما شكا إليه أصحابه تزيين نساء مكة، كيف أمرهم بالتمتع منهن؛ لعلمه ﷺ بضعف الإنسان، وعظم خطر الزنى، وغلبة النفس وترغيم الشيطان، ومكابدة الشهوة وهو العنت؛ لذلك قال - جلَّ قوله - وهو أعلم: ﴿يُرِيدُ اللهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨] هذا هو الحق لكن الله غالب على أمره، وما أراد كونه فهو كائن لا محالة.

ثم بما بعد هذا أيضًا تفسير لقوله جلَّ قوله: ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ...﴾ [النساء:٢٦] ثم ما بعدها إلى آخر السورة يعد العادَّة ما يوافي المائة شريعة، أو يزيد على ذلك من فريضة وفضيلة، من مأمور به ومنهي عنه ومكروه ومندوب إليه.

قوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩] ذكر في هذه الآية إنها منسوخة، وما نعلم أن الله - جلَّ ثناؤه - أباح لنا قبل هذه الآية، ولا بعدها أكل أموالنا بالباطل، ولا حرم علينا التجارة على تراضٍ منا، وترك سنة الرسول ﷺ فيها، ولا أباح لنا أن نقتل أنفسنا، ولم يذكر الذي نسبها إلى أنها منسوخة ما الذي نسخها.

ولا أراه حمله على ذلك إلا دخول الاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً﴾ فالله أعلم بأن بعض المنتسبين إلى العلم قد عدد في الناسخ والمنسوخ المستثنى والمستثنى منه، وهو قول مرغوب عنه يدل على إغفال قائله، وقلة خبرته بأنواع الخطاب.

حرم الله - جلَّ ثناؤه - على عباده أكل أموالهم بالباطل، بيَّن ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «**لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه**»(١).

وحرم أيضًا أن يقتل أحد نفسه، ويقتل بعضهم بعضًا أوعد على ذلك أشد الوعيد، وأعلم أن هذا من كبائر الذنوب بما سرد عليه من قوله جلَّ قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ [النساء:٣١].

ومن كبائر ما نهى عنه: الزنى، ويتعرف كبائر الذنوب من صغائرها من طريقين:

أحدها: مقايسة بعضها من بعض كالشرك مثلاً وهو أكبر من القتل، والزنى أكبر من النظر والغمرة، من هذا التقسم قال رسول الله ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات**» قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: «**الشرك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين والسحر والفرار من الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**»(٢).

وذكر في غير هذه الرواية: «**الربا وأكل مال اليتيم ظلمًا**»(٣) وغير ذلك.

قال ابن عباس ﷺ: هي أقرب إلى السبعين من السبع.

والقسم الثاني: هو العمل بالمعصية مع الإصرار في النفس، وترك الندم عليها والاغتباط بها، وانتظار مثلها وتمني ذلك، وهذا هو الإصرار، فهذا النوع من الإصرار هو أكبر من العمل؛ لأنه عمل القلب وذلك من عمل الجوارح، وهي فعل المعصية من غير إصرار عليها قبل أو بعد، هذا أحد وجهي اللمم، وهو مغفور إن

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٥٢٧)، والبيهقي (١١٣٠٥) وفي الشعب (٥٤٩٢)، والروياني (١٤٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦١٥)، ومسلم (٨٩)، وأبو داود (٢٨٧٤)، والنسائي (٣٦٧١)، وابن حبان (٥٥٦١) المُوبِقات: الذُّنوب المُهلِكات. التولِّي يومَ الزَّحف: الفرار يوم الحرب مع الكفار.

(٣) أخرجه أبو داود (٢٨٧٥)، والبيهقي (٦٥١٤)، والحاكم (١٩٧)، والطبراني (١٠١)، والنسائي (٤٨٥٣)، وابن عساكر (٤٨١/٤٥).

شاء الله ﷻ.

وقد يكون السلام مقاربة المعصية دون إكمالها، وهذا الطريق الأولى الذي هو مقايسة بعض المعاصي ببعض، فالنظرة لا محالة أصغر من الزنى، وإن كان اسم المعصية والزنى يشملهما لكن النظر مع الإصرار أكبر من مواقعة الذنب؛ لأن الذنب يعقبه الندم والاستغفار.

ومن ذلك قول ابن عباس رضي الله عنهما: صغيرة بصغيرة مع إصرار، ولا كبيرة بكبيرة مع استغفار.

فمن أصبح تائبًا من كبائره متبرئًا من صغائره، متبرئًا من بدايات ذنوب لم يصبها من بقايا عوائده وسوء ضراوته، مستغفرًا من جميع ذلك، مستعيذًا بالله من شر نفسه، فهو التائب إن شاء الله تعالى.

ومن اجتنب الكبائر مع إقامة الفرائض غفرت له من صغائره إذا عزبت نفسه عن الإصرار، ولكل مؤمن ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة؛ لأن المؤمن مفتن تواب، والله بفضله وكرمه يحب التوابين ويحب المتطهرين، وهم الذين يصبحون ويمسون تائبين من صغار ذنوبهم وكبائرها، والذين يقيمون الفرائض ويسارعون في الخيرات، وإن كانت لهم ذنوب يأتونها من غير تعمدٍ لها ولا عمل عليها.

فصل

انتظم قوله هذا: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء:٣١] من حيث المعنى بما تقدم من صدر السورة إلى قوله جل قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:٢٤] فإن كل ما ذكره من أول السورة إلى ها هنا في الكبائر أولها ترك التقوى، والتوصية بالنساء واليتامى وأموالهم، والوصايا والوعيد عليها، وذكر الزنى، وتحريم ذوي المحارم إلى قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾.

ثم ذكر المتعة وعاد إلى التوصية بالأموال أن يؤكل بالباطل، أو غير وجه من الوجوه التي يحل بها وقتل النفس، ثم الوعيد على ذلك.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢) وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣) الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤) وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٣٥)﴾ [النساء: ٣٢ - ٣٥].

قوله جلَّ قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ...﴾ [النساء: ٣٢].

سألت أم سلمة - رضي الله عنها - النبي ﷺ قالت: يا رسول الله، يغزو الرجال ولا نغزوا وإنما لنا نصف الميراث، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء:٣٢].

وأنزل الله جلَّ ذكره: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ...﴾ إلى قوله جل قوله: ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٥].

وفي أخرى: سأل النساء رسول الله ﷺ، قلن: يا رسول الله، ذهب الرجال بفضل الجهاد، فقال: «**جهاد إحداكن مهنتها في بيتها**». أو: «**مهنة إحداكن في بيتها تبلغ فضل الجهاد**»[١].

وفي أخرى: «**جهاد إحداكن حُسن التبعل**»[٢].

---

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في الأوسط (٢٩١٤) والبيهقي في الشعب (٨٤٨٣) وأبو يعلى (٣٤١٥) وابن عدي (١٤٣/٣).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١١٩٧)، وابن حبان في الضعفاء (٧٧).

قوله جلَّ قوله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾[١] [النساء:٣٤] انتظم هذا الخطاب بما تقدم من أمر النساء بين أزواجهن، ومجانبة الخروج عليهن، وعده بعض من عنى بتعداد فضائل الرجال على النساء التي يظن بها أنها هي التي عناها بقوله جلَّ قوله: ﴿مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ فزادت على العشرين.

فهذا وإن كان على ما ذكرناه وما شاء الله من ذلك، فالفضل بعد بيد الله يؤتيه من يشاء، وبالضرورة تعلم أن للقائم حقًا على المقام عليه، وللعائل حقًّا على المعول، وإن الرازق أفضل من المرزوق.

وقوله جلَّ قوله: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ﴾ [النساء:٣٤] يريد: عابدات لربهن حافظات لغيب أزواجهن بما أمر الله به من الستر

---

(١) في الآية مسائل: الأولى: القوام؛ اسم لمن يكون مبالغًا في القيام بالأمر، يقال : هذا قيم المرأة وقوامها للذي يقوم بأمرها ويهتم بحفظها. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في بنت محمد بن سلمة وزوجها سعد بن الربيع أحد نقباء الأنصار، فإنه لطمها لطمة فنشزت عن فراشه وذهبت إلى الرسول ﷺ وذكرت هذه الشكاية وأنه لطمها وأن أثر اللطمة باقٍ في وجهها، فقال ﷺ: «اقتصي منه» ثم قال لها: «اصبري حتى أنظر» فنزلت هذه الآية: ﴿الرجال قَوَّامُونَ عَلَى النساء﴾ أي: مسلطون على أدبهن والأخذ فوق أيديهن، فكأنه تعالى جعله أميرًا عليها ونافذ الحكم في حقها، فلما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «أردنا أمرًا وأراد الله أمرًا والذي أراد الله خير» ورفع القصاص، ثم إنه تعالى لما أثبت للرجال سلطنة على النساء. ونفاذ أمر عليهن بين أن ذلك معلل بأمرين؛ أحدهما قوله تعالى: ﴿بِمَا فَضَّلَ الله بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ﴾ واعلم أن فضل الرجل على النساء حاصل من وجوه كثيرة، بعضها صفات حقيقية، وبعضها أحكام شرعية، أما الصفات الحقيقية فاعلم أن الفضائل الحقيقية يرجع حاصلها الى أمرين: إلى العلم والقدرة، ولا شك أن عقول الرجال وعلومهم أكثر، ولا شك أن قدرتهم على الأعمال الشاقة أكمل، فلهذين السببين حصلت الفضيلة للرجال على النساء في العقل والحزم والقوة، وأن منهم الأنبياء والعلماء وفيهم الإمامة الكبرى والصغرى والجهاد والأذان والخطبة والاعتكاف والشهادة في الحدود والقصاص بالاتفاق، والولاية في النكاح والطلاق والرجعة وعدد الأزواج، وإليهم الانتساب وغير ذلك، فكل ذلك يدل على فضل الرجال على النساء. والسبب الثاني لحصول هذه الفضيلة: قوله تعالى: ﴿وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أموالهم﴾ يعني: الرجل أفضل من المرأة؛ لأنه يعطيها المهر وينفق عليها، ثم إنه تعالى قسم النساء قسمين، فوصف الصالحات منهن بأنهن قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله. [تفسير الرازي (١٩٢/٥)].

والعفاف، وحسن الصحبة في حضوره وجميل العشرة في مرافقته، والشكر لعوله إياها، ومجانبة جحود النعمة وكفر ما سبق منه إليها.

قال الله ﷻ يخاطب أزواج النبي رضي الله عنهن: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لله وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ [الأحزاب:٣١].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي المَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ [النساء:٣٤] النشوز: الارتفاع فوق القدر، وارتفاعهن ها هنا ما يردونه من الفضل على الأزواج، والحلول منه في حال العصمة حيث لم يحللهن الله ﷻ، وتلك فاحشة منهن، وخوف النشوز هنا مباشرة أسباب ذلك ومقارنة الحال.

وحيث ذكر الله جلَّ ذكره الفاحشة معرفة بالألف واللام، فهو الزنى كقوله جلَّ قوله: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ﴾ [النساء:١٥].

﴿أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل:٥٤] يريد جلَّ ذكره عمل قوم لوط.

ومتى ذكرها جلَّ ذكره بغير ألف ولام وظاهر ذلك غير الزنى، وإن قرن إليها ﷻ صفة النبيين كقوله جل قوله: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [الأحزاب:٣٠] وهي ها هنا: ما خالف أمر الله ﷻ لهن من ترك الاستقرار في البيوت والأخذ بالتبرج.

كقوله جلَّ قوله: ﴿إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [النساء:١٩] وهي هنا أن يغلب الخوف عليهن، ويدخل في إيجاب إخراجهن خوف الاقتحام عليهن.

وكقوله جلَّ قوله: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [النساء:١٩] يريد - وهو أعلم - نشوز وعصيان لأزواجهن ومشاققة منهن لهم في غير المعروف أمر الله جلَّ ذكره الأزواج بهجر الزوجات، والإعراض عنهن في مقابلة مشاققتهن لهم، والارتفاع إلى غير منازلهن، كما أمرهم بوعظهن وتذكيرهن بالله سبحانه مما أخذه الله عليهن من العهد الأزواج في مقابلة ترك القنوت لربهن والتعبد له، فهم القوامون عليهم دنيا ودينًا.

قوله ﷻ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ [النساء:٣٥] بقوله - جلَّ قوله - وهو أعلم: متى خيف من فراق الزوجين مشقة عليهما أنفسهما بعضهما بعضًا أو أحدهما

الأخرى، ومفارقة ليس يخشى الضياع عليهم أو بعضها، أو ما يكون من نحو هذا ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا﴾ أي: أحد الزوجين ﴿إِصْلاحًا﴾[١] [النساء:٣٥] فقد وعدهما الله أن يوفق بينهما، وليس ذلك بمضمون عن إرادة الحكمين - أعني: الوفاق وحسن العشرة - كما زعم بعض من تكلم في هذا الشأن، فلينظر الحكمان في أمر الزوجين توسطًا بينهما.

وربما آل أمرهما إلى حكم الآية الأخرى قوله جلَّ قوله: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء:١٢٨] يريد ﷻ: الزوجين، وعلى قراءة من قرأ «يصلحا»[٢] يريد: الحَكمين.

---

(١) قوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا﴾ قال ابن عباس: أي الحكمان إذا أرادا الإصلاح، ووفق الله بين الزوجين؛ والأولى أن يكون الحكمان من الأهل كما قال تعالى، فإن فقد ذلك، اختار الإمام حكمين مولين من المسلمين، ويستحب أن يكونا رجلين؛ فإن حكما بالفراق، فهو بائن، لأن كل طلاق ينفذه حاكم فهو بائن، ولأن علته الشقاق؛ فلو كان رجعيًا، لما زال الشقاق ببقاء العصمة فإن أوقعا أكثر من واحدة، نفذ عند ابن القاسم، لأن الحكم يجب إنفاذه. وقال مطرف: تقع واحدة، لأن الحاكم لا يقصد إلا واحدة؛ فيكون الحكمان كذلك، وقياسًا على خيار الأمة تعتق تحت عبد؛ فلو حكم أحدهما بواحدة والآخر بثلاث، لنفذت واحدة وسقط الزائد قاله عبد الملك. وقال ابن حبيب: لا ينفد شيء، لأنهما اختلفا؛ ولو أوقع أحدهما طلقة، والآخر اثنتين، للزمت طلقتان عند ابن القاسم كما سبق وسقط ذلك الزائد على الواحدة عند عبد الملك؛ لأن ذلك كالشاهدين يختلفان في العدد، فإنه ينفذ الأقل؛ فلو شهد أحدهما ببيع والآخر بهبة، فإنه لا ينفذ اتفاقًا للتعارض؛ فلو علم الإمام شقاق الزوجين، لبعث إليهما الحكمين وإن لم يطلبا ذلك منه، لأن ذلك من حقوق الله تعالى؛ قالوا: ويجزئ إرسال الحكم الواحد، لأن الله تعالى حكم في الزنا بأربعة شهداء، ثم أرسل رسول الله ﷺ إلى المرأة الزانية أنيسًا وقال له: «إن اعترفت فارجمها». فلو أرسل الزوجان حكمين لنفذ حكمها، إذ التحكيم عندنا جائز؛ هذا إذا كانا عدلين، فإن لم يكونا عدلين، لنقض الحكم قال عبد الملك. قال القاضي أبو بكر: والصحيح نفوذه، لأنه إن كان توكيلاً، ففعل الوكيل نافذ؛ وإن كان تحكيمًا، فقد قدماهما على أنفسهما. [الأحكام الصغرى ص١٥٦] بتحقيقنا.

(٢) قرأ الكوفيون (يصلحا) من أصلح يصلح وقرأ الباقون بهذا اللفظ المنظوم وأصله يتصالحا فأدغمت التاء في الصاد وثابتًا حال من اللام أو من الهاء في لامه أو من فاعل اكسر أي في حال ثباتك فيما تفعل فإنك على ثقة من أمرك وبصيرة من قراءتك أو يكون نعت مصدر محذوف أي كسرًا ثابتًا تلا ما قبله من الحركات المذكورة أو هو مفعول تلا أي تبع هذا المذكور أمرا ثابتا وهو كل ما تقدم ذكره من الحروف وقال الشيخ التلاء بالمد الذمة وهو =

والفائدة في بعث الحكمين: الإصلاح بين الزوجين، والتقريب والتوسط، والوعظ والتذكر بالله تعالى وبما أخذه الله عليهما من ميثاق وعهد، وليتعرفا الظالم منهما من المظلوم إلا أن يفرقا بينهما على كراهة بينهما، أو من الزوج كما قال بعض القائلين، وإن ظهر لهما أن الزوج هو المتعدي فليفرقا بينهما، وإن أبى الزوج فقد سماهما الله جلَّ ذكره الحكمين، والظالم أحق من حمل عليه، وكذلك إن أبت المرأة الإمضاء في نشوزها وعصيانها، فليحكما عليها بالعداء.

قال الله ﷻ: ﴿**إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ الله فَإِنْ خِفْتُمْ**﴾ هذا خطاب لجملة الحكام ألا يقيما حدود الله ﴿**فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا**﴾ [البقرة:٢٢٩].

فصل

قال الله - جلَّ قوله وتعالى جدُّه - للحكام: ﴿**إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ الله فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ**﴾ [البقرة:٢٢٩].

وقال جلَّ قوله: ﴿**وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ**﴾ [النساء:١٢٨].

كما قال جلَّ قوله: ﴿**إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا**﴾ [النساء:٣٥] ولم يسمع لله - جلَّ قوله - قولاً في امرأة ناشز يأمر به الزوج أن يصالحها.

وقد ورد الخبر المثبت بما صالحته سودة - رضي الله عنها - على أن يحبسها فتكون من أزواجه فتهبه ليلتها، فلما قبل ذلك منها وهبتها عائشة - رضي الله عنها.

ولم يأت مثل هذا في نشوز المرأة أن تصالح على ما يسقط الميثاق، وينقص الدرجة التي جعلها الله في أصل المناكحة، ولا على أن تكون هي المترفعة على الزوج القائمة عليه، وقد سماها الله ﷻ ذلك من النساء: فاحشة، بل أمر الأزواج والحكام بوعظهن وضربهن وهجرهن؛ إذ ذلك منهن تعدٍّ حدود الله والله لا يأمر بالفحشاء.

=

منصوب على التمييز. [إبراز المعاني من حرز الأماني (٦٣/٢)].

﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [النساء: ٣٦ - ٣٩].

وقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...﴾(١) إلى قوله

---

(١) إنما أردف عبادة الله بالإحسان إلى الوالدين لوجوه: أحدها: إن نعمة الله تعالى على العبد أعظم، فلا بد من تقديم شكره على شكر غيره ثم بعد نعمة الله فنعمة الوالدين أعم النعم؛ وذلك لأن الوالدين هما الأصل والسبب في كون الولد ووجوده كما أنهما منعمان عليه بالتربية، وأما غير الوالدين فلا يصدر عنه الإنعام بأصل الوجود بل بالتربية فقط، فثبت أن إنعامهما أعظم وجوه الإنعام بعد إنعام الله تعالى. وثانيها: إن الله سبحانه هو المؤثر في وجود الإنسان في الحقيقة والوالدان هما المؤثران في وجوده بحسب العرف الظاهر، فلما ذكر المؤثر الحقيقي أردفه بالمؤثر بحسب العرف الظاهر. وثالثها: إن الله تعالى لا يطلب بإنعامه على العبد عوضًا ألبتة، بل المقصود إنما هو محض الإنعام والوالدان كذلك، فإنهما لا يطلبان على الإنعام على الولد عوضًا ماليًا ولا ثوابًا، فإن من ينكر الميعاد يحسن إلى ولده ويربيه، فمن هذا الوجه أشبه إنعامهما إنعام الله تعالى. الرابع: إن الله تعالى لا يمل من الإنعام على العبد ولو أتى العبد بأعظم الجرائم، فإنه لا يقطع عنه مواد نعمه وروادف كرمه، وكذا الوالدان لا يملان الولد ولا يقطعان عنه مواد منحهما وكرمهما، وإن كان الولد مسيئًا إلى الوالدين. الخامس: كما أن الوالد المشفق يتصرف في مال ولده بالاسترباح وطلب الزيادة ويصونه عن البخس والنقصان، فكذا الحق ﷻ متصرف في طاعة العبد فيصونها عن الضياع، ثم إنه سبحانه يجعل أعماله التي لا تبقى كالشيء الباقي أبد الآباد، كما قال: ﴿مَثَلُ الذين يُنفِقُونَ أموالهم فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة:٢٦١]. السادس: إن نعمة الله وإن كانت أعظم من نعمة الوالدين، ولكن نعمة الله معلومة بالاستدلال ونعمة الوالدين معلومة بالضرورة، إلا أنها قليلة بالنسبة إلى نعم الله فاعتدلا من هذه الجهة والرجحان لنعم الله، فلا جرم جعلنا نعم الوالدين كالتالية لنعم الله تعالى. [تفسير الرازي (١٩٩/٢)].

جل قوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾ [النساء:٣٦] سرد ﷻ هذه الآية على ما تقدم من حكمه في شقاق الزوجين ونشوزهما، فأوجب الإحسان لكل ذي إحسان، وأمر بإيتاء كل ذي حق حقه، هذا ﷻ بالأمر لعباده، ثم بالإحسان بالوالدين، ثم بذي القربى، ثم باليتامى والمساكين، ثم بالجار ذي القربى فإن له حق القرابة وحق الجوار، وللجار الجنب حق غير مجهول ولا مضيع، وللصاحب بالجنب الزوج وابن السبيل، ثم بملك اليمين يعتمد كل بما يكون في جانبه إحسانًا ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾.

هذه موعظة وعظ الله بها المؤمنين عامة، ثم الزوجين خاصة يعلمهم فيها أن الله لا يحب المعتدي المتعدي قدره المزكي نفسه.

ولما ذكر ﷻ الفخور والاختيال، وتعدي الحدود ذكر أهل الكتابين والمنافقين الذين اعتدوا وشاقوا الله ورسوله، فقال جلَّ قوله: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ [النساء:٣٧] فتعدى بخلهم على الناس إلى أن يبخلوا على أنفسهم، كما تعدى بخل أنفسهم إلى أن يأمرون الناس بالبخل، ظهر ذلك في كتمانهم ما أنزل الله عليهم من النور والهدى، وقولهم لإخوانهم: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ [المائدة:٤١].

وقولهم: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران:٧٢ - ٧٣].

وقول المنافقين: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّوا﴾ [المنافقون:٧] ونحو هذا من أقاويلهم ومذاهبهم.

وقد آخى الله ﷻ بينهم؛ لتشابه قلوبهم في قوله جلَّ قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ.....﴾ [الحشر:١١].

قوله ﷻ: ﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء:٣٨] القرين هو ما قرن من صالح أو فاسد جزاءً لعمله الصالح، وإيمانه أو لفسقه وكفرانه.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ....﴾ [الزخرف:٣٦].

وقال - جلَّ قوله - في الحزب الصالح: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا

تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا....﴾ [فصلت:٣٠] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [فصلت:٣١] وكل امرئ له قرين؛ إما صالح يسدده، وإما قرين فاسد يغويه ويضله.

آية ذلك: أمثالهم في القرناء في الظاهر، فإذا مات قرن به في دار البرزخ وبعد البعث.

قال الله ﷻ: ﴿تَالله لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليَوْمَ﴾ [النحل:٦٣].

وقال جل قوله: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ﴾ [فصلت:٢٥] فقرين كل على قدره ومنزلته من دينه ومذهبه، الكافر قرينه شيطان كافر، والفاسق الملي قرينه مثله، وقرين النبي ملك وجني مؤمن؛ لذلك سهلت على النبي سبل الخيرات.

وعلى أي حال كان فقرينه من الجن وإن كان مؤمنًا، فهو إلى الاستشاطة والعجلة ونوازل الغضب ما هو، والقرين من الملائكة هو إلى الحلم والتثبت والرفق وحسن السيرة والرحمة ما هو، فالقوي هو من ملك نفسه عند الغضب والشهوة، والقرناء ما بعد الموت في الدار الآخرة [يعادي][1] بعضهم بعضًا.

قال الله ﷻ: ﴿الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا المُتَّقِينَ...﴾ [الزخرف:٦٧] إلى قوله: ﴿ادْخُلُوا الجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف:٧٠].

وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا....﴾ [الأعراف:٣٨] وهو كثير، ثم لهذه الجملة ما انفهم منها.

قوله عزَّ قوله: ﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء:٣٨] لأنه يدعو إلى الكفر والشرك والتكذيب وارتكاب الجرائم وفعل الكبائر جملة وشرعًا، ثم يقرن به بعد الموت وفي دار القرار، وعذاب الشيطان عذاب السعير، وعذاب الإنس عذاب جهنم وبئس المصير لهذا وهذا، يضاعف لهما العذاب يعذب هذا بعذاب السعير، وهذا بعذاب جهنم زائد إلى عذابه المعد له، من العلم بالقرناء إنهم حين

---

(١) في الأصل: [وأما يجهد].

يتوجه حكم الخلقة إلى النطفة يقيض الله لها حفظة يحفظونها بأمر الله من أمر الله، حتى إذا وضعت تخلت عنها حفظة الأرحام.

وقيض الله له معقبات من بين يدي المولود ومن خلفه يحفظونه من أمر الله، يتعاقبون عليه بالليل والنهار، إذا بلغ السعي وجرى عليه قلم التحصيل في الأعمال، فإن كان ظالـمًا ضجت منه ملائكته، وعلى قدر إسرافه في ظلمه يكون ذلك منهم، فإذا أراد الله به سوءًا أدال الحفظ بغيرهم، فلا مرد لقضاء الله فيه، وما لهم من دونه من دال.

وأما التقي فتتنافس الملائكة - عليهم السلام - فيه، فيتعاونون له ملائكة بالليل وملائكة بالنهار عن يمينه وشماله يكتبون الفرائض، فإن كان من أهل نوافل الخير وكثرة الذكر تولته أيضًا ملائكة فضلٌ على الكتبة الأولى، يكتبون له نوافله وأذكاره، و﴿لَا يُغَيِّرُ﴾ الله ﴿مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

قال رسول الله ﷺ: «**لو أنكم كما تكونون عندي تكونون في أهليكم لصافحتكم الملائكة في الطرق وعلى فرشكم**»[1].

قال الله تعالى: «**أنا مع من ذكرني، وحيثما طلبني عبدي وجدني**»[2].

وقال الله ﷻ: ﴿**إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ...**﴾ [المائدة:١٢].

قوله ﷻ: ﴿**وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيمًا**﴾ [النساء:٣٩] انتظمت هذه الآية بما قبلها من ذكر البخل والكتمان، والكفر والفسوق، والنفاق والإنفاق.

قوله جل قوله: ﴿مَاذَا﴾ كلمة معهودها أن تقال عند النصيحة، والحض على امتثال الأمر الذي لا كلفة فيه، ولا كبير تجشم على فاعله، يحد بذلك الفعل حظًا وغنمًا، وهو من الأعلى تأنيب ووعظ وتقرير وثبات للأمر، يشوب ذلك رحمة، ومن الأسفل استعطاف واسترحام.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٧٠٤)، والبيهقي في الشعب (١٠٧٤).

(٢) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (١٨٦٥) وعزاه لابن شاهين في «الترغيب في الذكر» عن جابر.

وقوله ﷻ: ﴿وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ أي: بما يكون منهم، كما جاء عنه ﷻ: «**اعبدني ولا تشرك بي شيئًا أغفر لك على ما كان منك**»[1] وجملة هذا الخطاب رجاء فوز بغفران تبرق أنوار الجناح على أسارير وجهه، ويراح منه ريح الإيمان رائحة الظفر بالمنى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٤٠ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ۝٤١ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ۝٤٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ۝٤٣ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ۝٤٤﴾ [النساء: ٤٠ - ٤٤].

ألا تسمعه - جلَّ وتعالى - سرد عليه خطابه الكريم: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء:٤٠] أي: من إيمانهم ونياتهم، وإنفاقهم وأعمالهم أن يكن المثقال ذرة الذي يفضل وزن السيئات حسنة، يضاعفها ويؤت من لدنه أجرًا عظيمًا، وهو الجنة ورضوانه الأكبر.

الوزن موطنان، والله أعلم بما وراء ذلك:

الأول منهما: وزن الإيمان بالكفر، فالمؤمنون تثقل موازينهم في هذا الوزن، فأولئك هم المفلحون والكافرون تخف موازينهم، فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدين خسروا أنفسهم وأهليهم ومنازلهم من الجنة، وربما كان معنى قوله - جلَّ قوله - في الذين كفروا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف:١٠٥].

ثم الثاني: وزن الأعمال حسنها بسيئها فمن رجح ميزانه بحسناته فقد فاز، ومن

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٠٤٠).

قام ميزانه عدلاً، فذلك يجوز الصراط على ما هو به؛ إذ ليس له عمل يحمله، ويوقف في أصحاب الأعراف إن لم يعفُ الله عنه ويزده من فضله؛ إذ ليس له عمل يدخل به الجنة، وآخره إلى خير بفضل من الله جلَّ ذكره.

ومن رجحت سيئاته جعل على ظهره ثقل ما زاد من أوزاره على حسناته، فالكافر يحمل أوزاره كلها؛ إذ لم تكن له حسنة تجزئ، والموحدون من ذلك على درجات إلى موضع العدل من الوزن.

قال الله ﷻ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧].

ثم من هنا ينتظم معنى ما تقدم قوله الكريم: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾(١) [النساء:٤١] والشهيد هناك شفيع، والشفيع والشهيد الذي أمام شفيع شهيد.

قال رسول الله ﷺ: «**أنتم شهداء الله في الأرض - قالها ثلاثًا - من شهدتم له**

---

(١) «كيف» في موضع رفع إن كان المحذوف مبتدأ التقدير: فكيف حال هؤلاء السابق ذكرهم، أو كيف صنعهم، وهذا المبتدأ هو العامل في «إذا» أو في موضع نصب إن كان المحذوف فعلاً أي: فكيف يصنعون، أو كيف يكونون، والفعل أيضًا هو العامل في إذا، ونقل ابن عطية عن مكيّ: أن العامل في «كيف» جئنا، قال: وهو خطأ، والاستفهام هنا للتوبيخ، والتقريع، والإشارة بهؤلاء إلى أمة الرسول، وقال مقاتل: إلى الكفار، وقيل: إلى اليهود والنصارى، وقيل: إلى كفار قريش، وقيل: إلى المكذبين وشهادته بالتبليغ لأمته قاله: ابن مسعود، وابن جريج، والسدي، ومقاتل، أو بإيمانهم قاله أبو العالية، أو بأعمالهم قاله: مجاهد وقتادة، والظاهر أن الشهادة تكون على المشهود عليهم.

وقيل: «على» بمعنى اللام؛ أي: وجئنا بك لهؤلاء، وهذا فيه بعد، وقال الزجاجي: يشهد لهم وعليهم، وحذف المشهود عليهم في قوله: ﴿إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ لجريان ذكره في الجار والمجرور فاختصر، والتقدير: من كل أمة بشهيد على أمته، وظاهر المقابلة يقتضي أن تكون الشهادة عليهم لا لهم، ولا يكون عليهم إلا والمشهود عليهم كانوا منكرين مكذبين بما شهد عليهم به، وروي أن رسول الله ﷺ: كان إذا قرأ هذه الآية فاضت عيناه، وكذلك حين قرأ عليه ابن مسعود ذرفت عيناه وبكاؤه والله أعلم هو إشفاق على أمته ورحمة لهم من هول ذلك اليوم، وظاهر قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ أنه معطوف على قوله: ﴿جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ﴾ وقيل: حال على تقدير قد؛ أي: وقد جئنا.

بخيرٍ وجبت له الجنة، ومن شهدتم له بشرٍّ وجبت له النار»[1].

ويقول الله جلَّ ثناؤه: «**شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون، ولم يبقَ إلا أرحم الراحمين**»[2].

قال رسول الله ﷺ: «**توضع الأمانة والرحم على جنبتي الصراط**»[3].

يصف المؤمنون على طريق أهل النار، فيلقي الرجل فيقول: ألست الذي نصرتك يوم كذا وكذا؟ ويقول الآخر: ألست الذي وهبتك كذا وكذا؟ وضوءًا أو غيره، يتعرفون إلى المتقين فيعرفوهم، فيقول أحدهم للمؤمن: سألتك بالله والرحم ألا شفعت فيّ عند ربك، فيشفعون.

قال الله ﷻ: ﴿**وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ**﴾ [النساء:١] وهذا منتظم المعنى بقوله: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا**﴾ [النساء:٤١] وهو تعريض بأهل الكتاب والمنافقين الذين تقدم ذكرهم.

يقول جلَّ قوله: فكيف إذا كانوا يومئذٍ، وكان الأمر على ما أعلمناك به من يرجون ليشفع لهم من يشهد لهم من إمامهم يومئذ، ولم يتبعوا لموسى ولا عيسى، وكذبوا ما جئت به كيف بهم، كقوله - جلَّ قوله - فيهم في موضع غير هذا: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾ [آل عمران:٢٥] معناه: مما هو كسبهم الذي يجدونه يومئذٍ تحريف كتابهم، وكتمان الحق الذي جاء فيه، والصد عن سبيل الله وقتل الأنبياء.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٢٢٤٣)، والترمذي (١٠٧٨)، وأحمد (٢٧٦٨٦)، وابن ماجة (٤٢٢١)، والنسائي (١٩٤٤)، وابن أبي شيبة (٣٦٩٦٠) والطبراني (٣٨٢)، والحاكم (٤١٣) والبيهقي (٢٠١٧٧) وعبد بن حميد (٤٤٢) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٦٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٠٥)، ومسلم (١٨٣)، والطيالسي (٢١٧٩)، وأحمد (١١١٤٣)، وابن ماجة (١٧٩)، وأبو عوانة (٤٤٩).

(٣) أخرجه مسلم (١٩٥)، والبزار (٢٨٤٠)، والحاكم (٨٧٤٩) وقال: صحيح على شرط الشيخين.

فصل

الذي تقرر عليه الشرع، والمفهوم من تعريف الوحي أن لجهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - مجازًا هو الصراط، وكذلك الهادون طرفي الصراط من كلا العدوتين منه سواحل؛ آية ذلك سواحل البحور بَردها ونداها، [ثم ....] [1] ثم حَضْحاضٍ، هكذا من كل غَمر في البحر، بحسب ذلك الوجود فيما هنا لك فيضها وغيضها وفورانها ورميها بشررها وشهيقها وزفيرها، فليعبر بها من أجل سواحل تقتضي موجود مقتضياتها.

قال رسول الله ﷺ في عمه أبي طالب: «**وجدته في غمرات من النار، فأخرجته إلى ضحضاح يبلغ كعبيه**»[2].

وقال ﷺ في الموحدين منهم: «**من قد أخذته النار إلى كعبيه، وإلى أنصاف ساقيه، وإلى ركبتيه، ومنهم إلى فخذيه وإلى حقويه**»[3].

وإنما يصيبهم هذا في سواحلها هذه، وعلى قدر خفة ظهورهم من أوزارهم تكون خفتهم عليها، ثم يستولي ذلك بهم إلى الطيران في الهواء على مراكب هي النجب، وغيرها وكالبرق وكرجع الطرق.

ومنهم: من لم يرها ولم يسمع حسيسها ﴿**إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ...**﴾ [الأنبياء:١٠١] إلى قوله: ﴿**خَالِدُونَ**﴾ [الأنبياء:١٠٢] جعلنا الله الرحيم برحمته منهم.

فصل

قال الله ﷻ في الأشقياء: ﴿**فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ**

---

(١) في الأصل [ثم باله وزهق وطيش] وهي عبارة غير واضحة.

(٢) أخرجه مسلم (٥٣٢)، والحاكم (٨٨٨٦)، والحميدي (٤٨٨). غمرات جهنم: المواضع التي تكثر فيها النار. الضحضاح: ما رقَّ من الماء على وجه الأرض إلى نحو الكعبين، واستعير في النار.

(٣) أخرجه أحمد (١١٩١٧)، وابن ماجة (٦٠)، والحاكم (٨٨٨٨)، والبيهقي في الشعب (٣٢٢)، وأبو عوانة في مستخرجه (٣٣٦). الحَقْو: الخَصْر.

جَهَنَّمَ جِثِيًا...﴾ [مريم:٦٨] إلى قوله: ﴿عِتِيًا﴾ [مريم:٦٩] وهم الذين قيل لهم: لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيكون ذلك، فيخرج منها عنق ثم عنق ثم عنق، أصناف ثلاثة هم الذين كانوا في الدنيا أشد عتيًا.

قال رسول الله ﷺ: «**وتكون الأرض كلها جَمرة واحدة**»[1] يعني - والله أعلم - تلك السواحل؛ لأنهم يومئذٍ عليها.

سئل ﷺ: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض؟ فقال ﷺ: «**هم في ظلمة دون الجِسر**»[2].

وفي أخرى: «**على الصراط يا عائشة**»[3].

فربما سمى ذلك منها صراطًا؛ إذ هو مما ينجي الله - جلَّ ثناؤه - من هوله المتقين بمفازتهم، كما ينجيهم على المجاز، والله أعلم ما مقدار ذلك وما مسافته، وهذا كله عليه غير عسير، فالله القادر على أن يجعل أضيق الأمكنة تسع كل شيء، ويجعل أوسعها أضيق من خرت الإبرة، وإنما الفائدة من إخباره وحديثه فهو كما أخبر به وحدث.

قال ﷺ: «**فيطأ أحدكم الجمرة فيقول: حَسِ، فيقول ربك: أو إنه...**»[4] وذلك في مبتدأ هذه الأرض إنك سترى ما ينسئك هذا، فتخوض الخلائق ذينك الساحلين خوضًا، وهم الذين عجزت أعمالهم عن أنها فيهم طيرانًا وخطفًا كالبرق ورجع الطرف، وحضر الفرس الجواد على تفاوتهم في سرعة نجاتهم منها.

والذين يخوضون تلك الأرض أيضًا على درجاتهم من قلة الأوزار، وكثرتها بالأثقال على ظهورهم، والحسك والشائكات كشوك السعدان وغيرها، والعثار والعوارض بين أرجلهم، والكلاليب والخطاطيف على جنباتهم، وهذه التي أبانت

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) أخرجه مسلم (٧٤٢)، والبيهقي في سننه (٨٣٠) وفي الشعب (٣٧٧)، وابن حبان (٤٤١)، والطبراني (١٣٩٨)، وأبو عوانة في مستخرجه (٦٥٤)، وابن حبان (٧٥٤٥)، وأبو نعيم في المعرفة (١٣١٩).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٥٠) وقال: حسن صحيح.

(٤) أخرجه الحاكم (٨٨٣٥)، والطبراني (١٥٨١٠).

عنها في الحياة الدنيا عوارض المعاصي والذنوب، مثال الشهوات المؤذية والضَّراوات[١] السوء، فحبسهم على نجاتهم بطاعة الله.

﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام:٣١] ثم كذلك حتى يصلون إلى الصراط على متن جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - وهو دخص مزلة أحد من السيف وأرق من الشعر، آخره من شفيرها إلى شفيرها؛ أي: على مقدار حظوظهم من النجاة ودرجاتهم فيها.

والمتقون يومئذ ناجون ﴿بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر:٦١] وقوفًا على جنبتي الصراط، دعوى الرسل - عليهم السلام - والمتقين يومئذٍ: «**اللهم سلم سلم**»[٢] وهنالك يتساءلون بالله وبالأرحام، فينجو من الصراط من شاء الله نجاته برحمته، ثم بعمله ثم بالشفاعة، وكل ذلك من رحمته.

ويقع في النار من شاء الله كما قال رسول الله ﷺ: «**فناجٍ مخردل**»[٣] أي: مما يأخذ منه الكلاليب والخطاطيف والحسك والشائكات، ويكردس في جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - فإذا خلص المؤمنون من النار، ألهم الرءوف الرحيم الغفور الشكور ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه المؤمنين إلى الشفاعة، فأعطفهم على إخوانهم الذين في النار بالرحم التي كانت بينهم، ولا رحم يومئذٍ إلا الإيمان بالله والرسل - عليهم السلام - والعمل بطاعة الله ﷻ.

قال رسول الله ﷺ: «**فوالذي نفسي بيده ما أنتم بأشد منا شدة لي في استيفاء الحق من المؤمنين لله - جلَّ ثناؤه - يومئذٍ في إخوانهم المؤمنين، الذين هم في النار يقولون: ربنا إخواننا كانوا يصلون معنا ويصومون ويحجون معنا**» وتلك شهادة منهم لهم، وشفاعة إلى ربهم فيهم، فيقول لهم جلَّ ذكره: «**اذهبوا فمن عرفتم فيها فأخرجوه منها، وحرم الله ﷻ على النار أن تأكل مواضع السجود، فيعرفونهم بذلك**

---

(١) هكذا في الأصل.

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٠٥)، ومسلم (١٨٣)، والطيالسي (٢١٧٩)، وأحمد (١١١٤٣)، وابن ماجة (١٧٩)، وأبو يعلى (١٢٥٣)، وابن حبان (٧٣٧٩)، والحاكم (٨٧٣٧) والنسائي في الكبرى (١١٣٢٧)، وابن منده في الإيمان (٨٢٨).

(٣) تقدم تخريجه.

فيخرجونهم منها»[١].

ثم يحد لهم حدًّا تعرفه الملائكة - على جميعهم السلام - في قلوبهم فيخرجونهم، ثم كذلك حدًّا بعد حد، حتى إن المؤمنين ليسائلون أهل النار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر:٤٢].

قال الله جلَّ ثناؤه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ﴾ [المدثر:٣٨ - ٤٠] هذا وصفهم في محالهم، في إخراجهم إخوانهم من النار بقوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾.

وقرأها ابن الزبير وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما: «أيها المرء ما سلكك في سقر».

هذا سؤالهم قومًا منهم لم يكن تقدمت منهم بهم معرفة، فيجيبونهم بما كانوا عليه، ولا يكتمون الله - جلَّ ثناؤه - إنما يكون الكذب منهم، والكتمان ممن يوجد منه ذلك قبل وقوع العذاب بهم، فيقول أحدهم: لم أكُ من المصلين حتى أتاني اليقين، ويقول الآخر: لم أكُ أطعم المسكين حتى أتاني اليقين، ويقول المكذب: كنت أكذب بيوم الدين، فيخرجون إخوانهم المؤمنين ويتركون المكذبين.

يقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨].

قال الله - جلَّ ثناؤه - في مقامهم هذا ونحوه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ أي: بشفيع ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾[النساء:٤١] يعني: حال إخراج الموحدين وترك المكذبين.

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾[٢] [النساء:٤٢] أي: لو كانوا في الأرض أرضًا، وفي التراب ترابًا، ولا يبعثون ولا

(١) تقدم تخريجه فيما سبق.

(٢) قرأ نافع وابن عامر: «تسوى» بفتح التاء وتشديد السين، وقرأ حمزة والكسائي بفتح التاء وتخفيف السين، وقرأ الباقون بضم التاء وتخفيف السين، والمعنى على القراءة الأولى والثانية: إن الأرض هي التي تسوّى بهم؛ أي: إنهم تمنوا لو انفتحت لهم الأرض فساخوا فيها، وقيل الباء في قوله: ﴿بِهِمُ﴾ بمعنى على؛ أي: تسوّى عليهم الأرض، وعلى القراءة الثالثة الفعل مبني للمفعول؛ أي: لو سوّى الله بهم الأرض فيجعلهم والأرض سواء حتى لا يبعثوا. [فتح القدير (٢/١٤٥)].

يخلقون من قبل ذلك.

وفي هذا من قوله وما جاء من مثل هذا في سورة النبأ: ﴿يَقُولُ الكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ [النبأ:٤٠] إشارة إلى سر مفروج به لمن عمل لله - جلَّ ثناؤه - بطاعته لكريم لقائه وحسن مآبه، نسأل الله الرحيم الذي لا إله إلا هو أن يسعدنا بلقائه، ويبارك لنا في حظنا منه إنه ذو الجلال والإكرام.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ...﴾ [النساء:٤٣].

قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعامًا، فدعانا وسقانا الخمر فأخذت منا، وحضرت الصلاة فقدموني، فقرأت: «قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون» فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾.

قال ابن عباس ﷺ: فحرمت الخمر في أوقات الصلوات، فكان أحدهم يمسك عنها حتى إذا قضيت العشاء الآخرة شربها، فلا يصبح إلا وقد صحى سكرها، وأعلموا ما يقولوا في صلاة الفجر.

ثم أنزل الله تحريمها قطعًا في سورة المائدة.

حدَّث عثمان بن مالك - رحمه الله - أن رسول الله ﷺ قصده في نفرٍ من أصحابه، ولما جاء منزله ناداه فخرج إليه يجر رداءه وإزاره، فقال: «**أعجلت الرجل**» فقال عثمان: يا رسول الله، الرجل يجامع أهله ثم يكسل، ماذا عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إذا [....]**[١] **فاغسل ما أصاب المرأة منك ثم صلّ**»[٢].

مصداق هذا من القرآن قوله ﷻ: ﴿أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ [النساء:٤٣] وعدم وجدان الماء يتردد بين معنيين:

أحدهما: عدم الماء الذي يتطهر به.

---

(١) ما بين [ ] تقرأ (مخضت) ولفظ مسلم: «عَنْ أُمِّ كُلْثُومٍ عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: إِنَّ رَجُلاً سَأَلَ رَسُولَ الله ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُجَامِعُ أَهْلَهُ ثُمَّ يُكْسِلُ هَلْ عَلَيْهِمَا الْغُسْلُ وَعَائِشَةُ جَالِسَةٌ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنِّي لأَفْعَلُ ذَلِكَ أَنَا وَهَذِهِ ثُمَّ نَغْتَسِلُ».

(٢) أخرجه مسلم (٨٠٥)، والبيهقي في الكبرى (٤٣٠١).

والآخر: عدم ماء المني وظهوره.

كما قيل [لرسول الله][1] ﷺ: المرأة ترى مثلما يرى الرجل في المنام، فقال: «**لتغتسل إذا رأت الماء**»[2].

ولما اتصل به من الأمر بالتيمم، فكان سياقه في حكم السفر، وهو من مظانِّ عدم الماء المتطهر به، وقف الأمر على الاغتسال مع وجود الماء والتيمم، مع عدم وجود ما يتطهر به.

وقد روى معنى حديث عثمان جماعة من الصحابة ﷺ وروت عائشة وأبو هريرة في إيجاب الغسل؛ لالتقاء الختانين، والله عليم حكيم.

قوله تعالى: ﴿**وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا**﴾ [النساء:٤٣] تقدير الكلام: ولا تقربوا الصلاة جنبًا حتى تغتسلوا، ودخل الاستثناء تنبيهًا على حكم المسافر؛ إذ السفر مظنة الأعذار.

ثم بيَّن بقوله جل قوله: ﴿**وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا**﴾[3] [النساء:٤٣].

وفي ذكر الملامسة على معنى المفاعلة البيان البين للشهوة؛ إذ بناء المفاعلة لا تكون إلا منهما، فكان المفهوم من الخطاب ابتغاء الشهوة، واجتزى بذكر المفاعلة عن سبيل الملامسة، وكان ذلك أحسن اختصارًا وأقرب للفقه.

---

(١) زيادة لانتظام السياق.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٢)، ومسلم (٧٣٨)، وأحمد (٢٦٦٥٥)، والطبراني (٦٥٩)، وابن أبي شيبة (٨٧٨) والترمذي (١٢٢) وقال: حسن صحيح، وابن ماجة (٦٠٠)، وأبو يعلى (٧٠٠٤)، وابن خزيمة (٢٣٥)

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم وابن عامر: «لامستم» وقرأ حمزة والكسائي: «لمستم» قيل: المراد بها في القراءتين الجماع، وقيل: المراد بها مطلق المباشرة، وقيل: إنه يجمع الأمرين جميعًا. وقال محمد بن يزيد المبرد: الأولى في اللغة أن يكون «لامستم» بمعنى قبلتم ونحوه، و«لمستم» بمعنى غشيتم. واختلف العلماء في معنى ذلك على أقوال؛ فقالت فرقة: الملامسة هنا مختصة باليد دون الجماع، قالوا: والجنب لا سبيل له إلى التيمم بل يغتسل أو يدع الصلاة حتى يجد الماء. وقد روي هذا عن عمرو بن الخطاب وابن مسعود. قال ابن عبد البر: لم يقل بقولهما في هذه المسألة أحد من فقهاء الأمصار من أهل الرأي وحملة الآثار. [فتح القدير (١٤٩/٢)].

وكان قوله: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ دليلاً على أن المسحة الواحدة مجزية.

كما جاء عن رسول الله ﷺ: «**أما كان يكفيك أن تضرب ضربة لوجهك، وأخرى ليديك؟**»[1].

وفي أخرى: «**ضربة للوجه وأخرى للذراعين**»[2].

وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ أي: عن كل حقِّه قبلكم ﴿غَفُورًا﴾ [النساء:٤٣] لخطاياكم، يطهركم بالماء والصعيد، ويذهب عنكم بذلك الرجس.

كما قال - جلَّ قوله - في سورة المائدة: ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٦].

كما قال ﷺ: «**إذا توضأ العبد المؤمن كفرت عنه جميع خطاياه ثم كان مشيه إلى المسجد وصلاته له نافلة**»[3] فإتمام نعمته عليه هو أن يكون شاكرًا، وأن يكون طهوره بالماء غاسلاً لذنوبه كلها.

وكان رسول الله ﷺ يسأل ربه ذلك يقول: «**رب طهرني بالماء والبرد والماء البارد، ونقني من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس**»[4] أي: الماء والبرد والماء البارد، ثم يكون بعد ذلك من الشاكرين، يعمل في إعلاء الدرجات رزقنا الله ذلك برحمته.

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (٨٤٦)، وأبو داود (٣٢٦)، وابن خزيمة في صحيحه (٢٧٣)، والدارقطني (٧١٦).

(٢) أخرجه الطبراني (٧٩٥٩)، وأحمد (١٨٣٤٥)، وابن أبي شيبة (٣٦٢٩٠)، والدارمي (٧٤٥)، وابن خزيمة (٢٦٦)، والطبراني في الأوسط (٥٤٢).

(٣) أخرجه مالك (٦٠)، وأحمد (١٩٠٩١)، والنسائي (١٠٣)، وابن ماجة (٢٨٢)، والحاكم (٤٤٦) وقال: صحيح، والبيهقي في الشعب (٢٧٣٤)، والنسائي في الكبرى (٣٨٨).

(٤) أخرجه بنحوه البخاري (٧١١)، ومسلم (٥٩٨)، وابن أبي شيبة (٢٩٢٠٨)، وأحمد (٧١٦٤)، وأبو داود (٧٨١)، والنسائي (٦٠)، وابن ماجة (٨٠٥)، والدارمي (١٢٤٤)، وابن الجارود (٣٢٠)، وابن خزيمة (٤٦٥)، وابن حبان (١٧٧٥)، والدارقطني (١/٣٣٦)، والبيهقي (٢٨٩٥).

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ٤٥ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ٤٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ٤٧ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٤٩ ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ٥٠﴾ [النساء: ٤٥ - ٥٠].

قوله عزَّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَطْمِسَ وَجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ [النساء:٤٧] طمس الوجوه هو أن يذهب بأسماعها وأبصارها ونطقها، كما قال ﷻ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة:١٨] فإذا كانت الوجوه عديمة الحواس أشبهت الأدبار، فهذا مسخ باطن.

ثم قال تعالى: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ الذين قال فيهم: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف:١٦٦] فهذا هو المسخ التام الذي عمَّ الظاهر منهم والباطن، وقد أصابهم المسخ الأول الذي هو عدم حواس الوجه.

ألا تسمع إلى قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ الله مَفْعُولاً﴾ [النساء:٤٧] فهم الصم البكم العمي أشبهت الوجوه منهم الأدبار ومسخوا المسخ، وهو حقيقة اللعن، وهؤلاء هم الذين يرد الله أن يُعمر قلوبهم، والذين حقت عليهم اللعنة كلمة العذاب ولعنوا اللعن الباطن، ولم يبقَ إلا المسخ الظاهر، وأراه - والله أعلم - كائنًا لهم في دار البرزخ؛ لقوله الحق: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ الله مَفْعُولاً﴾ نعوذ بالله من لعنه وبعده، ومن جميع ما يوجب ذلك، واللعن إبعاد بعذاب وأصل.

معناه: إن الإنسان كما تقدم مؤهل للتقريب والإنس إن هو أطاع وائتمر بما أُمِر به، وإن هو لم يفقه ما أريد به من ذلك، ولم يرفع به رأسًا ولي ما تولى، وشغل بشغل لا ينفك وأمل لا يدرك وبحرص لا ينال، ولأنه لم يكذب ولا يصد عن السبيل بقي من أصله، وإنه متى ذكر تذكر، ومتى نُبِّه تنبه، وإن أعقب ذلك النسيان وخلفت الغفلة انتباهه، فإذا توفي وُزِنت الغفلة بانتباهه وذكره بنسيانه، فقرب على قدر ذلك ولا يظلمون فتيلاً، ثم هو إن أمر ولم يأتمر وزجر، فلم يزدجر مُنِع السمع الباطن والبصر والبيان، وكان من طمس الوجوه على خطر.

قال الله ﷻ بعد قوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٨] وهذا وصف لهم حال عقوبة إعراضهم بعد البيان، والمعرض بعد البيان قلما يرجع لقول الله جلَّ من قائل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ...﴾ [الكهف:٥٧].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَرَبُّكَ الغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨] هذا وصف منه؛ لإبقائه عليهم الصفات الظاهرة، وإلى بعد الموت.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ [البقرة:٢٠] يعني: الظاهرة، وهو المسخ التام والفقد المجحف، كما طمس ﷻ أنوار الوجوه فردَّها على أدبارها.

عبرة:

نبه الله - جلَّ ثناؤه - الذين آمنوا، وذكرهم بأهل الكتاب توقيرًا لهم وإكرامًا لهم، يؤدبهم بغيرهم ويريهم عقوباته في سواهم، فليعتبر أهل الأبصار، وليزدجر أولو البصائر.

ألا تسمعه ﷻ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَطْمِسَ وَجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا...﴾ [النساء:٤٧] نحن أهل الكتاب، وقد قال رسول الله ﷺ: «**لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة وحذو النعل بالنعل**»[1] وإنه من يعرض عن ذكر ربه نسلكه عذابًا صعدًا، ومن نسي آيات ربه أورده المعيشة الضنك، وأعمى قلبه وأصم سمعه وأبكم لسانه عن فهم

---

(١) تقدم تخريجه.

كتابه عقوبةً لإعراضه عن تفهم كتابه، ولقد خشينا أن قد لحقنا ما يواعدهم به من طمس الوجوه، وردها على أدبارها آيات ذلك في الوجود جمة، ودلائله كثيرة.

ألا تسمع إلى قول الله ﷻ فيهم عقوبة لإعراضهم عن كتاب ربهم: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ العَذَابِ﴾ ثم قال - جلَّ قوله - معرضًا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العِقَابِ﴾ أي: أنذر أمتك بأسي ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف:١٦٧] فبشرهم عني.

كما قال ﷻ: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ....﴾ [الزمر:١٧ - ١٨] أتراه جلَّ ذكره إنما يقص علينا أنباءهم، ويجتلب ذكر خطاياهم ويعلمنا معايبهم تفكهًا بذلك كله وجلاله، والحق الذي فطر به أرضه وسماه، وأنزل به كتابه إن هو إلا إكرام من كريم لمن أطاع الله واهتدى، وإنذار من حليم حكيم لمن تأبى وآثر على الجد الهوينا وضيع الحزم، وركن إلى الدنيا إيثارًا لها، وأخذ عزيز قدير لمن أبى واعتدى على الآخرة، واتبع النفس الهوى.

صدق رسول الله ﷺ لما ركبنا سننهم وقفونا أثرهم عميت منا القلوب، وصمت وبكمت، فأصغينا إلى الدنيا إيثارًا لها على الآخرة أظهرنا الإيمان على ألسنتنا، والكفر على جميع أعمالنا، وما أظهرناه من عمل صالح، وأبديناه من مكارم أخلاق وحسن فعال وجميل سيرة وطلب علم، فإنما ذلك منا على قدر حصول العاجلة به وما نكابده، ففي سبيل ذلك لا على سبيل خشية الله ﷻ، ولا مقصود بوجهه إليه.

عادات استمررنا عليها وضراوات ألفناها، فذهب لذلك الفهم وعمى الناظر وعشيت البصائر، وقست القلوب وتراكمت الذنوب، وتحقق فينا قوله - جلَّ قوله - فيهم: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٦٦] فهذا طمس موجود فينا لا ننكره، طمس الوجوه بردِّها على أدبارها جهلاً وعمى.

يقول عزَّ من قائل: ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:٢٧] نعوذ بالله من أخذه وأليم بطشه، ونسأله لنا معشر الأمة توبة صادقة، وإنابة خالصة ورجعة قريبة إنه على ذلك قدير.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ الله مَفْعُولاً﴾ [النساء:٤٧] خاصة هذا الخطاب هنا من

هذا المعنى أنه من لعنه، فمسخه المسخ الباطن ولم يسدد إلى التوبة، فإنه بعد الموت يحول ظاهره إلى ما مسخ إليه باطنه، فيعذب فيه إلى يوم القيامة، أو يتداركه عفوه ورحمته.

كذلك الكافر في الآخرة، قال الله جلَّ من قائل: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الخُرْطُومِ﴾ [القلم:١٦] والخرطوم ليس من صفات الإنسان إنما يوصف به الخنزير والفيل والفأر ونحو هذه، سبحان الله وله الحمد خلقه أولاً على صورة الحق، وصوَّره باطنًا فأحسن تصويره في أحسن تقويم، تمدح الله ﷻ بذلك بقوله: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ﴾ [التين:٨] ثم ردَّه بعد إلى أسفل السافلين صورة ومحلاً ومآلاً.

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾[1] [النساء:٤٨] انتظم هذا بما تقدم من كفر المشركين والمنافقين وأهل الكتاب، فوضح من ظاهر هذا الخطاب البيان البين أنه ﷻ حجز المغفرة على الكافر، وحرم رحمته على من أشرك به، والشرك غير مغفور بنصِّ هذا الخطاب، وقد وعد بوعده الحق إنه يغفر ما دون الشرك لمن يشاء ممن لا يشرك به شيئًا.

وقال بعض من تقدم رحمة الله على جميعهم: إن الله لا يغفر ما دون الشرك إلا بالتوبة، وهذا ما لا يعطيه ظاهر الخطاب الذي تلاه علينا ربنا ﷻ من كتابه العزيز،

---

(١) ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ قال الكلبي: نزلت في وحشي بن حرب وأصحابه؛ وذلك أنه لمّا قتل حمزة كان قد جعل له على قتله أن يُعتق فلم يُوَفَّ له بذلك، فلما قدم مكة ندم على صنيعه هو وأصحابه، فكتبوا إلى رسول الله ﷺ: أنا قد ندمنا على الذي صنعنا وأنه ليس يمنعنا عن الإسلام إلاّ أنا سمعناك تقول وأنت بمكة: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ...﴾ [الفرقان:٦٨] وقد دعونا مع الله إلهًا آخر وقتلنا النفس التي حرّم الله وزنينا، فلولا هذه الآيات لاتبعناك، فنزلت: ﴿إِلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا...﴾ [الفرقان:٧٠] فبعث بهما رسول الله ﷺ إليهم، فلمّا قرأوا كتبوا إليه: إن هذا شرط شديد نخاف ألا نعمل عملا صالحًا، فنزلت: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فبعث بها إليهم، فبعثوا إليه: إنّا نخاف ألا نكون من أهل المشيئة فنزلت: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾ [الزمر:٥٣] فبعث بها إليهم فدخلوا في الإسلام ورجعوا إلى النبي ﷺ فقبل منهم، ثم قال لوحشي: أخبرني كيف قتلتَ حمزة؟ فلمّا أخبره قال: ويحك غيّب وجهك عني، فلحق وحشي بالشام فكان بها إلى أن مات. [تفسير البغوي (٢٣٢/٢)].

فإن الشرك أيضًا يغفره الله بالتوبة، فلو كان ما دون الشرك من الذنوب لا يغفر إلا بالتوبة لكان إخباره ﷻ بأنه يغفر متساوي المعنيين.

وفي إجماع العرب ومن تعرب من العجم على امتناع تساويهما أدل دليل على إغفال من قال ذلك، غير أن من المصرين عليها وهم يجهلون أنها ذنوب، لكن عموم الخطاب شمل الطائفتين معًا، فالتفرقة بينهما تعريض جراءة، والإصرار عليها من غير نزوع إلى التوبة منزلة بين منزلتين ما دونهما كفر، ولا رجاء معه في عفو ولا مغفرة، وما فوقها توبة وتقوى لا خوف معها من خلف وعد ونقض عهد، ففي منزلة المصرين إشكال؛ لكونها في موضع الشبهة، وفارقت منزلة الكافر والمشرك في إلحاق الرحمة بهم دون مرية منزلة المؤمن المصر، والحمد لله رب العالمين.

قال ﷻ في الكافرين: ﴿أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت:٢٣] وإن كان الإصرار إثمًا، فإنه لم يلحق بالإثم العظيم والضلال البعيد.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِالله فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨].

و﴿قَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا﴾ [النساء:١١٦].

وقال جلَّ قوله: ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الحِنثِ العَظِيمِ﴾ [الواقعة:٤٦] لا عهد لمصر بمغفرة، ولا يأس على تائب من الرحمة، ولا رجاء لكافر ولا مشرك.

قوله جلَّ قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء:٤٩] يعجب نبيه ﷺ، ومن تبعه من العلماء من ضعف عقول هؤلاء وضآلة عقولهم؛ لتزكيتهم أنفسهم، وذلك أن تزكية النفس وجودها أبدًا عن العجيب والعجب عن الكبر، والكبير يوجب المقت من الله ﷻ، ومن الذين آمنوا بل الله يزكي من يشاء.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء:٤٩] يريد الذين يزكيهم الله، وهو لا يزكى ﷻ إلا من صلحت حالته عنده، فلا يظلمنهم ما هو مقدار فتيل، بل لولا فضل الله عليهم ورحمته ما زكى منهم من أحد أبدًا.

وقد يتوجه قوله هذا: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ يريد؛ أي: هؤلاء المكذبين والكافرين من عمل منهم خيرًا أطعم به وعوفي ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ من ذلك، فإذا كان الزكاء من الله ﷻ وهو يخبر البواطن ويعلم الظواهر، وما تؤول إليه عواقب

الأمور، فهو الواهب ذلك والمثيب عليه، فكيف تصح لمخلوق تزكية نفسه لعدم ذلك.

قال عزَّ من قائل: ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء:٥٠] الزكاء: النماء، وهو الرفعة، فلان ينمي الحديث ﴿يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي: رفعه، فمفهوم خطاب القرآن على هذا أن الزكاء ليس إلا ما كان من معنى القرب من الله ﷻ والتقرب منه؛ لذلك قال ﷻ: ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ....﴾ فإذًا لا ينبغي لأحد أن يزكي نفسه، ولا أن يزكي أحدًا.

قال رسول الله ﷺ: «بحسب المؤمن أن يقول في أخيه: حسبته كذا، وكذا أحسبه، ولا أزكي على الله أحدًا»[1] أحسبه أن يفتري على الله الكذب، وكفى بافترائه علينا إثمًا مبينًا.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: ٥١ - ٥٨].

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٢٥١٩)، ومسلم (٣٠٠٠)، وأبو داود (٤٨٠٥)، وأحمد (٢٠٤٨٠)، وابن ماجة (٣٧٤٤).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الكِتَابِ﴾ يريد جلَّ ذكره يهود ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء:٥١] صنمان يعنيهما.

وقالوا: الجبت: السحر.

وقالوا: هو السحر بلسان الحبشة، وربما كان مشتقًا من جاب يجوب جوبًا، وهو القطع أن يقطع الحق بالباطل إلى أهوائهم، كما قال ﷻ: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [الفجر:٩] قطعوا الصخر وأجروا فيها الأودية إلى مقاصدهم، فكلما تعدى الحق فقطعه، فهو جبت.

والطاغوت مأخوذ من الطغيان، والطغوان لغة فيه، قالوا: والتاء زائدة للمبالغة كملكوت ورحموت وجبروت ورهبوت ورغبوت، وكل ما خالف الحق فقد طغى وأوقع الطغيان، ولا خلاف للحق أعظم من اتخاذ إله من دون الله ذلك هو الضلال البعيد، وكل ما عُبِد من دون الله، وكل فعل فُعِل مخالفًا لأمر الله ﷻ، فهو طاغوت.

انتظم معنى قوله فيما حكى عنهم: ﴿هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ [النساء:٥١] بمعنى قوله - جلَّ قوله - لنبيه ﷺ: ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء:٥٠].

أخرجهم عن التوحيد بقوله جلَّ قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ﴾ يعني: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ﴾ يعني: الكافرون ﴿أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ [النساء:٥١] وذلك أن قريشًا استفتوهم في شأن رسول الله ﷺ، فقالوا: أنتم أهل دين ونبوة، فما تقولون في دين محمد وديننا أيهما خير؟ فقالوا لهم: دينكم أفضل من دين محمد، وأنتم أهدى من الذين آمنوا سبيلاً، فجعلهم بذلك مؤمنين بالجبت والطاغوت أولئك الذين لعنهم الله، كما كتموا ما عندهم من صحيح نبوة محمد ﷺ.

ولهذا أنزل الله ﷻ لعنهم في التوراة؛ أي: بعدهم عن فهم كتابه وتصديق رسوله، فلم تنفعهم أبصارهم ولا أسماعهم ولا أفئدتهم لما لعنهم الله، كما فعل بغيرهم الذين قال فيهم جلَّ قوله: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ الله وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف:٢٦].

قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ....﴾ [النساء:٥٣] «أم» حرف ظاهره الاستفهام، قالوا: وقد يكون بمعنى ألف الاستفهام بعينها، تقول من ذلك: أعندك طعام؟ أعندك ماء؟ أفي الدار زيد؟ كما تقول: أم عندك؟

وحكى بعض أهل العلم باللسان إنها لغة يمانية، فيجعلونها في مبتدأ الكلام، فيقولون: أم نحن خيار الناس؟ أم نحن نطعم الطعام؟ أم نحن نضرب الهام؟ فلهذا أقرب معانيها إليَّ ليس كالمعهود منهم في قولهم: ألسنا خيار الناس؟ ألسنا كذا؟ وعلى هذا يكون تقدير الكلام: أم لهم نصيب من الملك؟

ومن قال: إنه خطاب تقدمه محذوف مقدر، فما هو بمقصر عن الحقيقة، ولا بمتأخر عن السياق إلى الغاية، تقديره: لما كان اللوح المحفوظ جمع كل شيء كتبًا، فأنزل على بني إسرائيل التوراة والزبور والإنجيل والفرقان، قال فيهم: إنهم أوتوا نصيبًا من الكتاب، فإذًا الكتاب المعني هاهنا هو اللوح المحفوظ، ومن أوتي نصيبه كذلك في عمله وأجله وأثره وشقاوته وسعادته، أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب فأيدهم ﴿فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [المائدة:٥٤] أو ما يكون في معنى هذا من الكلام.

ثم عطف على المحذوف قوله جلَّ قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾ [النساء:٥٣] لو كان ذلك ما أتوا الناس من فضلهم، ولا مما بأيديهم نقيرًا.

ثم أظهر ﷻ معنى ما حذف بقوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾[1] [النساء:٥٤] وبنو إسرائيل من آل إبراهيم وكذلك العرب، وفحوى هذا الخطاب أنا سنتم الفضل على العرب في ذلك، فنؤتيهم الكتاب والحكمة والملك.

وقوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ الضمير الذي في ﴿بِهِ﴾ مردود على الكتاب، وفحوى هذا أيضًا إنه كما كان في بني إسرائيل من آمن به، ومنهم من

---

(١) «أم» منقطعة مفيدة للانتقال عن توبيخهم بأمر إلى توبيخهم بآخر؛ أي: بل يحسدون الناس؛ يعني: اليهود يحسدون النبي ﷺ فقط، أو يحسدونه هو وأصحابه على ما آتاهم الله من فضله من النبوّة والنصر وقهر الأعداء. [فتح القدير (١٦١/٢)].

صدَّ عنه كذلك يكون في العرب جميع ذلك.

قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤] فأعلم بهذا أن من ذريته محسن وظالم لنفسه مبين.

وقال رسول الله ﷺ: «**لتركبن سنن من كان قبلكم....**»(١).

قوله جلَّ قوله: ﴿وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء:٥٥] اسم جهنم - أعاذنا الله منها برحمته - يبنى على رؤوس معانيها، فجيمها وميمها تنبئان على ما استحق فيها من معنى المزيد، المعبر عنه قوله جلَّ قوله: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ:٣٠].

وقوله جلَّ قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨].

ثم هاؤها وميمها ينبئان عن زمهريرها، ونونها تنبئ عن نارها وحميمها وهوائها، وميمها بمجموع ذلك عن الجهامة التي أوجدت، فهو اسمها الأكبر.

قال رسول الله ﷺ يحدث عن مسراه، قال: «**ورأيت مالكًا خازن النار**» وذكر من جهامة وجهه في لقيه لم يتبسم إليه، ولا هشَّ له بغير السلام عليه، قال: «**فقلت لجبريل: من هذا؟ قال: مالك خازن النار، لو ضحك إلى أحد لضحك إليك**»(٢).

قال الله ﷻ: ﴿غِلاظٌ شِدادٌ﴾ [التحريم:٦].

وكلمة ﴿وَكَفَى﴾ يعبر بها عن نهاية الإبلاغ في معنى ما أخبر بها عنه، كقوله جلَّ قوله: ﴿وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ [النساء:٨١] و﴿كَفَى بِاللهِ حَسِيبًا﴾ [النساء:٦].

والسعر نوع من العذاب يعتمده تعذيب النفس، وحقيقته شدة تحريك الصفات الباطنة بالأمر العذاب المستعر، وقصدها بوجود العذاب، نعوذ بالله من ذلك.

سعر النار: شدة اضطرامها وسرعة اشتعال لهبها، فلها لأجل ذلك قصيف وشهيق؛ لسرعة إلهابها ما جعل لها وعظيم التهابها، وتداخل وجودها في مأخذها لذلك يكون وصف المستعر الصفات خورًا في عزيمته، وثباته وتبلدًا في خلده، كثير الحركة قليل السكون، عديم الصبر فقيد الرضا، شديد القلق حرج الصدر، كثير

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ذكره بنحوه ابن كثير في تفسيره (٥/١٤).

الغضب يغضب بغير مغضب، ويألم بغير مؤلم، لم تسكن نفسه فرقًا وقلقًا وسعرًا، فإذا اقترن بذلك عذاب السعير، فما ظنك وموجود الآخرة ينشأ عن هذه إلا ما لا يبلغه وهم متوهم.

والسعر يلهي بما هو عن كل شيء سواه، وهو عذاب الشياطين فيما أعد الله لهم فيما هنالك، ولاقتران كل إنسي بشيطان كان له قرينًا في دار الدنيا، سرى عذاب السعير إلى الإنس، كما أصاب الشياطين غيره من عذاب جهنم؛ لاقترانهم بالإنس، وعذاب جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - يعمهم.

قال الله ﷻ في الشياطين: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ * وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ [الملك:٥ - ٦].

وقال أيضًا: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان:١١ - ١٣] أي: جن بإنس وإنس بجن.

وقال جل قوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف:٣٦] وكما كان له قرينًا في الدنيا، فكذلك هو قرينه في الآخرة.

ألا تسمعه جلَّ من قائل: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ القَرِينُ﴾ [الزخرف:٣٨].

يقول الله - جلَّ قوله - لكل قرين منهم: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ اليَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي العَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف:٣٩].

ولذلك قال: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٨] وقد تقدم من ذكر اقترانهم قبل هذا ما يغني عن التطويل.

فصل

يضاعف العذاب على أئمة الضلال بما أضلوا غيرهم، وضلوا هم في أنفسهم، كما قال الله جلَّ قوله: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل:٢٥].

وقال جلَّ قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ الله زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ

العَذَابِ﴾ [النحل:٨٨] على الاتباع الذي عبَّر عنه قوله الحق: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٨] فهو - والله أعلم - لأجل اقترانهم بأقرانهم الذين أضلوهم من الشياطين، فيصيب هذا عذاب هذا.

يقول بعضهم لبعض: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ فتقول لهم الخزنة: ﴿فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٣٩].

ويكون تضعيف العذاب أيضًا بحكم الميراث يرث الكافر منزل المؤمن في جهنم، كما يرث المؤمن منزل الكافر في الجنة وملكه وأهله ﴿إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ﴾ [الزمر:١٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العَذَابَ﴾ [النساء:٥٦] الصلى قد يكون العرض، وهو عذاب الدار الوسطى.

قال الله ﷻ: ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة:٩٣ - ٩٤].

تقول العرب: «صلى فلان عصاه» إذا أدارها على النار.

ومنه: الصلى والاصطلاء بمعنى المباشرة، تأمر من ذلك: صلْ النار يا هذا؛ أي: باشر حرها، فإذا ألقي فيها تقول: أصل النار وأصليته وصليته أنا تصليةً.

قال الله ﷻ: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطور:١٦].

﴿اصْلَوْهَا اليَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [يس:٦٤].

النضج هو الطبخ - أعاذنا الله الرحيم برحمته من عذابه - وهو نوع من العذاب، وحال من أحوالهم، وهذا كله من عذاب الدار الوسطى دار البرزخ، وهي دار يجتمع فيها لأهل الإيمان والعمل بطاعة الله ما يفضل على نعيم الدنيا، ولم يلحق بنعيم الآخرة كذلك يجتمع لأهل الكفر والتكذيب ما يفوق عذاب الدنيا، ويقصر عن موجود عذاب الدار الآخرة، وهناك هو أشد العذاب ذلك العشاء، والغبش فيهما من ضياء النهار وظلام الليل.

والشي والاحتراق حالان من أحوالهم، نعوذ بالله من أحوال النار في الدنيا والآخرة.

والصهر للجلود ولما في البطون أحوال تحول عليهم بمصبوب الحميم، ليس

كالمعهود في الدنيا إنما هو صب يصب عليهم، فتقع الجلود كشطًا لها عنهم، ويصل ذلك إلى أجوافهم، فيصهر حشوه فتقع من دبره، ثم يسجرون في النار على حالهم تلك؛ أي: يوقدون فيها، فإذا انتهوا إلى ذلك عادوا إلى ما كانوا عليه، ثم يذوقوا عذابًا غيره هكذا أبدًا.

ولا عبرة باعتراض من اعترض بمعنى الغيرية في قوله جلَّ قوله: ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ فإن الجلود مخلوقة من أجسامهم، وذلك مشاهد بالوجود، فإنا نرى من أصاب الجسد منه خدش أو سجح موضع منه، أخلف الله ﷻ من نفس الجسد جلدًا متصلاً به، وهو غير ذلك الجلد المسلوخ، وعلى ذلك فإنه جلد لذلك العضو، فهو الذاهب غير، وهو خالف له من نفس الجسد الذي كان الذاهب جلدًا له وهو منسوب إليه، ولم نرَ جلدًا آخر أحرقته النار خلف جلد مكانه شبيه الأول في بشرة ولون، وتلك آية على تبديلهم جلودًا هي أقبح مرأى وهيبة من التي كانت قبل.

وهو الله الذي لا إله إلا هو المصور، لا يعجزه صورة يصورها في الحسن والقبح، فهذا تأويل آخر من تأويل قوله ﷻ: ﴿جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ ومن أصدق من الله حديثًا، وهذا من مقدره الغائب كإيجاده عن ذات الميت ذاتًا ينقل إليها الحياة، تشتق هذه الحقيقة من تلك الذات ليست الذات المشتقة منها، ولا هي غيرها، ولا يصح الاعتقاد ولا القول بأنها غيرها، بل هي موجودة منها وعنها بل هي هي، فإنها الذات التي أخذ عليها الميثاق في البدء الأول.

قال الله - عزَّ من قائل - يخاطب ذواتنا هذه ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ [الحديد:٨] أي: فيما هنالك إن كنتم مؤمنين؛ أي: بما أنبأناكم به من قضاء القضية وأخذ الميثاق عليكم، وتطلب ذلك في سائر الموجودات تُصب إن شاء الله.

أعقب ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦] العزيز في انتقامه، الحكيم الذي أحكم صورة جزائهم على صورة أعمالهم، فلم يعذب غير المسيء ولا أثاب غير المحسن، وذلك قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام:١٦٤] وهذا من مقدوره الغائب كإيجاده مثالاً للميت يكون ذاتًا له، ويكون ذلك المثال هو الحي يشتق هذه الحقيقة من حق تلك الذات التي بطنت بالموت،

ليست هذه المشتقة هي المشتقة منها، ولا يصح الاعتقاد، ولا القول بأنها غيرها بل هي موجودة منها وعنها.

قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاً ظَلِيلاً﴾ [النساء:٥٧].

قد تقدم القول في غير هذا الكتاب أن الجنة اسمها مأخوذ من المعنى الذي أجنه فيها هو لها، بمنزلة الروح الحاملة عبَّر عنه بقوله الحق: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧].

وقال رسول الله ﷺ: «**وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[١] بله ما أطلعتكم عليه.

وأمَّا الظل الظليل فهو ظل الله ﷻ، وأحد وجوهه أنه موجود الكفاية والوقاية والرفع والإكرام.

تنبيه:

ذكر ﷻ الجنة وأنهارها كناية عن ملكها وخلودها وأزواجها، ثم عطف ﷻ بالواو على ذلك في قوله: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاً ظَلِيلاً﴾ وقد وصفها قبل فيما وصف بأنه فيما هنالك في ﴿ظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ [الواقعة:٣٠ - ٣١] إلى غير ذلك من وصفه الحق.

وقال أيضًا جلَّ قوله: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا﴾ [الإنسان:١٣ - ١٤] وإذا كانت كما قال - جلَّ قوله - وقوله الحق ووعده الصدق: لا شمس فيها تؤذي بحرِّها، ولا ما يضادها من البرد والزمهرير كالمعهود في الدنيا، وأن معهود نفع الظلال في هذه دفع أذية حر الشمس، وحجب عن هبوب سموم الرياح بضرورها وحرورها وعصوفها وقصوفها، وإذا كان فيما هنالك لا أذية موجودة لشمس ولا برد لرياح، إنما هو الرضوان والرحمة يحولان معهم وبهم كل متحول، ويتقلبون كل منقلب، فما وجه الحكمة

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٧٢)، ومسلم (٢٨٢٤)، والترمذي (٣١٩٧) وأحمد (٨١٢٨)، والطبراني (٥٧٠٦)، وابن أبي شيبة (٣٣٩٧٣).

في إيجاد الظلال هنالك؟ وما الذي يدافع بها؟ وما الذي يصيب أحدهم متى برز عما هو ظل له إلى ما ليس هنالك بظل؟!

توجيه:

والله أعلم معهود «ما» هاهنا الاستجارة بالحرِّ من البرد وبالبرد من الحر، وبالاحتماء من الأذية والرياح بالجبال والبيوت، وبظلال ما خلقه الله ﷻ لها دفاعًا للأذية من النفسين، وما يتبعهما، وما يكون عنهما وقاية وطلبًا للدفاع والكفاية، ونحو ذلك.

وأما في الجنة التي هي دار الحيوان ومحل النعيم المقيم، فإنما هو الإكرام والتنعيم ليس فيما هنالك موجود يتوقى، ولا يدافع بما يقابله ويضاده، كما ليس في جهنم - أعاذنا الرحيم برحمته منها - موجود توقى به عظيم ما سلط عليهم، ولا شيء يدافع به ما هم بصدده، وقد يتفهم حال أهل الجنة فيما نحن بسبيل تبيانه بأن تتفهم تعذيب أهل جهنم، وما جاء في وصف أحوالهم.

قال الله ﷻ: ﴿انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ * انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ [المرسلات:٢٩ - ٣٠] أي: تفرع إلى ثلاث أحوال، الله أعلم بما يتفرع إليه كل حالٍ، أحد الشعب: إنه ظل ﴿لَا ظَلِيلٍ﴾ أي: لا يدفع مكروهًا ولا يوقي محذورًا.

والثاني: ﴿لَا يُغْنِي مِنَ اللهَبِ﴾ [المرسلات:٣١] أي: ليس بكنين، فيستكن به من اللهب أو حريق أو غير ذلك.

والثالث: إن ذلك الظل من دخان النيران، فأشبه الظل بوجه ما في عدم نوره، وأشبه موجودات جهنم في ظلمته وأخذه بالأنفاس إهانة وتعذيبًا، كما قال جلَّ قوله: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة:٤٣ - ٤٤].

ثم أخذ ﷻ في وصفها - أعني: النار - بقوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ [المرسلات:٣٢] وجاء في وصفه لها: إنها فيما ليس بكن ولا واق شيئًا ترمي بذلك الشرر وهي صواعق، فتصيبهم دون حائل ولا دافع.

فظلال أهل الجنة إذًا على مفهوم هذا الإكرام والتنعيم يوجدهم ﷻ في الظل إكرامًا ما ينعمهم به، ويوجدهم في البروز على الظل إكرامًا ما ينعمهم به يعرفون به

ذلك من هذا، كما يعرف أهل الدنيا فرق ما بين الشمس في البروز إليها، وبين الظلال باختلاف منافعهم في ذلك ومضارهم، وإنما هو فيها هنالك الرضوان والرحمة ثم الإكرام والتنعيم.

فصل

أما في الدنيا فمنافع الظلال والتبرر عنها مفهومة معلومة، وقد جعل الله ﷻ ظلال ما هاهنا آيات على ظلال ما هنالك، فقال جلَّ قوله: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ [النحل:٨٠] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ [النحل:٨١].

ثم ذكر جلَّ ذكره الوقايات بقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ ثم عبَّر بالذكر جلَّ ذكره إلى حال الدار الآخرة؛ ليرفع همم العباد صعدًا، فقال جلَّ قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما في هذه فعلنا ﴿يُتِمُّ﴾ الله ﴿نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ بدخول الجنة ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل:٨١] هذا من الإسلام بخفض اللام ورفع التاء، وفيه محذوف تقديره: يبين لكم آياته لعلكم تسلمون.

وقرئ: «لعلكم تَسْلَمون» من السلامة؛ أي: لعلكم تسلمون فتسلمون مما هو أدهى وأمر، ومباشرة ما هو أكرم دفاعًا ووقاية، وظله - تبارك وتعالى - في البرزخ دفاع عذاب ما هنالك وفتنته وظلال جناتها، كما قال جلَّ قوله: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٩].

وظله في عرصة القيامة: دفاعه وحفظه وتأمينه وتأنيسه، وظل العرش يومئذٍ، وظله في الجنة ما تقدم ذكره والرضوان والتنعيم والرحمة.

توجيه آخر:

إن الله ﷻ فما سخر لنا في هذه الدنيا السماء والأرض، والشمس والقمر والنجوم، والليل والنهار والأنهار، وكل ما دخل تحت قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [الجاثية:١٣] جميعًا منه، فهو كله مسخر لابن آدم في الدنيا وبخاصة المؤمن، فإن ذلك كله قد زاد في التسخير له بالهداية والإرشاد

وتعليم العلم، والإخبار له بما جعل له وبمن جعله، وما المراد منه وبه شهادته وغيبه.

وجميع ذلك بالضد للكافر في الدنيا من حيث الإضلال والفتنة، والتعمية والتلبيس ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد:٣٣] ثم هو في عرصة القيامة، كل ما ذكرناه يشهد للمؤمن بقبوله منه وهدايته به ويشفع له، ويشكر له ما فرط منه فيه، وهو للكافر شاهد عليه متبرئ منه معذب له - نعوذ بالله من ذلك - تعود سخرية له في الدنيا عدوانًا في حقه، ويلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون، ثم هو في دار القرار على ما تقدم ذكره على سنن النشء، فافهم.

وبوجه آخر:

قال رسول الله ﷺ: «**ترون ربكم عيانًا كما ترون الشمس صحوًا ليس دونها سحاب، وكما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيتهما ولا تضارون**»[1] وهذه رؤية على الدوام، كما أن الشمس يخلفها القمر ليلة البدر، والقمر تخلفه الشمس من غد ليلة البدر، لكن ذلك واحد لا يأتي معه.

وأما ذكر الشمس والقمر لما علمه من أفول الشمس وأفول القمر، فجمع بينهما؛ إذ الرؤية على الدوام لا تتحصل إلا بمجموعهما، وما هنالك لا أفول ولا تنقل ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ﴾ كناية عن الآخرة ﴿وَالأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧] كناية عن الدنيا هذه زيادة على ما له من المثل الأعلى اليوم في السماوات والأرض، فافهم ذلك.

وقال سبحانه وله الحمد: ﴿وَخَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ ثم قال وقوله الحق: ﴿وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية:٢٢] إشارة إلى ما تقدم ذكره، فراجع النظر من مبتدأ الكلام في هذا المعنى تفهم المراد إن شاء الله تعالى، وهو المستعان.

وقال وقوله الحق: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحَقَّ﴾ [النور:٢٥].

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٧٧٣)، ومسلم (٢٩٦٨)، والترمذي (٢٧٥٢)، وأحمد (١١٤٢٦)، والنسائي في الكبرى (٧٧٦٢)، والطبراني (٢١٨٤).

وقوله جلَّ قوله: ﴿وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية:٢٢].

قال وقوله الحق: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ﴾ [النور:٢٥] فأنبأك ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، إن عقلت معنى الخطاب، ووقفت على سر المراد أنه هو الحق المبين لهذا الحق المخلوق به السماوات والأرض، فعلى هذا إن هذا الحق المذكور ينشأ به التحقيق والتبيين في الدار الآخرة، إن الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه يكون المرئي يومئذٍ على الدوام دون أفول، كما نرى الشمس والقمر.

ولما كانت الشمس والقمر قد جعل ﷻ بأمره لهما من المنافع ما تقدم الكلام على بعضه في موجودات هذه الدار، وليس فيما هنالك شمس ولا قمر ولا نجوم ولا كواكب، بل هو ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه يومئذ المرئي، والحق الذي نشأ إليه حق ما هنا، فموجودات ما هنالك، وأمر ما هنالك موجود كله عن الحق المبين لا بوسائطه ما هاهنا، بل على القرب والكشف كما نوَّع الاستظلال بظلال ما خلفه، وميز ما بينه وبين البروز عنه برحمة منه، هي دفاع ضر هذا بنفع هذا، وكفاية ما جعل في هذا، أو نفعه لما يقابله من هذا من نفع أو ضر بلطفٍ لهم ببره، ويعلمهم بحسن تدبيره ليريهم من آياته ما يذيقهم من بأسه بهذا، وبما يدفع عنهم برحمته، فهذه على موجودات دار القرار.

وكل ذلك من رحمته وكريم بره، كذلك فاعلم ينوّع ﷻ بنعيمه إياهم رضوانه وإكرامه، كيف لا وهو القائل جلَّ قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧] أما مثلهم في دار البرزخ حال موتهم، فهو أن السماوات والأرض، وما بين ذلك موجود كله وهم - أعني: الأشقياء والسعداء - هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار، كما عبَّر عنه قوله الحق: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا...﴾ [النساء:٥٦].

وقال في السعداء: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاً ظَلِيلاً﴾ [النساء:٥٧] فنفسا جهنم موجودان اليوم حال الموت صير الله الكفار إلى حقيقتهما، وبخاصة إلى النار كما تقدم، وأما السعداء فهم كما قال الله وقوله الصدق: في جنات وفي ظل ظليل، لا يصيبهم من نفسي جهنم الموجودين في دار الدنيا في حال البرزخ حال موتهم الظاهر، بل هم في ظل ظليل اليوم، كما تقدم القول في هذا المعنى، فكانوا في الدنيا يكنهم بالأبنية

والمباني البيوت والأكنان وغيرها، فلما ماتوا أدخل أولياءه المؤمنين الجنة، فهم في الظل الظليل، وأدخل أعداءه سموم الحرور، وما تقدم في توجيهات من كلام تنويع لحقائق هم واجدوها هؤلاء وهؤلاء.

وعلى القول بالإجمال، فالظل على ضربين الكفاية والوقاية، كقولهم: أنا في ظلك؛ أي: في كفايتك، وهو الأصل في هذا الشأن، ظل الظواهر كظل البيوت والأشجار وغيرها؛ لما فيها من الوقاية، فالمؤمنون مأواهم بعد الموت الآن الجنة في دار البرزخ، ولا ينالهم حرور ولا زمهرير، كما قال - عزَّ من قائل - في شأنهم: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان:١٣].

والكفار مأواهم جهنم اليوم، وبخاصة النار منها، ثم يوم القيامة يعيدهم المبدئ المعيد ﷻ ليوم الجمع بما فيه، ثم يصيرهم فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير، وهو أشد العذاب وهو دار القرار، فإخراجهم إلى البعث هو المستثنى من الخلود بين العذاب الأوسط والأخير، لما مات أحدهم كافرًا كان جزاؤه الخلود في جهنم، ثم يتصل حكم الخلود أيضًا، ولما كان من فضائله الحق أن يجمع الأولين مع الآخرين في صعيد واحد، استثنى تلك المدة من حكم الخلود وهو الخلود.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا...﴾ إلى قوله جلَّ قوله: ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[١] [النساء:٥٨] الأمانة: كل ما ائتمنت عليه بنية توجب عليك

---

(١) نزلت هذه الآية في عثمان بن طلحة الحجبي من بني عبد الدار، وكان سادِنَ الكعبة، فلما دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح أغلق عثمانُ باب البيت وصَعَدَ السطح، فطلب رسول الله ﷺ المفتاحَ، فقيل: إنه مع عثمان، فطلبه منه رسول الله ﷺ فأبى، وقال: لو علمتُ أنه رسول الله لم أمنعه المفتاح، فَلَوَى عليٌّ ﷺ يَدَهُ فأخذ منه المفتاحَ وفتح البابَ، فدخل رسول الله ﷺ البيتَ وصلى فيه ركعتين، فلمّا خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح وأن يجمع له بين السِّقاية والسِّدانة، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فأمر رسول الله ﷺ أن يرُّد المفتاحَ إلى عثمان ويعتذرَ إليه، ففعل ذلك علي ﷺ، فقال له عثمان: أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق، فقال علي: لقد أنزل الله تعالى في شأنك قرآنًا وقرأ عليه الآية، فقال عثمان: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، وكان المفتاح معه، فلمّا مات دفعه إلى أخيه شيبة، فالمفتاح والسدانة في أولادهم إلى يوم القيامة. [تفسير البغوي (٢/٢٣٨)].

أداءها بحكم أحكام الدنيا.

والأمانة الكبرى ما قررك من الإقرار له بالربوبية، وعلى نفسك بالعبودية، والتزام التوحيد والإيمان بالله وبرسله وكتبه، وأشهدك بذلك على نفسك، ثم أوجدك بها ونبهك بشواهده وآياته، وأكد ذلك بإرساله وإنزاله الكتب، فهذا أمانته عندك؛ لتؤديها إليه يوم رجوعك إليه، كما أشهدك إياها وشهد بها عليك، ثم ما ائتمنك عليه من مقتضى أوامره ونواهيه على جميع تفصيل ذلك أن تؤديها إليه في جملة أعمالك مما استودعته، وائتمنته إياه أن يؤدي ذلك إلى من استودعته، وأنت من طلاقة الوجه يوم الأداء وطيب النفس كاليوم الذي استودعك.

وأما معنى قول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٢٧] فالأمانات كلها في هذا الذكر، وهو أعلم ما جعله في قلوب العباد من زواجر على إتيان معاصيه، وترغيب ونزاع إلى العمل بطاعته، وذلك عظمه في قلب كل مؤمن.

وقد بيَّن القرآن العزيز هذه الأمانات ما هن، وبيَّنها رسول الله ﷺ، وأن جملتها قوله جلَّ قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العنكبوت:٧] وأن ظلهم الذي يدخلهم فيه على الإجمال ما عبَّر عنه قوله الحق ﷻ: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢].

وقوله الحق: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة:٢٥٧].

و﴿اللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٦٨].

وأن ظله الظليل في الدنيا: الهداية والولاية، والإرشاد إلى ما يرضيه، والعون منه والاستعمال له، وفي عرصة يوم القيامة ظل الغمام من حرِّ هجير جهنم إذا قربت من وهج الشمس يومئذٍ، إذا هي أدنيت من الخلائق.

وأن ظله في دار القرار: ما عبَّر عنه اسم الرضوان، حديث رسول الله ﷺ الذي ذكر فيه: «**سبعة يظلهم الله بظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله**»[1] يعني: انقطاع الدنيا

---

(١) أخرجه مالك (١٧٠٩)، والبخاري (٦٢٩)، ومسلم (١٠٣١)، والنسائي في الكبرى (٥٩٢١)، وأحمد (٩٦٦٣)، والترمذي (٢٣٩١) وابن حبان (٤٤٨٦)، وابن خزيمة (٣٥٨)، والبيهقي في =

وأهلها، وظلال ما خلق الله ﷻ فيها، وأن ذلك هو في دار البرزخ وعرصة القيامة، ودار القرار وفي الجنة.

وبعبارة أخرى:

ظل الله هناك دفاعه المكروه على الكمال، وكانوا في الدنيا قد صدقوا وآمنوا بالجنة والنار، فوقاهم الله عذاب النار وأنالهم الجنة بنعيمها، وبما آمنوا بموجودات تينك الدارين، وأخذوا علم ذلك مما هنا في هذه الدار أعطاهم الله موجودات ما هنالك، وزادهم على علومهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وبالضد في الكافرين، وكانوا في الدنيا يستريحون من حرِّ الشمس إلى الظل لبرده، ويستريحون من برد الزمهرير بحرِّ الشمس، فلما أدخلهم الجنة لم يكن فيها شمس، ولا زمهرير إنما هو ظل الله وكنفه ووقايته وتنعيمه وإكرامه، كما كانوا في الدنيا في ظل إيمانهم به وعملهم له، وكان معهم بذكرهم كما قال الله عِزَّ من قائل: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨].

وأبعد أولئك ﷻ لبعدهم عنه بعدم الإيمان، والعمل بما كذبوا بالجنة والنار، ولم يروهما بآياتهم التي كانت تغدو عليهم، وتروح تغدو بهم، وتعلو بهم في ذواتهم منعوا هذه، وتوعرت عنهم حبيبة المحبوب، من حيث إن الله هو المحبوب الأكبر لا أكبر معه، وهو في جواره وظل الجوار معلوم ومعهوده الإكرام وحسن الدفاع.

أعقب ذلك قوله الحق: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾[1] [النساء:٥٨] ثم القول الذي تقدم، وهو ما عبَّر عنه قوله الحق:

= شعب الإيمان (٧٩٤).

(١) أي: إن الله يأمركم إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل، والعدل: هو فصل الحكومة على ما في كتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ، لا الحكم بالرأي المجرد، فإن ذلك ليس من الحق في شيء إلا إذا لم يوجد دليل تلك الحكومة في كتاب الله ولا في سنة رسوله، فلا بأس باجتهاد الرأي من الحاكم الذي يعلم بحكم الله سبحانه، وبما هو أقرب إلى الحق عند =

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [النساء:١٢٢] فهو مصداق لقول رسول الله ﷺ: «**سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل**»(١).

وهو قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ السبعة الأصناف من الإيمان والعمل الصالح، لكنه أكد على الحكام في العدل لما في ذلك من الأثرة لهم يومئذٍ.

عبَّر عن ذلك قول رسول الله ﷺ: «**المقسطون على منابر من نور في ظل العرش، أو تحت ظل العرش يفزع الناس ولا يفزعون**»(٢).

أجمل ذلك قول الله جلَّ ذكره: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ﴾ لما أمن الناس ظلمهم ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢] أي: اليوم بإيمانهم وعملهم الصالح.

أعقب ذلك قول الحق: ﴿إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾ أبلغ في الموعظة ذكر جهنم فأبلغ في الوصف، وذكر الجنات فأبلغ، وذكر ظله الظليل وجواره الكريم فأشفى، وبالغ في التشويق والترغيب في إيجاز قول وكريم عبارة، وأمر بآداء الأمانات إلى أهاليها تعم المأمور كله، والمنهي كله وجوهه لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا عملاً مقبولاً لمن لا إيمان له، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة.

والوعظ يكون ترغيبًا وترهيبًا، وأصله في الترهيب لكنه لما كان الوعظ تحذيرًا من فوت المحبوب كان ترغيبًا، فوعظهم الله ﷻ أن يفوتهم ما تقدم ذكره من المحبوب والفوز العظيم، ورهبهم جلَّ ذكره بما يضاد الإيمان والعمل الصالح، فتكون المجازاة من قبيل ذلك، ويذكرهم جلَّ ذكره بذكر الظلم إنه ظلمات يوم

= عدم وجود النص، وأما الحاكم الذي لا يدري بحكم الله ورسوله، ولا بما هو أقرب إليهما، فهو لا يدري ما هو العدل؛ لأنه لا يعقل الحجة إذا جاءته، فضلاً عن أن يحكم بها بين عباد الله. [فتح القدير (٢/١٦٥)].

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه بنحوه الطبراني (١٥٤).

القيامة، وفي الدار الوسطى والدار الآخرة في الظلمات السفلى، حيث لا نور ولا منبر.

فصل

حكم العدل في الحكم بين الناس من صلة الرحم.

قال رسول الله ﷺ: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**» قيل: هذا ينصر المظلوم، فكيف ينصر الظالم؟ قال ﷺ: «**تأخذون على يده فيكفه ذلك عن الظلم فذلك نصر له**»[1] ذكرهم جلَّ ذكره بالعدل بين الناس؛ إذ مشي العدل على الصراط وبأداء الأمانة حقوق الأمانة، والرحم جنبتي الصراط بما يكون مع ذلك من كلاليب وخطاطيف وحسك وشائكات وعثار.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣)﴾ [النساء: ٥٩ - ٦٣].

لذلك قال جلَّ قوله: ﴿إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾ [النساء:٥٨] من ذلك في الآية بعدها في قوله جلَّ قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٤) والترمذي (٢٤٢١) وأحمد (١٢٢٧٣) وأبو يعلى في مسنده (٣٧٣٥) والبيهقي (٢٠٦٧٢) وعبد بن حميد (١٤٠٤) وابن حبان (٥٢٥٩) والطبراني في الصغير (٥٧٧).

الأَمْرِ مِنكُمْ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ لكم ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء:٥٩] فكان وجه الخطاب في الآية الأولى إلى الحكام، وفي الآية الثانية إلى الأتباع والمحتكمين ألا يخرجوا عن أحكام المسلمين.

أتبع ما هو في معناه قوله الحق: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾(1) إلى قوله تعالى: ﴿ضَلالاً بَعِيدًا﴾ [النساء:٦٠] إلى قوله: ﴿صُدُودًا﴾ [النساء:٦١].

كما قال جلَّ قوله: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا﴾ [النساء:٢٧] كذلك إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم....﴾ [النساء:٦٩].

هؤلاء هم المنافقون: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ [النساء:٦١] صدوا عنك وأبوا.

يقول عزَّ من قائل: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وهو على حالهم من تبريهم من الله جلَّ ذكره ومنك ومن المؤمنين إلى ما يركنون ممن يستغيثون من كشف ما بهم ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ﴾ [النساء:٦٢] حرف «ثم» للعطف على حالهم تلك في بواطنهم، وهي حال النادمين الراجعين على أنفسهم

---

(1) قال الشعبي: كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد؛ لأنه عرف أنه لا يأخذ الرّشوة ولا يميل في الحكم، وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود؛ لعلمه أنهم يأخذون الرشوة ويميلون في الحكم، فاتفقَا على أن يأتيا كاهنًا في جُهينة فيتحاكما إليه، فنزلت الآية. وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: نزلت في رجل من المنافقين يقال له: بشر، كان بينه وبين يهودي خصومة، فقال اليهودي: ننطلق إلى محمد، وقال المنافق: بل إلى كعب بن الأشرف، وهو الذي سماه الله الطاغوت، فأبى اليهودي أن يخاصمه إلا إلى رسول الله ﷺ، فلما رأى المنافق ذلك أتى معه إلى رسول الله ﷺ فقضى رسول الله ﷺ لليهودي، فلما خرجا من عنده لزمه المنافق، وقال: انطلق بنا إلى عمر ﷺ فأتياه، فقال اليهودي: اختصمتُ أنا وهذا إلى محمد فقضى لي عليه فلم يرض بقضائه وزعم أنه يخاصم إليك، فقال عمر ﷺ للمنافق: أكذلك؟ قال: نعم، قال لهما: رويدكما حتى أخرج إليكما، فدخل عمر البيت وأخذ السيف واشتمل عليه، ثم خرج فضرب به المنافق حتى برد، وقال: هكذا أقضي بين من لم يرضَ بقضاء الله وقضاء رسوله. فنزلت. وقال جبريل: إن عمر ﷺ فرّق بين الحق والباطل، فسُمي الفاروق. [تفسير البغوي (٢/٢٤٢ - ٢٤٣)].

باللوم لشدة الندم.

يقول الله جلَّ من قائل: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ إشارة إلى ما فيها من الندم مع الإباء عن الإقلاع، واللجاج فيما هم بصدده، يقول عزَّ من قائل: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾[1] [النساء:٦٣] هذه حالة العاصي ربه إذا دهمته عواقب سوء أعماله، فلا يجد من يرجع إليه إلا إلى الله جلَّ ذكره فيجد في قلبه شبه التقريع والتقرير والوعظ والتعريف له، والتوقيف على قبح صنعه، ويستشعر الإعراض عنه وعسر الإجابة، ودفع الاستيعاذ حالته تلك، فإذا قيضه الله للعزم على التوبة فعسى أن يستجاب له.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) قوله: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ وفيه وجوه: أحدها: إن في الآية تقديمًا وتأخيرًا. والمعنى: قل لهم قولاً بليغًا في أنفسهم مؤثرًا في قلوبهم يغتنمون به اغتنامًا ويستشعرون منه الخوف. الثاني: وقل لهم في معنى أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المطوية على النفاق قولاً بليغًا هو أن الله يعلم ما في قلوبكم، فلن يغني عنكم الإخفاء، فطهروا قلوبكم عن دنس النفاق وإلا فسينزل الله بكم ما أنزل بالمجاهرين بالشرك أو شرًا من ذلك وأغلظ. الثالث: قل لهم في أنفسهم خاليًا بهم مسارًا لهم بالنصيحة، فإن النصح بين الملأ تقريع وفي السر أنفع قولاً يؤثر فيهم. وقيل: القول البليغ يتعلق بالوعظ، وهو أن يكون كلامًا حسنًا وجيز المباني غزير المعاني يدخل الأذن بلا إذن، مشتملاً على الترغيب والترهيب والإعذار والإنذار. [تفسير النيسابوري (٣/٢٠)].

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ﴿٧٢﴾﴾ [النساء: ٦٤ - ٧٢].

ثم بيَّن ﷻ كيف المأتى لهذا الشأن بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٦٤] هذا باتصال الولاية والحذر والوقوع في محظور؛ إذ ذاك يجد الله توابًا، إنما الهرب كله إلى الله ورسوله والكتاب والأولياء، والله العوض من كل مفقود ﷻ؛ لذلك قال: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات:٥٠] وإلى ربه يفزع اللهفان ذلك أقرب مأخذًا وأسهل مسلكًا من الخروج من الأوطان وقتل النفس، ولو كلفوا ذلك فالهرب إلى الله والرسول والكتاب خير وأشد تثبيتًا، وأكرم عائدة وأجزل فائدة، وأقرب إلى الهداية بسواء الصراط.

وربما ألحق بالأولياء كما جاء: إنه ليقول في الثالثة: «**من الهرب إليه**» والرابعة: «**عبدي اعمل ما شئت فقد غفرت لك**»[1] على هذا إشارة الله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ....﴾ [النساء:٦٩].

ثم أخذ ﷻ في ذكر الجهاد والحض عليه، والتنفير عن المنافقين وأهل الكتاب وأعمالهم، وعن قبول كلامهم، ويأمر بالإعراض عنهم وإغلاظ القول لهم، ويذم أهل الكتاب، والذين يكلوا عن القتال لما كتب عليهم، ويقلل لهم في ذلك عمر الدنيا، ويزهدهم في البقاء فيها، ولا بقاء هذا كله من ذكر أهل الكتاب والمنافقين تأديبًا لنا بغيرنا بعمله المحيط بما هو كائن فينا ومنا.

﴿ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٧٣﴾ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (٧١٦٢)، وأحمد (١٠٦٥١)، وأبو يعلى في مسنده (٦٤٠٢)، وابن حبان (٦٢٧).

أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ [النساء: ٧٣ - ٧٨].

قوله ﷻ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ الله وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾[1] [النساء:٧٨] أشبهت قلوبهم قلوب الكفار قبلهم، فتشابهت أقوالهم لأنبيائهم، فكانوا إذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا: هذه، وإن تصبهم سيئة يطيروا بأنبيائهم كما قال أولئك: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس:١٨].

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ﴾ [الأعراف:١٣١].

قال الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ الله فَمَالِ هَؤُلاءِ القَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٧٨] والفقه: فهو معرفة مخارج الأمر والنوازل من الحوادث من حيث ظهرت، وأصولها التي عنها انبعثت، ولو فقه هؤلاء لعلموا أن

---

(١) ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هذه مِنْ عِندِ الله وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هذه مِنْ عِندِكَ﴾ نزلت على ما روي عن الحسن وابن زيد في اليهود، وذلك أنهم كانوا قد بسط عليهم الرزق، فلما قدم النبي ﷺ المدينة، فدعاهم إلى الإيمان فكفروا أمسك عنهم بعض الإمساك، فقالوا: ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا مذ قدم علينا هذا الرجل، فالمعنى: إن تصبهم نعمة أو رخاء نسبوها إلى الله تعالى، وإن تصبهم بلية من جدب وغلاء أضافوها إليك متشائمين كما حكى عن أسلافهم بقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بموسى وَمَن مَّعَهُ﴾ [الأعراف:١٣١].

الحسنة هي بفضل الله ورحمته، وأن السيئة منبعثها عن سوء أعمالهم جزاء من الله ﷻ لذنوبهم؛ لعلهم يذكرون.

ثم فصَّل بقوله الحق ﷻ: قيل: يا محمد، ويا أيها العبد ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩] أي: بشؤم ذنوبك وجزاءً معاصيك لقوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠].

﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩) مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (٨٣) فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا (٨٤)﴾ [النساء: ٧٩ - ٨٤].

ذلك قوله الحق: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِالله شَهِيدًا﴾ [النساء:٧٩].

كما قال جلَّ قوله: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا البَلاغُ﴾ [الشورى:٤٨].

بيَّن ذلك قوله: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ الله وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

أتبع ذلك قوله جلَّ قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢] وعلى القول بالتحقيق، فإن الله ﷻ يعلمون منه بدءًا إلا ما هو الخير والإحسان، وإنما يتطرق السوء والمكروه كله من قبل أنفسنا وأعمالنا، ومن قبل الغير، اعتبر ذلك بفعله بآدم ﷺ كيف صوَّره، أحسن خلقه وعلمه، ونوه به في الملأ الأعلى، وأسكنه جنته وبوأه منها ما شاء بعد أن

زوجه، وبلغه ما لم يأمل، ثم أنظر بماذا أخرجه عن مسكنه ذلك، وأزعجه عن قراره، وكذلك خلقه المولود في طبقات خلقته، ثم كيف يخرجه وإلى أي لطف، وأي تيسير وتسبيقه له الإحسان في ذاته ومعاشه ودينه، ثم انظر ما الذي يباعده عنه بعد الإعذار والإنذار بالحق اليقين؛ إذ أنه ما أصابنا من حسنة فمن الله، وما أصابنا من سيئة فمن أنفسنا وشؤم أعمالنا، والحمد لله.

لهذا قال عزَّ من قائل: ﴿فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٧٨] دلَّ - سبحانه وله الحمد - على سبيل التفقه في كتابه العزيز، وأن بالتدبر يزداد التفكر وبتثوير[١] بعضه من بعض يكون الفقه فيه والفهم عنه، فانتظم هذا بما قبله أو بما يكون من بابه في القرآن العزيز، يقول: تدبرت القول؛ أي: قايست بعضه إلى بعض، وناظرت بين فصوله ومعانيه.

قال الله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد:٢٤].

وقال جلَّ قوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون:٦٨] يعني: يتعرفونه بصدقه، وإنباء بعضه على بعض وتناظره، ومطابقة بعضه بعضًا، فهو واحد أحد لو كان من عند غيره لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا، فهذا يدلك - إن شاء الله ﷻ - على أن القرآن كله أنزله منزله ﷻ ليُعلم وليُفهم، لكن ليس ذلك إلا للعالمين.

ألا ترى أن معنى قولهم: «تدبرت الأمور» تطلبت مبادئها ومآلها، وتقديم ما هو الأولى بالتقديم منها، وتأخير ما هو أولى بالتأخير، وكيف ومتى وأين، كذلك تدبر القول على هذا النحو.

فصل

لما كان العالم كله أوله وآخره، علوه وسفله، ظاهره وباطنه محكمًا متقنًا متفقًا متفق الاختلاف، وربما كان في داخله مختلف الاتفاق، راجعًا بجملته إلى الاتفاق مفصلاً وموصلاً، ومصورًا أحسن صورة، مقدرًا أحسن تقدير، قد أعلى منه صانعه الحكيم ما هو أولى بالعلو، وأسفل منه ما هو أولى بالسفل، وأظهر منه ما هو أولى

(١) تثوير القرآن: قراءاته ومفاتشة العلماء به. انظر: تاج العروس (٢٥٧٩/١).

بالظهور، وأبطن منه ما هو أولى بالإبطان؛ ذلك لأن فاعله واحد حكيم، وجاعله أحد صمد ومدبره رحمن حليم.

وكذلك كتابه الحكيم متفقًا متشابهًا، شاهدًا بعضه لبعضه، عاضد بعضه بعضًا قد نزهه منزله ﷻ عن الاختلاف، وباعده عن منزلة التناقض هو الحق وفعله الحق، وحكمه الحق لا إله إلا هو العلي الكبير، وكما تعرف كلام المتكلم قد تقدمت به معرفة، وإن كان يكلمه من وراء حجاب، فكذلك تتعرف كلام ربك في القرآن، وغيره من الكتب إذا كنت قد عرفته من أسمائه وشواهد شهادات عالمه وسفله.

قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣] هذا كلام منتظم بما قبله من ذكر المنافقين والمناجين منهم بالإثم والعدوان، وتخويف الذين آمنوا.

وقد يرد بوجه إلى ما تقدم من قوله عزَّ قوله: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء:٥٩] والأول أوجه.

فصل

ذكر أهل النقل إن هذه الآية نزلت في إيلاء رسول الله ﷺ في أزواجه، وقول القائلين: طلق رسول الله ﷺ نساءه، وأكثروا في ذلك فاستأذن عمر رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله أطلقت نساءك؟ فقال «لا»[(١)].

وهذا وإن كان فيه شرب من معنى الآية، فإذا نظرته يقول الله جلَّ قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ [النساء:٨٣] تجده عين محيط بمعنى ما صدر به الخطاب الأول، والله أعلم أن يكون قوله جلَّ قوله: ﴿أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ﴾ مصروفًا إلى قولهم هذا من شأن الإيلاء.

وقوله ﷻ: ﴿أَوِ الخَوْفِ﴾ المراد به: تناجيهم بما يرومون به تقلقل قلوب

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٦٩)، والنسائي (٣٤٦٨)، والطبراني في الكبير (١٢٠٦٢)، وابن حبان (٤٢٦١).

المؤمنين وتحزينها.

وقوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى اللهِ﴾ ؛ أي: توكلاً عليه، و﴿الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ أي: الأمراء وقواد الجيوش والعالمين بأخبار عدد المسلمين، وبباطنه رسول الله ﷺ ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣] أي: الأمر والخير المتناجى به منهم؛ أي: من أمراء الجيوش وخاصة الرسول، ولم يقل جلَّ ذكره ولا أخبروهم بذلك الأمراء، والخاصة لما عسى أن يكون في ذلك من إفشاء سرٍّ معد لنكاية عدو، أو لأمر يريده الله ﷻ ورسوله والمؤمنون.

وقد عديت هذه الآية إلى الفُتيا في النوازل، وليس يعطي ظاهر الخطاب ذلك القول: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ [النساء:٨٣] اللهم إلا بأمره، واستعمال تأويل وتحرير قياس، وقد درج على ذلك الجمع الكثير والجم الغفير، وعسى أن لقولهم ذلك على كثرتهم شرب من الصواب والله أعلم، بل إنما يتبين ذلك بغير هذا من دلائل الشرع.

فصل

إن كان هذا هكذا فأهل الأمر ها هنا أهل الفقه والورع في دين الله ﷻ في قسم الأمن، قديمًا كان الولاة من هؤلاء هم خلفاء الله ﷻ في الأرض، وهم خلفاء الرسل - عليهم السلام - في الأمم، وإن كان الولاة من غيرهم، والرجوع إليهم بظاهر الحكم طاعة الله والرسول؛ لقوله ﷺ: «**اسمع وأطع ولو لعبد مجدع الأطراف**»[1].

وفي أخرى: «**ولعبد حبشي كأن رأسه زبيبة**»[2].

وفي أخرى: «**اسمع وأطع وأن أخذوا مالك وضربوا ظهرك**»[3] ولا تنزع يدًا من طاعة، وأما أولوا الأحلام الذين هم أولياء الله وخلفاؤه في أرضه، فالسمع والطاعة لهم ظاهرًا وباطنًا.

---

(١) أخرجه مسلم (٦٤٨)، والطيالسي (٤٥٢)، وأحمد (٢١٤٦٥)، وابن حبان (١٧١٨). مجدع الأطراف: مقطوع الأعضاء.

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٤)، والطيالسي (٢٠٨٧)، وأحمد (١٢١٤٧)، وابن ماجة (٢٨٦٠) والبيهقي (٦٣٨٣)، وأبو يعلى (٤١٧٦).

(٣) أخرجه بنحوه ابن حبان (٤٥٦٦)، وابن عساكر (٣٤/١٥).

قال الله ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥] ولأن العلماء ورثة الأنبياء - عليهم السلام - فطاعتهم في السر والعلانية واجبة.

قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:٣٨].

ثم قال جلَّ من قائل: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً﴾[1] [النساء:٨٣] انتظم هذا بما قبله من ذمِّ النجوى، ونهيه المؤمنين عنها؛ لأنها من الشيطان ليحزن الذين آمنوا؛ لذلك يقول الله - جلَّ قوله - للمؤمنين: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ في تنبيهه لكم، وتبيينه إياكم ﴿لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ المستثنى هنا من وجهين:

أحدهما: لاتبعتم الشيطان أيها المؤمنين إلا القليل منكم ممن لم يجعل الله ﷻ له عليه سلطانًا، كما قال جلَّ من قائل: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

والثاني: أن يكون استثني من جملة عمل المؤمنين، فلولا فضل الله على المؤمنين ورحمته لاتبعوا الشيطان في خطواته، وأمره لهم بالفحشاء والمنكر حتى لم يبقَ لهم من الإيمان إلا قليل، وربما كان ذلك القليل النطق بالتوحيد قد وهنته المعاصي وغمرته الخطايا، كما قال جلَّ من قائل: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [النساء:٤٦].

وقد سمى ﷻ ذكر المنافقين وإيمانهم قليلاً في قوله: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [النساء:١٤٢] وقليل هؤلاء وكثيرهم قليل غير مقبول.

وقد قيل: إنه استثني من قوله جلَّ قوله: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ أي: إنهم لو ردوه إلى أولي الأمر منهم والعلماء ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ إلا

---

(١) دلت الآية على أن الذين اتبعوا الشيطان فقد منعهم الله فضله ورحمته، وإلا ما كان يتبع، وهذا يدل على فساد قول المعتزلة في أنه يجب على الله رعاية الاصلح في الدين. أجاب الكعبي عنه بأن فضل الله ورحمته عامان في حق الكل، لكن المؤمنين انتفعوا به، والكافرين لم ينتفعوا به، فصحَّ على سبيل المجاز أنه لم يحصل للكافر من الله فضل ورحمة في الدين. والجواب: إن حمل اللفظ على المجاز خلاف الاصل. [تفسير الرازي (٣٠٦/٥)].

القليل من العلم المستنبط؛ إذ لا يحيط المخلوق بالعلم، ولا كل العلماء يعلمون كل العلم، فاستثنى هذا القدر لصدق قيله، وكمال إخباره عن الحق الذي هو أهله، وحقيقة الاستنباط هو استخراج باطن المعنى من ظاهر القول.

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾[النساء: ٨٥ - ٩٠].

قوله ﷻ: ﴿مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا...﴾ [النساء:٨٥] الكفل: المثل هنا.

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ [الحديد:٢٨] أي: مثلين، أو أجرين: أجر الإيمان بمحمد ﷺ، وأجر الإيمان بما أنزل من قبل.

والكفل: الحظ والنصيب، على المعهود من التضعيف والتقليل؛ لما كان من وعده ﷻ أن أعطى هذه الأمة على الحسنة عشرًا إلى سبعين إلى سبعمائة، إلى أن يؤتي جلَّ ذكره بغير حساب ﷻ النصيب في جنبه الحسنة؛ إذ النصيب يكون كثيرًا ويكون قليلاً، كما قال جلَّ قوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء:٧] وقد ضمن ﷻ المضاعفة، فهو إذًا هنا في موضع الكثير، ولما كان الكفل المثل

جعله في جنبه السيئة، كما قال جلَّ من قائل: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام:١٦٠].

فصل

شاهد ما ذكرناه حديث الإجارة، وأنه يعطي الأجراء كلهم قيراطًا، ويعطي الأجيرين منهم قيراطين قيراطين، ولما أعطوا قيراطًا قيراطًا وأعطوا هؤلاء قيراطين قيراطين قالوا: «ما لنا أكثر أعمالاً وأقل عطاء؟!» قال لهم: «**ذلك فضلي أوتيه من أشاء**»[1].

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد:٢٨].

ثم قال جل قوله: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢٩] فما أعطاه الله الأولين هو كفل ما عملوه؛ أي: مثل له، والله أعلم بمقداره بالإضافة إلى العلم في القلة والكثرة، وما أعطاه المتأخرين نصيب وضعف، وما أعطاه أولئك.

كما قال جلَّ قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء:٣٢] وذكر هذا على سبيل الوعد، والبشارة بالتضعيف المذكور.

وجاء في الكتاب الذي يذكر أنه الإنجيل ذكر المستأجر والمستأجرين على نحو ما ذكره رسول الله ﷺ، فذكر الساعة الأولى من النهار، والساعة السادسة والساعة التاسعة هي التي عبّر عنها رسول الله ﷺ بالعصر، وأن المستأخرين فيها هم هؤلاء؛ أعني: هذه الأمة.

وزاد فيما هنالك - أعني: الكتاب الذي يذكر أنه الإنجيل - مستأجرين في الساعة الحادية عشر، وهي والله أعلم وقت نزوله ﷺ، وهم العاملون معه يومئذٍ، فلما انقضى النهار قال صاحب الكرم لوكيله: ادعُ الأعوان وأعطهم أجورهم، وابدأ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٧٢) وأحمد (٤٥٠٨) والترمذي (٢٨٧١)، والبيهقي (١١٩٧٨) وابن حبان (٦٧٦٥) والطبراني (٣٠٦).

بالآخرين حتى تنتهي إلى الأولين.

قال: فبدأ بالذين دخلوا في الساعة الحادية عشرة، وأعطى لكل واحد منهم درهمًا، فأقبل الأولون وهم يرحبون الزيادة، فأعطاهم أجورهم.... إلى آخر المعنى.

قال - صلوات الله وسلامه عليه - ما هو متفق عليه مع أخيه محمد ﷺ قال: «إن أمة محمد يعطون قيراطين قيراطين، ومن قبلهم من أهل الكتاب يعطون قيراطًا قيراطًا».

ثم جاء خبر عيسى عليه السلام: «درهما درهمًا» وكلامه هذا على الساعة الحادية عشر، وأنه جلَّ ذكره سوى بين صدر هذه الأمة الصحابة والتابعين، إلى أن يأتي هو بمن يكون معه، فأعطاهم درهمًا فظنَّ الأولون بطول مقامهم أنه يزيدهم على الآخرين، فكان ما أجابهم، والله ذو الفضل العظيم.

قوله ﷻ: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء:٨٥] هو من القوت مقيت كل عبد بقدر عمله، وقد قيل: هو من الحظ، ذكر ذلك عن ابن عباس ﷺ، وقد قيل فيه بمعنى مقتدر ومقدر، والأوجه أنه مأخوذ من القوت أو القوت مأخوذ منه، ويشمله اسم المقدر، وهو الذي قدر الأرزاق والعطايا والمنع في الدارين.

وقد جاء عن رسول الله ﷺ: «**كفى إثمًا بمن يضيع من يقيت**»(١).

وفي أخرى: «**من يقوت**»(٢).

والمفهوم من معنى هذا الاسم في رأس هذه الآية، أنه يزن ما يشاء لمن يشاء بوزن يجعل في القلوب يومئذٍ الرضا، وفي العقول تعديله كما جعل ﷻ موازين الدنيا ومكاييلها، وهو معنى اسم المقدر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾(٣) [النساء:٨٦]

---

(١) لم أقف على هذا اللفظ.

(٢) أخرجه أحمد (٦٤٩٥) وأبو داود (١٦٩٢) والحاكم (١٥١٥) والبيهقي (١٥٤٧٢) والطيالسي (٢٢٨١) وابن حبان (٤٢٤٠) والنسائي في الكبرى (٩١٧٧) والطبراني (١٣٤١٤).

(٣) التحية: هي دعاء الحياة، والمراد بالتحية ها هنا: السلام، يقول: إذا سلّم عليكم مُسلّم فأجيبُوا بأحسن منها أو رُدُّوها كما سلّم، فإذا قال: السلام عليكم، فقل: وعليكم السلامُ ورحمة الله، وإذا قال: السلام عليكم ورحمة الله، فقل: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، فإذا قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردّ مثله، رُوي أنّ رجلا سلّم على ابن عباس رضي الله =

هي تحية السلام والله أعلم، وانتهى السلام إلى البركة، فقد قيل في بعض الروايات: إنه يريد إلى المغفرة، فيقول الراد: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ومغفرته.

وقيل: التحية هنا بمعنى الهدية والله أعلم، فمن قبل هدية مطلوب يهديها الجزاء عليها، فليرد مثلها أو أفضل منها.

وقوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء:٨٦] أي: مكافئًا إذا كان الحسْب ساكن السين كان بمعنى القدر، تقول: هذا حسب هذا؛ أي: على قدر.

وإذا حركت السين كان المعنى المراد به: الشرف، وقد يكون على ذلك بمعنى القدر، يقول: ليكن فعلك على حسب إحساني إليك، وبري بك في التحية في مقابلة السلام، والسلام من الله ﷻ على عباده الرحمة، ومن العباد بعضهم إلى بعض التحية.

والتحية من العباد إلى الله: يقول العباد في صلواتهم: «التحيات لله» أي: الملك لله والثناء الحسن، وكل اسم من أسمائه تحية؛ لذلك جمعها رسول الله ﷺ: «التحيات لله» ثم قال: «**الصلوات لله والطيبات - أي: الكلمات الطيبات - الزاكيات المباركات لله**»[1].

وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء:٨٦] أي: كافيًا كلما ذكره العبد بأسمائه وصفاته ومدائحه وطيب القول وزكيه ومباركه ذكره الله، بما هو شاكله العبودية كقوله حين يقرأ: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ....﴾ [الفاتحة:٢] يقول:

عنهما، قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ثم زاد شيئًا، فقال ابن عباس: إن السلام ينتهي إلى البركة. وُروي عن عمران بن حصين: إن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليكم، فردّ عليه، فقال النبي ﷺ: «عشرٌ» ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فرّد عليه فجلس، فقال: «عشرون» ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردّ عليه، فقال: «ثلاثون». واعلم أن السلام سنة وردُّ السلام فريضة، وهو فرض على الكفاية، وكذلك السلام سنة على الكفاية فإذا سلّم واحدٌ من جماعة كان كافيًا في السنة، وإذا سلّم واحدٌ على جماعة وردَّ واحدٌ منهم سقط الفرض عن جميعهم. [تفسير البغوي (٢/٢٥٧)].

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٩٠٥)، وفي الأوسط (٢٩١٧).

«حمدني عبدي، أثنى علي عبدي، مجدني عبدي، فوض إلي عبدي...»[1].

كذلك إذا قال: «لا إله إلا الله والله أكبر» يقول الله جلَّ ذكره: «صدق عبدي لا إله إلا أنا وأنا أكبر»[2] ثم كذلك إلى آخر الذكر، فهو يكافئ عبده بذلك، كما ذكر في قوله: ﴿اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ ثم يجازيه على ذكره بثواب جعله ثوابًا لذلك العمل والذكر.

فالحساب - والله أعلم - ما يذكره به؛ لأجل ذكر العبد إياه، وإلا كافئه هو ما قد قرره، قد ناله من أجل ذلك العمل والقول بهدي قوله: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ من أفضل ما يجزي به ﷻ.

قوله جلَّ ثناؤه: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء:٨٧] كما ذكر ﷻ الكافرين والمنافقين وأهل الكتابين، وذكر ﷻ المؤمنين، وعلمهم من سنن من كان قبلهم، وقدم من ذلك كله صدرًا ذكر يوم الجمع، وإنه لا ريب فيه، وأنه الصادق في حديثه الحاكم بين عباده بأنه من القرآن العظيم.

قوله: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧].

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ

(١) أخرجه مالك (١٨٨)، ومسلم (٣٩٥)، وعبد الرزاق (٢٧٦٧)، وأحمد (٧٨٢٣)، وأبو داود (٨٢١)، والترمذي (٢٩٥٣) والنسائي (٩٠٩)، وابن ماجة (٣٧٨٤)، وابن حبان (١٧٨٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٣٠)، وعبد بن حميد (٩٤٣)، والنسائي في الكبرى (١٠١٨٠)، وابن ماجة (٣٧٩٤) وأبو يعلى (٦١٥٤)، وابن حبان (٨٥١)، والحاكم (٨) والبيهقي في الشعب (٦٦٣).

مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩١ - ٩٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا...﴾ [النساء:٩٢] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣].

حرم الله - تبارك وتعالى - قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وهو أن يكفر بالله بعد إيمان، أو يزني بعد إحصان، أو يقتل نفسًا بغير نفس، وقتلها على أربعة أوجه:

قتل خطأ: وللخطأ حال لا يقال له أن يفعل أو لا يفعل، وعلى ذلك متى وقع فيه إذًا دية مسلم إلى أهله، وتحرير رقبة إلا أن يصدقوا بالدية، هكذا إذا كان مؤمنًا من قوم مؤمنين إن كان المقتول مؤمنًا، أو من قوم بيننا وبينهم ميثاق، فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهلها أيضًا، وإن كان مؤمنًا من قوم كافرين لا عهد لهم ولا ميثاق، فتحرير رقبة مؤمنة لا غير.

والوجه الثاني: قد تقدم ذكره وهو القتل لكفر بعد إيمان، أو زنى بعد إحصان، أو قتل نفس بغير نفس.

والوجه الثالث: أن يقتلها القاتل لعرض من عرض الدنيا، وقد جاء هذا في الآية التي بعدها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ الله فَتَبَيَّنُوا...﴾ [النساء:٩٤] وهي من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله.

والوجه الرابع: أن يقتلها؛ لأنها مؤمنة متعمدًا لذلك، كما قال عزَّ من قائل: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِالله العَزِيزِ الحَمِيدِ﴾ [البروج:٨] فهذا ظاهر قوله جلَّ قوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣] وهذا المخلد في النار لا محالة.

وهو المعني بقوله ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب**

بعض»[1] وربما لم يبلغ به القاتل في قتله من المؤمن هذه المنزلة، فيؤول إلى المنزلة التي دونها، وهو أن يقتلها لغرضٍ أو غضبٍ من أغراض الدنيا منافسة على شيء، أو لمعنى ما لغير ما هو مؤمن، يقارنها فيسمى بمقارنتها[2]، فربما كان من جزائه ألا يوفق إلى توبةٍ، فيعرض لسوء الخاتمة.

وفي قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء:٩٢] يعني بقتاله عن الوصف بالإيمان، ومنع من إطلاق الاسم عليه، كما قال رسول الله ﷺ فيما دون هذا الأمر: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**»[3].

ولم يبق الاسم لقاتل الخطأ، فرجع الحكم إلى قوله رسول الله ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»[4] فأشبه قول الله جلَّ ثناؤه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ [البقرة:٢٥٣] نعوذ بالله من درك الشقاء.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى

---

(١) أخرجه البخاري (١٢١) ومسلم (٦٥) والنسائي (٤١٣١) والترمذي (٢١٩٣) والطبراني (٥٤٤٢) والطيالسي (٦٦٤) وابن أبي شيبة (٣٧١٧٦)، وأحمد (١٩٢٣٧) وأبو داود (٤٦٨٦)، وابن ماجة (٣٩٤٢)، والدارمي (١٩٢١)، وابن حبان (٥٩٤٠).

(٢) هكذا العبارة في الأصل.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾ [النساء: ٩٤ - ١٠١].

قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[1] [النساء:١٠١] انتظم هذا بقوله جلَّ قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ الله فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء:٩٤] والعطف عليه.

وروت عائشة - رضي الله عنها - إنها قالت: «فرض الله ﷻ الصلاة ركعتين ركعتين فزيد في الحضر وأقرت صلاة السفر».

وروي أيضًا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**وضع الله عن المسافر الصيام وشطر الصلاة**»[2] وهذا رواه عمرو بن أمية الضمري، وهو حديث آحاد، وقد امتثلته الأمة بدلائل غير هذا، وهو القصر في السفر والإتمام في الحضر، وما عدا ذلك فهو خبر وسبيله العلم، ولا يثبت إلا بما نُقِل نَقْل تواتر.

وقال عزَّ من قائل: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم:١٠].

وقال رسول الله ﷺ: «**فرض عليَّ خمسين صلاة**» لكل صلاة ركعتان، فتمت

---

(١) أخرج ابن جرير عن علي قال: سأل قوم من التجار رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إنا نضرب في الأرض، فكيف نصلي؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى الارض فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصلاة﴾ ثم انقطع الوحي، فلما كان بعد ذلك بحول غزا النبي ﷺ فصلى الظهر فقال المشركون: لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم هلا شددتم عليهم؟ فقال قائل منهم: إن لهم أخرى مثلها في إثرها، فأنزل الله تعالى بين الصلاتين: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الذين كَفَرُواْ﴾ إلى قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الله أَعَدَّ للكافرين عَذَابًا مُّهِينًا﴾ فنزلت صلاة الخوف. [الألوسي (٤/٢٠٩)].

(٢) أخرجه الترمذي (٧١٩)، والنسائي (٢٣١٤)، والبيهقي (٥٦٩٥)، والطبراني (٧٦٢) وفي الأوسط (٦٩١٣)، وأبو نعيم في المعرفة (٦٥٥٨). الشطر: النصف.

بذلك مائة ركعة عدد أسماء الله سبحانه، فقد جاء الحديث أنه قال سبحانه: «**هي خمس وخمسون لا يبدل القول لدي**»[1] فخمسون صلاة بوترها على عدد ما تقدم ذكره، ثم نزل جبريل ﷺ يصلي، فصلى رسول الله ﷺ، ثم صلى فصلى رسول الله ﷺ إلى آخر الصلوات، فأكمل الصلاة الحضرية، وأقر صلاة السفر على ما كانت عليه، فصلاة السفر معلومة من فعل رسول الله ﷺ، وكذلك صلاة الحضر.

وأجمع العلماء ﷺ أن السفر هو: الحج والغزو والهجرة، وكل ما هو قربة إلى الله ﷻ يقصر فيه، ولم يدخل في خطاب الحكم القصر في سفر التجارة وجميع المباحات، فأنزل الله جلَّ ذكره: ﴿**وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ**﴾ [النساء:١٠١] فرفع ﷻ الجناح عنهم بهذا الخطاب، وهو كلام قائم بنفسه غير محتاج إلى غيره، ثم حذف ﷻ كل ما عطفه على هذا الظاهر، تقديره: ولا أن تقصروا - من القصر - إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا، أو ما كان من الكلام ما ينبئ عن مراده جلَّ ذكره ثم علمه كيف يقيم بهم الصلاة حال الخوف إذا كان فيهم، فروي أنه صلاها بهم ركعتين.

ثم روي أنه صلى بهم ركعة بطائفة، وركعة بطائفة، ويتم هؤلاء وهؤلاء لأنفسهم صلواتهم، وروي غير هذا.

وجاء: إن صلاة الخوف على قدر الخوف والأمن، فإن أمنوا بعض الأمن صلوا ركعتين، وإن خافوا فعلى قدر الخوف حتى قالوا: سجدتين قائمًا، فإن لم يقدر على سجدتين فسجدة يومئ بها، فإن لم يقدر فتكبيرة يكبرها حيث كان وجهه؛ لأن الصلاة هي لذكر الله ﷻ، فينوِ بها ويفعل في ذلك على قدر استطاعته.

وقال رسول الله ﷺ: «**من دعي إلى طعام فليجب، فإن كان مفطرًا أكل وإلا فليصلِّ**»[2] وإن كانت هذه الصلاة لغوية، فالضرورة ترك الصلاة الشرعية إلى

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٤)، ومسلم (١٦٣)، وابن حبان (٧٤٠٦)، وأبو عوانة (٣٥٤)، والنسائي في الكبرى (٣١٤)، وأبو يعلى (٣٦١٦)، وابن منده في الإيمان (٧١٤).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٣١)، وأبو داود (٢٤٦٠)، وأحمد (١٠٥٩٣)، والترمذي (٧٨٠)، وابن حبان (٥٣٠٦)، والنسائي في الكبرى (٦٦١١)، وأبو يعلى (٦٠٣٦)، وأبو عوانة (٤١٨٧)، والبيهقي (١٤٣٠٩). فَلْيُصَلِّ: فليدعُ لأهل الطعام بالبركة.

حكمها، والله أعلم.

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [النساء: ١٠٢ - ١٠٥].

ثم قال ﷻ: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى المُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ﴾ [النساء:١٠٥] الحق، هذا عبارة عن الروح من أمر الله، والملك النازل به، وعما هو منزل منه وبه إليه إلى قلب رسول الله ﷺ.

قال الله ﷻ: ﴿يُنَزِّلُ المَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [النحل:٢].

وقال جلَّ قوله: ﴿نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل:١٠٢].

وقوله جلَّ قوله: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ﴾ اختلف العلماء المتقدمون والفقهاء ﷺ في معنى قوله: ﴿بِمَا أَرَاكَ اللهُ﴾ وتجاذبوا في معناها؛ فقال القائلون: إنها معبرة عن إباحة القياس.

وقال خصماؤهم من القائلين بالظاهر: بل محظره.

وقال: معناها بما أنزل الله إليك وأراك من كتابه.

وفصل الخطاب في ذلك والله أعلم بما أراده: إن الوحي الذي بلغه إلينا ﷺ ثلاثة والله أعلم بما وراء ذلك؛ منها: القرآن وهو كلام ينزل به الملك على قلب الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - ليس للرسول تغييره عما هو عليه، ولا تبديل عبارة بعبارة ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ [يونس:١٥].

الوجه الثاني: حديثه ﷺ يوصله إلينا من وجهين:

أحدهما: أن تنزل به النازلة بما نزل الملك عليه السلام بالحكم فيها، والشقي منها، أو يحكم هو فيها بأمر من حكمة قد جعلها الله ﷻ في صدره، وامتلأ بها قلبه في أول أمره كما قال ﷺ: «**فنزل جبريل عليه السلام فشرح صدري من مكان كذا إلى كذا، ثم شقَّ قلبي فغسله ثم جاء بطست مملوء حكمًا وإيمانًا فأفرغه في قلبي، ثم بارك لي في ذلك وأنشأه منه إنشاء حتى بلغ منه منتهاه**»(١).

﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾[النساء: ١٠٦ - ١١٣].

---

(١) تقدم تخريجه.

قال الله ﷻ: ﴿وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[1] [النساء:١١٣] وهذا النوع من الوحي مباح للرسول ﷺ؛ ليعبر عنه بعبارته، أو بما نقله إليه الملك ﷺ من عبارته.

ثم العلماء ورثة الأنبياء - عليهم السلام - درسوا القرآن والسنة، وآتاهم الله علمًا، يقول الله - عزَّ من قائل - فيما أثنى عليهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا...﴾ [الأنفال:٢٩].

وقال جلَّ من قائل: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران:٧٩].

وقال جلَّ قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤] فلولا أن الله جلَّ ذكره قد جعل في قلوبهم علمًا وحكمًا لم يكن للتذكار آثار، وهذا المشار إليه في علماء الأمم في مقابلة ما عبَّر عنه القرآن العزيز من قوله: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه:٩٩] وليس كل نازلة يكون نصها، ولا في ظاهر الحديث.

كذلك قال الله جلَّ قوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣] وقد تقدم ما هو الاستنباط.

---

(١) قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ قال القفال رحمه الله: هذه الآية تحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون المراد ما يتعلق بالدين كما قال: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب وَلَا الإيمان﴾ [الشورى:٥٢] وعلى هذا الوجه تقدير الآية: أنزل الله عليك الكتاب والحكمة وأطلعك على أسرارهما، وأوقفك على حقائقهما مع أنك ما كنت قبل ذلك عالمًا بشيء منهما، فكذلك يفعل بك في مستأنف أيامك لا يقدر أحد من المنافقين على إضلالك وإزلالك. الوجه الثاني: أن يكون المراد: وعلمك ما لم تكن تعلم من أخبار الأولين، فكذلك يعلمك من حيل المنافقين ووجوه كيدهم ما تقدر به على الاحتراز عن وجوه كيدهم ومكرهم، ثم قال: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ وهذا من أعظم الدلائل على أن العلم أشرف الفضائل والمناقب؛ وذلك لأن الله تعالى ما أعطى الخلق من العلم إلا القليل كما قال: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن العلم إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء:٨٥] ونصيب الشخص الواحد من علوم جميع الخلق يكون قليلاً، ثم إنه سمى ذلك القليل عظيمًا حيث قال: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن العلم إِلَّا قَلِيلاً﴾ وسمى جميع الدنيا قليلاً حيث قال: ﴿قُلْ متاع الدنيا قَلِيلٌ﴾ [النساء:٧٧] وذلك يدل على غاية شرف العلم. [تفسير الرازي (٣٧٨/٥)].

وقد جاء مع هذا في القرآن العزيز والحديث نصوص تزجر ظواهرها عن القول بالقياس، وإنما ذلك تشديد عن الإغراق فيه، وتركيب قياس على قياس، ويتسلسل ذلك ويكون أيضًا زجرًا من ترك النصوص الظواهر، والعدول عن ذلك إلى القياس، والقول بالرأي دون ضرورة تلجئ إلى ذلك لا سيما من قلَّ علمه وضعفت رؤيته، ولم يكن له ثقافة في هذا الشأن، كما قد جاءت نصوص وظواهر خطاب مجملة، وعمومات تخص على القول بالرأي والقياس الصحيح المنصور بالبرهان.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء:١٠٥] نزلت في طعيمة بن أبيرق، وكان قد سرق درعًا وجعله في دار يهودي، وقال: سرقتكم في دار اليهودي، وكان رسول الله ﷺ قد عذر عن طعيمة، ثم عذر عنه لوجدان الدرع في دار اليهودي.

قوله جلَّ قوله: ﴿وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣] هذا الخطاب منتظم على فهمي - والله أعلم - بقوله جلَّ قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ....﴾ [النساء:٥٣] إلى قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٥٤].

منتظم هذا بقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء:١٠٥].

ثم عطف ﷻ على موضع قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾ وقوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾.

﴿وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ﴾ [النساء:١١٣] ﷻ موضع البشارة بالملك، فإنه والعرب من آل إبراهيم كالمعهود من خطاب القرآن في ذلك في هذا الخطاب أن الوحي ثلاثة أنواع:

* الكتاب: هو القرآن.
* والحكمة: هي السنة وحديثه المأثور.

* والثالث: من سبق إليه من عهد النبوة التي أقامها في النبي مقام فطرة الإسلام للمسلم.

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء:١١٣] يعني: وهو أعلم ﷻ ما مُليء به قلبك، وشُرح له صدرك من الإيمان والحكمة في بدء شأنه، وما أوحى إليه بعد فالروح من أمره، كما قال جلَّ قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

والله أعلم تأويل قوله جل قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣] في بدء الأمر، قيل له: يا رسول الله، متى كنت نبيًا؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد»[١].

وقال ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ....﴾ [آل عمران:٨١] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران:٨١ - ٨٢] المعنى الأولى بهذا: أهل الكتاب، ثم كل من أبى وتولى فهذا أيضًا.

ومعناه حيث جاء تأويل لقوله: ﴿وَكَانَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣] والكتاب كلام الله ﷻ أنزله إليه بالحق من لدنه وذرايته - صلوات الله وسلامه عليه - ما فيه هو الحكمة العليا المتصلة بالروح من أمره، ولذلك بيَّنها الله ﷻ على لسانه شاهد له بذلك العليم الخبير في قوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم:٣ - ٤].

وقال جلَّ قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ ثم قال جلَّ ذكره: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤] فأرانا وله الحمد السبيل الواضحة أن في مسالك الفكر الصائبة ضياء الحكمة، وأنوار المعرفة بقوله جلَّ قوله: ﴿كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ﴾ ثم قال جلَّ

---

(١) تقدم تخريجه.

قوله: ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

فأخبر ﷻ بصدق قيله أنه جعل من أمره من الروح نورًا في قلوب عباده يهدي به من يشاء منهم لإصابة الصواب ومنهاج الحق المبتغى، تلك هي الوارثة التي أورثها ﷻ عباده المؤمنين، وأوليائه الصديقين من بركة أنبيائه ورسله هذا منبعث الحكمة وحقيقة منتهاها إلى علي منبعثها في المؤمنين، ثم في الصديقين ثم في الأنبياء والمرسلين، وقد أخبر الله ﷻ أن منبعث أعلاها هو عن الروح من أمره المنزلة على رسله، فهو أحكم الحاكمين وهو الحكيم العليم.

قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ [النساء:٥٥] يعني: وهو أعلم خصوص ضمير الكتاب بمعقود الإيمان به، أو الصد عنه لتضمينه الحكمة، فإنه من آمن بالكتاب آمن بالحكمة، وكذلك الحكمة مع الكتاب، ومعرفة الآيات في الوجود من الحكمة بالحكمة، والحكمة بالحق والقول من الحكمة، وقد يعبر بالحكم عن الحكمة ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [الأنعام:٨٩].

وقال جلَّ قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [الجاثية:١٦] فلفظ الحكم يتردد بين معنيين: حكم الحكام الذين هم الخلائف للرسل والأنبياء - عليهم السلام - وبين الحكمة، ومعنى الحكمة تتضمن الوجهين معًا، وخاصة الحكمة معرفة الحق والعمل بمقتضاه على السنن المرتضى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ للهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان:١٢] فهذه جملة معبرة عن جملة الحكمة علمها والعمل بها.

ثم جعل ﷻ يخبر عن إصابته بالقول وفصل الحق قولاً وعملاً إلى قوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان:١٩] فالحكمة إذًا هي معرفة حقائق الموجودات كيف أوجدت، وما المراد بها وإلى ما يؤول، ومعرفة صانعها وجاعلها فيها، ثم العمل بموجب الحكمة، فهو الحق المبتغى والسنن المرتضى، هذه عبارة عن الحكمة في تعرف الموجودات.

ومعرفة حقائق الموجودات ترجع إلى أربعة أركان:

أحدها: معرفة بداياتها ثم الوقوف على ظواهرها، ثم معرفة بواطنها إن كان المنظور فيه من الكيفيات، ومعرفة لما أوجده موجده، وهل هو من قبيل اليمين

فيوالى، أم من ذوات الشمال فيعادى، ويتبرأ منه إن كان من المتكلفين، وباطن العبد المنقاد للحكمة منير مضيء، فهو شمس الباطن بنورها يتميز صور بواطن الموجودات خيرها وشرها نفعها وضرها، وهذا نور منبعث من حقيقة القلب المعمور بنور الإيمان، وهو عين شمسها لا أفول لهذه الشمس إلا في حجاب الغفلة، وإلا فنورها في عين البصيرة منبسط على آفاق القرآن، بل الحكمة بنور الإيمان أشد إضاءة، وأثقب نورًا من نور الشمس في الظاهر، فكما أن الشمس الظاهرة تستنير بها الأبصار تتميز بها المرئيات، فكذلك الحكمة بنور الإيمان في الباطن، وأكد مطلوب الحكمة معرفة العبد ربه هذا بالوجهة والنية.

وأما من حيث تناوش الطلب فآكد مما عليه طلبه معرفة نفسه حتى يعرفها حق معرفتها ظاهرة وباطنة، فمن هنالك يعرف ربه ﷻ، ومن لم يعرف ربه إلا بمخلوقاته وبأسمائه لم يعرفه إلا معرفة أسماء وصفات إنما تتحصل حقيقة المعرفة بما صنعه لنفسه خاصة، وهذا فصل من الحكمة بعيد غوره جدًا، وهو مع ذلك قريب متناوله شريف نهايته، فافهم.

والحكمة فاعلم هي الحق المخلوق به السماوات والأرض، وهو ما اقتضته أسماؤه الحسنى وصفاته الكاملة العليا، فأكحل عينك بكحل السهر، وألزم نفسك تدؤب التذكر وترداد التفكر، واضرع إلى مالك عصم الإصابة ﷻ، وادعه باستكانة وافتقار إليه عساه أن يؤتيك نورًا تمشي به في الظلمات، وفرقانًا تفرق به بين المشتبهات، ولعله بفضله العظيم يطوي بك المراحل، ويرفعك إلى شرف المحال، فيجمع لك المراقي لعلي الدرجات، سبحانه وله الحمد لا يقدر على ذلك سواه.

واعلم أن من خاصة الحكمة إذا تحققت بها لا تجهل شيئًا، وإنما نورها مع بواعث خطراتها، وربما سبق نورها وانبسط ضياؤها على خلاء من الذكر، وغيبة من بواعث الخاطر، فكان إلهامًا فافهم.

وليعلم طالب الحكمة أن العبد قد جمع الله فيه العلم كله، وقد تقدم هذا فيه الجواهر المركبة منه الجسم الظاهر الملازم له العرض، فله منه طول وعرض وعمق، ولون وطعم ورائحة، وإشغال مكان، وجوهر باطن هو النفس والروح والعقل، وسمي هذا جوهرًا من حيث هو أصل، ولهذه العلة الذي ركبت منه

الأجسام.

وكذلك العرض عرضان:

عرض باطن: هو مقول على صفات العبد مثل الحكمة والعلم والقدرة والإرادة والفطنة والعجز والكيس، ونحو هذا.

وعرض ظاهر: يعتري الجسم من لون وألم ولذة وثخن ورِقَّة وسائر الأعراض، والعقل الذي زكاه الإيمان هو العقل على الحقيقة، والعقل المكتسب [باستنكار][1] المعقول مجازٌ وتتميمٌ، من ذلك قول الخضر عليه السلام: «**ما علمي وعلمك في علم الله إلا كنقر هذا العصفور من هذا البحر**»[2] فالعلم مع المعلومات كذلك يكمل له ويتمم.

وقد يجب أن يقال في هذا العقل المكتسب؛ لكثرة المعقولات ليس شيء سوى المعقولات من هذه الجهة.

وأما العقل الأول المذكور الذي زكَّاه الإيمان ونوره اليقين، فهو شمس الباطن به يبصر البصير مطلوبها، وهي الحكمة فيه قال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل ليصلي الصلاة، فما يكتب له منها إلا نصفها، وإلا ثلثها حتى بلغ عشرها**»[3].

وقوله ﷺ: «**ما لك من صلاتك إلا ما عقلت منها**»[4].

وقوله ﷺ في المصلي: «**إنه إذا صلى، فإنما يناجي ربه فلينظر بما يناجيه**»[5].

---

(١) ما بين [ ] غير واضح في الأصل.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٢٥)، وأحمد (٢١٧١٦)، والنسائي في الكبرى (١١٣٠٨).

(٣) أخرجه أحمد (١٩٣٩٢)، والبيهقي في سننه (٣٦٦٨) وفي الشعب (٢٩٧٤)، والنسائي في الكبرى (٦١١)، والطيالسي (٦٧٨)، والحميدي (١٥٣)، والبزار (٢٣٠٣)، وأبو يعلى في مسنده (١٥٨٠)، وابن حبان (١٩٢١)، وأبو نعيم في المعرفة (٤٦٥٢).

(٤) لم أقف عليه إلا بلفظ: «ما لك من صلاتك إلا ما لغوت» اللغو: الكلام الذي لا أصل له من الباطل. أخرجه أحمد (٢١٨٩٣)، وابن ماجة (١١٦٥)، والبيهقي في سننه (٦٠٤٤) وفي الشعب (٢٨٦٤)، والطيالسي (٢٤٧٧)، وابن خزيمة في صحيحه (١٧٠٥).

(٥) أخرجه مالك (١٧٧) وأحمد (٦١٢٧)، وابن أبي شيبة (٨٤٦٢)، وابن خزيمة (٢٢٣٧)، والحاكم (٨٦١)، والطبراني في الأوسط (٤٧٧٦)، والبيهقي في الشعب (٢٥٤٦). المناجاة: حديث العبد لربه سرًّا بالتضرع أو الدعاء أو ما يشاء.

وقوله ﷺ: «**إذا صلى أحدكم، فإن الله قبل وجهه إذا صلى**»[1].

وقول الله جلَّ ثناؤه: «**أنا مع عبدي ما ذكرني وما تحركت بي شفتاه، وإذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه وأطيب**»[2]. وإنما ذلك كله بقدر ما عقل، فافهم.

فصل

الجاهل من جهل صورة الجهل، ومن عرف صورة الجهل فقد عقل عقلاً تامًا، ومن جهل صورة الحكمة جهل نفسه، ومن جهل نفسه كان لغيرها أجهل، وكذلك أفرط بالأكثرين الجهل لما نظروا إلى الحكمة على زعمهم حال جهلهم، فجهلوا الحكمة، فقالوا: هي العلم بالأشياء الأولية الأبدية الذاتية عندهم، يطلبوها من الموجودات.

وقاربوا من الأشياء بمقاربة المطبوعات، فنوعوا الأنواع التي هي أواخر الكون وتمامه، ثم ردوها إلى الأجناس التي تعلوها، ثم إلى أجناس الأجناس حتى تنتهي بزعمهم إلى أول المخترع من قدرة الباري سبحانه بلا متوسط، وهو الروح المنفوخ في آدم عليه السلام وجدوه وجدًا، وجهلوه علمًا، فقالوا: هذا يعطي الأشخاص أسماؤها وحدودها، فقالوا فيه: إنه ما هو؛ لأن حد الحق عندهم ما هو، وحد الباطل عندهم ما ليس هو.

وقد يحدونه أيضًا بأن حده وصف الشيء بغير ما هو، وهو السر عندهم، فيتعبد المتعبد منهم إلى ما لم يبلغ علمه إلى ما هنا، ثم من هنا سقط عنهم أصار التكلف؛ لأنه بزعمه قد بلغ إلى أن يعلم أنه ما هو؛ أي: هو الحق، هذا هو الضلال البعيد، نسأل الله الغفور الرحيم معافته ومغفرته.

ولهذا تأله فرعون ومن تقدمه من المتألهين، ولما جاءه رسول رب العالمين

---

(١) أخرجه مالك (٤٥٧) والبخاري (٣٩٨)، ومسلم (٥٤٧)، والنسائي (٧٢٤) والطيالسي (١٨٤٣)، وأحمد (٥٤٠٨) وأبو داود (٤٧٩) وابن ماجة (٧٦٣) وابن حبان (٢٢٦٥) والبيهقي (٣٤٢١)، وأبو نعيم في الدلائل (٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٧٠)، ومسلم (٢٦٧٥)، والترمذي (٣٦٠٣) وأحمد (٩٣٤٠)، وابن ماجة (٣٨٢٢)، وابن حبان (٨١١)، وابن أبي شيبة (٢٩٤٧٩).

موسى وهارون - صلوات الله وسلامه عليهما - فقالا له: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:١٦] فقال لهما: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:٢٣] أي: رب العالمين حق، وأنا الحق أيضًا، فعرَّفه موسى ﷺ بأخص تعريفه مما تقدم؛ بأن قال صلوات الله عليه: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء:٢٤] وكان موسى عرف بالحق وأتى به، وأخبر بالحكمة وجهلها فرعون لجهله بجهله.

فأجابه فرعون بأن ترك مخاطبته؛ لأنه عبد لا يستاهل المخاطبة، وذلك لجلهله به، فقال فرعون ﴿لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء:٢٥] يعجب من حضره من بعد موسى عن جهله هو.

فأردف موسى ﷺ تعريفًا أخص بهم مما تقدم ذكره؛ لعله أن يفهم عنه بقوله ﷺ: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:٢٦] فتحقق جهل فرعون بجهل نفسه، وتقوى عنده ضلالة وفتنة، بأنه هو الحق الذي يقال له: ما هو؟ فقال لمن حوله: لا تخاطبوا موسى، ولا تواجهوه لجهله به ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء:٢٧] إذ لا يعرف هذه الحقيقة الذي عنده من جهله بنفسه، فتدين لهما الدين يقال له: ما هو؟!

ولما كان هذا المعنى الذي هو أول الموجودات في كل شيء موجود، وهو المعنى الذي يخاطب العقول، ويشهد عند أولي الألباب بما هو عليه من الحدث والعبودية والافتقار إلى بارئه جلَّ ذكره لما هو عليه من العلاء والغنى وحقيقة الربوبية، وسمات الجلال ونعوت التعالي ويسبح الله ويحمده.

وجدوه أيضًا في الموجودات وجدًا لا هداية بل جهلاً وعمى عنه، تعبدوا من أجل ذلك بجميع الموجودات، ودانوا لها بالخضوع والعبادة، فكفروا بالخالق العلي ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه المشهود له فيها وبها ومنها بالحق، ومنهم من أشرك، فكان ضلالهم من حيث هداية المهتدين بتقدير من عزيز عليم، فما من أحد عبد غير الله هداية أو ضلالة خطأ أو إصابة.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس:٦٦].

وقال جلَّ قوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس:٣٦].

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣] سبحانه وله الحمد المحمود بكل لسان المعبود بكل جهة ما أشبههم بالفراش في ضياء النار، يتهافتون فيه هلاكًا كما اهتدى به مستوقدها، والمستضيء بها لقضاء حاجته كذلك أهلك هؤلاء بما اهتدى به المتعبدون والمؤمنون، والحمد لله رب العالمين.

فصل

من الإحكام في طلب الحكمة أن يترقوا بالنظر في الموجودات أعدادها وظواهرها، وصناعة الصانع لها ﷻ إلى مرتقى، وفي هذا الفصل معرفة والصعود في درجات المعرفة به، ثم إلى كيف هي، ثم إلى لِمَ أوجدها موجدها جلَّ ذكره فهجم بك حينئذٍ العلم إلى شرف تبصر من مستوى الخليقة فيه الحق بكماله إن كنت تحسن أن ترى.

فإن كنت ترى فسترى بما له غاية ما لا غاية له، وبما له ضد ما ليس له ضد في ذاته يزاحمه، ولا منفصل عنه يضاده، وهو السلم المؤمن، وترى بما له خارج من ذاته بلى قصر على وجود نفسه أو قارب ذلك ما ليس بخارج من ذاته شيء، بل كل وجود في وجوده العلي ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧].

كذلك قال جلَّ قوله للقلم: «**اكتب علمي في خلقي**»[١].

وقال جلَّ قوله: «**وهو على كل شيء قدير ما شاء كان ولم يشأ لم يكن**»[٢] ولا يكون؛ لأنه من لا غاية له لا يشذ شيء عن وجوده العلي، هو كل الكل، كل ذي وجود ليس هو قائم بذاته تجده خارجًا من ذاته هو مفتقر إلى سواه، والمستغني عن سواه ليس إلا هو، وما سواه مفتقر إليه عبد له.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٧٥)، والنسائي في الكبرى (٩٨٤٠)، والطبراني في الدعاء (٣٤٣)، وابن عساكر (١١٨/٦٤).

فهكذا فلتسلك في طلب الحكمة، فإنه لمن الواجب أن يوجه الفكر نحو المعلوم، ويوجه الوهم نحو المحسوس والعقل به كعقل ما يعلمه، وبحقيقة الإيمان رؤية المطلوب يهديهم ربهم بإيمانهم، فهو نور الباطن، وبه يراه أولوا الألباب في هذه الحياة الدنيا، وهو المستصبح به فيما هنالك والهادي إليه، والمطلوب العلي وحده لولا الله ما عرف الله.

فصل

قد جعل الله لكل شيء دركًا، فمن أتى البيوت من أبوابها دخلها، ومن أتاها من غير ذلك عسر عليه مطلبه لا ينال شيئًا إلا من حيث جعله الله دركًا له، ولو رامه طالبه من في السماوات ومن في الأرض، بل هو لا يزيد إلا ضلالاً وبعد عن مطلبه، فمن طلب الحكمة من طريق مطلبها أدركها في يسر وعافية.

وإنما أخطأها أكثر من طلبها؛ لأنه طلبها من غير طريقها، وبغير السبب الذي جعله الله ﷻ دركًا لها، فربما لم يدركها بما تقدم ذكره، فلم يطلبها بعد من طريق أخرى بل كذب بصورتها، ويحمل جهله على أن يجهل جهله، ويجهل صورة جهله، كن كمثل من قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [الأحقاف:١٣] يبدلك المكنون إن شاء الله ﷻ، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فصل

لو أن المتقدمين لطلب الحكمة يطلبونها في مسالك معاني الأسماء والصفات في العالم، مع التسليم والإيمان لتبين لهم المطلوب، لكهنم ضربوا يمنة ويسرة يتعرفون الموجودات على ما هي عليه، وأخذوا في التسيار والتساؤل عما لم يبلغوه حتى صوروا معمور الدنيا مدائنها وأنهارها وبحارها، وذكروا الممالك والسير والأخلاق والصور.

وقسموا الدنيا أقاليم ونسبوا كل إقليم منها إلى كوكب، وجدوا من ذلك ظاهرًا من الأمر، فلو إنهم سلكوا مع ذلك معالم الأسماء والصفات لا يصل لهم الأمر، وظهر لهم الحق بنور النبوة بتجلي حق اليقين، فإن العقل لا يضيء له ما حوله إلا بالإيمان، ولا يعبر من حاضر إلى غائب، فيصيب إلا بأعلام النبوة، ولا يستحق أحد

منهم الإيمان إلا بذلك. انتهى.

فصل

قال الله جلَّ ثناؤه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ الله أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣] فكرم الحكمة على ثلاثة أنحاء:

* كرم من جهة النفس والذات، وهو العمل بما يرضي الله جلَّ ذكره في طاعته، واجتناب مناهيه عقدًا وعملاً وقولاً وطريقة.

* **الثاني**: كرم من جهة الآباء، فاتصل ذلك بالسلف في يوسف ﷺ.

* **الثالث**: كرم من جهة الحكمة خاصة، وهو معرفة الموجودات، وتعرف ما هو الحكمة فيها على ما تقدم ذكره، والنظر إليها بالبصيرة الثاقبة على منهاج مسالك الأسماء ومعاني الصفات العلا، واستشعار الحق الذي به أحكم الله السماوات والأرض وما بينهما، والقصد القصد تبلغون إن شاء الله أرشدنا الله وإياكم.

ثم لتعلم - أيدك الله - أن ذلك مجموع في اسم واحد له في وجود الموجودات أربعة أركان، فإياه فاقصد، وعلى الله في طلبك، فاعتمد فليس سواه نافعًا ولا معينًا ﴿يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [البقرة:٢٦٩].

فصل

فاسم الحكمة متناول فهم القرآن، والفقه فيه من حيث إنه تناوش فيه فهم الذكر الحكيم والآيات المحكمات ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود:١] فهو الحكيم لما هو كلام الله، وهو المحكم من حيث إنه مجعول قرآنًا عربيًا، على ما هو به من أوصافه وتفصيله وتوصيله إلى غير ذلك، ثم حديث رسول الله ﷺ يشمله اسم الحكمة ومعناها.

قال الله ﷻ: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ الله وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب:٣٤] ولأن بحديث رسول الله ﷺ يتبين الكتاب فهو حكمة، وإذا كان فهمه من آحاد الأمة حكمةً، فبأن يكون بيانه على لسان رسول الله ﷺ أولى وأحرى؛ لقوله ﷻ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم:٣ - ٤].

وأُسمي أيضًا خادم ما سموه طبيعة حكيمًا، وعلمه حكمًا وعلمه بذلك هو معرفة الداء والأدوية، ومظانها في موجودات الأرض والأحجار والنبات والمياه والأهوية، ومقابلة بما يصلح به من الدواء.

قال رسول الله ﷺ: «**إن الله حيث خلق الداء خلق الدواء، فإذا وافق الداء الدواء برئ الداء بإذن الله**»(١).

ويسمى أيضًا طبيبًا كما يسمى العالم بحكمة الله ﷻ في الشرع فقيهًا، واسم الطب أقرب إلى العلم بحظ ما من العمل، لكن اسم رفيق أولى به، كذلك قال رسول الله ﷺ: «**أنت رفيق، وإنما الطبيب الله**»(٢).

وإنما سموا الطبيعة: حكمة الله ﷻ في هذا العلم، من فيح جهنم بتنفيسها - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - مع فتحه هو برحمته بالماء ينزله من السماء، يحيي به الأرض بعد موتها، ففيح جهنم: سعيرها، وزمهريرها: بردها، فيحكم الله آياته في ذلك بأن يؤلف بين المتباغضات، ويقارب بين المتباعدات ويؤلف بين المتنافرات، وهي الأمشاج ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان:٢] أي: نأمره بالهرب من جهنم وطلب الجنة، كذلك أعقب قوله الحق ﷻ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا....﴾ [الإنسان:٣].

ولفيح جهنم - أعاذنا الله الرحيم منها برحمته - ثلاثة شعب: حر وبرد ويبس؛ فالحر للنار، واليبس والبرد للزمهرير، فينزل الماء برحمته وهو رطب أوله البرد، ولكنه يميل إلى الحر مع الحر، وإلى البرد زائدًا إلى ما هو عليه منه مع البرد، والماء موجود عن الهواء بقدرة الله ﷻ وإيجاده إياه، فيتسلط الحر بواسطة الشمس على هذه الجملة، ويبرد بالماء من السعير ويلين برطوبته من يبسه وبئس الزمهرير، ويرفع إلى الهواء متوسطًا ذلك، وهو الحار الرطب، فيخلق الله ﷻ على ذلك خلقه.

قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:٣٠] بأنا نحيي الموتى من موتهم، كما نحيي الأرض بعد موتها، ويخلق الله كل شيء بدءًا

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٠٣٥).

وعودًا، فخلق الله جلَّ ذكره هذه الأربع أصول من موجود الآخرة، أخرجها إلى هذه الدار بالفتح، والفيح المتقدم ذكرهما بواسطة رحمته في ذلك.

ولما راوج ما بينها جعل ﷻ لكل شعبة منها عملاً بامتزاجها بما مازجها من وصف ومعنى، وأكثر من المخلوقات جدًا، وتنوعت على ذلك واتسعت في صفاتها وأوصافها، وخلق الله ﷻ على ذلك أيضًا، ومالت الأمزجة إلى كل ميل، ثم مازج ما مال مع ما استقام كذلك إلى غير نهاية يبلغها الإنسان بالحصر، ويخلق الله على ذلك خلقه، وعلى التقليل من هذا والتكثير من غيره، ثم يخلق الله ذلك خلقه هذا أبدًا، كما لا يعجزه صورة يصوره عليها، ولا يعجزه تأليف ولا تركيب يؤلفه ويركبه، والله واسع عليم حتى لقد قال قائلهم: العمر قصير، والصناعة طويلة، والوقت ضيق، والتجربة خطر، والقضاء عسر.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

وقال جلَّ من قائل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾ [الدخان:٣٨].

وقال جلَّ قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص:٢٧] المعنى حيث جاء.

وقال أيضًا جلَّ من قائل: ﴿وَلله مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى الله المَصِيرُ﴾ [النور:٤٢] فملك السماوات والأرض هو ما دلَّ عليه بالفيح والفتح المذكورين.

وقوله جلَّ من قائل: ﴿وَإِلَى الله المَصِيرُ﴾ حيث يبتدي ذلك يظهره الله جنة ونارًا، كما دلَّ عليهما فيما ها هنا بآيات ذلك ودلائله.

وأعقب ذلك بقوله الحق جلَّ قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾ هو وجه آياته على الملك المذكور في الآية، ثم قال جلَّ من قائل: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ

بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾ [النور:٤٣] وهذه آيات على الوعيد.

وقال رسول الله ﷺ: «**اشتكت النار إلى ربها....**»(١).

وقال جلَّ ذكره: ﴿**مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ**﴾ [فاطر:٢].

وقال جلَّ قوله: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ**﴾ [الواقعة:٧٥] ثم عظَّمه بقوله الحق: ﴿**وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ**﴾ [الواقعة:٧٦] وهذان النفسان مقسمان على مواقع النجوم.

قال رسول الله ﷺ في الشمس: «**ما ترتفع قصبة إلا فتح لها باب من جهنم**»(٢) وهذا عام في منازل الفلك في النجوم، ارتفاعها كل يوم في الجو إلى كبد السماء.

وقال - جلَّ قوله - فيها إذا كانت في محلها قبل الزوال: «**حينئذ تسجر جهنم**»(٣).

وقسم الله ﷻ ذانك التقسيم على مطالع الشمس ومغاربها حرورًا وصرودًا، كل ذلك بحكمة منه على دوائر محكمة التدوار، تقدير من عزيز عليم بقوله جلَّ قوله: ﴿**أَفَبِهَذَا الحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ**﴾ الذي فتحنا عليكم به ﴿**أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ**﴾ [الواقعة:٨١ - ٨٢] فينسبون الفتح إلى الكواكب، وسيأتي بيان ذلك في أولى المواضع به إن شاء الله تعالى.

فصل

حدوا ما سموه طبيعة بحدود قالوا: الطبيعة اسم مشترك يقال على الخلق، وعلى كل شيء مطبوع بطبيعة ومخصوص بها.

قالوا: ويقع على الأخلاط والكيموسات الأربعة، وهذا قول خاص من قولهم

---

(١) أخرجه مالك (٢٨)، والشافعي (١/٢٧)، والبخاري (٣٠٨٧)، ومسلم (٦١٧)، وابن ماجة (٤٣١٩)، والترمذي (٢٧٩٦)، وابن حبان (٧٤٦٦)، وأحمد (١٠٥٤٥)، والدارمي (٢٩٠١)، والحميدي (٩٨٩)، وأبو يعلى في مسنده (٤١٩٠). الزمهرير: شدة البرد.

(٢) أخرجه أبو يعلى (٤٩٧٧)، والطبراني (٩٢٨٠).

(٣) أخرجه مسلم (٨٣٢)، وأبو عوانة (١١٤٧)، وأحمد (١٧٠٥٥)، والبيهقي (٤٥٥٩)، وابن سعد (٤/٢١٦)، وعبد بن حميد (٢٩٩). تسجر: توقد ويحمى عليها.

على الخلق لو خلصوا العبارة عن الحد، فإنهم حدوا الطبيعة بزعمهم، فقالوا: الطبيعة اسم مشترك على الخلق، وهو على كل مطبوع وتدوير القول في الحد، غير سائغ كتدوير البرهان في البرهان، وغير ذلك غير جائز في البرهان.

قالوا: ويقع على العناصر الأربعة التي هي النار والهواء والماء والأرض، وهذا إيماء من الحق على ألستنهم على ما يكون من النفسين في أصول المخلوق منها، الخلق لو شعروا لمنبعث ذلك.

قالوا: ويقال أيضًا على الفلك، وعلى القوة الفلكية التي زينها الباري ﷻ في الطبيعة، وقدرها على تأثير الكون والفساد والذبول والزيادة والاضمحلال والحركة والسكون، فهذا أشعر منهم بالحق المنبعث عنه، وإن ذلك واصل إلى هذه الدار بدوائر محكمة التدوار، لو يعلمون ما أشعروا له ﴿مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف:٢٠] ويظنون كشف عن ذلك بقوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٥ - ٧٦] وسيأتي بيانه إن شاء الله.

قالوا: الطبيعة خاصة حركة عن سكون، وسكون عن حركة، وهذا وصف الفلك.

وقال آخرون منهم: حد الطبيعة قوة فلكية تكون في الأبدان يتوسط الفلك من النفس والأجرام، وفي هذا الحديث شرب من معنى قول الله جلَّ قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة:٧٥] لو شعروا بحقيقة المعنى ليتبين لهم المأتى، وهذا كله إذهاب في الحق، وذهاب عن حقيقة المعنى المطلوب ولسان النبوة أعرب، ولسان الوحي أجمع وأفصح وأجلى وأقرب مأخذًا.

وقالوا أيضًا: الطبيعة جوهر حكيم بصناعة الأشياء المصنوعة، فإن كان مراد هذا بقوله: «جوهر حكيم بصناعة الأشياء» هو الله فهو الحق، ووقع الخطأ منه في تسميته بطبيعة وجوهر، وإلا فهو بعيد عن الصواب؛ إذ ليست الطبيعة التي يرومون إثباتها وحدها مما يوصف بالحياة والعلم والقدرة والإرادة، فيوصف بحكمة وفعل وصنع وصناعة.

وحدوها أيضًا بأن قالوا: هي حرارة غريزية مقومة للأبدان، واقع عنها الفساد

والصلاح على نحو قوتها، وتتهيأ له مصلحته من الغذاء وغيره، وهذا قول خاص على بعض القول في الحق هو، وشرك محض أكثر من كفر الذين نسبوا ما يفتح الله للناس إلى الأنواء، وهو منبعث من مذهب القائلين بالدهر تخرصًا وتظنينًا.

وحدها أيضًا بعضهم بأن قال: الطبيعة قوة في الأجسام القابلة للغذاء تحفظ صحتها، وتبرئها إذا مرضت، ويعني بها العناة التي لا أحكم منها، ولا أبرم في الحكمة منها، وهو جوهر خفي مستور عن الحواس.

وهذه الأقوال أكثرها كفر؛ لأن القول بها والاعتقاد لها ضلال، وفيما ثبت بالقرآن وحديث الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - من تكفير من أضاف فعل الله ﷻ وتدبيره إلى غيره أكثر جدًّا لا سيما والعلم مستقر، فإنها أقوال صادرة عن مذاهب غير صائبة للحق، ولا معتمدة على معتقد مرضي، وقد نهى المسلمين عن التوسع إلى ما دون هذه العبارات مع العلم بحسن معتقدهم ووثيق أصلهم، فكيف بهؤلاء على ما هم عليه ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

تعاطوا القول في تدبير فضل الله جلَّ ذكره ولزيغهم عن السبيل المرضي زيغ بهم عن حقيقة المعتقد، وهم لا يشعرون نسبوا تدبير الله ﷻ، وتدبير ملائكته وسنن شرعته في تكون خليقته طبيعة، فخادم ما يسموه طبيعة يسمى: حكيمًا؛ لأنه يخدم حكمة الله ﷻ، ومتعلمها يسمى: طبيبًا من حيث يعلم، ويعمل لغة وعرفًا لا شرعًا.

قال الشاعر:

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنَّنِي بَصِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ

إِذَا شَابَ رَأْسُ المرءِ أَو قَلَّ مَالُهُ فليس لهُ مِن وُدِّهِنَّ نَصِيبُ

والأولى أن يسمى بما سماه رسول الله ﷺ: رفيق، وهذا اسم شرعي، وإنما الطبيب الحق هو الله لا إله إلا هو الذي لا يموت له عليل بطبه، وليس من شرط الرفيق إلا المعالجة، والأخذ للعليل بالأولى من الأدوية والأغذية على ما تدعو إليه الضرورة، ويتلطف في ذلك عساه أن يبلغ بحسن علاجه دفع ما أذن الله ﷻ، وإبراء ما قدر الله إبراءه استدفاعًا لإذاية ما أذن الله تعالى لجهنم أن تتنفس به من نفسيها المذكورين.

لأجل ذلك مالوا في تأليف الأدوية إلى السهولة وطيب الرائحة، وتقربوا في ذلك إلى حال الاعتدال، ويقلون من الأدوية، وينحون بها إلى الأغذية حسب الاستطاعة؛ إذ الدواء من قبيل ما كان إضلاله، ولذلك تكرهته النفوس ونافرته بأول وهلة، وإخراج الدم كل ذلك معالجة لما اكتنزته الأبدان من عقابيل ذينك النفسين، ونهى رسول الله ﷺ عن الدواء الخبيث.

فصل

هذا المشار إليه بأنه عالم الطبيعة، وهو دار الدنيا أقطعها رب العالمين جلّ وتعالى علاؤه وشأنه عدوه إبليس الملعون المبعد - لعنه الله - أنظره فيه إلى يوم الدين، فكان الذي من شأنه أن ينسب إلى جهنم في هذه الدار نسب إلى إبليس - لعنه الله - نسبة ما، أما أعمال الحرام والمكروه لله جلَّ ذكره كلها فتزيينه ورضاه بها، وحمل ذلك بالغرور ونحو ذلك، وما كان من موجوداتها الكريهة من أحجار ونبات وحيوان، وظلام وظلم، وخلق قبيح وأنواع المؤذيات، ومصائب تصيب من علل وأسقام من بعد محبوب وفوت مطلوب، فمنسوب إليه إيضًا بوجه ما؛ لأنها أقرب إلى ما هو عنه منبعثها كذلك جعلها الطبيب الحق الأعلى، والحكم الحق العليم أدوية من أدواء الأسقام، ثم كره الأدوية للنفوس على الأغلب: لأن إبليس - لعنه الله - مخلوق من نار السموم وإليها معاده وفيها سعيه، ولها كدحه واجتهاده وجده، ولذلك جنبها لبني آدم وزينها؛ ليكون مآل من أطاعه على ذلك أن يدخل مدخله.

فصل

ليست أدوار الأبدان والمصائب كلها بنافعة إلا للمؤمن، ولا إله إلا الله في مخلوقاته وآياته إلا للمؤمن، والكافر مبعد ملعون عن هذا كله، إلا ما كان فيما سبيله إلى الكون.

قال الله ﷻ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى الله كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٣٧].

﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ

بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾[النساء: ١١٤ - ١١٦].

قوله ﷻ: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ...﴾[(١)] [النساء:١١٤] أرجع ﷻ الكلام إلى ذكر أهل الكتاب والمنافقين، وبآخره يعم المؤمنين، كان أهل الكتاب والمنافقين يرجفون بالمدينة يتناجون بذلك، وينتقصون الرسول والمؤمنين، فأنزل الله جلَّ ذكره في ذلك عدة آيات:

منها: قوله جلَّ قوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الأحزاب:٦٠].

وقال جلَّ قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [المجادلة:٨] فكان هذا من تناجيهم، فأعلم الله ﷻ باستصحابهم ذلك، ثم من فحوى الخطاب ومفهومه يعلم أن كثيرًا من مناجاة المؤمنين بعضهم بعضًا، لا خير فيها إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس؛ لذلك وهو أعلم أعقب الخطاب بقوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ الله فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٤].

---

(١) يعني: قوم طعمة، وقال مجاهد: الآية عامةٌ في حق جميع الناس، والنّجوى: هي الإسرار في التدبير، وقيل: النجوى ما ينفرد بتدبيره قوم سرًّا كان أو جهرًا، فمعنى الآية: لا خيرَ في كثير ممّا يدبرونه بينهم ﴿إلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ أي: إلا في نجوى من أمر بصدقة، فالنّجوى تكون فعلاً، وقيل: هذا استثناء منقطع، يعني: لكن من أمر بصدقة، وقيل: النجوى ها هنا الرجال المتناجون، كما قال تعالى: ﴿وإذ هم نجوى﴾ [الإسراء:٤٧] ﴿إلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ أي: حثّ عليها ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ أي: بطاعة الله وما يعرفه الشرع، وأعمالُ البرّ كلّها معروف؛ لأنّ العقول تعرفها ﴿أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ عن أم الدرداء رضي الله عنها، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ألاَ أخبرُكم بأفضلَ من درجة الصيام والصدقة والصلاة؟» قال: قلنا: بلى، قال: «إصلاحُ ذاتِ البين». [تفسير البغوي (٢/٢٨٦)].

دلَّ على صرف معناها إلى المؤمنين قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المجادلة:٩].

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾ [العصر:١ - ٣] وكل شيء فعلاً كان أو قولاً أو ما كان، فمحصل كله مزموم، فإن كان كلامه سيئة فكفى به شرًّا وإن كان لغوًا، فهو خسارة عمر وإبطال عمل، لكن الأكياس توجهوا بقلوبهم وذواتهم ظاهرًا وباطنًا إلى ربهم ﷻ، وأحضروا إليه بنياتهم وطلبوا رضاه في كل قول يكون منهم، فربحوا على ذلك الأرباح الوافرة في الدنيا والآخرة، وهم المعنيون بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ...﴾ [المؤمنون:٥٧] إلى قوله: ﴿سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون:٦١].

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك:١٢].

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء: ١١٧ - ١٢٣].

قوله جلَّ ذكره: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا * لَعَنَهُ اللهُ﴾[1] [النساء:١١٧ - ١١٨] كل معبود دون الله ﷻ فهو أنثى بالمعنى؛ إذ هو

---

(١) نزلت في أهل مكة؛ أي: ما يعبدون، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي﴾ [غافر:٦٠] أي:

مكفول معول مقوم عليه، وبخاصة ما سموها تسمية الأنثى كمناة واللات والعزى وأمثالها، وذكرناها على اعتقادهم كودٍ وسواع ويغوث ويعوق ونسر، سموها لمعانٍ أرادوها من أباطيلهم، والموات وما لا روح فيه أعرق في النقص والأنوثة، كذلك قال إبراهيم ﷺ: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم:٤٢].

وقال الله جلَّ من قائل: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل:٢١].

والمريد: مبالغة من مارد، وهو الذي لا نفع عنده ولا خير فيه، يقال من ذلك: رملة مرداء؛ أي: لا نبت فيها.

والمرداء: القفر الأبلج الذي لا مرعى فيه ولا ظل ولا شجر.

المارد: هو العادي الطاغي.

والمفروض: هو المعلوم المقتطع.

فالنصيب الذي اتخذوه من العباد قد أوجبه الله سبحانه وله الحمد فيهم، وأقطعه إياه منهم منبعث ذلك «هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون»[1].

وقوله جلَّ قوله: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ أي: منك، وممن يكون منك من ذريته ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ [ص:٨٥] يعني: من ذرية آدم ﷺ وذرية إبليس كذلك ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء:١١٨] أي: مقطوعًا من سوء ما به ظن ظنه فيهم، وزعامة زعمها عليهم من نفسه الخبيثة، وقدرة الله تعالى وسابق علمه؛ ليتم كلمة الله وإحكام حكمته في سابق مشيئته.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ:٢٠].

اعبدوني، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر:٦٠] قوله: ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من دون الله ﴿إلا إِنَاثًا﴾ أراد بالإناث الأوثان؛ لأنهم كانوا يسمونها باسم الإناث، فيقولون: اللات والعزى ومناة، وكانوا يقولون لصنم كل قبيلة: أنثى بني فلان، فكان في كل واحدة منهن شيطان يتراءى للسدنة والكهنة ويكلمهم، ولذلك قال: ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلا شَيْطَانًا﴾ هذا قول أكثر المفسرين. [تفسير البغوي (٢/٢٨٨)].

(١) تقدم تخريجه.

وقال: ﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ﴾ أي: عن هدايتهم التي هي الإسلام والإيمان ﴿وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ يمنيهم الغرور، ويعدهم الحسنى بالفجور وحسنى العقبى بسيئ الأعمال.

ثم قال لعنه الله: ﴿وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ﴾ أي: يشقونها ويقطعون آذان الأنعام؛ يعني: يسمونها لآلهتهم عن سنن أباطيلهم من بحيرة وسائبة ووصيلة وحام، ونحو هذا.

ثم قال لعنه الله: ﴿وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ﴾ [النساء:١١٩] تغيير الخلقة على وجهين:

منها: القطع والشق، والوسم على وجوه من الجدع، وغير ذلك.

والوجه الآخر: تغيير الهداية كما قال رسول الله ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تلد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحس فيها جدعاء**»[1].

فصل

ربما سبق إلى نفس التالي من قول الله ﷻ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم:٣٠].

ونظر في حديث رسول الله ﷺ قوله: «**كل مولود يولد على الفطرة.... كما نتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحس فيها جدعاء**»[2].

وقوله ﷺ فيما حكاه عن ربه ﷻ: «**إني خلقت عبادي كلهم حنفاء فأتتهم الشياطين عن دينهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا**»[3] فظن بالحديث تعارضًا للقرآن، أو ما يكون من سبيل هذا، فاعلم - وفقك الله للرشاد - أن حقيقة الفطرة في العباد غير مبدلة، وكذلك في جميع الخليقة، وإنما الكفر اكتساب للعباد

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٢) ومسلم (٢٦٥٨) وأبو داود (٤٧١٤) وأحمد (٨١٦٤).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) وأحمد (١٧٥١٩) والطبراني (٩٨٧) والنسائي في الكبرى (٨٠٧٠) والبزار (٣٤٩١).

يكفرون به إسلامهم، ويضلون بذلك عن هدايتهم يغطي الكفر تلك الحقيقة، ويذهلهم عنها دليل ذلك وجود إيمانهم حين وقوع البلاء، وحلول الحالة التي عبَّر عنها قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٦٧] و﴿إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل:٥٣] فإذا انحسرت عنهم حال الضرورة ووجدوا الفاقة أعرضوا عن ذلك، ورجعوا إلى المقدور فيهم وعليهم.

قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس:١٢] فالشواهد على هذا كثيرة.

قوله ﷻ: ﴿وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً﴾ [النساء:١٢٢] هو الحق، وقوله الحق ووعده الحق.

اعلم - وفقنا الله وإياك - أنه من لم يجعل وعد الله سبحانه وله الحمد كله حقًّا واجبًا، كوجوب كون النهار بعد الليل والليل بعد النهار، وكوجوب الحركة من المتحرك بواسطة القدرة، وكتسويد الكاغذ عن جري القلم بيد الكاتب، وكتصوير الفعل عن مشيئة المصور، وكوجود النهاية عن الانتهاء، فمن لم يكن غوره هكذا لم يوفِّ إيمانه حقه، وهذا هو اليقين بل كل ما تقدم ذكره، ووجوده على المعهود من جريان العادة.

ومن الجائز الممكن بمجزيها أن يقطع ذلك المعهود فلا يكون، بل هو مما يجب الإيمان به، وليس من الجائز ولا الممكن خلف وعد يعد به، ولا وجود خبر منه على خلاف مخبره ﷻ عن ذلك علوًا كبيرًا، فاعلم ذلك واعمل عليه فإن الشيطان - لعنه الله - قد يقنع من العباد بالغفلة عن مشاهدة الحقائق، وينسيه القطع والعمل بها، وإن كان معلومها مختزنًا في جذر قلبه، وربما استجره من هذا المقام إلى حال الجهل به، والعمل على غفلته عنها والجهل بها كما فعل في أصل الإيمان الذي تقدم الراسخ في الجبلة المغروز في سنخ الفطرة حتى اجتالهم عنها وأزاحهم عن حقيقتها، كذلك كان أولئك من قبل، فتبينوا رحمكم الله ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٢].

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ

ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾ [النساء: ١٢٤ - ١٢٨].

قوله سبحانه وله الحمد: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ...﴾ [(١)] [النساء:١٢٣] إلى قوله: ﴿نَقِيرًا﴾ [النساء:١٢٤] الأماني جمع: أمنية، والاسم: المُنى؛ وهو حديث النفس بما هو معجب مستحسن عندها، فإن كان ذلك يحدثها بزنى ومعصية أو ما جرَّ إلى ذلك فهو من الشيطان، وما كان من ذلك من تمنى بطاعة الله وابتغاء رضوان الله وما جرَّ إلى ذلك مكتوب في مصالح عمل العبد، فإن النزول عن هذه العلية سهل على النفس بواسطة تزيين الشيطان، فهو من عمالته التي أقطعها.

والحديث ذو شجون، واللعين تسرع بإلقائه فيما هنالك من أفق النفس، واعتياده استسرارها لذلك والله أعلم لما ذكر جلَّ ذكره ما يعد الشيطان به من غرورها وأمانيهم من أباطيله، وأنه يروج عليهم الضلال في معرض الهداية كقوله: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة:١٨].

وقوله: ﴿لَن يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة:١١١].

---

(١) قال مسروق وقتادة والضحاك: أراد ليس بأمانيكم أيها المسلمون ولا أماني أهل الكتاب؛ يعني: اليهود والنصارى، وذلك أنَّهم افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبيّنا قبلَ نبيّكم وكتابُنا قبل كتابكم فنحن أَوْلَى بالله منكم، وقال المسلمون: نبيّنا خاتمُ الأنبياء وكتابُنا يقضي على الكتب، وقد آمنا بكتابكم ولم تؤمنوا بكتابنا فنحن أَوْلى. [تفسير البغوي (٢/٢٩٠)].

وقوله: ﴿لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ [البقرة:١١٨] ونحو هذا من أمانيهم وغرورهم.

خاطب ﷻ المؤمنين بقوله - جلَّ قوله - وهو أعلم: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ﴾ يقول وهو أعلم: ليس لأنكم أسلمتم لله وآمنتم سلمتم وآمنتم، إنما تجزون الأمن والسلامة إذا أحسنتم في إسلامكم ووافيتم على ذلك، وسوف يكون لكم من الشيطان مطالبات، ومن الله جلَّ ذكره تمحيص وبلوى ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء:١٢٣].

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى﴾ على إيمان وإخلاص ﴿فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء:١٢٤] كل شيء مزموم له وعليه، كما كل شيء نصيبه بقضاء وقدر.

انتظمت هذه الآية بالتي قبلها في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ....﴾ [النساء:١٢٢].

ثم قال عزَّ من قائل: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ﴾ فأمانيهم ﴿لَن يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة:١١١] و﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة:١٨] ونحو هذا، وكأماني أهل الغرة من هذه الأمة الذين فقدوا خشية الله من قلوبهم، وأفردوها بالرجاء فيهم يتمنون علي الدرجات بأعمال الغافلين.

حسم جلَّ ذكره هذا المعلم، وكشف عن هذه المنزلة بقوله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ أي: في العفو والمغفرة ومنازل الفضل، حتى لا يكونوا كما قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠].

﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ وإن كان مؤمنًا مصليًا صائمًا ﴿لَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيًا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء:١٢٣] غير أن الله - تبارك وتعالى - وعد المؤمنين أن يكفر ذلك بالمرض والحزن والمصائب والأرزاء، حتى الشوكة يشاكها؛ ليرد على الله جلَّ ذكره ولا ذنب عليه، وحسناته وافرة مضاعفة إن شاء الله تعالى.

قوله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء:١٢٥] سرد هذا الخطاب على ما تقدم ذكره من اتباع سبيل المؤمنين، ومخالفة سبيل الشياطين والبراءة من ولايتهم، والإخلاص

لله ﷻ بطاعته مادحًا للموصوفين بهذا الوصف مثنيًا عليهم بذلك؛ إذ ملة إبراهيم عليه السلام هو الدين القيم، وهو الصراط المستقيم، ومنتحلوها هم القيمة.

وهو دين الملائكة والرسل - عليهم السلام - لا يقبل الله دينًا غيره، فإذا أحسن في توجهه إلى الله ﷻ، فهو يعمل في خير معتمل إن أحسن حمد الله وشكر، وإن أساء تاب إليه واستغفر، يعبد الله خالصًا مخلصًا كأنه يراه، يراقبه على علم منه بمرأى، مقتديًا بالرسول في سنته متبعًا للخليل في ملته حنيفًا مسلمًا، فهذا أكرم الناس وجه، وأقربهم مقصد عساه يوافي على ذلك، فيتم نعمته عليه.

ثم عرض جلَّ ذكره بوعد كريم وعطف بالواو، وعلى ذكر المقام الذي تقدم وصفه بقوله عزَّ قوله: ﴿وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء:١٢٥] لما كان من معهود فضله العظيم أنه يلحق التابع بالمتبوع، ويدخل المؤتم مدخل إمامه، كما قال عليه السلام: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم:٣٦] وكما قال ﷺ: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين**»[١].

وفيما علمناه في الدعاء في الصلاة على الطفل: «اللهم ألحقه بأولاد المؤمنين في كفالة إبراهيم عليه السلام».

ورأى النبي ﷺ الولدان ليلة أسرى به وإبراهيم عليه السلام معهم تحت شجرة.

فصل

قوله عليه السلام في دعائه: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي: من تبعني على الولاية العليا ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ أي: نزل إلى ما دونها، كما يعصي الموحد ربه فيسمى: عاصيًا، ولا يكفر بذلك، ويرجى له مغفرة الله ورحمته، كذلك قال الله جلَّ قوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:٣٦].

والخليل: فعيل من الخلة، والخلة والخلال: المحبة، ونقيض الخلة: العداوة، كما نقيض المحبة: البغض.

قال الله ﷻ: ﴿الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧]

---

(١) أخرجه مالك (١٧٣٧)، والبخاري (٥٦٥٩)، وأبو داود (٥١٥٠)، وأحمد (٢٢٨٧١)، والترمذي (١٩١٨) والطبراني (٨١٢٠) والبيهقي (١٣٠٣٧) في الشعب (١٠٨٥٨).

ولما كان نقيض الخلة: العداوة، والخلة إذًا هي نهاية الولاية، وأصل الخلال تخلل الشيء وتتبع المقصود، والميل إليه عن سواه، والتخيف أقرب إلى هذا الوصف من ذلك، وإنما حقيقة التخيف القيام على الحق والميل إليه عن سواه.

وقيل: الطريق يكون في الجبل خلال؛ إذ سالكه يتخلل الحزن إلى السهل في مرتقاه.

وقيل للطريق بين الدور والشجر: «خلال» من أجل ذلك.

والخلال أيضًا يتخلل به الإنسان، وخلل الشيء وخلاله: هو ما بين بعضه وبعض كخلل الستر والشجر والنبات.

قال الله ﷻ وذكر الماء ينزل عن السحاب: ﴿فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾ [النور:٤٣].

والخليل أيضًا والخل والمتخلل: الجسم. قال الشاعر:

إِنَّ جِسْمِي بَعدَ خَالِي لَخَلٌّ[1]

والخليل: الشديد الفاقة، وحاله الخلة بفتح الخاء؛ إذ هو الذي قد تخلل في مرضاة الله ﷻ بين هوى نفسه وبين عوائق عوارض الدنيا يحبها، فيتحمل لذلك مرارة الصبر ووحشة الغربة، واختلال الجسم وخلة الحال وشدة الفاقة إن عرضت، فهذا هو المسلم الذي حل في أعلى ذروة الإسلام، فإن منَّ الله عليه بأن يخلل بحبه له موضع الروح منه، ثم أفاض من ذلك على جوارحه فله يعمل وله يترك، وإياه يذكر وله يصمت، فقد اتخذه الله خليلاً.

بذلك أثنى الله ﷻ على إبراهيم ﷺ بقوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لله حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ المُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:١٢٠ - ١٢١].

ومن وصف ما ذكره رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: «**إني لأطلع على قلب عبدي فأجد الغالب عليه ذكري إلا كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي**

---

(١) هذا عجز بيت، وشطره: «فاسقينها يا سواد بن عمرو» والبيت للشنفرى. مفردات ألفاظ القرآن (١/٣٠٨).

يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولإن سألني لأعطينه، ولإن دعاني لأجيبنه...»(١).

وقد تقدم الكلام في المحبة، وأن السبيل إليها حسن الاتباع للرسول ﷺ، وصحة الاقتداء به على قدر الانقطاع لاتباع ملة إبراهيم عليه السلام، يعطي العبد من الخلة على قدر الاقتداء بمحمد ﷺ يعطي متعاطي ذلك من المحبة، والمحبة أعلى الخلة.

ألا تسمع إلى قول إبراهيم عليه السلام في اليوم المشهود للمستشفعين به: **«لست بصاحبكم، اذهبوا إلى ابني محمد إنما كنت خليلاً من وراء وراء»**(٢).

وإنما صعد إلى أعلى الخلة والمحبة بالإضافة إلى منازل المتقين أهل العلية، ومن استعمل اعتمل كما قال بعض القائلين، فسبحان من قد خصَّهم واجتباهم، واختار منهم من أحب خليلاً، هم درجات عند الله، إنما الذين عروا منها ألبتة هم الكافرون.

قال الله جلَّ ثناؤه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١] ثم قال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران:٣٢] ثم حذف هنا ما دلَّ عليه المظهر في الآية التي قبلها، قوله جل قوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ أو ما يكون في معناه.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:٣٢].

قوله ﷻ: ﴿وَلله مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [النساء:١٢٦] دلَّ على سياق هذا الخطاب بعد ما تقدم على تعريض بمعنى الخلة، وإنه لا يصعد إلى أعلاها، ويحل ذروتها إلا بتصحيح التبعية لإبراهيم عليه السلام، ولا يكون يكون ذلك كذلك إلا بأن يتفرغ للنظر والاعتبار في ملكوت السماوات والأرض كي يتعلم اليقين.

فصل

من شروط الخلة والمحبة: البحث عن معرفة الخليل الأعلى، وتعلم معاني

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم (١٩٥)، والبزار (٢٨٤٠)، والحاكم (٨٧٤٩).

أسماء الحبيب الأقرب، ولهج النفس بمدائحه، والاسترواح إلى تصفح أفعاله، وتطلب مجاري حكمته في مصنوعاته، والوجود يدل على ما نحن بسبيل تبيانه قلما ترى محبًا صادقًا إلا لهجًا بذكر محبوبه مشغوفًا باسمه، كثير التكرر على معانيه يقف بالأطلال ويستوقف، ويقوم على الديار، ويشجي بمشاهدة الآثار، ويتوكف[1] الأخبار، ويبكي معاهد الوصال كما قال المتنبي:

بَلِيتُ بِلَى الأطْلالِ إن لم أقِفْ بها وُقوفَ شَحِيحٍ ضاع في التُّرْبِ خَاتِمُهْ

وقال آخر:

أطوف ببابكم في كل وقتٍ كأن ببابكم فرض الطواف

تراه يبكي النوى ويشكو الصد، ملازمًا الاكتئاب قاطعًا للأسباب، راحته في العكوف بباب محبه وتتبع آثاره وتوكف أخباره، كما قال الآخر:

وإني لأهوى الدارَ ما يستفزني لها الود إلا أنها من دياركا

ولا يفارقه شجوه ولا يمكنه سلوه هكذا إلى أن يجد عذوبة القرب، ويتروح روح الفصل.

ثم اعلم - رحمنا الله وإياك - أن هذا المقام قلما تثبت عليه الأقدام إلا برحمة من الله لعدوان العدو، ولأن غيرة الحسود وعين نفسه ونفس حسوده تسرع إليه؛ إذ الفرج به موجود، والعين بمدرك تلك الحال قريرة، وربما نظر إلى نفسه في بعض خطراته ناسيًا أو ساهيًا، فجوزي أن يبتلى بهجر أو يعاقب بصدٍّ.

والعين تسرع أحيانًا إلى الحسن

ومن المعهود أنه ما قرب عين بحال إلا حدقت إليه عيون العدى، واعتبر من ذلك إلى شأن أبينا آدم حين أسكنه ربه جلَّ ذكره الجنة، وما آل إليه أمره، ولولا رحمة ربه والحب المعهود في هذه الدار آية على ما هنالك.

قال بعضهم:

---

(١) توكف فلانًا: تعهده ونظر في أمره، والأثر: تتبعه، والخبر: توقعه وسأل عنه. انظر: المعجم الوسيط (١٠٣٣/٢).

فلَـــــوْ أَنَّ واشٍ بالـــــيَمَامَة دارُهُ   ودارِي بأَعْلى حَضْرَمَوْتَ اهْتَدَى لِيَا

ومــاذا لهــمْ لا أَصْــلحَ الله بــالَهم   من الرَّوحِ في تصريمِ ليلَى حِبالِيَا

ولهـذا المقـام آيـات رأسـها وأسـها التـزام الـذل والتواضـع ومعـرفة الله، واستـشعار التـضاؤل فـي حـال القـوم ينبـئك بحقـيقة مـا نحـن بـسبيل التوصـية، كقول بعضهم:

تذلَّلْ لها واخضَعْ على القرْبِ والنَّوى   فما عاشقٌ مَن لا يَـذِلُّ ويَخْضَعُ

وقال آخر:

وأَهَنْتِنِـــي فأَهَـــنْتُ نَفْـــسِيَ صـــاغِرًا

وهذا كثير فيما بينهم شائع، وجملة الحب آية على ذلك الحب المحمود.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًا لله﴾ [البقرة: ١٦٥].

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١].

وقلما ذكر الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه معقبًا إلا أعقبه بوعيد، وقد أعقب ها هنا بقوله جلَّ قوله: ﴿وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء:١٢٦] فوصف الإحاطة دليل على التهديد، فحظ بالغ هذا المقام وجد قائل هذا المرغب الدعاء، وكثير الابتهال والتكاوس[1] والتمسكن، والمبالغة في التواضع وملازمة الترضي، ولا يرى أحدًا اعتقد الرفعة له عليه، بل يعتقد أن غيره هو الناجي دونه، وهو الهالك إن لم يرحمه الله ربه، ويعمل على يقين بصحة تعبد لله ﷻ وتوكل، وليحذر النكوص بعد الإقدام والنقص بعد التمام، فعلى قدر العلو في الرفعة تكون الوجبة في الوقعة، وأعر الضلالة الضلالة بعد الهدى.

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) التكاوس: التراكم. انظر: جمهرة اللغة (١/٤٧٩).

وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٢٩ - ١٣٥].

قوله عزَّ من قائل: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ...﴾ [النساء: ١٣٥] القسط هو ما يعطيه الميزان والمكيال، وحكم الحق يعبر عنه بالعدل، وهو ما يأمر به كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، يؤثره العقل الصائب بإرشاد الشرع إليه، وهو أيضًا الموجود في حكمة الله تعالى وصنعه في صنائعه في السماوات والأرض وما بين ذلك، وفيما علا وسفل، وفي حكمه على عباده من تقديم أو تأخير أو رفع أو خفض بسط أو قبض، وما وصف به نفسه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه من الصفات العلا، وتسمى به من الأسماء الحسنى، وما له من المثل الأعلى، كذلك فيما خلق ورزق وفطر أو ذرأ وبرأ، وهو القائم بالقسط في شهادته لنفسه، وشهادته لعباده وعليهم.

ولذلك حضَّ على ذكره عباده، وعلى القيام بالقسط على أنفسهم، وعلى ذويهم والأباعد والأقارب، وكذلك عليهم أيضًا أن يقوموا لله - جلَّ ثناؤه - بالشهادة له بما شهد لنفسه، وشهدوا على أنفسهم بما شهد ﷻ عليهم ولهم، ثم بملائكته وأنبيائه ورسله والمؤمنين، وجميع عباده عليهم أن يقوموا بالشهادة لهم وعليهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾[النساء: ١٣٦ - ١٤٠].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ...﴾ إلى قوله: ﴿بَعِيدًا﴾ [النساء:١٣٦] المطلوب من جميع المكلفين الإيمان بالله جلَّ ذكره وبما هو عليه من نعوت التعالي وصفات الجلال، ثم بأحكامه وأفعاله وقدره كله وبما جاء من عنده.

ثم بالملائكة - على جميعهم صلوات الله وسلامه - والأنبياء والرسل - صلى الله عليهم - دون تفرقة بين ذلك، ولا توقيف إيمان ببعض دون بعض، فالله جلَّ ذكره الواحد لا إله إلا هو الواحد الصمد ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٣ - ٤].

والملائكة - صلوات الله وسلامه على جميعهم - كلهم كملك واحد من حيث الإيمان بهم، وكذلك الأنبياء والرسل - على جميعهم الصلاة والسلام - الإيمان بجميعهم كالإيمان برجل واحد إلا ما خصَّ الله ﷻ به بعضهم من بعض من الفضل، والتقديم والتأخير على تخصيص إرساله رسولاً رسولاً إلى أمة أمة، أو عموم في ذلك، وكذلك الإيمان بما جاءوا به ظاهر ذلك وباطنه، واتباع جميعهم إلا ما استثني من حكم النسخ.

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا...﴾ إلى قوله: ﴿سَبِيلاً﴾ [النساء:١٣٧] هؤلاء - والله أعلم - يهود آمنوا بموسى ﷺ، ثم كفروا باتخاذهم العجل إلهًا من دون الله ﷻ، وبقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥] ثم آمنوا بأن تاب الله عليهم، ثم كفروا بعيسى ﷺ لما جاءهم

مصدقًا لما معهم، ثم لما جاءهم محمد - صلوات الله وسلامه على جميعهم - تصديقًا لما معهم، ثم ازدادوا كفرًا إلى كفرهم.

قال الله ﷻ: ﴿لَّمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾ [النساء:١٣٧].

فصل

قال الله ﷻ في اليهود: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ﴾ [البقرة:٦١].

وقال - جل من قائل - في المنافقين: إنهم ﴿مَلْعُونِينَ﴾ [الأحزاب:٦١] والملعون مبعد عن الرحمة، والتوبة من الرحمة، كذلك المغضوب عليهم لا يُقبل منه إحسانه، ولا يُتقبل قربانه ولا توبته.

وفي مثل هذا تقدم القول في سورة «آل عمران» من لدن قوله ﷻ: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ...﴾ [آل عمران:٨٦ - ٨٨] إلى قوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران:٩١].

فهذه الآية مترددة بين جملة اليهود والمنافقين لا يوفقون لتوبة، ولا يقبل منهم إحسانًا إلا آحادًا من هؤلاء وهؤلاء، وبخاصة جملة يهود عليهم حقيقة الغضب والإبعاد، وهو المقول فيهم: ﴿لَّمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾ [النساء:١٣٧].

ولقرب المنافقين من فعل يهود أعقب ذكرهم بقوله جلَّ قوله: ﴿بَشِّرِ المُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء:١٣٨] لتوليهم إياهم وكفرهم بعد إيمانهم، وهاتان الخصلتان يكسبان الغضب واللعن.

قال الله في يهود: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي العَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [المائدة:٨٠].

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ

خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ [النساء: ١٤١ - ١٤٧].

قوله ﷻ: ﴿فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى المُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾[1] [النساء:١٤١] و«لن» حرف يدل على الاستقبال بالمخبر عنه بقوله: ﴿فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى المُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ يعني: يوم القيامة كلمة تامة لا مثنوية فيها تعم، ولا تجعل للمؤمنين ولا للكافرين على جملة المؤمنين سبيلاً؛ يعني: ظهورًا يستأصلون شأفتهم.

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا

---

(١) ثم قال: ﴿وَلَن يَجْعَلَ الله للكافرين عَلَى المؤمنين سَبِيلاً﴾ وفيه قولان: الأول: وهو قول علي ﷺ وابن عباس رضي الله عنهما: إن المراد به في القيامة بدليل أنه عطف على قوله: ﴿فالله يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القيامة﴾ الثاني: إن المراد به في الدنيا ولكنه مخصوص بالحجة، والمعنى: إن حجة المسلمين غالبة على حجة الكل، وليس لأحد أن يغلبهم بالحجة، والدليل الثالث: هو أنه عام في الكل إلا ما خصه الدليل، وللشافعي - رحمه الله - مسائل: منها: إن الكافر إذا استولى على مال المسلم وأحرزه بدار الحرب لم يملكه بدلالة هذه الآية ، ومنها: إن الكافر ليس له أن يشتري عبدًا مسلمًا بدلالة هذه الآية، ومنها: إن المسلم لا يقتل بالذمي بدلالة هذه الآية. [تفسير الرازي (٥/٤١٦)].

لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾ [النساء: ١٤٨ - ١٥٤].

قوله ﷻ: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾ [النساء:١٥٣] تشابهت قلوب الذين كفروا، وأهل الكتاب والمشركين في سؤالهم أنبيائهم.

قال المشركون: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا...﴾ [الإسراء:٩٠] إلى قولهم: ﴿كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ [الإسراء:٩٣].

يقول الله جلَّ من قائل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة:١١٨].

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ

﴿ٱلْآخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ [النساء: ١٥٥ - ١٦٢].

قوله ﷻ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ...﴾ [النساء:١٥٥] الباء ها هنا هي السبب، جارة للمسبب جالبة له، وهو المعنى المستجن في قوله، و«ما» هو اسم ما نقضوه من ميثاق، وحذف ﷻ العائد على «ما»، وقد أظهره جلَّ ذكره في سورة المائدة، فكان تقدير الكلام: فبالذي نقضوا به ميثاقهم لعناهم؛ أي: بالوجوه أو الذنوب أو بكل فعل نقضوا به الميثاق، وعاقبناهم من العقوبات بما يقابل ما نقضوا به، كما قال: ﴿فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ [العنكبوت:٤٠].

وقوله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ [الأنعام:١٣٩].

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ:٣٣].

والواو التي في قوله: ﴿وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللهِ﴾ [النساء:١٥٥] عاطفة على معنى النقض، تقدير الكلام: فبنقضهم المأخوذ عليهم ﴿وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [النساء:١٥٥].

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١٥٦].

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا المَسِيحَ....﴾ [النساء:١٥٧] إلى قوله: ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٥٨].

وفيه: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء:١٥٩] يحتمل أن يكون رجوع الضمير في ﴿مَوْتِهِ﴾ على عيسى صلوات الله عليه، ويحتمل أن يكون رجوعه على كل واحد من أهل الكتاب.

وفي قراءة أُبي: «ليؤمنن به قبل موتهم» بالهاء والميم.

ثم أعاد ﷻ عذاب الآخرة المعد لهم في المعد لهم على عذاب الدنيا، وعقوباتها التي أصابتهم جزاء مقابلاً لما نقضوا به ميثاقهم، وهو وعظٌ وَعَظَ به هذه الأمة، وتحذير حذرهم أن يسلكوا سبيلهم في نقض الميثاق، نعوذ بالله العظيم من سخطه وعذابه ومما يوجب ذلك.

قوله جلَّ قوله: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١٦٢] لما ذكر الله ﷻ أهل الكتاب، وشبههم بالمشركين الذين لا يعلمون استدرك أهل الرسوخ في العلم منهم،

والمؤمنين من هذه الأمة، ونصب ﴿الْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ﴾ على تقدير إعادة الحافض.

وقيل: إنه نصب على المدح، والأول أوجه.

تقدير الكلام: يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالمقيمين الصلاة، وهؤلاء المذكورون في أول سورة البقرة، وهم ذرية الأنبياء - عليهم السلام - وإخوان الرسل، وهم السابقون المفردون من أمته، وهم الأشياخ والقادة الذين اشتاق ﷺ إلى رؤيتهم، فقال: «**وددت أني رأيت إخواني**» قالوا: ولسنا إخوانك يا رسول الله؟ فقال لهم: «**أنتم أصحابي وإخواني الذين لم يأتوا بعد وأنا فرطهم على الحوض**»[١].

والإيمان بوجود هذا الصنف في المؤمنين وبجملة أحوالهم، ورفيع مكانتهم عند الله جلَّ ذكره يتلو الإيمان بالأنبياء والرسل - عليهم السلام - في الوجوب، فاعلم ذلك واستكثر منه فإنه الحق من ربك.

ثم عطف قوله جلَّ قوله: ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ على قوله جلَّ قوله: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [النساء:١٦٢] أي: من أمتك.

وقرأ ابن غزوان: «**والمقيمون الصلاة**»[٢].

---

(١) أخرجه مالك (٥٨)، ومسلم (٢٤٩)، وأحمد (٧٩٨٠)، والنسائي (١٥٠)، وابن ماجة (٤٣٠٦)، وابن حبان (١٠٤٦)، وأبو يعلى (٦٥٠٢)، وأبو عوانة (٣٦٠)، والبيهقي (٣٩٢).

(٢) وفي نصب المقيمين أربعة أقوال: **أحدها** أنه خطأ من الكاتب وهذا قول عائشة وروي عن عثمان بن عفان أنه قال: إن في المصحف لحنًا ستقيمه العرب بألسنتها، وقد قرأ ابن مسعود وأبي وسعيد بن جبير وعكرمة والجحدري والمقيمون الصلاة بالواو. وقال الزجاج قول من قال: إنه خطأ بعيد جدًّا لأن الذين جمعوا القرآن هم أهل اللغة والقدوة، فكيف يتركون في كتاب الله شيئًا يصلحه غيرهم فلا ينبغي أن ينسب هذا إليهم. وقال ابن الأنباري: حديث عثمان لا يصح لأنه غير متصل ومحال أن يؤخر عثمان شيئا فاسدًا ليصلحه من بعده. **والثاني** أنه نسق على ما والمعنى يؤمنون بما أنزل إليك وبالمقيمين الصلاة فقيل هم الملائكة وقيل الأنبياء. **والثالث** أنه نسق على الهاء والميم من قوله منهم؛ فالمعنى لكن الراسخون في العلم منهم ومن المقيمين الصلاة يؤمنون بما أنزل إليك، قال الزجاج وهذا رديء عند النحويين لا ينسق بالظاهر المجرور على المضمر المجرور إلا في الشعر. والرابع أنه منصوب على المدح فالمعنى اذكر المقيمين الصلاة وهم المؤتون الزكاة. [زاد المسير (٢/٢٥٢)].

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾ [النساء: ١٦٣ - ١٦٩].

قوله جلَّ ذكره: ﴿لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء:١٦٦] لما ذكر الله ﷻ أنه أوحى إلى نبيه محمد ﷺ، كما أوحى إلى جميع المرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - استدرك بحرف «لكن» شهادته العليا بذلك من جَحْدِ من جَحَدَ الحق وعَنَدَ عنه.

وقوله جلَّ قوله: ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ يعني وهو أعلم: ما أساء من علم الغيب بما كان، وما هو كائن.

ووجه آخر: إنه أنزله بعلم مبينًا عن نعوت الإلهية وحقائق الوحدانية، وأسمائه الحسنى وصفاته الكاملة العلا، ويخبر عن آياته وشواهده وبيّناته.

ووجه آخر: إنه أنزله بعلمه؛ أي: بأمره ونهيه، وبما هو المبلغ من معرفة حلاله وحرامه، والمؤدي إلى رضوانه ومحبته، وما ينجي من غضبه وعذابه.

ووجه آخر: إنه أنزله بعلمه الذي أصحبه إياه حال إنزاله من روح وأمر وملائكة، وحفظ حقَّه به حتى أوصله إلى قلب الرسول ﷺ إلى أن جعله قرآنًا عربيًا على لسانه، ثم ما هو حافظه إلى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

قال الله: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَسُولٍ

﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن:٢٦ - ٢٧] إلى آخر السورة، هذه سبل موصلة إلى بعض مقتضيات قوله جلَّ قوله: ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾.

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾[1] [النساء:١٦٨ - ١٦٩] الظلم في الكفر كثير، والمقصود الأول منه بالخطاب هو الصد عن السبيل المرتضى، وكما ذنوب الغير في الإسلام شديدة، وهي التي لا يتركها الله ﷻ، وكذلك الصد عن سبيل الله، والفتنة في الدين للغير على موجب هذه الآية شديد.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ الله قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيدًا﴾ [النساء:١٦٧] بعدوا عن المقصد وعسر عليهم الرجوع، فلذلك لهم نوعان من العذاب: عذاب لكفرهم، وعذاب لصدهم عن سبيل الله ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل:٨٨] غير أن الله جلَّ ذكره بسعة رحمته وعد التائبين منهم بالمغفرة والقبول مع وجود التوبة منهم أن يعسر مأتاها.

قال الله جلَّ من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج:١٠].

وقربت هذه الآية قوله جلَّ من قائل: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ بفتح الفاء والتاء ﴿ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:١١٠] سبقت رحمته غضبه هذا حكمه على سنن الفضل إنه ذو الفضل العظيم، وذلك حكمه على سنن الوعيد، وكلٌّ إلى مشيئته راجع، وما أتى في الكتاب العزيز وحديث الرسول ﷺ فهذه سبيله ﴿وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟

(١) في هذا الاسْتِثْنَاء قولان: أحدهما: إنه اسْتِثْنَاء مُتَّصِلٌ؛ لأن المُرَادَ بالطَّرِيق الأوَّلِ: العُمُوم، فالثَّانِي من جِنْسِهِ. والثاني: إنه مُنْقَطِعٌ إن أُرِيد بالطَّرِيق شَيْءٌ مَخْصُوصٌ، وهو العمل الصَّالِحُ الذي يَتَوَصَّلُون به إلى الجَنَّة، وانْتَصَب «خَالِدِين» على الحَالِ، والعَامِلُ فيه مَعْنَى: «لا يهديهم الله» لأنه بِمَنْزِلَةِ: يُعَاقِبُهم خَالِدِين، وانْتَصَب «أبَدًا» على الظَّرْفِ. [تفسير اللباب لابن عادل (٥/٤٤٥)].

فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء: ١٧٠ - ١٧٣].

قوله سبحانه وله الحمد: ﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى الله إِلَّا الحَقَّ...﴾[١] [النساء:١٧١] الغلو: الارتفاع والاستعلاء، وغلوهم في دينهم: أن ﴿قَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ الله وَقَالَتِ النَّصَارَى المَسِيحُ ابْنُ الله﴾ [التوبة:٣٠] تعالى الله جلَّ ذكره عن قبيح افترائهم علوًا كبيرًا.

وقالت الطائفتان معًا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة:١٨].

وقالت النصارى في المسيح ابن مريم عليه السلام باتحاد اللاهوت بالناسوت، وأكثرت في ذلك من أنواع الأباطيل؛ لاختلاف مذاهبها في كيفيته، ذلك بقدر مقصود عقولها وبصائرها العميَّة، وقالت في مريم وابنها عليه السلام قولاً عظيمًا وبهتانًا مبينًا.

وقالتا معًا: ﴿لَن يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة:١١١] فقتلت الطائفتان أنبيائهم والآمرين بالقسط من الناس، أشبهت قلوب الطائفتين

---

(١) قوله تعالى: ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: إنه خطاب للنصارى خاصة. والثاني: إنه خطاب لليهود والنصارى؛ لأن الفريقين غلوا في المسيح، فقالت النصارى: هو الرب، وقالت اليهود: هو لغير رشدة، وهذا قول الحسن. [النكت والعيون (١/ ٣٤١)].

قلوب الكفار قبلهما ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة:٣٠].

فصل

الخلق والأبوة لا يجتمعان لموصوف بهما أبدًا إذ الخالق ليس بأب، ومخلوقه ليس له بابن، وكل من اتصف بأنه أب فليس بخالق، بل الخالق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه يصطفي مما يخلق ما يشاء، ويجتبي ويصطنع ويقرب ويختار، ويتخذ منهم أولياء وأخلاء وأحباء وأصفياء وأنبياء ورسلاً، وكلهم له عبيد أرقاء لا يملكون من دونه ضرًّا ولا نفعًا، ولا يملكون موتًا ولا حياة ولا نشورًا، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، لا كفؤ له ولا مثل له، ولا شبه ولا عدل له، لا يموت وليس بموروث، ولا فقير سبحانه وله الحمد كله، الأبوة والبنوة فيما هنالك عدم محض ومحال باطل.

يقول الله جلَّ من قائل: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف:٥٩ - ٦٠].

وقال جلَّ قوله: ﴿إِنَّمَا المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ الله وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء:١٧١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾ [النساء: ١٧٤ - ١٧٦].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا...﴾ [النساء:١٧٤].

البرهان: ما صدق قول المتحدي، وهو هنا ما أظهره الله جلَّ ذكره على يدي

رسول الله ﷺ من الآيات الدالات على صدقه، وما أنزله في كتابه من الإعجاز الشاهد على أنه من عند الله، ووصفه له بأنه نور؛ فذلك لأنه يهدي به إلى الصراط المستقيم، ويكون إمامًا للعامل به نورًا بعد الموت، كذلك قال عزَّ من قائل: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ أي: بالله والكتاب ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ أي: في الآخرة ﴿وَ﴾ بعد الموت ﴿يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء:١٧٥] في هذه الحياة الدنيا.

قوله عزَّ من قائل: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ [النساء:١٧٦] إلى آخر السورة.

الكلالة: هو مكلل عدم النسب، تكلله من أعلاه: فقد الأبوين، ومن الأسفل منه: عدم الأبناء، وهذه آية كلالة، وورثتها إخوة شقائق أو لأب، والكلالة المذكورة في صدر السورة ورثتها إخوة لأم؛ فلذلك ما أشكلت[1].

---

(١) الكلالة: خلو الميت عن الوالد والوالدة قاله: أبو بكر، وعمر، وعلي، وسليم بن عبيد، وقتادة، والحكم، وابن زيد، والسبيعي، وقالت طائفة: هي الخلوّ من الولد فقط، وروي عن أبي بكر وعمر ثم رجعا عنه إلى القول الأوّل، وروي أيضًا عن ابن عباس، وذلك مستقر من قوله في الإخوة مع الوالدين: إنهم يحطون الأم ويأخذون ما يحطونه، ويلزم على قوله: إذ ورثهم بأن الفريضة كلالة أن يعطيهم الثلث بالنص، وقالت طائفة منهم: الحكم بن عيينة، هي الخلو من الولد، قال ابن عطية: وهذا إن القولان ضعيفان؛ لأن من بقي والده أو ولده فهو موروث بنسب لا بتكلل، وأجمعت الأمة الآن على أنَّ الإخوة لا يرثون مع ابن ولا أب، وعلى هذا مضت الأعصار والأمصار، انتهى، واختلف في اشتقاقها، فقيل: من الكلال وهو الإعياء، فكأنه يصير الميراث إلى الوارث من بعد إعياء، وقال الزمخشري: والكلالة في الأصل مصدر بمعنى الكلال، وهو ذهاب القوة من الإعياء، فاستعيرت للقرابة من غير جهة الولد والوالد؛ لأنها بالإضافة إلى قرابتها كالة ضعيفة، انتهى. وقيل: هي مشتقة من تكلله النسب أحاط به، وإذا لم يترك والدًا ولا ولدًا فقد انقطع طرفاه، وهما عمودا نسبه، وبقي موروثه لمن يتكلله نسبه؛ أي: يحيط به من نواحيه كالإكليل، ومنه روض مكلل بالزهر، قال الأخفش: الكلالة من لا يرثه أب ولا أم، والذي عليه الجمهور أنَّ الكلالة الميت الذي لا ولد له ولا مولود، وهو قول جمهور أهل اللغة صاحب العين، وأبي منصور اللغوي، وابن عرفة، وابن الأنباري، والعتبي، وأبي عبيدة، وغلط أبو عبيدة في ذكر الأخ مع الأب والولد، وقطرب في قوله: الكلالة اسم لمن عدا الأبوين والأخ، وسُمي ما عدا الأب والولد كلالة؛
=

=

لأنه بذهاب طرفيه تكلله الورثة وطافوا به من جوانبه، ويرجح هذا القول نزول الآية في جابر ولم يكن له يوم نزولها ابن ولا أب؛ لأن أباه قتل يوم أحد فصارت قصة جابر بيانًا لمراد الآية، وأما الكلالة في الآية فقال عطاء: هو المال، وقالت طائفة: الكلالة الورثة، وهو قول الراغب، قال: الكلالة اسم لكل وارث، وقال عمر وابن عباس: الكلالة الميت الموروث، وقالت طائفة: الورثة بجملتها كلهم كلالة.

تفسير سورة المائدة(١)

مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢)﴾ [المائدة: ١ - ٢].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ إلى قوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة:١] العقود ها هنا هي ما انعقدت عليها النيات، وتوجهت

(١) هذه السورة نزلت لما انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية، ومنها ما نزل في حجة الوداع، ومنها ما نزل عام الفتح، وكل ما نزل بعد الهجرة بالمدينة، أو في سفر، أو بمكة، فهو مدني، وذكروا فضائل هذه السورة، وأنها تسمى: المائدة، والعقود، والمنقذة، والمبعثرة، ومناسبة افتتاحها لما قبلها هو أنه تعالى لما ذكر استفتاءهم في الكلالة وأفتاهم فيها، ذكر أنه يبين لهم كراهة الضلال، فبين في هذه السورة أحكامًا كثيرة هي تفصيل لذلك المجمل، قالوا: وقد تضمنت هذه السورة ثمانية عشر فريضة لم يبينها في غيرها، وسنبينها أوّلاً فأوّل إن شاء الله تعالى، وذكروا أن الكندي الفيلسوف قال له أصحابه: أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا لقرآن، فقال: نعم، أعمل مثل بعضه، فاحتجب أيامًا كثيرة ثم خرج، فقال: والله ما أقدر، ولا يطيق هذا أحد، إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة، فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء، ونهى عن النكث، وحلل تحليلاً عامًا، ثم استثنى استثناء، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين، ولا يقدر أحد أن يأتي بهذا إلا في إجلاد، والظاهر أنّ النداء لأمة الرسول المؤمنين، وقال ابن جريج: هم أهل الكتاب، وأمر تعالى المؤمنين بإيفاء العقود وهي جمع عقد، وهو العهد، قاله: الجمهور، وابن عباس، ومجاهد، وابن جبير، وقتادة، والضحاك، والسدي.

به الإرادات.

قال الله ﷻ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ﴾[١] [المائدة:٨٩] و﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٥] أمر الله جلَّ ذكره أن تتقيد الجوارح بما عقدت عليه الجوانح من خير، وتوبة لله ﷻ من ذنب هذه جملة جامعة لما حوته السورة.

---

(١) لأنه تعالى لما نهى عن جعل الله معرضًا للأيمان، كان ذلك حتمًا لترك الأيمان وهم يشق عليهم ذلك؛ لأن العادة جرت لهم بالأيمان، فذكر أن ما كان منها لغوًا فهو لا يؤاخذ به؛ لأنه مما لا يقصد به حقيقة اليمين، وإنما هو شيء يجري على اللسان عند المحاورة من غير قصد، وهذا أحسن ما يفسر به اللغو؛ لأنه تعالى جعل مقابلة ما كسبه القلب وهو ماله فيه اعتماد وقصد، واختلفت أقوال المفسرين في تفسير لغو اليمين، فقال أبو هريرة وابن عباس والحسن وعطاء والشعبي وابن جبير ومجاهد وقتادة ومقاتل والسدي عن أشياخه ومالك في أشهر قوليه وأبو حنيفة: هو الحلف على غلبة الظن، فيكشف الغيب خلاف ذلك؛ وقالت عائشة وابن عباس أيضًا وطاووس والشعبي ومجاهد وأبو صالح والشافعي: هو ما يجرى على اللسان في درج الكلام والاستعجال: لا والله، وبلى والله، من غير قصد لليمين؛ وهو أحد قولي مالك وقال سعيد بن جبير، وابن المسيب، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وابنا الزبير عبد الله وعروة: هو الحلف على فعل المعصية، إلَّا أن ابن جبير قال: لا يفعل ويكفر، وباقيهم قالوا: لا يفعل ولا كفارة عليه. وقال ابن عباس أيضًا، وعلي، وطاووس: هو الحلف في حال الغضب، وقال النخعي: هو الحلف على شيء ينساه، وقال ابن عباس أيضًا، والضحاك: هو ما تجب فيه الكفارة إذا كفرت سقطت، ولا يؤاخذ الله بتكفيرها، والرجوع إلى الذي هو خير؛ وقال مكحول، وابن جبير أيضًا، وجماعة: هو أن يحرم على نفسه ما أحل الله، كقوله: مالي عليّ حرام إن فعلت كذا، والحلال علي حرام، وقال بهذا القول مالك إلَّا في الزوجة، فألزم فيها التحريم إلَّا أن يخرجها الحالف بقلبه، وقال زيد ابن أسلم وابنه: هو دعاء الرجل على نفسه أعمى الله بصره، أذهب الله ماله، هو يهودي، هو مشرك، هو لغية، إن فعل كذا.

وقال مجاهد: هو حلف المتبايعين، يقول أحدهما: والله لا أبيعك بكذا، ويقول الآخر: والله ما أشتريه إلَّا بكذا، وقال مسروق: هو ما لا يلزمه الوقاية، وروي عنه، وعن الشعبي: أنه الحلف على المعصية؛ وقيل: هو يمين المكره، حكاه ابن عبد البر، وهذه الأقوال يحتملها لفظ اللغو، إلَّا أن الأظهر هو ما فسرناه أولاً؛ لأنه قابله كسب القلب، وهو تعمده للشيء، فجميع الأقوال غيره ينطبق عليها أنها كسب القلب؛ لأن للقلب قصدًا إليها: ونفي الوحدة يدل على أنه لا إثم ولا كفارة، فيضعف قول من قال: إنها تختص بالإثم، ويفسر اللغو باليمين المكفرة.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:١] واختلف العلماء في اسم الأنعام، واسم البهيمة على ما يقع منها اسم البهيمة، وذكر ﷻ الأنعام؛ لأنها أكثر ما تؤكل، وهي المقصودة هنا على الأغلب.

ثم استثنى ﷻ ما حظره علينا؛ إما لذاته، أو لمعنى عارض فيه بقوله جلَّ قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾.

ثم استثنى جلَّ ذكره من المباح بمفهوم الخطاب حالاً يكون من الأكل والصيد بقوله جلَّ قوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة:١] واسم الصيد متناول وحش الأرض وطير السماء وحيتان الماء، ويجمع ذلك كله اسم البهيمة.

وقد استثنى جلَّ ذكره الخنزير من بهيمة الأنعام بقوله جلَّ قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ وكان مما قد وعدنا به يتلوه علينا، فهذه جملة فسرها جلَّ ذكره بمفهوم الخطاب جميع ما في القرآن العزيز، وحديث الرسول ﷺ من حظر وإباحة فيما أبيح من بهيمة الأنعام.

ثم اتصف جلَّ ذكره بما هو من صفة العزة والحكمة في قوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة:١].

قوله عزَّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ...﴾ إلى قوله جلَّ قوله: ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة:٢] من أدل شيء على أنه يعلم الكائنات قبل الكون إنه لم ينهَ ﷻ قط عن شيء إلا كان مفعولاً؛ ذلك لأن أمره الشرع المقابل له بالنهي منفصل من الأمر الذي هو الكون، وقد قال جلَّ قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾ [النساء:٤٧] نهى جلَّ ذكره أبانا آدم ﷺ عن أكل الشجرة فواقع ذلك.

وكذلك الجملة من بنيه لكنه يعصم من يشاء بفضله، ويخذل من يشاء بعدله ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر:٥٢] أي: في صحف الكاتبين ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ [القمر:٥٣] أي: في أم الكتاب علم ﷻ، وأجرى في تقديره أنه سيأتي بعد نزول القرآن من يستحل شعائره وينتهك حرماته، ويستبح حرمه ويعطل مناسكه، ويؤذي قاصديه وحجاج بيته الحرام ويريق دماءهم.

ثم عطف جلَّ ذكره آخر الخطاب قوله جلَّ قوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾

[المائدة:٢] على أوله قوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة:١].

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣)﴾ [المائدة: ٣].

قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ﴾ [المائدة:٣] إعلامًا منه جلَّ ذكره لعباده المؤمنين بإتمام كلمته الحسنى عليهم، وذلك لما أعدَّ الله جلَّ ذكره الإسلام بالنصر والفتح، وكثر المسلمون حجَّ رسول الله ﷺ تلك الحجة فيما لا يحصيهم عددًا، ولا يحويهم كتاب أنزل الله جلَّ ذكره عليه قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا...﴾ [المائدة:٣] سميت تلك الحجة: حجة الكمال، وحجة البلاغ، وحجة الإسلام.

فأما الكمال: فلقوله ﷻ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أي: دعائم الإسلام الخمسة بتوابعها.

وأما التمام: فلأنه جلَّ ذكره أتم كلماته الحسنى عليهم منها ما في قوله جلَّ قوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح:٢٧] وكان ذلك استجابة منه جلَّ ذكره لدعاء إبراهيم واسماعيل - عليهما السلام - في قولهما: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا﴾ [البقرة:١٢٨].

وقولهما عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة:١٢٩] كذلك أنجزهما موعده بالاستجابة والامتنان عليهما بما يكون من ذريتهما محمد وآله - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - في قوله جلَّ قوله لهما، وأمره إياهما أن يطهرا بيته ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة:١٢٥].

وقوله - جلَّ قوله - لإبراهيم ﷺ: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى

كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ [الحج:٢٧ - ٢٨] فكان إتمام ذلك منه - جلَّ وعلا - في ذلك اليوم وفيما بعده، وكل ذلك كلماته الصادقة السابقة في ذلك عبارات عبَّر بها، وإعلام ووعد وعد به وامتنان بقوله جلَّ قوله: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور:٥٥].

وذلك كله مجموع في قوله - جلَّ قوله - مخاطبًا رسوله موسى عليه السلام: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ...﴾ [الأعراف:١٥٦] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧].

وكان ذلك يوم الجمعة وهو يوم عرفة، وهو يوم الحج الأكبر يوم إتمام كلماته على عباده وإكمال نعمته، وهو المزيد إن شاء الله بسعة رحمته وكريم عفوه.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخْدَانٍۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [المائدة: ٤ - ٥].

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ...﴾ [المائدة:٤] الجوارح: الكواسب، وهي هنا عبارة عن الكلاب والشواذق والبزاة، وكل من علم فتعلم، والمعنى هنا بالتعليم لهن هي الطواعية حال الاصطياد كالإرسال والإشلاء، وهو الزجر والإمساك للصيد على مُشليه، فإذا بلغ الجوارح ذلك كان ما قتله من الصيد بعد اليقين له، والتسمية عليه حلالاً أكله مباحًا متناوله إذا فات الزكاة، ومتى قدر المرسل على ذكاة الصيد فتركه عمدًا حتى مات عند

الجوارح فلا يؤكل.

قال الله ﷻ: ﴿فكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ الله عَلَيْهِ﴾[1] أي: على الإرسال أو على الأكل أو كليهما ﴿وَاتَّقُوا الله﴾ [المائدة:٤] أي: في أحكام الصيد كلها خاصة، فإنها عينت، ثم في سواها عامة.

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ [المائدة:٩٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٦ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٨﴾ [المائدة: ٦ - ٨].

قوله جلَّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى المَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة:٦] قرئ بفتح اللام عطفًا على غسل الوجه والأيدي، وبكسرها عطفًا على مسح الرؤوس، وهذا مصداق ما جاء رسول الله ﷺ من الأمر بالمسح على الخفين.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أي: فلم تقدروا على مسِّ الماء، وتعذر

(١) قوله ﷻ: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ....﴾ قال سعيد بن جبير: نزلت هذه الآية في عدي بن حاتم وزيد بن المهلهل الطائيين وهو زيد الخيل الذي سماه رسول الله ﷺ: زيد الخير، قالا: يا رسول الله، إنا قوم نصيد بالكلاب والبزاة، فماذا يحل لنا منها؟ فنزلت هذه الآية. [تفسير البغوي (١٥/٣)].

عليكم وجود الماء؛ إما لعدمه أو لعدم من يناوله، أو لتعذر الوصول إليه ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الغَائِطِ﴾ عبارة عن الحدث ﴿أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ فظاهرها إنه عطف على ذكر المرض أو السفر والحدث، وقد تقدم في صدر الآية ذكر الجنابة، وأن حكمها الغسل.

ثم قال جلَّ ذكره: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة:٦] وكذلك نظيرتها في سورة النساء، فاستاق ذكر الملامسة إلا ذكر الإحداث بعد ما صدَّر جلَّ ذكره بذكر الجنابة والغسل منها.

فصل

الملامسة: مفاعلة اللمس، من ذلك لمس يلمس لمسًا واللمس يكون باليد، ويكون بالبشرة، وقد استاقه جلَّ ذكره في سياق الإحداث وهو أعلم بما أراد، والجماع قد انفرد باسمه.

وقد سأل عتبان بن مالك رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، الرجل يجامع أهله ثم يغسل ماذا عليه؟ قال: «**يغسل منه ما أصاب المرأة ثم يتوضأ ويصلي**»[(١)].

وأفرد الله جلَّ ذكره الجنابة بذكر الغسل، ولو كانت الملامسة بمعنى الجنابة لم يكن لتكرارها معنى، وقد تقدم ذكرها في صدر الآية، ولما قال رسول الله ﷺ للأسلمي لما أقر عنده بالزنى: «**لعلك لمستها، لعلك قبلتها**»[(٢)] كل ذلك يقوله رسول الله، وهو يقول: لا والله يا رسول الله، وهو عري حتى سمَّى له الجماع باسمه الخاص به، لا يكني.

وقوله ﷺ: «**الماء من الماء**»[(٣)] فهو على ظاهر القرآن، ثم بعد وقع الاختلاف بعد الوفاة، حتى قالت عائشة رضي الله عنها: «**إذا التقى الختانان فقد وجب الغسل**»[(٤)] وروته عن رسول الله ﷺ والقول بما حدثت به، وهو نسخ القرآن بالسنة،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٤٢٤)، والحاكم (٨١٩٠).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه الشافعي (١/١٥٩)، والترمذي (١٠٩)، وأحمد (٢٦٧٧٨)، وابن ماجة (٦٠٨)، والبيهقي في المعرفة (١٣٧٢)، وإسحاق بن راهويه (١٠٤٤)، وابن حبان (١١٨٣).

وفي إخباره هذا نظر، وإنما السنة مبينة للقرآن لا ناسخة له، وقد درج على العمل بما روته عائشة - رضي الله عنها - أفاضل الأمة.

ورواه أيضًا أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قعد بين شعبها الأربع وأجهدها فقد وجب الغسل أنزل أو لم ينزل**»[1] ولم يعلم الجنابة إلا بنزول الماء.

قال رسول الله ﷺ: «**تحت كل شعرة جنابة...**»[2].

وأكثر الصحابة ﷺ على الأمر الأول ثم حدث هذا، فالله أعلم آمنا بالله وسلمنا له.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝١٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١١ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١٢﴾ [المائدة: ٩ - ١٢].

قوله عزَّ قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة:١٢] النقابة: إعلام بالخير، وهو تبليغ الوحي، وما جاءت به الرسل - عليهم السلام - والتحريض عليه والإرشاد إليه والهداية، ونحو هذا مع البحث عما يخالف ذلك والتعاهد له.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٧)، ومسلم (٣٤٨)، وابن أبي شيبة (٩٣١)، وأحمد (٧١٩٧)، والنسائي (١٩١)، وابن ماجة (٦١٠)، والدارمي (٧٦١)، وأبو عوانة (٨٢٤)، وابن حبان (١١٧٨)، والبيهقي (٧٤١). شعبها الأربع: يداها ورجلاها، وقيل: رجلاها وفخذاها.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٤٨)، والترمذي (١٠٦)، وابن ماجة (٥٩٧)، وعبد الرزاق (١٠٠٢)، وابن أبي شيبة (١٠٦٥)، والطبراني (٣٩٨٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٧٤٨).

قال الله ﷻ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق:٣٦] أي: بعثوا في البلاد رسلاً يبحثون عما ينجيهم مما هم، والنقباء يبلغون عن رسل الله - صلوات الله وسلامه على جميعهم - رسالاته إلى حيث لا تبلغه الرسل من الأقطار، وبعث الله جلَّ ذكره من أصحاب موسى وعيسى ومحمد - صلوات الله على جميعهم - النقباء.

وقال الله جلَّ ذكره للنقباء: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ....﴾ [المائدة:١٢] فوفى بالميثاق من وفى، ونقض من نقض، وما حذر الله جلَّ ذكره من شيء إلا كان مفعولاً واقعًا بمن أراده الله بذلك.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ۙ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٣ - ١٦].

قال الله جلَّ ذكره: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ أي: فبالذي نقضوا ميثاقهم ﴿لَعَنَّاهُمْ﴾ [المائدة:١٣] أي: من جنس ذنوبهم ووصف أعمالهم كان عذاب

ينالهم[1].

وقال في عيسى ﷺ: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ [المائدة:١٤] يعني: بين اليهود والنصاري.

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾ هذا خاص ليهود والله أعلم ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللهُ لَا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ﴾ [المائدة:٦٤] كان ما تقدم ذكره متابعة بني إسرائيل اليهود والنصارى أنبيائهم.

وقال - جلَّ قوله - في المسلمين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح:١٠] هذا ميثاق الإسلام والمسلمين.

ثم ميثاق الفطرة، قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم...﴾ [البقرة:٢١] إلى قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا للهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢].

ثم ميثاق العلم، قال الله جلَّ ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران:١٨٧].

وقال جلَّ قوله: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ [الأعراف:١٦٩].

قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ...﴾ [المائدة:١٥] إلى قوله: ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ﴾ [المائدة:١٦] هي سبل الله جلَّ ذكره لقوله جلَّ قوله: ﴿صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [الشورى:٥٣] وهي ما شرعه من شرائع تخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه؛ أي: يرفع إلى الولاية

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ قرأ حمزة والكسائي: «قسية» بتشديد الياء من غير ألف، وهما لغتان مثل الذاكية والذكية، وقال ابن عباس: قاسية؛ أي: يابسة، وقيل: غليظة لا تلين، وقيل معناه: إن قلوبهم ليست بخالصة للإيمان بل إيمانهم مشوب بالكفر والنفاق، ومنه الدراهم القاسية وهي الردية المغشوشة. [تفسير البغوي (٣١/٣)].

العظمى والاختصاص الأكبر.

يعبر بلفظ الظلمات إلى نوعين منها: أولها: ظلمات الكفر يخرجهم منها إلى نور الإيمان، ثم ظلمات العادات وضراوات يخرجهم منها إلى نور الإيمان، والطهارة والإحياء بروح الإيمان.

وقلما عبر ﷺ بإخراج من الظلمات إلى النور إلا عن الدرجة الأولى بعمومها، وشمولها الظلم الأول، والأخرى كقوله جلَّ قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ الله نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:١٥] فالكتاب أولى بما هو الكتاب يهدي به إلى سبيل السلام، وبما هو النور، ويهدي إلى الاختصاص الأكبر وعلى الولاية، وإنما هو مبين وهو نور مبين لأهل كل مقام ما يأتون وما يذرون، فافهم.

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ

إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المائدة: ١٧ - ٢٨].

قوله ﷻ حكاية عن ابني آدم عليه السلام: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ﴾[1] [المائدة:٢٨].

---

(١) قال القرطبي في «تفسيره»: قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ...﴾ وجه اتصال هذه الآية بما قبلها التنبيه من الله تعالى على أن ظلم اليهود، ونقضهم المواثيق والعهود كظلم ابن آدم لأخيه، المعنى: إن هم هؤلاء اليهود بالفتك بك يا محمد فقد قتلوا قبلك الأنبياء، وقتل قابيل هابيل، والشر قديم، أي: ذكرهم هذه القصة فهي قصة صدق، لا كالأحاديث الموضوعة، وفي ذلك تبكيت لمن خالف الإسلام، وتسلية للنبي ﷺ واختلف في ابني آدم، فقال الحسن البصري: ليسا لصلبه، كانا رجلين من بني إسرائيل - ضرب الله بهما المثل في إبانة حسد اليهود - وكان بينهما خصومة، فتقربا بقربانين ولم تكن القرابين إلا في بني إسرائيل، قال ابن عطية: وهذا وهم، وكيف يجهل صورة الدفن أحد من بني إسرائيل حتى يقتدي بالغراب؟ والصحيح أنهما ابناه لصلبه، هذا قول الجمهور من المفسرين وقاله ابن عباس وابن عمر وغيرهما، وهما قابيل وهابيل، وكان قربان قابيل حزمة من سنبل - لأنه كان صاحب زرع - واختارها من أردأ زرعه، ثم إنه وجد فيها سنبلة طيبة ففركها وأكلها، وكان قربان هابيل كبشًا - لأنه كان صاحب غنم - أخذه من أجود غنمه ﴿فَتُقُبِّلَ﴾ فرفع إلى الجنة، فلم يزل يرعى فيها إلى أن فدي به الذبيح عليه السلام، قاله سعيد بن جبير وغيره، فلما تقبل قربان هابيل لأنه كان مؤمنًا - قال له قابيل حسدًا: أنه كان كافرًا - أتمشي على الأرض يراك الناس أفضل مني! ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ وقيل: سبب هذا القربان أن حواء عليها السلام كانت تلد في كل بطن ذكرًا وأنثى - إلا شيثًا عليه السلام فإنها ولدته منفردًا عوضًا من هابيل على ما يأتي، واسمه هبة الله؛ لأن جبريل عليه السلام قال لحواء لما ولدته: هذا هبة الله لك بدل هابيل، وكان آدم يوم ولد شيث ابن ثلاثين ومائة سنة - وكان يزوج الذكر من هذا البطن الأنثى من البطن الآخر، ولا تحل له أخته توءمته، فولدت مع قابيل أختًا جميلة واسمها إقليمياء، ومع هابيل أختًا ليست كذلك واسمها ليوذا، فلما أراد آدم تزويجهما قال قابيل: أنا أحق بأختي، فأمره آدم فلم يأتمر، وزجره فلم ينزجر، فاتفقوا على التقريب، قال جماعة من المفسرين منهم ابن مسعود، وروي أن آدم حضر ذلك والله أعلم. وقد روي في هذا الباب عن جعفر الصادق: إن آدم لم =

هذا مصداق قول رسول الله ﷺ: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**» قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «**إنه كان حريصًا على قتل صاحبه**»[1].

﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٩ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٣٠ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ۝٣١ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ

يكن يزوج ابنته من ابنه، ولو فعل ذلك آدم لما رغب عنه النبي ﷺ ولا كان دين آدم إلا يكن النبي ﷺ وأن الله تعالى لما أهبط آدم وحواء إلى الأرض وجمع بينهما ولدت حواء بنتًا فسماها عناقا فبغت، وهي أول من بغى على وجه الأرض، فسلط الله عليها من قتلها، ثم ولدت لآدم قابيل، ثم ولدت له هابيل، فلما أدرك قابيل أظهر الله له جنية من ولد الجن، يقال لها: جمالة في صورة إنسية، وأوحى الله إلى آدم أن زوجها من قابيل فزوجها منه، فلما أدرك هابيل أهبط الله إلى آدم حورية في صفة إنسية وخلق لها رحمًا، وكان اسمها بزلة، فلما نظر إليها هابيل أحبها، فأوحى الله إلى آدم أن زوج بزلة من هابيل ففعل، فقال قابيل: يا أبت ألست أكبر من أخي؟ قال: نعم، قال: فكنت أحق بما فعلت به منه! فقال له آدم: يا بني إن الله قد أمرني بذلك، وإن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، فقال: لا والله، ولكنك آثرته علي، فقال آدم: فقربا قربانا فأيكما يقبل قربانه فهو أحق بالفضل، قلت: هذه القضية عن جعفر ما أظنها تصح، وأن القول ما ذكرناه من أنه كان يزوج غلام هذا البطن لجارية تلك البطن. والدليل على هذا من الكتاب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ وهذا كالنص ثم نسخ ذلك، حسبما تقدم بيانه في سورة البقرة، وكان جميع ما ولدته حواء أربعين من ذكر وأنثى في عشرين بطنًا، أولهم قابيل وتوءمته إقليمياء، وآخرهم عبد المغيث، ثم بارك الله في نسل آدم، قال ابن عباس: لم يمت آدم حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفًا، وما روي عن جعفر، من قوله: فولدت بنتًا وأنها بغت، فيقال: مع من بغت؟ أمع جني تسول لها! ومثل هذا يحتاج إلى نقل صحيح يقطع العذر، وذلك معدوم، والله أعلم.

(١) أخرجه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨)، وأحمد (٢٠٤٥٦)، وأبو داود (٤٢٦٨)، والنسائي (٤١٢٢)، وابن ماجة (٣٩٦٤)، وابن أبي شيبة (٣٧٢٢٠)، والبزار (٣٠٧٢).

أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [المائدة: ٢٩ - ٣٣].

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾[١] يقول: تبوء بإثمي ولو أردت قتلتك، وبإثمي إن قتلتك تكون من أصحاب النار، يجمع عليك فيها عذاب كل من قتل الناس جميعًا ظالـمًا لهم، قال الله ﷻ: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:٢٩].

وكان هذا مصداق لقول رسول الله ﷺ: «**ما من نفس تقتل ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفلاً منها**»[٢].

﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ منتظم معناه معنى قوله جلَّ قوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ

---

(١) قوله تعالى: ﴿إني أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي﴾ فيه ثلاثة تأويلات: أحدها: على حَذْفِ همزة الاستفهام تقديره: أإنّي أريد؛ وهو استفهام إنكار؛ لأن إرادة المَعْصِيَة قبيحَةٌ، ومن الأنبِيَاء أقبح؛ فهم معْصُومُون عن ذلك، ويؤيّد هذا التّأويل قراءة من قرأ «أنَّى أريد» بفتح النون، وهي «أنّى» التي بمعنى «كَيْفَ» أي : كيف أريد ذلك. والثاني: إنَّ «لا» محذوفةٌ تقديره: إني أريدُ ألا تَبُوء كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ الله لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء:١٧٦] وقوله تعالى: ﴿رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل:١٥] أي: ألّا تضلّوا وألا تميد وهو مستَفِيضٌ وهذا أيضاً فرار من إثْبَات الإرَادَة له، وضعَّفَ بعضهم هذا التّأويل بقوله ﷺ: «لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إلَّا كانَ على ابْنِ آدمَ الأوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِها؛ لأنَّهُ أوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتْلَ» فثبت بهذا أن الإثْمَ حاصلٌ، وهذا الَّذي ضعَّفه به غير لَازِمٍ؛ لأن قائِل هذه المقالة يقول: لا يلزم من عَدَمِ إرادَته الإثْم لأخيه عَدَم الإثم، بل قد يريد عدمه ويَقَع. الثالث: إن الإرادة على حَالها، وهي: إمَّا إرادة مَجَازية أو حقيقيَّة على حَسَبِ اختلاف المُفسّرين في ذلك. [تفسير اللباب لابن عادل (٦/٤٤)].

(٢) أخرجه البخاري (٣١٥٧)، ومسلم (١٦٧٧)، وأحمد (٣٦٣٠)، وابن أبي شيبة (٢٧٧٥٩)، والترمذي (٢٦٧٣) وقال: حسن صحيح، والنسائي (٣٩٨٥)، وابن ماجة (٢٦١٦)، والبيهقي (١٥٦٠٢)، وابن أبي عاصم في الديات (٥/١)، وأبو يعلى (٥١٧٩)، وابن حبان (٥٩٨٣).

﴿وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣] وقد تقدم - يعني: وهو أعلم - أنه يجمع عليه عذاب من قتل كل نفس قتلت بعد ظلمًا إلى يوم القيامة.

ثم بعد هذا التأويل يكون قاتل المؤمن لعرض من أعراض الدنيا ، يجمع عليه عذاب من قتل الناس جميعًا في منزلته ما دون الخلود، أو يكون حرمه الإسلام على غير هذا في هذا القاتل، الله أعلم آمنا بما هو الحق عند الله ﷻ.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢].

وقال رسول الله ﷺ: «**ما من نفس تقتل ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفلاً منها**»[1] يخص رسول الله ﷺ المقتولين ظلمًا.

وجاء القرآن العزيز بلفظ العموم، ثم أتبعه بلفظ التوكيد في قوله جلَّ قوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ فيمكن أن يكون المراد بقوله جلَّ قوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ جميع المقتولين ظلمًا، ويمكن أن يكون يعدي العقاب إلى عقاب من لو قتل الجنس كله.

ومعنى ذلك أن آدم ﵇ كان واحد من الجنس، وكان عنه الناس بأجمعهم، فكان هذا القاتل إذا اجترأ على قتل نفس واحدة ظلمًا بعد الإعلام والإنذار أخذ بقتل أكبر الأنفس وأعمها، كما قال ﷻ في إثابته المؤمنين: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧] فكما يرفع هؤلاء إلى ثواب أحسن أعمالهم، كذلك يجعل ﷻ هؤلاء على أكثر درجاته.

وإن كان قد قال في عاملي السيئات: ﴿فَلَا يُجْزَى﴾ الذين يعملون السيئات إلا ما كانوا يعملون، ولا يُجزي ﴿إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام:١٦٠] فإن المعلوم في الشرع أن أحكام الدماء مغلظة جدًا، وقد أُخذ فيها بالخطأ والنسيان، ومما لم يتعمد فعله.

---

(١) تقدم تخريجه.

وقد جاء عن رسول الله ﷺ: «**لأن تقع السماء على الأرض أهون على الله من قتل نفس مؤمنة ظلمًا**»[١].

وقد سوى جلَّ ذكره بين العاصي والطائع بقوله جلَّ قوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢] هذا إلى اجتلابه ﷻ لفظ العموم، وأتبعه بلفظ التوكيد، ويمكن أن يكون المراعاة في لفظ رسول الله ﷺ دون القتل ظلمًا، وهو المبين عن الله ﷻ، فالله أعلم آمنا بالذي هو الحق، والصواب عند الله، والله عليم حكيم.

جاء هذا الخطاب على ظاهره، وفيه من الإشكال ما فيه؛ فأما ذكر القتل الواقع من ابن آدم لأخيه، فقد نصَّ عليه رسول الله ﷺ بقوله: «**ما نفس تُقتل ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها**»[٢].

وجاء خطاب القرآن الكريم على ما هو الله أعلم بما أراده بقوله الحق: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢] هذا ظاهره، وفيه من الإشكال ما الله به أعلم.

وأما باطنه فالقتل المخوف هو قتل النفس بالذنوب، وأول قاتلها إبليس - لعنه الله - قتل آدم بحمله إياه على الذنب، فعليه إثم كل من قاتل نفسه أي قتلٍ كان، والذي أحياها هو آدم ﵇ أحيا نفسه وذريته بالتوبة قد أجر كل من أحيا نفسه بعده.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٣٦ يُرِيدُونَ أَن

(١) وقفت عليه بلفظ: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم» أخرجه الترمذي (١٣٩٥)، والنسائي (٣٩٨٧)، والبيهقي (١٥٦٤٨)، وابن ماجة (٢٦١٩).

(٢) تقدم تخريجه.

يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [المائدة: ٣٤ - ٤٠].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الوَسِيلَةَ...﴾(1) [المائدة: ٣٥] الوسيلة - والله أعلم - جماع معنى القربة والحظوة والتمكين، والجاه والسؤدد مع نفع

---

(١) في الآية مسائل: الأولى: في النظم وجهان: الأول : اعلم أنا قد بينا أنه تعالى لما أخبر رسوله أن قومًا من اليهود هموا أن يبسطوا أيديهم إلى الرسول، وإلى إخوانه من المؤمنين وأصحابه بالغدر والمكر ومنعهم الله تعالى عن مرادهم، فعند ذلك شرح للرسول شدة عتيهم على الأنبياء وكمال إصرارهم على إيذائهم، وامتد الكلام إلى هذا الموضع، فعند هذا رجع الكلام إلى المقصود الأول، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الوَسِيلَةَ﴾ كأنه قيل: قد عرفتم كمال جسارة اليهود على المعاصي والذنوب وبعدهم عن الطاعات التي هي الوسائل للعبد إلى الرب، فكونوا يا أيها المؤمنون بالضد من ذلك، وكونوا متقين عن معاصي الله، متوسلين إلى الله بطاعات الله. الوجه الثاني في النظم: إنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاء اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة:١٨] أي: نحن أبناء أنبياء الله، فكان افتخارهم بأعمال آبائهم، فقال تعالى: يا أيها الذين آمنوا ليكن مفاخرتكم بأعمالكم لا بشرف آبائكم وأسلافكم فاتقوا وابتغوا إليه الوسيلة، والله أعلم.

المسألة الثانية: اعلم أن مجامع التكليف محصورة في نوعين لا ثالث لهما: أحدهما: ترك المنهيات وإليه الإشارة بقوله: ﴿اتَّقُوا اللهَ﴾ وثانيهما: فعل المأمورات وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الوَسِيلَةَ﴾ ولما كان ترك المنهيات مقدمًا على فعل المأمورات بالذات لا جرم قدمه تعالى عليه في الذكر. وإنما قلنا: إن الترك مقدم على الفعل؛ لأن الترك عبارة عن بقاء الشيء على عدمه الأصلي، والفعل هو الإيقاع والتحصيل، ولا شك أن عدم جميع المحدثات سابق على وجودها؛ فكان الترك قبل الفعل لا محالة. فإن قيل: ولم جعلت الوسيلة مخصوصة بالفعل مع أنا نعلم أن ترك المعاصي قد يتوسل به إلى الله تعالى؟ قلنا: الترك إبقاء الشيء على عدمه الأصلي، وذلك العدم المستمر لا يمكن التوسل به إلى شيء ألبتة فثبت أن الترك لا يمكن أن يكون وسيلة، بل من دعاه داعي الشهوة إلى فعل قبيح، ثم تركه لطلب مرضاة الله تعالى، فهاهنا يحصل الوسل بذلك الامتناع إلى الله تعالى، إلا أن ذلك الامتناع من باب الأفعال، ولهذا قال المحققون: ترك الشيء عبارة عن فعل ضده. [تفسير الرازي (٦/٤٨)].

لسواه من شفاعة وقضاء حاجة.

والعرب تقول: فلان يسل بين الملك ورعيته، والرسل يسل بين الله جلَّ ذكره وعباده، فإذا كان يوم القيامة يسل بين العباد وبين الله ﷻ، ورسول الله ﷺ يسل يوم القيامة بين العباد أجمعين وبين ربهم؛ ليريحهم من أهوال الموقف، وفي فتح باب الشفاعة، وفتح باب الجنة.

قال النبي ﷺ: «**سلوا الله لي الوسيلة، فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا**»[1] هو يريد: الوسيلة العامة، وهي العليا.

لذلك قال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**». قال ﷺ: «**أتدرون لمَ ذاكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد**»[2] فذكر ﷺ شفاعة العامة لأهل الموقف، وإنه يدخل الجنة تحت لوائه آدم وولده حتى إبراهيم ﵇، وإلى غير ذلك ما خصَّه الله ﷻ من الحظوة والتمكين له به.

ثم هذه الآية تدل على أن الله جلَّ ذكره يعطي الوسيلة أيضًا من يشاء من عباده وأوليائه.

قال رسول الله ﷺ: «**يشفع الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء**»[3].

وقال ﷺ: «**يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي مثل ربيعة ومضر**»[4].

يقول الله جلَّ ثناؤه: «**شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبقَ إلا أرحم الراحمين**»[5].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨٤)، وأبو داود (٥٢٣)، والترمذي (٣٦١٤) وقال: حسن صحيح، وأحمد (٦٥٦٨)، والنسائي (٦٧٨)، وابن حبان (١٦٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٣٥)، ومسلم (١٩٤)، والترمذي (٢٤٣٤)، وأحمد (٩٦٢١)، والنسائي في الكبرى (١١٢٨٦)، وابن أبي شيبة (٣١٦٧٤).

(٣) أخرجه ابن ماجة (٤٣١٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٧٠٧).

(٤) أخرجه الطبراني (٨٠٥٨)، وابن أبي شيبة (٣٢٣٤٣)، والحاكم (٥٧٢١)، وابن عساكر (٩/ ٤٣٨)، والديلمي (٨٩٢٨).

(٥) تقدم تخريجه.

بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣) إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤)﴾ [المائدة: ٤١ - ٤٤].

قوله جلَّ من قائل: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ...﴾ [المائدة:٤٤] كون التوراة هدى ونور هو بما كان يهدي بها في ظلمات الجهل، ويستبان بها سبيل مرضاة الله ﷻ من مواقع غضبه وسخطه وجميع ما يكرهه، وكذلك جميع الكتب.

وكونها هدى هو بما يهدي بها الله من اتبع رضوانه سبل السلام، وحكم الهداية أولاً والنور من وراء ذلك.

ثم قال عزَّ من قائل: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ﴾(١) وجميع الأنبياء مسلمون، والمراد بهم ها هنا من لدن موسى ﷺ إلى

---

(١) دلَّت الآية على أنه يحكم بالتوراة النبيون والربانيون والأحبار، وهذا يقتضي كون الربانيين أعلى حالاً من الأحبار، فثبت أن يكون الربانيون كالمجتهدين والأحبار كآحاد العلماء، ثم قال: ﴿بِمَا استحفظوا مِن كتاب الله﴾ وفيه مسألتان: المسألة الأولى: حفظ كتاب الله على

محمد ﷺ.

والأحبار على الأغلب هم علماء الأحكام والربانيون هم العلماء بالله وأحكامه العالمون بطاعة الرب ﷻ الذين فرغوا أنفسهم للعلم والعمل حتى عرفوا به، ونسبوا إليه؛ لأنهم أهل التقوى والورع.

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ [التوبة:٣٤].

وقال ﷻ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦] فاستاق ذكرهم في معرض المدح، وعرض بالائتمام بهم.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ

=

وجهين: الأول: إن يحفظ فلا ينسى. الثاني: أن يحفظ فلا يضيع وقد أخذ الله على العلماء حفظ كتابه من هذين الوجهين: أحدهما: أن يحفظون في صدورهم ويدرسوه بألسنتهم، والثاني: ألا يضيعوا أحكامه ولا يهملوا شرائعه. المسألة الثانية: الباء في قوله: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ﴾ فيه وجهان: الأول: أن يكون صلة الأحبار على معنى العلماء بما استحفظوا. الثاني: أن يكون المعنى يحكمون بما استحفظوا وهو قول الزجاج. [تفسير الرازي (٦٧/٦)].

﴿فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: ٤٥ - ٤٨].

قوله ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ﴾ أي: القرآن ﴿بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨] الحق المذكور هنا - والله أعلم - ما حفَّه به حين الإنزال من الحفظ، وأراده من حكمة وفرقان، واحتوشه به من الرصد، وما جعله ﷻ عليه من الإعجاز، وأراد به من حكمة وفرقان ونور وهداية، وبيان حلال وحرام، ومواعظ من أحكام ووصف الصفات العلا، وإعلام بالأسماء الحسنى إلى غير ذلك من كلاءة، والكتاب هنا هو جميع كتب التوراة والإنجيل والزبور، وجميع الصحف المنزلة من عنده جلَّ ذكره.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد:٢٥] يريد ﷻ: الكتب، وأفرد الضمير في قوله جلَّ قوله: ﴿مُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ يريد: الجنس.

والمهيمن: الشهيد والرقيب والمخبر، كما قال الشاعر:

يهيمن بالأخبار في كل موطن ... وأنت بما تأتيه غير خبير

كما قال الله ﷻ: ﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [المائدة:١٥].

وقد يكون المهيمن بمعنى: القاضي، كما قال بعضهم:

وبمهيمن قاض على ما قبله ... من سنة محدودة وكتاب

وقد يكون بمعنى: الشاهد والعلي، كما قال الشاعر:

وهو الشهيد المهيمن فاعل ... ما شاء قدرة واعتلاء

وقد يكون بمعنى: الأمين والمؤتمن، قال الشاعر:

ولست مهيمنًا ما دمت حيًا ... على أموال أيتام الأياما

واسم الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه جامعًا لهذه الوجوه كلها وما هو، وهو العلي الأعلى المتصف بحقيقة ذلك، وكماله الأرفع دون غاية ولا نهاية، وعلى هذا فهو المؤمن العلي المهيمن على كل مؤمن، فالكريم العلي المهيمن على كل كريم، والرحيم العلي المهيمن على كل رحيم، وكذلك في جميع الأسماء.

﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ۝٤٩ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝٥٠ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ۝٥٢ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ۝٥٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٥٤﴾ [المائدة: ٤٩ - ٥٤].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[1] [المائدة:٥٤] أتم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه كلمته هذه فيمن

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ نزلت خطابًا للمؤمنين عامة إلى يوم القيامة، و«من يرتد» جملة شرطية مستقلة وهي إخبار عن الغيب. وتعرض المفسرون هنا لمن ارتد في قصة طويلة نختصرها؛ فنقول: ارتد في زمان الرسول ﷺ مذحج ورئيسهم عبهلة بن كعب ذو الخمار، وهو الأسود العنسي قتله فيروز على فراشه، وأخبر الرسول ﷺ بقتله، وسمى قاتله ليلة قتل. ومات رسول الله ﷺ من الغد، وأتى خبر قتله في آخر ربيع الأول وبنو حنيفة رئيسهم مسيلمة قتله وحشي، وبنو أسد رئيسهم طليحة بن خويلد هزمه خالد بن الوليد وأفلت ثم أسلم وحسن إسلامه. هذه ثلاث فرق ارتدت في حياة الرسول ﷺ وتنبأ رؤساؤهم. وارتد في خلافة أبي بكر ﷺ سبع فرق، فزارة قوم عيينة بن حصن، وغطفان قوم قرة بن سلمة القشيري، وسليم قوم الفجأة بن عبد يا ليل، ويربوع قوم مالك بن نويرة، وبعض تميم قوم سجاح بنت المنذر وقد تنبأت وتزوجها مسيلمة، وكندة قوم الأشعث، وبكر بن وائل بالبحرين قوم الحظم بن يزيد. وكفى الله أمرهم على يدي أبي بكر ﷺ، وفرقة في عهد عمر: غسان قوم جبلة بن الأيهم نصرته اللطمة وسيرته إلى بلد الروم بعد إسلامه. وفي القوم الذين يأتي الله بهم: أبو بكر وأصحابه، أو أبو بكر وعمر وأصحابهما، أو قوم أبي موسى، أو أهل اليمن ألفان من البحر وخمسة آلاف من كندة
=

يرتد من العرب إثر وفاة رسول الله ﷺ، فقيض الله أبا بكر والمهاجرين والأنصار ﷺ، فكانوا على ما وصفهم الله جلَّ ذكره من اللين للمؤمنين، والرحمة لهم والعزة والغلظة للكافرين، فجاهدوا في الله مجاهدة حميدة، ثم إذا فسد أهل الزمان، ونسوا كثيرًا مما ذكروا به خفي لذلك المعروف وفشا المنكر، وكثر ذلك حتى إذا قام مقام الارتداد عن الدين أو قارب ﴿يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

فإذا جاء الله بذلك ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٢ - ٣].

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المائدة: ٥٥ - ٦١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥] انتظم هذا بما تقدم ذكره من البراءة والولاية، وبيَّن الله جلَّ ذكره مظان الولاء له بقوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ

وبجيلة، وثلاثة آلاف من أخلاط الناس جاهدوا أيام القادسية أيام عمر أو الأنصار، أو هم المهاجرون، أو أحياء من اليمن من كندة وبجيلة وأشجع لم يكونوا وقت النزول قاتل بهم أبو بكر في الردة، أو القربى، أو علي بن أبي طالب قاتل الخوارج أقوال تسعة. [تفسير البحر المحيط (٤/٤٥٨)].

وَرَسُولُهُ﴾.

ثم وصف - جلَّ وصفه - هؤلاء المؤمنين، وهم المؤمنون الحق الذين هم الأولياء، فوقع بهمم المتأخرين والمتثبطين إلى ولايته وولاية رسوله والأولياء؛ إذ لم يدركوهم بالأعمال فبالولاية.

قال رسول الله ﷺ: «**أنت مع من أحببت**»[١].

وقال ﷺ في المنافقين والذين كانوا يتولون الكافرين: **﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** [المائدة:٥١].

وأعلم أيضًا أنه من يتولى الله ورسوله والذين آمنوا أن يهديهم من أجل ذلك، كما أنه يمنع الهداية من تولى أهل الكفر والعناد، والحمد لله رب العالمين.

وهو أيضًا ممتزج بالمجاورة، والمعنى بولاية هؤلاء المذكورين المنتظر مجيئهم إن شاء الله **﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ﴾** وإخواننا الذين لم يأتوا بعد **﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾** [الحشر:١٠].

قوله تعالى: **﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ الله مَن لَّعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾** [المائدة:٦٠] وهذا خطاب مردود على معنى قوله: **﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِالله وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾** [المائدة:٥٩].

يقول الله جلَّ قوله: **﴿بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ الله مَن لَّعَنَهُ اللهُ﴾** وهم النصارى **﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾** هم اليهود، ومن لعنه الله فقد غضب عليه، كما أنه من غضب عليه فقد لعنه، غير أن الفرق بين المغضوب عليهم وبين الملعونين أن اللعن انفصل من صفات فعل، فربما أعقب بمشيئته العالية جلت مشيئته فيهم بإنباء ربهم وتوفيق لهم، وإدخال في رحمته منه وفضل، والغضب عليهم انفصل من صفات ذاتٍ، فعسر

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٦٨٧٨)، والترمذي (٢٣٨٥) وقال: صحيح، وأحمد (١٣٠٥٢)، وابن حبان (٥٦٤)، والدارمي (٢٨٤٣)، والطبراني (٣٢٠٦)، والبيهقي في الشعب (٥٢٨)، وأبو يعلى في مسنده (٢٩٤٦)، والطيالسي (٢٢٣٣).

لذلك تأتيهم لتوبة، وتعذر ذلك عليهم.

قال الله جلَّ قوله: **﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** [آل عمران:٨٦] إلى قوله جلَّ قوله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾** [آل عمران:٩٠].

وقال جلَّ قوله: **﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾** فقد كان هذا في أهل الكتاب **﴿أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾** [المائدة:٦٠] يعني: ممن آمن بالله، وبما أنزل إليه من كتاب، وبمن أرسل من رسول، واعتقد فيمن لم يفعل ذلك منكم إنهم فاسقون.

وجاء قوله جلَّ ذكره: **﴿شَرٌّ﴾** وفيه معنى المفاضلة؛ إذ العرب تقول فيمن لا شر فيه: قطيعًا، قال الله ﷻ: **﴿اللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** [النمل:٥٩].

وقُرِئ هذا الحرف على خمسة عشر وجهًا كلها مقروءًا بها: «**عبد الطاغوت**» على وزن فعل، قرأ بذلك جماعة.

وقرأ الأعمش: «**وعَبُد الطاغوتِ**» بفتح العين وضم الباء، وخفض التاء من الطاغوت.

وقرأ ابن وثاب: «**وعُبُدَ الطاغوتِ**» برفع العين والباء وفتح الدال، وكسر الطاغوت.

وقرأ الأعمش أيضًا: «**وعُبَّدَ الطاغوتِ**» بضم العين وفتح الباء وشدها وفتح الدال، وكسر التاء من الطاغوت.

وقرأ ابن عباس: «**وعابدوا الطاغوتِ**» على وزن فاعلوا، وكسر التاء من الطاغوت على الإضافة.

و«**عَبْدَ الطاغوتِ**» بفتح العين والدال وإسكان الباء، وكسر التاء.

و«**عُبِدة الطاغوتُ**» بضم العين وكسر الباء على وزن فعلت، ورفع التاء من الطاغوت.

و«**عُبَدَ الطاغوتِ**» على وزن فعل بضم العين وفتح الباء والدال، وكسر التاء من الطاغوت.

و«عبد الطاغوتِ» على وزن فعل، وكسر التاء.

و«عَبْد الطاغوتَ» بفتح العين والدال وسكون الباء، ونصب التاء[1].

وفي هذه الآية دليل على أن المعاريض لها حقيقة توجب اتباعه حكمها على المعرض، وذلك في قوله جلَّ قوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ...﴾ إلى قوله جلَّ قوله: ﴿أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة:٦٠].

والذي يصح عليه التأويل في قوله جلَّ قوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ إن خطاب هذه الآية معلق من هذه الجهة بقوله جلَّ قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة:٥٧].

ولما ذكر ﷻ الكفار ذكر في مقابلتهم عبد الطاغوت، وهم شركاء اليهود فيما ذكره قبل هذا تقدير الكلم: هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه، وجعل منهم القردة والخنازير، ومن عبد الطاغوت.

وقوله جلَّ قوله: ﴿أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ يريد والله أعلم: الكفار عبدة الطاغوت هم شر من يهود، ويمكن أن يكون مرجوع الخطاب كله إلى موضع المفاضلة من قوله جلَّ قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللهِ﴾ [المائدة:٦٠] وكل عبادة لغير الله فهي طاغوت؛ فاعول من الطغيان، وقد عبدت النصارى عيسى ابن مريم - صلوات الله وسلامه عليه - وهم المتخذون أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، وعبدت اليهود العجل، ويعبدون مستقبلاً الدجال - لعنهم الله ولعنه - وقد عبد أكثرهم الأوثان.

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ

(١) انظر: الكشاف (٢/٤٢)، وتفسير اللباب لابن عادل (٦/١٤٧).

ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا

وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ۞لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المائدة: ٦٢ - ٨٢].

قوله ﷻ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اليَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾[1] [المائدة: ٨٢].

وقرأ سلمان ﷺ: «دع القسيسين في الصوامع والخرابات»[2].

ويذكر أنها نزلت في رجال بعث بهم النجاشي إلى رسول الله ﷺ، فلما سمعوا القرآن بكوا، فإن كان ذلك كذلك فليست مقصورة على أولئك دون سواهم من المهتدين، وهي بشارة من الله جلَّ ذكره بهم، وإنه سيأتي بهم في آخر الزمان إن شاء الله، وهم في جملة من شملهم قوله جلَّ قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

---

(١) عن سعيد بن جبير في الآية قال: هم رسل النجاشي بإسلامه وإسلام قومه، كانوا سبعين رجلاً يختارهم من قومه، الخير فالخير في الفقه والسنّ، وفي لفظ : بعث من خيار أصحابه إلى رسول الله ﷺ ثلاثين رجلاً، فلما أتوا رسول الله ﷺ دخلوا عليه فقرأ عليهم سورة يس، فبكوا حين سمعوا القرآن وعرفوا أنه الحق، فأنزل الله فيهم: ﴿ذلك بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا...﴾. [فتح القدير (٣٤٨/٢)].

(٢) أخرجه أبو عمرو الدوري في «جزء في قراءات النبي ﷺ» (٤٠) وانظر: تفسير القرطبي (٦٢٥٧).

وإن قوله جلَّ قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ فوصفهم - جلَّ وصفه - بالإيمان الأرفع والخشية، والرهبانية من نعت أتباع عيسى ﷺ، والصديقية من نعت المهتدين سواهم.

وقال رسول الله ﷺ: «يغزو القسطنطينية سبعون ألفًا من بني إسحاق....»(١).

وقال فيهم جلَّ قوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ [المائدة:٨٢] ولم يقل: «ولتجدن أقربهم مودة عند الله النصارى» فدلَّ ذلك على دخولهم في دين الإسلام، واتباعهم المسلمين.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [المائدة: ٨٣ - ٨٨].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا....﴾ [المائدة:٨٧] بلغ رسول الله ﷺ أن أناسًا من أصحابه - رضي الله عن جميعهم - قال أحدهم: والله لا آكل اللحم، وقال الآخر: والله لا أنكح النساء، وقال الآخر: والله لا أنام الليل، وقال الآخر: والله لا آكل نهارًا، فنزلت هذه الآية.

وسمَّى ذلك جلَّ ذكره اعتداء، كما سمَّى الإسراف اعتداء، وخطب رسول الله ﷺ فقال: «ما بال أقوام يقول أحدهم: لا أنكح النساء، ويقول الآخر كذا، ويقول الآخر كذا، أما أنا فآكل اللحم وأنكح النساء، وأصوم وأفطر وأنام وأقوم، فمن رغب عن سنتي فليس مني»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٢٠)، والحاكم (٨٤٦٩).

(٢) أخرجه بنحوه أبو داود (١٣٦٩)، وأحمد (٢٦٣٥١).

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٩٢)﴾ [المائدة: ٨٩ - ٩٢].

ثم قال جلَّ ذكره: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ [المائدة:٨٩] أي: في حدوده أن تعتدوها؛ لعلكم تبلغون مقام الشكر، وإنما يكون ذلك إذا كانت أعمالكم على سبيل السنة وقوام الاقتداء.

ثم قال عزَّ من قائل: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّبًا﴾ [النحل:١١٤] هذا خطاب راجع إلى قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة:٤].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾[1] [المائدة:٩٠] الخمر: ما خامر العقل، ومخامرتها

---

(١) اعلم أنَّ هذه الآيةَ دالَّةٌ على وُجوبِ تحريم شُرْبِ الخَمْرِ من وُجوهٍ: أحدها: تَصْدِيرُ الجُمْلَة بـ «إِنَّما» وهي لِلْحَصْرِ، فَكَأَنَّهُ قال: لا رِجْسَ ولا شيءَ من أعْمَالِ الشَّيْطَانِ إلَّا هذِهِ الأربَعَةَ. وثانيها: إنَّهُ تعالى قَرَنَ الخَمْرَ والمَيْسِر بِعبادةِ الأوْثَان، ومنه قولُهُ ﷺ: «شَارِبُ خَمْرٍ كَعَابِدِ وثَنٍ». وثالثها: قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ جعلَ الاجْتِنَاب من الفلاحِ، وإذا كان الاجْتِناب فَلاحًا كان الارْتِكَابُ خَيبَةً. ورابعها: ما تقدَّم من اشْتِمَال الاسْتِفْهَامِ على المَنْفِي. وخامسها: قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَأَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرسول﴾ وظاهرُ الأمرِ بالطَّاعَةِ فيما تقدَّم ذكرُه من أمرهم بالاجْتِنَابِ عَنِ الخمْرِ والمَيْسِر، وقوله: ﴿واحْذَرُوا﴾ أي: احْذَرُوا عن مُخَالَفتِهِمَا في هذا التَّكْلِيفِ. وسادسها: قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فاعلموا أَنَّمَا على رَسُولِنَا البلاغ﴾ وهذا تَهْدِيد عَظِيمٌ ووعيدٌ شَدِيدٌ في حقِّ من خَالَفَ في هذا التَّكْلِيفِ، وأعْرَضَ عن حُكْمِ اللهِ تعالى؛ لأنَّ مَعْنَاه إنْ تَوَلَّيْتُم فالحُجَّةُ قد قَامَتْ عَلَيْكُمْ، والرَّسُول قد خَرَجَ عن عُهْدَةِ التَّبْلِيغ والإِعْذَارِ، فأمَّا ما وراء ذلِكَ من عِقَابِ من خَالَفَ هذا التَّكْلِيف وأعرض، فذَلِكَ إلى اللهِ =

إياه: تغطيتها له.

يقال من ذلك: «خمر إناءك» بمعنى: غطه، ومنه: خمار المرأة.

وكل ما أسكر فهو حرام، وسكرها أشدها على العقل موضع اتصاله بمنبعثه من الحق، وهو نور باطن به يوجد الميز، وبه يكون الإيمان والهداية، وهو شمس الباطن وضياؤه، ولكونها مخامرًا للعقل ومسكرًا له حرمه الله تعالى، وهي أيضًا رجس، والرجس عمل الشيطان، وهو مستقذر نجس أدنى صفاته أنه حرام؛ لأنه من خطوات الشيطان، ولأنه رجس ونجس استعماله مع سواه.

وإن غلبت عليه صفات سواه فأزالت إسكاره ومخامرته للعقل، فهو متى وقع منه شيء في شيء صيَّره نجسًا، ومتى أصاب الثوب منه شيء وجب غسله، وكل ما شملها من هذه الصفات، وما شغل عن ذكر الله وعن الصلاة، وما أوقع العداوة والبغضاء، وأكل أموال الناس بالباطل فهو حرام فعله وكسبه.

ومن الفقه فيما هو من سننها أنها لما كانت رجسًا من عمل الشيطان لم يحل لمسلم أن يعتصرها؛ ليتخمر عنده ثم يخللها، فإنها وإن كانت نجسة برهة من الدهر، فليس ذلك من سنن المتقين، فإن المقطوع به نجاستها حال إسكارها وكونها مرصدة لظنون، فكم من مصلٍّ لا صلاة له، وكم من تائب لا توبة له.

يقول الله جلَّ من قائل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ**﴾ [آل عمران: ٩٠] ولم تخمرت من حيث لا يشعر، ثم خلت وتخللت كان أقرب إلى صلاحها.

تنبيه:

استاق ﷺ تحريمها والنهي عنها، والوعيد فيها في سياق النصيحة؛ لرقته

تعالى، وهذا تَهْديدٌ عظيمٌ، وهذا نصٌّ صَريحٌ في أنَّ كلَّ مُسكرٍ حرَامٌ؛ لاشْتِمَالِهِ على ما تَشْتَمِلُ عليه الخَمْرُ. قال ﷺ: «**كلّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ وإنّ حتمًا على اللهِ ألا يَشْرَبَهُ عبدٌ في الدُّنيا إلَّا سَقَاهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَة من طِينَةِ الخَبَالِ، هَلْ تَدْرُونَ مَا طِينَةُ الخَبَالِ؟**» قلنا: لا. قال: «**عَرَقُ أَهْلِ النَّارِ**» وقال ﷺ: «مَنْ شَرِبَ **الخَمْرَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا حُرِمَهَا فِي الآخِرَةِ**». [تفسير اللباب لابن عادل (٦/٢٢٣ - ٢٢٤)].

ورحمته لعباده بقوله جلَّ قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة:٩٠].

النصب: ما كانوا يذبحون عليه ذبائحهم، ويهلون في ذلك بها لطواغيتهم.

والميسر: شيء كانوا يجتمعون له، كانوا يجعلون له أمينًا يضرب لهم بالقداح في كثير من أمورهم لأسفارهم أحد الأزلام، فيه: «افعل» وعلامته ذلك، الآخر: «لا تفعل»، والثالث: «عقل» فإذا خرج له «افعل» قضى به في مضي سفره وإطعام طعام أو غير ذلك، وإذا خرج فيه الذي علامته «لا تفعل» قضى به في الترك، وإن خرج «العقل» لم يقضِ شيئًا وأعاد الأزلام.

وأصله: إنه قمار، وكانت الجاهلية تقسمه أقسامًا، فربما قسَّموه ثمانية وعشرين قسمًا، كل قسم من ذلك جزء من أجزائه، وربما قسموه على عشرة أجزاء، وكانت قداحًا لا ريش لها، وكانت لهم في ذلك أحكام على قدر صلاتهم وبدعهم، ثم استعمل اسم الميسر حتى سموا كل قمار: ميسرًا، والنرد والشطرنج وما أشبه ذلك كله قمار وهو ميسر، وكل ذلك رجس من عمل الشيطان يُشغل عن ذكر الله وعن الصلاة، ويوقع العداوة والبغضاء، وأكل المال بالباطل، وهو فحشاء؛ لأنه من عمل الشيطان.

قال الله ﷻ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة:٢٦٨] ثم أكد ﷻ النهي، وبالغ في التحذير من ذلك.

قوله جلَّ قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة:٩٢].

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ

عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [المائدة: ٩٣ - ٩٦].

قوله ﷻ: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا﴾ [المائدة:٩٣] جاء أنه لما نزل تحريم الخمر، قال أصحاب رسول الله ﷺ: ما حال إخواننا الذين ماتوا وهي في بطونهم؟ قال: فنزلت هذه الآية بقوله جلَّ قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ من الخمر قبل التحريم.

يقال: «طعمت» بمعنى: أكلت وذقت، و«طعمت» بمعنى: شربت، إذا ما اتقوا العودة بعد التحريم كقوله جلَّ قوله: ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ...﴾ [البقرة:٢٧٥].

وقال - جلَّ قوله - في حكم الصيد: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللهُ مِنْهُ﴾ [المائدة:٩٥].

تنبيه: هذا وإن كان كذلك فالأحكام يُنزَّل على أسبابها، ويصح اعتقاد ذلك متى صحت رواية الرواة لها، ويثبت التوقيف من الله جلَّ ذكره أو من الرسول ﷺ بأن ذلك مقصود، وهو المراد بذلك، وإلا فللقرآن الحكيم بذلك حسن سرده وبدائع تأليفه، فمعناه - والله أعلم ورسوله - أن التنزيل كله في هذه السورة، أو أكثره ابتنى على ثلاثة فصول:

أحدها: الوفاء بالعقود، وهو مشتمل على ما انعقدت عليه النيات توجهت به الإرادات، وما اكتسبت به البواطن من تحقيق أمان وعمل ونية على حكم العموم في ذلك كله، من محلله ومحرمه ومباحه.

الثاني: إنه ابتنى على تحليل الطيبات من مطعوم ومشروب وملبوس ومنكوح، وأحكام ذلك في مجاري اكتسابه في أنواع الموجودات من مائع وجامد، وحيوان أهلي وبري أو بحري، أو اختلاف حال مكتسبه؛ لاختلاف التحليل والتحريم من أجل ذلك.

الثالث: يبتني على النهي عن استحلال شعائر الله ﷻ، والشهر الحرام والهدي

والقلائد وآمّين البيت الحرام، وعن أن يُجازي المسيء باعتدائه حدود الله جلَّ ذكره باعتداء آخر لحدود الله، ويتبع ذلك تكفير السيئات، والزجر عن كتمان ما أنزل الله من كتابه وشرعه كما فعل أهل الكتاب.

وقصص ما جاء فيها من ذكرهم زجر عن اتباعهم في غلوّهم في دينهم، وعتوِّهم على أنبيائهم، وافترائهم على الله ﷻ ورسله - عليهم السلام - وموالاتهم الأباعد من الكفرة والفجرة والفساق، والأخذ من ذلك كله بالأمر العلي، والجري على الطريقة المثلى بقوله بقوله جلَّ قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ قبل التحريم له ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا﴾ الله في ترك العودة إلى ما نهوا عنه في الوفاء بعقودهم.

﴿وَآمَنُوا﴾ بما أنزل في ذلك من كتاب وسنة ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ في ذلك كله ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا﴾ في تناول الطيبات مما أحل لهم من مطاعمهم ومشاربهم ومناكحهم، وفي حكم ما ملكت أيمانهم من أنعام وحيوان على اختلاف ذلك كله، وباختلاف أحكامه على اختلاف أحواله ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا﴾ في شرائعه وشعائره ومناسكه وعباده وحرمه ومحارمه، وفيما أنزل إليهم من ربهم، وفيما يدينون به ﴿وَأَحْسَنُوا﴾ في العمل بطاعة ربهم، وفيما نهاهم عنه ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة:٩٣].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾[1] [المائدة:٩٤] الابتلاء هو الاختبار، يبلى الله جلَّ ذكره العباد؛

(١) ليبلونكم؛ أي: ليختبرن طاعتكم من معصيتكم. قال مقاتل بن حيّان: ابتلاهم الله بالصيد وهم محرمون عام الحديبية حتى كانت الوحش والطير تغشاهم في رحالهم، فيقدرون على أخذها بالأيدي وصيدها بالرماح، وما رأوا مثل ذلك قط، فنهاهم الله عنها ابتلاءً. وقال الواحدي: الذي تناله الأيدي من الصيد الفراخ والبيض وصغار الوحش، والذي تناله الرماح الكبار، وقال بعضهم: هذا غير جائز؛ لأن الصيد اسم للمتوحش الممتنع دون ما لم يمتنع. ومعنى التقليل والتصغير في قوله: ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الصيد﴾ أن يعلم أنه ليس بفتنة من الفتن العظام التي يكون التكليف فيها صعبًا شاقًا، كالابتلاء ببذل الأرواح والأموال، وإنما هو ابتلاء سهل، فإن الله تعالى امتحن أمة محمد ﷺ بصيد البر كما امتحن بني إسرائيل بصيد البحر، وهو صيد السمك، ومن في قوله: ﴿مِّنَ الصيد﴾ للتبعيض من وجهين: **أحدهما**: المراد صيد البر دون البحر. **والثاني**: صيد الإحرام دون صيد الإحلال. وأراد بالصيد المفعول بدليل قوله تعالى: ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ ورماحكم﴾ والصيد إذا كان بمعنى المصدر يكون حدثًا، وإنما يوصف =

ليستخرج منهم ما قد سبق به علمه فيهم قبل أن يوجدهم، فإذا وقع منهم ذلك المعلوم كونًا كان علمه به إنه قد حدث كونًا بعد أن لم يكن، فيُجازى العبد بما نواه به، فافهم.

وقرأ هذا الحرف ابن شهاب والزهري: «**لِيُعْلِمَ اللهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ**»[1] برفع الياء وكسر اللام؛ أي: يوم الجزاء، كقوله جلَّ قوله: ﴿**وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ**﴾ [سبأ:٦].

فصل

نوَّع الله جلَّ ذكره الصيد نوعين؛ فما سال منه بحبالةٍ أو بسهمٍ، أو يحصل في ملك مقتنصه حيًا فهو مما أُخذ باليد، فلا بد من ذكاته.

وما عَلَبه[2] متناوله فلم يناله إلا برمح أو بسيف، أو سهم أو حجر، أو معارض أو جارح فمات بذلك، فتلك ذكاته ما حرق المعراض، فخرج بذلك على أن يكون وقيذًا، أو تفرد به الجارح المرسل عليه؛ ليتوجه ذكر اسم الله عليه بإحكام ذلك كله وتفاصيله، وعلى ما جاء فيه من تحريم وتحليل، ومعهود الصيد في الصحاري والفلوات، كذلك قال جلَّ ذكره: ﴿**لِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ**﴾ [المائدة:٩٤] هذا على القول بأنها نزلت في المؤمنين عامة.

وأما على أنها نزلت في المحرمين منهم، فالابتلاء لهم هو بصيد الحرم، يدل على ذلك قوله جلَّ قوله: ﴿**بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ**﴾ وهو بعض له، وهو مما يكون له في مكان الحرم ولأنسه.

قال جلَّ قوله: ﴿**تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ**﴾ فلا يعلنه شهوته على الاصطياد لأنسه.

ثم نصَّ على ذلك في الآية التي بعدها يقول جلَّ قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا**

=

بنيل اليد والرماح ما كان عينًا. [تفسير الرازي (١٥٢/٦)].

(١) انظر: تفسير البحر المحيط (١٣/٥).

(٢) عَلَبه: إذا وسَمه وأثَّر فيه. انظر: النهاية في غريب الأثر (٥٥٠/٣).

﴿تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة:٩٥] فخصَّ ﷻ الأولى لحكم الاصطياد، وهذه لحكم القتل، ومن قتله منكم متعمدًا فجعل ﷻ الجزاء على قاتله نكالاً.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللهُ مِنْهُ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [المائدة:٩٥] كما قال - جل قوله - في الأولى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٧٨] وقد قال قوم: إنه لا يجزي عنه الجزاء الذي هو الهدى في العود؛ لقول الله جلَّ قوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللهُ مِنْهُ﴾ قاله ابن عباس ﷺ والحسن بن جبير ومجاهد والنخعي وقتادة، وهو ثابت عن ابن عباس رضي الله عن جميعهم.

وتوصيل هذا الخطاب المعبر عن حكم الاصطياد كله في هذه السورة من حيث التحريم بقوله جلَّ قوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة:١] ومن حيث التحليل بقوله جلَّ قوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة:٢] كما مرجوع قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ﴾ [المائدة:٨٧] إلى قوله: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ...﴾ [المائدة:٤].

واتصال هذا بقوله جلَّ قوله: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧] وكله راجع إلى قوله جلَّ قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

قوله ﷻ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ﴾[1] [المائدة:٩٦] صيد البحر: ما صيد حيًا، وطعامه: ما أطعمه فألقاه ميتًا.

قال رسول الله ﷺ لأصحاب أبي عبيدة بن الجراح ﷺ حين وجدوا البحر قد لفظ لهم حوتًا عظيمًا مثل الضرب، يسمى: «جمل البحر» أكل منه الجيش وأدهن خمسة عشر يومًا، فاستفتوا فيه رسول الله ﷺ فقال: «**إنما هي طعمة أطعمكموها الله**»[2] فصيد البحر حلال للمحرمين، وطعامه متاع وللسيارة؛ يعني:

---

(١) قال الكلبي: نزلت في بني مدلج وكانوا ينزلون في أسياف البحر سألوا عما نضب عنه الماء من السمك فنزلت، والبحر هنا الماء الكثير الواسع وسواء في ذلك النهر والوادي والبركة والعين لا يختلف الحكم في ذلك. [تفسير البحر المحيط (١٩/٥)].

(٢) أخرجه مالك (٧٨١)، والبخاري (٢٩١٤)، ومسلم (٢٩٠٩)، وأبو داود (١٨٥٤)، والترمذي =

غيرهم ممن لم يلزم حكم الإحرام من المسافرين وغيرهم.

وحرم عليهم صيد البر ما داموا حرمًا، كما قال جلَّ قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة:١] فتلا جلَّ ذكره عليهم الميتة والدم ولحم الخنزير، وشمل الخنزير اسم البهيمة، وكذلك ما صيد من حيوان بري أو هوائي أو بحري، ثم ما تلا ﷻ علينا من أحكام ذلك في أثناء السورة، فهو مما وعد ﷻ أن يتلوه علينا، ويستثنى حكمه من حكم المحلل من قوله جلَّ قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ﴾.

ولما أباح جلَّ ذكره الصيد على الإجمال، وحظره على المحرم خاصة، وأحل له صيد البحر تمدح ﷻ بعزته، وقال: ﴿إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة:١].

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [المائدة: ٩٧ - ١٠٢].

قوله ﷻ: ﴿جَعَلَ اللهُ الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾ [المائدة:٩٧] القيام هنا بمعنى: القوام، كقوله جلَّ قوله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء:٥].

قال رسول الله ﷺ: «النجوم أمنة السماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما

=

(٨٥٧)، والنسائي (٢٨٢٨)، وأحمد (٢٣٢٣٣)، وابن حبان (٤٠٥١)، والبيهقي في سننه (١٠١٩٠).

توعد، والجبال أمنة الأرض، فإذا ذهبت الجبال أتى الأرض ما توعد، والبيت أمنة للناس، فإذا ذهب البيت أتى الناس ما يوعدون»[١] والشهر الحرام والهدي والقلائد مما يتبع البيت ويخصه.

وقوله جلَّ قوله: ﴿**ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [المائدة:٩٧] أخبر ﷻ أنه إنما جعل هذه الشعائر والبيت، وما اختصه لذكره، أو أضافه إلى نفسه من بيت وأمكنة وأزمنة؛ ليعلم ﷻ، ويوقف على معرفة أسمائه، ومعاني صفاته بكتبه ورسله وأنبيائه ووحيه، كذلك فعل مما تقدم ذكره.

ثم وصل ذلك بقوله - جلَّ قوله - للعباد: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ**﴾ أي: لمن كفر به وكذَّب رسله وخالف أمره ﴿**وَأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [المائدة:٩٨] لمن آمن به وبكتبه ورسله وعمل بمرضاته، وبخاصة في الوفاء والعقود، والطاعة في الوقوف على الحدود.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿**مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا البَلاغُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ**﴾[٢] [المائدة:٩٩] وعيد منه وتهديد.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿**لَّا يَسْتَوِي الخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ**﴾ من القول والعمل، والعقود والنيات، والمآكل والمشارب، والأموال والمكتسبات ﴿**فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُوْلِي**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٣١)، وأحمد (١٩٥٨٤)، والبزار (٣١٠٢)، وابن حبان (٧٢٤٩)، والطبراني في الكبير (٨٤٦) وفي الأوسط (٧٤٦٧).

(٢) لما تقدم الترغيب والترهيب أخبر تعالى أن كلف رسوله بالتبليغ وهو توصيل الأحكام إلى أمته، وهذا فيه تشديد على إيجاب القيام بما أمر به تعالى، وأن الرسول قد فرغ مما وجب عليه من التبليغ وقامت عليه الحجة ولزمتكم الطاعة فلا عذر لكم في التفريط، قال ابن عطية: هي إخبار للمؤمنين ولا يتصور أن يقال: هي أنه موادعة منسوخة بآيات القتال بل هذه حال من آمن بهذا وشهد شهادة الحق فإنه عصم من الرسول ماله ودمه، فليس على الرسول في جهته أكثر من التبليغ، وذكر بعض المفسرين الخلاف فيها أهي محكمة أم منسوخة بآية السيف والرسول هنا محمد ﷺ. وقيل: يجوز أن يكون اسم جنس والمعنى ما على كل من أرسل إلا البلاغ والبلاغ والبلوغ مصدران لبلغ وإذا كان مصدر البلغ فبلاغ الشرائع مستلزم لتبليغ من أرسل بها فعبر باللازم عن الملزوم، ويحتمل أن يكون مصدر البلغ المشدد على حذف الزوائد فمعنى البلاغ التبليغ.

الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:١٠٠] وعظٌ وَعَظَ به ﷻ أولياته وأولي الألباب من عباده، ولما واجههم بالخطاب أكرمهم بحسن المقال.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة:١٠١] نصيحة منه ﷻ وموعظة لرأفته بالمؤمنين، كما قال عزَّ من قائل: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

كذلك قال عزَّ من قائل: ﴿عَفَا اللهُ عَنْهَا وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة:١٠١] انتظم هذا - والله أعلم بما ينزل - بقوله في صدر السورة: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ فأكمل لهم الجواب بقوله: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة:٤] ثم نهاهم عن السؤال رأفةً بهم، فبذلك ينالون المعهود عنه.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [المائدة: ١٠٣ - ١٠٦].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا...﴾ [المائدة:١٠٥] هذا خطاب كان حكمه في مبدأ الإسلام حين غربته وقلة أهله، وأنشأ ﷻ حكم الانتصار بالقتل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإبقاء حظها مثبتًا في كتابه إلى مثلها.

قال رسول الله ﷺ: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ»[1] والوجود

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨٩)، وأحمد (١٧١٤٥)، وابن ماجة (٤١٢١)، والطبراني في الأوسط =

يعطي هذا مشاهدة، وهذا من رأفته ورحمته بعباده.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ حِينَ الوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ يعني: الحضر والسفر من المؤمنين ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي: المشركين والكافرين ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ﴾ يعني: في السفر خاصة ﴿فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ المَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا﴾ يعني: الشاهدين، ومن المشركين وأهل الكتاب إن وقعت الريبة في الذي ائتمنتوه عليه يحلفان ﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ﴾ صلاة أهل الكتاب ﴿فَيُقْسِمَانِ بِالله إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ الله﴾ [المائدة:١٠٦] بمثل شهادتهما.

﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ [المائدة: ١٠٧ - ١١٠].

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ يعني: شهداء بكذب ﴿فَآخَرَانِ﴾ أي: منكم من المؤمنين ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ أي: في الحلف على ما وقعت الشهادة فيه ومن أجله، ويقف الأوليان اللذان استحق قبلهما الريبة ﴿فَيُقْسِمَانِ بِالله لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن

=

(٧٤٩٣)، وأبو عوانة في مستخرجه (٢٢١)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٨٢٠).

شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:١٠٧].

﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُوا﴾ يعني: أهل الكتاب ﴿بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أن يعثر عليهم بخيانة؛ يعني: أهل الكتاب ﴿وَاتَّقُوا الله وَاسْمَعُوا﴾ [المائدة:١٠٨] فهذه السنة والحكم فيما كان في مثل هذا، وهو المسلم يموت بين قوم مشركين، أو قوم من أهل الكتاب ليس بينهم مسلمان يقوّم بهما الشهادة، ووصى ببعض ما تركه لبعض ما حضره من أولئك، فقد وقعت الريبة إنهم اختانوا أمانتهم، وقد فقد العدلان من المؤمنين فيما هنالك حبس الشاهدان منهما، وحلفا أن شهادتهما حق، فمتى عثر على أنهما حنثا في يمينهما وقفا رجلان بين المدعين الحق، فخلفا على دعواهما، ثم وقف الآخران الأوليان المستحق عليهما ﴿فَيُقْسِمَانِ بِالله لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

يقول الله جلَّ ذكره: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾ في أول الشهادة ﴿أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [المائدة:١٠٨].

اختلف المفسرون ﷺ في هذه الآية، فقالت فرقة: هي منسوخة بقوله جلَّ قوله: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق:٢] وقوله ﷻ: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ [البقرة:٢٨٢] والمخاطبون بهاتين الآيتين هم المؤمنون، وهاتان الآيتان نزلتا قبل سورة المائدة، فكيف يكون القبل ناسخًا للبعد.

قالت عائشة - رضي الله عنها: سورة المائدة من آخر ما نزل، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم من حرام فحرموه.

والصحيح أنها ليست بمنسوخة بل هي محكمة فيمن جاور، والكفار في الأقطار التي تقاربهم، فتدعو الضرورة إلى مصاحبتهم ومخالطتهم في المتاجرة، وغيرها مما يلزم أحوال المجاورة، وهي أيضًا إن وقعت في قبضة المسلمين وحيث جماعتهم، فالواجب أن يحكم فيها بهذا الحكم الذي حدَّه الله ﷻ.

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ

قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ الْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة: ١١١ - ١١٥].

قوله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ الحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾[1] [المائدة:١١٢] أي: يوافقك ربك على هذا، هل يفعل لك ذلك؟ ليس من الاستطاعة المعهودة عندنا فقول: «لا أستطيع كذا» إنما هو من

---

(١) المائدة كانت سفرة حمراء بين غمامتين، غمامة من تحتها وغمامة من فوقها، وعيسى يبكي ويتضرَّع، ويقول: إلهي اجعلها سلامةً لا تجعلها عذابًا، حتى استقرَّت بين يديه، والحواريون من حوله، فأقبل هو وأصحابه حتى قعدوا حولها، وإذا عليها منديلٌ مغطًّى، فقال عيسى: أيكم أوثق بنفسه وأقل بلاءً عند ربه فليأخذ هذا المنديل، وليكشف لنا عن هذه الآية، قالوا: يا روح الله أنت أولانا بذلك، فاكشف عنها، فاستأنف وضوءًا جديدًا، وصلى ركعتين، وسأل ربه أن يأذن له بالكشف عنها، ثم قعد إليها، وتناول المنديل، فإذا عليها سمكة مشوية، ليس فيها شوك، وحولها من كل البقل ما خلا الكرَّاث، وعند رأسها الخل، وعند ذنبها الملح، وحولها خمسة أرغفة، على رغيف تمر، وعلى رغيف زيتون، وعلى رغيف خمس رمانات، فقال شمعون رأس الحواريين: يا روح الله أَمِن طعام الدنيا هذا، أَمِن طعام الجنة؟ فقال عيسى: سبحان الله أما تنتهون! ما أخوفني عليكم، قال شمعون: لا وإله بني إسرائيل ما أردت بهذا سوءًا، قال عيسى: ليس ما ترون عليها من طعام الدنيا، ولا من طعام الجنة، إنما هو شيءٌ ابتدعه الله، فقال له: «كن» فكان أسرع من طرفة عين، فقال الحواريون: يا روح الله إنما نريد أن ترينا في هذه الآية آية، فقال: سبحان الله! ما اكتفيتم بهذه الآية؟! ثم أقبل على السمكة فقال: عودي بإذن الله حيةً طريةً، فعادت تضطرب على المائدة، ثم قال: عودي كما كنت، فعادت مشوية، فقال: يا روح الله كن أنت أول من يأكل منها، فقال: معاذ الله بل يأكل منها مَن سألها، فلما رأوا امتناعه، خافوا أن يكون نزولها عقوبة، فلما رأى عيسى ذلك دعا لها الفقراء والزَّمنى واليتامى، فقال: كلوا من رزق ربكم، ودعوة نبيكم؛ ليكون مهنؤها لكم، وعقوبتها على غيركم، فأكل منها ألف وسبعمائة إنسان، يصدرون عنها شباعًا وهي كهيئتها حين نزلت، فصحَّ كل مريض، واستغنى كل فقير أكل منها، ثم نزلت بعد ذلك عليهم، فازدحموا عليها، فجعلها عيسى نوبًا بينهم، فكانت تنزل عليهم أربعين يومًا، تنزل يومًا وتغبُّ يومًا، وكانت تنزل عند ارتفاع الضحى، فيأكلون منها حتى إذا قالوا، ارتفعت إلى السماء وهم ينظرون إلى ظلها في الأرض.

الطوع والاستجابة.

وقرئت: «هل تستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء» معناه: وهل لك عنده من الجاه والحظوة هذا[(١)]؟!

فصل

مائدة من السماء معناه، قال الله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ والحواريون موصوفون بالعلم، ممدوحون بحسن الإجابة، كقوله جلَّ قوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة:١١١].

وقوله: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ﴾ [الصف:١٤].

وكقوله: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:٥٣] وليس ما قال الله - جلَّ قوله - ها هنا، وحكاه عنهم من جنس ما تقدم من حسن الاستجابة، والتوقير لرسولهم - رضي الله عن جميعهم - وهو الحق وقوله الحق، فظاهر قولهم هنا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ إما أن يكون جهلاً منهم بالله جلَّ ذكره أو جهلاً منهم بمنزلة الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - وكذلك ردُّه ﵇ على هؤلاء القائلين: ﴿اتَّقُوا اللهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:١١٢].

وكذلك قول هؤلاء له ﵇: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة:١١٣] هذا كله غير معروف منهم، ولا معهود من سيرتهم، غير أن ابن جبير قرأ: «ويُعلَم أن قد صدقتنا» بالياء المضمومة وفتح اللام[(٢)].

---

(١) قرأ الكسائي: بالتاء (هَلْ تَسْتَطِيعَ رَبَّكَ) وبنصب الباء. وقرأ الباقون: بالياء وبضم الباء. [بحر العلوم للسمرقندي (١٦/٢)].

(٢) قرأ ابن جبير : (ونعلم) بضم النون مبنيًا للمفعول، وهكذا في كتاب «التحرير والتحبير» وفي كتاب ابن عطية. وقرأ سعيد بن جبير: ويعلم بالياء المضمومة والضمير عائد على القلوب، وفي كتاب الزمخشري: ويعلم بالياء على البناء للمفعول. وقرأ الأعمش وتعلم بالتاء أي =

قال - جلَّ قوله - لموسى عليه السلام: ﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:١٠] أراه - والله أعلم بمراده - أنه سماه أتباع الحواريين باسم الحواريين، فأدخل جلَّ ذكره الأتباع في ذكر المتبوعين، كذلك قد يدخل المرسل إليهم في ذكر المسلمين، كما قال لموسى: ﴿لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾ [النمل:١٠ - ١١].

والظلم وعمل السوء ليس من وصف المرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - والحواريون ﷺ المنزهون عما يخالف التعزيز والتوقير للمرسل، وحسن الاستجابة.

فصل

سأل رسول الله عليه السلام ربه أن ينزل عليهم ﴿مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ قال: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ﴾ [المائدة:١١٤] فكان ذلك؛ أعني: أنزل المائدة عليهم من السماء، دليل ذلك قوله ﷻ: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة:١١٥] قوله الحق هذا يُنبئ لما تقدم ذكره من إدخال المرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - وإدخال أتباع الحواريين في ذكر الحواريين قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ...﴾.

والحواريون ﷺ ليسوا بموصوفين بكفر، ولا سمعنا عنهم بِردَّة ولا كفر. والحمد لله رب العالمين، فأنزلها عليهم لا بد ولا محالة لوعد الله ﷻ عيسى رسوله عليه السلام بها، وكان من دعائه عليه السلام: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ فهذا يعطي أن إنزالها عليهم كان على طريق الاعتياد، وإن ذلك على التكرار الله أعلم بمقدار قوله: ﴿وَآخِرِنَا﴾ وآخرهم فهو مجيئهم الجيئة الثانية في مستقبل الأمر، فعلى نسق دعائه عليه السلام سوف ينزلها عليهم في أيامهم المستقبلة إن شاء الله تعالى، أو يكون معنى الخيرات المنزلة من السماء والبركات المجعولة في الأرض يومئذٍ.

وما عبَّر عنه رسول الله ﷺ من بسط النعم وشمول الخير يومئذٍ، وهذا كائن لا

=

وتعلمه قلوبنا. [تفسير البحر المحيط (٥٩/٥)].

محالة، فهل يكون مع ذلك إنزال المائدة من السماء أم لا والله أعلم، والأرض كلها يومئذٍ مائدة، وقوله صلوات الله عليه: ﴿وَآيَةً مِنكَ﴾ قد يكون ما يكون عليه نزول المائدة، وآية ما يكون من ذلك في الجيئة المستقبلة.

وقد جعل الله ﷻ في ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ [المائدة:١٤] والذين زعموا أنهم اتبعوه، وليسويهم بقسيسهم ورهبانهم أن جَبَلَ قلوب الأتباع إلى الحرص في سوق الأقوات إليهم، والرغبة في المساهمة لهم في ذات أيديهم زائدًا على أوقاف قد أُعدت لزيارتهم وأموال منسوبة إلى كنائسهم، فهذا من تنزيله المائدة نزلها من كونها نازلة عليهم من السماء إلى أن جعل ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه ذلك الإنزال على قلوب عباده وأيديهم، وجعل ذلك؛ أعني: ما هو اليوم في حق الأتباع من جلب الأقوات، ومسابقتهم إلى المساهمة لهم، وتوفير الدواعي منهم على ذلك آية على ما مضى من حكمة الله في إنزالها، وما يكون منه في المستقبل من شأنها.

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة: ١١٦ - ١٢٠].

قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ آأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ...﴾ [المائدة:١١٦] التقدير منتظم بقوله - جلَّ قوله - وهو أعلم: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٩] بفتح الهمزة والجيم.

قوله جلَّ قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ﴾ منتظم بقوله جلَّ قوله: ﴿فَسَوْفَ

يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة:٥٤] وذلك أن مجيء عيسى عليه السلام يكون بعد طلوع الشمس من مغربها، ثم الدجال، ثم نزول عيسى ابن مريم عليه السلام.....

قال ﷻ لعيسى ابن مريم: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يقول والله أعلم: كما يكون هذا إلى يوم القيامة، وهو يوم الجمعة من أيام الدهر وقيام الساعة هو في ذلك اليوم، وإنما ذلك ساعة في يومها ذلك، فيجمع الله ﷻ الرسل - صلوات الله وسلامه على جميعهم - يومئذٍ، ويمكن أن يكون الرسل المجموعون يومئذٍ أنبياؤه ورسله إلى الأقطار، وهذا هو الأظهر، وجميع الرسل - عليهم السلام - على العموم يوم البعث الآخر.

وفيه يقول - جلَّ قوله - لرسوله وعبده عيسى صلوات الله وسلامه على جميع المرسلين: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ...﴾ [المائدة:١١٠] وإذ وإذ إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ...﴾ [المائدة:١١٣] إلى قوله: ﴿مِّنَ العَالَمِينَ﴾ [المائدة:١١٥] يُذكِّره جلَّ ذكره بأنعمه قبله، وقبل من أرسل إليهم به، وهذا خطاب لا يأتي أبدًا إلا لاستدعاء إجابة ممن أرسله إليهم وتكليف لهم.

وإنما كان يكون سوق الخطاب وصيغته لو كان بعد قيام الساعة، وفي مشهد الجمع الأكبر أنعمت عليك وأعطيتك الكذا والكذا؛ لنبين كذلك لفظ التقرير باقتران كلمة التذكير به، ويوم الحساب اقتضاء حقوق له ﷻ وتباعات ونحو هذا، فإن اعترض معترض بقوله جلَّ قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ﴾ [المائدة:١٠٩] فقد تقدم الردُّ عليه بأنه يوم القيامة، والساعة تقوم في وقت من ذلك اليوم ونزول عيسى عليه السلام، وما يكون في ذلك آية على ما يكون في البعث الآخر، ولذلك سماه رسول الله ﷺ لجبريل عليه السلام فقال: «وأن تؤمن بالبعث الآخر»[1].

وعلى حال فإن الله ﷻ غير متعذر عليه جمعهم كيف شاء، وهم الآن عنده،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، وأحمد (٩٤٩٧)، وابن ماجة (٦٤).

وقد جمعهم لرسول الله ﷺ في السماء ليلة أُسري به، فأمَّهم حاشا الرهط الثلاثة إبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه على جميعهم.

كذلك قال - جلَّ قوله - لعيسى ابن مريم: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ﴾ [المائدة:١١٦] تقرير وتوبيخ منه لمن في الأرض يومئذٍ من الذين غلوا في أمره، وقالوا فيه بأهوائهم ما لم ينزل الله به من سلطان، وما ليس لهم به علم، فسبح الله جلَّ ذكره عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام عندما قذفوه من افترائهم بقوله: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ [المائدة:١١٦] فاستشهد عليه السلام بالعليم الخبير جل جلاله إن كنت قلته فقد علمته. انتهى.

فصل

يتخرج تسبيحه ربه جل وعز عليه السلام على وجهين:

أحدهما: لما ذكروه به وأنه دعا إلى نفسه، وهذه عظيمة قذفوه بها، فسبح الله جلَّ ذكره لكونه رسولاً نبيًّا روح الله وكلمته، كما سبح الله نفسه جل جلاله عند ذكر أم المؤمنين بإفك وبهتان، فقال جلَّ قوله: ﴿وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٦] ويمكن أن يكون تسبيحه ربه جل جلاله صلوات الله وسلامه عليه تنزيهًا له، وإجلالاً لجلاله، وإعظامًا لقدره، ورهبةً من علي شأنه أن يكون له أو معه في الإمكان، أو في الوجود إله سواه سبحانه وله الحمد، لا إله إلا هو العلي الكبير.

قوله جل جلاله فما حكاه عنه: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ﴾[1] [المائدة:١١٦] أي: تعلم سري وجهري، وظاهري وباطني، وما يسمى منه نفس إلا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، ولا أعلم ما في نفسك كقوله جلَّ قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وكقوله جلَّ قوله: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:٥٩].

---

(١) خصّ النفس بالذكر؛ لأنها مظنة الكتم والانطواء على المعلومات.

وقوله جلَّ قوله: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣].

قوله تعالى فيما حكاه عن عبده ورسوله عيسى ﷺ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة:١١٨] وقرأ طلحة: «إن تعذبهم فعبادك» بإسقاط «إنهم» أي: إن لك تعذيبهم بحق ملكك فتفعل ما تشاء.

ويمكن أن يكون معنى قوله ﷺ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ أي: بالقتل والسبي والخزي والغلبة ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي: بأن تتوب عليهم بالإيمان والإسلام ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨] فهذا مما تقدم ذكره يدل على أن التقدير يكون عند نزوله ﷺ، ولا يقبل منهم يومئذٍ إلا الإسلام والتوبة، أو القتل والانتقام منهم وصفهم بالعزة، وبأنه لا يغفر أن يشرك به ووصفه بالحكمة، فيكون ذلك تقدير للحاضرين، ثم يقررون في القيامة؛ لتوبيخ من كان رفعه ﷺ ومن نزوله إلى الأرض.

ألا تسمعه ﷺ يقول: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ في الغيبة ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة:١١٧].

يريد ﷺ من هو عندك بالرفع أو بالشهادة أو بوفاة الموت، ومن هو في دار الدنيا لم يخرج منها بعد ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ الآن؛ أي: بالسيف والأسر والجلاء، وفي الآخرة بالنار ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ أي: ملكك تفعل بهم ما تشاء ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المائدة:١١٨] أي: تتوب عليهم، وتدخلهم بذلك في الإسلام.

وفي هذا إشارة إلى الترحم والشفاعة لهم، ولو كان ذلك يوم الحساب الآجل لم يعرض بالاسترحام ولا بذكر مغفرة، وإنما يخاطب رب العزة ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه عباده من الدار الآخرة، فلذلك يقول ﷻ بلفظ المستقبل؛ إذ كل شيء هو سواء في حقه الماضي والمستقبل.

كذلك قول إبراهيم ﷺ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ يعني: الأصنام ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي: من تبعني على الولاية العليا وابتغاء الخلة، فإنه مني ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ أي: من قصر عن ذلك بذنوب يقترفها ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:٣٦] وهو أعلم بالله - جلَّ ثناؤه - من أن يشفع لمن عصاه العصيان

الأعظم بأن يتخذ إلهًا من دونه، فيعبد الأصنام.

فدلَّ على هذا كله أن تقرير عيسى عليه السلام المذكورين في هذا الموضع، هو في هذه الحياة الدنيا توبيخًا لمن عصاه بعده، فافترى عليه الكذب؛ إذ هم رسل الله - صلوات الله وسلامه على جميعهم - لا يتعرض للشفاعة فيمن كفر بالله وكذب بالحق لما جاءه، وكذب على رسله وكتبه، وهذا قول الله - جلَّ ثناؤه - الفاصل بالحق: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ الله وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت:٢٣].

وجاء قوله ﷻ: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ...﴾ [المائدة:١١٩] إلى آخر السورة ظاهر ليوم الجزاء، كذلك الكتاب ظاهره المثاني.

تفسير سورة الأنعام

مكية غير تسع آيات نزلت هذه السورة ليلاً
المنسوخ منها أربع عشرة آية(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ

---

(١) هذه السورة مكية كلها، وقال الكسائي: إلا آيتين نزلتا بالمدينة وهما ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكِتَابَ﴾ وما يرتبط بها، وقال ابن عباس: نزلت ليلاً بمكة حولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح، إلا ست آيات: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ﴾ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى﴾ ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ وعنه أيضًا وعن مجاهد والكلبي إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ﴾ إلى قوله: ﴿تَتَّقُونَ﴾ وقال قتادة: إلا ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ﴾ وذكر ابن العربي أن قوله: ﴿قُل لَّا أَجِدُ﴾ نزل بمكة يوم عرفة، ومناسبة افتتاح هذه السورة لآخر المائدة أنه تعالى لما ذكر ما قالته النصارى في عيسى وأمه من كونهما إلهين من دون الله، وجرت تلك المحاورة وذكر ثواب ما للصادقين، وأعقب ذلك بأن له ملك السماوات والأرض وما فيهنّ وأنه قادر على كل شيء، ذكر بأن الحمد له المستغرق جميع المحامد فلا يمكن أن يثبت معه شريك في الإلهية فيحمد، ثم نبه على العلة المقتضية لجميع المحامد والمقتضية، كون ملك السماوات والأرض وما فيهنّ له بوصف ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ لأن الموجد للشيء المنفرد باختراعه له الاستيلاء والسلطنة عليه، ولما تقدّم قولهم في عيسى وكفرهم بذلك وذكر الصادقين وجزاءهم أعقب ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ فكان ذلك مناسبًا للكافر والصادق.

مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام: ١ - ٦].

قوله ﷻ: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام:١] الحمد جماع المدح والمدائح كلها، والثناء الحسن أجمعه، وهو أوسع الصفات، ثم عبَّر ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه عن قدرته الكاملة، وعلمه المحيط ومشيئته النافذة، وتدبيره المحكم والتوحيد العلي، إلى سائر ذلك مما هي الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العلا، معبرة عنه مقتضية له، وهو أيضًا تعريض بالإعلام بضلال أهل الأوثان، وكل من عبد إلهًا غير الله ملكًا كان أو إنسانًا أو جانًا أو حيوانًا، معنى كان أو جسمًا؛ إذ لا يخلو أن يكون ذلك في السماوات أو في الأرض.

ثم عرض ﷻ يبطل الثنوية والمجوس والمانوية، وغيرهم الذين اعتدوا وعبدوا النور، واعتقدوا أن فاعل هذا بأسره أصلان قديمان: أحدهما نور، والآخر ظلام، قالوا: فالنور خير بطبعه، والظلام شرير بطبعه إلى غيرها من ضلالتهم.

قوله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ [الأنعام:٢] ذكَّرهم ﷻ بالعودة بعد البدأة؛ إذ خلقهم من طين أوجب من حكمته عن ذلك أن يعيدهم إلى ما منه بدأهم، ثم بعد ذلك يحييهم عودًا بعد بدء، كما قال جلَّ ذكره: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه:٥٥] ومثله كثير.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ [الأنعام:٢] لما ذكر جلَّ ذكره أوليتهم، وعرض بأخريتهم وما بين ذلك سرد على ذلك ذكر الآجال اختُلف فيما هو المراد من قوله: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ فمن قائل يقول: قضى أجلاً؛ يعني: الدنيا، وأجل مسمى عنده؛ يعني: اليوم الآخر.

ومن قائل يقول: الأجل المسمى هو آخر مدة الدنيا الذي حدَّه يوم القيامة، فهو مسمى بهذا التحديد، وأجل عنده هو مدة الآخرة الذي ليس هو عندنا نحن معلومًا، وهو في علم غيبه معلوم.

وقال: إن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، تقديره: ثم قضى أجلاً مسمى وأجل

عنده، وكتاب الله أكبر شهادة وأقوم قيلاً.

يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر:١١] أي: إنه على تفاوت ما بين الآجال من نقص في أجل لحكمة، أو زيادة فيه لحكمة على اختلاف ذلك، وتنويعه قدر من ذلك في كتاب، إن ذلك على الله يسير.

وقال ﷻ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكِتَابِ﴾ [الرعد:٣٨ - ٣٩].

وقال رسول الله ﷺ: «**من أحب أن ينسأ الله في عمره ويزيد في رزقه فليصل رحمه**»[١].

وفي أخرى: «**فليبدأ بربه**»[٢].

قال ﷺ «**ما منكم من أحد أو ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب مكانها من الجنة والنار، فإذا مات أحدكم أتاه ملكاه فيقولان له: ما علمك بهذا الرجل محمد؟**» إلى قوله ﷺ: «**فيقولان له: هذا مقعدك من النار أبدلك الله به مقعدًا من الجنة، ويقولان للكافر: هذا مقعدك من الجنة أبدلك الله به مقعدًا من النار**» قال رسول الله ﷺ: «**فيراهما جميعًا**»[٣].

لذلك جعل جلَّ ذكره سبيل الضلالة وسبيل الهداية، قال الله ﷻ: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[البلد:١٠].

وقال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أي: السبيلين ﴿فَاسْتَحَبُّوا العَمَى عَلَى الهُدَى﴾ [فصلت:١٧] والوجود من هذا مملوء مصمت لمن نظر بقلبه وهُدي لرشده، كذلك القرآن وحديث الرسول ﷺ.

قال الله ﷻ فيما حكاه عن رسله منهم نوح، وغيره على جميعهم السلام:

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٦١)، ومسلم (٢٥٥٧)، وأبو داود (١٦٩٣)، وأحمد (١٢٦١٠)، والنسائي (١١٤٢٩)، والطبراني في الأوسط (٢٤١١). ينسأ: يؤخر.

(٢) أخرجه بنحوه ابن أبي شيبة (١٣١).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٣٨)، ومسلم (٧٣٩٥)، والنسائي (٢٠٦٢)، وأحمد (١٢٦٠٥)، والطبراني في الأوسط (٧٢٢٤)، وعبد بن حميد (١١٨٣).

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح:١٠ - ١٢].

وقال هود ﷺ: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ [هود:٥٢] فذكر أنهم عتوا وعصوا، فقطع بذلك دابرهم واستأصل شأفتهم كما فعل بكثير، وإن هم آمنوا واتقوا وعده ووعيده الحق أن يمتعهم متاعًا حسنًا إلى أجل مسمى، وأن يرسل السماء عليهم مدرارًا، ويمددهم بأموال وبنين، ويجعل لهم جنات، ويجعل لهم أنهارًا هذا كله إنهم إن عتوا وكفروا يقطع عنهم المطر من السماء والنبات من الأرض، ويمنعهم الأرزاق ويهلكهم ويفنيهم، ويمنع منهم التناسل كما فعل بكثير كقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [هود:٥٧] إلى غير ذلك مما يعلم أنه يخلق ما يشاء ويختار.

ولو كان كما زعم بعضهم لكان أمره أشبه بحال المضطر، كيف يكون هذا أو يظن بتدبيره، وهذا هو الواسع العليم خلق كل شيء، وقدره على ما شاء تقديرًا وعلمه، ومشيئته أوسع من التصرف وتنويع التدبير دون نهاية ولا غاية، والأجل المسمى هو الذي إليه المنتهى في الأعمال والأعمار والأرزاق؛ كقيام الساعة للدنيا، وكموت من يموت من غير عارض له من قتل بحدث، أو أسباب تقضي مقدره لآجال قد قضاها، فهو مقدر لمقدور، وكل شيء عنده بمقدار.

وهذا هو الأجل المعني بقوله جلَّ قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عنه ﴿سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل:٦١].

والأجل الذي هو دونه الذي قال فيه: ﴿قَضَى أَجَلاً﴾ [الأنعام:٢] هو ما قد قدره بحلول أسباب وحوادث تقدرها.

وفي هذا يتصور المعنى بقوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر:١١] وفي هذا قد ينفع الحذر، وفيه يوجد تأثير بر الوالدين وصلة الرحم، والإيمان والعمل بطاعة الله ﷻ بالاستجابة لله وللرسول.

ألا ترى أنهم لما استجابوا لله ولرسوله نعشهم، ومدَّ لهم في أعمارهم حتى يتوفاهم على آجالهم، ومدتهم المقدرة لهم من حلول منياتهم، ومتى عتوا عما نهوا

عنه، ربما أهلكهم هلاكًا واحدًا بجمع آجالهم بذلك كموت نفس واحدة، فكل موجود له أجلان إن أخطأه الأول بقدر مقدور، ثم يغلب الأجل المسمى.

ثم قال عزَّ من قائل: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام:٢] أي: في البعث بعد الموت هلا تعرفتم بما ينجيكم من الموت في كل طرفة وكل نفس وأدنى من ذلك، ويحييكم بذلك مكان الإماتة أنه يحييكم بعد موتكم، وكما تتصرم الآجال دون الأجل المسمى، كذلك يتصرم أجل عمر الدنيا، كذلك يتصرم أمد الموت بالبعث منه.

فصل

إذا تمهد ما ذكرناه، فالأجل المسمى لكل محدث واحد ينتهي إليه مع السلامة من العوارض دونه، وما دونه بآجال كثيرة، وعلى التحقيق فعلى عدد الأنفاس وأدق من ذلك.

قال رسول الله ﷺ: «**قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن، إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه**»[1].

وعلى كل موجود محدث، حافظ بحفظه من العوارض التي قضيت الآجال بحدوثها حتى يأتي أجله المقدور بسببه، وعارضه المحتوم عليه حلول الأجل فيه، فتتخلى الحفظة عنه؛ لأنه قد قُضي الأجل بذلك الأجل أيضًا بما هو عليه، وهو مسمى قد سمى له لم يكن له أن يتقدمه، ولا أن يتأخر عنه، ولكن له حكم يبقى وتباعة ترجى وتبقى؛ كالذي يقتل مظلومًا، فعلى قاتله القصاص، وللمظلوم بذلك عاقبة يرجوها عند الحكم العدل جلَّ ذكره.

وكالذي يقتل في سبيل الله، فبدله ربه حياة لأجل حياته التي باعها، فيرزقه عيشًا عنده وحظوة ورزقًا جزاءً لعيشه ورزقه وما نزله له، ولو لم يكن محتومًا بسبب

(١) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (١٢٦/٨)، وأحمد (١٧٦٦٧)، وابن ماجة (١٩٩)، والحاكم (١٨٨١) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، والنسائي (٧٧٣٨)، والطبراني في الكبير (٦٤٢٧) وفي الشاميين (٣٣٠/١)، وابن حبان (٩٤٦)، وابن عساكر (١٥٧/١٠).

قاطع به عن أجله المسمى به الذي قطع به دونه، ومات عنه لم يكن له هنالك عوض؛ إذ أنه إنما مات بأجله المسمى الذي لا أجل له سواه.

قال الله ﷻ: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ المَوْتِ أَوِ القَتْلِ﴾ [الأحزاب:١٦] أي: إنه ولو نفعكم الفرار من القتل الذي يكون عن أجلكم الأدنى، فإنكم لا تمتعون إلى الأجل المسمى إلا قليلاً.

أعقب هذا كله بقوله الحق: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام:٦][1] فأنبأ صريحًا بآجاله المخترمة وأرزاقه المنقطعة بأتباع ذلك ولواحقه، فعلى هذا انبنى التدبير الحق حتى إن الدنيا لتعود آخرة في حق أقوام؛ لأجل عبرة بها وعمل لها، والآخرة تعود دنيا جزاء وإثابة في حق آخرين؛ لغفلة مستولية ولحكمة بالغة وأمر عزم.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:٣] أصفق الإجماع أن المكان محصور محاط، والمحيط به وحاصره هو الله خالقه، وإن الممكن ضعف عن حقيقة القدرة، ونقص عن حقيقة الكمال، وكذلك القول في الزمان وما يتبع ذلك، وكذلك المواجهة والمحاذاة والتلقاء، والفوق والتحت والقبل والبعد، وإن الله لا يحجبه شيء عن شيء، ولا يبعد عليه شيء، بل هو قريب من كل شيء بوصفه.

وهو القدرة والدرك، والأشياء مبعدة بأوصافها، وهو البعد والحجبة، والبعد

---

(١) اعلم أن الله تعالى وصف القرون الماضية بثلاثة أنواع من الصفات: الصفة الأولى: قوله: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ قال صاحب «الكشاف»: مكن له في الأرض جعل له مكانًا ونحوه في أرض له. والصفة الثانية: قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا السماء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ يريد الغيث والمطر، فالسماء معناه المطر ههنا، والمدرار الكثير الدر، وأصله من قولهم: در اللبن إذا أقبل على الحالب منه شيء كثير، فالمدرار يصلح أن يكون من نعت السحاب، ويجوز أن يكون من نعت المطر، يقال: سحاب مدرار إذا تتابع أمطاره. قال مقاتل: ﴿مِّدْرَارًا﴾ متتابعًا مرة بعد أخرى، ويستوي في المدرار المذكر والمؤنث. والصفة الثالثة: قوله: ﴿وَجَعَلْنَا الأنهار تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾ والمراد منه كثرة البساتين. [تفسير الرازي (٦/٢٢٣)].

والإبعاد والحجب حكم مشيئته، والحدود والأقطار حجب بريته، والمسافة والتلقاء مكان لسواه، والنواحي والجهات مكان المحدثات، والنهار والليل مسكن المتصرفات، والبعد والفضاء مكان المخلوقين، والتوسعة والهواء مكان العالمين، والأحكام والأقدار واقعة على خلقه، والحجب والأستار متصلة بمخلوقه.

وإلى هذا ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:٣] ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤] غير متصل بخلق ولا مفارق، وغير مماس للكون ولا مباعد، بل منفرد بنفسه متحد بوصفه سبحانه وله الحمد، كما أن ليس كمثله شيء، فكذلك ليس كوجوده وجود، وليس كشأنه شأن، كان في أزل أزله بأسمائه ووصفه وصفاته، وهو الآن على ما لم يزل عليه وخلق كل شيء، فقدره تقديرًا.

وكل وصف لموصوف في الحدث فهو مشير إليه، وآية على وصف له هو في القدم موجود له، حقيقة ذلك في الحضرة الرحمانية، ومعارف الصمدانية في معالم الجبروت والملكوت، كذا سبحات الكبرياء والعظمة ونزاهة القدس والجلال، فهو - جلَّ ذكره وتعالى علاؤه وشأنه وجدّه - يعبر بأنه في السماوات وفي الأرض، ومع جميع خليقته عبارة حق عن وجود حقيقة، فهو كذلك من حيث هو لا من حيث هي.

فأما المعلمون من المشايخ ﷺ فإنهم لم يفرغوا لتحرير العبارات العوام، فكل ما أتى من هذا تأوله مخافة الإيهام، ونفوا عنه الاتباع خشية الإشكال إذ ذلك؛ أعني: توهم ما لا يجوز عليه معدوم عند العقول الصافية، ونواظر البصائر الصائبة، كيف تشبه الخليقة الحقيقة؟ بل كيف يماثل القدرة المقدور؟! جلَّ القديم الأول عن أن يكون في حضرته الجلالية صفة حديثة، كما استحال أن تكون الأمور الحديثة صفات قديمة، ليس كذاته ذات، ولا كفعله فعل، ولا كصفته صفة، ولا كحضرته حضرة إلا موافقة ألفاظ، ﷻ علاؤه وشأنه وجدُّه عن أن يغلبه عبده أو يمانعه ملكه، تعالى عن ذلك كله علوًا كبيرًا.

أتبع ذلك بما هو في معناه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام:٤] فتعرُّف الآيات واستشهاد البينات، ثم اعتبر من

محدث إلى قديم، ومن وصف محدث دنيوي إلى وصف قدس جلالي، فلو عبَّر لنا بما هو من حيث هو يخرج باللفظ، والخطاب عن أن يكون معقولاً لنا؛ لعدم معرفتنا بما هنالك، ولم يكن الكلام عربيًا ولا مبينًا، بل إنما هو تنزيل من رب العالمين، وكل عبارة تجيء بأنه في السماء، أو في الأرض، أو على حال يوهم حدثًا أو حيلولة أو تغييرًا، فإنما ذلك كله عبارة عما هو عليه على ما لم يزل بما لم يزل فيما لم يزل، وإنما هي الآيات تشير والبينات تشهد، فالحق يبين والوجود يدل وينبئ عن الموجود، فافهم.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾ [الأنعام: ٧ - ١٣].

قوله جلَّ ذكره: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[1] [الأنعام:٧] وصفهم ﷻ بإنكار المشاهدة، وإنما يكون ذلك عن الطبع الكائن عن عقوبة الإعراض، كما قال جلَّ قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف:٥٧].

---

(١) عن الكلبي وغيره أنها نزلت في النضر بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية ونوفل بن خويلد لما قالوا لرسول الله ﷺ: يا محمد لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله تعالى، ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله تعالى وأنك رسوله. [تفسير الألوسي (٢٣٥/٥)].

فلموجود الطبع على القلوب عميت منهم البصائر وصُمَّت الآذان وبكمت الألسن، فهم يشاهدون الآيات ويعاينون البينات، فيمرون عليها وهم عنها معرضون، وربما التفتوا إليها من حال إعراضهم، ويذكروها من غيابات حجب غفلاتهم، فيتمثل لهم في صورة الفتنة، فلهوا بها وأنسوا بمشاهدتها دون ذكر شهيدها جلَّ ذكره فاتخذوها هزوًا ولعبًا عن حقيقة حق يهديهم، وربما تأولها على ما ليست به، وقولوها ما لم يقل به في شهادتها لخالقها ﷻ، وربما ألحدوا بها إلى أنها من المعهود المتعارف كما قال - جلَّ قوله - في بعضهم: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور:٤٤].

وقال أيضًا - جلَّ قوله - في آخرين: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر:١٤ - ١٥] فحينئذٍ يذرهم في طغيانهم يعمهون، وفي جهالتهم يترددون حتى يأخذهم على أقبح ما كانوا به عاملين، نسأل الله العفو الغفور معافاته ومغفرته.

وقالوا: ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام:٨] إلى قوله: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩] أخبر - جل ثناؤه - أنه لا ينزل الملائكة من السماء إلا بالحق؛ أي: بقضاء، والأمر من موت أو قيام الساعة أو مجيء الله جلَّ ذكره للعرض الأكبر، أو ما يكون من معنى الانقراض لهذه الدار، وكشف الدار الآخرة.

يقول الله جلَّ ذكره: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان:٢٢] أي: منعًا ممنوعًا وسدًّا مسدودًا، أو نحو هذا بمعنى ألا إمالة.

ثم قال ﷻ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[1]

---

(١) قوله: ﴿وَلَوْ جعلناه مَلَكًا لجعلناه رَجُلاً﴾ أي: لجعلناه في صورة البشر، والحكمة فيه أمور: **أحدها**: إن الجنس إلى الجنس أميل. **وثانيها**: إن البشر لا يطيق رؤية الملك. **وثالثها**: إن طاعات الملائكة قوية فيستحقرون طاعة البشر، وربما لا يعذرونهم في الإقدام على المعاصي. **ورابعها**: إن النبوّة فضل من الله فيختص بها من يشاء من عباده سواء كان ملكًا أو بشرًا. [تفسير الرازي (٦/٢٢٦)].

[الأنعام:٩] لما كانوا كل ما رأوا آية يستسخرون، أو يلحدون بها إلى المتعارف من جري العوائد، جعل كل آية في السماوات والأرض لها وجه إلى المعهود، وليجدوا لتأويلهم مخارج المبطلون والإلحاد بها مذهبًا للجاحدون.

وجعل لها أيضًا وجهًا أبطنه عنهم إلى صريح النذارة والبشارة، والإعلام بحقائق موجودات الدار الآخرة وشهادة الوجود العلي، فمن نظر كل آية في السماوات والأرض يحملها على معهودها، وما جرت به العوائد في سننها لم يحدث له ذكرًا، ولا وجد لها علمًا، ولا أكسبه ذلك منها خشية، ولا وجد لها بعدًا.

هذا أصل لهذا الباب فهو جلَّ ذكره لو أنزل من الملائكة رسلاً عِوَض البشر لجعل ظواهرهم بشرًا؛ لإلباس على دونهم، وبواطنهم كالمعهود المتعارف من الملائكة فتحًا لباب الإيمان بالغيب على تابعيه، كذلك لما قضى وقدر أن يتخذ من البشر رسلاً إلى البشريين جعل ظواهرهم بشرية وبواطنهم ملكية، فمن اقتصر بعلمه ونظره على ظواهرهم عدم الإيمان بهم وبما جاءوا به؛ إذ ظواهرهم غير دالة على صدقهم، ولم يمتنع اليقين بما هم عليه من نبوتهم، وصدق ما جاءوا به على متأمليهم.

كذلك القرآن العزيز فيه آيات بينات للعلم بما هي عليه آيات، وأُخر متشابهات ظواهرها بخلاف بواطنها، فمن اقتصر على تفهم القرآن على ظواهر أكثره من المتشابهات دون التوغل في التذكر، والتفكر في معانيها والرسوخ إلى بواطنها لم يصل إلى رفيع العلم، ومُنع من درجة اليقين، وأعلى رتبه أن يكون دارسًا وقارئًا.

وكذلك من طلب العلم في أكثر المبينات بالرسوخ إلى بواطن بطنها لها، فقد افتتن هذا بتقصيره كما ضلَّ هذا بتعديه، والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وما هو فيما هنالك، وبآيات الله ﷻ في السماوات والأرض من ملكه وملكوته، وما خلق الله من شيء ظن الوصول إليه والحظوة عنده والجاه لديه، وهو ﷻ وتعالى علوه وشأنه قد كتب على نفسه إنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، فوجب في منبعث الابتلاء.

وبدء القضية أن يجعل على الهداية حجابًا، وعلى الضلالة شبهة؛ لئلا يصل إلى العلا من علمه، والرفيع من درجاته إلا من بذل جهده في ذاته ﷻ، واستفرغ

وسعه في طلب مرضاته، وأخلص له في طلبه.

قال الله - جلَّ ثناؤه - وذكر عيسى صلوات الله عليه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف:٥٩] أي: أنعم عليه بالنبوة والرسالة، والكتاب الذي علمه، والحكمة التي آتاه، والروح الذي جعله فيه منه، وكلمته التي كونه عنها.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف:٦٠] والأنبياء والرسل - صلوات الله عليهم - آيات على ما قاله في هذه الآية شواهد صدق، وبخاصة منهم عيسى ابن مريم صلوات الله عليهما وسلم على جميع النبيين والملائكة والمقربين.

قال الله ﷻ: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم:٢١] فافهم - وفقنا الله وإياك - فقد جمع لك فصول العلم في أطراف الكلام، وأن القرآن الكريم كله متشابه متعاضد متصادق، وكذلك الوجود كله لمن تأمله آيات مبينات لطالبي العلم ابتغاء طاعة الله ورضوانه.

قوله ﷻ: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأنعام:١٢] هذا محذوف لبيان دلائله وصدق شهادته، معناه والله أعلم: فلم أتخذتم من دونه أولياء لا يملكون شيئًا ولا ينفعون، أو ما يكون هذا عبارة عنه.

ثم استأنف الكلام، فقال جلَّ قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي: لمن آمن بالله ورسله وأطاع، وقد يكون قوله جلَّ قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ على العموم لولا رحمته في الدنيا التي شملت الكل في الدنيا ما عاش فيها الكافر، ولا العاصي ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ [النساء:٨٧] الأمر الإيجاب التي في الكتب؛ لإيجابه ذلك على نفسه، والنون فيه للتأكيد والتحقيق.

ثم استأنف من الكلام ما أنبأت عنه الفطرة وقامت عليه الشواهد، فأزاحت عنه الشكوك، فقال: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء:٨٧] يعني: يوم القيامة.

ثم استأنف ﷻ كلامًا آخر قبله ما دلَّ عليه قوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ قوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: في يوم القيامة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢].

وهذا في هذا المعنى كقوله جلَّ قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ﴾

يعني: في يوم القيامة ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ [مريم:٣٩] يعني: اليوم، وهذا تقرير منه ﷻ لهم على ضلالتهم، وفيه تعريض بما هو الحق المبين ألا نظير له، ولا مثل له ولا عدل له، ولا إله معه ولا شريك ولا ولد، فلِمَ يدعون معه إلهًا، ولِمَ ينسبون إليه ما نُزِّه عنه علو جده، وبرأه منه طهارة قدسه.

أكد ذلك ﷻ بما هو في معناه قوله الحق: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ يعني: ما اشتمل عليه الليل والنهار ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ [الأنعام:١٣] أي: وإن كان لا يشتمل عليه الليل والنهار، فهو غير غائب عن كل ما سكن في الليل والنهار، وتقلباته بل هو الشهيد الحاضر، القريب الرقيب العتيد، القريب لا أقرب منه، ولا أعظم تحقيقًا من حضوره، ليس كمبعوداتهم سواه لا يسمع ولا يبصر، ولا يغني عنهم شيئًا ما لهم من شرك في السماوات ولا في الأرض.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنعام: ١٤ - ٢٠].

دلَّ على صدق هذا التأويل ما أعقبه به من قوله الحق جلَّ قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ الله أَتَّخِذُ وَلِيًا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام:١٤] أي: يرزق ولا يُرزق.

وقرأها ابن عباس ومجاهد والأعمش وأبو حيوة وعمرو بن عبيد: «ولا يطعم»

بفتح الياء، ينبئ عن غناه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه[١].

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أي: من أمتي.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٤] حذره ﷻ من موافقة الشرك، وإن كان على الإسلام قائمًا، كما قال جلَّ قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥].

وقال أيضًا - جلَّ قوله - في الأنبياء والرسل غيره: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨] وقد يحمل على أنه خطاب له ﷺ، والمراد به أمته، والأولى أبلغ في التخويف وأقرب لأداة التحذير؛ إذ هو وسائر الأنبياء والمرسلين - عليهم السلام - لا يأمنون على إسلامهم أن يسلبوه، فكيف بمن سواهم.

ومن هذا المقام كان يقول رسول الله ﷺ: «**يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك**»[٢].

وفي أخرى: «**على طاعتك**»[٣] لعلمه ﷺ أن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الله ﷻ، فمن شاء أقام، ومن شاء أزاغ.

من المعهود أن فطرة الإسلام قد يدخل عليها الشرك كما دخل على المشركين، قال الله ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزخرف:٨٧].

و﴿إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل:٥٣].

قوله ﷻ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ [الأنعام:١٩] أمر ﷻ رسوله ﷺ أن يجيب بالحق ﴿قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يعني: هو شهيد، ثم عطف ﷻ بالواو،

---

(١) قرئ: «ولا يَطعم» بفتح الياء، وروى ابن المأمون عن يعقوب: «وهو يُطْعَمُ ولا يُطْعِمُ» على بناء الأول للمفعول والثاني للفاعل، والضمير لغير الله، وقرأ الأشهب: «وهو يطعم ولا يطعم» على بنائهما للفاعل، وفسر بأن معناه: وهو يطعم ولا يستطعم، وحكى الأزهري: أطعمت بمعنى استطعمت، ونحوه أفدت، ويجوز أن يكون المعنى: وهو يطعم تارة ولا يطعم أخرى على حسب المصالح، كقولك: وهو يعطي ويمنع، ويبسط ويقدر، ويغني ويفقر. [الكشاف (٩٨/٢)].

(٢) تقدم تخريجه في السابق.

(٣) أخرجه أحمد (٩٦٦٠)، وعبد بن حميد (١٥٢٣)، وأبو يعلى في مسنده (٤٧٠٠)، والنسائي في الكبرى (١٠١٣٦).

ومعنى الوحي على معنى الشهادة، فقال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ أي: من بلغه القرآن، وقد تكون الواو عاطفة على معنى ما بطن من ذكر الشهادة، وهو الله شهيد بيني وبينكم، وبعضكم المؤمنون شهداء له في الأرض.

ثم قال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ﴾ فشهادة الله بيني وبينكم، ومن بلغ شهادة المؤمنين لله بما بلغوه من الوحي شهادة المبلغ إليهم، كما قال: ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ [آل عمران:٩٩].

﴿وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران:٧٩].

قال: ﴿فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١].

قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ الله آلِهَةً أُخْرَى قُل لَّا أَشْهَدُ﴾ [الأنعام: ١٩] كما قال رسول الله ﷺ: «لا أشهد على جور»[1] أشهد غيري شهد شهادة الحق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بشهادة الحق لنفسه، يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٩].

ثم ذكر ﷻ علم أهل الكتاب بالقرآن، وإنهم يعرفون أنه من عند الله، وأن صرف القبلة إلى البيت الحرام كانوا يعرفون ذلك كما يعرفون أبنائهم، فكتموا شهادتهم؛ لذلك خسروا أنفسهم في الآخرة، فلم يؤمنوا في الدنيا؛ ليحيق بهم ما سبق لهم عند الله من خسران أنفسهم وأهاليهم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٠٧)، ومسلم (١٦٢٣)، والنسائي (٣٦٨١)، وأحمد (١٨٣٨٩)، وابن حبان (٥٠٧)، والبيهقي في سننه (١٢٣٥٤)، وأبو عوانة في مستخرجه (٤٦٠٨).

عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: ٢١ - ٢٧].

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ....﴾ [الأنعام:٢١].

ثم قال عزَّ من قائل: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أهل الكتاب والذين أشركوا والذين عدلوا بالله، ثم خصَّ أهل الشرك بالمساءلة بقوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام:٢٢].

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ أي: معذرتهم أو إفكتهم ﴿إِلَّا أَن قَالُوا وَالله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣].

ثم قال عزَّ من قائل: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ﴾[١] [الأنعام:٢٦] يمكن أن يكون عني بهذا المشركين، فإن قومًا منهم كأبي طالب وغيره كانوا يغضبون له ويحبونه، وينهون المشركين غيرهم عن أذيته، ومع هذا فهم يبعدون عنه، فلا يؤمنون به ولا يتبعونه.

ويمكن أن يكون المراد به أهل الكتاب كانوا ينهون الناس عن اتباعه، والإيمان بما جاء به من الوحي، ويريدون على ذلك بأن يبعدوا عنه كقول طائفة منهم: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران:٧٢] بقوله: عسى من آمن به يرجع ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران:٧٣].

وطائفة منهم ﴿يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ ويقولون: هذا من عند الله ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾ أي: إن أمركم بمثل هذا فأتمروا، وإن لم يأمركم بمثل هذا ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ [المائدة:٤١] على دينكم هذا، وشبهه من نهيهم عن اتباع الرسول والكتاب.

---

(١) روي عن ابن عباس أنها نزلت في أبي طالب كان ينهى المشركين أن يؤذوا الرسول ﷺ وأتباعه وكانوا يدعوه إلى الإسلام، فاجتمعت قريش بأبي طالب يريدون سوءًا برسول الله ﷺ. وقال محمد بن الحنفية والسدي والضحاك: نزلت في كفار مكة كانوا ينهون الناس عن اتباع الرسول ﷺ ويتباعدون بأنفسهم عنه. [تفسير البحر المحيط (٥/١١٠)].

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٣٢) قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾ [الأنعام: ٢٨ - ٣٣].

قال عزَّ من قائل: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾[1] [الأنعام:٢٧] هؤلاء هم المشركون، دلَّ على هذا قولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام:٢٩].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْس هَذَا بِالْحَقِ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ [الأنعام:٣٠] وهؤلاء هم أهل الكتاب، والله أعلم.

ثم قال عزَّ من قائل: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ المراد به - والله أعلم - أهل الكتاب فإنهم وإن أظهروا خلافه ومناقضته، فإن قلوبهم تعرفه دلَّ على صدق هذا التأويل وصفه - جلَّ وصفه - إياهم بالجحد في قوله جلَّ قوله: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣].

وعلى قراءة من قرأ: «يكْذَبونك» بإسكان الكاف وتخفيف الذال[2]، فعام

---

(١) قوله: ﴿وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النارِ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من تتأتى منه الرؤية، وعبر عن المستقبل يوم القيامة بلفظ الماضي تنبيهًا على تحقق وقوعه كما ذكره علماء المعاني، و﴿وُقِفُواْ﴾ معناه: حبسوا، يقال: وقفته وقفًا ووقف وقوفًا، وقيل: معنى: ﴿وُقِفُواْ عَلَى النارِ﴾ أدخلوها، فتكون «على» بمعنى «في». وقيل: هي بمعنى الباء: أي: وقفوا بالنار؛ أي: بقربها معاينين لها، ومفعول ترى محذوف، وجواب «لو» محذوف، ليذهب السامع كل مذهب، والتقدير: لو تراهم إذا وقفوا على النار لرأيت منظرًا هائلاً وحالاً فظيعًا. [فتح القدير (٤٠١/٢)].

(٢) انظر: تفسير البغوي (١٤٠/٣)، وتفسير الرازي (٢٦٨/٦).

للكافرين أجمعين، وأهل الكتاب هم المقصودون بهذا مع احتمال عمومها؛ أي: إنهم لا يجدونك كاذبًا في أنفسهم، ولا فيما تأتي به ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ بآيات الله الدالة على صدق رسوله ونبوته، وإن القرآن هو من عند الله يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم.

قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ كلام راجع معناه إلى ما قبله من سؤالهم إياه أن يأتيهم بآية، وما سرد عليهم من ذكرها، والذين يسمعون هم أحياء الإيمان.

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ۗ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٤ - ٣٩].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَالْمَوْتَى﴾ يريد: موتى الكفر ﴿يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ في حال الموت، كما قال رسول الله ﷺ: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»[١] دلَّ على صدق هذا التأويل اتباعه إياه بقوله الحق جلَّ قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام:٣٦] أي: بالبعث الآخر.

قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢].

﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ...﴾ [الأنعام:٣٧] إلى قوله جلَّ قوله:

---

(١) تقدم تخريجه.

﴿يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٣٩].

يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ﴾ [فاطر:٤٤] لو شاء لأنزلها لكنه قد ألزم ذلك حكمًا مضت عليه سنته في عباده، وهو ما آخذ به الأولين قبلهم الذين سألوا أنبياءهم - عليهم السلام - الآيات، ثم لم يؤمنوا بها ﴿فَأَخَذَهُمُ العَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل:١١٣] فهذا معنى قوله جلَّ قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٣٧] حقيقة حكم ما سألوه، ولم يرسل بها إليهم نظرًا لهم، وإبقاءً عليهم، كما قال عزَّ من قائل: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء:٥٩] وحذف هنا ذكر الجزاء «**فعذبناهم**» أو ما كان في معنى ذلك.

ثم قال عزَّ من قائل: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء:٥٩] ثم حذف أيضًا ذكر عقوبته إياهم اعتمادًا على ما تقدم من ذكر ذلك في غير هذا الموضع، فوصف - جلَّ وصفه - أكثرهم بالجهل، وعدم العلم لما جهلوا أن الآية الشرطية؛ إذ لم يقترن بمجيئها الإيمان بها، فجزاء سائلها العذاب ومعاجلة العقوبة.

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨] يقول جلَّ قوله: في آيات السماء والأرض، وفيما لديكم من المعهود منها لكم غنى عما سألتموه، فما من دابة تدب في الأرض، ولا طائر يطير في السماء إلا أمم أمثالكم؛ أي: أمم يؤم بعضهم بعضًا في التفاضل، والسير والمعاملات، والمناكح واللغات، والخَلق والخُلق، والشرود والتأنس إلى غير ذلك مما جبلت عليه حتى يصعد التفضيل.

والاختصاص بها إلى خاص منها مختص بما هو إمام بالإضافة إلى من هو مؤتم به، فقد كانت هذه آيات بينات على إثبات الوحدانية، وفرقان النبوة وبراهين صحة الرسالة شواهد صادقات، والسنة معربة عن الحق الذي دعوتكم مفصحات، كذلك لو اتصل نظرهم إلى نبات الأرض على كل سُنة قد سُنَّت له، جُبل عليها في خلقه وشكله، ومنافعه ومضاره، وروائحه وطعومه، وتوابعه كلها كذلك إلا تربة الجمادات من الأحجار، وقطع الأرض والجبال إلى غير ذلك.

كذلك قال عزَّ من قائل وهو أعلم: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨] ولفظة الكتاب مترددة في الإعلام بين أن يكون المراد بها اللوح المحفوظ، فهو الذي عمَّ كل مذكور سواه، وزمَّ كل كائن إلى يوم القيامة.

ويمكن أن يكون المراد بذكر الكتاب هذا القرآن، وهو أيضًا قد عمَّ بالذكر الموجودات كلها أيضًا نصًا عليها وعمومًا لها، وفي هذه الآية على هذا التأويل بيَّن جلَّ ذكره إنه ما فرط فيه من شيء، وكل دابة في الأرض دبت ودرجت أو كل طائر في السماء، فهي أمم أمثالنا لكل أمة منها لسانها وشكلها، وصورها وسيرها الذي لا يعدوها في مناكح ومعاملات بينها، مقصورة عليها فطرها فاطرها ﷻ، وهداها إليه كما ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه:٥٠].

وقال جلَّ من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ﴾ أي: منهم من علم ﴿صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور:٤١] لذلك قال عزَّ من قائل: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨] كما حصَّل ﷻ أفعالهم وخُلقهم وأرزاقهم، فلذلك إليه يحشرهم.

فصل

ذكر ﷻ الجناحين هنا - والله أعلم - والعلم مستقر بأن كل طائر يطير بجناحيه فتحٌ لبابٍ من الغيب؛ لما استاق جلَّ ذكره ما دبَّ من دواب الأرض، وما طار في الهواء إرشادًا منه للمعتبرين من عباده يرونه؛ ليتحصل لهم العلم والعبرة بما شاهدوه على العيان بصحة قدرة خالقها، ولطيف حكمة ممسكها حال طيرانها، ويتصور لهم بذلك سنن النبوة في استنان سنن كل صنف منها أمة لا يعدوها، ولا يخالفها باستنان كل صنف منها سنة صنفه لا يعدو ذلك ولا يخالفه، وكان ذلك إعلامًا بأن طيران النسيم ودواب الجنة خيلها وركابها ليس من شرط ذلك أن تكون طائرة بأجنحة، بل تكون طائرة وإن لم يكن لها أجنحة.

وقد جاء: «**إن المتقين ينجيهم الله تعالى على الصراط بمفازتهم، قال: فيمر أحدهم كالبرق، ويمر الآخر كالرمح، وكرجع الطرف، وكحضر الفرس**

الجواد...»[1].

فصل

كل ما خلق الله ﷻ من شيء رفيع أو وضيع كريم أو خسيس لا بد من إعادته يوم البعث، كما قال الصادق الحق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨].

وكما قال جل قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤] ذلك ليقاص للجلحاء[2] من القرناء، والضعيف من القوي، ويُسئل العود لِمَ خدش العود، ثم لا بد أن يميز الخبيث من الطيب، فيركم الخبيث بعضه على بعض، فيجعله في جهنم، ثم يجعل الطيب في الجنة؛ ذلك ليعذب المكذبين الذين كذبوا بآيات الله، وعصوا أمره، وعتوا على رسله بما كذبوا وكفروا ربهم.

وبما عهدوه في الدنيا من ضرائها وسرائها، فلم يستنوا موجودات ذلك من سموم هنا وحرور وسعير وصرود وزمهرير، فيقضوا بموجودات ذلك فيما ها هنا على ما ينبني في الدار الآخرة، ولينعم أهل الجنة بما عهدوه في الدنيا من خيراتها فيشكروه عليها، ومن مكروهها فيصبروا له عليها، وطلبوا له معرفته من هذه وهذه حتى وصلوا إليه إيمانًا وإيقانًا، فيكفيهم المكروه وينيلهم المحبوب، ويزيدهم من فضله زائدًا إلى ما في الدار الآخرة على عظيم قدرها، وتفاوت شبه ما بينهما لكنه يجمع إلى تلك كما تقدم.

فصل

الخبيث من كل ما دبَّ في الأرض ودرج، أو طار في الهواء هو ما منع الماعون وسلط ضره، والطيب هو ما أتى الماعون وبذل نفعه، ومن الموجودات ما منع الماعون، ولم يوصل ضرُّه إلى مخلوق، كما أن منها ما أتى الماعون، وأوصل شره إلى الغير، وحكم ما هذا سبيله في إنزاله أي منزلة في الدارين هو إلى الله ﷻ،

---

(١) لم أقف عليه هكذا، ولعله مأخوذٌ بالمعنى.

(٢) الجَلْحاءُ من الشَّاءِ والبَقرِ: بمنزِلةِ الجَمّاءِ الّتي لا قَرْنَ لها. انظر: تاج العروس (١٥٦٦/١).

هو أعلم بما هو الطيب من ذلك والخبيث.

كما قال جلَّ قوله: ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ...﴾ [الأنفال:٣٧].

غير أنا نعلم بما أعلمناه ﷻ أن نصيب الرحمة منه أوفر وأغلب لا محالة، كذلك أيضًا في النبات والجمادات الطيب والخبيث، يأتي الله جلَّ ذكره بالدنيا جمعًا، فيقضي قضائه ويحكم حكمه في عباده، ثم يميز خبيثها إلى النار وطيبها إلى الجنة؛ لذلك قال عزَّ من قائل: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ...﴾ [الأنعام:٣٨ - ٣٩].

وإنما ذكر جلَّ ذكره نعت المكلفين، وخصَّهم بالذكر في ذلك للمعهود منه ﷻ أنه إنما يكلف من حقه أيسره، ويترك أكثره رحمة منه بالعباد ورأفة، فذكر ﷻ إرجاعهم بعد البلى وكذب أكثرهم، فاستوجبوا لديه ما أوعدهم به، فكيف كان يكون بعد تكذيبهم بما قد أضمحل ويبس، وما رطب وبرد، وما سخن بجواهر ذلك وأعراضه وتوابعه، وأوائل ذلك وأواخره من أول وجود الدنيا إلى انقراضها، وهي جملة يتعذر زمَّها على أكثر الأوهام، ويتغيب عنها في كثير من الأحوال الإيمان بها.

قال الله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة:٢٩].

وقال جلَّ قوله: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [لقمان:٢٠] فأخبرك ﷻ نصًّا صريحًا أنه خلق كل شيء لعباده ومن أجلهم، وجعل كل ذلك آلاء وآيات على مراده من الغائب الآتي، وأخبر أنه قد قدر العودة بعد البدأة، وصرح ﷻ بذكر إعادة العبد، فمن الجلي البين أنه كما يعيده بعد أن بدأه لذلك يعيد ما خلقه من أجله آيات على الدار الآخرة التي انتزعت منها، ثم جعل هذا آية على تلك، وعبرة من هذه إلى تلك، ثم جعل مصيرهم إليها.

فصل

اعلم أن الحساب كله في المكلفين هو أمر نشأ من لدن عالم الجماد إلى الثقلين الجن والإنس، غير أن الفرق بين ما هو مكلف، وبين ما ليس بمكلف:

وجود الخزي والتعذيب والآلام للمكلفين بما هم فيه، وما ليس بمكلف ولا يجد ألمًا بما هو فيه، وبالضد في الطيب خلا أن القرين الخبيث يمنع القرب والجوار، ويناله الحزب الطيب دونه.

وقد سمَّى رسول الله ﷺ كثيرًا من المؤذيات: فواسق، وكفَّرها وأحل قتلها في الحل والحرم، وفي الصلاة إلى غير ذلك مما ينكشف بالاستقراء، وتتبع مسالك العلم من إشارات الشرع وشواهد الوجود، فمن كان هكذا فهو في النور الموجود عن الحق المخلوق به السماوات والأرض، في بصره النور يبصر به، وفي لسانه النور ينطق به، وكذلك في السمع والشم والذوق.

كما قال بعضهم:

في القلب نور ونور الحق ينجده نور على النور دلال على الصمد

قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾[١] [الأنعام:٣٩] عبَّر - جلَّ ذكره وجلت عبارته - بكونهم في الظلمات عن عماهم عن الهدى، وبكونهم في اليوم الآخر في ظلمات أعمالهم، ولم يقل: «إنهم عمي» كما قال - جلَّ قوله - في سورة البقرة، وإنما ذلك لمعنى زائد على العمى فيما هنالك، وذلك أنهم كانوا في عماهم لا نور يحتوشهم من إيمان، ولا ضياء يضيء لهم من عمل صالح ولا نور، فهم على ذلك كالعُمي في الليل المظلم البهيم.

وضد هذا وعليه هو الذي عبَّر عنه رسول الله ﷺ بقوله ﷺ: «**اللهم اجعل لي نورًا في سمعي، ونورًا في بصري ونورًا في لساني، ونورًا في لحمي ونورًا في دمي، ونورًا في مخي ونورًا في عظامي، ونورًا في شعري ونورًا في بشري، واملأ قلبي نورًا واملأ صدري نورًا، واجعل نورًا من أمامي ونورًا من ورائي، ونورًا من فوقي ونورًا من تحتي، ونورًا عن يميني ونورًا عن شمالي، اللهم أعظم لي نورًا واجعل لي نورًا**»[٢].

---

(١) قال النقاش: نزلت في بني عبد الدار ثم انسحبت على سواهم.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤١٩)، والطبراني (٣٤١٩)، وابن عساكر (١٥٧/١٧)، وابن خزيمة (١٠٥٦).

والذين كذبوا بآيات الله وكفروا به في أبعد البعد من هذه الأنوار؛ لذلك قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف:١٧٩].

وإنما ذلك من حقيقة وصفهم بما وصفهم به؛ لعدم النور الذي يقوم لأهليه مقام وصفه جلَّ وصفه: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ﴾ [النور:٣٥] وسيأتي شرح ذلك إن شاء الله تعالى، أحاطت بأولئك الظلمات لكفرهم، وأحدقت بذواتهم دياجي جهلهم، وعموا لذلك وصموا فلم يجيبوا الداعي ولا سمعوا المنادي.

فصل

ذكر الله ﷻ آياته في السماوات والأرض شواهد على توحيده، ودلالات مبينات لصدق رسله - صلوات الله وسلامه على جميعهم - وإعلامًا بالحق الموجود في الدار الآخرة الذي تضمنه وعده الحق وعيده كما جعلها آيات على وجود أسمائه الحسنى، وصفات ذاته الكاملة الحق العلي من عظيم قدرته، وإحاطة علمه بهدايته وإضلاله من سبق علمه العلي ﷻ بضلاله هذا بفضله وهذا بعدله.

ثم قال جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَأِ اللهُ يُضْلله وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1] [الأنعام:٣٩] إذ كل ما في السماوات والأرض مفطور على الإسلام، مجبول على الدين القيم، من استرشدها

(١) ثم قال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ الله يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ على صراط مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو صريح في أن الهدى والضلال ليسا إلا من الله تعالى. وفي الآية وجوه: **الأول**: قال الجبائي: معناه أنه تعالى يجعلهم صمًا وبكمًا يوم القيامة عند الحشر، ويكونون كذلك في الحقيقة بأن يجعلهم في الآخرة صمًا وبكمًا في الظلمات، ويضلهم بذلك عن الجنة وعن طريقها ويصيرهم إلى النار. **الثاني**: قال الجبائي أيضًا: ويحتمل أنهم كذلك في الدنيا فيكون توسعًا من حيث جعلوا بتكذيبهم بآيات الله تعالى في الظلمات لا يهتدون إلى منافع الدين، كالصم والبكم الذين لا يهتدون إلى منافع الدنيا، فشبههم من هذا الوجه بهم، وأجرى عليهم مثل صفاتهم على سبيل التشبيه. **والوجه الثالث**: قال الكعبي: قوله: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ محمول على الشتم والإهانة لا على أنهم كانوا كذلك في الحقيقة. [تفسير الرازي (٦/٢٨٤)].

رشد، ومن اهتدى بها هدي، ويبصر مواقع أحكام الله ﷻ وعدله في خليقته، حتى كأنه لقوة يقينه مشاهد بفعله مبادئ الصنع عن تأسيس التقدير السابق في الأزل، قائم بلبِّه على تفصيله وتوصيله إلى تمامه.

ويرى جملة الخليقة شخصًا قائمًا بين يدي مالكه ﷻ، معبدًا له محتسبًا، قد أحاطت به مسكنة المقدار وتخلله الأمر، وجرى فيه الروح أكرم من جريان الأرواح في الأجسام، ويرى سريان العبادة في جملته وأعضائه وأجزائه، وأجزاء أجزائه إلى منتهى التحصيل تسبيحًا وتحميدًا، وتهليلاً وتكبيرًا، وصلاةً وشهادةً، وخشوعًا وإنفاقًا مما عنده، وصومًا وحجًّا لفاطره، قانتًا له على ذلك.

فصل

إنما صُرِف الأكثر من الأنام عن مشاهدة ذلك، منها غيبتهم في أسفار غفلاتهم، وأتاهم على التيقظ برؤيتها، وأصمهم عن سماع شهادتها عندما يريدونه من استرشادها إيجادهم بها إلى المعهود من ظواهرها، وحملهم معاني خطابها عند أداء شهادتها على المتعارف في بادئ الرأي، مما يبلغونه من سوء نياتهم وآراء خواصهم، فنسوا لذلك حظًّا مما ذكروا به، ولم يتصفحوا الوجود بعزم ولا تدبر، والوحي بقوة، وطلب للمعونة من مالكها ﷻ، أيقظنا الله ﷻ من سنة الغفلة.

لذلك قال عزَّ من قائل: ﴿وَكَأَيِّن مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِالله إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ...﴾ [يوسف:١٠٥ - ١٠٦].

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ

وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنعام: ٤٠ - ٤٦].

أتبع ما تقدم ذكره قوله جلَّ قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ الله أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ الله تَدْعُونَ﴾ [الأنعام:٤٠] المعنى انتظم بقوله جلَّ قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الأنعام:٣٧] وبالجواب بعده إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأنعام:٣٩].

جعل ﷻ يسرد عليهم آياته بعد هذا إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام:٤٨].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام:٤٢] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ الله يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام:٤٦] أي: عن النظر إليها، والعمل والهداية بها إلى التعلل بطلب إنزال آيات سواها فعل من لا يفقه ولا يعلم.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام: ٤٧ - ٥٢].

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ الله بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ [الأنعام:٤٧] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ الله وَلَا أَعْلَمُ الغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي

﴿مَلَكٌ﴾[1] [الأنعام:٥٠] جعل جلَّ ذكره من آياته على صدق ما جاء به كونه ليس عنده خزائن الله، وهو على ذلك يثير الماء من بين أصابعه، ويدعو بالمطر الجود، ويشير إلى السحاب السماء يمنة ويسرة، فتنجاب استجابة لإشارته بيده هكذا وهكذا، ويجعل به قليل الطعام كثيرًا إلى غير ذلك من آياته من هذه الجهة.

وبكونه من البشر وليس بملك، وهو على ذلك عليه هدي الملك سمتًا ووقارًا، وخيرًا وعبادة، وتقوى وخشية لربه واستجابة له، والملائكة تتنزل عليه - على جميعهم سلام الله ورحمته - بالذكر والوحي، والنصر والولاية والصحبة، وبأنه لا يعلم الغيب، وهو بذلك يخبر بالغيوب وينذر المنذرين ويبشر المبشرين، ويُنزل عليهم الخبر من السماء، ويخبر ما كان وما يكون، ويتلو كتاب الله ﷻ، وكلامه الحكيم ينزل عليه من لدن رب العالمين إلى الروح القدس، إلى الروح الأمين إلى قلبه المقدس المطهر، إلى لسانه الصادق قرآنًا عربيًا أعجز الثقلين وبهر العرب والعجم، فكان تعريه من أوصاف الملائكة - عليهم السلام - وعلم الغيوب وخزائن الله مع موجود ما يوجد عنده من ذلك أدل دليل، وأعرب شاهد بالحق على علم.

حقق ذلك بقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ لذلك قال - عزَّ من قائل - وقوله الحق: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ هو البصير المعني بهذا النعت ها هنا، والأعمى هو سواه من ليس بنبي ولا رسول، وأغرقهم في العمى من كذب وعتا، ثم يسري نور البصر في كل من آمن واهتدى هم درجات عند الله، ختم ذلك بقوله الحق: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:٥٠] يريد فيما تقدم ذكره.

قوله عزَّ من قائل: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام:٥٣] الكاف للتشبيه،

---

(١) قال القرطبي في «تفسيره»: هذا جواب لقولهم: ﴿لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ فالمعنى ليس عندي خزائن قدرته فأنزل ما اقترحتموه من الآيات، ولا أعلم الغيب فأخبركم به، والخزانة ما يخزن فيه الشيء، ومنه الحديث: «فإنما تخزن لهم ضروع مواشيهم أطعمانهم أيحب أحدكم أن تؤتى مشربته فتكسر خزانته» وخزائن الله مقدوراته؛ أي: لا أملك أن أفعل كل ما أريد مما تقترحون ولا أعلم الغيب أيضًا ولا أقول لكم: إني ملك، وكان القوم يتوهمون أن الملائكة أفضل، أي: لست بملك فأشاهد من أمور الله ما لا يشهده البشر، واستدل بهذا القائلون بأن الملائكة أفضل من الأنبياء.

وذلك إشارة إلى المشار إليه موضعه الكاف من ذلك.

يقول الله - جلَّ قوله - وهو أعلم: وكما فتناهم بل كذلك فتنا بعضهم ببعض ﴿لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام:٥٣] يعني ﷻ: المهتدين، كقولهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف:١١].

يقول الله جلَّ من قائل: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣] كما قال - جلَّ قوله - في أعلى هذا المقام: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام:١٢٤].

﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ (٥٣) وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٤) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ (٥٥) قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ (٥٧) قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ (٥٨) ﴾ [الأنعام: ٥٣ - ٥٨].

قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤] انتظم هذا بما اتصل به من ذكر المهتدين، والنهي عن أن يطردهم من مجلسه، وعن أن يبعدهم، وأمره له بألا تعدوهم عيناه إلى سواهم من أهل الشارات والمراكب والملابس.

وفيه من الفقه عن الله ﷻ، والبشارة منه لعباده المؤمنين بحسن اللقاء الكريم منه لهم، كما قال عزَّ من قائل: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٤].

ومن ذلك توصيته ﷺ بهم في قوله: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٢١٥].

ومن ذلك تأنيبه رسوله ﷺ في قولهك ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَاءَهُ الأَعْمَى﴾

[عبس:١ - ٢] وإنما كان يقول ابن أم مكتوم: «[أرشدني يا رسول الله أرشدني][1]» وهو متشاغل برجل من المشركين، فأنزل الله عليه هذه السورة، وأعرض بالمواجهة إبلاغًا منه في المقصود بذلك إلى قوله: ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى...﴾ [عبس:٨ - ١٠] فاعبده وأرجه وتوكل عليه.

تنبيه:

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام:٤٨] أي: مبشرين للذين آمنوا ومنذرين للذين كفروا، ثم الذين آمنوا إن لم يثبتوا على الإيمان والإسلام وطاعة الله.

وقال - جلَّ قوله - بعد هذا: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ يعني: القرآن ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام:٥١] كقوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات:٤٥].

وقوله عزَّ قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [فاطر:١٨].

﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:٥١] أي: التقوى الأرفع.

وقال - جلَّ قوله - بعد هذا ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤] إنذارًا لمن اتقى كيف يتقي التقوى كله، وبشارة للمؤمنين ثم للتائبين، وانتظم هذا الخطاب أوله بآخره وبما بينهما.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: كما نصرف لهم الآيات، ونبينها لهم كذلك ﴿نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٥] بالرفع؛ أي: ليستبين لك وللمؤمنين سبيل المجرمين.

وبالنصب: ولتستبين أنت سبيل المجرمين؛ أي: سبيلهم فيما هم صائرون إليه[2].

---

(١) في الأصل: «اذني يا رسول الله اذني».

(٢) انظر: تفسير البغوي (١٤٩/٣)، وتفسير الألوسي (٣٤٣/٥).

وعطف بالواو في قوله جلَّ قوله: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ على محذوف، تقدير القول: وكذلك نفصل الآيات بشارة ونذارة ولتستبين سبيل المجرمين.

لذلك أعقب بقوله الحق جلَّ قوله: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ...﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام:٥٦].

ثم إلى قوله الحق جلَّ قوله: ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام:٥٧] يقضي الحق من الحكم والقضاء، والقضاء الحق.

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٩ - ٦٤].

قوله ﷻ: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ...﴾ إلى قوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

مفاتح الغيب وهو أعلم: صفاته العلا علمه المحيط بكل شيء جملة وتفصيلاً، وقدرته المخرجة للكائنات من العدم إلى الوجود وكلامه العلي، يقول - جلَّ قوله - للكائن: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠] وإرادته ما يشاء كان وما لم يشأ لا يكون، هو يقدم ويؤخر ويرفع ويضع، ويفعل ما يشاء كيف يشاء ومتى شاء، وهذه لا يعلم كنهها سواه، وعلى القول بالتحقيق فإنه ليس عنده غيب، وإنما وجود الغيب بالإضافة إلى سواه، وإضافة بعض العلوم إلى بعض.

أتبع ذلك ذكر الموجودات الغائبة عن أكثر العباد، فقال جلَّ قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا

فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(١) [الأنعام: ٥٩].

---

(١) قال القرطبي في «تفسيره»: فيه ثلاث مسائل: الأولى: جاء في الخبر أن هذه الآية لما نزلت نزل معها اثنا عشر ألف ملك، وروى البخاري عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله ولا يعلم ما في غد إلا الله ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله» وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: من زعم أن رسول الله ﷺ يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ﴾ ومفاتح جمع مفتح، هذه اللغة الفصيحة، ويقال: مفتاح ويجمع مفاتيح، وهي قراءة ابن السميقع «مفاتيح» والمفتح عبارة عن كل ما يحل غلقًا، محسوسًا كان كالقفل على البيت أو معقول كالنظر. الثانية: قال علماؤنا: أضاف سبحانه علم الغيب إلى نفسه في غير ما آية من كتابه إلا من اصطفى من عباده، فمن قال: إنه ينزل الغيث غدا وجزم فهو كافر، أخبر عنه بأمارة ادعاها أم لا، وكذلك من قال: إنه يعلم ما في الرحم فهو كافر، فإن لم يجزم وقال: إن النوء ينزل الله به الماء عادة، وأنه سبب الماء عادة، وأنه سبب الماء على ما قدره وسبق في علمه لم يكفر، إلا أنه يستحب له ألا يتكلم به، فإن فيه تشبيهًا بكلمة أهل الكفر، وجهلاً بلطيف حكمته؛ لأنه ينزل متى شاء، مرة بنوء كذا، ومرة دون النوء، قال ابن العربي: وكذلك قول الطبيب: إذا كان الثدي الأيمن مسود الحلمة فهو ذكر، وإن كان في الثدي الأيسر فهو أنثى، وإن كانت المرأة تجد الجنب الأيمن أثقل فالولد أنثى، وادعى ذلك عادة لا واجبًا في الخلقة لم يكفر ولم يفسق، وأما من ادعى الكسب في مستقبل العمر فهو كافر، أو أخبر عن الكوائن المجملة أو المفصلة في أن تكون قبل أن تكون فلا ريبة في كفره أيضًا، فأما من أخبر عن كسوف الشمس والقمر، فقد قال علماؤنا: يؤدب ولا يسجن. أما عدم تكفيره فلأن جماعة قالوا: إنه أمر يدرك بالحساب وتقدير المنازل حسب ما أخبر الله عنه من قوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ وأما أدبهم فلأنهم يدخلون الشك على العامة؛ إذ لا يدركون الفرق بين هذا وغيره، فيشوشون عقائدهم ويتركون قواعدهم في اليقين فأدبو حتى يسروا ذلك إذا عرفوه ولا يعلنوا به. الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ خصهما بالذكر؛ لأنهما أعظم المخلوقات المجاورة للبشر، أي يعلم ما يهلك في البر والبحر، ويقال: يعلم ما في البر من النبات والحب والنوى، وما في البحر من الدواب ورزق ما فيها ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ روى يزيد بن هارون عن نافع عن محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «ما من زرع على الأرض ولا ثمار على الأشجار ولا حبة في ظلمات الأرض إلا عليها مكتوب بسم الله الرحمن الرحيم رزق فلان بن فلان» وذلك قوله في محكم كتابه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

كما قال جلَّ قوله: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل:٧٥].

وقد يكون على حكم تنزيل الخطاب بأن يتوجه المعنى إلى خزائن الغيب ما أخبر به في خزائنه، التي له ما في السماوات والأرض، كالماء ينزله ﷻ من السماء من خزائنه، ثم الماء خزانة لجميع النبات والحيوان والنبات خزانة للحيوان والأرزاق إلى غير ذلك، كما كانت الرياح خزانة للماء.

قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠].

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ * وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر:٢١ - ٢٢] وهذه خزائن قد أعلم بها.

وقال - جلَّ قوله - في تلك: ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:٥٩] فالوجه الأول أولى، والله أعلم.

والعرب تقول للخزانة التي تختزن: مفتح بغير ألف، وتجمعها: مفاتح، ويقولون لما يفتح به الغلق: مفتاح بالألف، ويجمعونها: مفاتيح بالياء.

قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً...﴾ [الأنعام:٦١] معهود فعل صفة القهر فيما سبيله الغلبة للنفوس وصفات الباطن، كما معهود فعل القدرة في إيجاد الأجسام وذوات المقادير، والله ﷻ يحفظ خلقه من أن يصيبهم من أمره ما قد سبق في علمه، وفي تقديره من أمره أن يصرفه عنهم، ثم هؤلاء الحفظة يتعاقبون في الموجودات على رتبة حفظة الأعمال حفظة بالليل وحفظة بالنهار.

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الأنبياء:٤٢].

وقال رسول الله ﷺ: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر...**»[1].

---

(١) أخرجه مالك (٤١٦)، والبخاري (٥٥٥)، ومسلم (١٤٦٤)، وأحمد (٨٣٤١)، والنسائي (٤٨٩)، والبيهقي (٢٢٧١) وفي الشعب (٢٧٠٨)، والطبراني في الشاميين (٣٢٠٤)، وابن حبان (١٧٦٧)، وأبو عوانة (٨٧١).

وقد ذكر الصنفين معًا في قوله جلَّ قوله: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد:١٠] فهذا إخبار منه ﷻ عن إحاطة العلم والتحصيل.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ [الرعد:١١].

ألا تسمع إلى قوله جلَّ قوله: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الأنبياء:٤٢] ولهذا استاق الاسم في هذا الموضع.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ * أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا...﴾ [الأنبياء:٤٢ - ٤٣].

أتبع هذا ما هو في معناه قوله جلَّ قوله: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ ظاهرًا بخطاب أنهم يحفظونه من الموت ما لم يأتِ أجله، فإذا حضر أجله المسمى ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١] أي: في أمر الله لا يفرط الحافظ ولا المحفوظ من أجله، بل يقهر الحافظ والمحفوظ والذي من أجله وله كان الحفظ.

كذلك قال جلَّ قوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٨].

وباطن هذا الخطاب أنه حفيظ من كل ضار ونافع، ومر وحلو ﴿لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾ [التوبة:٥١].

﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ أي: فيما يناوله الحفظ، ولم يتناوله ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام:٦٢] يجزي بالحسنة ثوابها ونورها، وبالسيئة إثمها وظلمتها في القلب ذلك في غير زمان أو يعفو.

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله جلَّ قوله: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً...﴾ [الأنعام:٦٣] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:٦٤] فأخبر جلَّ ذكره أنه ينجي بعوارض وأسباب؛ بالدعاء والصدقة وصالح الأعمال، كما يأخذ ﷻ بعوارض وأسباب وهي الذنوب والمعاصي ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٤] ولما كان من سننه جلَّ ذكره أن ينجي بعوارض وأسباب، وربما أخذ بها فأهلك كان ذلك

لبعضهم فتنة.

قال الله ﷻ: ﴿قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:٦٤] أي: بالأسباب العارضة التي بها أنجى، وأهلك كقولهم: لولا فلان، ولولا الريح، ولولا كذا، وإنما هي عوارض وأسباب، وقد قدرها الله ﷻ للإنجاء والأخذ من معصية وطاعة، أو ما شاء من ذلك لما شاء.

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَـٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنعام: ٦٥ - ٧٠].

قوله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ القَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام:٦٥] الخسف والحدث أو ما يكون من عذاب يخرجه من الأرض، وهاتان وإن كانتا مما يحذرنا باستصحاب الحال، فهما أيضًا مستعملتان لوجه آخر يتوجه الخطاب إليه.

انتظامه بقوله جلَّ قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ الله أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ [الأنعام:٤٠].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ [الأنعام:٤٦].

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ الله بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا القَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام:٤٧].

ثم بعد هو ﷻ يوجه الخطاب إلى وصف القدرة والمشيئة، ويعرض بالعقوبة

وشدة الأخذ، وربما وجه الخطاب إلى الأخذ والبطش بالجزاء، وعرض بوصف العزة، رجع الخطاب: قال رسول الله ﷺ: «**سيكون في أمتي قذف وخسف**»[1].

وقال ﷺ: «**من أشراط الساعة كذا وكذا، وخسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب**»[2].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿**أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ**﴾ وهاتان وجدتا في الأمة سنة قتل عثمان ﷺ، وهو سيف الله جلَّ ذكره لم يغمد إلى هلم جرًّا، نسأل الله العفو الغفور معافاته ومغفرته في الدنيا والآخرة.

أتبع هذا قوله جلَّ قوله: ﴿**انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ**﴾ [الأنعام:٦٥] أي: مبعث الجزاء من حيث هو، فإن الفقه هو معرفة حقيقة الأصول المنتزعة عنها الفروع.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿**وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الحَقُّ**﴾ [الأنعام:٦٦] يريد ﷻ: النبأ والقرآن.

﴿**لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ**﴾ يريد: أجله ووقته المنتزعة عنها الفروع ومحله ﴿**وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ [الأنعام:٦٧] إنذار منه ﷻ بما هو كائن من ذلك.

قوله ﷻ: ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ...**﴾[3] [الأنعام:٦٨] آيات الله يكون المراد بذكرها هاهنا: الوحي والتنزيل الذي هو القرآن والحكمة.

وقد يكون المراد بها آياته في مخلوقات، كقوله جلَّ قوله: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَيْلِ وَالنَّهَارِ...**﴾ [البقرة:١٦٤].

وكقوله جلَّ قوله: ﴿**الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ الله بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي**

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٢١٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٠١)، والطيالسي (١٠٦٧)، وأحمد (١٦١٨٨)، وأبو داود (٤٣١١)، والترمذي (٢١٨٣) والنسائي في الكبرى (١١٤٨٢)، وابن ماجة (٤٠٥٥)، وابن حبان (٦٧٩١).

(٣) نقل الواحديُّ أنَّ المشركين كانوا إذا جالَسُوا المؤمنين وَقَعُوا في رسول الله ﷺ والقرآن، فَشَتَمُوا واستهزءوا فأمرهم ألَّا يقعدوا معهم حتى يَخُوضُوا في حديث غيره، والخَوْضُ في اللغة عبارة عن المُفاوضةِ على وجه اللَّعبِ والعبثِ.

﴿صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ....﴾ [غافر:٥٦].

إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر:٥٩].

إلى قوله جلَّ قوله: ﴿الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ....﴾ [غافر:٦٥] حيث جاء في الوجود من الوحي والعالم، والخوض ترداد كلام خارج على سنن الهوى والشهوات مشوب فيه الحق بالباطل، مرادهم بذلك تنقص الرسول ﷺ، وما أرسل به، وأخذ أعراض المؤمنين، فالجدال المذموم في آيات الرسل أن ينسبوها إلى الباطل، كما قال جلَّ قوله: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ﴾ [غافر:٥] كما قالوا فيه: سحر وجنون، وكهانة وأساطير الأولين.

والجدال المذموم في الآيات التي جعلها الله في السماوات والأرض، وهو أن يحرف الآيات التي يخوف الله بها عباده، من معارف الحق الكائن بعد الموت يوم القيامة في دار القرار إلى أن يلحدوا بها إلى معارف من الحق الكائن معهودة كائنة عن كائنات متعارفات، فإن ذلك يؤثر التأنس بها، وعدم الخوف عندها يعدلون بها عن حقيقة ما أوجدت له إلى ما يبطل الانتفاع بها، فقد كان الرسول ﷺ إذا غيمت السماء اصفرَّ لونه ودخل وخرج، وإذا أمطرت سري عنه، فقيل له في ذلك، فقال ﷺ: «**وما يدريني لعله كما قال قوم هود** عليه السلام: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف:٢٤]»[1].

وكان نزول هذه الآية؛ أعني: قوله جلَّ قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام:٦٨] والإيمان بعد لم يظهر ظهور علو غلبه، فلما أظهر الله الإسلام، وجاء بالفتح والنصر نزل آيات القتل والقتال وتخرجكم هذه، وما هو في معناها إلى حال ذلك ووقته. انتهى.

أتبع هذا بقوله جلَّ قوله: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ هم أهل الكتابين.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الأنعام:٧٠] «أن» وما بعدها بتأويل المصدر، ومعنى الإبسال: الارتهان والمنع والخذلان، والإسلام من

---

(١) أخرجه ابن ماجة (٤٠٢٤)، والنسائي في الكبرى (١٨٣١).

أسلمت فلانًا فأنا أسلمه، فالإبسال كلمة معناها مركب، من معاني هذه الكلمات يقال: أسد باسل؛ بمعنى: منيع لا يُقرب، فمن مُنع الجنة والرحمة فقد ارتهن بعمله، ومن لم ينصر فقد خُذل، ومن خُذل فقد أسلم إلى المكروه والعذاب.

﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنعام: ٧١ - ٧٦].

أتبع هذا قوله جلَّ قوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ الله مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ [الأنعام:٧١] كالمشركين بالله والكافرين بالله والكافرين بكتابه، وكالذي فعلتم أنتم ركبتم أهواءكم، فكتمتم ما استحفظتم من كتاب الله عندكم، فاستعملتكم الشياطين بالهوى كما فعلت بأولئك، فصرتم من أجل ذلك حيارى في الأرض، هذا في أهل الكتاب خاصة.

فلا أنتم عملتم بكتابكم المأخوذ عليكم الميثاق فيه، ولا اتبعتم ما جاءكم من الهدى والقرآن، ولا رضيتم الشرك والكفر دينًا؛ لتبيان ضلالته، فتحيرتم ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾[1] فضَلَّ في مهامة الأرض ومتألفها ﴿لَهُ

---

(١) اعلم أنه تعالى وصف هذا الإنسان بثلاثة أنواع من الصفات: الصفة الأولى: قوله: ﴿اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾ وقرأ حمزة: «استهواه» بألف ممالة على التذكير والباقون بالتاء؛ لأن الجمع يصلح أن يذكر على معنى الجمع، ويصلح أن يؤنث على معنى الجماعة. الصفة الثانية: قوله: ﴿حَيْرَانَ﴾ قال الأصمعي: يقال: حار يحار حيرة وحيرًا، ومعنى الحيرة هي التردد في =

﴿أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾ محمد وأصحابه - عليهم السلام - يدعونهم إلى الهدى، فيقول أحدهم لداعيه إلى الهدى: ﴿ائْتِنَا﴾ فادخل فيما نحن فيه، وأنزل ما أنت عليه من هدايتك ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:٧١] ولم يقل: «وأمرنا أن نسلم» وإنما ذلك - والله أعلم - لما في سياق الخطاب من معنى الهداية والدعاية، فيمكن أن يكون تقدير الكلام: إن دعاية الله أو هداية الله؛ لنسلم لرب العالمين هو الهدى.

أو يكون على تقدير محذوف عطف عليه بقوله جلَّ قوله: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ﴾ فعطف ﷻ على ما في الخطاب من معنى الأمر، وتناول العزم والوجوب به الجملتين، ثم استمر على قوله الحق ﷻ إعلامًا بشأنه، وتعريفًا بقدره ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٧٢].

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:٧٣].

وفي ذكر هذا كله وما تقدم ذكره مبعث وإشارة إلى النظر في الملكوت، وأنه سبيل الإسلام والإيمان والعلم الموصل المحيط، وبما حواه في الغيب والشهادة، وهو العلم الذي يشرف به عالمه على مطالع الدنيا والآخرة.

أعقب ذلك بقوله الحق جلَّ قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ﴾ [الأنعام:٧٤] ذكر أن آزر كان اسم أبي إبراهيم، وإنما كان اسمه: «تارخ» فربما كان ذلك له لقبًا

=

الأمر بحيث لا يهتدي إلى مخرجه، واعلم أن هذا المثل في غاية الحسن؛ وذلك لأن الذي يهوي من المكان العالي إلى الوهدة العميقة يهوي إليها مع الاستدارة على نفسه، وذلك يوجب كمال التردد والتحير، وأيضًا فعند نزوله لا يعرف أنه يسقط على موضع يزداد بلاؤه بسبب سقوطه عليه أو يقل، فإذا اعتبرت مجموع هذه الأحوال علمت أنك لا تجد مثالاً للمتحير المتردد الخائف أحسن ولا أكمل من هذا المثال. الصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿لَهُ أصحاب يَدْعُونَهُ إِلَى الهدى ائتنا﴾ قالوا: نزلت هذه الآية في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ﷺ فإنه كان يدعو أباه إلى الكفر وأبوه كان يدعوه إلى الإيمان ويأمره بأن يرجع من طريق الجهالة إلى الهداية ومن ظلمة الكفر إلى نور الإيمان. وقيل: المراد أن لذلك الكافر الضال أصحابًا يدعونه إلى ذلك الضلال ويسمونه بأنه هو الهدى وهذا بعيد، والقول الصحيح هو الأول. [تفسير الرازي (٦/٣٢٨ - ٣٢٩)].

فالله أعلم، فإن كان ذلك كذلك فهو من المعاونة والمظاهرة لقومه على اتخاذ الأصنام آلهة من دون الله تعالى وجلَّ ذكره، وعلى ذلك قرأها الأعمش: «**إزرًا أتتخذ أصنامًا آلهة**» بكسر الهمزة وسكون الزاي وبالتنوين والنصب.

وقرئ أيضًا: «**أعضد يعتضد من دون الله**».

وقال: إن اسم أبي إبراهيم لم يكن آزر كان اسمه تارخ.

وقرأ أُبي: «**آزر اتخذت**» بالتاء بلفظ الفعل الماضي.

وقرأ غيره: «**أأزرًا أتخذ أصنامًا آلهة من دون الله**» بهمزتين مفتوحتين ساكنة الزاي على سنة الاستفهام، وكذلك قرأها الحسن وابن عياض.

وقرأ قتادة: «**يوم ينفخ في الصُّوَر**» بضم الصاد وفتح الواو، وعلى الجمع؛ أي: صور الناس.

وقرئ: «**ملكوث السموات والأرض**» بالثاء ثلاث نقط، وقال: هو بالسريانية: ملكوت.

وقرأ أبو السمال: «**ملْكوت**» بإسكان اللام، فقوله جلَّ قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ...﴾ [الأنعام:٧٤] منتظم بمعنى ما تقدم من ذكر الهداية والضلالة، وليعلم ببعد ما بين من علمه الله، أو هداه إليه هداية أو فطرة، وبين أشرك بالله سواه.

أعقب ذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:٧٥] عطف بالواو في قوله جلَّ قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ﴾ وشبه بالكاف إشارة إلى ما تقدم ذكره من هداية، وعلم فطرة وصديقية، وعلم أسماء في قصة آدم ﷺ، وغيره من المهتدين.

وقال: «نري» ولم يقل جلَّ قوله: «أرينا» وقد تقدم علم إبراهيم ﷺ وعلمه، أرى والله أعلم أن مخرج علم هذا من قول رسول الله ﷺ: «**نحن الآخرون السابقون**»[1] وأن حين التقدير وترتيب الكلام كانت البراءة من الآخرين، كالجزاء سواء خلافًا للإيجاد الموجود من آدم ﷺ، وإلى ما بعده ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ

---

(١) أخرجه البخاري (٨٣٦)، ومسلم (٨٥٥)، والنسائي (١٣٦٧)، وأحمد (٧٣٠٨)، والشافعي (٦٠/١)، وابن خزيمة (١٧٢٠)، والبيهقي (٥٣٥٤).

مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:٨٨].

الملكوت هو فعل الملائكة - عليهم السلام - بأمر الله ﷻ في جميع الموجودات من تدبير بجميع التقدير من تدبير وإمساك، وإزالة واضمحلال، وإنشاء وخلق، وتبليغ وتنفيذ، وإنباء بعضهم وجميع ما هو الأمر المسخر به السماوات والأرض من خلق وقوى، وتجديد خلقة وإخلاق إلى ما وراء ذلك لا يعلمون إلا بأمره، ولا خروج لهم عن حكمه، فهذا هو المسمى الملكوت مأخوذ من الملك، والملك عطف بالواو، وأدخل لام كي في قوله جلَّ قوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾.

تقدير الكلام والله أعلم: نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض؛ ليؤمن بالغيب، ويزداد إيمانًا إلى إيمانه، فرفعه بذلك إلى محل النبوة والخلة العليا، وليكون من تبعه على ذلك، واقتدى به من الموقنين كما قال صلوات الله وسلامه عليه: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم:٣٦].

واعلم أن برؤية الملكوت يشرف على مطالع الدنيا والآخرة، فيشاهد الآخرة من الدنيا، وذلك هو اليقين، وفي ذلك اليقين معلوم الغيب برؤية الله جلَّ ذكره والملائكة ولذلك وهو أعلم استاق ذكر الكوكب والقمر والشمس، كما قال رسول الله ﷺ: «**كما ترون الشمس وكما ترون القمر**»[1].

واتصل ذلك بما في قوله جلَّ قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ...﴾ [الأنعام:٧٤] من وعظه إياه.

وقوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ [الأنعام:٧٤] كما قال: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم:٤٢].

وكقوله: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات:٨٦ - ٨٧] وهذا كلام عن علم يقينًا أن جميع الموجودات مفتقرة إلى موجدها ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه في جميع إيجادها ووجودها، وأنها بمنزلة السوامع المتعبد لها، لا تملك ضرًّا ولا نفعًا ولا تغني عنه شيئًا.

ثم استاق ذكر الكوكب وجعل البراءة منها علة للأفول، وذلك اعتماد منه على

---

(١) تقدم تخريجه.

الرؤية مع ما في ذلك من طريق النظر، وسنن التفكر وكيف الاعتبار، وإنه صعود في مكان منظور فيه معتبر به إلى ما هو هذا آية عليه ودليل إليه، وكانت رؤية النيرات الكوكب والقمر والشمس آيات على رؤيته لما لها من نور وتبعها من أمر ﴿**اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ...**﴾ [النور:٣٥].

وأما تبرؤه ﷺ من الكواكب لأجل أفولها فيما سبق إليه من وحي، أو تعريف بأن الحق المبين لا أفول له؛ إذ الأفول فقد وعدم وجود، مع ما في ذلك من تنقل وتغير وقطع مسافة، وليس كالحجاب فإنه يحجب عنه خليقته ويحتجب عنها، وبما شاء وكيف، لا إله إلا هو العلي الكبير.

وأما الإشارة إلا من اتبعه واقتدى به في ذلك يكون من الموقنين، فإن أمرًا سخر له الشمس والقمر والنجوم والسماوات والأرض والجبال، وأوجد الموجودات على أنواعها لأمرٍ حق وحكم عزم؛ إذ العبث لا يجوز في حكمته، وأفعال اللعب تستحيل على نعوت تعاليه وأوصاف كبريائه.

وقد وصف ما هو فاعله ووعد بما هو جاعله من تقويض هذا البناء، وتبديل الأرض والسماء، وسريان الشمس والقمر وجميع الكواكب، وتسيير الجبال، وأن شيئًا سواه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه لا يملك نفعًا ولا ضرًّا، وإنما يملكه هو لا سواه، وأن الأمر من الدنيا إلى ما هو مستقبل مؤسس على حكم الشيء من صغير إلى كبير، كما تقدم الإيجاد من مبدأ الأمر إلى هلم جرًّا، فعظم الأمر وجلَّ الخطر، وتحقق الإيمان بالغيب كالوجود.

قال رسول الله ﷺ: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كإصبع أدخلته في اليم، فانظر بما تخرج منها**»(١).

ومفهوم قوله: إن الذي يخرج به الإصبع من اليم هو ماء، وعلى قلته فهو ماء اليم، فالدنيا إذًا منتزعة من الآخرة يسير من كثير، وصغير من كبير، كالماء الخارج

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٨)، وابن ماجة (٤١٠٨)، وأحمد (١٨٠٤٣)، والحميدي (٨٥٥)، وابن أبي شيبة (٣٤٣٠٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٤٥٩)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٨٣٥)، وابن حبان (٦١٥٩)، والطبراني (٧١٣)، والقضاعي (١٣٨٧)، وهناد (٥١٧).

من البحر مع الإصبع، وأن المثل المذكور منه ﷺ للتقريب كمثل الخضر لموسى عليه السلام في قوله وقد نقر عصفور من حرف السفينة في لجة البحر نقرة أو نقرتين، وهو يومئذٍ في مجتمع البحور، وهو أكثر ماء على وجه الأرض: «**ما علمي يا موسى وعلمك في علم الله ﷻ إلا كنقرة هذا العصفور من هذا البحر**»[1] وعلم الخضر وموسى كان من علم الله ﷻ، وكذلك موجود الدنيا هو من موجود الآخرة.

سهل على إبراهيم المأتى في العبرة من دليل إلى ما هو مدلول عليه، ومن إشارة إلى ما هو مشار إليه؛ إذ معرفها والمشار إليه بها، والمشهود له بها إنه جاعلها ومسخرها هو الحي القادر العالم المريد المدبر الحكيم، وإنهن كما هن مدبرات لا تستغني عن مدبر قادر مصرف.

كذلك قال عزَّ من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ إلى قوله: جلَّ قوله: ﴿مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: الحق الذي إليه المصير، فاعبر - وفقك الله - مما نشاهده هنا إلى حق فيما هنالك، واحكم بالمماثلة من قليل هنا إلى كثير هناك باقٍ، ولا يفنى، كذلك قال: ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام: ٧٧ - ٨١].

قوله تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ...﴾ [الأنعام:٨٠] محاجتهم إياه أن أضافوا ما قد

---

(١) تقدم تخريجه.

جعل الله جلَّ ذكره لهن من أمره في طلوعهن، وحلولهن في محالهن من أفلاكهن مع اختلاف الأوقات والشهور والأزمان، وما قد حفَّ بذلك الأمر من ملائكته - على جميعهم السلام - لتنفيذ ذلك الأمر عنه بإذنه يقولون، وبإقراره إياهم يعملون.

يقولون له: ألا ترى ما تصنعه الشمس من أمر كذا وكذا والقمر؟ وربما عددوا منافع ومضار جعلها الله من أمره كما تقدم، فكان ذلك له هداية، وفي حقهم فتنة وعمى عن رؤية الفاعل المسخر المدبر - جلَّ وعلا - فاكتفى عليه السلام بما هو من عنده من علم الله ﷻ، وتدبيره بها الكفاية كلها، فقال: ﴿**أَتُحَاجُونِّي فِي الله وَقَدْ هَدَانِ**﴾ [الأنعام:٨٠] يقول: وقد هداني إلى أن كل ما تذكرونه من أمر تضيفونه إليهن، فهو أمر الله وتدبيره وحده لا شريك له، وحرفوه بما زعموا أنه كائن عنهن في حال طلوعهن وغروبهن، ومقابلتهن على نسب يتظننونها أوجدوها، حقيقتها لله جلَّ ذكره وهو الأول فيها، والآخر والظاهر والباطن.

كذلك قال قوم هود عليه السلام: ﴿**إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ**﴾ [هود:٥٤] فقال إبراهيم عليه السلام: ﴿**وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ**﴾ [الأنعام:٨٠] ولو تذكروا لأبصروا أن كل الأفاعيل التي يظنونها عندها هي من الله ﷻ، وقد وقَّت لكل مفعول ظهورًا، وشرَّع لمخرجيه ومظهريه من الملائكة المدبرات الأمر - عليهم السلام - أن يظهروا تلك الآيات بإذن الله، ومشيئته عند طلوع الشمس والقمر أو أي الكواكب كان، أو غروبها، أو توسطها السماء، أو مقابلتها لسواها، وعلى نسب معلومة محدودة قد حدَّها ﷻ لمدبرات الأمر من الملائكة عليهم السلام.

وكما قد أمرنا نحن بامتثال فعل الصلوات في أوقات مطالع الفجر الكائن عند ظهور ضوء الشمس قبل طلوعها واستوائها، وحال جنوحها إلى الغروب وقت غروبها عند غروب الشفق الكائن، عند بقايا ضيائها بعد غروبها، وجعل ﷻ ذلك على حدود معلومة في كل صلاة أوائلها وأواسطها وأواخرها، كل ذلك بحدود جريان الشمس وظهور الظلام وزواله.

ولا يقال: إن صلاتنا هي للشمس، ولا أن عبادتنا هي للكواكب لأجل ذلك، وكذلك جعل حد الصيام طلوع الفجر، والفطر غروب الشمس، وقال ﷺ: «صوموا

لرؤيته وأفطروا لرؤيته»[١].

وجعل وقت أداء الزكاة حلول الحول، وهو كون الشمس في موضع بدئها من أول، فافهم.

وكذلك الحج هو في شهر معلوم في أيام معدودات، ومعدودات من ذلك الشهر، فهذه شرائعه ﷻ التي شرعها لنا؛ لنصل بها إلى مرضاته، فهذه الكواكب كذلك شمسها وقمرها، وغيرهن من ذوات الأمر شرع لهن بشرائع، وجعل المقومين لهن ملائكة - عليهم السلام - تيسيرًا لهن، وتسخيرًا لمنافع عباده إلى أن يأتي أمر لتقويض البناء، وتبديل الأرض غير الأرض، فيكون الأمر كله من لدنه، ذلك هو الحق المبين.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام: ٨٢ - ٨٨].

فعلى هذا وصلك الله فاعمل، ولا يجرمنك شنآن قوم قصرت علومهم، فقصرت به هممهم عن الوصول إلى العلي الكبير، فلمعرفة هذا وما هو منه أعلى مدح الله ﷻ خليله الكريم بقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:٨٣].

---

(١) أخرجه البخاري (١٨١٠)، ومسلم (١٠٨١)، والنسائي (٢١١٧)، وابن حبان (٣٤٥٧)، وأحمد (٩٥٥٢)، والطبراني (١١٧٥)، والترمذي (٦٨٤) وقال: حسن صحيح، والبيهقي (٧٧٣٣)، والحاكم (١٥٤٧)، والدارقطني (١٥٩/٢) والطيالسي (١٨١٠).

واقضِ أن تلك الأفاعيل التي يضيفونها إلى الكواكب إنما هي أفاعيل الملائكة - عليهم السلام - بأمر الله ﷻ لتوقيت مؤقت عندما يظنونه من مطالع ومغارب ومقارنة، يقول ﷺ: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ [الأنعام:٨١] فأي الفريقين أحق بالأمن؛ مَن كان مطالبه الحي القيوم الملك الحق المبين أم مَن كان لا قدرة به ولا حياة ولا علم ولا تبعة له ولا حقيقة؟! فحكم الله ﷻ بحكمه الحق وقضى بالفصل، وهو أحكم الحاكمين بقوله الحق: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي: بشرك كبير ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢] الهداية.

ثم بعد هذا الله جلَّ ذكره حَكَمَ فصل في عباده المذنبين الظالمي أنفسهم بذنوب أصابوها، وهو موضع الشبهة من العلم في حقنا، غير أن من حكم الله ﷻ في كثير من عباده المؤمنين الذين لم يلبسوا إيمانهم بشرك، ولا شك أنه يكفر عنهم سيئاتهم بأمراضهم وأوصابهم ومصائبهم، وبالشدائد تصيبهم، واللأواء صغيرة ذلك وكبيره، لا يظلم من ذلك كله مثقال ذرة.

ولما نزلت: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء:١٢٣].

قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وقد جزع لظاهرها: «**يا أبا بكر، ألست تمرض؟ ألست تسقم؟ ألست تصيبك اللأواء؟.......**»[(١)].

ثم استمر ﷻ على ذكر الأنبياء والرسل من الأولين والآخرين - صلوات الله عليهم أجمعين - وعمَّ وخصَّ وأحال على ما لم يسمِّ، فذكر معهم آبائهم وإخوانهم، ومن اجتباه وهداه، ومن آتاه النبوة والحكم، وهذا كله مدرك للإيمان بملكوت السماوات والأرض:

فمنهم: العموم بالإضافة إلى العلية منهم، وهم الإخوان والأتباع والآباء

---

(١) أخرجه أحمد (٦٨)، وأبو يعلى (١٠٠)، وابن حبان (٢٩٢٦)، والحاكم (٤٤٥٠)، والبيهقي (٦٣٢٨) وفي الشعب (٩٤٦٦)، وهناد (٤٢٩)، وابن عدي (١٩٢/٥)، وابن جرير (٢٩٤/٥)، والضياء (٦٩). اللأواء: الشدة والمشقة وضيق المعيشة.

والأبناء كعموم المؤمنين في الجملة.

ومنهم: من أتم عليهم النعمة وبلغ به درجة النبوة، فافهم، وهذا هو الطريق فالزمه، وهم الذين هداهم الله فبهداهم اقتده، وسله التوفيق والتسديد والصدق والإخلاص.

فصل

ذكر الذين تعاطوا معرفة أجرام الكواكب، وأبعاد الأفلاك تزعموا أن الشمس أكبر من الأرض بمائة وثمانية وثمانين ضعفًا، ومنهم من زاد على ذلك بثلاثمائة ضعف، وكذلك قالوا في القمر وسائر الكواكب بالزيادة على الأرض، وفاضلوا بين ذلك، فإن كان المعنى فيهم بموضع المضاعفة طريق الشمس في فلكها من مشرقها إلى مغربها، ثم بمصعدها في أعلى مسالكها في ذلك، ومنازلها إلى أدنى ذلك من المشارق والمغارب، فربما قاربوا أو ظن بهم ذلك، وإن كان هذا غير مدرك لبشر من غير توقيف نبوة، ولا إعلام بوحي من عند الله.

وإن كان المعني بذلك قرص الشمس، فالمشاهدة تبطل ذلك، وإنما أوقعهم في هذا التهافت ما رأوه من أمر الله المجعول فيها وبها؛ وذلك أن الله جلَّ ذكره جعلها شخصًا محاطًا به محصورًا له، مقدم ومؤخر، وجنبات رفعه الله ﷻ في لوح الجو، وأجراها في الفلك الرابع الذي هو بموضع الوسط من الأفلاك، فلك القمر دع عنك ما دون ذلك من فلك الرياح، وفلكي الليل والنهار، وفلك المياه، وهي جسم نيّر سراجي عمَّ ضياؤه ما سمي نهارًا، فكان ذلك سبب شهرتها.

واضطرار الإبصار إلى رؤيتها دون تضام من أحد إلى أحد، ولا تضار حال الرؤية؛ لعلوها في الأجواء، وإشراق ما جعله الله ﷻ في ضيائها وثاقب سناها، جعلها الله ﷻ آية من آياته، وعلي موجودات في الدار الوسطى والدار الآخرة، ولله المثل الأعلى في السماوات والأرض، وهو أعلى وأجل وأقدر على ما هو أكبر وأبين بيانًا وأحق حقيقة وأكرم ظهورًا، ولها من القصور أن تطلع على الأرض كلها طلعة واحدة، بل هي طالعة في حق قوم وضاحية في حق آخرين، ومستوية آية ذلك في طلوع الفجر وعند غروبها، وأن حال الغبسين لا ثابت لا يتعجل عن وقته ولا

يتأخر، تقدير من عزيز عليم.

ثم قد تنكسف فينكسف منها جزء، فيشاهده قوم ولا يشاهده آخرون، ويتم كسوفها في ضمنها كالنقطة، والمعهود المتعارف أن ظلال الأشخاص تعظم مع القرب، وتستدق على البُعد، وفي مثل ما بين الأرض وبينها يوجد ذلك، وذلك كله دليل على قصورها، ونقصها عن العظم الذي وصفوها به.

أما أنها لمن آلاء الله جلَّ ذكره ومن آياته، قال رسول الله ﷺ في حديث ابن المُنْتَفِقِ وقد سأله عن الرؤية، فقال: يا رسول الله بِم يُبصر يومئذٍ؟ قال ﷺ: «**بمثل بصرك ساعتك هذه**» وذكر كلامًا فيه أنه سأله، فقال: يا رسول الله، كيف وهو شخص واحد يراه أهل الأرض كلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أريك مثل ذلك في آلاء الله الشمس والقمر، هما شخص واحد ويريانكم، ولعمر إلهك لهو قادر على ذلك منهما**»[1].

وهذا نص منه على ما عجزا عنه من الظهور على جميع الأقطار زائدًا، إلى ما في ذلك من الأخبار عن نقصهما عن الكمال الذي هو الإبصار، والقائلون بما تقدم ذكره من عظم أجرام الكواكب هم القائلون حقًّا: إنهما لا يطلعان على جميع الأرض.

فصل

يقال لجميع الملائكة عليهم السلام: ملك.

قال الله ﷻ: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ [الحاقة:١٧].

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢] يعني: جميع الملائكة - عليهم السلام - فهو إذًا لتكثير اسم الجميع، وتفخيم لمفعولهم، وتعظيم وصفهم له بالإحكام وحسن التماسك وبديع الترتيب؛ لأنهم - عليهم السلام - إنما يعملون بأمر الله ﷻ وبمشيئته، فإحكامهم في مفعولهم هو موجود عن إحكامه جلَّ ذكره وواقع على وفق مشيئته.

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٦٣٥)، والطبراني (١٥٨٠٩)، والحاكم (٨٨٣٤).

وقد جعل الله ﷻ لكل موجود وجودًا من الملائكة - عليهم السلام - ما يطابقه يكون فعله في وجود ذلك الشيء إيجادًا له وإعدامًا وإنشاء، أو ما يكون في سبيل تنفيذ أمر الله جلَّ ذكره من ذلك، فالملكوت إذًا مأخوذ من جمع ملك، وينضاف إلى ذلك آية وصف لمفعولهم بالإحكام والإبداع وحسن التماسك كما تقدم.

والعرب تقول: «ملكت العجين» إذا أجادت عجنه، وبذلك يكون تماسكه، كرهبوت من رهبة، ورغبوت من رغبة ورغب، فكذلك ملكوت من ملكة وملك.

وأقرب سبيل تسنن على تعرفه فيما أعلمه - والله أعلم - معرفة الأسماء والعلم بمسالك طرقها في العالم، وعلى القول بالعموم وكشف المعنى، فمعرفة الحق المخلوق به السماوات والأرض وكل شيء، وكل ذلك موجود في علم الأسماء والصفات العلا، ومن ذلك تدقيق النظر في تعرُّف جمع مواد المخلوقات، وتعرف دقائق مسالك النشء فيها، من جواهر وأعراض وأحكام وخلق وأمر.

وبالجملة: فما كان تتميمًا للكلمات من سننه المتممة لذلك، ثم على ظهور ذلك المفعول واجتماعه، فعبَّر عنه بلفظة الملك، وقد يعبر بالملك عما يؤول إليه ﷻ الدنيا إلى ما هي الآخرة من سماوات وأرضين ومعاني الدار الآخرة، وهو قوله جلَّ قوله: ﴿وَلله مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٨٩].

وقوله: ﴿وَلَهُ المُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [الأنعام:٧٣].

وقد يعبر بلفظ الملك عما هو سلطان الله في مملكته، وقدرته في مقدوراته، وجبروته وكبريائه، وأمَّا من حيث الموجود المخلوق فهو جَمْع موجود المخلوقات من الأرض والسماوات وما فيهن، وما بينهن إلى ما علا وإلى ما سفل، ثم ما يكون عن ذلك، وما يؤول إليه من وجود الدار الآخرة، والخلق والأمر من قبل ومن بعد، وتعرُّف ذلك من قوله جلَّ ثناؤه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ...﴾ [الملك:١] إلى قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك:٥].

وتبين في ذلك ما فطر الجملة عليه من شرعه الواضح المنهج وسننه النيرة، وسننه التي لا أمت فيها، ولا عوج في الأولى وفي الآخرة وفيما بين ذلك، وسيأتي شرح ذلك إن شاء الله ﷻ في موضعه.

فصل

قال الله جلَّ قوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣].

وقال رسول الله ﷺ: «**إذا قضى الله الأمر في السماء سمعت الملائكة له كوقع سلسلة على صفوان، فتضع الملائكة أجنحتها خضعًا للأمر، ويسبحون حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق**»[1] أي: أعلمهم؛ يعني: حملة العرش من ذلك المسموع ما هو الحق، ثم يسأل الذين يلونهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ فتخبرونهم، ثم كذلك تسبح ملائكة كل سماء سماءً سماءً، ويبلغ التسبيح ووضع الأجنحة منهم خضعانًا؛ لورود أمر الله والتساؤل، والإخبار منهم للسائلين مبلغ الأمر والتنفيذ، وتستدير الدوائر كل دائرة على التي هي دونها، والتي دونها تستدير على دوائر دونها، وحكم الأعلى ينظم الأسفل، فمن مفرد يعمل، ومن جامع لما تحته مفرد يعمل، ومن جامع لما تحته مفردًا أيضًا.

هكذا إلى ما يكون منها هي في مصافها كالدقائق، ودقائق الدقائق المفصلة على التحصيل الإلهي، وكالجواهر التي تتركب عنها الأجسام كلها، والأمر في تلك الجواهر محمول حمل الجواهر الأعراض والملائكة - عليهم السلام - يسبحون بحمد ربهم عالمون بأمره، وذلك ما يخرجه الله ﷻ من أمره من فيح جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - إلى ما ها هنا.

وما يفتحه من رحمة بالماء عن أمره فتستديره الدوائر، فيكون الحاصل من ذلك ما يخلقه الله ﷻ من نبات وحيوان، وحرورر وزمهرير، واختلاف وأهوية وعوارض، وما يكون بين ذلك من إنشاء جنات وزروع وإيجاد موجودات، فمن دافع وجاذب، وماسك ومقيم، ونازع وناشط، ومغذٍ وهاضم إلى غير ذلك من مصور ومدبر، وحافظ ومرسل، ومبلغ وكتبة، وطلبة يطلبون المحفوظ ما قدر له من أمر، وحفظة يحفظونه من أمر لا يقدر، وكلٌّ حكم الله وأمره وقضاؤه وقدره،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٢٤)، والترمذي (٣٢٢٣)، وابن ماجة (١٩٤)، والحميدي (١١٥١)، وابن حبان (٣٦)، وابن منده في الإيمان (٧٠٠). فزع عنهم: كشف عنهم الفزع.

والإنشاء مكنون، والنشء مشاهد والصنع مخفي، والمصنوع قائم بين مقتبل ومدبر وممسك.

وهذا تبيان لما هنا لك وآية عليه؛ إذ الملائكة - عليهم السلام - تنزل عليه بالأمر وتعرج سرمدًا، فينزل أمر كل سماء إلى ما تحته، ويعرج ما هو التحت إلى ما علا، تستدير بحكمه الأفلاك على تدواره وصورة حركته، وأمره الذي حمله على ما هو به، وإلى أدق دوائر من ذي العرش العظيم - جلَّ ذكره وتعالى علاؤه وشأنه - إلى حيث شاء انتهاؤه والنهاية إليه ﷻ، ويعم الأمر بمشيئته ما شاء عمومه وشموله على أنواع تصرفه، وتضاعيف تفصيله، وإفراد ملكوته المجعول له به وعمومه، وتغاير أملاكه المدبرين للأمر المراد منه، وإحاطة ملك الملك الحق ملكوت كل شيء خلقًا وأمرًا.

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود:١٢٣] حتى يشمل المراد الأمر، والتنفيذ بالتدبير شمولاً كليًا، شمول الغذاء جملة الجسم، شافعة في إتمام ما جعل إليهم، وتسبيحًا لله جلَّ ذكره وعملاً بأمره وتنفيذًا لمشيئته، ولا يشفعون إلا فيما ارتضاه من ذلك، ومنهم الجامع لما فوق سواه الأعلى ينتظم الأسفل.

قال رسول الله ﷺ: «**إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطتِ الأرض** - وفي أخرى «**السماء**» - **مكان الأرض، وحق لها أن تئط ما من موضع شبر إلا وعليه جبهة ملك يسبح الله ويقدسه ويعبده**»[1].

وفي أخرى: «**أربعة أصابع**» مكان: «**شبر**».

فقد تبين - وفقك الله - أن معاني الخليقة أكثر أضعافًا من ذواتها هذا في الخلق من جاذب ودافع، وماسك وناشط ومقسم، وكما تقدم بأضعاف ذلك، ثم في الأمر من مدبر وقابض وباسط، ومقدم ومؤخر، ورافع وخافض، وحافظ إلى غير ذلك من تصاريف الأمر، كما تبين أيضًا أن الملائكة - عليهم السلام - الموكلين

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٥٥٥)، والترمذي (٢٣١٢) وقال: حسن غريب، وابن ماجة (٤١٩٠)، والحاكم (٣٨٨٣) وقال: صحيح الإسناد، والطبراني في الكبير (١٧٥١) وفي الأوسط (٣٥٦٨)، وأبو الشيخ في العظمة (٥٠٧).

أكثر أضعافًا من المعاني؛ إذ لكل معنى دافع وقابض وماسك.

ويتبين أيضًا من غير هذا بأول قضية للعقل أن الموات لا يفعل شيئًا، ولا يوصف بقدرة على فعل لا يملكون كشف الضر ولا تحويله، فكيف باختراع وإبداع؟! وبذلك ثبت لنا أن للعالم صانعًا صنعه هو غيره، ومدبرًا دبره هو سواه، حي قادر عالم مريد، له الأسماء الحسنى والصفات الكاملة الحق العلي؛ إذ الحي منا لا يُوجد نفسه ولا غيره، ولا يدبر نفسه ولا غيره، فكيف بحال الموات، وما لا يوصف بحياة ولا قدرة، لولا أن الله ﷻ أوجد له فاعلين كما أراد منهم.

آية ذلك: إيجاد الحركة الإرادية للحيوان والفعل المنسوب إلى القصد، وجعل ذلك كسبًا واستطاعة للمتحرك الفاعل وأضافه إليه، وربما أثاب عليه وعذب، نشأ ذلك في الحيوان البهيمي إلى الإنسان الذي يفعله باختيار، وتدبير إلى المؤمن الذي يخرج أفعاله على رضا مالكه وطاعة خالقه، وأمره إلى الملائكة - عليهم السلام - أرضية ثم هوائية إلى سمائية، إلى ما فوق ذلك إلى الحملة وهم أربعة، وسيحمله ثمانية، كذلك كل شيء دق أو جلَّ، فافهم فهمنا الله وإياك.

قال الله ﷻ مخبرًا عن بعض ما أومانا إليه: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات:١ - ٥].

﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [المرسلات:١ - ٥].

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات:١ - ٤].

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون:٨٨] قل: الله ﷻ.

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٨٣] فأخبرك أيضًا صريحًا أن لكل شيء ملكوتًا، والملكوت إذًا هو تحسين الملائكة - عليهم السلام - وتدبيرهم، وفعلهم على ما شاءه ربهم عزَّ ذكره لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون.

آية ذلك فيما ها هنا حواس الإنسان وجوارحه العمل مضاف إليها من سمع وبصر وحركة وعمل، وكل ذلك عن ذات الحامل لها المدبر المريد بها ما شاء،

وفيما هنالك أحق حقيقة وأكرم وجودًا ﴿لَّا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦] لذلك وهو أعلم أجاز في إخباره عن الخلق والإنشاء، وأكثر الأفعال إدخال نون الجميع كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠] يقول الله جلَّ ذكره للمراد: «كن» وتقول الملائكة - عليهم السلام - دونها تبليغًا عن ربهم؛ لذلك مع إفهام المراد من ذلك كذلك، وهذا يسمى خطاب البسط، فإذا قبض الخطاب، وأضاف إلى نفسه قال وقوله الحق: ﴿وَاللهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [النحل:٦٥].

﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم:٤٠] ونحو هذا وهو كثير.

قوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا﴾ [الأنعام:٧٦] معنى، فلما أظلم عليه الليل ليس حقيقة هذا اللفظ من التغطية، وإن كان يفهم منه ذلك بآخره، ولو كان ذلك كذلك لقال عز من قائل: «فلما جنَّه الليل» وإن كان مسموعًا في كلامهم جنَّه وجنَّ عليه، فإن للقرآن العزيز فضل تحقيق ليس لسواه من الكلام.

ومنه: الجنين، قيل فيه ذلك؛ لأنه في ظلمات ثلاث أظلمت عليه، وإن كان مغطى بالبطن والرحم والمشيمة، فمفهوم الأول والثاني يبين لك أنه بكونه في الظلمات يسمى: جنينًا، وبذلك تمدح تبارك وتعالى في قوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ﴾ [الزمر:٦] أخبر بذلك ﷻ عن اقتداره، وأنه بصير في الظلمات عليم بالخفيات.

كما قال جلَّ قوله: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ القَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد:١٠].

وكقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام:٥٩] ونحو هذا.

ويسمى الجان: جانًا؛ لأنهم خلقوا من نار السموم، وهو اسم عام لجميع الملائكة الذين أعدوا لمجازاة أهل العذاب - صلوات الله على جميعهم - وخلق الله نسل إبليس - لعنه الله - من مارج من النار؛ أي: مختلط النار بالزمهرير.

قال الله ﷻ: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر:٢٧] فهذا هو إبليس - لعنه الله - ومن خلقه الله من الملائكة المعصومين عليهم السلام.

يقول الله ﷻ: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ أي: من قبل خلق آدم ﵇، ومن هؤلاء هم فتانوا القبر وخزنة جهنم، وأصحاب عذاب ما هنالك نعوذ بالله من عذاب الله.

وقال عزَّ من قائل: ﴿وَخَلَقَ الجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن:١٥] كذلك خلق ﷻ من خالص النور ملائكة، هم ملائكة الرحمة أعدهم لمجازاة أهل طاعته.

فصل

قال الله عزَّ من قائل: ﴿وَخَلَقَ الجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ فهؤلاء ولد إبليس لما أهبط كما أهبط آدم ﵇، فانسل فيما هنا كان ذلك منه حيث تنفست جهنم بنفسيها، فخلق نسله من ذلك، كما كان نسل آدم من ذلك مختلط النار بالزمهرير، وكان نسبة النار أقرب إليهم نسبًا؛ لعدم ذلك فيهم، كما كان حظ الطين والماء إلى نسل آدم أقرب لقدم ذلك فيهم.

وأما نور الله العلي فلا ضد له إنما أوجد الضد للمحدث، فطرد النور الظلام إلى منتهاه، وأوجد بينهما برزخًا في موضع التقائهما واختلاطهما، كالبرزخ بين البحرين، والغبشين من الليل والنهار، والخيف بين السهل والجبل، فذلك البرزخ بينهما هي النار أوجد جلَّ وتعالى عنها حجبًا فيما هنالك وأنهارًا جارية، وما شاءه لم يكن ظلمة لما فيها من الضياء، ولا كان نورًا لما فيه من الظلمة.

ولذلك لما ذكر إبليس قال فيه: ﴿كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف:٥٠] فمفهوم هذا إنه كان مهتديًا ففسق؛ أي: خرج عن هدايته، ثم بآخره يفهم من هذا إنه كان من الظلام، فرجع إلى أصله بإغوائه إياه وإزالته عصمته عنه، ووصف الظلام، وفعله الكفر والتغطية، وعبَّر عن خلقته بالطرف الواحد منه، وهو الظلام؛ ذلك لأنه ذكره في معرض الذم له، كما عبَّر عن خلقته الإنسان حين أراد ذمَّه أنه من التراب، وأضرب في ذلك عن ذكر الماء الذي هو موضع الحمد منه، كذلك لما أراده من ذمِّ إبليس أضرب عن ذكر النار التي خلقه منها؛ لما في النار من

ضياء ونفع، ولما فيها من وصف علي.

قال رسول الله ﷺ ووصف ربه ﷻ: «**إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل وعمل الليل قبل عمل النهار، حجابه النور** - وفي أخرى: «**حجابه النار**» - **لو كشفه**» أي: لو كشف الحجاب الذي حجب به خلقه عن البروز إلى حجابه العلي الخاص به «**لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»(١).

فكل نور أو نار فعين النور والنار هو، بل أبقى ذلك في وصف المعصومين منهم على جميعهم السلام، فلأن كان إبليس - لعنه الله - من قُبيل الظلام كان كافرًا عدوًا، ففسق لذلك عن أمر ربه بمشيئة الله جلَّ ذكره في إزالة عصمته عنه وظلم، وإن كان من أهل النار كان عدوًا، وكان رجوعه إليها وعمله لها، ودعاه إلى ما يوجبها بإضلال الله ﷻ له، كما أنه بما في النار من شوب نور كان طائعًا لربه - جلَّ ثناؤه - برهة من النار، وكان من جملة الملائكة، وتوجه إليه الخطاب مع من توجه باسم الملائكة، وكان أيضًا من نسله مؤمنون وكافرون وطائعون لله ﷻ.

ولما كان الملائكة - عليهم السلام - الذين هم الجان خلقهم من نار السموم، وكانت كلمة الله جلَّ ذكره قد سبقت لهم بالهداية، كانوا لها خزنة وسدنة، وملائكة غضابًا لله شدادًا في ذاته ﴿لَّا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

ومن إثارة ذلك قال رسول الله ﷺ، وقد سئل من أكرم الناس، قال: «**خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**»(٢).

وقال في أخرى «**الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا**

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩)، وابن ماجة (١٩٥)، وأحمد (١٩٦٤٩)، وأبو عوانة (٣٧٩)، وابن حبان (٢٦٦)، والطبراني (١٥٨٩) وفي الأوسط (٦٠٢٥)، وأبو يعلى في مسنده (٧١٠٣)، وعبد بن حميد (٤٥٣)، والطيالسي (٤٨٧)، والبزار (٣٠١٨). السبحات: جمع سبحة، وهي: النور والضياء والبهاء.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٥٣)، ومسلم (٦٣١١)، وأحمد (١٦٩٧١)، وابن أبي شيبة (٣٢٣٨٧)، وابن أبي عاصم (١٥٢٧)، وابن عساكر (٦٠/٤١).

فقهوا»[1] ونحو هذا من إشارات الوحي كثير، فهذه عبرة ظاهرة قف عليها.

فصل

هذا هو الملأ الأعلى

قال الله جلَّ ذكره: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص:٦٧ - ٦٩] وسيأتي ذكر اختصامهم إن شاء الله ﷻ.

ثم أعقب ذلك بقوله الحق: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا....﴾ [ص:٧١] ثم إن الله جلَّ ذكره كان قد سبق في قضائه وعلي حكمته أنه أهبط آدم عليه السلام وإبليس إلى الأرض فأنسلا، وكان منهما المؤمنون والكافرون، فسمي نسل آدم: إنسًا، وسمي نسل إبليس: جنًّا.

وأما الملائكة الذين لم يجز عليهم خطيئة الذين هم من قبيل النور وقبيل النار - على جميعهم السلام - فلم يكن من بعدهم من طريق النسل، بل كانوا مما خلق عن النور كالكلام الطيب: التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والتمجيد ونحو هذا، فما كان من هذا فهو للصلاة والذكر والتسبيح، ونحو هذا من العبادات.

ومنهم: المخلوقون من الماء؛ إذ هو أيضًا من قبيل النور، فما كان منهم مخلوقًا من هذا القبيل، فهم الفعلة والقومة، والمنشرون للذكر والعبادة على ما وكلوا به إلى النبات والجماد والتراب، على ما تقدم ذكره من جاذب وماسك ودافع وناشط ومقسم ومصور ومغذٍ وناشر ومنشئ، مع التسبيح والتحميد ونحو هذا، فما كان من هذا فهو للصلاة الفعلة والمفعول معًا ﴿وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤].

وهذه المذكورات من جاذب وممسك وغيرهم من الفعلة سمتها الأوائل: القوى، وجدوا ذلك وجدًا بالنظر، ولم يكن لهم نور نبوة يستضيئون به، فإن كان

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٠٥)، ومسلم (١٨١٨)، وأحمد (٧٣٠٤)، والترمذي (٢٠٢٥) وقال: حسن صحيح، وأحمد (١٠٨٠١)، والبيهقي (١٦٤٣٩)، والحميدي (١٠٤٤)، وأبو عوانة (٦٩٦٩)، وأبو يعلى (٦٠٧٠)، وابن حبان (٩٢)، والديلمي (٦٨٨٠).

أرادوا بقولهم قوى الملائكة، وكان ذلك معهودًا عندهم في لسانهم وعرفهم، يعبرون بقوى عن ملائكة فهو الصواب إن شاء الله تعالى، وإن كانوا أرادوا ظاهر ما ذهب إليه أتباعهم، فهو الخطأ الصرف، وهم يقرون أن تلك القوى موات ولا يصفونها بحياة، وقد تقدمت إشارة إلى إبطال ذلك.

وكذلك تقدم في شرحه اسمه «الحنان» جلَّ ذكره تفسير قولهم: ما هو الجِن والبِنّ، وأن أصل ذلك في جبلة العالم من ممتزج نفسي جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - رحمته بالماء، فكان لذلك معنى معهودًا في موجودات الجماد والنبات والحيوان، فلما أهبط الله ﷻ آدم - صلوات الله وسلامه عليه - وزوَّجه إلى الأرض حنَّ إليه من ذلك ما حنَّ، وبان عنه ما بان، فهو الجن الممتزج بعضه في أصل الخلقة.

ومنه الذي يجري من ابن آدم مجرى الدم، ومن النبات والجماد في الغذاء ومواد الخلقة، ثم يتسع النظر وينخرق انخراقًا عظيمًا، ولاتساعه يعتاص على الفهم أن يضمه إلى زمام العقل، وإن كان قضاء الإيمان ينبسط عليه، والحمد لله رب العالمين.

قوله ﷻ: فيما حكاه لنا عن إبراهيم ﷺ لما رأى الكوكب ثم القمر ثم الشمس، فقال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:٧٦].

﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:٧٧].

﴿هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ [الأنعام:٧٨].

في ذلك دليل على أن للناظر في طلب الحق في أثناء ترداد النظر أن يجعل مفروضه ما تقرر في نفسه ونفس خصمه، وهو الأصل في صناعة الجدل، وربما سمي هذا المفروض باسم المطلوب الأعلى على سبيل التسليم للخصم، والتجوز حتى يتبين الصواب، ولا يكون ذلك جورًا ودلائل هذا كثيرة:

منها: إن الله مدح إبراهيم ﷺ بما ذكره عنه من ذلك، ولم يكن الله جلَّ ذكره ليمدحه على جورٍ وضلالة.

ومن ذلك: قوله ﷻ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِي العَرْشِ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:٤٢].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ ثم قال: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ * سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف:٨١ - ٨٢] أي: أنا أول العابدين على التنزيه له بالتعظيم عما يصفه به الجاهلون.

فصل

جعل الله ﷻ العلة في التولي عن الكوكب والقمر والشمس الأفول، وقال ﵇: ﴿لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ [الأنعام:٧٦] ولم يراعِ الانتقال منها والتبدل والحلول في الأمكنة والتسيار، وظهور المنظور فيه في مقابلة وتحير، وكونه ذا حجم إلى غير ذلك من صفات المحدثين وسائر المخلوقات، بل أضرب عن هذا كله وانتظر به الأفول، فلما أفل تبرأ منه وهو إمام المتذكرين وقائد المعتبرين ﵇، ولم يخبر الله جلَّ ثناؤه بذلك، واستاقه عنه في معرض الثناء عليه، والتعريض بالائتمام به إلا وقد رضي ذلك منه، وهذا ينظر بالقبول إلى قوله ﷻ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لله الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧].

وقول رسول الله ﷺ: «**ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، وكما ترون الشمس صحوًا ليس دونها سحاب**»[(١)].

تنبيه:

لا معنى لكاف التشبيه هنا في قوله ﷺ: «**كما ترون**» إلا العبارة عن دوام تجليه وعلي ظهوره، وحكم التجلي معلوم منه بوعده الكريم، ثم المثل الأعلى، والأفول معناه عدم وغيبة وتخلٍ، والله يتعالى عن ذلك.

فصل

قال رسول الله ﷺ: «**سترون ربكم عيانًا كما ترون القمر...**»[(٢)] والمعهود أن رؤيتنا الشمس والقمر على الدوام، ما خلا الأفول الذي تبرأ منه إبراهيم ﵇ من

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

اعتقاد الربوبية لهن من أجله، وقال: ﴿لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ [الأنعام:٧٦].

وقال الله ﷻ: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢ - ٢٣] وهذا خطاب مطلق لا تقييد فيه.

وقال جلَّ ثناؤه: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر:٦٩].

وقال رسول الله ﷺ في حدث لقيط بن عامر عنه، وقد سأله ابن المنتفق، فوصف الموقف والمحشر قال: «**وتخلص الشمس والقمر وتحبس الشمس والقمر، ولا ترون منهما واحدًا**» قال: قلت: يا رسول الله، بمَ نبصر يومئذ؟ قال: «**بمثل بصرك ساعتك هذه، وذلك في يوم أسفرته الأرض وواجهته الجبال**»[1].

مصداقه: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر:٦٩].

وفيه قال: «**وتنظرون إليه ساعة**» قال: «**وينظر إليكم**» يعني: في الموقف، قال: قلت: يا رسول الله، كيف وهو شخص واحد ونحن ملاء الأرض، وننظر إليه وينظر إلينا؟ قال: «**أنبئك بمثل ذلك في آلاء الله ﷻ الشمس والقمر آية صغيرة، ترونهما في ساعة واحدة ويريانكم، ولا تضامون في رؤيتهما، ولعمر إلهك هو أقدر على ذلك منهما على أن يراكم وتروهما**».

هذا إلى ما جاء في حديث الزيارة من طريان التجلي بعد الاحتجاب، فوصف أن من رؤية الله جلَّ ذكره ما هو على الدوام دون غيبة، ومن الرؤية ما هو في ساعة، ووقت دون آخر.

قال رسول الله ﷺ: «**جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**»[2].

آية ما أنبأ به رسول الله ﷺ رؤيتنا الشمس في حياتنا الدنيا هذه، ولسنا نستطيع رؤية القرص منها إنما نرى ضياءها وإشراقها، ونشاهد ما جعل الله لها من الآثار

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٠٦)، ومسلم (١٨٠)، والترمذي (٢٥٢٨) وقال: حسن صحيح، والنسائي في الكبرى (٧٧٦٥)، وابن ماجة (١٨٦)، وأحمد (١٩٦٩٧)، وأبو يعلى (٧٣٣١)، والروياني (٥١٣).

المنسوبة إليها التي هي لله ﷻ حقيقة، فإن رمنا رؤية عينها التي هي القرص لم نستطع بذلك الشعاع المانع للأبصار، هو آية على رداء الكبرياء فيما هنالك.

وهذه الرؤية المذكورة الدائمة لهم فيما هنالك هي مشاهدتهم الحق المبين؛ أي: المبين لهذا الحق المخلوق به السماوات والأرض، وقد وعد وعدًا حقًّا بأن يتجلى لهم فيرونه عيانًا، ويكلمهم كفاحًا عزَّ جلاله وتعالى علاؤه وشأنه.

﴿رَبَّنَا آمَنَّا...﴾ إلى قوله: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:٥٣] في يسر وعافية.

فالمفهوم من هذا وهذا أن معنى قوله: «**وليس بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**» أنها رؤية أصحاب الجنة في البرزخ؛ لأنها رؤية ارتفعت عن رؤيته بالبصائر والإيمان في الدنيا، ونزلت عما عبَّر عنه رسول الله ﷺ بقوله: «**ترون ربكم عيانًا**» وقوله: «**ليس بينكم وبينه حجاب**».

وذكر أيضًا أن من الرؤية ما يكون في موضع من الجنة، قد أكرمه الله منه بذلك فيه حديث الزيارة، وإنهم يسيرون إلى ميعادهم في ذلك.

وقال أيضًا: «**إن أهل الجنة إذ دخلوها نزلوا بفضل أعمالهم، ثم يرِدون في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا، فيزورون ربهم ويبرز لهم عرشه، ويتبدى لهم عزَّ جلاله وتعالى علاؤه وشأنه في روضة من رياض الجنة، ويوضع لهم منابر.....**».

وفي آخره: «**إنهم يقولون لأهاليهم إذا رجعوا إليهم: إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار، ويحقنا أن ننقلب بمثل ما انقلبنا**»[1] يرويه معاذ بن جبل رضي الله عنا وعنه.

فصل

الأفول كما تقدم عدم وتخلٍ، وغير جائز ذلك عليه في صفاته العلا، وأيضًا فإن الغروب للشمس والقمر والنجوم كالموت لذوات الأرواح.

ألا ترى أن الليل الذي هو ظاهره عن غروب الشمس، هو دليل على الموت والطلوع منها تجلٍّ، والوصف لله جلَّ ذكره بالتجلي والظهور صحيح شائع وجوده

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٤٩) وقال: غريب، وابن ماجة (٤٣٣٦)، وابن حبان (٧٥٦١)، وابن عساكر (٥١/٣٤).

﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر:٦٩] والحجب فعله ومقدوره في مشيئته إذا شاء جلَّ ذكره وتعالى علاؤه وجدُّه حجبهم عنه، وإذا شاء أراهم نفسه بوعده الكريم وفضله العظيم، فلذلك جاز أن يوصف بأنه مكان فهو الغني عن كل شيء بكل معنى، وعلى كل وجه، وعلى ذلك فهو الله في السماوات وفي الأرض ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ﴾.

وهو الموصوف المعلوم بأنه ﴿مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤].

وأنه ما يكون ﴿مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ [المجادلة:٧] وهو الذي لا يحصره العدد، وهو أقرب إلى القلب من وريده، وإلى الروح من حياته، وإلى البصر من نظره، وإلى اللسان من ريقه، بقرب هو وصفه لا تقريب ولا تقرب.

وأما وصفه جل وعلا بمكان أو ترتيب زمان، أو ذكر عدد، وما نحا نحو هذا، فهو نزول منه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بوصفه الذي هو وصف له من حيث هو، إلى ما شاء من مفعوله ما شاء من حكمه، لولا وصف التنزل بما شاء من حكمه، لولا وصف التنزل والاستواء ما فُهِم عنه معنى من معانيه في خليقته، فافهم يقرب عليك البعيد.

والله يفعل ما يريد لا يعدو عليه فعله، ولا يمانعه في حكمته عبده، وبه تعرف المعارف لا بها يُعرف، وإليه تتحاكم الألباب لا هو إليها يتحاكم، فاعقل خطاب ربك واعبده كما أمرك، وتوكل عليه هو فوق كل شيء، ومحيط بكل شيء، ليس محيطًا به شيء الرحمن اسمه، والاستواء نعته وفعله، والعرش خلقه منفصل من صفاته، لا يخلو منه مكان، وعلى ذلك فليس هو بمضطر إلى مكان؛ إذ المكان لا يجوز عليه ولا تسعه الأمكنة.

لما كان هذا خطابًا ينبئ عنه ﷻ وعن مفعوله، كان لذلك الخطاب ذا جهتين، والأنباء ذا عرفين وجه الخطاب تعرف المفعول، وخرج الإنباء بمعهود الغير، وأما وصفه هو من حيث هو وصف له، فليست العبارات له بمدركة، ولا معهودات الخلقة لوصفه العلي، متناولة ليس بمفتقر إلى حامل يحمله، ولا حيطة تجمعه، ولا

حلو يوجده الملائكة حملة العرش؛ بمعنى أنهم منفذون الأمر النازل عليهم من أعلاه، والعرش محل لاستوائه.

وعلى ذلك فهو الحامل للعرش العظيم بقدرته، وجامع للعرش وحافظ له، ولحفظه الحفظة بلطيف صنعه، هو موجد ما أحب لمن أحب من التجلي بمعاني أسمائه وصفاته بخفي لطفه ولطيف قدرته، وهو مُمكِّن للعرش وهو على العرش باختيار نفسه، فالعرش حد خلقه الأعلى هو غير محدود لعرشه، والعرش محتاج إلى مكان، والرب ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه غير محتاج إليه، كما كان بسط العرش في توسعة الحول لا يسعه غير مشيئته، ولا يظهر إلا في أنوار صفته، ولا يرى إلا بنوره إن شاء وسعه أدنى شيء، وإن لم يشأ لم يسعه كل شيء إن أراد عرفه كل شيء، وإن لم يرد لم يعرفه شيء، وإن أحب وجد عند كل شيء، وإن لم يحب لم يوجد بشيء.

الأحكام والأقدار واقعة على خلقه، والحدود والأقطار حجب بريته، والحجب والأستار، والمكان والزمان، والعلو والسفل، ومعاني الخليقة كلها متصلة بمخلوقاته، سبحانه وله الحمد جاوز المقدار والأحكام، وفات العقول والأوهام، فالأوهام لا تصوره والأفكار لا تكيفه، لا تصفه الألسن ولا تبلغ وصفه العبارات ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

فصل

فأما القول على ما ورد من ذكر الرؤية على الدوام الذي عبَّر عنه قول رسول الله ﷺ: «**ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر وكما ترون الشمس صحوًا ليس دونها سحاب**»[1] وقد تبرأ إمام المعتبرين وقائد الناظرين في ملكوت السماوات والأرض من التعبد للآفلين، ولم يكن رسول الله ﷺ ليمثل رؤية الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بأفول، قد تبرأ منه خليله ومدحه على ذلك ربه، فالمعتمد عليه إنها رؤية على الدوام، لا أفول يعتقبها ولا زوال يعروها، خلا مشيئته في الحجب

---

(١) تقدم تخريجه.

والاحتجاب، كمشيئته فيما هو على ذلك في هذه الدار آية، وهو الحق الذي خلق به السماوات والأرض وما بينهما.

وقد كرر ذلك بغير ما عبارة في الكتاب العزيز، وأعلنه للمتوسمين وأظهره لقلوب المتفكرين، وهو آثاره في مصنوعاته ومجاري مقتضيات أسمائه وصفاته العلا في جميع موجوداته، وما فطرها عليه من معاني الإسلام والإيمان، واستشهد بها على معالم ما في الدار الآخرة من موجود، وهو الحق المذكور دائم الوجود، غير ممتنع عن البصائر المؤيدة بنوره محجوب عن قلوب الغافلين مُحرِّم علمه، والإيمان به على الضالين والكافرين والمكذبين.

والحكمة تعطي أنه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، ينشئ هذا الخلق المذكور في موجودات الدار الآخرة إن شاء الله تعالى، فكما أراه المعتبرين رؤية العلم دون أفول يلحق ذلك الحق المذكور، بل حكمه متى نظروا إليه ببصائرهم يروه كما يرون الشمس بأبصارهم وصحوًا، والقمر ليلة البدر دون تضارر ولا تضام، ولا ضيم يلحقهم في ذلك، كذلك يرون الحق المبين، وربما كان ذلك من الرؤية ما هما آية عليه فيما هنالك دون أفول ولا غيبوبة.

قال الله جلَّ من قائل: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ﴾ [النور:٢٥] وربما كان ذلك من الرؤية والتلذذ بها، والتنبه إليه على مقدار التنبيه لروية ما هنا من ذلك وجزاء له، وقد قال رسول الله ﷺ: «**إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى ملكه وجنانه مسيرة ألف سنة، وأن أعلاهم منزلة لمن ينظر إلى الله بكرة وعشية**»(١) وإنما ذلك - وهو أعلم - على قدر حضور المشاهدة ودوام حال المراقبة، ورؤية الإيمان كما أن له ثواب رؤية لأوقات الصلوات، وقد نصَّ عليها رسول الله ﷺ: «**إذا صلى أحدكم فإن الله قبل وجهه إذا صلى**»(٢).

وقال عزَّ من قائل: ﴿وَلله المَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٣٠) وقال: غريب، وأحمد (٥٣١٧)، وعبد بن حميد (٨١٩)، وأبو يعلى (٥٧٢٩)، والحاكم (٣٨٨٠)، وأبو يعلى (٥٥٨١).

(٢) تقدم تخريجه.

[البقرة:١١٥].

ثم له رؤية لأوقات صلوات الجمعات، وقد نصَّ عليها رسول الله ﷺ بذكر الزيارة، وقال ﷺ: «**في يوم الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم، وهو قائم يصلي يسأل الله تعالى فيها شيئًا من أمور الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه ما لم يسأل إثمًا أو قطيعة**»[١].

وتلك آية عليها حال صلاة الجمعة، والقيام إليها جعل الله ﷻ هذه الساعة أمارة، وآية على كرامة الرؤية فيما هنالك، وإكرامه بها وهي أوقات الصلاة وحالها، فافهم.

قال جبريل صلوات الله وسلامه عليه: «وذلك مقدار انصرافكم من صلاة الجمعة» ثم الله أعلم بما وراء ذلك من موجودات الدار الآخرة فيما هذا سبيله.

الرؤية على الدوام فيما هنالك هي ثواب لرؤية الحق المخلوق به السماوات والأرض فيما هنا، وهم في ذلك على درجات، فأرفعهم قدرًا وأقربهم قسمًا من ذلك أبصرهم اليوم لما عبَّر عنه بقوله الحق: ﴿وَخَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية:٢٢] ثم له فضل عظيم بتجلٍّ علي كريم وعد به قوله الحق وهو الحليم الكريم، فرؤيته اليوم بالإيمان والبصائر، ورؤيته في الآخرة بالعيان، ورؤيته في حال البرزخ بين ذلك رؤية، وهي أرفع من هذه وأتم، ودون وجودها في الدار الآخرة.

قال رسول الله ﷺ وذكر الدجال وحذر من فتنته: «**تعلمون أن أحدكم لن يرى ربه حتى يموت**»[٢].

ثم قال رسول الله ﷺ: «**وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على**

---

(١) أخرجه مالك (٢٣٩)، والبخاري (٥٢٩٤)، ومسلم (٢٠٠٦)، والترمذي (٣٣٣٩) وقال: حسن غريب، والنسائي (١٤٤٣)، وابن ماجة (١١٩١)، وأحمد (٧٩٠٣)، والبيهقي (٥٣٥٣) وفي الشعب (٢٨٤٠)، والحاكم (٩٨٢)، والطبراني (٤٠) وفي الأوسط (١٠٨٧)، وابن أبي شيبة (٥٠٢٩)، وأبو عوانة في مستخرجه (٢٠٥٢)، وعبد بن حميد (٩٠١).

(٢) أخرجه مسلم (١٦٩)، والترمذي (٢٢٣٥) وقال: حسن صحيح، وأحمد (٢٣٧٢٢).

وجهه في جنة عدن»[١] آية هذا رؤيتنا الشمس، ومحلها من بروجها على وجهها من الضياء ما لا تستطيع روية وجهها على الكشف والحقيقة، وأما رؤية الآخرة فهو التجلي العلي والتكليم الكريم والرؤية الجلية.

وقال رسول الله ﷺ: «**جنة عدن هي سرة الجنة وأوسطها، وفيها دار النبيين والمرسلين**»[٢].

﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

قوله ﷻ حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام:٧٩] والوجه عبارة عن إقبال الباطن من العبد بالإيمان والإخلاص والنية، ثم ينبسط معلوم ذلك ووصفه على ظاهره، فوجهة الجسم إلى الكعبة البيت الحرام، ووجهة القلب بالإيمان والإخلاص لله جلَّ ذكره، وفطرة السماوات والأرض قد تقدم ذكرها.

﴿حَنِيفًا﴾ معناه هنا الاستقامة، تقول العرب للرِّجل التي عوجها إلى الرِّجل الأخرى: حنفاء، والحنف: الميل، ولما أن كان ميلها إلى جهة الأخرى كان ذلك ميلاً إلى استقامة الخلقة؛ لذلك سمَّى الله تعالى إبراهيم عليه السلام: حنيفًا؛ لأنه تحنف؛ أي: مال عن سائر الأديان إلى الدين القيم دين الإسلام، بل لأنه استقام عليه من لدن فطرته الأولى، لا لأنه مال عن سواه إليه.

ويزيد هذا عليك بأن الأصل هو الإسلام المفطور عليه الخليقة، وأن الممدوح هو من استقام على منهاجه، واستن سنته لا من مال عنه، ولا يقال لمن تمسك بالعروة الوثقى: مال إليه عن سواه، إنما يقال في مذموم ذلك: مال عن الإسلام إلى سواه، كما يقال: كفر وضل وكذب، هذه عبارات عُبر بها عمن ضلَّ عن هدايته وغطى ظاهرها، وكذب فطرته وجحد خلقته، فما ذكره أهل اللغة غير صحيح التأويل، ولا مصيب المنتزع منه، وما أرى ذلك إلا من الأسماء العرفية التي تممها الشرع على ما تقدم ذكره أو ما نحا نحوه، فالحنيف إذًا الذي أمال هواه وحسده

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) لم أقف عليه.

وكبره، وشرته كلها إلى إيمانه وإسلامه، فأتى الله بقلب سليم.

وبعبارة أخرى: فالحنيف إذًا هو من سلك في اعتباره مسالك الحق المخلوق به السماوات والأرض، فوقف بذلك على الصراط المستقيم وعرف المعبودات، ولأي معنى عُبِدت، واطلع في ذلك على مَن حيث ضل به الضالون، وتنطع من أجله المتنطعون في اتباع أباطيلها، وأيقن بحقيقة اليقين، وصحيح العلم المقصود الحق ما هو، والمطلوب العلي الأعلى من هو، فعرف البون ما بين الهداية والضلالة والحق والباطل، فعبد المعبود الحق الذي لا إله إلا هو رب الأرباب ومبين الحق، وكان ميله تحنفًا وعبادة، وإله الإلهة بوجهة خالصة ونية صادقة دون ما سواه، فكان ذلك تحنفًا منه لمعبوده الحق الذي هو محق الحق ومبين الحق، وكان ميله تحنفًا وعبادة، استقامة بحقيقة من ذاته لمن تعبد له، وتبرؤًا صحيحًا ممن تبرأ منه.

فعلى هذا يتصور الميل أنه الإقامة على الحق، والثبوت على الاستقامة، وأنه نفس التحنف، وكان الخليل - صلوات الله وسلامه عليه - قد وقف على المعبودات، وخواصها التي جعلها الله عز جلاله لها، وعلم ما خلق جلَّ ذكره له، وجعله لها ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، وأن تلك سنة الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه في بريته؛ ليتمم كلماته، فعلمه ذلك ولزومه سواء السبيل في سلوكه، وحقيقة الوجهة في تحققه سمي: حنيفًا.

والفطرة أيضًا هي الإطلاع والبدء، يقال من ذلك: «فطر ناب البعير» إذا نبت، والتفاطير: بثور تطلع في وجه الغلام أول اقتباله، وأفطر الصائم وفطر أيضًا، ويأول اللبن الحليب بأنه الفطرة.

قال الله ﷻ: ﴿خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الروم:٨] فهو الذي فطرها بالإسلام؛ أي: سبقه إليها، وأفطرها به من صومها، وأبدأها به أيضًا، فابتناهن على مباني الإسلام، وسبق إليهن خشيته ومخافته ومعرفته، وأجرى ذلك منهن مجرى الأرواح في الأجسام، فعلى الإسلام انبنت ولمعرفتها به سبحته وإياه حمدت، وله كبرت وهللت ولإجلاله وإعظامه قنتت.

وفي بعض الآثار: «**إن الله ﷻ لما فرغ من خَلْقه وما خَلَقَه إلا بالحق لحظه لحظة فرجف من قواعده، ثم لحظه لحظة أخرى فكاد أن يزول من مكانه، ثم لحظه**

لحظة ثالثة فكاد أن يهمد من خوفه»[1] وإنما فعل ذلك جلَّ وتعالى ليُعرفه نفسه ويلهمه ربوبيته، فعرف الخلق ربوبيته يومئذٍ معرفة لا ينبغي له أن ينكرها أبدًا، وذلَّ الخلق له يومئذٍ ذلاً لا ينبغي له أن يعتز بعده أبدًا، ودخله من الخوف يومئذٍ خوف لا يخرجه منه بعدها أبدًا، وأقر له بالمملكة يومئذٍ إقرارًا لا ينبغي له أن يستنكف منه بعدها أبدًا، ثم صارت تلك المعرفة وراثة فيما يكون من النسل بعد ذلك إلى يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢] الظلم هنا هو الشرك على ذلك جاء مساق الآية، ولذلك أرجع الخطاب على أوله الذي معناه الهداية إلى الإسلام، واعتقاد الوحدانية لله جلَّ ذكره اللذين على حقيقتهما فطر الله السماوات والأرض وما بينهما، هدى إلى ذلك ملائكته وأنبياءه ورسله وأوليائه، وذكر إبراهيم - على جميعهم السلام - وأنه قد هداه إلى رؤية ملكوت السماوات والأرض، هدى إلى ذلك ثم قال: إلى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ فالمعنى إذًا بذكر الظلم هو ما كان عليه من حاج إبراهيم في ربه.

الضمير في قوله: ﴿فِي ذُرِّيَّتِهِ﴾ [العنكبوت:٢٧] راجع إلى إبراهيم عليه السلام، وقيل: نوح عليه السلام، وكلا القولين صواب، ولكل خطاب وجهه إلى المقصود به، وأخبر جلَّ ذكره عمن اصطفاه وهداه واجتباه من أنبيائه ورسله وأوليائه - صلوات الله وسلامه على جميعهم - أنهم ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨] حاشا لهم من ذلك هذا على جلالة أخطارهم ورفعة أعمالهم.

فوزان هذا إن شاء الله أنه من آمن بالله والرسل، ثم وافى على ذلك مع تسديد في شأنه أن ذنوبه مغفورة إن شاء الله وعد من الله صادق وله الأمن، وعد حق وقول صدق كما حبطت أعمال أولئك بالشرك ولو كانوا أنبياء، كذلك تغتفر ذنوب هذا حتمًا، ثم يكون من الآمنين إن شاء الله.

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٩٢٠).

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢] ولو شاء لقال: «بشرك» مكان قوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ لكنه هكذا أنزله، والله أعلم بما ينزل.

وقال في مواضع غير هذا، ونهى أن يسخر بعضهم ببعض، وعن أن يتنابزوا بالألقاب، ثم أعقب ذلك بقوله الحق: ﴿بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات:١١].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٥].

وقال في آدم ﷺ وزوجه حواء بعد مواقعتهما الخطيئة: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا...﴾ [الأعراف:٢٣] إلى غير هذا من تسميتهم ما سوى الشرك بالله من الذنوب ظلمًا.

وفي قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣] الكفاية في إثبات الظلم منه كبير هو الشرك بالله، ومنه صغير هو غير الشرك، ثم يكون صغره أيضًا وكبره على قدر الذنوب، وقد جاء بعد ذلك - والله أعلم - ما يجب الإيمان به من ذكر الموازنة يوم القيامة، وأن قومًا يخرجون من النار بعدما يجعلون فيها لذنوب أصابوها، فكان ظاهر ذكر الظلم في هذه الآية يعطي الأمن كله، ولئن كان من الظلم ما هو الشرك، كان ما قاله رسول الله ﷺ لما أحرقتهم النذارة ردهم بذلك إلى البشارة بقوله ﷺ: «ليس الأمر كما ظننتم إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]»[1].

فصل

لما كان الإيمان في القلب الإسلام في الظاهر ترتب الظلم فيما طريقه الإيمان،

(١) أخرجه البخاري (٣١٨١)، ومسلم (١٢٤)، والترمذي (٣٣٤٦)، وأحمد (٤١١٢)، والبيهقي في سننه (٢١٢٦٠)، والحاكم (٥٣٣٥)، وابن أبي شيبة في مسنده (٢١٦).

وفيما طريقه الإسلام على ذلك، فكان الظلم في الأصل، وهو الشرك والكفر والجحد والتكذيب، وأقله الارتياب وتزلزل العقد لعدم اليقين، وقلة العلم بالله تعالى، ووجود الإعراض عن النظر في آياته، والظلم في الفرع هو الفسق ومواقعة الذنوب والإصرار عليها، ولهذا يكون موجودًا الجزاء يوم القيامة؛ إذ يقول الله جلَّ قوله: «**أخرجوا من النار من قال: لا إله إلا الله، فهذا الإسلام، وفي قلبه مثقال دينار من إيمان...**» إلى قوله: «**أدنى أدنى أدنى من مثقال ذرة من خير أو من إيمان**»[1] فالصنف الأول لإسلامهم يعرفهم المؤمنون بدارات وجوههم وسلامته من النار؛ لبركة السجود، وبجوارح أيضًا عملت خيرًا سلمت من النار.

كما قال: «**فمنهم من تأخذه النار إلى قدميه ومنهم من تأخذه إلى نصف ساقيه وإلى حقويه...**»[2] هذا في الشفاعة الأولى، ثم الثانية على القرب من ذلك، ثم الثالثة تعرفهم الملائكة بما أبقى الله ﷻ من القلوب بحرمة الإيمان، كما أبقى من الوجوه بحرمة السجود لما كان منهم هداية ما جازاهم هنالك بأمن ما؛ لقوله الحق: ﴿**أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ [الأنعام:٨٢] وتصديقًا لقوله: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ**﴾ [النساء:٤٠].

ووقعت الشفاعة الرابعة التي هي لله جلَّ ذكره وتعالى علاؤه وشأنه على محض الفضل، فإنهم يخرجون من النار قد امتحشوا، وأتت عليهم نار جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها ومن خزيه وعذابه - ولو كان قولهم: «لا إله إلا الله» عن عقد من القلب، ولو على ضعف من العقد لم تسلك النار على احتياج الألسنة منهم والقلوب، لكنهم كانوا في الدنيا فاقدين للهداية، فلذلك أتت النار على جملتهم، وكانوا قد أصاب الله جلَّ ذكره بهم كلمة الحق قولاً، فتلافاهم برحمته وفضله العظيم.

وأما المهتدون الهداية كلها ﴿**لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [يونس:٦٢].

---

(١) أخرجه بنحوه الترمذي (٢٧٩٧)، وأحمد (١٤٢٨٩)، والحاكم (٢١٦)، وأبو عوانة في مستخرجه (٣٣٩)، وأبو يعلى (٣١٨٥)، وعبد بن حميد (١١٧٥).

(٢) تقدم تخريجه.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٩ - ٩٢].

قوله جلَّ ذكره: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ...﴾ [الأنعام:٩١] ما قدروه حق قدره؛ أي: ما عرفوه حق معرفته ولا عظموه كالذي ينبغي له، أما علموا أن من أسمائه جلَّ ذكره الباعث والمرسل والمنذر والمبتلي والممتحن والمنزل، وأن من شهادة الحق المخلوق به السماوات والأرض البعث للجزاء ثواب أو عقاب، وذلك لا يكون إلا بالرسل والكتب والحكمة التي بعثهم بها، وكذلك بعد البعث الصراط والميزان والحوض والشفاعة، وغير ذلك من معاني النبوة والرسالة، كما قال في غير هذا الموضع بعد قوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الجَاهِلُونَ﴾ [الزمر:٦٤].

ثم قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ﴾ [الزمر:٦٧] يخبر عن عظيم قدرته وجليل ملكه، ودلائل التوحيد سوى ما اختصت به الوحدانية من الدلائل في الوحي والوجود، وفيه: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا﴾ إلى قوله: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ﴾ [الأنعام:٩١] فاستاق هذا كله في معرض الإخبار عن إنزاله، وعن النبوة المبثوثة في العالم.

ثم وصل بذلك قوله: ﴿أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ فهذا من معلوم الكتاب والنبوة، كما قال جلَّ قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ....﴾ [آل عمران:١٦٤] وهذا

معلوم المؤمنين، ثم فوق هذا ما علمه إخوان الأنبياء - عليهم السلام - الذين تقدم ذكرهم في قوله: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٨٧] وهذا ما خصهم به من سائر المؤمنين من إلهام وفطنة وشعر ومحادثة، ونفث في روع، وما عبَّر عنه قوله جلَّ قوله: «**كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به....**»[١].

أعقب ذلك قوله: ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُم﴾ [الأنعام:٩١] أظهر فردانيته، وتعليم هؤلاء كما هو الذي تولاهم فردًا دون كسب منهم لذلك ولا تعمل.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿ثُمَّ ذَرْهُم فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:٩١] سمى جلَّ ذكره ما هم فيه: خوضًا، لما كان هو المعلم والخالق الأول لما يقولون من شبه أباطيلهم هو الله جلَّ ذكره، ثم كان المزين لهم الشيطان - لعنه الله - فوجهوا قولهم ذلك إثباتًا لكفرانهم وضلالتهم فكان خوضًا لذلك، والخوض الأخذ بالكلام حقًّا وباطلاً، والذهاب في ذلك كل مذهب.

وفيه: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ يعني: القرآن ﴿مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني: من كتاب ورسول ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: بالقرآن؛ يعني: الإيمان الأرفع ﴿وَهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام:٩٢] وهذا إشارة إلى إخوان محمد ﷺ.

كما قال: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ﴾ [النساء:١٦٢].

وقال: ﴿وَبَشِّرِ المُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج:٣٤ - ٣٥] أخبر جلَّ ذكره أن الإيمان يزداد بالصلاة وبصالح الأعمال، فهو - أعني: الإيمان - يتردد به ومنه وإليه حتى يتكامل العبد على ذلك، ويكون من الموقنين.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام:٢١] بدل آيات الله وغيرها وكتمها، أو قال: ﴿مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٩١].

---

(١) تقدم تخريجه.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤) إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧)﴾ [الأنعام: ٩٣ - ٩٧].

﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ هذا هو المتنبئ دجال كذاب ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللهُ﴾ [الأنعام:٩٣] كبعض من فسق عن أمر ربه، فدعا إلى نفسه كفرعون ومن أشبهه ممن قاله.

ثم جمعهم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه فقال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ الكافر المحتضر، وربما الفاسق الملعن ﴿وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بالضرب والهون، يخبر جلَّ ذكره عن عنفهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام:٩٣] عبارة عن شدة ما يجده المحتضر منهم دون تأنيس من ولي تنفعهم ولايته، ولا حمل عنهم شيئًا من أوجاعهم، فإن الكافر ربما حضر اليسر عليه حال موته، فباطنه على أشد حال يكلف هو إخراج نفسه الخبيثة بإزعاج من الملائكة، وضرب وتشديد عليه في ذلك، نعوذ بالله من ذلك.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ [الأنعام:٩٣] من وصفهم إياه إنه لا يعبدهم بعد موتهم، وغير ذلك من ضلالهم من قولهم: ﴿مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٩١] ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللهُ﴾ وافترائهم على الله الكذب ﴿وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣] يعني: عن آياته الدالة على النبوة بخصوص هنا، ثم بعموم عن آياته الدالة على الوحدانية، وعلى الحق المخلوق به السماوات

والأرض يُعذب كلٌّ بوصف كفره وعمله، وبعد هذا جعل الله جلَّ ذكره يسرد آياته الدالات على ما هو عليه من الوحدانية والقدرة والعلم والإرادة، وعلى ما هو عليه من الأسماء الحسنى والصفات العلا، وعلى النبوة والرسالة، وعلى موجودات الجنة، يعلم بهذا كله موجودات ما أوجده هاهنا، فلتعلم ذلك من آيات يتلوها عليك ربك ﷻ إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل:٧٩].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام: ٩٨ - ١٠١].

قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ الجِنَّ﴾ [الأنعام:١٠٠] نصب «الجن» على البدل من «شركاء».

يقول الله جل وتعالى: وعلى ما نصبنا لهم من الدلائل، واستشهدنا به من الشواهد، وبيَّنا لهم من البينات جعلوا لله شركاء الجن وهو خلقهم، فكيف يكون المخلوق شريكًا لخالقه؟ ثم كيف يستقيم هذا بكون الدال مدلولاً عليه، أو بكون المخلوق ولدًا لخالقه.

﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٠] أي: اختلقوا، واقتطعوا له ذلك بغير علم، وقد قرئت بالتخفيف: «خرقوا» وكذلك أيضًا قرئت: «وحرَّفوا» بالحاء من التحريف، وقرئت أيضًا بالتخفيف[1].

(١) قرأ نافع: «وخرّقوا» بالتشديد ، للمبالغة والتكثير؛ لأن المشركين ادَّعوا الملائكةَ بناتِ الله، والنصارى المسيحَ، واليهود عزيرًا. وقرأ ابن عباس، وأبو رجاء، وأبو الجوزاء: «وحرّفوا» بحاء غير معجمة وبتشديد الراء وبالفاء. وقرأ ابن السميفع، والجحدري: «خارقوا» بألف
=

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأنعام: ١٠٢ - ١٠٩].

قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ [الأنعام:١٠٣] وقد مضى في شرح الأسماء من الكلام في الرؤية ما يغني عن تكراره هنا.

وبالجملة: فإنه تبارك وتعالى إنما يُرى بنوره وبلطفه منه، والأبصار بما هي لا تدركه إنما يوصل هذا إليها من نور جمال جلاله لطفًا يوصلها من الرؤية له، والنظر إليه القدر الذي شاءه هو ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، والراؤون على درجات في الرؤية كما كانوا في العلم به والإيمان والعمل لذلك درجات.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم

=

وخاء معجمة. [زاد المسير (٢/٣٨٥)].

مُّقۡتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٠-١١٦].

قوله ﷻ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام:١١٥] انتظم هذا بما مضى من لدن قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا...﴾ إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٠٩].

إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الملائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ المَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ﴾ [الأنعام:١١١].

إلى قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢].

إلى قوله: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام:١١٣].

ثم عطف بعد قوله: ﴿أَفَغَيْرَ الله أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ [الأنعام:١١٤].

قوله الحق: وتمت كلمات ربك صدقًا كلمة وعدل سنة، بما فيها من قضاء وقدر وخلق وأمر، لا مبدل لكلماته، ومن كلماته الخاصة بما هاهنا قوله: «**هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، وهؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»[1] بما يقتضيه من عوارض وأسباب، وما يقرنه بالعبد من مقارنين صالحين، أو غير ذلك من جنٍّ وإنس، إنما ذلك لتتم كلماته بسنته.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ

(١) تقدم تخريجه.

ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١١٧ - ١٢٢].

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ الله عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:١١٨] من نظر في آيات الله جلَّ ذكره في الوجودين: الوحي والعالم، ووقف بعلمه على أن أحدًا لا يجوز له منال شيء من الأشياء دقَّ أو جلَّ، كان ذلك في هواء أو اعتمادًا على أرض أو تمتعًا بحيوان، أو غير ذلك إلا بإذن مالكه وذكر اسم الله عليه.

قال رسول الله ﷺ: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس منه»[1].

وجميع الخليقة كلها قاطبة ملك لله جلَّ ذكره وله المثل الأعلى، وهو لم يحل لأحد أن ينال منه منالاً إلا بعد ذكر اسم الله عليه، وأقل ما في ذلك على متناوله أن يعرف أنه ملك لله، وهو المنعم به وحده لا شريك له، وأنه مطالب بالشكر له، وإلا فهو حرام على من تعمد ترك التسمية، ومن اعتقد أنه ليس بملك لله، فهو كافر ومشرك.

ثم سرد على ذلك قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ الله عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام:١١٩].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ....﴾ [الأنعام:١١٩] كقوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ الله إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ

---

(١) تقدم تخريجه.

هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١١٦].

ولما كان رسول الله ﷺ مرسلاً إلى الناس كافة كان خطاب القرآن متوجهًا إلى جميعهم على افتراق مذاهبهم وتشتت آرائهم ونحلهم، فتارة يخص وأخرى يعم.

ألا تسمع إلى قوله الصدق: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى...﴾ [الحج:١٧].

وقوله: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ...﴾ [الحج:١٩] فعرض في هذه السورة بضلال الثنوية في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١].

وقد تقدم ذكر هذا إلى قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام:٥] عبَّر بهذا الخطاب الجميع من المكذبين، ثم إلى قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام:٨].

ولما أنكروا الخصوصية أنكروا النبوة جملة حتى آل ذلك بجهلهم في إنكار الخصوصية ألا ينتفعوا من جميع الحيوان بلحم ولا جلد ولا شعر ولا وبر، ولا تسخير بصنف من الأصناف، ولا يقتلوا منها مؤذيًا.

ومنهم: من رخص في ذلك حال الضرورة، وعلى مقدار اختلافهم في ذلك، ومن أولئك سرى إنكار الخصوصية، وتكذيب النبوة إلى مشركي العرب حتى قال بعضهم: ﴿مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٩١].

﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون:٢٤].

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [إبراهيم:١٠] ومثل هذا كثير.

ومنهم: من أقر بنبوة إبراهيم عليه السلام وآدم.

ومنهم: من أنكرها الإنكار كله، وقالوا: إن الله موصوف بالقدرة على أن ينزل إلى العباد ملائكة يرشدوهم إلى مراده منهم.

ومنهم أيضًا: من لا يقر بالملائكة عليهم السلام، وقال هؤلاء: إن الله قادر على أن يجعل في قلوب عباده المرسل إليهم مراده منهم، وجعل في نفوسهم قبول قول من زعم أنه مرسل إليهم.

قالوا: وقد أقام العقول على التمييز والمعرفة بوجوب شكر المنعم وأداء حق الفاضل، ونحو هذا من أنواع أباطيلهم.

قال الله عزَّ من قائل: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ﴾ [الأنعام:٨] أي: لأهلكنا من أبدينا إليه صفحة الملك، ولم ننظره ساعة ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ﴾ أي: النبي ﴿مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩].

ثم كذلك إلى قوله: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الأنعام:١٣] هذا خطاب راجع معناه إلى قوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام:١] أي: إن له النور وما فيه، والظلمات وما فيها، خالقهما واحد.

إلى قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام:١٧] ردًّا على الثنوية المانوية في قولهم: إن فاعل الخير غير فاعل الشر.

كذلك إلى قوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام:٣٦].

إلى قوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨] تنبيهًا على إثبات الخصوصية، وردًّا على منكري النبوة.

يقول جلَّ من قائل: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ يؤم مفضولها فاضلها، وعامها خاصها حتى ينتهي ذلك إلى أفضلها، وفيه أيضًا إثبات الوحدانية، وفيه أيضًا إثبات البعث بعد الإماتة بقوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨] يستخلفهم فيها قرنًا بعد قرن وأمة بعد أمة، ثم يميتهم ثم يحييهم، ثم يحشرهم إليه في هذا؛ أعني قوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ إعلام بأن كل شيء يعيده يوم القيامة، ويحضره بعثًا وحشرًا، ثم يجعل الخبيث كما قال في سورة الأنفال: ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال:٣٧].

ومفهوم هذا أنه يجعل الطيب كله في الجنة، وفي هذا رد منه على الثنوية والمجوس، والمتفلسفة من أهل التوحيد منهم، ومن غيرهم من كفار الأمم في قولهم: إن الله جلَّ ذكره لا يعيد الأجسام، وأنه إنما يجازي الأرواح والنفوس بعد موتها.

قالوا: فمن كان صالحًا وحافظ على العهد من شكر المنعمين، وأداء حقوق

الفاضلين إلى غير ذلك من حدود حدوها ومناهج شرعوها ألحقه بقرار الفوز، وذلك عندهم بأن يرفعهم إلى عالم فوق عالمه من الموجودات.

قالوا: وإن قصر عن ذلك نقله عن معاده إلى منزلة دون منزلته هاهنا، ويعنون بالمعاد ما يكون من بقاء الأنفس بعد الموت.

قالوا: ويهول بعد موته في ظلمات ثم يسفل به، فيجعل في موجودات خسيسة تشابه وجود باطنه في هذه الحياة، لم يدركوا بعقولهم القاصرة تقويض هذا البناء، ولا تبديل الأرضين والسماوات، وظهور الدار الآخرة عيانًا، وطموس هذه الدار الفانية وذهاب دولتها، كما حجبت عقولهم عن حقيقة البعث الآخر والجزاء الآجل، وتبوء الفريقين كلتا الدارين الجنة أو النار وما فيهما، بل لم يدركوا الحق في دار البرزخ من عذاب في القبر أو نعيم، وحال كونه ﴿إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٨ - ٨٩] إلى آخر السورة.

قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام:٣٩] المراد الأول بذلك: الثنوية والمجوس، ثم سائر أتباعهم من الكفار والمكذبين، ثم الغافلين، نعوذ بالله من أحوالهم في الدنيا والآخرة فيما بينهما.

ثم كذلك إلى قوله الحق: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ...﴾ [الأنعام:٤٨] هذا رد عليهم من إنكارهم النبوة والرسالة، وما جاء في ذلك من عند الله تبارك وتعالى، وإثبات لما أنكروه من ذلك، وكذبوا به إلى قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٥].

إلى قوله جلَّ قوله: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:٥٩].

إلى قوله الحق: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩] رد على بعض المنتسبين منهم إلى التوحيد في قولهم: إن كل ما تغير أو حدث أو ظمئ، أو روي أو ثبت، أو اضمحل أو سقط، أو زاد أو نقص فليس ذلك بلازم أن يكون عن علمه به، ولا إذنه فيه.

قالوا: وإن أكثر ما ينسب إليه مما يُبرَّد أو يُسخَّن، أو يُيبَّس أو يغذو، أو يُحبَّس أو يُطلق إلى غير ذلك من العوارض وغير العوارض.

قالوا: فهي مبانٍ انبنت عليه بما شرعته النفس في هذا العالم؛ لتستن

الموجودات في سفلها إلى إتمام ما يسرته النفس له، وهذه المسماة عندهم بالنفس واحدة من جهتين سموهن بالإلهيات، فاعجب لتأفيكهم عن الحق بصدوفهم عنه بعد وصولهم إليه، فكان مثلهم في ذلك مثل من طلب مطلوبًا ما، فلما وجده شُغِل عنه بغيره وشُبه عليه به، فتعلق بسواه وترك الحق جانبًا.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ [فصلت:٢٢ - ٢٣].

قال الله جلَّ قوله يبين لهم: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام:٤٠] إلى قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ * قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام:٤٦ - ٤٧].

وربما عارض معارض بقول رسول الله ﷺ مجيبًا لسائله يوم قال له: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**تردون موردًا واحدًا وتصدرون مصادر شتى**»[1].

وفي أخرى: «**تهلكون معهم وتحشرون على نياتهم**»[2].

فاعلم أن هؤلاء ظلموا أيضًا بكونهم بين أظهرهم، فلم ينكروا عليهم، وإذ لم يستطيعوا ذلك كانوا يخرجون من بين أظهرهم، وقد قال لهم: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، وكان من العدل أن أصابهم العذاب لمكثهم بينهم، ثم يكونون على نياتهم وإسلامهم.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠] لما ذكر الحق المخلوق به السماوات والأرض والناظرين فيه، وذكر المهتدين الهادين من الأنبياء والرسل والإخوان والأولياء - عليهم السلام - قال: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ﴾ يعني: العرب وكفار الأمم من غيرهم

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٨٤)، وأحمد (٢٤٧٨٢).

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ.

﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام:٨٩] يعني: من تقدم ذكرهم.

ثم أقام المنار ونهج السبيل، فقال جلَّ قوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠].

ثم قال جلَّ من قائل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٩١] تلك ضلالة ورثوها عن إمامهم اللعين، وسفيهم الرجيم من إنكاره خصوصية الله جل ثناؤه لآدم صلوات الله وملائكته عليه، وإبايته عن السجود والاتباع له، والاهتمام به والإقرار بفضله، ثم جعلها كلمة باقية في بقية بعض ذريته وتابعيه فهم على أثره يهرعون.

ثم ذكر أحوالهم عند المعاينة، وأحال بها على معرفة عاقبتهم من لدن حال المعاينة إلى خروج أنفسهم من أجسامهم، ثم كونهم طول مدة البرزخ بقوله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣].

ثم أحال ما لهم في دار القرار بالمعلوم من قوله: ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت:١٦] ونحوه كثير نعوذ بالله من أحوالهم في الدنيا والآخرة.

وما بين ذلك أعقب ذلك بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللهُ﴾ ثم بقوله جلَّ قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ﴾ [الأنعام:٩٣] ثم كذلك يسرد الآيات على الوحدانية، ويبين الدلالات على النبوة الجارية في مسالك الموجودات، ويصف نفسه بما هو أهله، ويذكر أضاليل المشركين، وتعسف المبطلين فيما أحدثوه مما يسري إليهم من ضلال الأمم قبلهم، ومآخذ الشياطين بهم كل مأخذ.

قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٢١] فمن محاجتهم إياهم أنهم كانوا يقولون: تأكلون ذبائحكم ولا تأكلون ما ذبح الله، وكذبوا - لعنهم الله - ذبائح الله هو ما أمر به ورضيه، واسم الله جلَّ ذكره هو الطاهر المطهر به طابت الموجودات وتطهرت من أرجاسها، فكل ما خرجت نفسه من حيوان أذن الله في ذكاته، وأكله يذكر اسم الله

عليه كان فيما يميزه الله عن الخبث ويجعله في الجنة.

وما خرجت نفسه على ما أهل به لغير الله كانت له حقيقة في النار يعذب بها من جنى ذلك عليه، وحقيقة في الطيبات.

وما خرجت من نفس ماتت حتف أنفها لم تكن من الفواسق، فريق الله أسبق وحزبه أغلب.

وكذلك نفس كل مكلف خرجت بشهادة أن لا إله إلا الله، فهي في الجنة ما لم يعقها عائق من ظلمها نفسها، وعاقبتها إلى الجنة إن شاء الله تعالى.

﴿تَتَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ طَيِّبِينَ....﴾ [النحل:٣٢] وتقول لهم: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر:٧٣] وإن خرجت بغير اسم الله على عمد منها كانت في النار، وإنما يظهر ذلك في وفاة الشهداء؛ لكبر منزلتها الذين هم ﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩].

والمؤمنون نائلون من هذه الحياة حظوظهم، والحيوان أيضًا في درجاتهم، وبذكر اسم الله يحيا المؤمنون في الحياة الدنيا.

قال الله ﷻ: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا﴾ يعني: بالكفر والجهل ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ أي: يقول لا إله إلا الله ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا﴾ أي: بالعمل وبالعمل الصالحات ﴿يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢] كمن مثله في الظلمات؛ أي: بالكفر ليس بخارج منها، فظاهر هذا أن العبد يكون هنا ميتًا بالكفر والجهل كما تقدم، فيحييه الله بالإيمان والعلم، ويجعل له نورًا في قلبه وفي بصره وحواسه، يمشي بنوره في الناس يعلم ويبصر ويذوق ويشم ويحس.

يقول: هذا كمن مثله في الظلمات الكفر والجهل والعصيان، ليس يتوب الله عليه من ذلك فيخرجه من ظلماته، وفيه أيضًا بما فيه من مجاورة ذكر الذبائح ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا﴾ الموت المكتوب على كل نفس بغير زكاة مطهرة ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بذكر اسم الله، وذكره عليه كما حيا المؤمن والشهيد عند الله بذلك، كمن مثله في الظلمات؛ أي: المثال الذي تقدم ذكره في صدر الكتاب، وهو باطن هذا الظاهر الذي يسمى الآل والمثال والعبد، ونحو هذا.

ثم قال جلَّ قوله: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٢] أي:

من أكلهم ما لم يذكر اسم الله عليه، فإن منهم من يذكر على قتل ما يأكله من الحيوان اسم الطواغيت، ومنهم من لا يذكر اسم الله إهمالاً منهم لذلك، فيكون مثال ذلك المقتول حال البرزخ في الظلمات، ولها حقائق في الدار الآخرة تسليط على من فعل بها ذلك، كذلك أيضًا لها حقائق في دار الكرامة تنعيمًا للمؤمنين.

ألا ترى أن الملي الذي منع زكاة ماله من بقر أو غنم أو ذهب أو فضة يسلط ذلك كله عليه في عرصة المحشر طول ذلك اليوم، كما قال رسول الله ﷺ: «**في يوم كان مقداره ألف سنة**»(١) حتى يرى مصيره إما إلى الجنة وإما إلى النار، ثم بعد ذلك ﴿**يَمِيزَ اللهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ**﴾ [الأنفال:٣٧] ويجعل الطيب كله في الجنة.

فمثالات الطيبات التي أحالها الكفار بعصيانهم وسوء أعمالهم في جهنم، تراوحهم بالعذاب وضروب النكال، وحقائقها في الجنة بنعيمها، وملكًا لأهل الإيمان إن شاء الله تعالى، هو يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وهذا كله عن نور أسماء الله وموجود أنوارها، ولزوم البركة عنها بالتوحيد العلي فافهم.

تنبيه:

أنبياء الله ورسله وأولياؤه، والمؤمنون يستخرجون بذكر الله ﷻ أنفسهم وذبائحهم ومآكلهم وملابسهم، ومراكبهم وأموالهم، وذراريهم وأزواجهم من يد المبلس الملعون لما اقتطعه لنفسه، وظن أنه من الخليقة في قوله: ﴿**لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ**﴾ [النساء:١١٨ - ١١٩] أي: بوسمها لآلهتهم، وعزلها أن تكون مما لم يذكر اسم الله عليه، فيسلبه المؤمنون ذلك بذكر اسم الله عليه من جميع وجوهه، فتكون لهم في الدنيا وهي لهم في الآخرة خالصة.

قال الله ﷻ: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ**﴾ ثم قال جلَّ قوله: ﴿**كَذَلِكَ**

---

(١) تقدم تخريجه.

نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٢].

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٣ - ١٢٧].

قوله ﷻ: ﴿فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام:١٢٥] إذا انشرح الصدر للإسلام دخله النور، وهو نور العبودية، فإذا دخل النور في القلب انشرح الإيمان بالغيوب واتسع لها، فكان من ذلك النور ضياء، فيصبر به البصيرة كما يبصر البصر الظاهر بضياء الشمس في الدنيا، وإذا خلا القلب من ذلك النور حرج، فضاق متسعه عن الإيمان والإسلام، فلم يبصر ما غاب عنه ولا سمع النداء، فلم يجب المنادي بما هو فيه من بعد ما أحاط به من الظلمات، فمتى أراد أن يتهدِ لاستعلام معالم الآخرة، ومعرفة الله جلَّ ذكره والإيمان بذلك عسر عليه المطلب وضاق عليه المذهب، فكان في ذلك كمن يروم الصعود إلى السماء.

والرجس والنجس والخبث موجودون عن أعمال الشياطين، وذلك لازم للذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.

﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ....﴾ [الأنعام:١٢٦] صراط ربك أن تعبد الله وحده وتكفر بما دونه، وأن تؤمن برسله وأنبيائه وكتبه، ونأتمر لهم ونطيع فيما يأمرون به كل رسول منهم في وقته وفي نبوته، وهو الذي جاء به القرآن العزيز، وهو دين المسلمين.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠) ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢) ﴾ [الأنعام: ١٢٨ - ١٣٢].

قوله ﷻ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ﴾ هذه مطالبة منه جلَّ ذكره، يطالبهم بما أضلوا عباده عن هداية فطرتهم ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام:١٢٨] لما أقروا على أنفسهم.

قال جلَّ من قائل: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الأنعام:١٢٨] ما دامت السماوات والأرض؛ يريد: طول مدة البرزخ، وذلك هو مدة دوام السماوات والأرض، ثم قطع بالخلود إخراجه إياهم إلى اليوم المجموع له الناس يوم الحشر بما في ذلك اليوم من قضاء وفصل وموازين، وسؤال وحساب وصراط إلى غير ذلك، ثم هو يعيدهم إليها في اليوم الآخر في خلود أبدي وعذاب سرمدي.

وهذا كلمته الحق في قوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في النار ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود:١٠٧] يعني: ما تقدم ذكره من الخروج منها إلى النشور، ثم هو يعيدهم إليها بحكم الخلود الذي استثني بمشيئته في البعث والنشور، وأتم أيضًا بحكمه العلي في ذلك كلمته الحق لإبليس، التي عبَّر عنها قوله: اذهب ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف:١٨].

ولا يكون ذلك ما لم يكن المعهود المتعارف في إجازة إسكان الواسع الرحب في الضيق الحرج، وإدخال الكبير الناهي في الكبر والعظم في الصغير الذي لا يتبين من صغره ودقته، لم يضيق الواسع ولا وسع الضيق، ولا عظم الصغير ولا صغر

الكبير، ولا حقره، ويكون معهود ذلك كالمعهود الآن في ضد ذلك، ووجود ذلك بمشيئة الله جلَّ ذكره، فإذا شاء ذلك حل أجل الاستثناء ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٢٨].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:١٢٩] المشبه به والمشار إليه هو ما تقدم ذكره: استكثار الجن من تولي الإنس، وأشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ المعنى: الأعمال الصالحة بواسطة الإيمان تورث الولاية الصالحة، وتصعد هذه الولاية إلى ولاية الله العلي الكبير.

وبالضد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [فصلت:٣٠ - ٣١].

وقال: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ الله لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢].

وقال: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥].

كما قال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ....﴾ [الزخرف:٣٦ - ٣٧].

وقال: ﴿تَالله لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ [النحل:٦٣] فهذه ولاية الحزبين في الدنيا والآخرة وفيما بين ذلك.

قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ [الأنعام:١٣٠] اختلف الناس هل من الجن رسل من عند الله إليهم أم لا؛ إذ فيهم المهتدون؟ فقال فريق من العلماء: إن لهم رسلاً من أنفسهم، واحتج بهذه الآية وما يشبهها، وليس استدلال من استدل بهذا الاستدلال، ولا مقال من قال بهذا المقال بكافٍ ولا شافٍ؛ لاشتراك الدليل، وتردده بين الصنفين من الجن والإنس.

أما رسول من الجن إلى الإنس، فما كان قط ذلك لأمرين:

أحدهما: أن لو أرسل من الجن رسولاً إلى الإنس لم يتحصل التبليغ الذي هو المهم؛ إذ ليسوا بمرئيين لنا، وذلك شرط في المرسل والمبلغ.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾ [الأنعام:٩].

وقال: ﴿لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ

مَلَكًا رَّسُولاً﴾ [الإسراء:٩٥].

وأما الوجه الآخر فإنهم ليسوا بأئمة، إنما الأئمة هم الإنس، وبذلك اختبر الله ﷻ أباهم المبلس الملعون فأبى، فقال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ...﴾ [الإسراء:٦٢].

وقال في شان إرسال بعض الإنس إلى بعض: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام:٥٣] وهذا في الضالين من الجن آكد وأشد لوراثة ورثوها من أبيهم - لعنهم الله - غير أن منهم منذرين يتلقون من الرسل، ويبلغون إلى قومهم كما حكى الله ﷻ عنهم.

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأنعام: ١٣٣ - ١٣٧].

قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلُوا للهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام:١٣٦] هذا المعنى راجع بوجه إلى قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ....﴾ [الأنعام:١٤١] فكانوا يقولون: ﴿هَذَا للهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام:١٣٦].

﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟

يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۚ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۖ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ۗ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأنعام: ١٣٨ - ١٤٣].

ويتصل به فيما يستقبل قوله ﷻ: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ المَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام:١٤٣].

﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ۗ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام: ١٤٤ - ١٤٦].

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٤٤] يقول جلَّ من قائل: هذا [حكم][1] ذكرانها وإناثها من حرمها أو حرم ما حرمتم منها، ائتوني بعلم أو بكتاب من عند الله أو سنة رسول من عند الله، بل اتبعتم أهواءكم بغير هدى من الله، فمن أظلم ممن اتبع هواه بغير هدى من الله.

ثم قال وقوله الحق: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ [الأنعام:١٤٥] وهو العلم إلا ما أنزل من عند الله، وما انتزع عنه باستنباط تأويلاً يفهم أو قيامًا على صحة.

ثم قال وقوله الحق: ﴿إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ [الأنعام:١٤٥] فنصَّ جلَّ ذكره على تحريم الرجس، فحيثما كان الرجس فهو حرام.

ثم قال: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾ [الأنعام:١٤٥] فكان ما أهل لغير الله به؛ أي: ذكر غير اسم الله عليه بعمد التحليل بذلك، فهو فسق؛ أي: خروج عن الإسلام لله، وهذا كله حرام إلا لمضطر ليس بباغٍ على أحد، ولا يبغي بذلك تحليل ما حرم الله، ولا يعتدي ما أمر به أن يقول: هو مضطر، وليس به، فيأخذ من ذلك أكثر من حاجته لبلاغه، ويلحق بهذا من خرج باغيًا على أحد إلى سفر، فأصابه في خروجه ذلك ما يبلغه إلى الاضطرار، فليس ما ذكره بحلال له تناوله إلا أن يحدث توبة من نيته تلك، وإلا فقد جمع نية الاعتداء، وأكل ما لا يحل له أكله على ذلك.

أتبع هذا قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٦] ولو أنهم آمنوا بالله ورسوله لتوجه عليهم قوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فكان قوله ﷺ: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ...﴾ [الأنعام:١٤٥] تتميمًا لصدق قيله، وإخباره عما أوجده رسوله ﷺ فيما حرمه على طاعم.

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ

---

(١) ما بين [ ] بتر في (ق) وسقط من (ف).

ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأنعام: ١٤٧ - ١٥٠].

ثم قال جلَّ قوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [الأنعام:١٤٧] أي: إن رحمته في الدنيا وسعت المؤمن والكافر، كذلك رحمته الرحمانية حكمها في الدنيا أن تسع المؤمنين والكافرين؛ لينال كلٌّ حظه المقدر له في أم الكتاب، فإذا جاء وعد الآخرة، أو أخذه بالإهلاك من شاء، فلا يرد بأسه عن القوم المجرمين.

كذلك تقول الملائكة على جميعهم السلام: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧] فإذا كان يوم القيامة قصرت رحمته على عباده المؤمنين، وغضبه على أعدائه الكافرين، نعوذ بالله من غضبه وعذابه.

قوله ﷻ: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ...﴾ [الأنعام:١٤٨].

نظيرتها في سورة النحل: ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل:٣٥].

وبمعناها في سورة يس: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:٤٧].

ذكر بعض من فسرها المعنى: إنهم لو قالوها بحقيقة من أنفسهم لكان ذلك إيمانًا منهم، لكنهم قالوها على سبيل التهزي والسخرية بالمخاطبين لهم، وربما كان ذلك كما زعموه، ولهم جهة من الخطاب قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ [الأنعام:١٤٨].

والأوجه في مفهوم هذا الخطاب أنهم كانوا يعرفون أن الله خالقهم وخالق

السماوات والأرض، وراثة ورثوها عن آبائهم إبراهيم وإسماعيل، والمهتدين قبلهم إلى معلوم الفطرة ومعهود ما جبلت عليه منهم الخلقة.

قال الله عزَّ من قائل: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:٢٨].

وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزخرف:٨٧] لكنهم أفكوا عن هذه الحقيقة بضلالتهم، وحجبوا عن معهودها، وظلوا على ذلك في ضلالتهم يترددون، وفي طغيانهم يعمهون، فإذا ألزمهم ضيق الاضطرار، ورجعوا إلى الحق وضلَّ عنهم ما كانوا يدعون من دون الله، فنبذوا هذه المعرفة الأولى دون ظهورهم، ولم يظهروها بإيمان مكين في قلوبهم وشهادة على أنفسهم، وعمل بها خارج عن بواطنهم بادٍ على ظواهرهم.

وبهذا وعلى معهود هذا كان يحتوشهم نور الإيمان، وتثبت في قلوبهم وأعمالهم حقائق الإسلام، لو أنهم آمنوا بالله ورسوله لهداهم الله بإيمانهم، لكنهم كانوا يقولونها مع كفرهم على حقيقة محجوبة ومعرفة غائبة بقلوب لا علم فيها، وبصائر غير بصيرة، وشهادات غير مشاهدة لها قد غمرتهم غفلتهم، وبعدوا بذلك عن حقيقتهم، فهم على ذلك، متى تكلموا بالحق نطقوا به لا يعلمونه، ولا يبصرونه كالذي يصدر عن النومان وصاحب الهذيان، ومصاحب الجهل غير محمود في إصابته لا سيما إذا كان حاله التكذيب، وعمله على سنن الكفر.

قال الله عزَّ من قائل لما أن ﴿قَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ ومرادهم بالدهر: اختلاف الليل والنهار وتعاقب الأزمان، أجابهم جلَّ ذكره بالحق الذي هو أهله بقوله: ﴿مَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية:٢٤] والمراد الحق هنا بالدهر: هو الله جلَّ ذكره، وهو اسم من أسمائه.

كذلك قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ يعنون بمعبوداتهم هنا: الملائكة عليهم السلام، فأجابهم جلَّ ذكره: ﴿مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف:٢٠].

فعبَّر ﷻ عن حالهم هذه لما قالوا الحق أن مشيئة الله جلَّ ذكره غالبة فيهم بأنهم يخرصون، ولم يحمد إصابتهم في مقالهم ذلك؛ لعدم وقوفهم على العلم

وصدور المقال عن غير يقين، فأبطل قولهم بالحق وأحبطه لعدم العلم واليقين، كما تحبط أعمالهم بالشرك والكفر والعمل على غير سنة، فافهم.

ولما كانوا مع ذلك غير عالمين ولا متبعين لمن علم، ولا تالين آثار من قبلهم وكذبوا بأفعالهم قولهم، كان جوابهم قوله: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا البَلاغُ المُبِينُ﴾ [النحل:٣٥] في الخطاب حذف، تقدير محذوفه: كذلك كذب الذين من قبلهم مع إقامتهم على التكذيب والكفر والعمل دون توبة، ولا إيمان بالله وبالرسل حتى ذاقوا بأسنا وحلت بهم نقماتنا، فهل على الرسل إلا البلاغ المبين؟ ولأن ما أجابوا به رسلهم من قولهم هذا إنما صدر عن معرفة مغرورة غطت عليها ظلمات الكفر والجحد، لم يوصلوها إلى إيمان صحيح، ولا وصلوها بتصديق رسول وقرآن.

قال الله ﷻ لنبيه: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ كتاب أو سنة ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١٤٨] والظن لا يغني من الحق شيئًا، إنما يغني العلم واليقين، أو اتباع من يعلم ويوقن، وعلى هذا المفهوم يقول الله جلَّ ذكره: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ الله شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس:٦٦] أي: ليسوا عندهم على الحقيقة بشركاء لله تعالى؛ إذ لم يخلقوا سماء ولا أرضًا، ولا ينزلوا الماء من السماء، ولا يخلقون ولا يرزقون، إنما ذلك منهم لما عبَّر عنه قول الله ﷻ حكاية عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى الله زُلْفَى﴾ [الزمر:٣].

تنبيه:

انطلق المقال في هذا الفن؛ إذ هو كثير ما من أجله قست قلوب أهل الإيمان الموجود عن الغفلة وأغياب المراقبة والذكر، ثم ينشأ وينمو بالاشتغال، وإهمال القلوب في أودية التخليط، ثم ينمو ذلك لمحبة الدنيا والأماني لها وبها، ومع ذلك يغلظ حجاب الغفلة، ويكثف الستر الحائل بين القلوب ومنبعث نور الإيمان إليها، ثم بالمداومة على ذلك يخلف الذكر النسيان، والعلم الجهل، والمراقبة الإهمال والجد الفتور، فلا يزال كذلك نور الإيمان يتقلص، والظلمة على القلوب تتزيد والخشية تنقص، والقسوة تفيض حتى يعلو الران القلوب فتنكس.

ثم يخلف ذلك الفسق والفجور، تتصاعد ظلمات ذلك إلى بقايا الإيمان فتذهب حقائقه، وإلى الإسلام فتمحق رسومه، فيكون الكلام تزينًا والأعمال عوائد ثم رياء، والشهادة بالإيمان والإخلاص لمظة[1] على اللسان، وما لم يتعاهد الإسلام والإيمان بالتجديد والتحقيق، ويعمرا بتوجيه النيات وإعمال الجوارح في الطاعات، وتعاهد القلوب بالتخويف واستشعار الخشية ولزوم الخشوع، وإلا كان ما عبَّر عنه قوله الحق: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦].

ذكر الصحابة ﷺ إنه ما كان بين نزول هذه الآية، وبين الإيمان مع إسلامهم أربع سنين، واستبطأهم الله ﷻ عن الصعود في درجات الإيمان، مع أنه كان في قلوبهم غضًّا طريًا، فكيف بمن ولد ونشأ في الفتنة، ومرت عليه وعلى آبائه وأسلافه وبني جنسه الكثير من السنين إلا هكذا مات الإيمان والعلم، وذهب التقى والخشية، وآض الأمر إلى ما نشاهده وأكثر من ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قوله ﷻ جوابًا لقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ مخاطبًا رسوله ﷺ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ [الأنعام:١٤٨] مبينًا لقولكم: ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ فإنهم قالوا حقًّا لو صدر ذلك منهم عن إيمان وتوبة وحسن مراجعة إلى الحق، فما هذا العلم المطلوب منهم الإتيان به؟

الجواب انعقد الإجماع الأعظم أنه لا شيء إلا ما شاء الله، وإنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم أجمع المهتدون أن الله تعالى خلق للعباد استطاعة بالله، وحولاً وقوة بالله لا يخرجون بأنفسهم عن عطائه ومنعه وحسن تقديره، وهو في كل شيء الأول والآخر الظاهر والباطن، فكلمتهم هذه عن علاتها خرجت عن سنن التوحيد المعروف،

---

(١) لُمظة: نُكتة. انظر: لسان العرب (٤٦١/٧).

و«إنما لكل امرئ ما نوى»[1] وبقي عليهم إتمام عقد التوحيد.

وهو إتمام معنى قوله: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر:٦٢] هذه كلمتهم لو قالوها بعلم وبقي عليهم، وهو الواحد القهار، وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير.

قال الله جلَّ من قائل: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص:٧١ - ٧٢] فهو الله لا إله إلا هو خلقه، ثم سواه بأن نفخ فيه الروح، فجعله بذلك سميعًا بصيرًا، مؤمنًا مسلمًا، منيبًا راضيًا، عالـمًا حكيمًا إلى سائر الأسماء والصفات، فلا بد من إعطاء حكمة الله قسطها مع توحيده نفسه وتنزيهه العلي، وأن يوجد في أفعال عباده فيضاف إليه وينسب، وإلا كان المعتقد على ما معنى قول الجبرية حيث إنهم إن أوقفوا أفعالهم، وأخرجوا مراداتهم على أنفسهم خرجوا على معتقد القدرية، بل أمرهم راجع للحق المخلوق به السماوات والأرض، هو الواحد القهار، هو الفاعل الأول تعالى وجوده، وهو الفاعل بملكه لإسناده من خلقٍ أو أمر؛ لأنه يملك السمع والأبصار والأفئدة والجوارح والظاهر والباطن [وبيده] كل شيء، هكذا ملكهم، وبما لهم من وجود في أنفسهم أوجدهم عليه، كانوا عبيدًا له أرقاء، كلفهم وأمرهم ونهاهم، وقد نفخ في آدم عليه السلام من روحه واصطفاه، وجعل ذلك وراثة في الهادين المهتدين من ذريته، ووالى منهم الأولياء، واتخذ منهم الأخلاء والأحباء ونسبهم إلى نفسه، وجعلهم من أجل ذلك أئمة للمتقين، فهم عباد الله تبارك وتعالى وأحباؤه.

قال الله عزَّ من قائل في قصة مريم عليها السلام: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم:١٧] فوجه الحكمة في تمثله لها بشرًا سويًا؛ ليخرج المراد منها بشرًا، وكون المراد أيضًا ملكيًا لما كان في حين كونه ملكًا باطنًا، ملكي الباطن

---

(١) أخرجه مالك (٩٨٣)، والبخاري (١) ومسلم (١٩٠٧)، وأحمد (١٦٨)، والترمذي (١٦٤٧)، وأبو داود (٢٢٠١) والنسائي (٣٤٣٧) وابن ماجة (٤٢٢٧) وابن المبارك (١٨٨)، والحميدي (٢٨)، والبيهقي (١٨١) والطبراني في الأوسط (٤٠) والخطيب (٤/٢٤٤) وابن عساكر (٣٢/١٦٦) وابن منده في الإيمان (٢٠١) وتمام في الفوائد (٤٨٣) وابن خزيمة (١٤٢) والدارقطني (١/٥٠) وأبو عوانة (٧٤٣٨) والبزار (٢٥٧) وهناد (٨٧١)، وابن حبان (٣٨٨).

بشري الظاهر، باطن لباطن وظاهر لظاهر، فافهم.

قال رسول الله ﷺ: «**خلق الله آدم على صورته**»[١] وقد تقدم الكلام في هذا، وأن النسبة على الأسماء والصفات لا على معاني الذات، فهذا علم بمعنى قوله ﷻ: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١٤٨].

وللمعنى الجامع للمراد قال: ﴿فَلله الحُجَّةُ البَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام:١٤٩] ما بان عنه فهو عبده، وما رضي عنه فهو وليه، وما سخطه فهو عدوه، يعذب من يشاء ويرحم من يشاء، ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم.

قوله ﷻ: ﴿قُلْ فَلله الحُجَّةُ البَالِغَةُ﴾ انتظم هذا الخطاب بما تقدم من قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨] وبأنه حيث جاء يقول جل ثناؤه :﴿فَلله الحُجَّةُ البَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام:١٤٩].

حجته البالغة في ذلك أنه يفعل ما يشاء بحق الملك يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويعذب من يشاء ويرحم من يشاء، وإليه يرجع الأمر كله، ولو أنه نعَّم الكافر وعذَّب المؤمن، وأجاز هذا ورضيه لكان الحق حيث كان، هو الله لا إله إلا هو وكيف كان حكمه فهو العدل، وهو المحمود بكل وجه وبكل معنى، هو الإمام العلي إلى كل مقصد، به تُعرَّف المعارف لا بها يعرف، وبحكمه تُعلَّم الأحكام وتحسن المقاصد، لا بالإحكام والمقاصد تُعلم أحكامه ومقاصده، كما كانت به الكائنات لا بها كان، وإنما نفاذ حجة العباد بشرط ارتباطهم إلى طاعته، وإنما تحسن مقاصدهم وأعمالهم، وأقوالهم وعلومهم إذا رضي ذلك منهم، فمتى كان ذلك منهم كذلك أفلحوا وأفلجوا.

قوله ﷻ: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ [الأنعام:١٥٠] أرجع ﷻ الخطاب إلى محاجتهم في كفرهم، وجَعْلهم مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا لشركائهم، فحرموا على ذلك هذا وأحلوا هذا، فطالبهم جلَّ ذكره بالشهداء الذين يشهدون لهم بأن الله حرم ما حرموه، وأحل ما أحلوه، ولا شاهد فيما ها هنا

---

(١) تقدم تخريجه.

سوى الكتاب من الله والنبوة.

ثم قال جلَّ ذكره: ﴿فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ فإن شهادتهم زور وكذب وبهتان ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١٥٠] به سواه أمره بالعدل والإحسان، ونهاه عن الفحشاء والمنكر والبغي كالمعهود منه، وترك اتباع المكذبين والكافرين والعادلين بالله جلَّ ذكره سواه، وفي هذا من الفقه أن أحد الخصمين متى رضي بشهادة خصمه أو قول غيره، فشهد المرضي به أو قال بغير الحق، فليس على الراضي لزوم الحكم بقوله ولا شهادته، وفي هذا الضرب من الفقه نظر.

وإنما طالبهم الله بمن يشهد لهم على تحريم ما أحله الله، فهذا لا يجدونه ولا يقبل منهم إلا بكتاب من عند الله، أو توقيف من رسول الله، فقال جلَّ قوله لنبيه ﷺ، وقوله ذلك متوجه إلى سواه: ﴿فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ للقطع على أن ما يدينون به ويشهدون عليه ليس من عند الله، وإنما تكون شهادتهم تلك شهادة لمدعيهم، ولا تجوز شهادة خصم ولا ظنين، وقد يجمع هذا فيهم، ليس كذلك قول الخصم لخصمه المدعي الحق عليه: قد رضيت بك شاهدًا على حقي عندك، فيقول خصمه: لا حق لك عندي.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾ [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣].

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...﴾ [الأنعام:١٥١] أمره جلَّ ذكره أن يسرد عليهم ما حرم عليهم ربهم، كما حرم عليهم أولياؤهم من الشياطين والشركاء، فاستاق بعضًا على صيغته النهي، وبعضًا على صيغته الأمر، وبعضًا على صيغته الخبر، إعلامًا منه جل وتعالى أن المأمور به منهي عنه، وأن المنهي عنه مأمور بتركه، وأن الخبر قد يأتي بمعنى الأمر والنهي.

وفيه: ﴿أَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ هو صراط الإسلام ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣] فصراط الإسلام والهدى صراط واحد، وسبل الضلالات كثيرة، وهي سبل الشياطين، فمن نكب عن الصراط الذي هو صراط الإسلام أخذ في السبل، ومن أخذ فيها تفرقت به السبل عن الصراط المستقيم.

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأنعام: ١٥٤ - ١٥٨].

وذكر الله جل وتعالى التوصية بالإيمان والكتاب بقوله: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ [الأنعام:١٥٤] يريد - وهو أعلم - أن موسى عليه السلام قد كان أحسن في هذه الوصايا، فإنها وإن كانت من الكتاب - أعني: التوراة والإنجيل والقرآن - فإنها مما يعلم بالعقل، وإن كان العقل لا يحل شيئًا من الكتاب ولا يحرمه إلا بإذن.

أكد ذلك بحكم الوحي في الكتاب والنبوة؛ لذلك - وهو أعلم - وصف موسى عليه السلام بأنه أحسن، وأنه تمم ذلك عليه بأن أنزله عليه في التوراة كما فعل ذلك في القرآن، فكان ذلك من الحكمة التي أتاه والعلم اللذين يُجزى بهما من أحسن في إيمانه وإسلامه، حيث يقول جلَّ قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ثم قال: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص:١٤].

وقال مثل ذلك في يوسف عليه السلام ثم قال: ﴿وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٥٤] أي: تفصيلاً لكل شيء أراد تفصيله من كبير وصغير وعلم علي، وعنى بهذا - وهو أعلم - ما ذكر رسول الله ﷺ: «**إن موسى عليه السلام كتب الله له التوراة بيده، فكان فيها تفصيلاً لكل شيء**»[1] وكل شيء هو اللوح المحفوظ، وسيأتي شرح ذلك في موضعه إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾ يعني: وهو أعلم الموت ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أي: لفصل القضاء يوم القيامة ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ يريد: طلوع الشمس من مغربها والدابة والدجال، ونحو هذا يوم يأتي بعض آيات ربك ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨] يعني: التوبة والعمل الصالح.

فصل

اختلفت الروايات أي هذه الآيات قبل وهي عشرة، وأكثر الروايات على أن **أولها**: طلوع الشمس من مغربها، فإذا هي طلعت من مغربها آمن الناس كلهم أجمعون، وذلك يوم ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨] فإن كان ذلك كذلك.

وقد جاء أن نزول عيسى ابن مريم عليه السلام بعد آخر أيام الدجال - لعنه الله - وإنه

---

(١) أخرجه مسلم (٦٩١٢)، وأبو داود (٤٧٠٣)، وابن ماجة (٨٤)، وأبو يعلى في مسنده (٦١١٥) بلفظ: «كَتَبَ لَكَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ» وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٦٧٦)، والدارقطني في الصفات (٢٨)، والخرائطي في مساوئ الأخلاق (٤٢٦)، وأبو الشيخ (١٥٥٥/٥)، والديلمي (٦٧٥) بلفظ: «إن الله خلق ثلاثة أشياء بيده: خلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس الفردوس بيده».

إذا قتله، وأظهره الله أسرع الناس إلى الإسلام، فإن كان طلوع الشمس من مغربها قبل ذلك، وكما ذكر في الحكم في إيمان من لم يؤمن، أو توبة من لم يتب قبل، فأين هذا من هذا.

أرى - والله أعلم - أن هذه الآيات لا تبقى عندها إيمان عبد لم يستبصر في إيمانه، ولا توبة من لم يدخر صالحًا في إيمانه من عمله، والمراد بتلك الآيات التمحيص، فلا يبقى عليها إلى كل مستبصر، أو عالم موقن حنيف، متفرغ لشأنه مقبل على ربه، وغير هؤلاء يفتنون كما قال رسول الله ﷺ: «**هل تنتظرون إلا مرضًا مقعدًا أو هرمًا مفندًا أو فقرًا مدقعًا، أو الدجال فالدجال شر غائب يُنتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر**»[1] فذكر القواطع بما هي، وأنه لا ينجو منها إلا المجد المشمر.

وأما قبل هذه الآيات، فالناس قد أوسعهم الله مهملة، ورحمته تأتي بقوم وتذهب بقوم أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، تابع ومتبوع وسابق وآخر يتلوه.

فصل

طلوع الشمس من مغربها إعلام بأن يوم الدنيا قد أُقرض وانسلخ، وأن اليوم الآخر قد ظهر وابتدأ، وتلك هي آية على ذلك، وكذلك تبدو الآيات وتنخرق العادات.

قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يكلم الرجل فخذه بما صنع أهله بعده، وحتى تكلمه عذبة سوطه، ولا تقوم الساعة حتى يكلم الناس السباع**»[2].

وقال رسول الله ﷺ: «**بينما رجل يرعى غنمًا إذا أتى الذئب فأخذ شاة منها، فتبعه الراعي فانتزعها منه، فقال له: فمن لها يوم السَّبُعِ يوم لا راعي لها**

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٧٦)، والحاكم (٨٠٢٠)، والطبراني (٧٧٤) وفي الأوسط (٤٠٩٢)، والبيهقي في الشعب (١٠١٧٧)، وأبو يعلى في مسنده (٦/٧٠)، والقضاعي في الشهاب (٧٦٨). الهرم: كِبر السّن وضعفه. مفندًا: يصيب صاحبه بالفَنَدِ، وهو التخريف والهذيان وإنكار العقل من الهرم أو المرض. أدهى: من الداهية والمصيبة، والأمر العظيم ينزل بالإنسان.

(٢) أخرجه أحمد (١١٨٠٩)، والترمذي (٢١٨١) وقال: حسن غريب، وعبد بن حميد (٨٧٧)، وابن حبان (٦٤٩٤)، والحاكم (٨٤٤٢) وصححه، والديلمي (٧٠٧٢). عذبة: طرف.

غيري؟...»[1].

وهذا إعلام منه ﷺ بأن السباع تفصح يومئذٍ، وكان ما حكاه به قال: «**آمنت بهذا أنا وأبو بكر وعمر**» فشهد لهم بالصديقية، وهو أيضًا مثل ضربه - صلوات الله عليه - أنذر بمعناه ما تُبتلى به هذه الأمة، وقد كان من ذلك ما كان، والله المرجو للفرج وعليه التكلان.

وجميع ما يأتي به الدجال - لعنه الله - من العظائم الخارقة للعادات من أجل ذلك؛ لأن يوم الدنيا المطبوع على ما جبل عليه من معهود العوائد قد انقرض، وأن أوله يوم الآخرة بما فيه قد ابتدأ لذلك، قال إبراهيم عليه السلام للجبار الذي حاجه في ربه؛ إذ سأله: من ربك؟ قال: ﴿**رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ**﴾ [البقرة:٢٥٨].

وأشبه تحديه ذلك بما تتحدى به الدجال - لعنه الله - وما صدق في ذلك دعواه للعلة التي تقدم ذكرها، فأجابه إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿**فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ**﴾ [البقرة:٢٥٨] أي: إن ذلك لا يصح لك إلا بعد طلوعها من مغربها، ولم يأذن الله في ذلك بعد، فاطلعها أنت ويفعل ذلك، وذلك فعل الجبار من قبيل الدجال لعنه الله؛ لأنه كان دجالاً في سبيل الربوبية، ومنهم الدجالون في سبيل النبوة، وكما كان السامري في زمان موسى عليه السلام علمًا من أعلامه، وابن صياد والعبسي ومسيلمة من أعلامه فكذلك الجبار، وإنما هي معالم تظهر وتخفى وآيات تبدو وتحتجب، يفعل الله إلى أن يأتي وعد الله.

وكان إبراهيم عليه السلام في محاجته ذلك الجبار عن ربه جل وتعالى آية على الولي الحنيف الذي يحاج الملعون الدجال في المستقبل، فطلوع الشمس هي إذًا أولها لا محالة ﴿**وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب:٤].

﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم**

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٢٤)، والترمذي (٤٠٥٩)، وأحمد (٧٥٥٤)، والحميدي (١١٠٣)، والنسائي في الكبرى (٨١١١)، والطبراني (٨٦٠)، وابن حبان (٦٥٩٤)، والطيالسي (٢٤٦٦). السبع بسكون الباء: يوم القيامة أو الفزع، وبضمها: الحيوان المفترس.

بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥٩ - ١٦٥].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ﴾ [الأنعام:١٥٩] أرجع الخطاب جلَّ ذكره إلى معنى قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣] والمراد بهم أهل الكتاب، ثم بآخره كل من أخذ في غير سبيل الله، الشيع: الفرق، والشيع: الأتباع، فهم أتباع الضلالة وأشياع الشياطين.

وقد قرئت: «فارقوا دينهم»[1] ولما فارقوا دين الإسلام تفرقوا في سبل الضلالات.

قوله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠] وقرئ هذا الحرف: «فله عشر أمثالها» ومعناهما على بادئ الرأي سواء، وبين ذلك فرقان قوله: ﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ أي: عشر كل واحدة منها مثل الحسنة التي جاء بها، وقوله: ﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ وهي قراءة الجماعة على إضافة العشر إلى أمثالها، فإن أمثال الحسنة هي عشرتها، فعلى هذا له مائة حسنة، وقد يكون من العالمين من يكون أمثال حسنته سبعون وسبعمائة.

قال الله ﷻ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ [البقرة:٢٦١] فهذه السبع هي أمثال هذه الحبة؛ لأنهن خرجن منها، فعشر

---

(١) قرأ الجمهور (فرقوا) بتشديد الراء. وقرأه حمزة والكسائي (فارقوا دينهم) بألف بعد الفاء؛ فالمراد بالدين دين الإسلام. [التحرير والتنوير (٣٢٤٥/١)].

أمثالها إذًا سبعمائة، ومن كانت حسنه سبعمائة كان أمثالها سبعة آلاف، حتى يكون ما قال رسول الله ﷺ: «**إن الله قد يجزي على الحسنة بألف ألف حسنة**»[1] وكم قد رأينا من حبة أنبتت أكثر من سبع سنابل ﴿**وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ**﴾ وختم الله جل وتعالى الخطاب بقوله: ﴿**وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة:٢٦١] فمن أوصله جلَّ ذكره إلى أن يعطيه بمقتضى أسمائه، فذلك المزيد الأعلى، وذلك الذي يُعطى بغير حساب.

ثم قال: ﴿**وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا**﴾ [الأنعام:١٦٠] فينعم المؤمن في الجنة؛ لأنه آمن بها بعشر أمثال حسنته، ويعذب الكافر في جهنم؛ لأنه كذب بها بمثل سيئته، ولا ظلم عليه سبحانه وله الحمد سبقت رحمته غضبه.

قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [الأنعام:١٦١] نصب «دينًا» على المدح، أمره جلَّ ذكره أن يحدث بنعمة ربه، وأنزل عليه من ذلك قرآنًا يقرؤه على أمته؛ ليحدث بذلك من أمته من أنعم الله عليه وهو تمام الإيمان، وأن يحدث بنعمة ربه تفرد بها شهادة، كان رسول الله ﷺ يقول عندما كان يظهر الله على يديه من المعجزات، ويكرمه به من خرق العادات: «**أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأني رسول الله**».

ثم قال له: ﴿**إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [الأنعام:١٦٢ - ١٦٣] هذه صورة توحيد الأعمال إلى الله جلَّ ذكره وعلى هذا تنعقد النيات، قد كان رسول الله ﷺ يقولها عندما كان يتوجه إلى الصلاة، وأكثر ما جاء ذلك عنه في صلاة الليل، وربما كان يقول: «**وأنا من المسلمين**».

وينبغي أن يفرد لكل عمل ذكر يشابهه وإن جمع ذلك في توجيه كل عمل، فهو أحسن كما تقدم في هذه الآية لما ذكر ملة إبراهيم، وإنها صراط الله المستقيم، وإنه هو الدين القيم لا شركة فيه ولا عوج، بيَّن ما هذا الدين القيم بأن يقول العبد عند الشروع في الأعمال: ﴿**إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا**

---

(١) أخرجه بنحوه ابن جرير في تفسيره (٥/٩١)، وأحمد (٧٩٣٢).

شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام:١٦٢ - ١٦٣] ويستشعر أنه بذلك أمر، وأنه من المسلمين.

فهذه ملة إبراهيم عليه السلام التي قال فيها: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:٣٦] ترجى منه - صلوات الله عليه وسلامه - بأن يتوب على من عصاه، فيغفر له ويرحمه إنه غفور رحيم، أمر حق وحكم فصل، من عبد الأصنام ومات على ذلك فغير مرحوم ولا مغفور له.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾[1] [الأنعام:١٦٥] يقول وهو أعلم: انظروا كيف رفع في الدنيا بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم.

يقول وهو أعلم: انظروا كيف رفع فلِمَ ينكرون المفاضلة بينكم في الجاه عنده، والحظوة لديه، انتظامه بما تقدم في صدر السورة من قولهم: ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام:٨] ثم لما جاء في أثناء الخطاب من إنكارهم النبوة والرسالة من البشر، وبخاصة إنكارهم تخصيص محمد رسول الله ﷺ من بينهم حتى قالوا: ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١] فكان جوابه الحق قوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف:٣٢].

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:١٦٥] أدخل لام التأكيد

---

(١) ذكرهم تعالى بنعمته عليهم إذ كان النبي ﷺ المبعث وهو محمد ﷺ خاتم النبيين فأمّته خلفت سائر الأمم ولا يجيء بعدها أمّة تخلفها إذ عليهم تقوم الساعة، وقال الحسن: إن النبيّ ﷺ قال: «توفون سبعين أمّة أنتم خيرها وأكرمها على الله» وروى «أنتم آخرها وأكرمها على الله» ورفع الدّرجات هو بالشرف في المراتب الدنيوية والعلم وسعة الرزق «وليبلوكم» متعلق بقوله «ورفع» فيما آتاكم من ذلك جاهًا ومالاً وعلمًا وكيف تكونون في ذلك، وقيل: الخطاب لبني آدم خلفوا في الأرض عن الجن أو عن الملائكة، وقيل: يخلف بعضهم بعضًا، وقيل: خلفاء الأرض تملكونها وتتصرفون فيها، ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لما كان الابتلاء يظهر به المسيء والمحسن والطائع والعاصي ذكر هذين الوصفين وختم بهما ولما كان الغالب على فواصل الآي قبلها هو التهديد بدأ بقوله: ﴿سَرِيعُ العِقَابِ﴾ يعني: لمن كفر ما أعطاه الله تعالى، وسرعة عقابه إن كان في الدّنيا فالسّرعة ظاهرة، وإن كان في الآخرة فوصف بالسّرعة لتحققه؛ إذ كل ما هو آتٍ آت، ولما كانت جهة الرحمة أرجى أكد ذلك بدخول اللام في الخبر، ويكون الوصفين بنيا بناءً مبالغة، ولم يأتِ في جهة العقاب بوصفه بذلك فلم يأتِ إنّ ربك معاقب وسريع العقاب من باب الصفة المشبهة.

على معنى المغفرة والرحمة، ولم يدخلها على معنى سرعة العقاب، وهذا من قوله: «**إن رحمتي تغلب غضبي**»[١] ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه. انتهى.

(١) تقدم تخريجه.

تفسير سورة الأعراف[1]

[وبه أستعين][2]

(1) هذه السورة مكية كلها قاله ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد والضحاك وغيرهم، وقال مقاتل إلا قوله: ﴿وَاسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ إلى قوله: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فإن ذلك مدني وروي هذا أيضًا عن ابن عباس، وقيل إلى قوله : ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا﴾ واعتلاق هذه السورة بما قبلها هو أنه لما ذكر تعالى قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ واستطرد منه لما بعده وإلى قوله آخر السورة ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ﴾ وذكر ابتلاءهم فيما آتاهم وذلك لا يكون إلا بالتكاليف الشرعيّة ذكر ما يكون به التكاليف وهو الكتاب الإلهي وذكر الأمر باتباعه كما أمر في قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ وتقدّم الكلام على هذه الحروف المقطّعة أوائل السورة في أول البقرة، وذكر ما حدثه الناس فيها ولم يقم دليل على شيء من تفسيرهم يعين ما قالوا وزادوا هنا لأجل الصاد أنّ معناه أنا الله أعلم وأفصّل رواه أبو الضحى عن ابن عباس أو المصور قاله السدي: أو الله الملك النصير قاله بعضهم أو أنا الله المصير إليّ، حكاه الماوردي أو المصير كتاب فحذف الياء والراء ترخيمًا وعبّر عن المصير بالمص قاله التبريزي، وقيل عنه: أنا الله الصادق، وقيل معناه ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ قاله الكرماني قال: واكتفى ببعض الكلام، وهذه الأقوال في الحروف المقطعة لولا أن المفسرين شحنوا بها كتبهم خلفًا عن سلف لضربنا عن ذكرها صفحًا فإن ذكرها يدل على ما لا ينبغي ذكره من تأويلات الباطنية وأصحاب الألغاز والرموز، ونهيه تعالى أن يكون في صدره حرج منه أيّ من سببه لما تضمنه من أعباء الرسالة وتبليغها لمن لم يؤمن بكتاب ولا اعتقد صحة رسالة وتكليف الناس أحكامها وهذه أمور صعبة ومعانيها يشق عليه ذلك وأسند النهي إلى الحرج ومعناه نهي المخاطب عن التعرض للحرج، وكان أبلغ من نهي المخاطب لما فيه من أنّ الحرج لو كان مما ينهى لنهيناه عنك فانتهِ أنت عنه بعدم التعرّض له، ولأن فيه تنزيه نبيه ﷺ بأن ينهاه فيأتي التركيب فلا تخرج منه؛ لأن ما أنزله الله تعالى إليه يناسب أن يسرّ به وينشرح لما فيه من تخصيصه بذلك وتشريفه حيث أهّله لإنزال كتابه عليه وجعله سفيرًا بينه وبين خلقه فلهذه الفوائد عدل عن أن ينهاه ونهي الحرج، وفسر الحرج هنا بالشك وهو تفسير قلق وسمّى الشكّ حرجًا؛ لأن الشاكّ ضيّق الصدر كما أنّ المتيقن منشرح الصدر وإن صحّ هذا عن ابن عباس فيكون مما توجه فيه الخطاب إليه لفظًا وهو لأمته معنى أي فلا يشكّوا أنه من عند الله تعالى.

(2) زيادة في النسخة (ق).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ ﴾ [الأعراف: ١ - ٦].

قوله تعالى: ﴿المص﴾ قد تقدم الكلام في الحروف المقطعة من أوائل السور والله أعلم بما ينزل، وعلى ما تقدم من النظر، فاتصال الصاد بـ«الم» دلالة على أنه صدع ﷺ بالنصيحة والصدق، وارتفع كتاب [أنزل إليك][1] على البدل من ﴿المص﴾ كأنه قال: [كتاب أنزل إليك][2] وربما صلح في ذلك أن يقال: [ارتفع بأخبر ابتداء][3] مضمر، [كأنه قال: المص] [4] هو كتاب أنزل إليك ﴿ لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ [الأعراف:٢] [ويتذكر][5] من آمن، فلا يكن في صدرك حرج منه؛ أي: [أما][6] في الحروف من استغلاق؛ إذ هي مفصولة من أم الكتاب، وما يعلم تأويلها [على هذا المعنى] [7] إلا الله، ويعلم هو ﷺ ما علمه ربه ﷻ من ذلك، فربما كان هذا الخطاب له على هذا التأويل ألا يطالب نفسه بكنه معرفتها.

وهذا هو الأظهر لقوله: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف:٢]

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «هذا كتاب أنزل».

(٣) في النسخة (ق): «أنه ارتفع بأنه خبر ابتدأ».

(٤) في النسخة (ق): «وهي كلمة صادقة وآية كاملة لذلك حسن الوقف عليها ثم قال عز من قائل».

(٥) في النسخة (ق): «وتذكر».

(٦) في النسخة (ق): «لما».

(٧) زيادة في النسخة (ق).

والكناية في قوله: ﴿مِّنْهُ﴾ راجعة [إلى][(١)] الكتاب المنزل، وهي الحروف المشار إليها، وإلا فأي حرج يجد الرسول ﷺ في نفسه من القرآن المنزل [إليه][(٢)] شرفه به وكرمه على العالمين، ثم بآخره يفهم منه، فلا يكن في صدرك حرج [ممن خالفك][(٣)] وتكذيب من كذبك، إنما أنت مبلغ ونذير.

قوله ﷻ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[(٤)] [الأعراف:٣] اتصل معنى هذه النصيحة للرسول ﷺ ثم لجميع العباد بمعنى ما تقدم من نصيحة في قوله: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف:٢].

وقرأ الجحدري هذا الحرف «ابتغُوا ما أنزل إليكم [من][(٥)] ربكم» بالغين المعجمة مع تقديم الباء، فيكون معنى ذلك «ابتغوا ما أنزل إليكم من ربكم والهداية إليه» والإيمان به فعل الراسخين في العلم، وقد تقدم وصفهم فصحَّ بما تلوناه في [أول][(٦)] هذه السورة، وبما تقدم لنا أن الحروف المقطعة كتاب منزل من عند الله في هذا الكتاب الذي هو القرآن العربي وليس به إلا أن هذا مفصل منه كما صح بما تقدم أنها من الكتاب المبين وليست به إلا أنها آيات عليه فاتصل الحبل، والحمد لله رب العالمين من الكتاب المبين إلي ما فصل عنه من الحروف المقطعة إلى ما فصل عنها من القرآن المبين ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤] وقرأ

---

(١) في النسخة (ق): «على».

(٢) في النسخة (ق): «عليه وقد».

(٣) في النسخة (ق): «من خلاف من خالفك».

(٤) لما ذكر تعالى أن هذا الكتاب أنزل إلى الرسول أمر الأمة باتّباعه، و﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾: يشمل القرآن والسنة؛ لقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم:٣ - ٤] ونهاهم عن ابتغاء أولياء من دون الله كالأصنام والرّهبان والكهّان والأحبار والنار والكواكب وغير ذلك، والظاهر أن الضمير في ﴿مِن دُونِهِ﴾ عائد على «ربكم». وقيل: على «ما». وقيل: على «الكتاب» والمعنى: لا تعدلوا عنه إلى الكتب المنسوخة. وقيل: أراد بالأولياء الشياطين؛ شياطين الجنّ والإنس، وإنهم الذين يحملون على عبادة الأوثان والأهواء والبدع، ويضلّون عن دين الله. تفسير البحر المحيط (٥/٣٠٩).

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) زيادة في النسخة (ق).

هذا الحرف مجاهد ولا يتبع بالياء صرف وجه الخطاب بالياء عن الرسول والمؤمنين إن الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله والذين يتبعون من دون الله أولياء.

يقول الله عز وجل: ﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣] عدم التذكار يورث الغفلة وهي تورث القسوة والقلوب القاسية بعيدة من الله محجوبة عن فهم كتابه غير موفقة للإصابة ومن يذكر أبصر، ومن أبصر اهتدى، ومن اهتدى أفلح ونجا، [ومفاتح][(١)] الدعاء.

قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾[(٢)] [الأعراف:٤] [تبيين][(٣)] من سبيل التذكار، والبيات: هو بالليل، بيَّت القوم: إذا أخذتهم ليلاً والقتل بالنهار، ودلت «أو» هنا على تصرف أخذه إياهم مرة كذا، ومرة كذا، ووجه الحكمة في ذلك ألا يأمنه العباد على حال، ولا في وقت دون وقت.

ثم [يتسق على][(٤)] ذلك قوله: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف:٥] تلك سنة الله ﷻ في عباده المنذرين عند إماتتهم وعند أخذه إياهم بالعذاب، و«**من مات قامت قيامته**»[(٥)] يعرفهم ذنوبهم، فلا يخرجوا من الدنيا حتى يشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا ظالمين.

---

(١) في النسخة (ق): «مفاتيح».

(٢) «كم» هنا خبرية، التقدير: وكثير من القرى أهلكناها، وأعاد الضمير في «أهلكناها» على معنى «كم» وهي في موضع رفع بالابتداء، و«أهلكناها» جملة في موضع الخبر، وأجازوا أن تكون في موضع نصب بإضمار فعل يفسّره أهلكناها، تقديره: وكم من قرية أهلكنا أهلكناها، ولا بدّ في الآية من تقدير محذوف مضاف لقوله: ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ فمنهم من قدّره: وكم من أهل قرية، ومنهم من قدّره: أهلكنا أهلها، وينبغي أن يقدّر عند قوله: ﴿فَجَاءَهَا﴾ أي: فجاء أهلها؛ لمجيء الحال من أهلها بدليل ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ لأنه يمكن إهلاك القرى بالخسف والهدم وغير ذلك، فلا ضرورة تدعو إلى حذف المضاف قبل قوله: ﴿فَجَاءَهَا﴾. تفسير البحر المحيط (٥/٣١٠).

(٣) في النسخة (ق): «دل على سبيل».

(٤) في النسخة (ق): «نسق».

(٥) أخرجه الديلمي (١١١٧).

قوله ﷻ: ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦] يقول للذين أرسل إليهم: ماذا أجبتم المرسلين؟ ويقال لهم: ﴿أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٨٤] ويقال للرسل، عليهم السلام: ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [القصص:٦٥] ؟ هل بلغتم أممكم ما أرسلتم به.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأعراف: ٧ - ١٠].

قوله ﷻ: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ﴾ [الأعراف:٨] يمكن أن يكون الحق هنا ما [يعلمه][(١)] الموازين من حسن وسيئ وثقل وخفة، وهو القسط كما قال عز من قائل: ﴿وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ﴾ إلى [قوله][(٢)] ﴿حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧] ويمكن أن يكون المراد بذكر الحق الشهادة بأن الوزن يومئذٍ حق وجوده كما كان رسول الله ﷺ يقول: «أنت الحق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والصراط حق، والميزان حق»[(٣)] إلى آخر الشهادات.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ

---

(١) في النسخة (ق): «تعطيه».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) أخرجه بنحوه البخاري (١١٢٠)، وابن ماجة (١٤١٦)، والبيهقي (٤٨٥١).

ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ (٢١)﴾ [الأعراف: ١١ - ٢١].

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ [الأعراف:١١] الخلق قبل التصوير، ودل [لما][١] نسق على أول الخطاب بحرف «ثم» على أن المخبر عنه هو آدم عليه السلام وكان ذلك إخبارًا عمن خلقه من بعده من نبيه، [وتصورهم][٢] إذ كان أولاً لهم وقد كان جل جلاله خلق الخلق قبل أن يوجدهم.

قال رسول الله ﷺ «**إن الله خلق الخلق، وقضى القضية، وأخذ ميثاق النبيين، وعرشه على الماء...**»[٣] وهذا أولى التأويلين الخلق أولاً كما ذكره رسول الله ﷺ، ثم التصوير يوم خلق آدم تصوير كل ذي وجود على توبته، وهو المعبر عنه بالتسوية [والسجود والله أعلم سجود ائتمام به][٤].

[وعلى الكلام الأول فالتصوير أوَّله حال وجود الخلق، قال رسول الله ﷺ: «**خلق الله الخلق، وقضى القضية، وأخذ ميثاق النبيين، وعرشه على الماء**»[٥] والتسوية آخر هذا الإيجاد الذي هو الحياة الدنيا ثم يخلق [الروح] والتصوير [المعبر به] ثم [أمر] السجود، والله أعلم سجود الائتمام به][٦].

قال الله جل قوله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص:٧١ - ٧٢] ظاهر قوله: ﴿سَوَّيْتُهُ﴾ هو إكماله إياه وإلهامه رشده.

قال الله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس:٧ - ٨]

---

(١) في النسخة (ق): «بما».
(٢) في النسخة (ق): «تصويرهم».
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) زيادة في النسخة (ق).
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) سقط من النسخة (ق).

ثم قال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ وهذه عبارة عن [إعماله وكمال التعبد][(١)] بما هو عبد الخضوع لخالقه، فلما سوَّاه وزاده بأن نفخ فيه من روحه [إتمامه][(٢)] السجود إليه، وقد كان تقدم جل ذكره إلى الملائكة - عليهم السلام - بالسجود [له][(٣)]، وقد قال رسول الله ﷺ: «**قوموا فلأصلِّي لكم**»[(٤)].

وقال ﷺ: «**من صلى منكم لغيره فليقصِّر، فإن من ورائه الضعيف والسقيم والكبير وذا الحاجة، ومن صلى لنفسه فليطل ما شاء**»[(٥)] فالإمام يصلي لمن وراءه، والمأموم يصلي لصلاة إمامه، يقوم لقيامه ويسجد لسجوده ويجلس لجلوسه.

وآدم إنما سوَّاه ربه ونفخ فيه من روحه، وألهمه عبادته وسجوده إليه، ولما سجد لربه تعبُّدًا له سجد الملائكة كلهم أجمعون لسجوده لله رب العالمين كما أمرهم [الله][(٦)]، وكيف يأمر الله جل ذكره بالفحشاء؟ إنما يأمر بالعدل والإحسان كما تقدم قبل هذا، والعدل والإحسان هو السجود لله العلي الكبير لا إلى غيره، وهذا الخطاب؛ أعني: قوله: ﴿اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ [الأعراف:١١] وذكر السجود له هو من متشابه القرآن العزيز الذي محكمه وأمُّه [إن الله لا يأمر بالفحشاء][(٧)] إنما يأمر بالعدل والإحسان ولا فاحشة ولا منكر أعظم من سجود عبد لغير ربه وخالقه.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا المَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٨٠].

---

(١) في النسخة (ق): «إكماله وإكمال العبد».

(٢) في النسخة (ق): «ألهمه».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) أخرجه البيهقي (٩٦/٣).

(٥) أخرجه البخاري (٦٧١)، ومسلم (٤٦٧)، والترمذي (٢٣٦) وقال: حديث حسن صحيح. وعبد الرزاق (٣٧١٢)، وأحمد (١٠٣١١).

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «قوله: إن الله لا يأمر بالفحشاء والمنكر وإنه».

فصل

كان إبليس [لعنه الله][(١)] من الملائكة - عليهم السلام - [كما تقدم قبل هذا][(٢)]، ولذلك توجه إليه الخطاب، واستحق الذم بترك السجود، ولما استكبر عن امتثال الأمر أخرجه من ملكوت السماء، وأهبطه إلى الأرض، وعزله بذلك عن أن يكون من الملائكة الذين يملكون الملكوت ويجيدون تماسكه، ولعنه؛ أي: أبعده من أن يفعل بأمره وطاعته، [وبأن][(٣)] يشفع عنده لمن ارتضى، فهو أبدًا يعمل بغير طاعة ربه بعمل الملائكة - عليهم السلام - في تنفيذ أمر الله، وجميع مواد الخلقة في كل شيء مخلوق [هو في][(٤)] تكوين الكائنات، [والقلم] [(٥)] الأمر، وتقسيمه وتقييده بإذن ربهم في مسالك أكوان العالم علوًّا وسفلاً فيما يكون ذلك من أمر كون فقط، وما يكون من أمر شرع وكون معًا.

والفعل منسوب إلى فاعله، ومحله الموجود منه فهم على الأمرين أو أحدهما يعملون بأمره، وجعل عمالة إبليس [لعنه الله] [(٦)] التزيين والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف وسلبه الأكثر بما أقدر عليه الملائكة من تأثير الفعل في الكائنات كالتصوير، وجمع مواد الخلقة إلى غير ذلك مما يعبر عنه قوله: [﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [الأنعام:٧٣]][(٧)] فيكون إلا فيما عوضه منه من سبيل الإضلال، وفعل المنكر من سحر وتزيين وما هو بسبيله.

فصل

قال الله عز من قائل في سورة ص ﴿فَسَجَدَ المَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [ص: ٧٣]

---

(١) زيادة في النسخة (ق).
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «من أن».
(٤) في النسخة (ق): «وفي».
(٥) في النسخة (ق): «وإلقاء».
(٦) سقط من النسخة (ق).
(٧) سقط من النسخة (ق).

إلى قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

وقال في سورة الحجر: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:٣٢].

وقال في هذه السورة: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف:١٢] وقال بعض من فسر هذا المعنى: إن «ألا» في قوله «تَسْجُدَ» زائدة ومعناه والله أعلم: أن قوله ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ ألست أنا الذي منعتك [من ذلك](١)، دلَّ على هذا التوجيه قول إبليس، لعنه الله: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾(٢) [الحجر:٣٩] وقوله:

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) قال القرطبي في «تفسيره»: فيه ثلاث مسائل: الأولى: قوله تعالى: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ الإغواء إيقاع الغي في القلب، أي: فبما أوقعت في قلبي من الغي والعناد والاستكبار، وهذا لأن كفر إبليس ليس كفر جهل، بل هو كفر عناد واستكبار، وقد تقدم في البقره، قيل: معنى الكلام القسم، أي فبإغوائك إياي لأقعدن لهم على صراطك، أو في صراطك، فحذف، دليل على هذا القول قوله في ص: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كأن إبليس أعظم قدر إغواء الله إياه لما فيه من التسليط على العباد، فأقسم به إعظامًا لقدره عنده، وقيل: الباء بمعنى اللام، كأنه قال: فلإغوائك إياي، وقيل: هي بمعنى مع، والمعنى فمع إغوائك إياي، وقيل: هو استفهام، كأنه سأل بأي شيء أغواه؟ وكان ينبغي على هذا أن يكون: فبم أغويتني؟ وقيل: المعنى فبما أهلكتني بلعنك إياي، والإغواء الإهلاك، قال الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ أي: هلاكًا، وقيل: فبما أضللتني، والإغواء: الإضلال والإبعاد، قال ابن عباس، وقيل: خيبتني من رحمتك أي: من يخب، وقال ابن الأعرابي: يقال غوى الرجل يغوي غيًا إذا فسد عليه أمره، أو فسد هو في نفسه، وهو أحد معاني قول تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ أي: فسد عيشه في الجنة، ويقال: غوي الفصيل إذا لم يدر لبن أمه.

الثانية: مذهب أهل السنة أي أن الله تعالى أضله وخلق فيه الكفر، ولذلك نسب الإغواء في هذا إلى الله تعالى وهو الحقيقة، فلا شيء في الوجود إلا وهو مخلوق له، صادر عن إرادته تعالى، وخالف الإمامية والقدرية وغيرهما شيخهم إبليس الذي طاوعوه في كل ما زينه لهم، ولم يطاوعوه في هذه المسألة ويقولون: أخطأ إبليس، وهو أهل للخطأ حيث نسب الغواية إلى ربه، تعالى الله عن ذلك، فيقال لهم: وإبليس وإن كان أهلاً للخطأ فما تصنعون في نبي مكرم معصوم، وهو ونوح ﷺ حيث قال لقومه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وقد روي أن طاوسًا جاءه رجل في المسجد الحرام، وكان متهمًا بالقدر، وكان من الفقهاء الكبار، فجلس إليه فقال له طاوس: تقوم أو تقام؟ فقيل لطاوس: تقول هذا لرجل فقيه فقال: إبليس أفقه منه، يقول إبليس: رب بما أغويتني، ويقول هذا: أنا أغوي نفسي.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: بالصد عنه، وتزيين الباطل حتى =

﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ وبوجهٍ آخر يكون معناها: ألا فعلت كذا؟ فتقرب على ذلك من معنى «هلا» ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:٣٢] وكان من حكم «هلا» مجاورة الفعل الماضي، يقال من ذلك: ألا فعلت كذا كما قال: هلا فعلت كما يقول القائل في حال المعتبة لمخاطبه: مالك يا هذا تأبى من كذا ألا فعلت كذا؟ أو هلا فعلت فتكون بذلك كذا؟ فيكون معنى قوله: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر:٣٢] [مالك ألا سجدت فتكون مع الساجدين من الملائكة والمهتدين من ذريته](١).

وجاء [ها](٢) هنا ذكر السجود بلفظ المستقبل في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف:١٢] وما منعك ألا تكون مع الساجدين؟ لكن هنا الخطاب مركب من معنيين:

أحدهما: ما تقدم ذكره من تعجيزه وانفراد العلي الكبير - عز جلاله - بالقدرة، [ومعنى السببية](٣) التي خضع لها وخشع بقوله: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر:٣٩].

والمعنى الآخر: هو تأنيبه وتوقيفه على [مخالفة](٤) الأمر وتهديده، عبر عن هذا المعنى قوله في «ص»: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ

=

يهلكوا كما هلك، أو يضلوا كما ضل، أو يخيبوا كما خيب، حسب ما تقدم من المعاني الثلاثة في ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ والصراط المستقيم هو الطريق الموصل إلى الجنة، و«صراطك» منصوب على حذف «على» أو «في» من قوله: ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ كما حكى سيبويه «ضرب زيد الظهر والبطن ومن أحسن ما قيل في تأويل ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ أي: لأصدنهم عن الحق، وأرغبنهم في الدنيا، وأشككهم في الآخرة، وهذا غاية في الضلالة، كما قال: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ حسب ما تقدم، والحكم بن عتيبة: ﴿مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ من دنياهم ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ من آخرتهم ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ يعني حسناتهم، ﴿وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ يعني سيئاتهم، ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ أي: موحدين طائعين مظهرين الشكر.

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «ومضاء المشيئة».

(٤) في النسخة (ق): «مخالفته».

أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص:٧٥] [واستباق][١] اسم العزة في قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٢] إذ العزيز يفعل ما يشاء، ويضل من يشاء، وينفذ أمره فيمن يشاء هدايته وفيمن يشاء إضلاله، وتكون له مع ذلك الحجة البالغة، وهو الحميد المحمود مع أنه لو شاء [لهداكم][٢] أجمعين، فكان هذا من ذكر العزة إيماء إلى ما توجه إليه الخطاب من تعجيز إبليس، وتوحد العزيز العلي بالعزة والقهر، ومضاء المشيئة العالية وهكذا هو يبطن إذا أظهر، ويظهر إذا أبطن ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ يريد وهو أعلم: أسماء الله ﷻ، وأسماء الموجودات، وأسماء الملائكة الموكلين بإيجادها وتدبيرها على ما يقتضيه مسالك أسمائه في الموجودات؛ إذ لأسمائه آثار في كل ما خلق، وفي خلقه دلائل على كل ما تسمى به واتصف ولكل مخلوقاته ملائكة موكلون به فخاص وعام، وأسماء ملائكته على كل موجود موافقة [وجدت له][٣] لوجود كل موجود وجدت له ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ﴾ يعني: وهو أعلم [الموجودات][٤] التي في مقتضى أسمائه ﴿فَقَالَ﴾ [للملائكة][٥]: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ﴾ [البقرة:٣١] أي الأسماء التي تقتضي هذه الموجودات.

وقوله لآدم ﵇: ﴿يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة:٣٣] يعني: وهو أعلم الملائكة بأسمائهم؛ أي: بأسماء أنفسهم فأنبأ كلاً باسمه المطابق لما وكِّل [إليه][٦] من الموجودات، وكان إبليس - لعنه الله - يومئذٍ مع الملائكة - عليهم السلام - على مصافه لما وجد له يومئذٍ فأنبأه فيمن إنباء باسمه الذي هو أولى به بأنه إبليس،

---

(١) في النسخة (ق): «استاق».
(٢) في النسخة (ق): «لهداهم».
(٣) سقط من النسخة (ق).
(٤) سقط من النسخة (ق).
(٥) سقط من النسخة (ق).
(٦) زيادة في النسخة (ق).

وما ييسر له من [العمل][(1)] في المستقبل.

فلما أنبأ الملائكة بأسمائهم قال الله ﷻ: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ المعنى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ أي: في مستقبل شأنكم ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[(2)] [البقرة:٣٣] أي: ما تخبؤه نفوسكم.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٢ - ٢٧].

قوله ﷻ في [توصيه][(3)] بالتحرز من فتنة الشيطان: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٢٧].

ويقول جل قوله: فراعوا كيده بالغيب لا من حيث ترونه، وقوله: «يراكم» مع

---

(١) في النسخة (ق): «عمل».

(٢) جواب لـ«مَا» وتقرير لما مر من الجواب الإجمالي، واستحضار له على وجه أبسط من ذلك وأشرح، ولا يخفى ما في الآية من الإيجاز؛ إذ كان الظاهر أعلم غيب السماوات والأرض وشهادتهما، وأعلم ما كنتم تبدون وما كنتم تكتمون وما ستبدون وتكتمون، إلا أنه سبحانه اقتصر على غيب السماوات والأرض؛ لأنه يعلم منه شهادتهما بالأولى، واقتصر من الماضي على المكتوم؛ لأنه يعلم منه البادي كذلك، وعلى المبدأ من المستقبل؛ لأنه قبل الوقوع خفي، فلا فرق بينه وبين غيره من خفياته، وتغيير الأسلوب حيث لم يقل: «وتكتمون» لعله لإفادة استمرار الكتمان، فالمعنى: أعلم ما تبدون قبل أن تبدوه، وأعلم ما تستمرون على كتمانه. تفسير الألوسي (١/٢٦٧).

(٣) في النسخة (ق): «توصيته».

التحذير من كيده «هو وقبيله» يريد الكفار من الجن، وجاء به مقرونًا في اللفظ؛ إذ المراد به الجنس، [ذكره][١] قبيله لاشتراك مؤمنيهم معهم في الغيب عنا؛ لأنهم من قبيل واحد، وخلقه واحدة، وإن تصرفت بهم المشيئة [الغالبة][٢] فتفرقت بهم السبل في الهداية والضلالة والطاعة والمعصية وحسن الاستجابة لأجل ذلك.

فصل

خلق الله آدم عليه السلام من ماء وتراب [ظاهر من ظاهر][٣]، وخلق إبليس - لعنه الله - من قبل من نار السموم، ثم ذريته من مارج النار غيبًا من غيب، ولما كانت النار لا تظهر إلا فيما علقت به من الظواهر [كان ما خلق منها لا يظهر إلا فيما علق من الظواهر ذاته وعمله ولما كانت النار أيضًا تحيل كلما علقت به من الظواهر][٤] إلى النارية خلقًا أو خلقًا [فالخبث كان ما علق][٥] عنها يحيل ما علق به من الظواهر ديانة وغواية وضلالة كأنواع الجنون، وما يكون عن لمم [النفس ويحيل ما علق به إلى ضلالته ليصير][٦] عاقبته إلى النار التي خلق منها.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦].

كان رسول الله ﷺ قد شرع لنا الوضوء مما مسته النار، وإنما كان ذلك منه عن ربه ﷻ [إحكامًا][٧] منه - جل ذكره - برجس الشيطان المخلوق منها، وإيماء إلى موجود خبثه ولعنته إياه، واستنكافًا من نفخه ونفثه وهمزه، ولما ثبت ذلك الشرع خفف ﷻ عن عباده؛ ليعلم أهل اللقن عنه [لما][٨] جعل فيها من طاعتها له، وأنه

---

(١) في النسخة (ق): «ذكر».
(٢) في النسخة (ق): «العالية».
(٣) في النسخة (ق): «طاهر».
(٤) زيادة في النسخة (ق).
(٥) في النسخة (ق): «كان ما خلق».
(٦) في النسخة (ق): «المس وتحيل ما علق به إلى ضلالة لتصير».
(٧) في النسخة (ق): «إعلامًا».
(٨) في النسخة (ق): «بما».

خلقها عن صفة من صفاته، [وجعل خلقه إياها][١] سوطًا يسوق بها عباده إليه، وأنه خلق منها الملائكة - عليهم السلام - الذين ينتقم بهم من أعدائه الذين جعلهم سدنة لمواطن أنواع عذابه [وهم][٢] عباد له طائعون لأمره، قانتون له، يسبحون بالليل والنهار لا يفترون، وإنه إذا شاء جعلها رحمة كفعله بها في الدنيا، حيث جعل من [نفسيها][٣] سعيرها وزمهريرها جنة معجلة في الدنيا بواسطة فتحه برحمته غلب في ذلك رحمته على غضبه، وقد تاب على كثير من عباده الذين خلقهم عنها بواسطة اللعين، وهم ذريته فأقر أمره جل ذكره على ألا وضوء مما مسَّت النار، وجعل هذه الغائبات مع القطع على وجودها دلائل على تحقيق العلم بإيجاده غيبًا كلَّفنا الإيمان بوجوده، وأومأ إلى ما وراءه مع ما هو عليه من حال الغيب ﴿**ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**﴾ [الأعراف:٢٦].

قوله ﷻ: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ [الأعراف:٢٧] وكما جعل شياطينهم وكافريهم أولياء للذين لا يؤمنون [وكما جعل شياطينهم][٤] منا وسماهم لذلك شياطين بقوله: ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام:١١٢] وكذلك جعل مؤمنيهم أولياء للمؤمنين.

قال رسول الله ﷺ: «**ما من أحد إلا وله شيطان**» وفي أخرى: «**إلا ومعه القرين**»[٥] قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا إن الله أعانني عليه فأسلم، فهو لا يأمرني إلا بخير**»[٦] فالذي مع رسول الله ﷺ ليس شيطان، إنما هو قرين، والكافر قرينه كافر، [فهو][٧] لا يأمره إلا بكفر وشر فهو شيطان.

ثم مفهوم هذا الخطاب من كلا الطرفين أن للمؤمنين أولياءهم من الجن

---

(١) في النسخة (ق): «وجعله إياها».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «نفسها».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) أخرجه الطبراني (١٠١٧).

(٦) أخرجه ابن حبان (٦٤١٦)، والطبراني (٧٢٢٣).

(٧) سقط من النسخة (ق).

مؤمنون، وأنهم مسلمون لإسلام من قرنوا به، وإسلام القرين كإسلام قرينه، فإسلام صغير وإسلام كبير، ولذلك تجد المسلم من المسلمين لا تكاد نفسه تنازعه إلى الكفر ولا إلى الشرك بالله، [ولنجد الآخر من المسلمين لا نزاع عهده](١) إلى قتل النفس، ولا إلى شرب الخمر، ولا إلى زنا، هكذا حتى [يلخص المؤمنون على ذرياتهم إلى أن يكونوا](٢) كما قال رسول الله ﷺ: «**فهو لا يأمرني إلا بخير**»(٣).

ثم مع هذا فلم يمتنع المسلم منا بإسلامه من شيطان مضل ومارد كافر يوسوس إليه ويلقي إلى النفس بواسطة ما في الخلقة من قبيله، ومن كيد يكيده.

قال رسول الله ﷺ: «**إن عفريتًا عرض لي وأنا في الصلاة، وفي يده شعلة من نار...**»(٤).

فصل

من مفهوم ما جاء به الوحي الكريم أن إبليس كان من الملائكة - عليهم السلام - ولا محالة؛ إذ كان من الملائكة أنه كانت له عمالة يعمل فيها، وإنما عزله [منها](٥) ربه ﷻ لمخالفته، وقال له: «اهبط منها» فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج، [فخروجه وهبوطه](٦) من السماء أو من الملكوت الذي كان يعمل [فيها](٧) ولعنه؛ أي: أبعده من قربه والعمل بطاعته، فالمعلوم بالوجود [والمفهوم](٨) أنه عوضه من هدايته ضلالاً، ومن طاعته معصيةً، ومن إيمانه كفرًا، ومن عمله في الملكوت ما يقابله في الطرف الآخر، أيضًا وهو السحر على ضروبه وجميع أنواعه.

---

(١) في النسخة (ق): «وتجد الآخر من المسلمين لا تنازع عنده».
(٢) في النسخة (ق): «يخلص المؤمنون على درجاتهم إلى أن يكون».
(٣) انظر التخريج السابق.
(٤) أخرجه بنحوه مالك في «الموطأ» (١٧٤٢)، والنسائي (١٠٧٩٣).
(٥) سقط من النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «فهبوطه وخروجه».
(٧) في النسخة (ق): «فيه».
(٨) في النسخة (ق): «والفهم».

ألا ترى أن السحر روم قلب أعيان فيما سبيله [البواطن][١]، وتقليب بواطن من بغض إلى حب، ومن حب إلى بغض، وحقيقة ذلك تغطيه على حقائق [وتحييل على][٢] ظواهر، وقد كان قبل عمله في تحقيق إيجاد فالملائكة - عليهم السلام - وهذا يوجب أن يكون ما يأتي به الدجال - لعنه الله - حيلولة وسحرًا، لكنه من أعلى نهاية ذاك كذلك.

وقال رسول الله ﷺ: «**فناره جنة وجنته نار**»[٣].

وقال [فيه][٤] أيضًا: «**يرون السماء تمطر وهي لا تمطر، وترون الأرض تنبت وهي لا تنبت**»[٥].

[ولذلك][٦] من واجب الوجود أن ما [في يد][٧] عيسى ابن مريم عليه السلام حقيقة [وجود، وهذا الشهود][٨] وأبين من أن تجتلب عليه شاهد؛ لأنه في البشر فيما تقارب والملائكة والدجال في البشر فيما [يقاربه][٩] إبليس والشيطان.

فصل

قال الله ﷻ [حكاية عن مؤمني الجن][١٠]: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجِنِّ﴾ [الجن:٦] هذا نص على أنهم؛ أعني: من كان من ولد إبليس - لعنه الله - [بالحال، وإنسًا][١١] أيضًا مفهوم وجودهم من الوحي الكريم، فالظاهر من

---

(١) في النسخة (ق): «الظواهر».

(٢) في النسخة (ق): «تخييل في».

(٣) أخرجه الطبراني (٧٦٤٤)، وفي «مسند الشاميين» (٨٦١)، والحاكم (٨٦٢٠) وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) أخرجه الطبراني (٤٣٠).

(٦) في النسخة (ق): «وكذلك».

(٧) في النسخة (ق): «أتى به».

(٨) في النسخة (ق): «وجوده وهذا أشهر».

(٩) في النسخة (ق): «يقارب».

(١٠) زيادة في النسخة (ق).

(١١) في النسخة (ق): «رجال ونساء».

مفهوم ذلك لما أُهبط مما هنالك خلق الله له زوجة منه كما فعل بآدم عليه السلام ثم ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء:١].

[وكذلك][١] فالظاهر من مفهوم ذلك، وإن كانوا رجالاً ونساء فليسوا على كمال صور بني [بذلك فالظاهر من مفهوم فليسوا على كمال صوره؛ يعني][٢]: آدم، كما ليسوا على صوره البهائم والأنعام والحشرات؛ أعني: نسل إبليس - لعنه الله - بل هم على صور قاصرة عن صور بني آدم، وإن [تخيلوا فظهروا لمن ظهروا له على صورة حسنة][٣]، فإنهم قد منحوا ذلك، وليس في العالمين - أعني: ما هو دون الإنسان - أحسن جملة من صورة الإنسان إلا ما صور على صورة آدم، فإنه حسنت صورته أحسن تصوير، هو العالم الكلي وغيرها من الصور، وإن كانت صور حق فليست كهي وإن كانت الفضائل ليست في النيات، والنيات والفضائل قد خص الله بها من يشاء، وقد نرى الكافر من أحسن الناس صورة، ونرى بعض المؤمنين على غير ذلك.

﴿قَالَ﴾ الله عز وجل: ﴿اهْبِطَا مِنْهَا﴾ فما يكون لك أن تتكبر فيها ﴿اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ اهبطوا [منها][٤] جميعًا ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه:١٢٣] فالظاهر مما تلاه علينا [أن][٥] إبليس أُهبط من الجنة وأُخرج من حيث أُخرج آدم عليه السلام وأُهبط، وإن كان [أخرج][٦] إبليس - لعنه الله - قبل خروج آدم عليه السلام، ويمكن أن يكون إبليس أُهبط من ملكوت السماء إلى ملكوت الأرض؛ أعني: إلى غيب الدنيا، فإنه قد تقدم أنه عزل من الملكوت، وإنما له من ذلك البُطْل والخسر، لكن ذلك وجود ما لا يمكن جحده ولا [إبطاله][٧]، وقد أوجده على يديه وبواسطته. انتهى.

---

(١) في النسخة (ق): «ولذلك».
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «خيلوا وظهروا لمن ظهروا لهم على صورة خسيسة».
(٤) سقط من النسخة (ق).
(٥) سقط من النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «إخراج».
(٧) في النسخة (ق): «إنكاره».

وأما آدم عليه السلام فإنه أُخرج من باطن الدنيا إلى ظاهر الأرض، [فمنزلة][1] الجن في هذه الدار في غيب دون غيب البرزخ، ولذلك كان حكم البرزخ [غائبًا][2] عنهم.

قال رسول الله ﷺ في [الجنازة][3]: «**يسمعها كل شيء إلا الثقلين**»[4].

ومنزلنا نحن منها [ظاهر في حقنا لغيرهم فيه][5]، لذلك كانوا لنا بمنزلة من يرانا ولا نراه، وهم وإن كانوا في غيب من منزلنا ومنزلنا مكشوف [لربهم][6] لا يستطيعون التعلق بالظواهر إلا بإباحة من مالك الأعيان - جل ذكره - غيب الله ذلك عنهم [بغيب][7] يعرفونه، فلا يفتحون لذلك غلقًا، ولا يحلون لذلك وكاء ولا يكشفون إناء ولا يذهبون بمتاع ظاهر، وهم على ذلك قد أعطوا قوى وقدرًا وأعمالاً وصناعات.

أخبر بذلك الصادق الحق جل جلاله في قوله: ﴿وَمِنَ الجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي: بطاعته، ثم قال: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوابِ﴾ [سبأ:١٢ - ١٣] [وقد ورد انسياق][8] هذا إلى ما [ذكر أن][9] الجن كانت تعمل وتبني له الصروح الممردة، وتشيد له الملك المعجز.

ولما علم عليه السلام بمجيء صاحبة سبأ إليه قال للملأ حوله: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل:٣٨ - ٣٩] وأخبر الله جل جلاله بذلك عنه في معرض وصف ملك سليمان عليه السلام على ظاهر التصديق له والرضا به.

---

(١) في النسخة (ق): «فمنزل».

(٢) في النسخة (ق): «كان غائبًا».

(٣) في النسخة (خ): «الحفائر».

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) في النسخة (ق): «ظاهر لغيب في حقنا نحن هم فيه».

(٦) في النسخة (ق): «لديهم».

(٧) سقط من النسخة (ق).

(٨) في النسخة (ق): «وقدور راسيات».

(٩) في النسخة (ق): «ذكره من أن».

﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل:٤٠] فكان [ذلك][1] الأظهر أن هذا من الجن، وإلا فقد تقدم قول العفريت، وإنما أجرينا ذكر هذا تنبيهًا على قهر قدرة الله جلَّ ذكره.

وقد أخبر عن جليل أفعالهم وعظيم ما أعطاهم من [قدرة][2] وجودة المصانع وغير ذلك، ومنعهم [من][3] أن يفتحوا غلقًا أو يحلوا لنا وكاء أو يذهبوا بمتاع هذه حالهم في غيب ظاهرنا وفي ملكوت منزلنا.

ومن هذه الحقائق يفتح الله على من يشاء من المؤمنين، ييسير لهم من أمرهم ما يشاء، أصل ذلك صحة الإيمان به وقوة اليقين، والطهارة من الذنوب، فإن ضد الطهارة من الذنب أخرج آدم عليه السلام من الجنة التي هي معدل [التيسير][4] كله موضعه، واليقين يشرف بهم عليها في الدنيا ثم [يصير][5] بعد الموت إلى ما هو أرفع جدًّا وأمكن، والله عليم حكيم.

فصل

المعلوم الذي يجب الإيمان به - والله أعلم - أن الشاك والمنكر لقدرة الله الغائبة وما تكون عليه هذه الشواهد آيات [محكمات لا ينقل ذلك][6] عن أصل التوحيد، فإن حاله تلك لا تكتسب [مقام التوحيد][7] كما أنه بتصحيح حال التوحيد يدرك مشاهدة ذلك.

قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢ - ٣].

﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤].

---

(١) في النسخة (ق): «كذلك».

(٢) في النسخة (ق): «القدرة».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «اليسر».

(٥) في النسخة (ق): «يصيرهم».

(٦) في النسخة (ق): «وإن كان لا ينقل».

(٧) في النسخة (ق): «مقام التوحيد وجدًا ولا علمًا».

فصل

الموجودات المحدثات ما له منها ظاهر فله باطن، وأظهر الظواهر ما خلق الله من ظاهر الموجودات الظواهر، وليس من شرط ما بطن من الموجودات أن يكون له ظاهر كظاهر ما خلق من [ظاهر][1] الموجودات، وإن كان له ظاهر بالإضافة إلى باطنه، وقد تقدم أن كل ما خلق من الأصول [الظاهرة خلق][2] خلقًا ظاهرًا كآدم عليه السلام وما تحته من العوالم من جماد ونبات وحيوان والعالم الكلي، فالجن إذًا ليس لهم ظاهر وصلوا به إلى البروز [إلى إحكام][3] الظاهر حاشا التعلق بما تعلقوا به من ذلك فيظهروا فيه، وإنما برز إلى الظهور التام ما خلق من التراب والماء والهواء والنار، فاجتمعت فيه الظواهر والبواطن [عطف][4] العلوي وإياه جسد السفلي، وهو من الجملة بمنزلة القلب، ومن القلب بمنزلة اللُّب مهما عرف نفسه وأطاع ربه، فلما تقدم ذكره لم تتم صورة [الجن في الحق][5] وخالق الكل جل وتعالى ﴿هُوَ﴾ الله ﴿الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣].

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] أحد صمد ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٣ - ٤].

فصل

وقد تقدم ذكر إخراج إبليس - لعنه الله - وإخراج آدم عليه السلام من حيث أخرجا، وإن مسكنهم [في دنيا باطنة فهذه وعالم غيب عنا، فإنهم ليسوا على كمال صورة الحق الذي هو العالم الكلي، وإن لهم مثالاً فيه][6] مُنحوا التحول إليها هم منها في حقيقة حق قائم، لكن مجرميهم جل ظهورهم التخييل والكذب والتصور [على

---

(١) في النسخة (ق): «ظواهر».
(٢) في النسخة (ق): «الظاهرية خلق لها».
(٣) في النسخة (خ): «بما إحجام».
(٤) في النسخة (ق): «عليه عطف».
(٥) في النسخة (ق): «الحق في الجن».
(٦) في النسخة (ق): «مثالات».

ما][1] ليس هم على حقيقة منه، وأن ذلك من قبيل السحر الذي استعملوا به من قبلهم ظهر وعنهم انتشر.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل:٨].

وذكر الأنعام وقال: ﴿سبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا....﴾ [يس:٣٦].

وقال: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩].

وهذا خطاب عام في موجودات الدنيا والآخرة، وهذه الدنيا لها ظاهر وهي لآدم عليه السلام وما تبعه وما خلق له، ولها باطن وهي دنيا الجن وما تبعهم وما خلق لهم فيها، وهي التي أخرجوا إليها.

وقد قال الله ﷻ: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة:٣٨] ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة:٣٦] فإذا لهم دواب وأنعام ومتاع دنيا خصوا بها دوننا سوى ما أشركوا فيها من بواطن ما هو لنا وظواهره.

قال الله ﷻ: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ﴾ [الإسراء:٦٤].

وقال رسول الله ﷺ: «**ما من شيء يوضع لابن آدم إلا سبق الشيطان إليه يده، فاسم الله يحرمه عليه**»[2].

وقال: «**إن الشيطان يأكل من طعام من لا يذكر اسم الله عليه**»[3].

وقال لمؤمنيهم وقد [سألوا القرار][4] في هذه الدار وما يبلغهم إلى الآخرة، فقال لهم: «**[لكم][5] كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما كان لحمًا، وكل**

---

(١) في النسخة (ق): «بما».

(٢) لم أقف عليه هكذا.

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٢٩٧)، ومسلم (٢٠١٧) وأبو داود (٣٧٦٦)، والنسائى فى الكبرى (١٠١٠٣). وأخرجه أيضًا : البيهقى فى شعب الإيمان (٥٨٣٠) .

(٤) في النسخة (ق): «سألوه الزاد».

(٥) سقط من النسخة (ق).

بَعْرَة علف لدوابكم»[١].

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الزخرف:٣٣] المعنى إلى آخره.

وضرب الله مثلاً لدنيا الكافر ودنيا المؤمن بالبحار وما يوجد فيها من لحم طري وحلية، وعبورٍ عليها إلى مقاصد بعيدة وقريبة ومنافع توجد، وضرب مثلاً لدنيا المؤمن بالأنهار، وهي أقل فائدة وأدنى عائدة سوى الانتفاع بعذوبتها، وذلك مثل لحلاوة طاعة الله بالتوحيد وعذوبته، ولمرارة الشرك والبعد عن الله، واشتركا فيما [يخرج][٢] منها من لحم طري، وذلك في البحر الأجاج [أكثر][٣] وأعم وأفخم وأوجد جدًّا، والحلي المستخرج منه هو المعهود [أو أكثر][٤].

وقال رسول الله ﷺ: «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**»[٥].

وجل الكفر لإبليس - لعنه الله - [وهو معدنه ومنه منبعثه][٦]، ولأجل ذلك كان اليسر أكثر عندهم في الأمور، ألا تراهم يجدون العظم أوفر ما كان لحمًا والبعر علفًا لدوابهم، ودخل مؤمنوهم في ذلك بالتبعية، وحكم الخلقة من التمكن أن تكون مصانعهم في باطن ما هو ظاهر لنا أعظم، ومنازلهم وأحوالهم أفخم، وإن الله - جل ذكره - قد خصَّ بعضهم بفضل على بعض، وجعل لهم منها أكنانًا، وستر بعضهم من بعض كما سترنا نحن [بها][٧] بعضنا من بعض؛ لأن ذلك كله وما تبعه

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٦٧)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥٢٧).

(٢) في النسخة (ق): «يستخرج».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «والأكثر».

(٥) أخرجه مسلم (٢٩٥٦)، والترمذي (٢٣٢٤) وابن ماجة (٤١١٣)، وابن حبان (٦٨٧)، وأحمد (٨٢٧٢)، وأبو يعلى (٦٥٢٦)، والطبراني في «الأوسط» (٢٧٨٢)، وأبو نعيم (٦/٣٥٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٧٩٧)، والديلمي (٣١٠٣).

(٦) في النسخة (ق): «عنده رايته وهو معدنه ومنه مبعثه».

(٧) في النسخة (ق): «فيها».

من المتاع والقِران ومن الممكن أيضًا، والله أعلم بحكمه أن يكون مؤمنوهم في الآخرة في سواحل الجنة كما كانوا في الدنيا في سواحل ما [هنا][1]، وفي أفياء ظلالها معاني ذواتها وحقائق حقها، وإن المؤمنين يومئذٍ يرونهم من حيث لا يرونهم المؤمنون؛ لأن ظواهر المؤمنين يومئذٍ وبواطنهم تحمل إلى أعلى وجودها أو يكون غير ذلك فالله أعلم، [وإن][2] كافريهم في أشد لهب جهنم وأكبر حرها وسعرها.

قال الله ﷻ: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك:٥].

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠) ۞ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥)﴾ [الأعراف: ٢٨ - ٣٥].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[3]

---

(١) في النسخة (ق): «ها هنا».

(٢) في النسخة (ق): «وإن كان».

(٣) قال ابن عرفة: الخطابات في القرآن على ثلاثة أنواع: فمنها: ما هو صريح العموم، مثل: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص:١] ومنها: ما هو صريح الخصوص بالنبي صلى الله =

[الأعراف:٣٢] أرجع الخطاب إلى معنى ما تقدم ذكره في أول السورة في قوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف:٣].

وما تقدم ذكره أيضًا من [تحريمهم](١) السائبة، وجعلهم البحيرة والوصيلة بغير هدى من الله، وجعلهم لشركائهم نصيبًا مما رزقهم الله افتراء [على الله](٢)، وكانوا مع ذلك يتحرجون من أن يطوف أحدهم بالبيت الحرام [عريانًا](٣) إلا أن يطوف بثياب أحد من قريش، وكانوا يسمون: الحُمس؛ لشدتهم في دينهم، فربما طاف الرجل من العرب أو المرأة عريانين، فأنزل الله جل ذكره: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف:٣٢] أي: من حرم هذا؟ من شرع هذا؟

ثم قال جل قوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهي لهم في الآخرة ﴿خَالِصَةً﴾ [الأعراف:٣٢] حيث لا يشركهم [فيها](٤) الكافرون والمنافقون.

ثم أنشأ يذكر ما حرمه هو ﷻ بقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ....﴾(٥) [الأعراف:٣٣].

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ

= عليه وعلى آله وسلم، مثل: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ [سورة الجن:١] ومنها: ما هو محتمل، كهذه الآية.

(١) في النسخة (ق): «تحريم».

(٢) في النسخة (ق): «عليه».

(٣) في النسخة (ق): «إلا عريانًا».

(٤) في النسخة (ق): «فيه».

(٥) قال الكلبي: لما لبس المسلمون الثياب وطافوا بالبيت عيّرهم المشركون بذلك، وقالوا: استحلوا الحرم، فنزلت. تفسير البحر المحيط (٣٣٨/٥).

كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأعراف: ٣٦ - ٣٨].

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى الله كَذِبًا أو كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ [الأعراف:٣٧] الذين افتروا على الله الكذب وهم المتنبئون أيضًا هم الذين شرعوا للناس ما لم يأذن به الله، فضلوا بذلك وأضلوا، والذين كذبوا بآيات الله هم الأتباع والمتبوعون، فانتظم بمعنى ما تقدم ذكره بالمجاورة والمعنى.

﴿أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الكِتَابِ﴾ [الأعراف:٣٧] يطوون آثارهم، ويأكلون أرزاقهم، ويعمرون في آجالهم كما سبق لهم [إلى قوله](١): ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ﴾ [الأعراف:٣٨] هذا حال الموت في دار البرزخ يقرن كل كافر بوليّه من الجن فيكون معه في دار البرزخ [يحشر](٢) ويدخل مدخله في جهنم، فللجني عذاب السعير، وللإنسي عذاب النار وعذاب جهنم [نعوذ بالله، أعاذنا الله من ذلك](٣).

ويتضاعف لكل واحد منهما عذابه بعذاب قرينه، لذلك قال وهو أعلم: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٨] و﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ الله زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ العَذَابِ﴾ [النحل:٨٨] يضاعف لهم الضعفان أضعافًا على مقادير ضلالهم وإضلالهم لإفسادهم وصدهم عن السبيل.

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن

---

(١) في النسخة (ق): «إلى قوله: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٣٧] إلى قوله الحق عز جلاله».

(٢) في النسخة (ق): «والمحشر».

(٣) في النسخة (ق): «نعوذ بالله من ذلك كله».

فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف: ٣٩ - ٤١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ [الأعراف:٤٠] المستكبر عن الآيات هنا هو المكذب بالرسالة والنبوة وبما جاءت به، فمعنى الآية: إن الذين [كفروا][(١)] بالله وبرسله، ويكون التكذيب والاستكبار حالين لهم ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاطِ﴾ [الأعراف:٤٠] [لما][(٢)] لم يؤمنوا بآيات الله في السماوات والأرض وتعاموا عنها، [ولما لم][(٣)] يشهدوا بشهادتها لله لم تستبشر بهم الملائكة - عليهم السلام - ولا السماوات والأرض بل لعنهم الله ولعنهم اللاعنون، الملائكة والسماوات والأرض وكل شيء يسبح لله وحده، وغلقت أبواب السماء دونهم بعد الموت، ولما لم يعملوا الصالحات ولا صدقوا بالآخرة لم يدخلوا الجنة، ولا كان لهم فيها حظ.

قال الله ﷻ: ﴿حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاطِ﴾ على عظمه وغلظه، وسم الخياط على ضيقه ودقته لم يوسع سم الخياط ولا صغر الجمل، وقد قرأ ابن عباس وعكرمة هذا الحرف «الجُمّل» بضم الجيم وتشديد الميم، وهو حبل السفينة الغليظ[(٤)] تبارك الله رب العالمين.

علّق ذلك بكون مقدور غائب محال وجوده في مجرى العادة، وذلك [يعلق][(٥)] بالمشيئة العالية ومقدور للعلي الكبير، بل هو مثل ضربه في رجوع جملة المثال إلى موضع الحياة من الجسم وهو القلب، واعتبر ذلك بالزرع تزدرع الحبة، وهي الجامعة لصورة الزرع الأخضر على كماله، فلا تكون الحبة كاملة إلا بأن يلج، المعنى الذي به نشأ الزرع إلى كماله، ولا يكون ذلك من الزمان إلا زمن المصيف،

(١) في النسخة (ق): «كذبوا».

(٢) في النسخة (ق): «كما».

(٣) في النسخة (ق): «ولا».

(٤) يروى عن ابن عباس أنه قرأ (الجمل) بضم الجيم وتشديد الميم، وقال: هو القلس من حبال السفن. [معاني القرآن للنحاس (٣٥/٣)].

(٥) في النسخة (ق): «معلق».

وهو [ظهور اليوم][١] الآخر، صحح ذلك القرآن، والوجود عمَّ عن ذلك في هذا الموضع بقوله: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاطِ﴾ لذلك تقول لهم الخزنة - عليهم السلام - في بعض محاوراتهم إياهم: ﴿ذَلِكُم﴾ يريدون مكثهم في النار ﴿بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا...﴾ [غافر:١٢] إلى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر:١٣].

[كذلك][٢] جعله علة الرؤية ظهور المقدور الحاضر [في قوله][٣]: ﴿لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف:١٤٣] وكون الجبل مستقرًا مكانه معهود مشاهد، فحصل العلم بوجود الرؤية واليقين [بمنالها][٤] والحمد لله رب العالمين، كما حصل اليأس من خروجهم من النار.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّاۖ قَالُواْ نَعَمْۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْۚ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ

---

(١) في النسخة (خ): «أوان ظهور النور».

(٢) في النسخة (ق): «ليس كذلك».

(٣) في النسخة (خ): «قوله».

(٤) في النسخة (ق): «بمثالها».

تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأعراف: ٤٢ - ٤٩].

قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا...﴾ [الأعراف:٤٤] لو تكلم الكافر بعد الموت لأخبر لا بد ولا محالة؛ [لأنه][1] قد وجد ما وعده ربه حقًّا من العذاب وسوء المصير، ويشعر هو نفسه أن لو قد مات على ما هو عليه لوجد جزاء عمله حاضرًا، كذلك فعل رسول الله ﷺ بأصحاب القليب.

ثم أتبع ذلك قوله: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ الله عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله﴾ [الأعراف:٤٤ - ٤٥] نشأ الذي في قلب [المؤمنين من العلم بما بين الحالتين][2]، والبون بما بين المنزلتين في الآخرة إلى آذان المؤذن بين الفريقين، يعلم فيه الجميع أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله؛ يعني: ما جاءت به الرسل عليهم السلام ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف:٤٥].

ثم قال جل ذكره: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ [الأعراف:٤٦] يعني: بين أهل الجنة والنار، وهذا القرب معلوم عن إثارة الوجود [المفهوم أول افتراقهما هو من موضع واحد، ثم لا يزال الفراق يطول والبعد يتأكد أبدًا، وكذلك البيت أقرب ما يبون حال موته بين أهله، ثم][3] لا يزال شخصه يبلى وذكره ينسى، وأثره ينقطع حتى يبعد كل البعد، كذلك قال عز من قائل يصف حال المنافقين في عرصة [المحشر][4]: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ....﴾ [الحديد:١٣].

[الظاهر المعهود أن هذا الإعلام بهذا الخطاب من لدن قوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ [ص:٥٦] إلى قوله: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ﴾ [ص:٥٩] قالوا: أي: المورد وعليه ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ [الأعراف:٣٦] في النظر إليها.....][5].

---

(١) في النسخة (ق): «بأنه».

(٢) في النسخة (ق): «المؤمن من العلم بما بين الحياتين».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «المحشر وبعد الموت حال البرزخ».

(٥) سقط من النسخة (ق) وبياض في النسخة (غ).

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاً بِسِيمَاهُمْ﴾ [الأعراف:٤٦] قيل: الأعراف: موضع مشرف بين الجنة والنار، وربما سُمي الموقف والموضع بمعنى أهله، فالله أعلم.

والأقرب أنهم قوم قد عجزت حسناتهم عن أن تدخلهم الجنة، ولم تبلغ بهم سيئاتهم أن تدخلهم النار، وكانوا مع ذلك يعرفون في الدنيا، ويعرفون [كشهادة][1] الرؤساء وأشباههم، فوقفوا لتخلفهم بموضع مفترق الجمع، فتمر بهم زمر أهل الجنة ذات اليمين، وزمر أهل النار ذات الشمال [نعوذ بالله من سوء المصير، يعرف الأولون منهم الأولين من أهل النار][2] ويعرف الآخرون الآخرين بسيماهم، سيماء هؤلاء سواد الوجوه وزرق العيون، قد غشيتها الغبرة وترهقها القترة، ومن سيماهم وسم على الخراطيم، فعدل بصورتهم عن صورة الحق إلى صورة الخنازير والقردة، وأنواع [الحيات][3] التي كانت طباعهم تميل إليها، ومن سيماهم كتب بشمائلهم، وسيماء المؤمنين بياض الوجوه واستبشارها وضحكهم، كتبهم بأيمانهم مكرمون.

ووجوه أصحاب الأعراف إلى الجنة كما كانوا في الدنيا قلوبهم ووجوههم إلى [الإسلام والإيمان، ينادون أهل الجنة بالسلام والترحيب والتهليل والتلبية][4]، وأصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة بعد وهم يطمعون في رحمة الله جل ذكره، ثم تصرف أبصارهم إلى أصحاب النار فيرون سوء مصيرهم [فييئسون][5]، ثم يبتهلون إلى ربهم يقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف:٤٧].

ويعرف أصحاب الأعراف [منهم][6] رجالاً كانوا في الدنيا رؤساء متبوعين فينادونهم: ﴿مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ في الدنيا ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف:٤٨] فيجيبهم أولئك ينقمون عليهم موقفهم ذلك، يعيرونهم باحتباسهم

---

(١) في النسخة (ق): «كشهرة».
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «الحيوانات».
(٤) في النسخة (ق): «الإيمان والإسلام ينادون الجنة بالسلام والترحيب».
(٥) في النسخة (ق): «فيبتئسون».
(٦) سقط من النسخة (ق).

عن إخوانهم هنالك [بجواب][1] حذفه، ومعناه والله أعلم: وأنتم فما أغنى عنكم دينكم الإسلام وما كنتم تعبدون، فيجيبهم أصحاب الأعراف بجواب هو محذوف.

أظهر هذا، وهذا ما بعده وقبله معنى الجواب والله أعلم: إنا طامعون في رحمة ربنا أو ما يكون من الكلام معناه هذا، [فيقولون][2] لهم أصحاب النار بجواب حذفه أيضًا معناه [وهو][3] أعلم: والله لا ينالهم الله برحمته أبدًا، فيغضب الله رب [العالمين][4] ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه لهم من أجل قولهم ذلك وللحظ الذي [له][5] فيهم، وهو الذي قدره وأبدأه منهم برحمته، فيقول جل قوله: ﴿أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾[6] [الأعراف:٤٩].

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾

---

(١) في النسخة (ق): «الجواب».

(٢) في النسخة (ق): «فيقول».

(٣) في النسخة (ق): «والله».

(٤) في النسخة (ق): «العزة».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) إشارة لهم إلى أهل الجنة الذين كان الرؤساء يستهينون بهم ويحتقرونهم؛ لفقرهم وقلة حظوظهم من الدنيا، وكانوا يقسمون أن الله لا يدخلهم الجنة ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ يقال لأصحاب الأعراف: ادخلوا الجنة، وذلك بعد أن يحبسوا على الأعراف، وينظروا إلى الفريقين ويعرفونهم بسيماهم، ويقولوا ما يقولون. وفائدة ذلك: بيان أن الجزاء على قدر الأعمال، وأن التقدم والتأخر على حسبها، وأن أحدًا لا يسبق عند الله إلا بسبقه في العمل، ولا يتخلف عنده إلا بتخلفه فيه، وليرغب السامعون في حال السابقين ويحرصوا على إحراز قصبتهم، وليتصوروا أن كل أحد يعرف ذلك اليوم بسيماه التي استوجب أن يوسم بها من أهل الخير والشرّ، فيرتدع المسيء عن إساءته، ويزيد المحسن في إحسانه، وليعلم أنّ العصاة يوبخهم كل أحد حتى أقصر الناس عملاً. الكشاف (٢/٢٣٥).

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف: ٥٠ - ٥٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:٥٨] أعلم ﷻ بحقيقة الحق الذي بثه في عالمه وخلق به السماوات والأرض وما بين ذلك في الستة الأيام من الدهر التي أولها السبت [والأحد][١] إلى الخميس.

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ [فصلت:٩] يعني: وهو أعلم السبت والأحد، خلق التربة يوم السبت، وخلق الجبال يوم الأحد، وقيل هذا في هذين اليومين خلق السماء دخانًا مرفوعًا في الهواء، ثم [باركها][٢] في الأرض، وقدر فيها أقواتها في الأربعة الأيام الباقية وقبل هذا في هذه الأربعة الأيام قضى السماوات سبعًا فصلهن بعضهن من بعض،

---

(١) في النسخة (ق): «ثم الأحد».

(٢) في النسخة (ق): «بارك».

وأغطش ليل السماء الدنيا وزينها بالنجوم وحرسها بالرجوم، وأخرج ضحاها وأوحى في كل سماء أمرها في أربعة أيام سواء للسائلين.

ثم استوى إلى السماء وهي دخان [فقط][١] فعطف بحرف «ثم» على قوله: ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: إن قضاءه السماوات وتفصيلهن كان بعد اليومين الذين خلق الله فيهما السماء دخانًا، والأرض والجبال بين ذلك في موضع آخر من كتابه في قوله: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ [النازعات:٢٧ - ٢٩].

[ثم قال][٢]: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات:٣٠] إلى آخر المعنى، فبيَّن بقوله: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ وليس المشار إليه [بقوله][٣] إلا ما ذكره من إتمام أمر السماء، فهذه الستة الأيام التي خلق الله فيهن السماوات والأرض بنص القرآن.

ثم [ببيان][٤] رسول الله ﷺ حيث قال: «**خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال يوم الأحد، وخلق الثرى يوم الإثنين** - وفي أخرى: «[**البحر**][٥] **والماء**» - **وخلق الظلمة يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق السماء أولاً ثم الأرضين**»[٦].

وإنما أخبر هنا عن خلقه الأرض، ولذلك لم يعرج على ذكر السماء إلا عن جنب، ولما كان الغرض في سورة «والنازعات» الإخبار عن السماء أعلم [بتقديمه][٧] خلق السماء فقال: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات:٢٧]

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «بقوله: ذلك».

(٤) في النسخة (ق): «بتبيان».

(٥) في النسخة (ق): «الشجر».

(٦) أخرجه البخاري في «التاريخ» (٤١٣/١) وقال: قال بعضهم: عن أبي هريرة عن كعب، وهو أصح. ومسلم (٢٧٨٩)، وأحمد (٦٣٢٣)، والنسائي في الكبرى (١١٠١٠)، وابن خزيمة (١٧٣١)، وأبو يعلى (٦١٣٢)، والديلمي (٢٩٢٧) بنحوه.

(٧) في النسخة (ق): «بتقدمه».

إلى آخر المعنى، إلى قوله: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات:٣٠] فالسماء هي الأولى في الإيجاد وقضاء الأمر والتفصيل والتبريك، ويتلوها الأرض في جميع شأنها وذلك كله في الستة الأيام.

ثم قال عز من قائل: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ....﴾ [الأعراف:٥٤].

وقال في موضع آخر: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤].

وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ [يونس:٣].

وقال في موضع آخر: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة:٤ - ٥] المعنى إلى آخره حيث جاء ينبئ فيه أنه ﷻ فعل فعلاً ما على العرش سماه استواء؛ لأنه قصد إلى التسوية والسواء؛ [أي: الإتمام والإكمال والعدل ونحو هذا، فسوى كل موجود على وجوده الذي شاءه به، وله التسوية على العرش العظيم][1].

دلَّ على هذا التوجيه قوله جلَّ من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة:٢٩] أي: فصلهن وأكملهن، وأوحى فيهن أمرهن بحكم سواء وتدبير عدل على ما [سوى][2] علمه، فسمى الفعل الذي هو قصد إلى المقصود باسم مشتق [من اسم المقصود لما قصد

---

(١) في النسخة (ق): «إلى الإتمام والإكمال على ما قد سبق في مشيئته».

(٢) في النسخة (ق): «سبق في».

إلى تسوية السماء سمى القصد: استواء، وذلك][1] المعهود في لسان العرب الذي نزل القرآن به، تقول: «اكتوى زيد» إذا قصد الكي، و«استقاء» إذا [استفعل][2] القيء.

قال الله جل من قائل: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ﴾ [النساء:٤٣] أي: اقصدوا، من يممت الشيء: قصدته، سمي [ذلك][3] الفعل تيممًا.

وقال رسول الله ﷺ: «**التيمم ضربة للوجه وأخرى للذراعين**»[4] فسمي الفعل الذي هو بدل من الوضوء تيممًا، وأجرى المسلمون اسم التيمم على [الفعل الذي هو بدل من البدل كذلك كلمة الاستواء ورفعه على الاستواء الفعل][5] الذي هو الإكمال والإتمام والتسوية على النحو الذي أراده، وهذا كثير [معلوم][6] متعارف في كلامهم وفي المعهود من [عباراتهم][7]، والسواء الكمال.

قال الله ﷻ: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت:١٠] أي: كاملة تامة.

وقال: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ [ص:٧١ - ٧٢] [يعني: أكملته وأتممته][8].

وقال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا...﴾ [يوسف:٢٢].

ثم بعد هذا يكون المفهوم من استوائه سبحة من سبحاته - جل ذكره - كما قال في وصف نفسه ﷻ: وتكبر وتعالى [وتبارك][9] ونحو هذا؛ إذ ليس [من فعله

---

(١) في النسخة (ق): «من المقصود لما قصد إلى التسوية سمى القصد: استواء، وذلك هو».

(٢) في النسخة (ق): «استعمل».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) أخرجه أحمد (١٨٣٤٥)، وابن أبي شيبة (٣٦٢٩٠)، والدارمي (٧٤٥)، وابن خزيمة (٢٦٦)، والطبراني في «الأوسط» (٥٤٢).

(٥) في النسخة (ق): «ذلك كذلك كلمة الاستواء واقعة على الفعل».

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «عاداتهم».

(٨) في النسخة (ق): «أي: أكملته خلقًا ونفخت فيه من روحي».

(٩) سقط من النسخة (ق).

شيء][1] إلا وهو دال على كماله وعظمته وجلاله ونعوت تعاليه.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف:٢٢].

وقال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:٢٩].

وقال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:٣١].

فاستواء الإنسان كمال عقله وعمله وتوفر صفاته، والمستوي منه هو المقول له العبد، وموضع استوائه من حيث هو عقل الدماغ، ثم ينزل [منه الأمر][2] إلى القلب، ثم عن القلب تنبعث الدواعي والأغراض والإرادات بالأفعال إلى الجوارح الظاهرة من طاعة أو عصيان، وكأن القلب أولى بأن تضاف [الأفعال][3] إليه؛ إذ هو المصدر لها كالإنسان تضاف إليه أفعاله، وإن كان في الحقيقة [مسوقًا][4] أيضًا ومحمولاً عليها؛ إذ كان بإرادته ومشيئته ليتم أمر الله فيه الذي [له أوجده][5].

عبرة: فالله الحي القيوم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه لما استوى على العرش لتتم كلماته صدقًا وعدلاً، وليدبر بأمره السابق في الأزل قبل إيجاد الخليقة حييت به الجملة كما حيي جسم الإنسان باستواء المستوي فيه وعليه، فكان [لذلك][6] كل ما كان في جسمه [معلق ما][7] له محسوس ظاهرًا وباطنًا لا يخطر له خاطر في باطنه، ولا يحدث في جسمه حادث مع التيقظ ووجود الصحة إلا أحسه.

---

(١) في النسخة (ق): «شيء من فعله».

(٢) في النسخة (ق): «الأمر منه».

(٣) في النسخة (ق): «الأفعال والإرادات».

(٤) في النسخة (خ): «مسبوقًا».

(٥) في النسخة (ق): «أوجده له» وبعد هذا الكلام قال: «تنبيه: وقد يجوز أن يعتقد العبد أيضًا أنه مستوٍ في القلب من حيث هو حي، فهو في الدماغ من حيث هو عقل، وفي القلب من حيث هو حي، وهو روح ومن حيث هو إيمان».

(٦) في النسخة (ق): «كذلك».

(٧) في النسخة (ق): «هو معلوم».

والروح أو العقل [المشار][(١)] إليه بهذه العبارة وليس من جنس الجسم ولا وصفه وصفه، بل هو شيء لا [تعرفه][(٢)] جملة الإنسان، ولا يقف على كنهه، ولا يحيط من علمه إلا بما شاء الله - جل ذكره - المالك لكل شيء، فالله الحي القيوم لا إله إلا هو أجلّ وجودًا وأكرم استواءً وأنزه وصفًا، وصف نفسه - عز جلاله - عند استوائه على العرش بأنه ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ:٢] وبأنه مع كل كائن في جملة العبد الكلي بما هو، وبأنه أقرب إلى كل شيء من ذاته، [إنما][(٣)] هو سبحانه وله الحمد ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ﴾ [سبأ:٣].

قال الله ﷻ: ﴿أَو لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الروم:٨] ﷻ علوًّا كبيرًا.

﴿وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧] [فيما صنع كيف أتقن مصنوعه العليم بكل شيء][(٤)].

واعلم أن هذا منبعث [وصفه الحق بأنه][(٥)] ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة:٧] ثم ينشأ هذا الحق بعد تحقيق الولاية، [وإنما يكون][(٦)] عن معنى من نفخة الروح في العبد إلى تحقيق معنى قوله: «**كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن دعاني لأجيبنه، ولئن سألني لأعطينه**»[(٧)] وإنما ذلك لحقيقة القرب الكائن عن حقيقة التقريب.

---

(١) في النسخة (ق): «هو المشار».

(٢) في النسخة (ق): «تعرف».

(٣) في النسخة (ق): «بما».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «من وصفه الحق».

(٦) في النسخة (ق): «ويكون ذلك».

(٧) أخرجه البخاري (٦١٣٧) وابن حبان (٣٤٧) والبيهقي (٢٠٧٦٩) وأبو نعيم في «الحلية» (٤/١).

ثم [إلى قوله جل قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦].

قوله الحق][1]: «**يا ابن آدم مرضت فلم تعدني، وجعت فلم تطعمني، [وظمئت][2] فلم تسقني...**»[3].

وكما هو أقرب إلى العبد من وريده من حيث الخلقة فهو إذًا أقرب إليه بالولاية وجودًا ومعنى وحكمًا [وغيبًا][4]، فهو الذي لا يخلو منه مكان ولا كائن، [وليس في][5] مكان، فافهم وألقن، فإنه من فهم هذا المعنى على ما هو قرب عليه البعيد وتيسر [عليه][6] العسير، والله ولي التوفيق.

وقد زاد المحسنين تقريبًا [في قوله][7]: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة:١٨٦].

قوله تعالى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف:٥٤] غشيان النهار الليل إنما يظهر أمر الله فيه من لدن طلوع الفجر، بل من أول الفجر الأول، وهو البياض المعترض في السماء علوًّا إلى طلوع الشمس، كما يظهر انسلاخ النهار عن الليل من لدن غروب الشمس إلى مغيب الشفق، ثم إلى ذهاب البياض الباقي بعده، وما عدا هذين فهو فحمة العشاء، [وهو الغسق][8] إلى آخر الثلث الأول من الليل، ثم إلى النصف من الليل إلى آخر الليل، وذلك البياض الذي يظهر في السماء بعد ذهاب الفُحمة هو ظاهر بركة التنزل الكريم، وسمى الفُحمة من الليل بغسق؛ لأنه إذ ذاك كمُل خروجه من النهار [قال الله ﷻ: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم

---

(١) في النسخة (ق): «إلى حقيقة قوله».

(٢) في النسخة (ق): «وصديت».

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٩)، وابن حبان (٢٦٩).

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «وليس في يده من حيث الخلقة».

(٦) في النسخة (ق): «له».

(٧) في النسخة (ق): «في قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦] و﴿وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩] وقوله».

(٨) في النسخة (ق): «وهو الغسق».

مُّظْلِمُونَ﴾][(١)] فغشيان النهار إياه حكم باطن.

قال الله ﷻ: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس:٣٧].

وقال في سورة الرعد: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ [الرعد:٣].

فقوله: ﴿مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ منتظم بقوله: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ لما نصب ﷻ قنن الجبال على شكل الكرة بعد مده الأرض، جعل غسق الليل دائرًا مع أعلى قنن [الجبال][(٢)]، ثم أول الليل يسلخ النهار من الليل، وآخره يغشيه إياه، ثم قوله: ﴿وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ آيات على وجود موجودات الجنة، ولما كانت الدنيا بالإضافة إلى الآخرة ليلاً والآخرة نهارًا كان غشيان [النهار][(٣)] الليل فيها ها هنا، و﴿يَطْلُبُهُ﴾ إياه ﴿حَثِيثًا﴾ [الأعراف:٥٤] أبدًا، كان ذلك آية على طلاب الآخرة للدنيا تطلابًا حثيثًا، كما قال جلَّ من قائل: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس:٤٠] أي: إن النهار مدركه فيغشاه، ثم يمهله لإتمام الأجل المسمى كما تفعل الآخرة بالدنيا، [الآخرة][(٤)] تطلبها وهذه لا تفوتها حتى يأتي أمر الله ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ المِيعَادَ﴾ [الرعد:٣١].

وآية أخرى: إن النهار بما هو دولة النور، وموضعه في هذه الدار، والليل على ضد ذلك، فالطلب للأعلى منهما، وهو النهار الذي هو عبارة في طريق التأويل عن النور، والنور في الوجود يطرد الظلام، وليس الظلام بطارد للنور، لكنه خالف له [وقف][(٥)] على تمييز الفرق بين ذلك.

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف:٥٤] أمر الله ﷻ هو شأنه وذكره هنا عبارة عما يقضيه - عز جلاله - من

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «الرواسي».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «فقف».

أمر «**إذا قضى الله الأمر في السماء سمعت الملائكة [له]**[١] **كوقع سلسلة على صفوان...**»[٢].

وقد تقدم ذكر هذا وتقدم الله العلي - عزَّ جلاله - في ذلك الأمر كله بالتقدير العلي وألزم له في الكتاب المبين.

قال الله عز من قائل: ﴿**وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا**﴾ [فصلت:١٢] [أي: ما هو لكل سماءٍ أوحى ذلك إليها؛ أي: الأمر الذي هو الخاص لها، ثم المعلوم لها من خاص وعام على أسبابه وكيانه الذي سبقت به مشيئته في ذواتها، فيخرجه بعد على آجاله، ويرتبه مراتبه وآياته، فكان ذلك الوحي لهن بمنزلة الفطر لجميع الخليقة بمنِّه وبفضله يعطيه [بأمره] قال الله ﷻ: ﴿**قُلِ اللهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ [الزمر:٤٦]][٣].

وقال إبراهيم ؑ: ﴿**بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ**﴾ [الأنبياء:٥٦] فكان [معنى خطابه ؑ هذا قومه لما أضافوا الأفاعيل][٤] إلى الكواكب، ثم نسبوا إليها أصنامهم ونحتوها على أرصادها، وأضافوا ما يصيبهم من [رخاء وشدة][٥] إلى الأوثان، واعتقدوا ذلك فيها، ونووه عندها.

قصد إلى منبعث ضلالهم بما أبطل تعلقهم بها وأدحض حجتهم لها، فقال ؑ: [﴿**بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ**﴾ [الأنبياء:٥٦].

كما قال][٦]: ﴿**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا**﴾

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) في النسخة (ق): «أي: هو لكل سماء على الخصوص لها الذي أوجدها له، أوحى ذلك إليها مجملاً محكمًا، ثم هو الآن يفصل ذلك إلى يوم يبدلهن بغيرهن، غرر ذلك في ذواتها فتخرجه بعد على مراتبه على آياته، كان ذلك الوحي بمنزلة الفطر لجميع الخليقة على ذلك فطر لهن وهو أمر عام، كل أمر له فيهن عنه يفصله تفصيلاً بعد تفصيل».

(٤) في النسخة (ق): «خطابه قومه لما أضافوا الأفعال».

(٥) في النسخة (ق): «شدة ورخاء».

(٦) سقط من النسخة (ق).

[الأنعام:٧٩].

كما قال يوسف ﷺ: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١] ففطره لهن إيجاؤه أمرهن المقدر إليهن، والأمر الذي أوحى به إليهن هو أمر الإسلام [له، والأمر الذي أوحى في كل سماء وفي كل أمر هو أمر الإسلام له][(١)] أولاً، ثم ما [كان][(٢)] من كائن عنهن ومنهن، وكل ما أطيع الله به من عمل أو قول أو شهادة فهو [إسلام][(٣)]، والأمر النازل من لدنه ﷻ فيما هذا سبيله أمر كون [لا بد][(٤)] كائنًا، وهو المعني بقوله الحق الذي قال ﷻ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨].

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾ [النساء:٤٧] والأمر الذي [أرسل به][(٥)] رسله أمر شرع جمعه أو أمر أوجد له ما يقابله في المكلفين؛ أعني: الثقلين، [وهو][(٦)] العصيان، فلذلك تطرق إليه الخلاف، ليس كذلك أمر الكون.

اتبع ذلك قوله جل من قائل: ﴿أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤] والخلق: الإيجاد، والأمر شأنه، وما يقضيه بمشيئته العالية، أجرى أمره من الخلق مجرى الأرواح [من][(٧)] الأجسام، جمع بها بين الكلمتين، كل ما أوجده من شيء علوًّا وسفلاً دنيا وآخرة، [ثم تبارك جل ذكره، وسمى بالمنازل سبحانه وله الحمد ما أتقن ما صنع، وأحكم ما خلق، وأحسن ما دبر، فتبارك الله رب العالمين، فجمع كل مذكور من رب ومربوب قديم أو محدث، وما كان وما يكون أبدًا وأزلاً][(٨)].

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «يكون».

(٣) في النسخة (ق): «إسلام له».

(٤) في النسخة (ق): «جمعه أمور الأبد».

(٥) في النسخة (ق): «به أرسل».

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «في».

(٨) في النسخة (ق): «ثم تبارك - عز جلاله - عند ذكره ذلك، وتسمى بالمبارك لما كان الأحد في كنهه الأول، ثم أوجد جميع الموجودات ظاهرًا وباطنًا وأرسل الرسل وأنزل الكتاب =

قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف:٥٥] إلى قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦] أمر جل ذكره أن يكون الدعاء منا تضرعًا وخفية في حال الدعاء الكريم قربه وعلي وجوده ولغناء ذلك؛ لأنه لا يكون على الأغلب إلا [على علم من][1] بقرب المدعو المرغوب إليه عز جلاله، [لا في حال ذلك من الداعي بعظيم غنى ذلك عند الله ﴿وَخُفْيَةً﴾ من إخفاء الصوت][2].

وقد مدح جل ذكره [نبيه][3] زكريا عليه السلام بذلك فقال: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم:٣] وذلك [لا يكون من الداعي إلا [من تجلى][4] علمه بربه وأصوب لقيله؛ لأن القلب على ذلك أفرغ][5] ولأن الدعاء ليس من الأعمال التي يُرجا بها الاقتداء على الأغلب، فكان ترك الإعلان أولى؛ لأن [المخاطبة في حال الدعاء لله جل

=

تسمى بالمبارك، ولم يزل كذلك؛ لأنه كان من قدره السابق وعلمه العلي أنه سيفعل ذلك، وهو الله ﷻ في غير هذا الموضع ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ أي: الآن ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك:١] أي: الآن، وإذا شاء تبديل السماوات والأرضين بغيرهن فعل ما شاءه من ذلك، فيكون ذلك مزيدًا منه كما قال: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥] فهو أبدًا يتبارك بمزيد إلى مزيد، وكان أول ذلك من تبريكه ما أخبر عنه من فعله الأول. قوله الحق: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان:٦١].

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١] أنزل عليه الكتاب وملأه حكمة وإيمانًا، وجعله أمينًا على وحيه وسفيرًا عنه ومن عباده، فتبارك لذلك ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ [الفرقان:١٠] لما كان رسول الله ﷺ في عسرة حال احتج عليه المكذبون بما جاءهم به بقولهم: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان:٧ - ٨].

أجاب عز من قائل: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ...﴾ هذا ذكره البركة وتسميته باسم المبارك عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه عند ذكره الزيادة والأمر العجب، فسبحانه وله الحمد ما أتقن ما صنع وأحكم ما خلق وأحسن ما دبر فتبارك الله رب العالمين».

(١) في النسخة (ق): «عن علم من الداعي».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «عبده».

(٤) بياض في النسخة (غ) والزيادة لمناسبة السياق.

(٥) في النسخة (ق): «أحسن تفرغًا لقلب الداعي وأصوب لقيله وأكرم لمناجاته».

ذكره][1] حقيقة مناجاة من الداعي من قرارة نفسه وخالص من سره، فكأن السر أولى [وأقرب إلى توجيه الخطاب][2] والاعتداء في الدعاء هو في المحافل، وعلى حال الجهر به إذا لم تدع إلى ذلك حاجة.

وقد يُنهى عن الجهر به مخافة السمعة والرياء، وقد يكون [معنى الاعتداء][3] الإدلال، فإنه لا يتم عمل عامل بالإحسان حتى تباعد الإدلال والتعدي لطوره، وقد يكون الاعتداء [في الدعاء][4] أن يسأل ربه ﷻ ما ليس له سؤاله، مثل [أن يسأله][5] أن يجعله نبيًا أو رسولاً ونحو هذا، وقد [سُئل][6] ذلك، وقد عبر عن ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «**ما لم يسأل إثمًا أو قطيعة**»[7] فإذا تم الدعاء على شروطه [وأوصافه فقد قال][8]: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠].

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [ثم قال: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ أي: بالعمل بطاعتي ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦] إلى مسؤلهم يسألونه فيجيبهم يومئذٍ.

يؤيد هذا التأويل][9] وهو إذا أحسن في أداء الدعاء على ما أُمر به، فقد قال: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦].

ومن الدعاء ما هو قد وافق [أجل المدعو فيه، ومنه ما هو على المثل][10]، ومنه ما لم يأذن الله في إتمامه، وسبق الكتاب بخلافه، وقد سأل رسول الله ﷺ

---

(١) في النسخة (ق): «المخاطبة حال الدعاء».
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «الاعتداء المنهي عنه أيضًا في الدعاء».
(٤) سقط من النسخة (ق).
(٥) في النسخة (ق): «سؤال أحدنا».
(٦) في النسخة (ق): «سد».
(٧) تقدم تخريجه.
(٨) في النسخة (ق): «قال عز من قائل».
(٩) سقط من النسخة (ق).
(١٠) في النسخة (ق): «حضور أجل المرغوب فيه».

[ربه][(١)] ثلاثًا فأعطاه اثنتين ومنعه الثالثة ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم:٢٦] غير أن الداعي إذا صحت نيته وقويت [خشيته][(٢)] فهو أيضًا بين ثلاث: بين أن يقضي حاجته معجلاً أو مؤجلاً، وبين أن يصرف عنه من السوء ما هو [أكثر من حاجته لدعائه وإخلاصه، وبين أن يدخر ذلك له][(٣)].

قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ....﴾ [الأعراف:٥٧] [هذا منتظم][(٤)] بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤].

ثم عطف على ما تقدم ذكره قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ [الأعراف:٥٧] ناظمًا على المجاورة في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ [والمعنى بقوله: ﴿أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾][(٥)] فأعلم بأمره في الرياح، ثم في الماء، ثم في خلقه ما يخلقه من الماء، ودل بذلك على [الذي][(٦)] يملك حوائج العالمين، ويسمع دعاء المتضرعين، ويجيب نداء المضطرين، ويعلم السر وأخفى بقوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ...﴾ [الأعراف:٥٥].

وقد يكون انتظام قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف:٥٧] بمعنى: الدعاء والأمر به تعريضًا بالمجاب [المعجل منه وبالمجاب المؤجل كأمره في الرياح، ثم في السحاب][(٧)] إذا

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «حسبته».

(٣) في النسخة (ق): «أكرم من حاجته ثوابًا لدعائه وإخلاصه، وبين أن يدخر له ذلك إلى الآخرة، والدعاء من العمل المرضي بل هو خالص العبادة ومحض العمل بطاعة الله، فهو لا يضيع والحمد لله رب العالمين».

(٤) في النسخة (ق): «انتظم هذا المعنى».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «أنه هو الذي».

(٧) في النسخة (ق): «المعجل الإجابة المؤجلة كأمره الرياح ثم بالسحاب».

شاء، ثم بالماء، [فيتم][(١)] على ذلك حوائج قوم فيسقون ويستقون، وتندى الأرض [وترطب النوى][(٢)]، ثم بآخره ينبت المرعى، ثم بآخره ما يخلق [عنه ما [يصدر] عن ذلك إليه ومنه أيضًا][(٣)] لأنه منه المؤجل [كما يقول إنما][(٤)] فيخلق عنه المعجل من مخلوقاته [ومؤجلها][(٥)] من نبات وأنعام وأناسي، فلا يسأمنَّ سائل الله جل ذكره، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

[ثم][(٦)] قال: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ المَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٥٧] أي: بالماء ينزله من السماء فينبت الأجسام في الأرض، ويأتي بأرواحها من الأجواء، ومن حيث [أحييناها][(٧)] بأمرنا أحكمنا هذا وفصلناه لعلكم تذكرون بحاضر ذلك غائبه، وقد تقدم في سورة البقرة الاعتبار بإنزال الله الماء حسب الاستطاعة ما [يكون][(٨)] فيه تطريق للمبتدئ وتذكير للمنتهي، والله ولي التوفيق، يقول الحق [ويهدي][(٩)] السبيل.

أتبع ذلك قوله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ وقرأ أبو جعفر: [«إلا نكَدًا»][(١٠)] بفتح الكاف، وقرأ طلحة بن مصرف «إلا نكْدًا» بإسكان الكاف وجه [الاعتبار][(١١)] وجهة أخرى؛ لذلك قال عز من قائل: ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:٥٨].

---

(١) في النسخة (ق): «فتيمم».
(٢) في النسخة (ق): «ويرطب الهواء».
(٣) سقط من النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «كما ينزل الماء».
(٥) في النسخة (ق): «والمؤجل».
(٦) سقط من النسخة (ق).
(٧) في النسخة (ق): «أحللنها».
(٨) سقط من النسخة (ق).
(٩) في النسخة (ق): «وهو يهدي».
(١٠) في النسخة (ق): «لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا».
(١١) في النسخة (ق): «العبرة».

وطريق ذلك: [أن يعرض][1] الذكر والتفكر والعلم والقرآن ونحو هذا بدل الماء، [وتعرض] بدل الرياح والسحاب [المذكور في طريق الماء، وأسبابًا يطابق وجودها وجود ما عرض بالنظر إليه، كشرح الصدر بالإيمان، وتنوير القلب وإحيائه بالعلم والروح][2] منه - جل ذكره - وتطهير الجوارح بترك المناهي، ولزوم التوبة من صغائر وكبائر، [ويعرض مكان]][3] القلب والجوارح، ثم [الفهم ولزوم التفهم والمثابرة على التعلم، وغير ذلك من الأوصاف والصفات.

وتفرض حمله العبد مكان البلد، فهذا هو البلد الطيب][4] الذي ينزل عليه الأمر ويحله العلم، فيخرج نباته بإذن ربه؛ أي: إعماله على مراد ربه، وابتغاء مرضاته، وعلى الذم لهذه الصفات هو البلد الذي [حيث][5] لا يخرج له نبات كالسباخ وأجادب البقاع والجبال الجرد وغيرها، فمتى أخرج عملاً أخرجه نكدًا بشرك فيه أو ترائي أو يعجب به أو يمن أو يؤذي، وإن كان علمًا [استحال فيه إلى فتنة وزيغ، وإن كان إعطاء قربة أبطله المن والأذى، وإن كان تقربًا قربه بإدلال][6] ونحو هذا.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟

(١) في النسخة (ق): «يفرض».

(٢) في النسخة (ق): «المذكورة».

(٣) في النسخة (ق): «ويفرض مكان الأرض».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «خبث».

(٦) في النسخة (ق): «كان فتنة وزيغًا وإن كان قربة قرنه بالأدلال».

ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةًۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا

كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأعراف: ٥٩ - ٩٥].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إلى قَوْمِهِ﴾[١] [الأعراف:٥٩] إلى آخر القصص كله أرجع [بذلك][٢] الخطاب إلى ما تقدم في صدر السورة قوله جل قوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف:٣] إلى قوله: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أو هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف:٤] إلى آخر المعنى، وهذه من آياته في الأرض نبّه عليها بقوله: [﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ﴾ (يوسف:١٠٩)][٣].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج:٤٦] ومن لم يسر [في الأرض][٤] فلتكن له أذن سامعة.

[كما قال عز من قائل: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق:٣٦].

ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أو أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧].

وقال: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات:٢٠] فهذه منها دل على ذلك ما تلاه علينا إلى خاتمة السورة.

قوله - جل قوله - بعض][٥] نبأ نوح ﷺ: ﴿أو عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:٦٣] من

---

(١) ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ جواب قسم محذوف؛ أي: والله لقد أرسلنا ﴿نُوحًا إلى قَوْمِهِ﴾ أرسل وهو ابن خمسين سنة، وكان نجارًا، وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ، وهو اسم إدريس ﷺ ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ غيره علي. فالرفع على المحل، كأنه قيل: ما لكم إله غيره فلا تعبدوا معه غيره، والجر على اللفظ ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يوم القيامة أو يوم نزول العذاب عليهم، وهو الطوفان. تفسير النسفي (٣٧٤/١).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «فإن الله جل ذكره قد جعل في ذلك الذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد القلب حاضره يعقل ما شاهده ويفهم ما سمعه فيعبر من شاهد ذلك إلى غائبه قوله جل ذكره يقص».

سنة الله - جل ذكره - [إرساله][(١)] الرسل إلى عباده أن جعل في ذلك من حكمته أحد ثلاثة أوجه [الله أعلم بما سوى ذلك][(٢)]؛ ليتقوا ربهم ويصدقوا رسله [فيثابون][(٣)] ثواب المؤمنين.

[قال الله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [النساء:٦٤] وفي حق هؤلاء لا تكون الرسل مبشرين وهادين ورحمة وغياثًا.

الوجه الثاني][(٤)]: أن يكذب منهم من سبقت عليه [الكلمة بذلك][(٥)] فيعاقبهم بذنوبهم، وفي حق هؤلاء [يكونون منذرين، وعذابًا وعقابًا.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام:٤٨] إلى قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام:٤٩]][(٦)].

الثالث: أن يكذبوا ويردوا ما [جاءتهم به][(٧)] رسلهم فيستوجبون الإهلاك، فيتقدم إليهم بالأعذار، ويأخذهم بالبأساء والضراء لعلهم [يذكرون فيتوبون، فإذا جاءهم البأس تضرعوا واستعتبوا ربهم، وتابوا إلى ربهم واستغاثوه][(٨)] فيكشف عنهم.

قال الله ﷻ: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا...﴾ [الأنعام:٤٣].

وأما قوم كذبوا الرسل واستمروا [في][(٩)] عتوهم، ولزموا عنادهم حتى [يروا العذاب الأليم، ويحيق بهم الإهلاك من ربهم][(١٠)] فبعيد عنهم الإقالة.

قال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾

---

(١) في النسخة (ق): «في إرسال».
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «وليثيبهم على ذلك».
(٤) في النسخة (ق): «والوجه الآخر».
(٥) في النسخة (ق): «كلمة العذاب».
(٦) في النسخة (ق): «يكون الرسل منذرين وفي حق المهتدين مبشرين».
(٧) في النسخة (ق): «جاءت به».
(٨) في النسخة (ق): «يتذكرون ويتوبون ويتضرعون ويستغيثون ربهم ويستغفرونه».
(٩) في النسخة (ق): «على».
(١٠) في النسخة (ق): «رأوا العذاب».

[غافر:٨٤].

يقول الله ﷻ: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر:٨٥].

[ومناجاة الله ﷻ على ما حكاه أهل التفسير والقرآن والوجود قد اتفق على ما قالوه والله أعلم، ولعل الذي كان حلَّ بها ولا كان البأس الأول الذي هو اشتراط الهلاك وإعلام العذاب، وهو الحق كما قال في غيرهم: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام:٤٢] وقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٣٠].

قال الله ﷻ][(١)]: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ﴾ أي: [حين أخذناهم بالبأساء والضراء][(٢)] ﴿فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا﴾ [يونس:٩٨] [وهذا استثناء من محذوف مقدر][(٣)] تقديره: فلم يكن ذلك، أو ما يكون [معنى][(٤)] المرسل إليهم تبليغ

---

(١) في النسخة (ق): «وما جاء عن بعض المفسرين أنه ما أمال أمة من الأمم سوي قوم يونس فغير صحيح القرآن والوجود قد أصفق على خلاف ما قالوه وإنما جنى هذا المعتقد عليهم في تأويل قول الله ﷻ».

(٢) في النسخة (ق): «إذا أخذناهم بالبأساء والضراء يقول».

(٣) في النسخة (ق): «إذ ذاك وهي الحالة الوسطى التي عبر عنها قوله ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٣٠] يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ [الأعراف:٩٤ - ٩٥] وقال في موضع آخر: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي من من إرسال الرسل إليهم ثم أخذنا إياهم بالبأساء والضراء ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤] هذه سنة الله في عباده أقامها فيهم مقام ظهور الملائكة وأعلام الآخرة للمحتضر لا تنفعه إذ ذاك توبة ولا ترجى له إقالة فقوم يونس آمنوا في الحالة الوسطى فأقالهم الله وتاب عليهم إنه هو التواب الرحيم كيف وهو يقول وقوله الحق يبعد عنهم الرجوع والتوبة ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ أي بالحالة الأولى ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف:١٠١] فما كان من هؤلاء من آمن إلا قوم يونس آمنوا حين أخذ الله إياهم بالبأساء والضراء ففي قوله ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس:٩٨] محذوف».

(٤) في النسخة (ق): «بمعنى هذا إلا قوم﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي
=

[الرسل][(١)] ومقامه بين أظهرهم [يروضهم][(٢)] ويبلغهم أمر ربهم إليهم إلى [ظهور][(٣)] العذاب معاينة مقام عمر العبد إلى معاينة أسباب الآخرة لحضور الموت، ومقام طول مدة [أيام][(٤)] الدنيا لجميع العباد إلى معاينة طلوع الشمس من مغربها، وما كان الله جل ذكره [ليأتيهم][(٥)] بالبأساء والضراء أولاً ليقدم إليهم السيئة قبل الحسنة، وما ذاك من [سننه في قضائه ولا في معاملة][(٦)] عباده.

ألا تسمع إلى قول صالح ﷺ [لقومه][(٧)]: ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الحَسَنَةِ﴾ [النمل:٤٦] [والحسنة هنا: الإيقان][(٨)] والتصديق، والسيئة: الخلاف [المعهود][(٩)] في أمم الأنبياء [بعدهم][(١٠)]، فإذا كان ذلك اعتادهم الله [ربهم][(١١)]

الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس:٩٨] فأقام ﷺ للأمة».

(١) في النسخة (ق): «الرسول».

(٢) في النسخة (ق): «يرومهم».

(٣) في النسخة (ق): «بلوغ».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «ليأتيهم به أي».

(٦) في النسخة (ق): «سنته في قضائه ومعاملته».

(٧) في النسخة (ق): «يخاطب قومه لما قالوا له: يا صالح ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت:٢٩] قال لهم».

(٨) في النسخة (ق): «يقول ﷺ: ليست هذه سنة الله في حال إنذاره عباده إن هم عتوا أخذهم بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون، فإن أبوا إلا مضيًّا في كفرهم أتاهم بما أنذرهم به، وهو وصف المكر بهم كما قال ﷻ: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام:٤٣] إلى قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام:٤٤] ولعلم صالح رسول الله ﷺ لهذا قال لهم: ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ [النمل:٤٦] لهم [....] وقولهم: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت:٢٩] ثم قال لهم: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل:٤٦] وإنما كانوا يتطيرون بالرسل في الحالة الثانية حين الأخذ بالبأساء والضراء ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ والحسنة هو الإيمان».

(٩) في النسخة (ق): «والعناد المعهود».

(١٠) سقط من النسخة (ق).

(١١) سقط من النسخة (ق).

بالسيئات المصائب والخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات [يكفر عنهم بذلك، ويخفف من أوزارهم، ولتقديمهم الحسنة قبل متعوا على ذلك إلى حين.

وأما من قدم الكفر والتكذيب وابتلي بالمصائب والبأساء فقليل رجوعه بعيد أوبته، فإذا هو لم يرجع جاءه العذاب][1] فسد مسدود وحجر محجور دون الإقالة، ثم على ذلك لا بد ولا محالة وجود التلاوم [والإقرار منهم حيث][2] لا ينفعهم كذلك المحتضر من [الكبار الندم والرجوع ولا قبول][3].

قال الله ﷻ: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء:٩٥].

وقال جل قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [استغاثة منه بربه ﷻ ﴿ارْجِعُونِ﴾ يخاطب ملائكة الموت][4] ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ فيقول ﷻ: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:٩٩ - ١٠٠] [أي: لا بد من قولها ولا تنفعه][5].

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) تِلْكَ

---

(١) في النسخة (ق): «يتأتى بهم إن كانوا كافرين أو يخفف عنهم أوزارًا ويكفر عنهم سيئات إن كانوا موحدين فمتى جاءهم العذاب بعد هذا».

(٢) في النسخة (ق): «وحضور الندامة إياهم والإقرار منهم بالظلم لأنفسهم حين».

(٣) في النسخة (ق): «الكفار لا بد من الندم والرجوع ولا بد من سد قبول التوبة دونه».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «يعذبون فيه يعني البرزخ يكون عذابهم فيه أكبر من عذابه إياهم في الدنيا ودون عذاب الآخرة الذي هم صائرون إليه بعد البعث نعوذ بالله من أحوالهم في الدنيا والآخرة».

ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف: ٩٦ - ١٠٢].

قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم...﴾ [الأعراف:٩٦] أعلم ﷻ أن كل ثمرة تنقص أو مصيبة تنزل بقوم أو مكروه يحل بهم، فإن ذلك لتكذيبهم بآيات الله، أو غفلتهم عنها، أو لذنوب هم مقيمون [فيها][1]، وأن الفرج من ذلك بالتقوى [والإيمان والعمل بطاعته][2].

فصل

[هذا قول الله - جل ذكره - وقوله الحق][3] وقد جاء أيضًا: «**أعظم الناس بلاءً [الأنبياء ثم الأمثل والأمثل]**[4]»[5].

وقال جل قوله: ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الزخرف:٣٣] المعنى إلى آخره، حيث وقع [كقول][6] رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب ﷺ، وقد رأى خزانته وما وقعت [عينه][7] إلا على أهب يسيرة وقرظ فبكى فسأله رسول الله ﷺ عن بكائه، فقال: «نظرت إلى خزانتك وذكرت فارس والروم وما أوسع الله لهم» [فقال][8]: «**أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة**»[9] ونحو هذا كثير.

---

(١) في النسخة (ق): «عليها».
(٢) في النسخة (ق): «وتجديد التوبة».
(٣) سقط من النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «الأمثل فالأمثل».
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) في النسخة (ق): «ولقول».
(٧) في النسخة (ق): «عينه فيها».
(٨) في النسخة (ق): «فقال لهم يا عمر».
(٩) أخرجه البخاري (٤٦٢٩)، ومسلم (١٤٧٩)، وابن ماجة (٤١٥٣)، وأحمد (١٢٤٤٠)، وأبو يعلى (٢٧٨٣)، وأبو عوانة (٤٥٧٣).

واعلم - وفقنا الله وإياك - أن هذا حق وهذا حق، لكنه متى جازى على الذنوب [والكفر ورد الرسل خير][١] ما بأولئك على القدر الذي شاءه، [وإذا كان الحكم علم وضع الدنيا على ما وضعها عليه، فإن الدنيا جنة الكافر ليتم مراده فيها، كما قال جل قوله: ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن:١٦ - ١٧] متى كان الحكم..][٢] من جهة النظر من عبده والأخذ له بالأولى فالتخفيف عن المؤمنين من أثقال الدنيا [وأوزارها لذنوب توجب ترك التوقعة عليهم][٣] منها، والله عليم حكيم.

[صدق رسول الله ﷺ هي جنة الكافر؛ إذ كونه في هذه الدنيا محجوب عن النار وما فيها من ضروب العذاب وأنواع الأنكال، وهي أيضًا سجن المؤمن؛ لأنه فيها محبوس عن الجنة والرجوع إلى ربه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه.

قوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [الأعراف:٩٢] المعنى هو موضع الإقامة، يقول: كأنهم لم يكن لهم فيها بقاء، بل ذهب بهم وما كانوا فيه من بقاء وسكن وأموال وأولاد وغير ذلك، ثم قال وقوله الحق: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:٩٢].

يقول ﷻ: ﴿خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ [الزمر:١٥] الذين كانوا في الدنيا، وتبين فصل بينهم فيما هنالك وخسروا أيضًا ملكهم الذي كان قد أوجد الله لهم في الجنة ورثه المؤمنون الذين استجابوا لله ورسوله.

﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون:١٠ - ١١] كما ورث أيضًا الكفار والمكذبون لله والرسل مجال المؤمنين في النار نعوذ بالله من ذلك][٤].

---

(١) في النسخة (ق): «وتكذيب الرسل غير».

(٢) في النسخة (ق): «وما وضع الله الدنيا عليه فهي جنة الكافر وسجن المؤمن، وإذا كان الحكم».

(٣) في النسخة (ق): «وأزوار الذنوب يوجب ترك التوسعة عليه».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾[١] [الأعراف:٩٧] إلى قوله جل قوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ الله إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩] أنبأ جل ذكره أن بأسه لا يأمنه [المؤمن الغافل][٢] عن ربه نهارًا دون ليل لا ليلاً دون نهار ولا ساعة دون ساعة، إنما يأمنه الغافلون [المكذبون][٣]، أولئك هم الخاسرون.

أعقب ذلك قوله: ﴿أو لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾[٤] [الأعراف:١٠٠] نبّه أهل الغفلة [والعاقبة إلى التذكر][٥] والاتعاظ بسواهم، فما من أحد إلا وهو في مورث عمن كان قبله فيه قد أخذ أولئك بذنوبهم [خلف هؤلاء في مواضعهم، وخلف هؤلاء في مواضعهم،

---

(١) الهمزة دخلت على «أمن» للاستفهام على جهة التوقيف والتوبيخ والإنكار، والوعيد للكافرين المعاصرين للرسول ﷺ أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك، والفاء لعطف هذه الجملة على ما قبلها، وقال الزمخشري: فإن قلت: ما المعطوف عليه؟ ولِـمَ عطفت الأولى بالفاء والثانية بالواو؟ قلت: المعطوف عليه قوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى﴾ إلى ﴿يَكْسِبُونَ﴾ وقع اعتراضًا بين المعطوف والمعطوف عليه، وإنما عطفت بالفاء؛ لأنّ المعنى: فعلوا وصنعوا فأخذناهم بغتة، أبعد ذلك أمن ﴿أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا﴾ وأمنوا أن يأتيهم بأسنا ضحى. انتهى. تفسير البحر المحيط (٥/٤٠٤).

(٢) في النسخة (ق): «مؤمن عاقل».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) أي: يخلفون من خلا قبلهم من الأمم، والمراد بهم كما روي عن السدي: المشركون، وفُسروا بأهل مكة ومن حولها، وعليه لا يبعد أن يكون في الآية إقامة الظاهر مقام الضمير إذا كان المراد بأهل القرى سابقًا أهل مكة وما حولها، وتعدية فعل الهداية باللام؛ لأنها كما روي عن ابن عباس ومجاهد بمعنى: التبيين، وهو على ما قيل: إما بطريق المجاز أو التضمين، أو لتنزيله منزلة اللازم، كأنه قيل: أغفلوا ولم يفعل الهداية لهم ﴿أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بجزاء ذنوبهم كما أصبنا من قبلهم، وإذا ضمن «أصبنا» معنى «أهلكنا» لا يحتاج إلى تقدير مضاف، و«أن» مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير شأن مقدر، وخبره الجملة الشرطية، والمصدر المؤول فاعل «يَهْدِ» ومفعوله على احتمال التضمين محذوف؛ أي: أو لم يتبين لهم مآل أمرهم أو نحو ذلك. وجوَّز أن يكون الفاعل ضمير الله تعالى، وأن يكون ضميرًا عائدًا على ما يفهم مما قبل؛ أي: أو لم يهدِ لهم ما جرى على الأمم السابقة. تفسير الألوسي (٦/٢٨١).

(٥) في النسخة (ق): «وأهل العافية إلى التذكير».

أفأمن هؤلاء أيضًا أن يأخذهم الله بذنوبهم][١].

وهذا من المكر الذي خُوف به قبل [هذا، إنما يؤيد هؤلاء، واستخلفهم][٢] في تركة أولئك [اختيارًا لهم][٣] لينظر كيف يعملون، فمن خالف [أمره][٤] واستخف صغار ذنوبه جرَّه ذلك إلى كبارها، وكبارها إلى الغفلة والإعراض، وعقوبة الإعراض [الطبع والوقر والعمى، وغير ذلك][٥] يكون التكذيب والكفر؛ لذلك [قال عز من قائل][٦]: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف:١٠١] [لما أعرضوا طبع الله على قلوبهم][٧].

ثم قال جل قوله: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ [الأعراف:١٠٢] [يريد العهد الأول عهد الإقرار.

وقوله جل قوله][٨]: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِالله وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ أي: الذي [أقررتم له بالربوبية][٩] ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم

---

(١) في النسخة (ق): «ثم استخلف هؤلاء فيما تخلف أولئك أفأمن الوارثون أيضًا أن يأخذهم الله بذنوبهم كما فعل بأولئك أو يطبع على قلوبهم لإعراضهم عن هذا الذكر فسبيلهم السمع النافع».

(٢) في النسخة (ق): «إنما أورث هؤلاء واستخلفوا».

(٣) في النسخة (ق): «اختبارًا منه لهم وابتلاء».

(٤) في النسخة (ق): «أمر ربه».

(٥) في النسخة (ق): «الطبع على القلوب وإلقاء الوقر في الأسماع والعمى في البصائر ثم في الأبصار فلا يرى شيئًا يتذكر به ثم عن ذلك».

(٦) في النسخة (ق): «اتبع هذا المعنى بقوله».

(٧) في النسخة (ق): «حذف هنا ما معناه أرسلنا إليهم رسلنا ثم قال: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف:١٠١] كيف يؤمنوا وقد طبع الله على قلوبهم وأصمهم وأعمى أبصارهم وبصائرهم وعيد شديد لمن تأمله بقلب شهيد».

(٨) في النسخة (ق): «يعني وهو أعلم بما ينزل العهد الذي عاهدهم عليه في البدء الأول ولذلك قال في غير هذه».

(٩) في النسخة (ق): «عاهدتموه وأقررتم له بالربوبية ولأنبيائه بالتصديق لذلك أتبع المعنى بقوله».

مُؤْمِنِينَ﴾ [الحديد:٨] [فذلك يومئذٍ أي: الذي أشهدتم آباءنا فشهدتم في قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١] المعنى][1].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ

---

(١) في النسخة (ق): «أي مصدقين بما عاهدتم الله عليه».

﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: ١٠٣ - ١٢٩].

قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ المَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ [الأعراف:١٢٧] وفي قراءة أبي وعبد الله: «وقد تركوك أن يعبدوك وآلهتك» وقرأ ابن عباس: «وآلهتك» بكسر الألف [ونصب][١] اللام.

قال ابن عباس: [إنما][٢] يُعبد ولا يَعبد.

وعلى قراءة الجماعة [من فتح الألف وكسر اللام][٣] قيل: إن فرعون كان يعبد ثورًا سرًّا.

عبرة: قال رسول الله ﷺ: «**أخرجوا اليهود** - [أو قال: المشركين][٤] - من **جزيرة العرب**»[٥].

وقال: «**لا يبقين في جزيرة العرب دينان**»[٦].

وقال: «**أنا بريء من كل مسلم مع مشرك** [تتراءى][٧] **ناراهما**»[٨].

وإن كان قد قال رسول الله ﷺ: «**لا عدوى**»[٩] فقد قال: «لا

---

(١) في النسخة (ق): «وفتح».

(٢) في النسخة (ق): «إنما كان».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) أخرجه الطيالسي (٢٢٩)، والدارمي (٢٤٩٨)، وابن أبي شيبة (٣٢٩٩١)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٣٤)، والطبراني (٥٦٠).

(٦) أخرجه بنحوه مالك (١٥٨٤)، والبيهقي (١٨٥٣١).

(٧) في النسخة (ق): «لا تتراءى».

(٨) أخرجه النسائي (٤٧٩٤)، والشافعي (٩٠٧).

(٩) أخرجه البخاري (٥٤٢٤)، ومسلم (٢٢٢٤)، والطيالسي (١٩٦١)، وأحمد (١٢٢٠٠)، وأبو داود (٣٩١٦)، والترمذي (١٦١٥) وابن ماجة (٣٥٣٧)، وأبو يعلى (٢٨٧٠).

[يوردن][1] **ممرض على مصح**»[2].

وقال: «**فر من المجذوم** [**فرارك**][3] **من الأسد**»[4].

ولئن كان فرعون عابد ثور [سرًّا][5] فقد عبد [بنو][6] إسرائيل العجل جهرًا، نعوذ بالله العظيم من الضلالة بعد الهدى.

[قال رسول الله ﷺ][7]: «**وعدتم من حيث بدأتم**»[8] ثلاثًا نعوذ بالله من درك ذلك.

وبنو إسرائيل وإن كانوا بمصر مسلمين فقد أعداهم الجوار الخبيث يومًا ما، ألا تراهم فيما يستقبلون يعبدون رجلاً [وهو الدجال][9] كما عبد أهل مصر فرعون؟ وللمجاورة أحكام هذه منها كماء البحران حيث يلتقيان موجود بينهما البرزخ ما هو ليس بعذب ولا بأجاج، وكذلك غيره من الموجودات.

[وفقه مفهوم هذا ألا يترك ديثان في بلد من بلاد المسلمين مع القدرة على ذلك فقد تبرأ رسول الله ﷺ ممن جاورهم ونهى أن يكونوا من المسلمين بحيث تتراءى نارهما][10].

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ﴾[11]

---

(١) في النسخة (ق): «يورد».
(٢) أخرجه البخاري (٥٤٣٧)، ومسلم (٢٢٢١)، وأحمد (٩٢٥٢)، وأبو داود (٣٩١١)، وابن ماجة (٣٥٤١)، وابن حبان (٦١١٥).
(٣) في النسخة (ق): «كما تفر».
(٤) أخرجه البخاري (٥٣٨٠)، وأحمد (٩٧٢٠).
(٥) سقط من النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «قوم من بني».
(٧) في النسخة (ق): «قال رسول الله ﷺ لهذه الأمة».
(٨) أخرجه مسلم (٢٨٩٦)، وأحمد (٧٥٥٥)، وأبو داود (٣٠٣٥)، والبيهقي (١٨١٦٦).
(٩) سقط من النسخة (ق).
(١٠) زيادة في النسخة (ق).
(١١) قال الأخفش: الطوفان: جمع «طوفانة» عند البصريين، وهو عند الكوفيين مصدر كالرجحان، وحكى أبو زيد في مصدر طاف: طوفًا وطوافًا، ولم يحك طوفانًا، وعلى تقدير كونه مصدرًا فلا يراد به هنا المصدر. قال ابن عباس: هو الماء المغرق. وقال قتادة والضحاك وابن جبير =

[الأعراف:١٣٣] [هذه وذكر في سورة النمل العصا واليد البيضاء، وقال له في تسع آيات: «إلى فرعون وقومه» فهذه ثمان آيات، فقيل: إن التاسعة هي الطمس قوله: ﴿اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ [يونس:٨٨] وهذا قول مرغوب عنه؛ لبعده من المعنى؛ لأن الطمس إنما كان بعد إهلاكهم هذا إن كان الطمس [كيان عمَّ] هذا القائل أن جعلها حجارة وأتلفها في الأرض، والأولى أن الطمس هو أن يمنعهم الله إنفاقها في سبيل الله، ولا يوفقهم لإيمان ولا توبة؛ لذلك قالا - عليهما السلام - في دعائهما: ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس:٨٨] وأرى والله أعلم بما أراد أنها الرجز.

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٠ - ١٣٦].

=

وأبو مالك ومقاتل: هو المطر أرسل عليهم دائمًا الليل والنهار ثمانية أيام. واختاره الفراء وابن قتيبة، وقيل: ذلك مع ظلمة شديدة لا يرون شمسًا ولا قمرًا، ولا يقدر أحد أن يخرج من داره. وقيل: أمطروا حتى كادوا يهلكون، وبيوت القبط وبني إسرائيل مشتبكة فامتلأت بيوت القبط ماء حتى قاموا فيه إلى تراقيهم، فمن جلس غرق، ولم يدخل بيوت بني إسرائيل قطرة، وفاض الماء على وجه أرضهم وركد فمنعهم من الحرث والبناء والتصرّف، ودام عليهم سبعة أيام. وقيل: طم فيض النيل عليهم حتى ملأ الأرض سهلاً وجبلاً. تفسير البحر المحيط (٥/٤٣٠).

وقد ذكر بقوله: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الأعراف:١٣٤] إلى قوله جل قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف:١٣٥] وكانوا قبل الرجز كلما أتاهم بآية ضحكوا منها][1].

فصل

ذكر في الكتاب الذي يُذكر أنه التوراة أن فرعون لما أبى عليهما [واستكبر][2] هو وجنوده، أمر هارون ﷺ برفع العصا إلى السماء [فأنزل الله عليهم بردًا لم يدع لهم][3] زرعًا إلا أفسده، وموضع المؤمنين؛ يعني: بني إسرائيل في الصحو والعافية، ثم دعواه إلى أن يرسل معهما بني إسرائيل ليعبدوا ربهم في المفاز فأبى عليهما، فأنذرهم بموت يكون في أبياتهم، فلما أصبحوا سمع في كل منزل بكاء وعويل - أو قال: صراخ وعويل - ثم دَعَوَاه أخرى ليرسل معهما بني إسرائيل ليعبدوا ربهم في المفاز، فأبى عليهما في ذلك، فأمر هارون ﷺ برفع العصا إلى السماء، فأصبحوا قد نقطوا ومسهم من ذلك عذاب، فاستغاثوا به ورغبوا إليه أن يدعو ربه [أن يكشف عنهم العذاب][4] ولما كشف [الله][5] عنهم العذاب نكثوا العهد وقد عبر عن ذلك القرآن العظيم.

[قال الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ...﴾ [الأعراف: ١٣٤] إلى آخرها.

قال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ * وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ ثم قال جل من قائل: ﴿وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ [الزخرف: ٤٧-٤٩] المعنى إلى آخره][6].

---

(١) في النسخة (ق): «هذه أربعة وذكر في سورة القصص العصا واليد البيضاء فهذه ثمان آيات، وقال في تسع آيات وأرى والله أعلم أن تمام التسع آيات هي ما أوقع عليهم من الرجز ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ [الأعراف:١٣٤] وكانوا قبل وقوع الرجز بهم كلما جاءهم بآية ضحكوا منها».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «فأرسل الله عليهم بردًا لم يترك».

(٤) في النسخة (ق): «في كشف ذلك عنهم».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) سقط من النسخة (ق).

وعلى ما [جاء][١] في الكتاب الذي يذكر أنه التوراة فالرجز ثلاث آيات والله أعلم، آمنا [بكتاب][٢] ربنا، وصدقنا كتبه ورسله، ولعل العصا واليد البيضاء لما كانتا آيتين [لهما على رسلهما][٣] إلى فرعون وملائه وقال لهما في تسع آيات: [«إلى فرعون»][٤] فيمكن أن يكون في جملة التسع، ويمكن أن يكون [في معنى][٥] «إلى»: فنحن على صدق ربنا وكتبه ورسله من الشاهدين.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف: ١٣٧ - ١٤٥].

---

(١) سقط من النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «بآيات».
(٣) في النسخة (ق): «على إرسالهما».
(٤) سقط من النسخة (ق).
(٥) في النسخة (ق): «حرف في بمعنى».

قوله ﷻ: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ...﴾ [الأعراف: ١٣٧] المستضعفون هم بنو إسرائيل، والأرض المبارك فيها أرض الشام، وهي المقدسة التي كتب الله لهم عمروها ما شاء الله حتى أخرجهم [الله](١) منها حين شاء ذلك، والكلمة الحسنى التي أتمها عليهم هي قوله جل قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص:٥] الآيتين.

كان فرعون [وقومه](٢) يجدون في العلم أن [بني إسرائيل يفسدون ملكهم](٣)، وكانوا يحذرون ذلك منهم، فأتم الله كلمته الحسنى عليهم، ثم دمر مصانع فرعون ومنازله، كما ذكر.

فصل

أشبه ذلك من صنع الله جل ذكره لهم صنعه بهذه الأمة لما فتح الله على رسوله ﷺ [والمؤمنين](٤) مكة، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، فحج رسول الله ﷺ بالناس [حجة الوداع؛ إذ ألحق الله الحج بدعائم الإسلام](٥) أنزل الله عليه يوم عرفة [في ليلة الجمعة](٦) ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾ [المائدة:٣] فبكى عمر وقال: [ما تم شيء](٧) إلا بدأ نقصه، وتأخر نقص هذه الأمة إلى نحو الأربعة وعشرين عامًا.

وبينا رسول الله ﷺ يسير بمعسكر المسلمين في بعض غزواته إذ مروا بقوم قد جللوا نخلة من النخلات بأنماط، وهم حولها عاكفون، فصاحوا به من كل جانب: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: **«قلتموها، والذي نفسي بيده لتركبن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع**

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «ومن كان معه».

(٣) في النسخة (ق): «من بني إسرائيل من يفسد عايهم ملكهم».

(٤) في النسخة (ق): «وعلى المؤمنين».

(٥) في النسخة (ق): «حجة الإسلام وهي حجة الوداع وهي التي ألحق بها فريضة الحج وبها تم دعائم الإسلام».

(٦) في النسخة (ق): «من تلك الحجة يوم الجمعة».

(٧) في النسخة (ق): «ما من شيء كمل».

حتى لو دخلوا حجر ضب [خرب][١] **لدخلتموه»**[٢] ثم كان بعده ﷺ ما كان من الفتنة والقتال كما كان في أولئك.

[يقول الله جل من قائل: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣]][٣].

وقال رسول الله ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»[٤].

وقال ﷺ: «**أنا فرطكم على الحوض فلَيُذَادَنَّ** رجال **عن حوضي كما يُذاد البعير الضال، أناديهم ألا هلم**» ثلاثًا إلى قوله: «**إنك لا تدري ما أحدثوا** [بعدي][٥]، **إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم**»[٦].

[وفي أخرى: «**فيؤخذ بأقوام ذات الشمال فأقول: أصيحابي أصيحابي، فيقول الملك: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك...**»[٧] وهؤلاء أصحاب الشمال والله أعلم][٨] من أهل الردة، [فهم][٩] ماتوا على ذلك أو قتلوا.

أتبع ذلك قوله جل من قائل: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ يعني: العرب ومن كان يدين بدينهم ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨] إلى قوله: ﴿بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف:١٤١] إن هذا من أول خلافهم.

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) في النسخة (ق): «يقول الله جل من قائل: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعني: الرسل ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣] كما قال لأولئك: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [البقرة:٨٤] المعنى إلى قوله: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [البقرة:٨٥]».

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) في النسخة (ق): «بعدك».

(٦) أخرجه بنحوه ابن ماجة (٤٤٤٨).

(٧) أخرجه البخاري (٤٦٢٥).

(٨) زيادة في النسخة (ق).

(٩) في النسخة (ق): «ثم».

ثم جعل يسرد - جل ذكره - خلافهم وعتوهم وفعلهم في نبوتهم إلى قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾[١] [الأعراف:١٧١] وما ذكر هذا ﷻ منهم وأمثاله لتعداد معائبهم، لكن لنحذر على أنفسنا مثل ذلك، [وما][٢] نهى عن منهي عنه ولا قص علينا [لغيره][٣] قصصًا إلا أصابنا من ذلك ما شاءه [كما كان ذلك المحذور أيضًا في جملتهم][٤]، فمنهم ومنا المعافى والمبتلى، ولهذه الأمة من فضل الله - جل وعز - أنهم عزروا [نبيهم][٥] ووقروه ولم يواجهوه لمخالفة، إنما كان ما كان منهم بعد وفاته ﷺ، ثم هذا أمر له ما بعده، نسأل الله ﷻ الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، ونضرع إليه في العفو والعافية.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ...﴾ [الأعراف:١٤٣] [لما كلم الله - جل ذكره - نبيه موسى ﷺ][٦] ألقى في قلبه محبة رؤية من [كان][٧] هذا كلامه [فسأله إياها، وكان سؤاله لرؤيته استعجالاً منه لثواب المواعدة، ولم يكن عنده علم بتخصيص الرؤية بالتأخر إلى لقاء الآخرة

(١) ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ قلعناه ورفعناه، كقوله : ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾ [النساء:١٥٤] ومنه: نتق السقاء إذا نفضه ليقتلع الزبدة منه. والظلة: كل ما أظلك من سقيفة أو سحاب. وقرئ بالطاء من «أطل عليه» إذا أشرف ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ وعلموا أنه ساقط عليهم، وذلك أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة؛ لغلظها وثقلها، فرفع الله الطور على رؤوسهم مقدار عسكرهم، وكان فرسخاً في فرسخ. وقيل لهم: «إن قبلتموها بما فيها وإلّا ليقعن عليكم» فلما نظروا إلى الجبل خرّ كل رجل منهم ساجدًا على حاجبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقًا من سقوطه، فلذلك لا ترى يهوديًا يسجد إلّا على حاجبه الأيسر، ويقولون : هي السجدة التي رفعت عنا بها العقوبة، ولما نشر موسى الألواح وفيها كتاب الله لم يبقَ جبل ولا شجر ولا حجر إلّا اهتز، فلذلك لا ترى يهوديًا تقرأ عليه التوراة إلّا اهتز وأنغض لها رأسه. الكشاف (٣٠٩/٢).

(٢) في النسخة (ق): «وهو ﷻ ما».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «رسولهم».

(٦) في النسخة (ق): «أي: على حاله هذه في داره هذه ﴿وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف:١٤٣] لما كلمه الله ﷻ».

(٧) سقط من النسخة (ق).

ومواعدة فيها، قال له: ﴿لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلى الجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف:١٤٣]][1].

فبعد أن منعه في ظاهر الكلام استدرك - جل وعز - [الرؤية بفصله][2] ما قد سبق في سابق علمه، [وعلق][3] جواز الرؤية [لجواز استقرار الجبل واستقراره][4].

[فعلق كون ما هو جائز كونه بما هو مشاهد وجوده، ولما لم يكن قضى بالرؤية في هذه الدار لم يقر الجبل قراره، فكان من مفهوم هذا أن جواز الرؤية في الآخرة حاصل إن شاء الله حيث استقرار كل شيء على ما يكون عليه.

فصل

لما تدكدك الجبل لتجليه العلي - عز جلاله - وخر موسى صعقاً جاز لقائل أن يقول: إنه رآه حين صعقه ذلك، وكان قوله: ﴿فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف:١٤٣] وأن تعلق الوعد بشرط الاستقرار، فإن صدق الوعد له من الله غالب، ورؤيته - جل ذكره - حال الموت والصعق والنوم معلوم جوازها.

عبرة: لما كان سؤال الرؤية في أولهم؛ أعني: بني إسرائيل التي عبر عنها قوله ﷺ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥] كان من سوس ذلك في بعض متأخريهم أن يتعلقوا في إيمانهم برؤية مرئي فاتخذوا العجل إلهًا من دون الله وقالوا لرسولهم لما أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨].

---

(١) في النسخة (ق): «ولم يكن ﷺ علم أن رؤيته خاص للدار الآخرة، وهذا من أدل الدلائل على جواز رؤيته ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، فإنه لم يلق ذلك في قلب رسوله، وعزم عليه في السؤال إلا لجائز وجوده واجب كونه؛ لكنه في دار غير هذه وفي حياة غير هذه الحياة، وكان ﷺ في مقعد الصدق ومحل الحق ويجب علينا الإيمان بخواطره، وإنها صادقة كما يجب الإيمان بكلامه المبلغ إلينا عنه، وما حكى الله عز جلاله ذلك عنه، إلا في معرض المدح له والرضا به».

(٢) في النسخة (ق): «بفضله».

(٣) في النسخة (ق): «ألا ترى أنه علق».

(٤) في النسخة (ق): «باستقرار الجبل مكانه واستقراره مكانه».

ومآل أمرهم أن يتخذوا الدجال إلهًا من دون الله، إنما الإيمان الحق الإيمان على الغيب، وإسلام النفس على ذلك بالجملة تصديقًا، وعلى ذلك وقعت المبالغة ولن يضر الإيمان على الغيب ما يراه المؤمن أو يرى له من رؤيا؛ لأن ذلك من عاجل بشرى المؤمن يتاح ذلك له من غير تطاول إليه.

قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾[1] أي: من اللوح المحفوظ ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: تفصيلاً للوح المحفوظ، يقول تبارك وتعالى: ﴿فَخُذْهَا﴾ يعني: الألواح والتوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بعزم وجزم ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي: بأيسرها، وعلى قدر ما يكشف للعبد من علم ما هو صائر إليه الغائب الآن على المشاهدة تكلف لذلك من المفيد ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف:١٤٥].

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٦ - ١٤٧].

قيل في التفسير: إن المعني بدار الفاسقين هي: مصر، وأرى - والله أعلم - أن دار الفاسقين هو مصيرهم وسبيلهم وجماع شأنهم، ولذلك وصل به قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ سوف أحرمهم الإيمان

---

(١) ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ قيل: إنّ موسى ﷺ صعق يوم الجمعة يوم عرفة وأفاق فيه، وأعطي التوراة يوم النحر، وظاهر قوله: ﴿وَكَتَبْنَا﴾ نسبة الكتابة إليه. فقيل: كتب بيده وأهل السماء يسمعون صرير القلم في اللوح. وقيل: أظهرها وخلقها في الألواح. وقيل: أمر القلم أن يخطَّ لموسى في الألواح. وقيل: كتبها جبريل ﷺ بالقلم الذي كتب به الذكر، واستمد من نهر النّور، ففي هذين القولين أسند ذلك إلى نفسه تشريف إذ ذاك صادر عن أمره. وقيل: معنى «كتبنا»: فرضنا، كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ والضمير في «له» عائد على موسى، و«الألواح» جمع قلة، و«أل» فيها لتعريف الماهيّة، فإن كان هو الذي قطعها وشققها فتكون «أل» فيها للعهد. تفسير البحر المحيط (٤٤٦/٥).

بها، وإن آمنوا أحرمهم فَهم كتابي وآياتي، ثم آخذ على وصفهم على ذلك بقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:١٤٦] أي: الذين آمنوا وكانوا غافلين، يقول: سأحرم هؤلاء وهؤلاء الفهم عني، وأصرفهم عن النظر في آياتي وتفهم كتابي.

تقدير الكلام: والذين آمنوا بآياتي وكانوا عنها غافلين حال إيمانهم، فأولئك أيضًا يصرفهم عن الفهم عنه في كتابه وحكمته في الموجودين إلا من شاء الله تنبيهه؛ إذ المتغافل عن النظر في كلام ربه وآياته قد أخذ من معنى الفسق بنصيب، فإنه ما أنزل الله كتابه ولا خلق السماوات والأرض وما بين ذلك إلا النظر في ذلك، والعبرة به تم قصد بالإخبار عن المكذبين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ ثم قال عز من قائل: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٤٧] من تغافل أغفلنا قلبه عن النظر لنفسه بازدياد الإيمان والتطلع إلى معاهد الموقنين، ومن كذب بآياتي وكتابي أحبطنا أعماله وصيَّرناه إلى سوء المصير.

وربما كان المعني بقوله: ﴿دَارَ الفَاسِقِينَ﴾ زائدًا إلى ما تقدم ذكره: أرض الشام؛ إذ كان فيها يومئذٍ الجبارون، وعلى حال فالعبد ما لم يكذب بآيات ربه ولقائه كان في سعة من أمره إن كان في غمار المسلمين كان من تبعيتهم وساقهم، وإن كان مع ذلك مخوفًا عليه، وإن كان من عليتهم وشغل خواطره بتفهم كتاب ربه والنظر في آياته وتعرف الحق المخلوق به السماوات والأرض، وعبر عن مشهود ذلك إلى غيبه كان في الدرجات العلا إن شاء الله.

اعلم - علمنا الله وإياك من علمه وأيقظنا من سنة غفلتنا - أن الغفلة أصل كل خطيئة ومنبعث كل مكروه؛ لأنها تكسب الوقر في أُذن القلب، فتبطل عمل سمع العقل عن الله، والسمع الذي هو سمع الآذان سواء المتصف به والبهائم ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[١]

---

(١) في عدم الفقه والإبصار للاعتبار والاستماع للتدبر أو في أن مشاعرهم وقواهم متوجهة إلى أسباب لتعيش مقصورة عليها. والأنعام جمع نعم بالتحريك وقد يسكن عينه وهي الإبل =

[الفرقان:٤٤] فهو على ذلك لا يسمع شهادات البينات، ويعدم على ذلك التهدي إليها، فلا يراها بقلبه ولا يسمعها بأذنه ولا يشعر لها بوهمه، بل يدركها بحواسه الظاهرة على غير ما فعلت له وإن كان مصدقًا بها في أصل إيمانه.

ولعله أن يحدق بعين بصيرته لأجل وجود إيمانه بما جعلت له فلا يبصر، ويصيح بسمع فؤاده فلا يسمع نداءها، ويدرك شهاداتها فلا يسمع، فالغفلة حجاب عن معرفة الحقائق، وعلة للغيبة عن مشاهدتها في نوادي حضورها ونواديها، فاعلم قد عمت عموم الهوى، وأنوارها قد أشرقت إشراق الضياء، كيف لا وكل موجود أو مذكور أو غائب أو حاضر من حقائق ذلك ونواديها ولكن لا يشعرون أيان يبعثون][1].

والشاة أو خاص بالإبل كذا في القاموس ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ بل للإضراب وليس إبطالاً بل هو انتقال من حكم وهو التشبيه بالأنعام إلى حكم وهو كونهم أضل من الأنعام طريقا فإنها تدرك ما يمكن لها أن تدرك من المنافع والمضار وتجهد في جلبها ودعها غاية جهدها وهو ليسوا كذلك وهى بمعزل من الخلود وهم يتركون النعيم المقيم ويقدمون على العذاب الخالد وقيل لأنها لا تعرف صاحبها وتذكره وتطيعه وهؤلاء لا يعرفون ربهم ولا يذكرونه ولا يطيعونه.

(١) هكذا في النسخة (ق)، والذي في النسخة (غ) هو: «هو المعهود، وإنما يكون منه غير ذلك بخرق العادة، فكان كذلك جواز الرؤية حاصلاً، ولما لم يستقر الجبل على حاله لم تكن الرؤية على حال موسى أيضًا من استصحاب حال الصحة منه، ولما خرَّ صعقًا كما تدكدك الجبل جاز لقائل أن يقول إنه رآه في حال ضعفه؛ ذلك وكأن مجاز الخطاب في قوله: ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ على حالك تلك [...] الحياة، وهو خطاب جاء على صفة الوعد، وكان وعد الله مفعولاً.

ورؤيته جل ذكره حال الموت والنوم والصعق معلوم جوازها، لذلك والله أعلم قال ﷺ لما أراه ربه من العظمة: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ أي: من أسألك [...] الإيمان بك على شرط الرؤية ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣] يعني: فالله أعلم لما حدث في أمته من هذا المعنى؛ إذ الرسول مثل [...] أول لهم فإنهم قالوا: ﴿يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥] فأمره - جل ذكره - أن يختار من قومه سبعين رجلاً لميقات واعده إليه، وكان ذلك جانب الطور الأيمن، ورفع الجبل فوقهم حتى كان من فوقهم كأنه الظلة عليهم، فصعقوا ساعتهم تلك، وإن كان ذلك منهم سؤالاً تعسفًا؛ لذلك قال ﷻ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء:١٥٣] ولم يذكر موتًا في صعقة موسى ﷺ، وذكره في صعقة السبعين =

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا

=

رجلاً من قومه، فلعل ذلك بون بين الرسول والمرسل إليهم، كما لا بد تفاضلت الرؤية منهم ومنه؛ إذ الرؤية متفاضل كتفاضل العلم به. قال رسول الله ﷺ وذكر الدجال وحذر منه: «**تعلمون أن أحدًا منكم لن يرى ربه حتى يموت**». عبرة: [...] أن يكون معنى قوله ﷺ: ﴿تُبتُ إِلَيْكَ﴾ من أن أسألك ما لم يجعل لي، ومعنى قوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ممن جعلت ذلك له محمد - صلوات الله وسلامه عليهما - فإنه ذكر أن الله فضَّل موسى بالكلام ومحمدًا بالرؤية، ومن الممكن أن يكون موسى قد سبق الله إليه أن ذلك كائن لمن شاءه، وطمع من رحمة الله أن يكون هو لما كان سؤاله الرؤية في عليتهم، كان من [...] ذلك في سائرهم إلا من عظم الله ﷻ أن يتعلقوا بعبادة رب مرئي جهارًا، فاتخذوا العجل إلهًا من دون الله.

وقالوا لرسولهم لما أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨] ومآل أمرهم أن يتخذوا الدجال ربًا وإلهًا من دون الله، إنما الإيمان يتلوه في الوجه الثاني التصديق بالغيب رد من رد ما جاء به وكذب به وشرد عنه، ثم يحمد الله على العافية، ويقدم الشكر عليها، ثم إذا انفصل عن قصص هذه الأمة إلى قصص أمة أمة ورسول رسول فهكذا، ثم يرجع إلى نفسه فيفاتشها عن ذنوبها ويتب إلى ربه منها، فإنه ما من أحد إلا فيه الكثير مما كان في أولئك إلا من عصم الله، وإنما صغرت بتقديم الإيمان، وبالدخول في الإسلام، وعلى ذلك فالوعيد عليها قائم بالإهلاك والتشديد موجود بوجود ما قامت بها. قال ﷻ وقد ذكر ما أصاب به قوم لوط ﷺ: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا...﴾ [الحجر:٧٤] ثم قال ﷻ: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٣] قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تكون خسف وقذف**» وقال الله تعالى: ﴿أو لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف:١٠٠] أي: كما فعلنا بأولئك، ثم ليرجع على قصص أتباع الرسل وما أصابهم أيضًا في نبواتهم، وذكر خلافهم وعتوهم على أنبيائهم، وقلة تعزيرهم وتوقيرهم إياهم، وإن ذلك إنما [...] من أجل صغار ذنوبهم وإصرارهم على دقائقها، فدفعهم ذلك لكبارها، وكبارها إلى الاجتراء على الأنبياء، وقلة التوقير لهم، ودفعهم ذلك إلى تكذيب بعضهم، ثم إلى قتال بعضهم، فاستوجبوا بذلك اللعن والغضب على الغضب. قال الله جل من قائل: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران:١١٢] فليتقِ العبد ربه، وليبادر صغار ذنوبه بالتوبة النصوح قبل أن يدفعه كثرة التلبيس والأنس بها إلى كبارها، وكبارها إلى الطبع والإعراض عنه، واللعن والغضب عليه، نسأل الله معافاته ومغفرته، وما هو [...] أن تقع من عين الله ومحبته إلى مقته، ثم بعده وعياذًا به من ذلك».

يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١)﴾ [الأعراف: ١٤٨ - ١٥١].

قوله ﷻ: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾ [الأعراف:١٤٨] المعنى إلى آخره.

ذكر في شرح بعض الكتب المنزلة والله أعلم: إن بني إسرائيل لما أمروا بالخروج مع موسى ﷺ من أرض مصر [استعان نساؤهم على][(١)] نساء القبط، وإنما أذن لهم فرعون في خروج يرجعون منه، فأخفى بنو إسرائيل مرادهم [بخروجهم ذلك][(٢)] واستعار نساؤهم حلي القبطيات للتزين به لمشهدهم ذلك، وعطف الله قلوب القبطيات عليهن في ذلك فأكثروا من ذلك الحلي والمتاع، وقد أشار القرآن إلى مصداق ذلك في حكايته عن قول عبدة العجل: ﴿حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا﴾ [طه:٨٧].

[وإنما][(٣)] اتبعهم فرعون بجنوده كان ما قصَّه الله جل ذكره [في شأنه][(٤)] من إغراق فرعون ومن كان معه، وإنجاء [المؤمنين مع موسى][(٥)]، ثم خلوا بعض محلاتهم وسار موسى ﷺ لمواعدة ربه ﷻ، [واستخلف][(٦)] هارون ووصى بهم،

---

(١) في النسخة (ق): «استعار نساؤهم حلي».

(٢) في النسخة (ق): «وجهتهم تلك».

(٣) في النسخة (ق): «ولما».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «موسى ﷺ ومن كان معه».

(٦) في النسخة (ق): «وايسخلف عليهم».

فقال لهم السامري: إنكم استعرتم حلي القبط غصبًا ولا يحل لكم الاستمتاع به، وحملهم على أن يقذف كل إنسان ما حصل عنده من ذلك الحلي في نار قد استوقدها، [فألقى][(١)] فيها ما ألقاه، وهي القبضة التي قبضها من أثر الرسول ﷺ، وخلق الله ﷻ من ذلك الحلي ﴿عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾ يعني: له روح وجسم حي، [فقال][(٢)]: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ قال: وإنما نسي موسى إلهه فهو يطلبه ولا يجده، فاستهوى منهم [من][(٣)] استهوى، ونصحهم هارون بقوله: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه:٩٠] [وكثر][(٤)] اللغط، وارتفعت الأصوات في المعسكر بين المهتدين والذين ضلوا [به][(٥)].

ولما ورد موسى ﵇ على ربه ﷻ قال له: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أُوْلاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه:٨٣ - ٨٤].

[مؤخر التصديق بالغيب، وإسلام النفس على ذلك جملة، وعلى ذلك وقعت المبايعة، ولم يضر الإيمان بالغيب ما يراه المؤمن أو يري له من عاجل بشري يتاح له؛ إذ ذاك في غالب الحال من غير تطاول عليه.

قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف:١٤٥] كما قال - جل وصفه - في القرآن: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨] وقال: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء:١٢].

ومعنى قوله ﷻ: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: بعزم وحزم، وعلى قدر ما يكشف الله للعبد من علم الغيب الذي إليه المصير، يكلف لذلك من عدم التقييد، واليقين به لذلك، وهو أعلم.

قال جل قوله: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف:١٤٥] كما قال في

---

(١) في النسخة (ق): «فألقى السامري».

(٢) في النسخة (ق): «فقال لهم».

(٣) في النسخة (ق): «ما».

(٤) في النسخة (ق): «قال المفسرون كثر».

(٥) زيادة في النسخة (ق).

هذه الآية: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر:١٧ - ١٨].

﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف:١٤٥] [يريد وهو أعلم دار الشام التي كتب الله لهم. وقيل: هي مصر، وأرى والله أعلم أن دار الفاسقين هو مصيرهم وسبيلهم، وجميع شأنهم؛ فإن كان ذلك هو المراد فهو وعد منه كما قال: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:٥٩] يريد مماليك فرعون كلها][(١)].

ولذلك وصل به قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦] يقول سوف أحرمهم الإيمان بها وإن آمنوا أحرمهم فهم كتابي وآياتي، ثم أخذ على وصفهم على ذلك بقوله: ﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أي: الذين آمنوا وكانوا غافلين، يقول: سأحرم هؤلاء وهؤلاء الفهم عني وأصرفهم عن النظر في آياتي وتفهم كتابي.

تقدير الكلام: والذين آمنوا بآياتي وكانوا عنها غافلين حال إيمانهم؛ فأولئك أيضًا يصرفهم عن الفهم عنه في كتابه وحكمته.

قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦] إلى قوله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٤٧] أنبأ جل ذكره بما يصعد للعباد عن فهم كتابه، والتفقه في معاني خطابه، وما تعمى البصائر عن النظر في ملكوت السماوات والأرض، وهو التكبر في الأرض، والعمل بغير طاعة الله ﷻ، والإعراض عن سماع المواعظ، وترك الأخذ بأحسن ما يسمعون، وترك الاقتداء بالرسل - عليهم السلام - وهذا كله يكسب التكذيب في الغفلة؛ لذلك قال عز من قائل: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:١٤٦].

والعبد ما لم يكذب بآيات الله ولقاء ربه في سعة من أمره إن كان في [عامة] المسلمين كان من تبعيتهم وسباقتهم، وإن كان من عليتهم في الدرجات العلا؛ وإذ ما يكسبه الغفلة الوقر في أذن القلب عن شهادة البينات وعدم التعدي إليها، فلا

---

(١) ما بين [ ] تقديم وتأخير وزيادة واختلاف في النسخة (ق).

يراها بقلبه، ولا يسمعها بأذنه، ولا يسعى إليها بوهمه، بل يدركها بحواسه الظاهرة على غير ما جعلت له، وإن كان مصدقًا بها في أصل إيمانه، ولعله أن يحدق بعين بصيرته وجود إيمانه مما جعلت له فلا يرى، ويصيخ يسمع فؤاده عساه يسمع نداها ويدرك شهاداتها فلا يسمع، فالغفلة حجاب عن معرفة الحقائق، وعلة الغيبة عن مشاهدتها في بوادي حضورها، واعلم أن بواديها قد عمت عموم [البوادي]، وأنوارها قد أشرقت إشراق الضياء، ولكن لا يشعرون أيان يبعثون.

فصل

قال الله ﷻ في قوله الحق: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧] ومن أبين التبيين في فصول القرآن وأعظمه يقينًا في اقتفاء الموعظة وتوكيد اليقين والخوف من إهلاك الله الأمم الماضية، وأخذه إياهم بذنوبهم.

يقول الله ﷻ: ﴿فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ [العنكبوت:٤٠].

وقال: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم:٤٥].

فينبغي لمن أراد سلوك الفهم عن ربه ﷻ في حمل القرآن أن يتمثل نفسه عند قصص كل أمة أنه كالحاضر المشاهد لذلك الرسول، وأنه من جملة المرسل إليهم المبلغ إليهم عن ربهم الرسالة، فيسارع إلى القبول بما جاء به الرسول، وحسن الاستجابة لله بتوهم، ويعقد نيةً أنه كان يكون في تفرق عجائبه من العالمين به الناصرين له الموقرين المعزرين له، وتبرأ إلى الله جل ذكره من قبيح] [1]يمكن أن يكون معنى قول موسى عليه السلام: ﴿هُمْ أُولاءِ عَلَى أَثَرِي﴾ [طه:٨٤] أي: على هدايتي وسنني، ويمكن أن يكون [معنى][2] ذلك أنه استتبعهم إلى [المواعدة][3]، فعجل هو سبقًا إلى ربه ﷻ وهم على أثره لاحقون به.

قال الله ﷻ: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى

---

(١) ما بين [ ] سقط واختلاف في النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «المواعد».

قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ [طه:٨٥ - ٨٦] أي: حزينًا والأسف الحزن على الفائت، فحزن هو ﷺ على ما فاته من هدايتهم.

﴿قَالَ﴾ لهم ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾[١] يخاطب بذلك أخاه، ومن كان استعمله [على ذلك][٢] ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٥٠] يريد ما قدم إليه أنه يصيبهم بما يغضبه عليهم، وذلك قوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ [طه:٨١] وما ذكر شيئًا على هذا التوجيه من خطاب إلا كان من ذلك ما يشاء ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف:١٥٠].

[وقال: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ تقدير الكلام ما منعك من أن تتبعني إذ رأيتهم ضلوا ويمكن أن يكون معناه ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعني][٣] إلا أمر أريد [به][٤] أو أريد بهم؛ إذ يقول له على حال الغضب والأسف: ما منعك ألا تتبعني إذ رأيتهم ضلوا إلا [إرادة منك في ضلالهم][٥]، أو ما يقوم مقام

---

(١) خطاب إما لعبدة العجل وإما لهارون ﷺ ومن معه من المؤمنين؛ أي: بئسما ما فعلتم بعد غيبتي حيث عبدتم العجل بعدما رأيتم مني من توحيد الله تعالى ونفي الشركاء عنه سبحانه وإخلاص العبادة له ﷻ، أو بئسما قمتم مقامي حيث لم تراعوا عهدي، ولم تكفوا العبدة عما فعلوا بعد ما رأيتم مني من حملهم على التوحيد وكفهم عما طمحت نحوه أبصارهم من عبادة البقر حين قالوا: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف :١٣٨] وجوّز أن يكون على الخطاب للفريقين، على أن المراد بالخلافة: الخلافة فيما يعم الأمرين اللذين أشير إليهما، ولا تكرار في ذكر ﴿من بَعْدِى﴾ بعد ﴿خَلَفْتُمُونى﴾ لأن المراد: من بعد ولايتي وقيامي بما كنت أقوم؛ إذ بعديته على الحقيقة إنما تكون على ما قيل بعد فراقه الدنيا. وقيل: إن ﴿مِن بَعْدِى﴾ تأكيد من باب رأيته بعيني، وفائدته: تصوير نيابة المستخلف ومزاولة سيرته، كما أن هنالك تصوير الرؤية وما يتصل بها، و«مَا» نكرة موصوفة مفسرة لفاعل «بئس» المستكن فيه، والمخصوص بالذم محذوف؛ أي: بئس خلافة خلفتمونيها من بعدي خلافتكم، والذم فيما إذا كان الخطاب لهارون ﷺ ومن معه من المؤمنين ليس للخلافة نفسها، بل لعدم الجري على مقتضاها، وأما إذا كان للسامري وأشياعه فالأمر ظاهر. [الألوسي (٣٦٩/٦)].

(٢) في النسخة (ق): «بعده».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «إردتك إضلالهم».

هذا من القول ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه:٩٢ - ٩٣].

وقال لقومه: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾[1] [الأعراف:١٥٠].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَاۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٢ - ١٥٥].

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا العِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف:١٥٢].

[ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف:١٥٣]][2].

وقال عليه السلام للسامري: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ [طه:٩٥ - ٩٦] يريد الملك عليه السلام، وقرأ الحسن وقتادة [وحفص عن عامر][3]: «فقبصت قبصة» بالصاد غير معجمة، [وهو القبض][4] بأطراف الأصابع، وبالضاد منقطة [معجمة: الأخذ بجميع][5] الكف، وروي أيضًا

---

(١) فيه قولان: أحدهما: يعني وعد ربكم الذي وعدني به من الأربعين ليلة، وذلك أنه قدَّروا أنه قد مات لمَّا لم يأت على رأس الثلاثين ليلة. قاله الحسن والسدي.
والثاني: وعد ربكم بالثواب على عبادته حتى عدلتم إلى عبادة غيره. قاله بعض المتأخرين. النكت والعيون (١٩/٢).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «وحفص بن عاصم».

(٤) في النسخة (ق): «وهذا القبص».

(٥) في النسخة (ق): «القبض بجمع».

عن الحسن [وعن ابن عباس][(١)]: «**فقبضت قبضة من أثر فرس الرسول**» وكذلك هي في قراءة عبد الله بن مسعود.

قال السامري: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه:٩٦] أخبر عن توجيهه نيته، وإنها كانت لأمر سحري، فولاه [الله جل ذكره][(٢)] ما تولى كما قال: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة:١٠٢] أي: إنهم كانوا يتركون في تعلمهم من الملكين - عليهما السلام - والعمل بما علموه سبيل الهداية التي كانا يعلمان الناس، ويأخذون بسبيل الضلالة، [وإنما كان ذلك][(٣)] عن تحويلهم نياتهم وتوجيههم إياها إلى ما وجهوها إليه، ولو وجه السامري نيته إلى هداية وخير لوجد ذلك؛ لذلك قال رسول الله ﷺ: «**الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى**»[(٤)].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا...﴾[(٥)] [الأعراف:١٤٩] كلمة تقولها العرب [تعبر][(٦)] بها عن صريح الندم وفقدان المقدرة [ووقوع القول][(٧)]، وأراه - والله أعلم - إن في ذلك تقديمًا وتأخيرًا [مجازه إن شاء الله تعالى][(٨)]، ولما رأوا أنهم قد ضلوا وسقط في أيديهم [﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:١٤٩]][(٩)].

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «وحل ذلك».

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) قال الزمخشريُّ: ﴿ولمَّا سُقِطَ في أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ولمَّا اشتدَّ ندمهم؛ لأنَّ مِنْ شأن من اشتدَّ ندمُهُ وحَسْرَتُهُ أن يَعَضَّ يدهُ غمًّا فتصير يده مَسْقُوطًا فيها؛ لأنَّ فاه قد وقع فيها. وقيل: مِنْ عادةِ النَّادمِ أن يُطَأطِئَ رَأسَهُ ويضع ذقنه على يده معتمدًا عليها، ويصيرُ على هيئةٍ لو نُزِعت يده لسقط على وجهه، فكأنَّ اليدَ مَسْقُوطٌ فيها. ومعنى «في»: على، فمعنى: «في أيديهم» كقوله: ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه :٧١] وقيل: هو مَأخُوذٌ من السَّقاط، وهو كثرةُ الخطأ، والخاطِئُ يَنْدَمُ على فعلِهِ. تفسير اللباب لابن عادل (١٣/٨).

(٦) في النسخة (ق): «يعبرون».

(٧) سقط من النسخة (ق).

(٨) في النسخة (ق): «تقديره».

(٩) سقط من النسخة (ق).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الغَضَبُ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف:١٥٤] كثيرًا ما جاء عن السلف ﷺ أن لتلك الألواح رضاضًا فالله أعلم، ووصف الله - جل وعز - موسى بأنه ألقى الألواح في حال غضبه على أخيه وقومه، ولم يذكر كسرًا، ولا روى عن النبي ﷺ في ذلك شيء يصح، بل قال الله جل قوله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ﴾ وسمى [ما أخذ: الألواح][1]، فظاهر الخطاب يعلم أنها لم تكسر، وأنه لا [رضاض][2] إلا أن يكون سمى ما يتكسر منها باسم أوله وهذا عدول عن ظاهر الخطاب لغيره معنى يوجب ذلك .

وقال جل قوله: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأعراف:١٥٤] والنسخة: هي المكتوب فيها من غيرها ورقًا كانت أو ألواحًا، وقال في الكتاب الأول: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ﴾ [الأعراف:١٤٥] ولم يقل: «نسخنا» إلا أن يكون عبر مرة بالنسخ ومرة بالكتب؛ [لأن التوراة منتسخة عن أم الكتاب كغيرها من الكتب، فالله يعلم][3].

وقال عز من قائل: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف:١٥٤] وقال في الأول: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يعني من اللوح المحفوظ][4] ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٤٥] أي: لأم الكتاب.

فصل

قال رسول الله ﷺ: «**كتب الله التوراة بيده**»[5] والظاهر من اختلاف [هذه العبارات وتغييرهم في نبؤتهم][6] أن نسخة ما وجده في الألواح غير ما هو كتاب الله بها بيده جزءًا لما غيروه من إيمانهم وبدلوه.

---

(١) في النسخة (ق): «ما أخذه ألواحًا».

(٢) في النسخة (ق): «رضاض لها».

(٣) في النسخة (ق): «لأن التوراة وغيرها من الكتب منتسخ كله من أم الكتاب فالله أعلم».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) في النسخة (ق): «العبارات».

قال الله ﷻ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة:٥] إن الإنسان ليحمل الأسفار ولا يعلم ما فيها، كيف بالحمار فهم لقلة فهمهم عن الكتاب، وعدم الفهم منهم لما فيه [مثل][١] للجاهل يحمل أسفارًا، وزاد جهل الحمار على جهل الإنسان الجاهل؛ لأنه لا يعلم [أهي][٢] أسفارًا أم لا، وهم لم يتحفظوا بكتاب كتبه الله لهم بيده ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، ثم في نسختها [لم يقضوها][٣] ولا فهموا عنها؛ أعني: المذمومين منهم، فأزيلت أيضًا [من بينهم][٤]، والذي بقي منها عندهم قد بدلوا بعضه وحرَّفوا بعضه، وكتموا الحق وهم يعلمون، فباءوا بغضب لذلك على غضب.

قال الله جل قوله: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف:١٥٤] وكانت التوراة التي هي النسخة هدى لهم، ورحمة لمن رهب ربه وخاف مقامه، [كما قال][٥] في القرآن: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت:٤٤] وكان قوله في ذلك بشارة لمن يأتي بعدهم، والله أعلم من أهل الرهبانية الذين ترهبوا لربهم على السبيل القويم، [وهم المعروف عليهم مع من قبلهم][٦] العمل بالتوراة والاهتداء بها مع ما أنزل [إليهم في الإنجيل][٧]، ثم بشارة لهذه الأمة الذين هم لربهم يرهبون، فإن الكتب الثلاثة مع كل كتاب وصحيفة نزلت من عند الله واجب علينا اتباعه والاهتداء به [وابتغاء رحمة الله ﷻ إلا ما [........][٨] والتلف وقيل للصاعقة المرسلة على ما شاء الله: صاعقة؛ لشدة صوت يصحبها][٩].

---

(١) في النسخة (ق): «مثال».

(٢) في النسخة (ق): «أنها».

(٣) في النسخة (ق): «وكانت من عند الله لا يفقهوها».

(٤) في النسخة (ق): «منهم».

(٥) في النسخة (ق): «كذلك».

(٦) في النسخة (ق): «وهم المفروض عليهم».

(٧) في النسخة (ق): «عليهم الإنجيل».

(٨) قطع في النسخة (غ) وليس في (ف).

(٩) في النسخة (ق): «إلا ما نسخ به».

فصل

قال الله ﷻ فيما تلاه علينا من قصصه عن موسى لما أخذت الصعقة أصحابه في جانب الطور الأيمن: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف:١٥٥] يريد [وهو][١] أعلم: سؤال الرؤية، وإنهم لن يؤمنوا إلا بوجودها، وربما كان المعني بقوله: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ اتخاذهم العجل إلهًا من دون الله.

يقول ﷺ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ رد الأمر إلى وليه ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف:١٥٥].

[معنى قوله عز من قائل: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ يقول صلوات الله وسلامه عليه: فكما قدرت علينا بهذا فاغفر لنا وارحمنا، ومعنى: خير الغافرين أنه][٢] يذنب العبد فيتوب إليه [من الذنب فيغفره، فيعاود الذنب][٣] ويتوب إليه فيتوب عليه، ويعود عليه بمغفرته، ويجعل له مكان كل سيئة حسنة ربما كثر اعتياد الذنب الذنب وكثرة عوده عليه بالتوبة والمغفرة، والجود عليه بالحسنات بدلاً من سيئاته زائدًا من عنده، وحتى ربما قال له: «**عبدي، اعمل ما شئت فقد غفرت لك**»[٤].

فصل

ربما ظن ظان [لم يمعن النظر ولا يحقق المعنى المراد][٥] بالخطاب أن موسى ﷺ خاطب ربه ﷻ على غير وجه حقيقة التعبد، وطلب الازدياد من العلم في قوله: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ فإن [اللائق][٦] برسول الله ونجيه أن هذا

---

(١) في النسخة (ق): «والله».
(٢) زيادة في النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «فيغفر له فيعاودة فيذنب ذنبًا».
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) في النسخة (ق): «لم يحقق النظر ولم يمعن في التحقيق بالمراد».
(٦) في النسخة (ق): «الذي يليق».

منه على وجه [الحمد][(١)]، وأن قوله: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف:١٥٥] على وجه التعلم والازدياد من العلم، كما قالت عائشة: «يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟» فكان ذلك منها [سؤالاً عن طلب][(٢)] العلم، فأجابها رسول الله ﷺ بقوله: «**نعم إذا كثر الخبث**»[(٣)] وكان مطلوب موسى في سؤاله معنى ما قاله [الله][(٤)] لمحمد ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:٣٣] [وتفهم][(٥)] معنى قوله [فيما أنزل عليه في التوراة][(٦)]: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء:١٥] [فإن ذلك في التوراة فيما كتب له بيده ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه.

قال الله ﷻ: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [النجم:٣٦-٣٨] إلى قوله: ﴿إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ [النجم:٤٢]][(٧)] فكان استفهام موسى ﵇ طلبًا لفهم ما ها هنا، فتفهموا كتاب ربكم [رحمكم الله][(٨)]، والتزموا توقير أنبيائكم على جميعهم السلام، فما اجتلب ذلك ﷻ وهو يعيب ذلك عليه ولا يذم فعله ذلك منه، بل في معرض المدح له، وإنما كان الإعراض عن قومه لظلمهم.

قال الله ﷻ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء:١٥٣] وكذلك أيضًا [ما روي عن بعض ما تقدم عفا الله عنا وعنهم أن قول موسى - صلوات الله وسلامه عليه - عندما أخذت قومه الرجفة، فقال ﵇: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾

---

(١) في النسخة (ق): «الحمد له».
(٢) في النسخة (ق): «بحثًا من».
(٣) أخرجه البخاري (٣٤٠٣)، ومسلم (٢٨٨٠)، وابن أبي شيبة (٣٧٢١٤)، والنسائي في «الكبرى» (١١٣٣٣)، وابن ماجة (٣٩٥٣)، وابن حبان (٣٢٧).
(٤) سقط من النسخة (ق).
(٥) في النسخة (ق): «وأحب أن يفهم».
(٦) سقط من النسخة (ق).
(٧) سقط من النسخة (ق).
(٨) سقط من النسخة (ق).

[الأعراف:١٥٥] وعددها عليه جفوة من جفوات ذكرها ثلاثًا، كيف يصح مثل هذا وهو الرسول الكريم الوجيه لديه، وقد تقدم إليه قبل يوم اتخذوا العجل إلهًا في قوله: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه:٨٥] وإنما حكى ذلك عن ربه ﷻ ورد الأمر كله له، أليس الله بأعلم حيث يجعل رسالاته إنما أصاب بني إسرائيل ما أصابهم من قلة توقيرهم له ﵇ وضعف تعزيرهم لغيره من سائر الأنبياء وكذلك ما قد][1] روي عن رسول الله ﷺ في حديث الإسراء حيث يقول في مسراه: «**فلما جئنا السماء - [يقول][2]: السادسة - إذا أنا بموسى فرحب بي ودعا لي بخير**» [إلى قوله: «**فلما تجاوزته][3] بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: يزعم بنو إسرائيل أني أكرم الخلق على الله، فهذا غلام بعثه الله بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي**»[4] [هذا بحكم الله وليس على ما يسبق][5] الشيطان - لعنه الله - إلى النفوس، بل هو على سبيل الإغباط لمحمد ﷺ والفرح به، وبصدق الله وعده رسله.

وقد كان يقدم إليه وإلى غيره من الرسل والأنبياء [في شأنه][6] بما عبر عنه بقوله الحق: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران:٨١] فكان بكاؤه ذلك فرحًا به من نبي كريم وأخ صالح، ليس فيما هنالك حسد ولا ملق وفرحًا أيضًا أحسن خلافته الله على الأمم بعده، وحزنًا لقومه لأجل عتوهم عليه وعلى من بعدهم من الأنبياء - عليهم السلام - وأنهم صدقوا فريقًا منهم، وكذبوا فريقًا [منهم، وقتلوا فريقًا][7]، فتأسف لذلك على بني إسرائيل، وبكى [خوفًا وجزعًا عليهم][8]، فإن الأنبياء والرسل من شأنهم الحرص على هداية الناس

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «قال فلما تجاوزناه».

(٤) أخرجه البخاري (٣٦٧٤)، ومسلم (١٦٤)، والنسائي في الكبرى (٣١٣)، وأحمد (١٧٨٦٩).

(٥) في النسخة (ق): «وهذا رحمكم الله ليس على ظاهر ما يسبقه».

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) سقط من النسخة (ق).

(٨) في النسخة (ق): «فرحًا وخوفًا على بني إسرائيل».

واستنقاذهم من التشييع للملعون إبليس.

كذلك وصف الله ﷻ محمدًا ﷺ بقوله الحق: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [كما قال في قوله][1]: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨] كذلك موسى وغيره من الأنبياء [والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين][2].

وفي الحديث ما يزيل الوسواس في هذا المعنى بقوله ﷺ: «**ففرض علي ربي خمسين صلاة، فجئت حتى [مررت على موسى]**[3]...»[4] فافهم فهمنا الله وإياك.

قوله تعالى [فيما حكى من قوله ودعائه لأمته][5]: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٥٦] كلمة مأخوذة من معنى الهداية؛ أي: تبنا إليك واهتدينا إليك، [وفي ضمن][6] هذا أنك قد هديتنا إليك وتبت علينا وفضلتنا على العالمين، فتمم علينا نعمتك التي بدأتنا بها، هذا وما يكون في معناه.

وقرأ أبو حيوة: «**إنا هِدنا إليك**» بكسر الهاء؛ أي: مِلنا إليك؛ أي: أنبنا، ومعظم معناه الهداية والميل عن ضلالة الأمم من عالمي زمانهم، وهذا عبارة عن التحنيف الموصوف به [الإمام المكرم][7] إبراهيم ؑ.

تحفظ - وفقنا الله وإياك - من هذه المزلات، وإياك أن تفارق التعزيز والتوقير لهم بذلك، فشأن الأنبياء والرسل - صلوات الله وسلامه على جميعهم - عند الله عظيم، وهذا وشبهه من [المتشابه المشتبه في الكتاب][8] الذي أمهاته الآي التي جاءت بتعزيرهم وتوقيرهم.

---

(١) سقط من النسخة (ق).
(٢) زيادة في النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «أمر بموسى».
(٤) أخرجه البخاري (٣١٦٤)، ومسلم (١٦٣)، وابن حبان (٧٤٠٦)، وأبو عوانة (٣٥٤)، والنسائي في «الكبرى» (٣١٤)، وأبو يعلى (٣٦١٦)، وابن منده في «الإيمان» (٧١٤).
(٥) في النسخة (ق): «حكاية عن موسى ؑ».
(٦) في النسخة (ق): «مفهوم».
(٧) سقط من النسخة (ق).
(٨) في النسخة (ق): «المشتبه».

﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧].

قوله تعالى: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦] إلى قوله جل قوله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧] وقرأها الحسن وعمرو بن قائد: «أصيب به من [أشاء» بالشين غير معجمة مع فتح الهمزة من الإشاءة][1]، فقوله: «من أشاء» توجه إلى معنى الإعراض عنهم لظلمهم؛ أي: إن هذا كان مني في الأزل سبق به علمي وقدري، ونزل به قضائي، وهو جواب لقول موسى ﷺ معترفًا بمعنى الأولية: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ [الأعراف:١٥٥] وتوجيه الخطاب على قراءة من قرأ: [«أشاء» من الإشاءة][2] تكون إشارة إلى ظلمهم في طلبهم الرؤية، وجعلهم إياها شرطًا في وجود الإيمان منهم [هدايتنا وإنذارًا][3] منه لهم بما يصيبهم به في المستقبل.

ثم أتبع ذلك قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦] واستاق ﷻ [صفة][4] هذه الأمة، وقرأ ابن مسعود: ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ مصدقًا لما بين يديه من كتاب ربه ورسله

---

(١) في النسخة (ق): «أساء بالسين من الإساءة».

(٢) في النسخة (ق): «أساء من الإساءة».

(٣) في النسخة (ق): «وهو أيضًا إنذار».

(٤) في النسخة (ق): «وصف».

﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ وقرأ طلحة: «ويذهب عنهم إصرهم»[(١)].

[فإن رحمته وسعت من في السماوات ومن في الأرض وكل شيء [وعد به ما...][(٢)] يصيب به من يشاء، وقد تقدم الكلام في كتاب «شرح الأسماء» على رحمته الموجودة في مخلوقاته عند اسمه الرحمن، ورحمته الموجودة، وأوليائه عند اسمه الرحيم][(٣)].

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٨ - ١٦٠].

قوله ﷻ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾[(٤)] [أي: يحكمون به

---

(١) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٥/٤٦٨).

(٢) بياض في النسخة (غ) وقطع في النسخة (ف).

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) قال السائب: هم قوم من أهل الكتاب آمنوا بنبينا ﷺ كعبد الله بن سلام وأصحابه. وقال قوم: هم أمة من بني إسرائيل تمسكوا بشرع موسى قبل نسخه ولم يبدّلوا ولم يقتلوا الأنبياء. وقال الزمخشري: هم المؤمنون التائبون من بني إسرائيل، لما ذكر الذين نزلوا منهم ذكر أمة مؤمنين تائبين يهدون الناس بكلمة الحق ويدلونهم على الاستقامة ويرشدونهم، وبالحق يعدلون بينهم في الحكم ولا يجورون، أو أراد الذين وصفهم ممن أدرك النبي ﷺ وآمن به من أعقابهم. انتهى. وقال ابن عطية: يحتمل أن يريد به الجماعة التي آمنت بمحمد ﷺ على جهة الاستجلاب لإيمان جميعهم، ويحتمل أن يريد به وصف المؤمنين التائبين من بني إسرائيل، ومن اهتدى واتقى وعدل. انتهى. وما روي عن ابن عباس والسدي وابن جريج: إنهم قوم اغتربوا من بني إسرائيل ودخلوا سربًا مشوا فيه سنة ونصفًا تحت الأرض حتى =

ويؤثرونه][1] ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٥٩] [الحق هنا هو ما أنزله الله - جل ذكره - في الكتاب عن قوم موسى أنهم ليسوا المذمومين ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] أي: عن الحكم بالحق؛ لأن الخطاب على معنى الاشتمال على الذم والمدح، وهو الأوجه على أن يكون معنى قوله: ﴿يَعْدِلُونَ﴾][2] يجورون [يقول: يعدلون به عن الحق فيضلون][3] كما قال جل قوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠] [وقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] أي: يجعلون عدلاً؛ أي: ندًّا ومثلاً، عدلت عن كذا إلى كذا؛ أي: ملت إليه، وعدلت به؛ أي: جعلت له عدلاً، فجعل هؤلاء عدل الحق الباطل، عدلوه به وهو عادل بالحق ومنعدل عنه أيضًا، يقول الله جل قوله ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ أي: يحكمون به ويهدون إليه ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٥٩]][4] كما قال: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٦٦] أي: بالكتاب، يهدون به ويعدلون عن الحق، يجورون [عنه][5] بالتأويل الباطل، [وهو الأظهر][6].

فصل

ليس بمصيب من روى [أو اعتقد][7] أن موسى ﷺ قال عندما أخبره ربه ﷻ

=

خرجوا وراء الصين، فهم هناك يقيمون الشرع في حكايات طويلة ذكرها الزمخشري وصاحب «التحرير والتحبير» يوقف عليها هناك لعله لا يصح. وفي قوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى﴾ إشارة إلى التقليل، وأنّ معظمهم لا يهدي بالحق ولا يعدل به، وهم إلى الآن، كذلك دخل في الإسلام من النصارى عالم لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، وأما اليهود فقليل من آمن منهم. تفسير البحر المحيط (٥/٤٧٠).

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) زيادة في النسخة (ق).

بقوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ...﴾ [الأعراف:١٥٦ - ١٥٧] إلى آخر الوصف الذي استاقه في نعت هذه الأمة، فزعم هذا القائل أن موسى ﷺ قال عند ذلك: «يا رب، جعلت وفادتي إلى غيري» قال: فقال الله ﷻ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٥٩] قال: فسكت موسى ورضي.

[أو كما قال][(١)] ومثل هذا لا يصح عن المصطفين الأخيار الذين أخلصهم الله بخالصة ذكرى الدار، [فلم يبقى في قلوبهم غلاً ولا حسدًا ولا اختيارًا لشيء سوى ما اختار لهم ربهم عز جلاله إنما أوقع هذا القائل فيما أوقعه من ذكر ما ذكره أن حمل قوله: ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ على معنى المدح بل هو الذم الموصوف به بل هو ﷺ][(٢)] وأمثاله البرآء من هذا وأشباهه، وإنما الأنبياء والرسل كرجل واحد لا تحاسد ولا [تباغض كما قال رسول الله ﷺ في المؤمنين، وهم أشد تحققًا في الخير وأكرم هديًا، هم الأول الأولى، أولهم يبشر بآخرهم، وآخرهم يصدق أوله ويبشر بمن بعده][(٣)].

ألا تراهم - عليهم السلام - في عرصة القيامة [كيف][(٤)] يتدافعون الشفاعة [بعضهم إلى بعض][(٥)] أول إلى آخر، وإنما هو - جل ذكره - النزيه المواجهة،

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «ولا تفاخر وقلوبهم في ذات الله والحرص على الحق بالإيمان كقلب واحد كذلك وصف رسول الله ﷺ المؤمنين بعضهم لبعض كالبنيان يشد بعضهم بعضًا وجميعهم في مقام الحرص على هداية الجميع كالجيش في قتال العدو ويسر الكل منهم من غلبة العدو ما أصاب أحدهم من ذلك كذلك المصلون جماعة يقومون بقيام إمامهم ويركعون ويسجدون وفعلهم تلو لفعله لا حسد ولا بغي عندهم، وكذلك كان الصف في الصلاة عبارة عن تساوي القلوب بالتوجه لله ﷻ كذلك الأنبياء والرسل في ذات الله وحرصهم على توصيل ما بين العباد وبين ربهم عز جلاله وهم صلى الله على جميعهم أكرم هدى وأشد تحققًا هم الألى بشر أولهم بآخرهم وصدق آخرهم أولهم».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) سقط من النسخة (ق).

الكريم المخاطبة، الحكيم العليم، استاق [ذنوب][(١)] من مضى لا [لتعيير][(٢)] لهم؛ بل ليؤدبنا بهم ويحذرنا مما [أصابوه][(٣)] في نبوتهم، ولما كانت المواجهة لهذه الأمة بالخطاب عدل عنهم بذكر الأخذ وشدة البطش، وأخذ - جل ذكره - يقص الحق ويحكم بالفصل والتبليغ على ذلك قائم والفضل منه والإكرام لعبيده مواجهه، وهو العليم الكريم ذو الفضل العظيم][(٤)].

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ [الحديد:٢٨] إلى آخر السورة.

فصل

فمن لزم الطريقة المثلى في هذا الشأن - إن شاء الله تعالى - أن يتلقى [قصصه][(٥)] بالتصديق المحض والإيمان، والمبالغة في والإيمان الحزم والهرب عن كل شيء ذمهم به أحد، والإمعان في البعاد من [مواطن هلكاتهم، والمنازعة إلى سلوك سبيل نجاته، وابتغاء مرضاته][(٦)] بغاية الطاقة ومنتهى الجهد، وأن نستشعر [في نفوسنا][(٧)] أن جميع مذامهم قد ارتكبناها إلا ما كان من قتل الأنبياء وتكذيبهم، على أنه من أمات سنة نبي فقد قتله، ومن عصى رسول الله [إليه][(٨)] من بعده عمادًا جهادًا فقد كذبه.

قال رسول الله ﷺ: «**لتركبن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى أنه لو كان فيهم من أتى أمه [وأخته][(٩)] جهارًا لكان فيكم ذلك**»[(١٠)] ولقد تكامل [فينا

---

(١) في النسخة (ق): «ذكر ذنوب».

(٢) في النسخة (ق): «لتغيير».

(٣) في النسخة (ق): «أصاب أولئك».

(٤) ما بين [ ] به تقديم وتأخير واختلاف بين النسخ.

(٥) في النسخة (ق): «قصص الله ﷻ».

(٦) في النسخة (ق): «عن قول أو عقد يخل بالتعزير والتوقير لهم بل المسارعة إلى سلوك سبيل نجاتهم وابتغاء مرضاة الله».

(٧) سقط من النسخة (ق).

(٨) زيادة في النسخة (ق).

(٩) زيادة في النسخة (ق).

(١٠) ذكره بنحوه الهيثمي قي «مجمع الزوائد» (٣٠٣/٣).

أيتها][1] الأمة جميع ما أهلك من أجله من كان قبلنا من الأمم من الغفلة وترك التوبة والإعراض عن الذكر والجبروت وغلط السطوة والمباهاة بذلك، أهلك الله عادًا وبتطفيف المكيال والميزان، والصد عن سبيل الله، [وإبغائنا العوج بقعودنا على كل صراط للمسلمين بالتغيير والتبديل][2]والإيعاد على ذلك، والتهديد والتشديد حتى لقد انمحى رسم الإسلام فلم يبقَ إلا اسمه، وطفئت أنوار الإيمان فلم يبقَ منها إلا خواطر تجيء ثم تذهب كالبرق، وبذلك أهلك الله قوم شعيب ﷺ.

ثم العلو في الأرض، وجعل الناس شيعًا تستضعف طائفة منهم فعل فرعون ببني إسرائيل، ثم ركوب الفواحش علانية وسرًّا كالجهر، وبذلك أهلك قوم لوط وغيرهم، ولم يكن منهم فعل ذميم إلا وفينا ظهوره ولا سيرة عوجاء إلا [ومنا][3] ابتداؤها وإلينا انتهاؤها، فالنظر في عيوب من مضى على ما نحن عليه حمق [من فاعله][4] وقلة تحصيل، لكن اتعاظ وازدجارٍ، وقد قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ...﴾ [المائدة:١٠٥].

وقال: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة:٤٨].

[وقال: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٦٦].

كما قال: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ...﴾ [آل عمران:١١٣] إلى قوله: ﴿وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران:١١٤].

ثم استأنف الخطاب مواجهة لنا بقوله][5]: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١١٥].

---

(١) في النسخة (ق): «معشر هذه».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «وفينا».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) سقط من النسخة (ق).

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأعراف: ١٦١ - ١٦٣].

قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ...﴾ [الأعراف:١٦١] القرية هي إيليا، [والباب الذي أُمروا بالدخول منه هو باب السُّجد، أمروا أن يدخلوه سُجَّدًا؛ أي: في حال من يسجد طهارة وتوبة ونية في الصلاة، فإذا فعلوا ذلك فليقولوا: «هذه حطة» أي: مغفرة من الله لذنوبنا.

ثم قال][(١)]: ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:١٦١] يعني [والله أعلم: محسني هذه الأمة، فإنه وعدها بأن «**أحدهم إذا توضأ [فأحسن وضوئه]**[(٢)]، **ثم قال: أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، فتحت له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء**»[(٣)] وبأنه «**إذا توضأ فغسل وجهه خرجت خطايا وجهه حتى تخرج من تحت أشفار عينيه، فإذا غسل ذراعيه خرجت كل خطيئة بطشتها يداه حتى تخرج من تحت أظفاره**»[(٤)]

---

(١) في النسخة (ق): «وأمروا أن يدخلوا المسجد سجدًا أي في حال طهارة وتوبة ونية السجود والصلاة».

(٢) في النسخة (غ): «أمره الله».

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٤)، وأبو داود (١٦٩) والنسائي (١٤٨) وابن ماجة (٤١٩)، وأحمد (١٧٣٥٢)، وابن خزيمة (٢٢٢) وابن حبان (١٠٥٠) والبيهقي (٣٣٣٤) وفي «شعب الإيمان» (٢٧٥٣).

(٤) أخرجه مالك (٦٠)، وأحمد (١٩٠٩١)، والنسائي (١٠٣)، وابن ماجة (٢٨٢)، والحاكم (٤٤٦) وقال: صحيح. والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٧٣٤)، والنسائي في «الكبرى» (٣٨٨).

ثم كذلك في الرأس والرجلين.

قال: ثم كان مشيته إلى المسجد وصلاته نافلة له، ومصداق هذا من الكتاب العزيز قوله][1]: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى المَرَافِقِ﴾ إلى قوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم﴾ [في الدين][2] ﴿مِنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ بعد الوضوء والطهر ﴿تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٦] [ونغفر][3] لكم ذنوبكم بالطهر، وتكون الصلاة بعد ذلك في عمل الشاكرين، فقد تحصلت الحطة بحمد الله فيما تلاه علينا ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، [وأمرنا به][4] وزاد من فضله محسني هذه الأمة أن بلغهم درجة الشاكرين [جزاءً][5] كذلك أمروا هم بأن يقولوا: هذه حطة من الله لخطايانا إذا دخلوا المسجد الذي أمروا بدخله سجدًا.

وجاء في بعض كتب النبوات: قال: «إن هؤلاء القوم تركوا ما أكرمت عليه آباؤهم وابتغوا الكرامة من غير وجهها، أما أحبارهم ورهبانهم [فاتخذونها][6] عبادي خولاً فيعبدونهم من دوني، ويحكمون فيهم بغير كتابي حتى أجهلوهم أمري، وأنسوهم ذكري، وغروهم مني، فبطروا نعمتي، وأمنوا مكري، وبدلوا كتابي، ونسوا ذكري وضيعوا أمري».

وبعد كلام كثير قال: وعزتي وجلالي لأعطلنها من كتبي وقدسي، ولأفنين مجالسها من [أنسها][7]، ولأوحشن مسجدها من عمارة الدين كانوا يتزينون بعمارته لغيري ويتهجدون فيه، ويتعبدون لكسب الدنيا بالدين، ويتفقهون فيها لغير العلم،

---

(١) في النسخة (ق): «قد تقدم هذا في سورة البقرة مصداق قوله ﷻ: ﴿وَسَنَزِيدُ المُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:٥٨] في القرآن العزيز ».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «أي نغفر».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «فاتخذوا».

(٧) في النسخة (ق): «أنسي».

ويتعلمون لغير العمل في كلام طويل فيه موعظة، وذكرى لمن يخشى.

فصل

أنبأ الله ﷻ بما تلاه علينا بقوله: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ [البقرة:٥٨] إن الخطايا [إنما كانت تغفر لهم ببعض][١] أعمالهم.

وقال رسول الله ﷺ: «**أنزلت علي [سورة][٢] البقرة من كنز تحت العرش**»[٣].

وقال له الملك: «**لن تقرأ بحرف منها إلا أوتيته وأعطيته**»[٤] وفيها: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦] فيقول الله ﷻ لقارئها: « قد فعلت» [وفي أخرى: «نعم»][٥].

قال رسول الله ﷺ: «**رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»[٦].

وكما [من الواجب][٧] علينا الإيمان والتصديق بما في الكتاب وحديث [الرسول ﷺ فيما بشر به من غفران الذنوب][٨] عند الوضوء، وترك المؤاخذة بالخطايا مع الصدق، واستعمال الذكر [واجتناب][٩] التغافل، فكذلك كان يجب عليهم الإيمان بمثل ذلك في حط خطاياهم عنهم [بكونهم][١٠] قاصدين إلى [بيت الله][١١] للصلاة بإخلاص الوجهة، يعتقدون ذلك بقلوبهم، ويقولونه بألسنتهم.

---

(١) في النسخة (ق): «لم تكن تغفر لهم إلا ببعض».

(٢) في النسخة (ق): «خواتيم سورة».

(٣) أخرجه بنحوه أحمد (٢٣٢٩٩)، والطبراني في «الكبير» (٣٠٢٥)، وفي «الأوسط» (١٤٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٣٩٩).

(٤) أخرجه بنحوه البيهقي في «الصغرى» (٧٦٤)، وفي «شعب الإيمان» (٢٣٦٠).

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) تقدم تخريجه.

(٧) في النسخة (ق): «يجب».

(٨) في النسخة (ق): «رسول الله ﷺ من غفران الذنوب فيما وعد به عن ربه ﷻ».

(٩) في النسخة (ق): «وترك».

(١٠) سقط من النسخة (ق).

(١١) في النسخة (ق): «البيت».

فلما اتخذ منهم البعض دينهم لهوًا ولعبًا [وصلوا][١] لقضاء أوطارهم وتعبدوا لغير الله تعالى زالت بشاشة الإيمان بالبشارة من قلوبهم على أعمالهم؛ إذ لم يبلغ لرحلها [ومصاحبة الغفلة لها][٢] أن يبشر على تلك الحال، فكانوا يقرءون كتاب الله ولا يقفون عليه بالعلم، وربما علموه علمًا ظهريًا، [ورؤية][٣] بصائرهم عن جنب دون تحقق [وتكون القلوب هكذا ونحو هذا خوفت وحرمت نور البشارة فلم يبشر على أعمالها تلك فقالوا ما يعبر به عن خوف ما وإنهم ليسوا بمستحقين لأجل ظلمهم البشارة على ما هم عليه قلما يعبر به عن بأس ما يرون هذا كله بعيون بصائرهم عن جنب نسوا الأجل ظلمهم هذا وهذا خلفه الذهول][٤] فكانوا بذلك مبدلين لما فرض الله عليهم [وأمروا][٥] به من الإيمان قولاً غير الذي قيل [لهم][٦] إما لأنهم قصر بهم في تبدل أحوالهم تلك عن [تحقيق][٧] البشارة؛ لغلبة خوف [من أن تزيد عليهم أعمالهم، وإما لأنهم علوا في ذلك ووافقوا الإدلال][٨].

وكانوا يقولونها إن كانوا وقفوا عليها بالعلم، ويتلونها في [الكتاب][٩] بقلوب غافلة ونيات غائبة، ووجوه غير متحققة [بالتوجه إلى الله][١٠]، وربما تمنوا على الله في حالتهم تلك كقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة:١٨].

[وقولهم: إن الجنة لنا ﴿خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ﴾ [البقرة:٩٤]][١١] و﴿لَن يَدْخُلَ

---

(١) في النسخة (ق): «وضلوا».
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «رأته».
(٤) زيادة في النسخة (ق).
(٥) في النسخة (ق): «وأمرهم».
(٦) سقط من النسخة (ق).
(٧) في النسخة (ق): «حقيقة».
(٨) في النسخة (ق): «أن ترد عليهم أعمالهم من أجل ظلمهم وإما لأنهم غلوا في ذلك وواقعوا الإذلال».
(٩) في النسخة (ق): «كتاب ربهم».
(١٠) في النسخة (ق): «بحق التوجه الذي أمروا به».
(١١) زيادة في النسخة (ق).

الجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَو نَصَارَى﴾ [البقرة:١١١] وأمثال هذا، وهذا هو التيه في الضلال.

وأما الأبرار فهم في معزل من هذا، [إن شاء الله][(١)] يؤمنون بما أنزل إليهم وما أنزل من قبلهم، ويستمعون القول فيتبعون أحسنه، ويستبشرون بفضل من الله ورحمة، وبأن الله لا يضيع أجر [المؤمنين ومنهم ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠] للخوف المتمكن من قلوبهم لا يرون أحدًا أحق منهم بالعذاب إن لم يغفر الله لهم ويرحم، هذا منهم بعد تصديق الله - جل ذكره - في وعده ووعيده، والإيمان بما جاء من عنده، وجعلهم التهمة في جنباتهم، وتحصيل الأمن من خلف وعد أو هضم من حق، بل أنا له الموعود مع الزيادة بالفعل][(٢)].

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن

---

(١) في النسخة (ق): «والحمد لله رب العالمين».

(٢) في النسخة (ق): «المحسنين، وفضل القول في ذلك الإيمان بتحقيق البشارة في كل وعد جاء من عند الله على عمل أو بشرى بشر بها رسول الله ﷺ عن ربه، والإيمان أيضًا بتحقيق وقوع الوعيد كما جاء ليجتمع الإيمان بهذا وهذا في قلب العبد فرحًا بهذا وحزنًا بهذا، وللرجاء بفضل الله ميزان يرجحه إلى العفو والمغفرة مع الإقامة على الصدق، وليجعل العبد التهمة في [...] نفسه مع تحصيل الأمن من خلف وعد أو هضم من حق، بل أناله الموعود من الزيادة بالفضل، فهذا في معنى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت:٣٠]».

يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف: ١٦٤ - ١٦٩].

قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى يَوْمِ القِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ العَذَابِ﴾ [الأعراف:١٦٧] يريد: يذيقهم سوء العذاب على [العداوة](١) بالترداد، والمعاودة على ذلك بالمكروه، سُمتُ في السلعة؛ أي: كررت الكلام فيها وعاودته، وقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ أوجب ذلك على نفسه وقضائه، واعلم به ذلك؛ لأنهم نسوا كثيرًا مما ذكروا به وعضوا وخالفوا ما ذكروه، وأصل ذلك ما تقدم ذكره قبل هذا وهو الغفلة وزوال حلاوة بشاشة الإيمان بالوعد وخلو القلوب من لذع الخوف.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ [الأعراف: ١٧٠ - ١٧٤].

واعلم قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف:١٧٢] قد تقدم الكلام في [هذه الآية](٢) مع نظيرتها في سورة آل عمران، وأن هذه نص على عهد الربوبية، وتلك نص على عهد النبوة والرسالة والتبليغ والنصيحة والنصر لله [والإيمان بذلك](٣) أبطن في تلك ذكر [الربوبية](٤) كما أبطن في هذه [ذكر](٥) عهد النبوة، وإن

---

(١) في النسخة (ق): «المداومة».

(٢) في النسخة (ق): «هذا المعنى».

(٣) في النسخة (ق): «ولرسله».

(٤) في النسخة (ق): «عهد الربوبية».

(٥) سقط من النسخة (ق).

كان قد أشار إلى ما بطن في هذه وهذه بقوله: ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ القِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ....﴾ [الأعراف:١٧٢].

[كما أشار في تلك إلى عهد الربوبية في][1] قوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ الله يَبْغُونَ...﴾ [آل عمران:٨٣].

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٨].

قوله ﷻ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف:١٧٥] إلى آخر المعنى، اختلف الناس فيمن [يُسمى بهذا][2] فقال قوم: هو بلعام بن باعورا.

وقيل: باعير.

وقال آخرون: هو البسوس عابد من بني إسرائيل، قيل: كانت له ثلاث دعوات استنفذهن على ما ذكروه في امرأته، فالله أعلم [أكان ذلك أم لا][3].

وقال قوم: هو أمية بن أبي الصلت.

وقال قوم: نزلت في راهب بن صيفي.

وقال قوم: [إنها][4] نزلت مثلاً في اليهود والنصارى، وكل من أتاه الله من آياته

---

(١) سقط من النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «هو المعني بهذا المعنى».
(٣) زيادة في النسخة (ق).
(٤) زيادة في النسخة (ق).

[وعِلْمِه وكتابه][(١)] فانسلخ من ذلك، فهو المعني [هنا][(٢)] ثم اختلفوا في القصص عن هؤلاء المذكورين، وأنا ذاكر طرفًا من قصص أمية بن أبي الصلت؛ لقرب طريقه، وتارك [ذكر][(٣)]قصص ما قصَّ في شأن أولئك؛ لبعد الطريق [إلى] [(٤)] الوقوف على صحته أو سقمه كان ابتداء أمره أنه قرأ الكتب، وعلم أن الله تعالى يرسل رسولاً في ذلك الوقت، وظن أنه [هو][(٥)] ذلك الرسول؛ لأنه كان فيما يذكر قد أوتي بينة من الأمر، [وأظهر له أشباهًا][(٦)] تقارب.

فلما بعث الله رسوله محمدًا ﷺ شرق للأمر حسدًا وأنفة، ومر في بعض أسفاره على قتلى [بدر][(٧)] فسأل عنهم فقيل له: «قتلهم محمد» فقال: «لو كان نبيًّا ما قتل أقرباءه» فلما مات أتت أخته الفارعة إلى رسول الله ﷺ فسألها عن موت أخيها، فقالت: بينا هو راقد [إذ][(٨)] أتاه آتيان، فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: «أوعى» قال الآخر: «وعى» قال: «وزكا» قال: «أبى» [فقال][(٩)]: «أريد بك خير، فصرف [عنك][(١٠)]» فلما أفاق قال:

كُــلُّ عَــيْشٍ وإنْ تَطــاوَلَ يَــوْمًا ... صَــائِرٌ مَــرَّةً إلــى أنْ يَــزُولا

لَيْتَنِـي كُـنْتُ قَـبْلَ مـا قَـدْ بَـدَا لِـي ... فِـي قِلالِ الجِبالِ أرْعَـى الوُعُـولَا

إنَّ يَــوْمَ الحِــسابِ يَــوْمٌ عظِــيمٌ ... شَــابَ فِـيهِ الـصَّغيرُ يَـوْماً ثَقِـيلاً

ثم قال لها رسول الله ﷺ: **«أنشديني شعر أخيك»**[(١١)] فأنشدته قصيدته [التي

---

(١) في النسخة (ق): «وعلَّمه كتابه».

(٢) في النسخة (ق): «بهذا».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «وتعذر».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «وأشباهًا».

(٧) زيادة في النسخة (ق).

(٨) زيادة في النسخة (ق).

(٩) في النسخة (ق): «فقلت له».

(١٠) في النسخة (ق): «عنه».

(١١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان (٤/٣٠٦).

يقول فيها][1]:

لك الحمد والنعماء والفضل ربنا ... ولا شيء أعلى منك جدًّا وأمجد

مليك على عرش السماء مهيمن ... لعزته تعنو الوجوه وتسجد

عليه حجاب النور والنور حوله ... وأنهار [نار][2] حوله تتوقد

فلا [بصير][3] يسمو إليه بطرفه ... ودون حجاب النور خلق مؤيد

ملائكة أقدامهم تحت أرضه ... وأعناقهم فوق السماوات [تصعد][4]

قيام وعلى الأقدام عانون تحته ... فرائصهم من شدة الخوف ترعد

وسبط صفوف ينظرون وراءه ... مصيخون بالأسماع للوحي رُكَّد

أميناه روح القدس جبريل فيهم ... وميكال ذو الروح القوي المسدد

وهي قصيدة طويلة حتى أتت على آخرها، وأنشدته قصيدته الأخرى [وهي قوله][5]:

يوقف الناس للحساب جميعًا ... فشقيٌّ معذبٌ وسعيدٌ

ثم أنشدته قصيدته [لأخرى][6] التي يقول فيها:

عند ذي العرش تعرضون عليه ... يعلم الجهر والسرار الخفيا

يوم يأتي الرحمن فهو رحيم ... إنه كان وعده مأتيا

يوم تأتيه مثلما قال فردًا ... ثم لا بد راشدًا وغويا

أسعيد سعادة كنت أرجو ... أو مهانًا بما اكتسبت شقيا

أو أؤاخذ بما اجترمت فإني ... سوف ألقى من العذاب فريًا

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «نور».

(٣) في النسخة (ق): «بصر».

(٤) في النسخة (ق): «صعد».

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) زيادة في النسخة (ق).

رب إن تعـــفُ فالمعافـــاة ظنـــي أو تعاقـــب فلـــم تعاقـــب بـــريا

فقال [لها](١) رسول الله ﷺ: «آمن بلسانه وكفر بقلبه»(٢).

قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ يعني: بالآيات التي أعطاه ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أخلد بمعنى: ركِنَ ورضي، ولما لم يرفعه إلى محل الأبرار أسفل به إلى محل الفجّار؛ ذلك لئلا يأمن مكره أحد، ولا ييأس من رحمته أحد، ثم مثَّله بالكلب ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَو تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف:١٧٦] [هذا](٣) كقوله جلَّ قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ [الأعراف:١٩٣].

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٦].

كما أن الكلب لا يترك ما وجد له من نباح ولهث حمل عليه أو [لم يحمل](٤) [ترك كذلك من سبقت عليه الكلمة راجع إلى ضلالته، مكذب بآيات ربه، ولو رفع إلى أعلى درجات العلا واليقين ليس للعلم واليقين، وظهور الآيات عمل، ولا حظ من النفع والدفع، بل لله وحده لا شريك له؛ لذلك أتبع هذا ما تقدم من خطاب قوله: ﴿مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:١٧٨].

فصل

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) ذكره عبد القادر البغدادي في «خزانة الأدب» (٨٧/١)، والنويري في «نهاية الأرب» (٣٨٣/٣)، والمراد بها هو أمية بن أبي الصلت، من شعراء العصر الجاهلي.

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩ - ١٨٢].

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ...﴾(١) [الأعراف:١٧٩] الذرء: من البث، يقول: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ أو يكون معناه: إنه ذرأهم في محالهم من جهنم كما ذرأهم في محالهم من الأرض، لكنه قال جل قوله: ﴿ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ فالوجه الأول أولى، وإلى الآخر مصيرهم، فأعلم جل ذكره أن سواه لا ينفع عنده، ولا دفع لضر، ولا يملك هداية ولا ضلالاً بعده أعين خلقت الأبصار، وآذان خلقت للسماع يسمع بها، وقلوب خلقت لله يفقه بها منعها ذلك منه حتى لقد أخبر بقوله الصدق: أنهم كالأنعام](٢) بل أخبر أن الأنعام أهدى سبيلاً منهم [فلم يجدوا من دونه وليًا ولا نصيرًا](٣) وكذلك الآيات والبينات والعلم واليقين إنما يبين بها [ويسمع بها](٤) ويعلم بالعلم الله خالق كل شيء، [أعلم أن العقل](٥) أصل ذلك وينبوعه، ولو أيقظهم كما أيقظ الذي ضرب به المثل لأغفلهم وأضلهم.

قال ﷻ: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ البُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ ثم قال وقوله الحق: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٢ - ٢٣].

قوله ﷻ: ﴿وَللهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا...﴾ [الأعراف:١٨٠] أنَّث الحسنى؛ لأنها جماعة الأسماء الحسنى تأنيث الأحسن، كما الكبرى تأنيث الأكبر، والإلحاد في الأسماء هو الزيادة على ما أذن فيه، والنقصان عما أمر به مع ميل في

---

(١) ﴿ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ أي: خلقنا ممن يصير إلى جهنم بكفره ومعصيته و﴿كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أراد أولاد الزنى؛ لأنهم من النطف الخبيثة مخلوقين، فهم أكثر الناس إسراعًا إلى الكفر والمعصية، فيصيرون جامعين بين سوء المعتقد وخبث المولد.
والقول الثاني: أنه على العموم في أولاد الزنى والرِشدة فيمن ولد من نكاح أو سفاح؛ لأنهم مؤاخذون على أفعالهم لا على مواليدهم التي خبثت بأفعال غيرهم. النكت والعيون (٣٣/٢).

(٢) ما بين [ ] به اختلاف في اللفظ بين النسخ.

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «ثم أعلم عز جلاله أن الغفلة».

ذلك إلى غير المعنى، فالمشبهة وصفوه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بما لم يأذن [به][(١)] والمعطلة سلبوه - جل وتعالى - في حقهم ما اتصف به.

وسبيل الحق في ذلك واضحة [من][(٢)] أمر بين أمرين دين قيم لا تشبيه ولا تعطيل مع تقديم التنزيه والإيمان بأنه - جل وعز - له المثل الأعلى سبحانه وله الحمد، لقد أعظم النعمة على أهل التوحيد، وأجزل المنة على من منحه التحقيق حيث دلهم على نفسه فاصطفاهم لعبادته، ولم يجعلهم خاضعين لصنم، ولا عابدين لذي شكل ولا لوثن، سبحانه وله الحمد، من ذا الذي يشفع [لهم][(٣)] في القدم من اختار لهم هذا في الأزل لا إله إلا هو، الحمد لله رب العالمين، إن هذا لهو الفضل المبين.

فصل

الدعاء قد يكون بحرف النداء أو بغير حرف النداء، إنما [يجلب حرف النداء بعد][(٤)] الصوت من أجل تطويل النفس به، وذلك يكون لمعنيين:

أحدهما: [إرادة][(٥)] الإسماع.

والثاني: التضرع [وإظهار خضوع][(٦)] النفس للمدعو المنادى.

وأكثر ما جاء دعاء المقتدى بهم - صلوات الله على جميعهم - بإسقاط حرف النداء؛ إذ المدعو المنادى حاضر شهيد، فاستوى في حقه جل وتعالى من أسر القول ومن جهر به، كذلك حكى عنهم عز جلاله بقوله حكاية عن زكريا عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم:٣ - ٤].

﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ﴾ [مريم:٨].

وعن نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦].

---

(١) في النسخة (ق): «فيه».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «له عنده».

(٤) في النسخة (ق): «يجتلب حرف النداء لمد».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «لإظهار حضور».

﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا﴾ [نوح:٥].

وعن أيوب ﷺ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ [الأنبياء:٨٣].

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

[وعن أولي الألباب][١]: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ﴾ [آل عمران:١٩٣] وهو كثير.

[وقد أثنى الله على زكريا ﷺ من أجل إخفاء دعاءه في قوله: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم:٣]][٢] وأمر بذلك في قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[٣] [الأعراف:٥٥].

وقال رسول الله ﷺ وقد سمع [جهر أصحابه بالدعاء][٤]: «**أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا إنه [سميع]**[٥] **قريب**»[٦].

وفي أخرى: «[هو][٧] **أقرب إلى أحدكم من رحله ومن عنق راحلته**»[٨].

ومن أدخل حرف النداء فلمعنى إظهار التضرع [أو إبداء][٩] النصيحة، كقوله جل وعز: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) لما أمرهم تعالى بالاستماع والإنصات إذا شرع في قراءة القرآن ارتقى من أمرهم إلى أمر الرسول ﷺ أن يذكر ربه في نفسه أي بحيث يراقبه ويذكره في الحالة التي لا يشعر بها أحد وهي الحالة الشريفة العليا، ثم أمره أن يذكره دون الجهر من القول أي يذكره بالقول الخفي الذي لا يشعر بالتذلّل والخشوع من غير صياح ولا تصويت شديد كما تناجى الملوك وتستجلب منهم الرغائب، وكما قال للصحابة وقد جهروا بالدعاء.

(٤) في النسخة (ق): «أصحابه يجهرون بالتكبير والدعاء».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) أخرجه البخاري (٢٨٣٠)، ومسلم (٢٧٠٤)، وأبو داود (١٥٢٦)، وأحمد (١٩٥٣٨)، والنسائي في «الكبرى» (٧٦٧٩)، وأبو يعلى (٧٢٥٢)، وابن أبي عاصم (٦١٨).

(٧) في النسخة (ق): «إنه».

(٨) أخرجه بنحوه أحمد (١٩٦١٤)، والطيالسي (٤٩٣)، والنسائي في «الكبرى» (٧٦٨٠)، والبزار (٢٩٩٤).

(٩) في النسخة (ق): «وربما لإبداء».

[الفرقان:٣٠].

وكقول إبراهيم ﷺ: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ العِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي﴾ [مريم:٤٣].

[﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ [مريم:٤٤]][١].

﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ [العنكبوت:٥٦].

فالأمر المعهود [في][٢] الدعاء إلى الله ﷻ [وسؤاله الخفية][٣] وإسقاط حرف النداء إلا أن يدخل على الداعي عارض مزعج، ودعاء المخلوق أكثره بحرف النداء لا سيما إذا كان المدعو على بعد ليس كذلك دعاء من هو أقرب إليك من نفسك، وأقرب إلى نفسك من حياتها، وأقرب إلى كل موجود من ذاته، فأحسن [سبل][٤] الدعاء إليه أن يكون على سبيل المناجاة والافتقار والتضرع والرغبة والرهبة مع الإيمان [بقربه][٥] ومشاهدته، ولتيسير الإجابة من محيط به [قريب][٦] رقيب عليه رحيم به، مجيب [سميع][٧] كريم، لا يتعاظمه ذنب يغفره، ولا عطاء يمنحه استنجازًا لوعده الكريم [﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]][٨].

فصل

قد تقدم الكلام في شرح الأسماء على مبلغ الجهد وحسب الطاقة ﴿وَلله الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

قوله هذا - والله أعلم - خطاب منتظم المعنى بما بدأ به السورة من قوله: ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:٢] إلى قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ

---

(١) سقط من النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «أن».
(٣) في النسخة (ق): «على الحقيقة والتضرع».
(٤) في النسخة (ق): «سبيل».
(٥) في النسخة (ق): «به».
(٦) في النسخة (ق): «قريب منه».
(٧) في النسخة (ق): «سميع له».
(٨) زيادة في النسخة (ق).

وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣] وهذه [ثلاث][١] كلمات عليهن دارت [معاني][٢] ما جاء من بعدهن، فلا يخلو الخطاب بعد هذا من أن يكون في معنى الأمر [بالاتباع][٣] ووصف ما أنزله، والدلالة على الله جل ذكره، والدعاء إليه، والتحذير من اتخاذ أولياء من دونه، ووصف ذلك [ولما][٤] يتبعه والتذكير والنصيحة، وما اتصل به وهو مفصل من محكم.

قوله جل قوله: ﴿الـمص * كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١ - ٢] حتى انتهى الخطاب إلى معظم الذكر والعلم من ذكر الأسماء الحسنى، وهي بما هي تشير، بل تُعرِّف بالصفات العلا [والصفات][٥] تُعرِّف بالموصوف، وكما تدل أيضًا على الأسماء تدل على الأفعال.

واعلم - وفقك الله - أن لكل علم مبتدأ يبتدئ به طالبه، وأُسًّا يبني عليه يحتاج أن يتقنه حتى يعتدل [له أُسه ويشتد][٦] بنيانه، ثم حينئذٍ يتصرف في المعاني فيتبوأ منها حيث [أحب][٧] وأول هذا العلم: التفكر في مخلوقات الله جل ذكره، وطلب معرفته بذلك، والعلم الحاصل عن ذلك فهو علم أسمائه، وإنما ضل [الأكثرون عن المقصد لما ركنوا إلى طلب للعلم الهوينا، وركنوا][٨] إلى الراحة، وسلكوا في ذهابهم إلى ذلك بنيات الطريق، وقنعوا بالأدنى دون الأعلى، وتركوا المنهج جانبًا، ولما لم يطلبوا العلم، ولم يتعرفوا المعارف من أصولها، ولا أتوها من أبوابها [ولا][٩] شرعوا فيها من مبادئها تحيروا وضلوا ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:٧٢].

---

(١) سقط من النسخة (ق).
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «والنهي».
(٤) في النسخة (ق): «وما».
(٥) في النسخة (ق): «كما الصفات».
(٦) في النسخة (ق): «أسه فيثبت له».
(٧) في النسخة (ق): «يشاء».
(٨) في النسخة (ق): «الأكثر عن القصد لما ركبوا إلى طلب العلم الهوينا وألفوا الركون».
(٩) زيادة في النسخة (ق).

فمن لم يكتسب اليوم علمًا لنفسه بقي غير عالم حتى يموت، ثم إن هو أُدخل الجنة بقي في أول درجة منها متخلفًا عن درجات العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، [يدخل الجنة إن شاء الله فلا يجاوز أول درجة منها](١).

أتبع ذلك قوله ﷻ: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٨١] وقد قال مثل هذا في قوم موسى عليه السلام بعدما كان استاق ذكر هذه الأمة من لدن قوله جل قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [الأعراف:١٥٦] إلى قوله جل قوله: [﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ...﴾ [الأعراف:١٥٨] فجاء من ظاهر هذا الخطاب الكريم أنه لا هداية لأحد من الناس كائنًا من كان إلا باتباع رسول الله ﷺ.

وقد كان قبل هذا يرسل الله ﷻ النبي إلى قوم خاصة أو أمة معهودة عنده كما قال ﷺ: «**كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة**»(٢) وفي أخرى: «**بعثت إلى الأحمر والأسود**»(٣) وجاء هذا الخطاب معرفًا في العموم.

قوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ﴾ [الأعراف:١٨١] فيحتمل أن يكون المراد بهم الجن، وقد ذكرهم في القرآن في مواضع، وإيمانهم بالقرآن وبمن جاء به واهتداؤهم.

قيل: هذا الكتاب، وإن فيهم المهتدي ومنهم الضال، ويمكن أن يكون المعني به قومًا في أطراف الأرض حيث أظلم الكفر وعمَّ الضلال إلا مَن هدينا، فإنه كما يوجد في أقطار النبوة ومواضع الهداة والهدى كفار ومنافقون كذلك لا يبعد أن يكون في مواضع الضلال والكفر هداة يهدون بالحق يعدلون به في حكمهم، وربما قضوا بالحق وحكموا به، ويعدلون به أيضًا عن الحق كما يهتدي بالكتاب والنبوة، ويعدل بهما الضلالة والكفر ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢].

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٨)، والنسائي (٤٣٠)، والدارمي (١٤٤٠).

(٣) أخرجه الطبراني (١١٠٤٧).

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤]][(١)].

فصل

[قد تقدم أن المعهود المتقرر الهداية بالكتب والنبوة، وأن رسول الله ﷺ قال: «**وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة، وإلى الأحمر والأسود**»[(٢)].

فمن المعلوم أنه [ﷺ عم بالنبوة والأنبياء العالم كله إلا في القرط، كيأجوج ومأجوج وأمثالهم، وإنه قد جاء في كتاب «النبوات»: إن الأنبياء قد بلغتهم وأنبأتهم بما يكون منهم في خروجهم، ثم ما يكون من هلاكهم وخوطبوا بذلك.

وبالجملة: فإن الإنباء والنبوة فيما هنالك وما قاربهم، وفي أكثر الأقطار المحيطة بالمعمور غريب قليل، وأما [سَننه... وسيره فظاهره ذلك][(٣)] ولو كان ذلك كذلك لكان غريبًا ذكرًا وخبرًا، وقد نرى مع لزومها فيما ها هنا وشياعها عموم النسيان، وحلول الغفلة، واستيلاء القسوة على القلوب، فكيف بأولئك؟][(٤)].

وذكر الله جل ذكره قوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٨١] منتظمة بالمجاورة بقوله جل قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠] فالظاهر [أن الحق المعني في قوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ﴾ [الأعراف:١٨١] هو الحق المبثوث في العالم][(٥)] في السماوات والأرض الذي فطرهن الله عليه، وهو المتصل بإيمان الفطرة، وهو الإيمان الذي يتحصل بالنظر والفكر والتذكر، وما دلت عليه دلائل المصنوعات، [وسندت][(٦)] به ضروب الآيات،

---

(١) ما بين [ ] به تقديم وتأخير واختلاف بين النسخ.

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٤٢)، وعبد بن حميد (٦٤٣)، والبزار كما في «كشف الأستار» (٣٤٦٠)، والطبراني (١١٠٤٧).

(٣) ليس في (ف) ومبتور في (غ).

(٤) ما بين[ ] به تقديم وتأخير واختلاف بين النسخ.

(٥) في النسخة (ق): «فالظاهر أن الحق المذكور هنا الحق المثبوت».

(٦) في النسخة (ق): «وشهدت به».

وقامت عليه البينات المنفصلة من معاني الأسماء والصفات، وكان ذلك ظاهرًا [من][١] نبوة آدم ﷺ من علمه بالأسماء [التي علمه الله ﷻ إياها ثم اتصل ذلك أيضًا][٢] بالأئمة الراشدين من ذريته من بعده إلى أن نجم قرن الضلال، وظهر الكفر [حتى طبق الأرض إلا ما شاء الله منها، فإن الله لا يخلي الأرض من قائمين بحجته، وعاملين له بما يرضيه من طاعته.

عبر عن هذه الحال المذكورة قوله ﷻ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: على الإسلام والإيمان، وحذف ذكر الاختلاف، ثم قال: ﴿فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ بقوله الحق، وهذا حق مؤكد للحق المحصل، والنظر والاختلاف الواقع فيه من أجل اختلاف الآراء يبينه الكتاب والنبوة كما قال جل قوله: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣]][٣] وعلى ذلك فإن الله لا يخلي أرضه من القائمين بحججه وعاملين له بما يرضيه، وكما لم يخل موضع الرسالة والنبوة والهداية من منافقين وكافرين ومكذبين.

ولما [طبق الكفر الأرض][٤] وعمها ظلامها إلا ما شاء الله بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب [والصحف والبينات][٥] كنوح وهود وصالح وشعيب، ثم موسى - صلوات الله وسلامه على جميعهم - إلى أن بعث إبراهيم ﷺ حين ضل النُّظار [والمتفكرون يعلمهم][٦] كيف النظر، وأراهم ترتيب الاعتبار ومُنْبَعَثه، وإلى من هو المنتهى، فقرُب باليقين، وعلا بالعلم المكين، واطلع على ملكوت السماوات والأرض، وأتخذه الله خليلًا ثبت قوم [على][٧] نبوته، واتصل لهم ذلك بنبوة آدم ﷺ، وهم قوم من البراهمة، [وأنكروا ما سواها من][٨] النبوة

---

(١) في النسخة (ق): «أي في».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) ما بين[ ] به تقديم وتأخير واختلاف بين النسخ.

(٤) في النسخة (ق): «أطبق الكفر على الأرض».

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «فطفق ﷺ يعلمهم».

(٧) في النسخة (ق): «على رسوم من».

(٨) في النسخة (ق): «وأنكر بعضهم».

فضلوا لذلك.

وأمة أخرى أخذت [مأخذ][١] النظر والاعتبار، [وكررت][٢] الذكر على الفكر، والفكر على الذكر وإن كانت لم تأثم بالأسماء [ولا شعرت بها؛ لسعة][٣] رحمة الله ﷺ [بها][٤]، وعموم مسالكها في العالم لم تكد [تخرج من][٥] حكمة موجودة فيها وبها، ثم كذلك إلى أن تهودت منها المبالي، وتقطعوا [زمرًا][٦] فيما بينهم كالمعهود من الأمم [البادية][٧]، فكيف بأولئك من ضلال وحيرة؟.

وربما كان في أثناء هذه الطرقات، وفي أعطاف [مرور][٨] هذه الأمم أفراد سابقة، وآحاد [وأنواع][٩] من الحق متمسكة، وقليل ما [أعقد][١٠] لهم لواء مملكه، وللمعهود من سنة الله جل ذكره، والموجود من [خصوصية][١١] من شاء من عباده، وربما أرسل إليهم رسلاً ونبّأ منهم أنبياء، وربما جنت الأشكال وتعارفت الأنفس الذكية، واتصل الحق بالحق، وربما ظهرت [لهم][١٢] دولة بقطر من أقطار الأرض وإن غلب عليهم في أخرى، وربما غطى عليهم أهل الضلال وظهر عليهم ظلام الكفر، فربما أيضًا أزيلوا منهم هكذا، وهم على ذلك مرة يتفيئوا أمر الله فيهم وبهم، ومرة يقيمهم حتى أظهر دينه بالإسلام [ونبيه][١٣] ومحمدًا ﷺ، ثم لا يبعد أن يكون مثل ذلك بحيث لا ينتهي علمنا من معمور الأرض، وقد يطلع الشوك الزهر، وربما

---

(١) في النسخة (ق): «ما أتخذ».
(٢) في النسخة (ق): «وكورة».
(٣) في النسخة (ق): «إلا عن جنب من النظ ولسعة».
(٤) في النسخة (ق): «بالأسماء».
(٥) في النسخة (ق): «تخلوا أعني هذه الأمة عن».
(٦) في النسخة (ق): «زبرًا».
(٧) في النسخة (ق): «المهدية».
(٨) سقط من النسخة (ق).
(٩) في النسخة (ق): «بنوع».
(١٠) في النسخة (ق): «انعقد».
(١١) في النسخة (ق): «خصوصيته».
(١٢) في النسخة (ق): «له».
(١٣) سقط من النسخة (ق).

اجتنى منه الثمر، والله غالب على أمره.

وقال رسول الله ﷺ في المجوس: «**سنوا بهم سنة أهل الكتاب**»[(١)].

ثم أجمع المسلمون على ذلك من أخذ الجزية منهم، وما ذاك إلا لنبأ عندهم، وأصلهم في نكاح القرابات المحرمات بالقرآن والحديث، وكذلك في التوراة والإنجيل [أزواج][(٢)] آدم عليه السلام ذكر بطن من أنثى بطن آخر، وأنثى بطن من ذكر بطن آخر؛ وذلك لضيق المتسع يومئذٍ، ثم نسخ الله ﷻ ذلك، وذكروا - أعني: المجوس - أن أنبياء لهم قد سموهم، فإن كان ذلك كما قالوا فإنا نؤمن بما أنزل الله من كتاب، وبمن أرسل من رسول.

فصل

من وصف بعض [ذكر][(٣)] أنبياء هؤلاء - عليهم السلام - [من يقدم ذكرهم النبي ﷺ][(٤)] وذلك أنهم دلوا بعض ملوك اليونانيين على التماس [نبي؛ ليعلمه بأمر نزل به من مملكة، ويدله على الشفاء من ذلك الأمر، فدلوه على التماس نبي عصره؛ ليجمع له إلى علمهم، وما ينبئ عنه أنه لا يسكن في البلدان العامرة، وإنما يكون في القواصي المقفرة، ويكون من فقراء عصره][(٥)].

قالوا: ولتكن رسلك إليه، ودليلك عليه من لانت سجيته وصدقت لهجته،

---

(١) أخرجه مالك (٦١٩)، والبيهقي (١٩١٢٥)، والبزار (١٠٥٦).

(٢) في النسخة (ق): «أنكاح».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «نبي عصرهم ليجمع له إلى علمهم ما ينبئ به النبوة وذلك لأمر حزبه، وهذا من وصف بعضه على الاختصار منا له، قالوا: كان هذا الملك قد بسط العدل في رعيته وبذل الإحسان فبطروا وكثر لأجل ذلك الخلاف حتى تناقضت عليه بعض أطراف دولته، فخرجوا عن عدله بجورهم وعلى إحسانه بإسأتهم فجمع لذلك أهل الرأي من مملكته واستفتاهم في ذلك، وقال: أشيروا عليَّ فدلوه على نبي ذلك الوقت ووصفوه له بما يأتي ذكره، وقالوا: إنه لا يسكن في البلدان العامرة، وإنما يكون في القواصي المقفرة ويكون من فقراء عصره».

وكان [تطوعه][(١)] إلى الحق أحب إليه من الظفر به، فإن من استولى عليه هذا الوصف بينه وبينهم وصلة فدله عليه، [وليتقدموا][(٢)] إلى أصحابه في المسألة عنه؛ ليعلموا مسقط رأسه ومنشأه وسيرته، فإنك تجده زاهدًا في التعلم، راغبًا في الصدق، مؤثرًا للخلوة، بعيدًا [عن الخيلة][(٣)]، غير حظي من الملوك، ينسبونه إلى تجاوز حده، والخروج عما جرى عليه أهل طبقته يتأمل فيه الخوف وتخال فيه الغفلة، إذا تكلم في الأمر توهمت أنه عالم بأصوله، وليس [يعرف ما يلقى][(٤)] إليه به، وإذا سُئل عما يصدر عنه ذكر أنه يُلقى على لسانه وفي خاطره في اليقظة وبين النوم واليقظة ما لم [ترو فيه وإذا سألته][(٥)] عن شيء رأيته كأنه يقتضي الجواب من غيره، ولا يفكر فيه [تفكير][(٦)] القادر عليه والمستنبط له، فإذا وجدوه [فيستجمع لهم][(٧)] أعاجيب تظهر على لسانه ويده إلى ما تقرر من وصفه.

[قالوا][(٨)]: فلما وجدوه وجدوا معه نفرًا يسيرًا من الزهاد قد قعدوا عن الاكتساب، ومشايخ زمنى [أقعدهم][(٩)] الجهد وهو بينهم في منزل شعث، وحول المنزل جماعات من هؤلاء قد شغفهم جواره وأقعدهم عن الحظوظ التي وصل إليها غيرهم، وسألوه عن وقت خلوته فقالوا [لهم][(١٠)]: «ما له شيء يشغله عنكم» فدخلوا عليه فوجدوه مختبئًا بين جماعة قد غضوا أبصارهم من هيبته، فلما رآه النفر المرسلون إليه سبقتهم العبرة وغمرتهم الهيبة، فسلموا عليه فرد عليهم السلام ردًا

---

(١) في النسخة (ق): «رجوعه».
(٢) في النسخة (ق): «وليقدموا».
(٣) في النسخة (ق): «من الحيلة».
(٤) في النسخة (ق): «يعلم ما ترقى».
(٥) في النسخة (ق): «يرويه وإذا سئل».
(٦) في النسخة (ق): «تفكر».
(٧) في النسخة (ق): «فتستجمع لكم».
(٨) في النسخة (ق): «قال».
(٩) في النسخة (ق): «قد أخلقهم».
(١٠) زيادة في النسخة (ق).

ضعيفًا [وهو](١) كالناعس المتحير، ثم زاد نعاسه حتى كادت [عيونه تنجلِ](٢) فلما تبين لمن حوله ما تغشاه غضوا أبصارهم ووقفوا [فوق](٣) المصلى، فقال: «يا رسل الخاطي» ثم كلمهم بحاجتهم، وكان مما كلمهم به أن قال: قولوا إنك غرست جنة وظللت وأرسلت إليها من الماء أكثر ما ينبغي إلى تمام مقالته، إن من حكمة الله جل ذكره أن فرد على عباده أنواع وظائف العبادات بحكمته في ذلك نشغلهم بذلك، يجتمعون على ذلك ويتفرقون عليه وليرفع بذلك عنده درجاتهم في الآخرة.

وكان هذا الملك أحسن إليهم في متاع الدنيا، ولم يكن له علمًا بما يجلبه إليهم من خير الآخرة فبطروا على ذلك، وقد كان سقى على السائلين له، وأن يسترشده فيعرفهم معنى المثل الذي ضربه لهم في ذلك، وكيف ينبغي إصلاح ذلك؟ فلعله أن تأمرهم بأن يضرب على العباد وظائف عبادة الله من صيام وصلاة وحج وذكاة وصدقات، وضروب أذكار ولزوم مخافة الله واستشعاره خشيته، ونصيحة للمؤمنين وللإمام ولعامتهم وخاصتهم ولجهاد في سبيل الله من لم يؤمن بالله وبرسله، وترك هذا أوجب التقاتل من المسلمين بقدر ما انتقصوا من ذلك فالله المستعان، فهذه حكمة الله التي يسوس بها عباده ويقمعهم بالتزامها عن توثب بعضهم على بعض.

وذكروا أن امرأة حاكمت زوجها إلى بعضهم في تلك الأمة فأصابته مشغولاً بالتقديس - يعني: الصلاة - فانتظرته مع زوجها حتى فرغ، ثم قال [لها](٤): يا جاهلة، بمقدار ما جنته على نفسها اعترفي بذنبك واعلمي زوجك بجنايتك عليه، فإن السكران الذي واقعك في ليلة كذا وزوجك قائم في الهيكل يدعو لكي بدوام البقاء والسلامة قد أحبلك، [ظننت](٥) لما استترت عن أعين البشر لم تبقَ عين تراعيك، ولم تعلمي أن في ملكوت السماء منها ما لا يحصى عدده، وأنت فيهم

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «حبوته تنجبل».

(٣) في النسخة (ق): «وقوف».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «وأنت متهومة وإنك».

[كالمكفوفين][١] المبصرين، وستلدين بعد شهرين خلقًا مشوهًا. ثم قال للزوج: «عقدت نكاح هذه المرأة على غير استقامة فحصدت منها أكثر [مما][٢] زرعته» فولدت شخص إنسان له رأسان ويدان في صدره صغيرتان.

وذكروا أن رجلاً وافاه فقال له: يا نور الألباب، إني دفنت مالاً في موضع من منزلي [ونسيت][٣] مكانه، فقام معه وجاء إلى منزله فأثاره، [ثم][٤] قال: «أيها الممتحن إلي والشاك فيَّ، إنه لا بد أن يتلف منك ما آثرته لك من المال في هذا الأسبوع، ثم لا أستخرجه لك بعدها، فإن حقًّا على من لعب بنعم الله أن يسلبه إياها» فذهب المال.

فصل

وذكروا أن شدة حلت في بعض هذه الأمم، وحربًا احتيج فيها إلى إخراج رجل من أفاضلهم.

قالوا: وكان طاهر السجايا، حسن التمكن من علوم النفس، فرجع وقد أثخن جراحًا، قال بعض أصحابه: «فدخلت عليه وأنا أتوهم أنه لا يميز، فألفيته في تميزه صحيحًا، وكان يغمى عليه ساعة فيكون بمنزلة المستثقل في نومه، ثم يفتح عينيه فيتكلم ببعض أدعية الصحف ويشخص إلى جهة السماء، فقلت: ما الذي ترى؟ فقال: أرى خلاص النفس من الجسد، وأجد راحة [لم][٥] أجدها في المحيا. فقلت [له][٦]: زدني في شرحك إن أطقت ذلك. فقال: [أراني][٧] وكأني ولدت وعلى كتفي شيء ثقيل، فكان يكبر بزيادة سني حتى إذا كان في هذا الوقت وجدت له

(١) في النسخة (ق): «كالمكفوفة من».
(٢) في النسخة (ق): «ما».
(٣) في النسخة (ق): «وأنسيت».
(٤) في النسخة (ق): «و».
(٥) في النسخة (ق): «لمن».
(٦) زيادة في النسخة (ق).
(٧) في النسخة (ق): «أرى».

[جفاءً][(١)] شديدًا، وصرت أتأمل [الأشياء][(٢)] بما هو أفضل من عين الجسد، وأنا أرى عمودًا متصلاً بالأثير من نوره، ونفوس أهل الزيغ لا تقطعه، وتتحامى نوره إلى ما حوله كما تفعل الخفافيش.

ثم قال: طوبى لذوي الأمانة والصدق؛ فإنهم في أمن. ثم زفر فقلت له: ما لك؟ فقال: «[إني][(٣)] قد أشرقت على الفرج من الجسد، إلا أن قوة في قلبي تحبسني عنه، تجذبني إلى الحياة وأنتم تعينونها بطيب الأرايح [الشائقة][(٤)] في هذا الموضع، وأنا بينكم كرجل مطلق بين مصفدين يريدون مقامه معهم في حبسهم، وقد تراءى له الخلاص منها. ثم عاد إلى دعاء الصحف، فمازال يتلوه حتى ثقل لسانه وخفي كلامه [بالصعق][(٥)] وقضى نحبه، فهؤلاء أنبياء وأفاضل ومن أتباعهم».

وقد فرقوا ما بين الشريعة والسياسة، وذكروا الصلاة وركوعها وسجودها وقيامها، والصيام ومنبعثه، والصدقة والمكرمة والذبائح، والحدود في الزنا [والسرق][(٦)]، والزهد في الدنيا، والإخلاص، وحذروا من [الربا][(٧)] والخيانة وأكل الحرام، وذكروا القود والإيمان وحسن السيرة والمواريث والنكاح والغسل، وأنه واجب، وبر الوالدين، والفرق ما بين [ما][(٨)] للوالد على الولد وبين ما للولد على الوالد، والدين والأعياد، فما قصروا كثيرًا، [ما][(٩)] وكان كلامهم على ذلك كله بما لا بأس به إلا قليلاً من كثير، وربما كان تصديقًا بقوله الحق في الغالطين منهم: ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٥٩] على وجهتيه.

---

(١) في النسخة (ق): «خفٍّ».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «الشائعة».

(٥) في النسخة (ق): «بالضعف».

(٦) في النسخة (ق): «والسرقة».

(٧) في النسخة (ق): «الزنا».

(٨) سقط من النسخة (ق).

(٩) سقط من النسخة (ق).

فصل

ومن نوادر حكمهم [قول أحدهم][١]:

- من غلب عقله هواه افتضح.
- من غضَّ طرفه أراح قلبه.
- أيها الإنسان، إذا اتقيت ربك وحذرت الطريق المؤدية إلى الشر لم تقع في الشر.
- لا تلم القضاء فيما جنيت.
- شر يُدفع خير من خير لا ينفع.
- لا شيء أشد من ترك الشهوة.
- تحريك الساكن أيسر من تسكين المتحرك.
- من لزم الوقار لزمه الرضا.
- من قل وفاؤه كثر أعداؤه.
- أحسن إن أحببت [أن][٢] يحسن إليك.
- بالهمم العالية [والقرائح][٣] الزاكية تصل القلوب إلى نسيم العقل الروحاني، وترقى في ملكوت الضياء والقدرة الخفية عن الأبصار المحيطة بالأقطار، وترتقي في رياض الألباب المصفاة من الأدناس، وبالأفكار تصفو أكدر الأخلاق المحيطة بأقطار الهياكل [الجسمانية][٤]، فعند الصفو ومفارقة الكدر تعيش الأرواح التي لا يصل إليها الانحلال والاضمحلال، فحينئذٍ يلحق العنصر بالعنصر، ويتحد الصفو بالصفو، ويرسب الكدر إلى الكدر، فتعاين القلوب حقائق الغيوب، وتطمئن النفوس إلى ما لحقت به من العالم المعلوم لحسن الأفكار، [وباعتناق][٥] الأشكال واتفاق

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «والقريحة».

(٤) في النسخة (ق): «الجسمية».

(٥) في النسخة (ق): «وباتساق».

الأهواء كيف تركن القلوب إلى علم الغيوب وقد حجب عنها صواب المصيب؟ بل كيف يتخلص الصفو من الكدر بغير تهذيب [من الفكر؟ كيف][١] تلحق الأفكار غوامض الأسرار وهي في حجب الاغترار؟ [تتأهب][٢] الأهواء إلى معادنها، وقويت الهمم [في][٣] مواطنها، وعادت الأفكار إلى عناصرها، ورجعت مستكنات الفطن إلى مستكناتها، وعاليات الأذهان إلى مظانها وأماكنها، [فانحازت][٤] الأشكال بلطيف تأثير الهواء فيها، واستكنت مشرفة على هياكلها من أوطان عناصرها [بلمحة][٥] قبول بشواهد الأسرار تلج الضمائر في بحار الأفكار، فتصل إلى نسيم [الهوى الواصل إلى][٦] عوارض العقول والأبصار، [وعرائض][٧] الألباب والأذهان، فتقبل [الهوى ويتواصل][٨] اللحاق بمضمرات الغيوب، ويتصل بالمطلوب الأعلى الذي فيه [التقاء][٩] النفوس في ظل السحاب المحسوس، كيف الاتحاد بخفيات الأضداد؟ والعلم بشواهد الآثار المحتجبة عن العقول والأبصار الشاهدة لخفيات الإضمار حتى تعلقت [الأزواج بالأزواج][١٠] وامتزجت الأجناس بالأجناس، وخلصت في [سراح][١١] الأوهام، وانحسرت في مفيض العقل، وبانت من كدر العذاب، وتميزت من مواطن الحجاب إلى بحبوحة الألباب، فيا لها نعمة ما أتمها وأعمها وأهنأها وأسلمها.

---

(١) في النسخة (ق): «الفكر بل كيف».

(٢) في النسخة (ق): «تناهت».

(٣) في النسخة (ق): «من».

(٤) في النسخة (ق): «وانجازت».

(٥) في النسخة (ق): «بصحة».

(٦) في النسخة (ق): «الهواء الواصل».

(٧) في النسخة (ق): «وغوائض».

(٨) في النسخة (ق): «الهواء الواصل إلى القلوب وتتواصل».

(٩) في النسخة (ق): «بقاء».

(١٠) في النسخة (ق): «الأرواح بالأرواح».

(١١) في النسخة (ق): «سراج».

ومن [مقطفات][١] حكمهم:

- الحكمة حياة النفوس، وزراعة الخير في القلوب، ومثمرة الحظ، [وحاصدة الغبطة][٢] وجامعة السرور، ولا يخبو نورها، ولا [يكبو][٣] زنادها.

- الحكمة حلة العقل، وميزان العدل، ولسان الإيمان، وعين البيان، وروضة [الأدب][٤] ومنزاح الهموم على الأنفس، وأمن الخائفين، وأنس المستوحشين، ومتجر الراغبين، وحظ الدنيا والآخرة، وسلامة العاجل والآجل.

- كل شيء يتهيأ فيه حيلة إلا القضاء.

- ليس شيء أقرب إلى تغير النعم من الإقامة على الظلم.

فصل

في نفي التشبيه والتمثيل

اللواحق الخفية هي ما لا يدرك بحاسة العيان والأسماع واللمس والفكر، فالنكول عنه بيّن، والعجز عن مداه واضح، كيف يدرك بالحس غير محسوس؟ أم كيف [تبلغ الفكر][٥] ما لا يعرف أمره ولا الطريق إليه؟ حسرت الأبصار عن إدراك الغيوب، ورجعت الأفكار عن الوصول، وانقطعت المعارف دون التناهي من عجز عن علم نفسه، فهو أعجز عن علم غيره، ومن ضاق عن سعة الفضاء قصر عن بلوغ المدى، وعن معرفة الانتهاء حقائق خفية توجب أحكام صنعة وتلزم القصور عن إدراك ذلك بالعقول والأبصار، وإنما يرتقي إليه وهمًا لا تحقيقًا ويعلم به تفكرًا لا نظرًا.

وربما وقع [الفكر][٦] على معدوم والفكر على غير مفهوم حقائق الأشياء تظهر

---

(١) في النسخة (ق): «مقطعات».

(٢) في النسخة (ق): «وزراعة الغبط».

(٣) في النسخة (ق): «يكمن».

(٤) في النسخة (ق): «الآداب».

(٥) في النسخة (ق): «مبلغ».

(٦) في النسخة (ق): «الوهم».

عند الوصول إليها، وتتعلق الأرواح بها، فإذا تناهت إليها وقفت عندها فتألفت ودخلت معها في جملتها.

جوابه: إنما يكون [عند][١] مباينة اللطيف الكثيف، وتبيين الغائب بالشاهد، واتفاق المعدوم مع الموجود، [والاتحاد][٢] إنما هو للأرواح لا للأجساد، فإذا تباينا اتصلا، وإذا تفرقا ائتلفًا، فلحق اللطيف باللطيف، ورجع الكثيف [إلى][٣] الكثيف، آمالنا متناهية إلى حد تقف عنده، وأفكارنا جائلة في سعة [تحسر][٤] عن إدراكها وتعجز عن الإحاطة بها، لطفت عن الحس، وكثفت عن الدخول في غلظها، فالعقول متناهية إليها، والأفكار واقفة دونها، والخواطر متعلقة معترفة بالتقصير عنها، [شاهدة لحقائقها][٥]، ممتنعة عن العلم بها من عرف الدنيا، لم يفرح لرخاء ولا يحزن على بلاء، أجهد بدنك اليوم لراحتك غدًا، أقْصَدُ السيرة طيب [الذكر][٦] المكسب، وتقدير الاتفاق.

وكتب بعضهم إلى ملك زمانه، وقد مات ابنه: إن الله تبارك وتعالى جعل الدنيا دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فيأخذ ما يأخذ مما يعطي ليعطي [ويبلي][٧] إذا ابتلى ليجزي الذنوب الفاضحة تذهب الحُجج الواضحة، اعقلوا في ستر من أنتم، فإن كنتم لا تعقلون فاحذروا الدنيا، وإن كنتم لا تحسنون أن تحذروا الدنيا فاجعلوها شوكًا، وانظروا أين تضعون أقدامكم، واحذروا أكل الشهوات، فإن القلوب المعلقة بالشهوات محجوبة عن الله ﷻ، من أراد أن يقوى على طلب الحكمة [فيكف][٨] عن تمليك النساء نفسه، لا ضرر أضر من الجهل، ولا شر أشر من النساء، من كانت الدنيا عنه سائرة فلا شك أن أعضاءه فانية، ومهجته عن الدنيا

(١) في النسخة (ق): «بعد».
(٢) في النسخة (ق): «فالاتحاد».
(٣) سقط من النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «تنحصر».
(٥) في النسخة (ق): «شاهد بحقائقها».
(٦) زيادة في النسخة (ق).
(٧) في النسخة (ق): «ويبتلى».
(٨) في النسخة (ق): «فليكف».

راحلة، من حسن خلقه غفر ذنبه وأقيلت عثرته، ومن ساء خلقه عوقب في حياته، ولم يصفح عن زلته بعد مماته، [إنما][١] الدنيا وإن رمقت خطرة من لحظ ملتفت يحسن بالمرء التعلم مادامت [به][٢] الحياة.

وقال بعضهم: ما أحب أن النفس علمت كل ما [أوجدت][٣] به، فقيل له: لِمَ أيها الحكيم؟ فقال: لأنها لو علمت لطالت، فلم ينتفع بها ما عندي من فضيلة العلم إلا علمي بأني لست بعالم الاتكال على القضاء أروح، وقلة الاسترسال إلى الناس [أحزم][٤]، إذا هرب الحكيم من الناس فاطلبه، وإذا طلبهم فاهرب منه، ليس ينبغي للرجل أن يشغل قلبه فيما ذهب منه، لكنه ينبغي أن يعنى بما يبقى عليه.

وإنما اجتلبنا بعض حكمهم وكلامهم، وأومأنا إلى بعض الإشارة [إلى سيرتهم][٥]، وإن كان الأكثر منهم لهم آراء في [طريق المعرفة غير ناهية][٦]، وعقود غير مبلغة إلى [المطلوب][٧]، وعلم بالدار الآخرة غير مصيب، فلم يكن الغرض في اختلاف [أقاويلهم][٨] التصويب لأكثرها، ولا ترشيد جملتها، بل لم تكمل الهداية إلا لهداة المسلمين، ولا تصورت الحكمة صورة ماثلة، فلاحت كالسبيل السابلة إلا لأئمة المتقين في الأولين والآخرين، لكن الغرض توجيه قوله الحق: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ...﴾ [الأعراف:١٨١].

فأنت مع توفيق الله إذا تصفحت أمرهم واستعرضت أكثر قولهم علمت أن توجيه قوله ﷻ يمكن أن يكون المعني به هذه الأمة ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُون

---

(١) زيادة في النسخة (ق).
(٢) زيادة في النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «أوعدت».
(٤) في النسخة (ق): «أجزم».
(٥) في النسخة (ق): «من سيرهم».
(٦) في النسخة (ق): «طرق المعرفة غير متناهية».
(٧) في النسخة (ق): «مطلوب».
(٨) في النسخة (ق): «أقولهم».

بِالْحَقِّ﴾ أي: بالحق [المبثوث](١) في العالم المنفصل [من](٢) مقتضى أسماء الله ﷻ مع هداية من أنبأ مبلغ إليهم، وبالحق يعدلون؛ [أي](٣): عن الحق، والله أعلم [بمراده وحكمه](٤).

﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٨٣ - ١٨٦].

قوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾(٥) [الأعراف:١٨٤] خاطب جل ذكره الرسول ﷺ والمرسل إليهم، وأعلم بذلك أنهم كانوا [يدركون العلم بصحة نبوته إليهم وتصديق رسالته، وأنه نذير وبشير بالتفكر والنظر](٦).

---

(١) في النسخة (ق): «المثبوت».

(٢) في النسخة (ق): «عن».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) قال الحسن وقتادة: سبب نزولها: أن رسول الله ﷺ صعد ليلاً على الصفا فجعل يدعو قبائل قريش: يا بني فلان، يا بني يحذرهم ويدعوهم إلى الله تعالى، فقال بعض الكفار حين أصبحوا: هذا مجنون بات يصوّت حتى الصباح، وكانوا يقولون : شاعر مجنون، فنفى الله ﷻ عنه ما قالوه، ثم أخبر أنه محذر من عذاب الله، والآية باعثة لهم على التفكر في أمر الرسول ﷺ وانتفاء الجنة عنه، وهذا الاستفهام قيل: معناه: التوبيخ، وقيل: التحريض على التأمل والجنة كما قال تعالى: ﴿مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس:٦] والمعنى: من مس جنة أو تخبيط جنة. وقيل : هي هيئة كالجلسة والركبة أريد بها المصدر؛ أي: ما بصاحبهم من جنون، والظاهر أن «يتفكروا» معلّق عن الجملة المنفيّة، وهي في موضع نصب بـ«يتفكروا» بعد إسقاط حرف الجر؛ لأن التفكر من أعمال القلوب فيجوز تعليقه، والمعنى: أو لم يتأملوا ويتدبروا في انتفاء هذا الوصف عن الرسول فإنه منتفٍ لا محالة، ولا يمكن لمن أنعم الفكر فيه نسبة ذلك إليه. تفسير البحر المحيط (١/٦).

(٦) في النسخة (ق): «يذكرون العلم بصحة نبوة نبيهم والتفكر والنظر فيعلمون بذلك تصديق رسالته وأنه نذير وبشير».

ثم قال ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...﴾ [الأعراف: ١٨٥] أخبر الصادق [الحق][1] ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، أن [الفكر][2] في النبوة والنبي خاص لها، وأن التفكر في الملكوت وما خلق الله من شيء تحتاج إلى نظر آخر، وإن الفكر ليجري فيما دق أو جلّ فيرتفع؛ [أي][3]: يملأ الآفاق، ويبلغ العرش العظيم، وينزل [سفلاً][4] إلى أسفل السافلين، دل على [هدايته من الآية][5] بمجاورتها أيضًا بقوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف:١٨١ - ١٨٢] وبانتظامها بقوله جل قوله: ﴿وَلله الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

ودلَّ بذلك أن بعلم الأسماء يدرك علم [التوحيد وعلم][6] براهين النبوات، وهو المنتظم لمعرفة الملكوت، وجمعت هذه الآية مطالب العلوم كلها على العموم الأقصى، وأعلمت بمناهج الفوز الأكبر والفلاح الأعلى، وذلك أن الوجود كله [في][7] العالم والوحي إنما يدور على التعريف بالله ﷻ بأسمائه وصفاته، والإعلام بموجودات الآخرة، والاستشهاد على ذلك بالشواهد وإقامة البراهين، استشهاد البينات والآيات على ذلك، وكذلك التعريف بعدله وأحكامه وكلماته وسننه المتممة لكلماته، ثم التعريف بمعالم الرسالة والنبوة، وتبيين ذلك وشواهده ودلائله، وتبيان ما أنبأت به الرسل، وما جاءوا به من [الكتب][8] والآيات، ومناهج القصد والقرب إلى الله ﷻ، وما دار حول هذا وما آل إليه، ثم بما يجب على العبد من التهيؤ للقاء الله ﷻ، والتشوق إليه ورجائه وخوفه والحذر منه، إلى غير ذلك من دلالات

---

(١) زيادة في النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «الفكرة».
(٣) في النسخة (ق): «حتى».
(٤) في النسخة (ق): «سفله».
(٥) في النسخة (ق): «هذا نص الآية».
(٦) زيادة في النسخة (ق).
(٧) زيادة في النسخة (ق).
(٨) في النسخة (ق): «الكتاب».

[الوجود من][(١)] العالم والوحي.

ومعرفة علم الأسماء، وهو مدار [قطب][(٢)] ذلك، وفيه الشأن كله من تحقق علم التوحيد، ومعرفة أسماء [الواحد][(٣)] وصفاته، ومعرفة مسالك أحكامه بالعدل في بريته، وقيامه بالقسط في خليقته، وكيف هو يحيي ويميت وهو في حال الإماتة يحيي وفي حال الإحياء يميت؟ وكيف يمسك السماوات والأرض أن تزولا وما [بين][(٤)] ذلك وما علا وماسفل؟ والجملة بأسرها جملة وتفصيلاً، وهو في حال الإمساك [يرسل][(٥)] كما هو في حال الإزالة يمسك ملأ كل شيء وجودًا وذم كل وجود ملكوتًا.

فصل

اعلم أن للأسماء سلطانًا قاهرًا على الجن ليس [ذلك][(٦)] للإنس، فإنَّا معشر الإنس المؤمنين وإنا كنا لا نستحل حلالاً إلا بها، ولا نشرع في عمل ولا نختمه إلا بالتبرك والتعوذ بها، ولا نستعيذ من مكروه، ولا نتحذر من محذور، ولا نتوصل لمرغوب، ولا نرغب إلى الله ﷻ، ولا نعبده ولا نتحرك، ولا نسكن إلا بها، وكذلك لا ننام ولا نستيقظ، ولا نتقرب بقربان، ولا ننسك نسيكة، ولا نستحل ذبيحة، ولا نطعم ولا نشرب، ولا نموت ولا نحيا إلا بها استشعارًا؛ [لنتذكر][(٧)] بها، وهذا كله أعني عمل الأسماء فيما تقدم ذكره في حقنا عيب؛ لأنه تعبد وجزاء، والجزاء في هذه العاجلة [عيب][(٨)] ليس كذلك الجن.

---

(١) في النسخة (ق): «الوجودين».
(٢) في النسخة (ق): «طالب».
(٣) في النسخة (ق): «الموحد».
(٤) في النسخة (ق): «من».
(٥) في النسخة (ق): «يزيل».
(٦) في النسخة (ق): «كذلك».
(٧) في النسخة (ق): «للتذكر».
(٨) في النسخة (ق): «غيب».

قال رسول الله ﷺ وقد سألوه الزاد [لكن][١] «**كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما كان لحمًا، وكل بعرة علف لدوابكم**»[٢] [سؤالهم الزاد هو معرفة ما يحل لهم، وما يأخذون وما يذرون؛ أي: ما يحل لهم مما يحرم عليهم، وهو الزاد للآخرة][٣].

وكما حرم الله جل وتعالى على كافريهم استباحة كل عظم ذكر اسم الله عليه كذلك حرم على مؤمنيهم استباحة كل ما لم يذكر اسم الله عليه، وكون كل بعرة علفًا لدوابهم باب فُتح إلى معالم غيوب لمقدورات غائبة، منبعث ذلك كله عن [أسماء][٤] الله ﷻ، فأسماؤه إذًا أجل شيء نفعًا وأعوده عائدة، وهي موجود الله جل ذكره الطاهر في هذه الدار، ويتحقق ذلك بموجود مقتضياتها، فلذلك وهو أعلم أعقب بهذه الآية التي ذكر فيها الأسماء.

ألا ترى كيف أتبعها قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٨٢].

ثم أتبع ذلك قوله جل قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ [الأعراف:١٨٤] وذكر [الثلاثة الأصناف][٥] من التذكر التي لا ينبغي لمؤمن عاقل أن يعمل فكره إلا فيها أو في أحدها.

أتبع ذلك قوله جل قوله: ﴿مَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف:١٨٦] فمن ضيع عمره جهلاً وغفلة، واستنفد أيامه مرحًا وبطالة ولاه ما [تولاه][٦] وتركه، وما رضي لنفسه.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ

---

(١) في النسخة (ق): «لكم».
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) سقط من النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «اسم».
(٥) في النسخة (ق): «الأصناف الثلاثة».
(٦) في النسخة (ق): «تولى».

أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ [الأعراف: ١٨٧ - ١٨٨].

قوله ﷻ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا...﴾[١] [الأعراف:١٨٧] لم يكل تجليتها إلى ملك ولا إلى غيره، ثقلت في السماوات والأرض يمكن أن يكون ثقلها لأجل الجهل بها، وعدم العلم بمتى هي كائنة، ويمكن أن يكون [ثقلها زائدًا][٢] إلى ذلك من أجل شدة ما يجيء به، [فثقل][٣] من أجل ذلك ذكرها في السماوات والأرض.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ [الأعراف:١٨٧] استأثر بإثارتها والعلم بمتى تكون، وقد قيل: معنى الكلام: ثقلت في [أهل][٤] السماوات والأرض فيكون قوله: ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٨٧] مجازًا لأجل نقصان العلم بشهادتها، والجهل بها والكلام على حقيقة لا طريق [له][٥] للمجاز إليه، كما ثقلت على أهل السماوات والأرض كذلك ثقلت فيهن، أليست [تبدل][٦] بغيرهن كما قال عز من قائل: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم:٤٨]. [وذلك لهن بمنزلة الموت لكل ذي نفس][٧].

وقال رسول الله ﷺ: «**وما من دابة إلا وهي مُصِيخَةٌ يوم الجمعة إلى أن تطلع**

---

(١) أي: متى إرساؤها؛ أي: إقامتها، يريدون: متى يقيمها الله تعالى ويكونها ويثبتها، فالمرسي مصدر ميمي من «سار» بمعنى: ثبت، ومنه الجبال الرواسي، وحاصل الجملة الاستفهامية: السؤال عن زمان ثبوتها ووجودها، وجوَّز أن يكون المرسى بمعنى المنتهى؛ أي: متى منتهاها ومستقرها؟ كما أن مرسي السفينة حيث تنتهي إليها وتستقر فيه، كذا قيل، وتقدير الاستفهام بـ«متى» يقتضي أن المرسى اسم زمان. تفسير الألوسي (١٦١/٢٢).

(٢) في النسخة (ق): «زائدة».

(٣) في النسخة (ق): «فيثقل».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «تبدلن».

(٧) زيادة في النسخة (ق).

الشمس فرقًا من الساعة»[١].

وجاء: «إن ما من حجر ولا مدر إلا وله بكاء ونياح حتى تقوم الساعة»[٢] والكلام على ظاهره.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الأعراف: ١٨٩ - ١٩٢].

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف:١٨٩] وصف - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - عظيم اقتداره على بداية الخلقة، ثم على إثارة الساعة والإتيان بالانقراض الذين تكون الإعادة عند وجودهما، ثم أعلمنا ﷻ أن الواحد تكون عنه الكثرة بقوله جل قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ كما قال جل من قائل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [ثم قال][٣]: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ [الروم:٢١].

فوجه وجه الخطاب إلى ذكر القدرة، ثم إلى ذكر الوحدانية، وأن الكثرة عن الوحدة موجودة، وأن الذوات إنما يكون سكنها إلى ما هو عنها أو هي عنه، ثم عدل بالخطاب إلى مثل فيه الإعلام كيف وجد عن الهداية الضلالة؟ وكيف خلف الذكر الفتنة.

---

(١) أخرجه مالك (٢٤١)، وأحمد (١٠٣٠٨)، وأبو داود (١٠٤٦)، والترمذي (٤٩١)، والنسائي (٦٣١)، وابن حبان (٢٧٧٢)، والحاكم (١٠٣٠) وقال: صحيح على شرط الشيخين. والبيهقي (٥٧٩٨)، والضياء (٣٩٥)، والشافعي في «المسند» (٧٢/١)، والطيالسي (٢٣٦٢)، وأبو يعلى (٥٩٢٥).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) سقط من النسخة (ق).

وقال جل قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي: على الهداية والذكر والإسلام والهداية لله ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَت﴾ [الأعراف:١٨٩] أي: كثرة النسل والنشر اشتركوا مجاز ذلك أن آدم عليه السلام كان قد أوجده الله واحدًا فردًا، ثم خلق له من نفسه زوجها وهي حواء، فلما تغشاها حملت [في بطنها](١) حملاً خفيفًا، فلما قاربت أثقلت، وكان ذلك مثلاً ضربه [الله](٢) لبني آدم، قبل أن يكثرو. وكانت الهداية فيهم أكثر، ومع الكثرة وفشو الذرية كان الاختلاف والضلال.

وعبر بالخفة عن القلة [والخلاف عن الكثرة وما يكون عنها من تشتيت الآراء. وعن الهداية وبالثقل والخلاف](٣) فكان النسل [أول](٤) زمان آدم، والأئمة الراشدون بعده في تأويل حملها في أوله [في](٥) حال خفته عليها، فلما أثقلت بكثرة النسل وانتشاره وقد كانا - أعني: آدم وحواء - دعوا الله ربهما في إصلاح ذريتهما، فكانت الإجابة موجودة من الهداية المعبر عنها بخفة الحمل فعند الكثرة والانتشار المعبر عنه بثقل الحمل، وكان الإشراك بالله ﷻ عما يشركون، فأتى بلفظ الجمع فليس بمصيب في قوله: من قال إن المراد بظاهر هذا الخطاب [هو](٦) آدم وحواء - عليهما السلام - ولو كانا قد أشركا بالله كما قال: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ [الأعراف:١٩٠] وحاش لله لكان في ذلك الهلاك؛ [إذ كبر](٧) ولم يكن الذنب الكائن في الجنة عند هذا المذكور إلا بحكم العموم، كما قال عز من قائل: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨] وإنما كان الإشراك في الذرية [بما](٨) أكثرت الحملة وأثقلت [﴿أَثْقَلَت دَّعَوَا اللهَ﴾ [الأعراف:١٨٩]](٩).

---

(١) زيادة في النسخة (ق).
(٢) زيادة في النسخة (ق).
(٣) ما بين [ ] به تقديم وتأخير واختلاف بين النسخ.
(٤) في النسخة (ق): «أولاً».
(٥) سقط من النسخة (ق).
(٦) سقط من النسخة (ق).
(٧) في النسخة (ق): «الأكبر».
(٨) في النسخة (ق): «لما».
(٩) سقط من النسخة (ق).

وفي قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف:١٩٠ - ١٩١] أدل دليل على إغفال هذا القائل؛ إذ لو كان على ظاهر ما قاله لقال: «فتعالى الله عما [يشركان][١]، أيشركان ما لا يخلق شيئًا وهم يخلقون».

وقد ذكروا على ذلك حكاية منع التخرج من سياقها، وذلك مما اتبعته الشياطين شأن آدم عليه السلام وهذا من مشتبه الكتاب الذي أمه ما جاء من التعزير لهم والتوقير، على أنه من [حدق][٢] ببصيرته ونبذ ما يجب نبذه من أقوال ومذاهب لا دليل عليها أبصر الحق أبلج منيرًا فاهتدى ﴿وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ (١٩٥)﴾ [الأعراف: ١٩٣ - ١٩٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[٣] المعنى إلى آخره: معناه عباد مربوبون مخلوقون ضعفاء، لا يملكون ضرًّا ولا نفعًا، ثم قال جل قوله: ﴿فَادْعُوهُمْ﴾ أي: دعاية العبيد الأرباب ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ [بدأكم][٤] ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأعراف:١٩٤] في وصفكم لهم إنهم أرباب شركاء.

---

(١) في النسخة (ق): «يشركون».

(٢) في النسخة (ق): «حذق».

(٣) أخبرهم سبحانه بأن هؤلاء الذين جعلتموهم آلهة هم عباد لله كما أنتم عباد له مع أنكم أكمل منهم، لأنكم أحياء تنطقون وتمشون، وتسمعون وتبصرون، وهذه الأصنام ليست كذلك، ولكنها مثلكم في كونها مملوكة لله مسخرة لأمره، وفي هذا تقريع لهم بالغ، وتوبيخ لهم عظيم. فتح القدير (١٣٧/٣).

(٤) في النسخة (ق): «بذلكم».

[وقرأ][1] سعيد بن جبير: «إن الذين» بكسر النون وتخفيفها؛ لالتقاء الساكنين «**تدعون من دون الله عبادًا أمثالكم**» بالنصب [هنا][2] فيهما، يقول: ما الذين تدعون من دون الله بعبادًا أمثالكم يريد: أنتم أكمل منهم وأتم وجودًا وخلقة إن هي إلا حجارة وأصنام وخشب؛ لذلك قال عز من قائل: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾ [وقرأها][3] أبو جعفر برفع الطاء ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف:١٩٥] هذا من معجزات الرسل صلوات الله على جميعهم، كذلك قال نوح وهود عليهما السلام: تتخذون الملوك المسلطين والعتاة الكفرة الجبارين ومع ذلك فلا يصلون إليهم [بمكروه][4].

﴿إِنَّ وَلِيِّـۧ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: ١٩٦ - ٢٠٠].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦] هذا نص منه جل ذكره على تولية الصالحين من عباده فليبشروا أنفسهم، وقرئت ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ...﴾ بياء [مسندة][5]، وخفض الهاء من الاسم على الإضافة؛ يعني: جبريل عليه السلام، هذا الخطاب وجميع ما جاء في القرآن من معناه راجع إلى قوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣] ولما لم يذكروا [ما أحدث لهم بالرسول والكتب ذكرى

---

(١) في النسخة (ق): «وقرأها».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «وقرأ».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «مشددة».

تنفع][1] بالذكر من شاء ويتجنبها الأشقى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١ - ٢٠٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[2] [الأعراف:٢٠١] [وقرأ][3] ابن جبير: «**طيف**»، [وقرئت: «**طائف**»][4]، وقرأها ابن الزبير: «**تأملوا**» مكان قوله: ﴿تَذَكَّرُوا﴾ وفي قراءة أبي: «**إن الذين اتقوا إذا طاف بهم من الشيطان طائف تأملوا**» هذا تعليم من الله جل ذكره العبد كيف يكون عندما يلقي الشيطان إليه الفتنة، [يتذكر][5] قوله جل قوله: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ...﴾ [البقرة:٢٦٨].

[وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف:٥].

---

(١) في النسخة (ق): «أحدث لهم بالرسل والكتاب ذكرًا فنفع به».

(٢) النزغ من الشيطان أخفّ من مس الطائف من الشيطان؛ لأن النزغ أدنى حركة، والمس: الإصابة والطائف: ما يطوف به ويدور عليه، فهو أبلغ لا محالة، فحال المتقين تزيد في ذلك على حال الرسول، وانظر لحسن هذا البيان حيث جاء الكلام للرسول كان الشرط بلفظ «إن» المحتملة للوقوع ولعدمه، وحيث كان الكلام للمتقين كان المجيء بـ«إذا» الموضوعة للتحقيق أو للترجيح، وعلى هذا فالنزغ يمكن أن يقع ويمكن ألا يقع، والمسّ واقع لا محالة أو يرجح وقوعه، وهو إلصاق البشرة، وهو هنا استعارة، وفي تلك الجملة أمر له ﷺ بالاستعاذة، وهنا جاءت الجملة خبريّة في ضمنها الشرط، وجاء الخبر «تذكروا» فدلّ على تمكن مسّ الطائف حتى حصل نسيان فتذكروا ما نسوه، والمعنى تذكروا ما أمر به تعالى وما نهى عنه، وبنفس التذكر حصل إبصارهم فاجأهم إبصار الحقّ والسداد فاتبعوه، وطروا عنهم مسّ الشيطان الطائف، و«اتقوا» قيل: عامّة في كل ما يتقى، وقيل: الشرك والمعاصي، وقيل: عقاب الله. تفسير البحر المحيط (٢١/٦).

(٣) في النسخة (ق): «وقرأها».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «يتذكرون».

وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦].

وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف:٢٨].

وقوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ...﴾ [الأعراف:٢٩].

وقوله جل قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ...﴾ [النحل:٩٠].

وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:١٥١] إلى آخر الثلاث الآيات][١].

وقوله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣] إلى قوله: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الحِكْمَةِ﴾ [الإسراء:٣٩].

[وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ...﴾ [النحل:٩٠]] [٢].

أي: عندما يطوف طائف العدو [فلا تذكر العبد أبصر ذلك الطائف تعلمه][٣] من أي الجنتين هو، فإن كان مما هو لله جل ذكره فهو من الملك، وإن كان [من أمر الفحشاء][٤] أو منكرًا أو بغي أو ما يكون من المذموم فهو من الشيطان، فإذا ميز ما بين اللمتين وتحقق حقيقة ما ألقي [إليه][٥] فقد أبصر، فعليه إن كان من الشيطان [أن][٦] يقصر ويرجع مستغفرًا متعوذًا، وإن كان من الملك فليعزم على ما فيه حظه، [وما قد][٧] تبين له فيه رشده؛ لذلك قال: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٢] أي: يزيدونهم من الإغراء والإغواء فيقتادونهم بمقاداتهم.

---

(١) ما بين [ ] به تقديم وتأخير واختلاف في النسخ.

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «فإذا تذكر العبد ذلك الطائف بعلمه».

(٤) في النسخة (ق): «أمرًا بفحشاء».

(٥) في النسخة (ق): «عليه».

(٦) زيادة في النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «وقد».

وقرأ الجحدري: «يمادونهم» [تماديتهم بضم الهاء وبالألف][1]، وهم على ضروب يجمعها ضربان عالم بما هو فيه لا يقصر، بل يمضي على إغماض منه على جهالته وإعراض عما ذكر به ومزين له، [فدخل][2] في درك التزيين له سوء عمله، وذلك عقوبة له من أجل إعراضه عما ذكر به، فهذا مما قال جل قوله فيه: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٣٦ - ٣٧].

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ...﴾ [فصلت:٢٥].

ذلك الذي قد فارقه [الملك بالتوفيق][3] والتذكير، وصم قلبه عن عظة الله ﷻ فيه، وقارنه الشيطان ووليه الخذلان والتزيين، وهو لا يرى غير ما هو فيه، حجب عنه الرشد، وغلب عليه الغي، فهذا هو الميت، لا [يجيء][4] إلا عند الموت، والنائم لا يوقظه إلا ملائكة المنون يقول إذ ذاك لقرينه: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف:٣٨] نعوذ بالله من الخذلان وسوء القرين.

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤ - ٢٠٦].

أتبع ذلك [قوله تعالى][5]: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ...﴾ [الأعراف:٢٠٤] [هو مما انتظم بقوله: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٣] أرجع معنى الخطاب إلى قوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف:٣] المعنى.

---

(١) في النسخة (ق): «يمادوهم بضم الياء والألف».

(٢) في النسخة (ق): «فتدخل».

(٣) في النسخة (ق): «التوفيق».

(٤) في النسخة (ق): «يحيا».

(٥) سقط من النسخة (ق).

قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ [الأعراف:٢٠٤]][١] هو مما انتظم بقوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف:٣].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الأعراف:١٧٠] وفي قراءة أبي: [«مسكوا بالكتاب»][٢] معنى هذه القراءة:[والله أعلم][٣] والذين قاربوا بالكتاب وسددوا ينظر إلى قول رسول الله ﷺ: **«استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة»**[٤] وقوله: **«قاربوا وسددوا، ويسروا ولا تعسروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا»**[٥].

وفي قراءة عبد الله: **«إن الذين استمسكوا بالكتاب وتذكروا ما فيه إنا لا نضيع أجر المصلحين»** وهذا [المعنى][٦] قراءة الجماعة في قوله: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٤] أعلم جل ذكره أن يحسن الاستماع بتحصيل العلم والتذكار [وبالإنصات يتفرع][٧] القلب لما توجه إليه، [ويتوصل][٨] الكلام إلى السمع، ويلج المعنى إلى الباطن لعلكم ترحمون؛ [ليعلمكم وليذكركم ويستعملكم بأحسن ما تصنعون][٩].

وكما كان الإعراض سببًا للطبع على القلب، وذريعة إلى فقد التوفيق كذلك يكون حسن الاستماع وصدق الإرادة ووجود الحرص سببًا للفتح والتوفيق، وهذا

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «والذين مسكوا».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) أخرجه الطيالسي (٩٩٦)، وأحمد (٢٢٤٣٢)، وابن ماجة (٢٧٧)، والدارمي (٦٥٥)، وابن حبان (١٠٣٧)، والطبراني (١٤٤٤)، والحاكم (٤٤٧)، والبيهقي (٣٨٩)، والطبراني في «الشاميين» (١٣٣٥)، وفي «الصغير» (٨)، والروياني (٦١٤).

(٥) أخرجه البخاري (٦٠٩٨)، ومسلم (٢٨١٦).

(٦) في النسخة (ق): «بمعنى».

(٧) في النسخة (ق): «وبالانتصاب يتفرغ».

(٨) في النسخة (ق): «ويتصل».

(٩) في النسخة (ق): «أي بعلمكم وبذكركم فيستعملكم بأحسن ما تسمعون».

كله [من][١] ابتغاء ما أنزل إلينا واتباعه.

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أي: رغبة ورهبة، فهذا ما يكون فيه الذكر، ثم قال جل قوله [وقوله الحق][٢]: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [وهذا منه إعلام كيف يكون الذكر وهو ذكر السر والذكر في النفس والذكر الذي دون الجهر من القول][٣] والقول هو: الذكر باللسان مع القلب رغبة ورهبة [على المواظبة][٤] ﴿بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ ثم قال جل قوله: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف:٢٠٥] فيما سوى ذلك من الأوقات، يريد: واصل الذكر، وقد قرأها أبو مجلز: «بالغدو والإيصال» ودل على ذلك [قوله][٥]: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾.

وإنه أتبع ذلك قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ﴾[٦] [أي: بالليل والنهار][١] ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٦] كما قال

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) هم الملائكة - عليهم السلام - ومعنى العندية: الزّلفى والقرب منه تعالى بالمكانة لا بالمكان، وذلك لتوفّرهم على طاعته وابتغاء مرضاته، ولما أمر تعالى بالذكر ورغب في المواعيظ عليه ذكر من شأنهم ذلك فأخبر عنهم بأخبار ثلاثة:

الأول: نفي الاستكبار عن عبادته، وذلك هو إظهار العبوديّة، ونفي الاستكبار هو الموجب للطاعات، كما أن الاستكبار هو الموجب للعصيان؛ لأنّ المستكبر يرى لنفسه شفوفًا ومزية فيمنعه ذلك من الطاعة.

الثاني: إثبات التسبيح منهم له تعالى، وهو التنزيه والتطهير عن جميع ما لا يليق بذاته المقدّسة.

والثالث: السجود له. قيل: وتقديم المجرور يؤذن بالاختصاص؛ أي: لا يسجدون إلا له، والذي يظهر أنه إنما قدم المجرور ليقع الفعل فاصلة فأخره لذلك؛ ليناسب ما قبله من رؤوس الآي، ولما كانت العبادة ناشئة عن انتفاء الاستكبار، وكانت على قسمين: عبادة قلبية وعبادة جسمانية، ذكرهما، فالقلبية: تنزيه الله تعالى عن كل سوء، والجسمانية: السجود، وهو الحال التي يكون العبد فيها أقرب إلى الله تعالى، وفي الحديث: «أطّت السماء وحقّ لها أن تئط ما
=

جل قوله: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠] ويسبحون له بالليل والنهار وهم لا [يسمون فرفع](٢) هممهم صعدًا إلى ذكر الملائكة - صلوات الله وسلامه على جميعهم - طوبى لمن [يشغله ذكر مولاه](٣).

=

فيها موضع شبر إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد». تفسير البحر المحيط (٦/٢٧).

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «يسأمون برفع».

(٣) في النسخة (ق): «شغله ذكر مولاه عمن سواه».

تفسير سورة الأنفال[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[مدنية، فيها من المنسوخ ست آيات][2].

ابن عباس ﷺ قال: قلت لعثمان ﷺ: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال

---

(١) هذه السورة مدنية كلها، قال ابن عباس: إلا سبع آيات أوّلها ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى آخر الآيات، وقال مقاتل غير آية واحدة وهي ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ نزلت في قصة وقعت بمكّة ويمكن أن تنزل الآية بالمدينة في ذلك ولا خلاف أنها نزلت في يوم بدر وأمر غنائمه وقد طول المفسرون الزمخشري وابن عطيّة وغيرهما في تعيين ما كان سبب نزول هذه الآيات وملخّصها: أنّ نفوس أهل بدر تنافرت ووقع فيها ما يقع في نفوس البشر من إرادة الأثَرة والاختصاص، ونحن لا نسمي من أبلي ذلك اليوم فنزلت ورضي المسلمون وسلموا وأصلح الله ذات بينهم واختلف المفسّرون في المراد بالأنفال، فقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة وعطاء وابن زيد: يعني الغنائم مجملة قال عكرمة ومجاهد: كان هذا الحكم من الله لدفع الشغب ثم نسخ بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ وقال أبو زيد لا نسخ إنما أخبر أنّ الغنائم لله من حيث هي ملكه ورزقه وللرسول من حيث هو مبيّن لحكم الله والمضارع فيها ليقع التسليم فيها من الناس وحكم القسمة قاتل خلال ذلك، وقال ابن عباس أيضًا: ﴿الْأَنفَالِ﴾ في الآية ما يعطيه الإمام لمن أراد من سيف أو فرس أو نحوه، وقال علي بن صالح وابن جني والحسن: ﴿الْأَنفَالِ﴾ في الآية الخمس، وقال ابن عباس وعطاء أيضًا: ﴿الْأَنفَالِ﴾ في الآية ما شذّ من أموال المشركين إلى المسلمين كالفرس الغائر والعبد الآبق وهو للنبي ﷺ يصنع فيه ما يشاء، وقال ابن عباس أيضًا: الأنفال في الآية ما أصيب من أموال المشركين بعد قسمة الغنيمة، وهذه الأقوال الأربعة مخالفة لما تظافرت عليه أسباب النزول المروية والجيّد هو القول الأول وهو الذي تظاهرت الروايات به، وقال الشعبي: ﴿الْأَنفَالِ﴾ الأسرى وهذا إنما هو منه على جهة المثال وقد طول ابن عطية وغيره في أحكام ما ينقله الإمام وحكم السّلب وموضوع ذلك كتب الفقه وضمير الفاعل في ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ ليس عائدًا على مذكور قبله إنما يفسّره وقعة بدر، فهو عائد على من حضرها من الصحابة وكان السائل معلوم معين ذلك اليوم فعاد الضمير عليه والخطاب للرسول ﷺ والسؤال قد يكون لاقتضاء معنى في نفس المسؤول فيتعدى إذ ذاك بـ«عن».

(٢) سقط من النسخة (ق).

وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما [ولم][١] تكتبو بينهم بسطر «بسم الله الرحمن الرحيم» ووضعتموها في السبع [الطوال][٢]؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه من السور ذوات العدد. فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من يكتب له فيقول: ضعوا هذه [في][٣] السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وإذا نزلت عليه [الآية][٤] قال: ضعوا هذه في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، قال: فكانت الأنفال من [أول][٥] ما أنزل بالمدينة، وكانت براءة من [أواخر][٦] القرآن نزولاً، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظنناها منها، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما [بسطر][٧] «بسم الله الرحمن الرحيم» ووضعناها في السبع [الطوال][٨].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ١ - ٤].

قوله جل ذكره: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ...﴾ [الأنفال:١] لفظ «الأنفال» مأخوذ من النافلة، ويجوز أن يكون مع هذا اسمًا على المغانم وقع عليها اسم عرفيًا؛ إذ كانت محرمة على من كان قبلنا فأحلها الله ﷻ لهذه الأمة خاصة، فسميت بذلك

---

(١) في النسخة (ق): «ولا».
(٢) في النسخة (ق): «الطول».
(٣) سقط من النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «الآيات».
(٥) في النسخة (ق): «أوائل».
(٦) في النسخة (ق): «آخر».
(٧) زيادة في النسخة (ق).
(٨) في النسخة (ق): «الطول».

أنفالاً؛ لأنهم نفلوها [إلى][١] أجورهم.

ولما جمعت المغانم يوم بدر [أحضر][٢] رجل من أصحاب رسول الله ﷺ منها سيفًا وقال: نَفِّلْنِيهِ يا رسول الله، فقال له: «[رده][٣] **من حيث أخذته**» ففعل، [فقام][٤] مرة أخرى فسأله إياه، حتى قام في الثالثة فقال: نَفِّلْنِيهِ يا رسول الله، أجعل كمن لا غنى له؟ فقال له: «[رده][٥] **من حيث أخذته**» فأنزل الله جل ثناؤه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ﴾ [الأنفال:١] وفي بعض القراءات: «**يسألونك الأنفال**» بالنصب.

وروى ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من قتل قتيلاً أو أسر أسيرًا فله سلبه**»[٦] فكان منهم من طلب الغنائم، ومنهم من حف برسول الله ﷺ كي لا يظفر منه المشركون بغرة، وكان منهم من [لم][٧] يشتغل إلا بالقتل والقتال، فتنازعوا في المغانم فقال قوم: «نحن غنمناها وقد نفلناها رسول الله ﷺ» وقال هؤلاء: «نحن أحق بها؛ لأنا نحن أقمنا معه وتحفظنا به وحرسناه من العدو» فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ﴾.

وقد سمى الله ﷻ أصناف الأموال بأسمائها، فسمى ما أخذ من المشركين في حال الحرب: أنفالاً وغنائم، وسمى ما صار للمسلمين بما لم يؤخذ في حرب كالخراج والجزية: فيئًا، وسمى ما خرج من أموال المسلمين واجبًا عليهم: زكاة، وما نذروه من نذر وتقربوا به إلى الله: صدقة، ثم قد سمى ما [قد لحق][٨] به أهل الخراج: فيئًا ونفلاً، وقد ذكر العلماء في كتبهم قسمة الغنائم كيف هي،

(١) في النسخة (ق): «على».
(٢) في النسخة (ق): «أخذ».
(٣) في النسخة (ق): «ذره».
(٤) في النسخة (ق): «ثم قام».
(٥) في النسخة (ق): «ذره».
(٦) أخرجه بنحوه البخاري (٣١٤٢)، ومسلم (٤٦٦٧)، وأبو داود (٢٧١٩)، والترمذي (١٦٥٤)، ومالك (٩٧٩).
(٧) في النسخة (ق): «لا».
(٨) في النسخة (ق): «يجيء».

[والخمس][(١)] وخمس الخمس، وحيث يجعل باختلاف بينهم في ذلك، وربما أتى بيانه في أولى المواضع به إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾[(٢)] [الأنفال:٢] لفظة «إنما» حاصرة، قالوا: هي لتحقيق المتصل ولتحقيق المنفصل، وهو الظاهر فيها، فلا يعدل عن ذلك إلا بدليل يخرجها عنه.

يقول الله جل قوله: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...﴾ [طه:٩٨].

[﴿إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء:١٧١]][(٣)].

وقال رسول الله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**»[(٤)].

«**إنما الولاء لمن أعتق**»[(٥)].

هذا وشبهه ممن حصرها معنى ما اجتلبت من أجله، ثم قد تأتي على غير ذلك فلا تكون حاسرة، بل مخبرة عما اجتلبت من أجله ولا تحصره، كقولهم: «إنما الكريم يوسف، إنما الشجاع عنترة» هذا موجود في لسان العرب متعارف في كلامهم، [فقول][(٦)] الله جل ذكره في هذه الآية: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢] [هو][(٧)] من هذا النوع الآخر؛ بدلالة قول رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله...**»[(٨)] وقوله: «**من شهد**

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه البخاري (٢٤٢١)، ومسلم (١٥٠٤)، وأحمد (٢٤٠٩٩).

(٦) في النسخة (ق): «يقول».

(٧) سقط من النسخة (ق).

(٨) يجوز أن يكون هذا الموصول في موضع جر أو نصب أو رفع، فالجر من ثلاثة أوجه: النعت للمخبتين، أو البدل منهم، أو البيان لهم، والنصب على المدح، والرفع على إضمارهم، وهو مدح أيضًا، ويسميه النحويون: قطعًا. والمعنى: إذا ذكر الله ظهر عليهم الخوف من عقاب الله والخشوع والتواضع لله، والصابرين على ما أصابهم من البلايا والمصائب من قبل الله؛ لأنه الذي يجب الصبر عليه كالأمراض والمحن، فأما ما يصيبهم من قبل الظَّلَمة فالصبر عليه غير واجب، بل لو أمكنه دفع ذلك لزمه الدفع ولو بالمقاتلة. تفسير اللباب لابن عادل (١١/٤١٩).

شهادتنا وذبح ذبيحتنا واستقبل قبلتنا فله ما لنا وعليه ما علينا»[١].

فصل

دخلت لفظة «إنما» [ها][٢] هنا لحصر [الفصيلة][٣]، وهؤلاء هم أفضل المؤمنين إيمانًا وحالاً، واعلم أن وجوب الإيمان بوجودهم والاعتراف بفضلهم هي درجة بعد درجة وجوب الإيمان بالأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامه على جميعهم.

قال الله ﷻ وذكر أهل الكتاب وما أحدثوه في نبواتهم، وما نقضوا من ميثاق ونكثوا من عهد، وما كذبوا من نبي وقتلوا منهم، ثم قال جل قوله: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [أي: من أمتك][٤] ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ﴾ [النساء:١٦٢] أي: «وبالمقيمين الصلاة» فعطف الإيمان بالمقيمين للصلاة على الإيمان بالأنبياء والرسل، وجعل المؤمنين الراسخين في العلم هم المؤمنون بالأنبياء والرسل [إليهم][٥]، وهم المشار إليهم بالخطاب، والمواجهون بالبشارات، والمعنيون بالإكرام، وهم رؤساء المحشر المشاؤون في طلب الشفاعة إلى الله جل ثناؤه في العباد بوسائل الرسل رسولاً رسولاً في الإزاحة من الموقف من عظيم ما أصاب العباد يومئذٍ وفي استفتاح باب الجنة، وهم في الدنيا في إمساك غضب الله جل ذكره عن الأمم كالجبال الرواسي للأرض.

ومنهم الصديقون في الدنيا بما آمنت به الرسل والأنبياء - عليهم السلام - والشهداء لهم، وهم شهداء لله على عباده وخاصته من خليقته، وهم إخوان الرسل - صلوات الله وسلامه على جميعهم - وهم الذين اشتاق رسول الله ﷺ إلى رؤيتهم في هذه الأمة، منهم [تسعون][٦] ألفًا لا حساب عليهم مع كل ألف سبعون ألفًا أو

---

(١) أخرجه بنحوه الخطيب (١٣٢/١).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «الفضيلة».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «وبهم وبما أنزل إليهم».

(٦) في النسخة (ق): «سبعون».

سبعمائة ألف لا حساب عليهم مع كل ألف سبعمائة، جاء ذكرهم في صدر الخطاب مرددًا من ذلك قوله ﷻ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٦ - ٧].

وقوله جل قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٢ - ٣].

وقوله: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا العِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران:١٨] [فجعل ﷻ شهادتهم](١) تلو الشهادة العلية.

وقوله جل قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ إلى قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤] [ولقوم يذكرون، ولقوم يتقون](٢)، وهو كثير.

وقوله عز قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ [الحج:٣٤] الآيتين.

وكقوله جل قوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص:٦٠] وبالجملة وكل خطاب في القرآن العزيز أحرز المدح ووصف السبق، فهم المعنيون به، وكل صفة محمودة في الإيمان فهي منهم ولهم، والحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى.

ألحقنا الله بأوليائه، وجعلنا في أعداد أصفيائه، ولاجعل حظنا من صفاتهم وصفهم، ولا من اللحاق بهم ذكرهم [بمنّه وفضله ورحمته](٣)، تطرقنا إلى ذكرهم واجتلبنا بعض وصفهم؛ لعلنا أن نتّقِ أو يحدث لنا ذكرًا، ودلنا ربنا جل ذكره بما تلاه علينا من وصفهم أن الإيمان لا غاية له تبلغ ولا نهاية تنتهي إليها؛ إذ صفة هؤلاء المنعم عليهم صفة تمام، [وحالهم حال كمال](٤) بالإضافة إلى من دونهم، وعلى ذلك فإنه وصفهم ﷻ ووصفه بأنهم إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا [وهم

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «ولقوم يتفكرون ولقوم يعلمون ويذكرون ويتقون».

(٣) في النسخة (ق): «بمنه ورحمته».

(٤) في النسخة (ق): «وحال كمال».

السادة.

قال رسول الله : ﷺ «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**» ثم قال لهم: «**أتدرون لِمَ ذاكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد بسمعهم الداعي وينفذهم البصر فيطول المقام بهم ويبلغهم من الكره والهم ما لا قبل لهم به فيلهمون** - أو قال: «**فيهتمون**» - **لذلك وتكونون ألا ترون ما بلغ الناس ألا ترون ما جل بهم ألا تطلبون إلى ما يشفع لهم عند ربهم**»[١] فذكر أنهم يأتون آدم - صلوات الله وسلامه عليه - ثم إلى آخر الأنبياء وخلفهم محمد ﷺ فيقوم فيشفع لهم في الإزاحة من الموقف، وذلك هو المقام المحمود الذي بعده.

والقائمون بذلك الساعون فيه هم الإخوان الذين كانوا يدعون لهم في الدنيا ويستغفرون لهم، وهم الذين تقدم ذكرهم السادة القادة - رضي الله عنا وعنهم - فوصف رسول الله ﷺ بأنه سيد ولد آدم لما أقامه الله في ذلك المقام المحمود، وبما هو سبب من أسباب ذلك سموا هؤلاء سادة وقادة.

وقد جاء في الأخبار: «**من رغب أن يكون من الأبدال؛ فليستغفر إثر كل صلاة للمؤمنين والمؤمنات خمسًا وعشرين مرة**»[٢] والله سبحانه وله الحمد يقول لرسوله ﷺ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد:١٩] كأنه يقول وهو أعلم: «استغفر لنفسك ولهم يغفر لكم بأعمالكم» وما قد سبقه في تقديره الأول من أعمال تكون منهم، وقد كان أيضًا مما سبقه لك ولهم أن يستغفر ويستغفروا بعضهم لبعض فيغفر لكم][٣].

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن

(١) تقدم تخريجه.
(٢) لم أقف عليه.
(٣) زيادة في النسخة (ق).

يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ [لأنفال: ٥ - ٨].

قوله ﷻ: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنفال:٥] أي: بالقضاء والقدر، وأعلمنا الله جل ذكره بذكره الحق هنا أن كل حركة للعبد هي بنية وتوجه إلى أي [وجهة](١) كانت، وتعمل فإنها مضافة إلى فاعلها معرفة بمحلها، وكلما كان منه من علم ومعرفة أو عمل ضروري فهو بالحق؛ أي: بالقضاء السابق والقدر المقدر.

ولما كان خروج رسول الله ﷺ وأصحابه إلى بدر [ليلقى](٢) عير قريش دون معسكرهم حتى نادى رسول الله ﷺ [في المدينة](٣): «**لا يخرجن معي إلا من كان ظهره حاضرًا**»(٤) فخرجوا لذلك في أقل عددهم، فحسن على ذلك أن يقال: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بما قدر الله تعالى أن يخرجك [به؛ ليستقرك](٥) وأصحابك، فوافقوا الحق المقدور من الله جل ذكره، وهو حضور الجيش وفوت العير، فوافاهم الله بالخير والفتح واليسر في الأمرين معًا في إخراجه إياهم - يريدون: العير - وفي لقائهم [ذات](٦) الشوكة والسلاح وهم كارهون لذلك.

اختلفوا في دخول «الكاف» هنا ما هو المشبه بها في قوله جل قوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ﴾ فذكر ابن عباس ﷺ أنها بمعنى: «على» يقول: [على](٧) الذي أخرجك ربك من بيتك بالحق.

وذكر عن الفراء أنه كان معناها: امضِ لأمر الله في الغنائم كما مضيت على مخرجك من بيتك الحق.

---

(١) في النسخة (ق): «وجه».

(٢) في النسخة (ق): «لتلقي».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) ذكره ابن حزم في جوامع السيرة (١/١٠٧)، وابن كثير في السيرة (٢/٤٢١).

(٥) في النسخة (ق): «ليستفزك».

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) زيادة في النسخة (ق).

وقال الكسائي: [معنى الكلام][(١)]: يجادلونك في الحق كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وهم كارهون، ومعنى الحق هنا: هو لقاء الجيش دون لقاء العير؛ لأنه هو المقدور المقضي في الكتاب السابق [وهو الحق][(٢)] وبجدالهم له هو أنهم لما أيقنوا بلقاء الجيش كرهوا ذلك، وقالوا: أخرجتنا للغنيمة ولم تعرفنا بقتال فنستعد [له][(٣)].

وأرى - والله أعلم - أنه خطاب منتظم بما قبله من تعداد النعم، والمعطوف عليه المنتظم به مضمر حاضر، وبحضوره لم يذكره، وهو سؤالهم إياه الأنفال، وجدال بعضهم مع بعض فيما كان تقدم، فأنزل الله ﷻ في الحين [عليه][(٤)]: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لله وَالرَّسُولِ﴾[(٥)] [الأنفال: ١].

فما كان لله جل ذكره فهو للمؤمنين، وما كان منها للرسول ﷺ كان له أن يخص فيه أو يعم، ويحبس منها لقوته وعياله وما ينوبه، وكان ذلك عوضًا من صدقات المسلمين وزكاتهم، ثم وصّاهم بالتقوى وبصرهم معالم الإيمان وأعلمهم بذروته، والمضمر هنا هو ذكر الحال من النصر والنعمة به، ثم شبه به إخراجه إياه من بيته على غير إرادة القتال، بل لإرادة العير، فكان القتال والنصر على الأعداء والظفر بأعلى المطلوب الذي هو القتل والأسر، فكانوا [من ذلك في][(٦)] حالهم

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) الأنفال ها هنا ما آل إلى المسلمين من أموال المشركين، وكان سؤالهم عن حكمها، فقال الله تعالى: قُلْ لهم إنها للهِ مِلْكًا، ولرسوله ﷺ لحُكْمُ فيها بما يقضى به أمرًا وشرعًا. قوله جلّ ذكره: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: أجيبوا لأمر الله، ولا تطيعوا دَوَاعِيَ مناكم والحكمَ بمقتضى أحوالهم، وابتغوا إيثارَ رضاء الحقِ على مراد النَّفْس، وأصلحوا ذات بَيْنِكم، وذلك بالانسلاخ عن شُحِّ النَّفْس، وإيثار حقّ الغير على مَالَكُم من النصيب والحظِّ، وتنقية القلوب عن خفايا الحَسَد والحقد.

(٦) في النسخة (ق): «في ذلك من».

﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى المَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾[١] [الأنفال:٦] [وكان][٢] في علم الله ﷻ أنهم يساقون إلى النصر والفتح وهم لا يشعرون الموت عندهم كان اللقاء لقلتهم وذلتهم بإضافتهم يومئذٍ إلى عدوهم ونظرهم إلى الموت هو نظرهم إلى الجيش الذي كانوا يظنون أن الموت يأتيهم من قبله كما قال جل قوله: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ المَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران:١٤٣] يريد: القتل والقتال والسلاح، وهذه أسباب الموت القريبة، بل المشبه به [لطفه الخفي في حكمه الخفي لعباده المؤمنين، وأنهم عنده في اختيار الخير لهم والأفضل، كاختياره لرسوله ﷺ ولصحابته ﷺ وتبليغه إياهم أكثر مما يأملوه منه.

---

(١) الموت قبل الوصول إلى مكانه، «وذلك أن عير قريش فيها أربعون راكبًا وفيهم أبو سفيان أقبلت من الشام وفيها تجارة عظيمة، فأخبر جبريل رسول الله - عليهما السلام - فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقيها؛ لكثرة المال وقلة الرجال، فلما خرجوا بلغهم الخبر فبعثوا إلى مكة ضمضم بن عمرو فصرخ ببطن الوادي يا معشر قريش، هذه أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه الغوث الغوث فمضوا إلى بدر، وكان ﷺ بوادي «دقران» فنزل عليه جبريل بعدة إحدى الطائفتين، فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه، فقال بعضهم: هلا ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له إنما خرجنا للعير، فقال: إن العير مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل، فقالوا: يا رسول الله، عليك بالعير ودع العدو، فغضب ﷺ، فقال المقداد بن عمرو: يا رسول الله، امض لما أمرك الله فإنا معك حيثما أحببت لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة:٢٤]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد - مدينة بالحبشة - لجالدنا معك من دونه، فقال ﷺ له خيرًا ودعا له. ثم قال ﷺ أشيروا علي أيها الناس - يريد الأنصار - القائلين له حين بايعوه على العقبة أنهم براء ممن كل ذمامه حتى يصل إلى ديارهم، فتخوف ألَّا يروا نصره الأعلى عدو دهمه بالمدينة، فقال سعد بن معاذ: فكأنك تريدنا يا رسول الله، قال: أجل، قال: قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض لما أمرت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت هذا البحر فخضته لخضنا معك ما تخلف عنك منَّا رجل واحد، وما نكره أن تلقي بنا عدونا غدًا إنا لصبر عند الحرب وصدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، ففرح رسول الله ﷺ ونشطه قول سعد، ثم قال: سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله وعدني الآن إحدى الطائفتين، فوالله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم، فهذه كراهتهم للقتال». [تبصير الرحمن ٥٨٢/١] بتحقيقنا.

(٢) سقط من النسخة (ق).

ألا تسمع إلى قوله العلي لما وصف عباده المؤمنين من لدن قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢] إلى قوله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ ثم وصف ما هو يبلغهم إليه بقوله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال:٤] ثم حذف هنا ما معناه وصف للطف الذي به يبلغهم إليه من غيب تدبيره، ورفيع ما بهم ومستقرهم عنده.

ثم شبه ذلك منه بإخراجه رسوله وأصحابه إلى غزوة بدر حيث كانوا يخافون ذات الشوكة ويطمعون في العير، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته في شأن بدر على ما قد قدره في أزله ومشيئته حكمه في عباده وتوصيلهم إلى علي كرامته بذلك، واستظهر على تعرف ذلك بما في سورة يوسف ﷺ من حسن تدبيره وإكرامه وما عبر عنه قوله الحق: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦].

وهذا المعنى الذي نروم تبيانه من غريب معاني الكتاب المبين، وعلى إعلام القرآن الكريم؛ لأنه يلطف لعبده المؤمن من حيث لا يعلم، ويدخل عليه الحسنات من حيث لا يحتسب يصيبه بما يكره ويستعمله بطاعته في المنشط منه والمكره، فعلق الكلام لرسوله ﷺ ينعشه بما تقدم ذكره، وأدخل كاف التشبيه في قوله العلي: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنفال:٥] أي: الذي هو حكمه لعباده ولطفه بهم يريدون عرض الدنيا، وأبى الله إلا الآخرة والغنيمة وشفاء الصدور والانتقام من الاعداء وكسر شوكة الكفر، وفي ضمن هذا ما هو المعني وهذا له ما بعده عبر عن هذا بقوله العلي: ﴿لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبْطِلَ البَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال:٨]][1].

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنفال:٧] الحق هنا: هو النصر وإعلاء الإسلام وإدحاض الشرك والباطل بكلماته، عبر عن توحده بالتدبير في إخراجهم على طمعهم في غير ذات الشوكة، فكانت الشوكة وكان الفتح المبين، وعن إمداده إياهم بالملائكة - عليهم السلام - وعن معنى قوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:١٠] بقوله: ﴿وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾[١] [الأنفال:٧].

وفي هذا إشارة لهم خاصة ولنا معشر هذه الأمة عامة أنه قد أراد ذلك وما أراده فهو كائن لا محالة إن شاء الله تعالى، وقد كان من تحقيقه ذلك [كل][٢] ما شاءه، ثم لا بد من فترة، وهي الآن، ثم لا بد من عودة، وهو المبدئ المعيد، وإن ذلك ليس بموكول إلى عمل عامل ولا تدبير مدبر سواه؛ [لاستباقه][٣] الكلمات في ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ليحق الله دين الإسلام ويبطل الباطل [الشرك][٤].

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال: ٩ - ١١].

قوله ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٩] أعلم جل ذكره أن النصر على الأعداء والكفاية والدفاع يستفتح بالدعاء والتضرع إليه والاستغاثة، ألا تسمعه جل ذكره علق وجود نصره لهم [وتحقق][٥] الحق بكلماته بقوله جل قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ وأعقب الاستغاثة بإجابته الكريمة، [فبالدعاء][٦] والاستغاثة

---

(١) معطوف على «تودّون» وهو من جملة ما أمروا بذكر وقته؛ أي: ويريد الله غير ما تريدون، وهو أن يحقّ الحقّ بظهاره، لما قضاه من ظفركم بذات الشوكة، وقتلكم لصناديدهم، وأسر كثير منهم، واغتنام ما غنمتم من أموالهم التي أجلبوا بها عليكم، وراموا دفعكم بها. والمراد بالكلمات: الآيات التي أنزلها في محاربة ذات الشوكة، ووعدكم منه بالظفر بها. فتح القدير (١٥١/٣).

(٢) في النسخة (ق): «قبل».

(٣) في النسخة (ق): «لاستياقه ذكر».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «وتحقيق».

(٦) في النسخة (ق): «والدعاء».

إليه والتضرع [والتحقق][(١)] في ذلك وإلقاء المقاليد إليه والعمل الصالح وابتغاء مرضاته ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ [في الكتاب][(٢)] ﴿وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكِتَابِ﴾ [الرعد:٣٩] الذي كتب فيه علمه بما يكون إلى يوم القيامة.

قال الله ﷻ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَو لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ ثم قال وقوله الحق: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: من نصري لكم وحكمي ﴿لِمَنْ خَافَ﴾ منكم ﴿مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ * وَاسْتَفْتَحُوا﴾ أي: فإذا استفتحوا كان ذلك ﴿وخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[(٣)] [إبراهيم:١٣-١٥] أي: كل من تجبر عن عبادتي وعَنَد عن طاعتي.

وقرئ هذا الحرف: «واستفتحوا» [على الأمر من الاستفتاح الذي هو الدعاء][(٤)] دلهم جل وعلا على موضع دواء الداء، والحمد لله رب العالمين.

وهذه وصيته إياهم كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ [الأنفال:٤٥] الآيتين.

قوله جل من قائل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ المَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:٩] الفتح في الدال بمعنى: إنهم مردَفون بغيرهم، والكسر بأنهم مردِفون غيرهم، وقد تقدم الكلام في سورة آل عمران في معنى هذه الآية، فأغنى عن الترداد، غير أن النصر مع التقوى والصبر وبقدر ما يستشعره العبد من الصبر ينزل عليه من العون، وبقدر ما ينزع إلى التوحيد والتبرؤ من الحول والقوة يكون [إقبال][(٥)] الله جل وتعالى عليه وولايته له.

قال الله ﷻ: ﴿بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا﴾ [إن][(٦)] من

---

(١) في النسخة (ق): «والتحقيق».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) الجبار: المتكبر الذي لا يرى لأحد عليه حقًّا، هكذا حكاه النحاس عن أهل اللغة، والعنيد: المعاند للحق والمجانب له، وهو مأخوذ من العند، وهو الناحية؛ أي: أخذ في ناحية معرضًا. [فتح القدير (١٣٥/٤)] و(شرح الأسماء الحسنى للمصنف ١٩٠/٢).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «يد».

(٦) في النسخة (ق): «أي».

حالكم هذه [﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم﴾ [آل عمران:١٢٥] بحضور][1] الملائكة لنصرهم في ذلك بغير زمان.

قوله جل وتعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾[2] [الأنفال:١١] إلى قوله: ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ [الأنفال:١٤].

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ﴾ مردود المعنى إلى معنى قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ [الأنفال:٩] وهذان مردودان إلى قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٧] يعدد [نعمته عليهم، وينبههم][3] على مواطن نظره لهم.

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ...﴾ [الأنفال:١١] ألقى عليهم النعاس تلك الليلة؛ ليفرغ قلوبهم من هبتهم، ويحمها من الفكر في عددهم، وأنزل عليهم من السماء ماء [ليطهركم به لصلاتهم ولينبذ][4] تراب ذلك الوادي ويلين به [دهسه وبطهورهم ليشجع جبانهم][5] ويثبت أقدامهم؛ إذ الجبن والفرار من العدو هو من الشيطان.

قال الله جل ذكره في المنهزمين يوم أحد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ التَقَى الجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران:١٥٥].

---

(١) في النسخة (ق): «فحضور».

(٢) ذلك بأن النبي ﷺ وكثيرًا من أصحابه غشيهم النعاس ببدر. قال سهل بن عبد الله: النعاس يحل في الرأس مع حياة القلب ، والنوم يحل في القلب بعد نزول من الرأس، فهوَّمَ رسول الله ﷺ حتى ناموا، فبشر جبريل رسول الله ﷺ بالنصر، فأخبر به أبا بكر. وفي امتنان الله تعالى عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان: **أحدهما**: قوّاهم بالاستراحة على القتال من الغد. **الثاني**: أن أمَّنَهم بزوال الرعب من قلوبهم ، كما قال : الأمن منيم، والخوف مسهر. وقوله تعالى: ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ يعني به: الدعة وسكون النفس من الخوف، وفيه وجهان: **أحدهما**: أمنة من العدو. **الثاني**: أمنة من الله ﷻ. النكت والعيون (٥٢/٢).

(٣) في النسخة (ق): «نعمه عليهم وينبئهم».

(٤) في النسخة (ق): «ليطهرهم به بصلاتهم وليلبد به».

(٥) في النسخة (ق): «دهشه وبظهورهم يشجع جبنهم».

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾[(١)] أي: [بالنصر وإبعاد][(٢)] الهلع عنها ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ [الأنفال:١١] هذه الخصال كلها من بركه الطهور والماء؛ إذ هو من فتح رحمته.

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤)﴾ [الأنفال: ١٢ - ١٤].

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إلى المَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ رجع معنى الخطاب بتعداد مننه إلى أوله، وفي هذا أنه كان [إلجاؤه][(٣)] إلى أولياء الملائكة حين استشعروا الصبر والعزيمة على تثبيت الأقدام والصدق ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ﴾ [الأنفال:١٢] يريد جل وتعالى: الرؤوس والرقاب، كما قال جل قوله: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد:٤].

﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢] يريد [وهو][(٤)] أعلم: الأعضاء، وفي لغة العرب: الأعضاء تسمى بالبنان، ومعنى ذلك: اضربوا منهم ما أمكنكم كما قال جل قوله: ﴿فَاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة:٥] من مكان، أو حيث أمكنكم، وهذه بشارة منه جل ذكره لهم يومئذٍ؛ أي: [قد أمكنكم][(٥)] منهم فافعلوا بهم ذلك.

واحد البنان: بنانة، وهي الأصابع، ومعناها ها هنا: جميع الأعضاء، واشتقاق

---

(١) ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: يقويها بالثقة بلطف الله تعالى فيما بعد بمشاهدة طلائعه، وأصل الربط: الشد، ويقال لمن صبر على الشيء: ربط نفسه عليه. قال الواحدي: ويشبه أن تكون «على» صلة؛ أي: وليربط قلوبكم. وقيل: الأصل ذلك، إلا أنه أتى بـ«على» قصدًا للاستعلاء. وفيه إيماء إلى أن قلوبهم قد امتلأت من ذلك حتى كأنه علا عليها، وفي ذلك إن إفادة التمكن ما لا يخفى. تفسير الألوسي (٧/٣٠).

(٢) في النسخة (ق): «بالصبر وإبعاد».

(٣) في النسخة (ق): «إيحاؤه».

(٤) في النسخة (ق): «والله».

(٥) في النسخة (ق): «إني قد أمكنتكم».

البنان من قولهم: «[بانن][1] فلان بالمكان» إذا قام به، والبنان به [يعمل][2] على كل ما يكون للإقامة والحياة، وعلى هذا من اشتقاق، ومعنى [في][3] جميع الأعضاء.

فصل

ذكر الصادق الحق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه أنه ممدهم بألف من الملائكة [مردفين][4] [وقال جل قوله: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ المَلائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران:١٢٤]][5].

ثم قال جل قوله: ﴿بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ المَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران:١٢٥] والملائكة المذكورون بالعدد تسعة آلاف مردفون ومنزلون ومسومون، وكانت أول مشاهد الإسلام، فالظاهر في الاعتبار أن [مشاهدة][6] الإسلام على مثال ذلك، ولغزوة بدر فضل [السابق][7].

وجاء أن جبريل قال لرسول الله ﷺ: كيف ترون من شهد منكم بدرًا من المسلمين؟ قال: «من **أفضلنا**»[8] قال: فإنا معشر الملائكة [كذلك][9] نرى من شهدها من أهل السماء منا.

وكما المشاهد في الغزوات يكون من المسلمين بعدها فكذا لا تخلو من شهود الملائكة - عليهم السلام - وإن كنا نحن لا نراها وإنما كانت غزوة بدر كذلك عندنا بإخبار [الله جل ذكره وإخبار][10] رسول الله ﷺ، ومشاهد النصر للملائكة فيها

---

(١) في النسخة (ق): «أبن».
(٢) في النسخة (ق): «يُعتمل».
(٣) في النسخة (ق): «هي».
(٤) في النسخة (ق): «منزلين».
(٥) سقط من النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «مشاهد».
(٧) في النسخة (ق): «السبق».
(٨) لم أقف عليه هكذا.
(٩) زيادة في النسخة (ق).
(١٠) زيادة في النسخة (ق).

ضرب وطعن كما قال جل قوله: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢].

ألا ترى أنه جعل علة [الضرب](١) الملائكة لأولئك شقاقهم لله ولرسوله، فقال جل قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾(٢) [الأنفال:١٣] فعلق شدة عقابه على المشاقة لله ورسوله بلفظ المستقبل، وعلل ذلك بالمشاقة، فوجب أن يحصل العلم باستصحاب صحيح اعتبار ما ذكرنا؛ [لوجود](٣) مشاقتهم لله ورسوله، وإنما [يرجو](٤) ذلك مع جيش يغلب عليه الصبر والتقوى.

فصل

ومن تتميم الاعتبار: إن للشياطين أيضًا حضورًا لمشاهد أوليائهم بتزيين لهم

---

(١) في النسخة (ق): «ضرب».

(٢) قال أبو البقاء: إن ذلك خبر مبتدأ محذوف؛ أي: الأمر ذلك، وليس الأمر ذلك، والباء للسببية، والمشاقة: العداوة، سميت بذلك أخذًا من شق العصا، وهي: المخالفة، أو لأن كلاً من المتعاديين يكون في شق غير شق الآخر، كما أن العداوة سميت عداوة؛ لأن كلاً منهما في عدوة؛ أي: جانب، وكما أن المخاصمة من الخصم بمعنى الجانب أيضًا، والمراد بها هنا: المخالفة؛ أي: ذلك ثابت لهم أو واقع عليهم بسبب مخالفتهم لمن لا ينبغي لهم مخالفته بوجه من الوجوه ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: يخالف أمر الله تعالى ورسوله ﷺ، والإظهار في مقام الإضمار لتربية المهابة وإظهار كمال شناعة ما اجترأوا عليه، والإشعار بعلية الحكم، و«بئس خطيب القوم أنت» اقتضاه الجمع على وجه لا يبين منه الفرق ممن هو في ربقة التكليف؛ وأين هذا من ذاك لو وقع ممن لا حجر عليه، وإنما لم يدغم المثلان؛ لأن الثاني ساكن في الأصل، والحركة لالتقاء الساكنين فلا يعتد بها.
وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾ إما نفس الجزاء قد حذف منه العائد عند من يلتزمه، ولا يكتفي بالفاء في الربط؛ أي: شديد العقاب له، أو تعليل للجزاء المحذوف؛ أي: عاقبه الله تعالى، فإن الله شديد العقاب، وأيًا ما كان فالشرطية بيان للسببية السابقة بطريقة برهاني، كأنه قيل: ذلك العقاب الشديد بسبب المشاقة لله تعالى ورسوله ﷺ، وكل من يشاقق الله ورسوله كائنًا من كان فله بسبب ذلك عقاب شديد، فأذن لهم بسبب مشاقة الله ورسوله عقاب شديد. تفسير الألوسي (٣٤/٧).

(٣) في النسخة (ق): «وجود».

(٤) في النسخة (ق): «نرجوا».

وتحريض وعون دل على ذلك قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٤٨] ولا صبر [للشياطين](١) مع حضور الملائكة، كما ليس للظلام ثبوت مع [حضور](٢) النور.

فصل

وكما يمد الله جل وعز المؤمنين بأوليائهم من الملائكة يمد الشياطين أوليائهم المشاقين لله ورسوله، وفي الجن من قد آمن بالله فكذلك مؤمنو الجن يمدون أولياءهم من المؤمنين من الإنس، ثم الإنس على هذا موضع [المنزلة](٣) والثبات للإمامة التي فيهم من هذه الجهة، وإنما [احتضروا](٤) من أجلهم، فمتى كانوا مؤمنين صابرين محتسبين يقاتلون الكفار، وتكون كلمة الله [هي](٥) العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، [ولم](٦) يحضرهم ضجر ولا اختلاف ولا مكروه، فالملائكة - عليهم السلام - ومؤمنو الجن لا بد [من حضورهم](٧) والله ناصرهم، وإذا حضرت الملائكة ذهبت الشياطين خاسئة.

فإن واقع المسلمون خلافًا [ما](٨) فنصرهم في مشيئة الله ﷻ، وإنه أيضًا قد يكون الإخفاق والهزيمة عليهم [خيرة](٩) لهم، والملائكة في هذا المشهد يقبضون أيديهم عن القتال والنصرة؛ لأنهم هم الذين لا يشفعون إلا لمن ارتضى، ولا يفعلون إلا ما يؤمرون، وإن غلب المسلمون هل يغلب مؤمنو الجن لا بد أم لا؟

---

(١) في النسخة (ق): «للشيطان».
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «المزلة».
(٤) في النسخة (ق): «اختصروا».
(٥) سقط من النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «وإذا لم».
(٧) في النسخة (ق): «في حضرتهم».
(٨) زيادة في النسخة (ق).
(٩) في النسخة (ق): «خيرًا».

والله أعلم، فالغلبة على هذا للمؤمنين إن شاء الله.

فصل

قال الله عز من قائل: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال:١٢] وقال جل قوله في قصة أحد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران:١٥٥] فأضاف لنفسه إلقاء الرعب في قلوب الكفار، وإلى الشيطان ما ألقى في قلوب المؤمنين، [ويكون][1] الأدب في الإخبار عن الله جل ذكره له المثل الأعلى في السماوات والأرض.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (١٦) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٨) إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٩) ﴾ [الأنفال: ١٥ - ١٩].

يقول عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾[2] [الأنفال:١٥] المعنى إلى آخره، الزحف: مضي الجملة إلى الجملة

---

(١) في النسخة (ق): «هكذا يكون».

(٢) مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما أخبر أنه سيلقي الرّعب في قلوب الكفار وأمر من آمن بضرب فوق أعناقهم وبنانهم حرضهم على الصبر عند مكافحة العدوّ، ونهاهم عن الانهزام، وانتصب «زحفًا» على الحال، فقيل: من المفعول؛ أي: لقيتموهم وهم جمع كثير وأنتم قليل، فلا تفرّوا فضلاً عن أن تدانوهم في العدد أو تساووهم، وقيل: من الفاعل؛ أي: وأنتم زحف من الزحوف، وكان ذلك إشعارًا بما سيكون منهم يوم حنين حين انهزموا وهم اثنا عشر ألفًا بعد أن نهاهم عن الفرار يومئذٍ، وقيل: حال من الفاعل والمفعول؛ أي: متزاحفين، ولم يذكر ابن عطية إلا ما يدل على أنه حالٌ منهما، قال: «زحفًا» يراد به: متقابلي الصفوف والأشخاص؛ أي: يزحف بعضهم إلى بعض. تفسير البحر المحيط (٤٨/٦).

للقتال دفعة واحدة.

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أو مُتَحَيِّزًا إلى فِئَةٍ﴾ [الأنفال:١٦].

التحرف للقتال: التقلب من قرن إلى قرن فربما أقبل على واحد وولى ظهره آخر، وقد قال قوم: إن هذا الوعيد متوجه إلى من فر يومئذٍ؛ يعني: يوم بدر.

قال: لأن الملائكة يومئذٍ ممدة للمؤمنين، فالفرار [يوم بدر][1] كان من التكلف، والصواب أن قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ المراد [به][2]: يوم الزحف إلى العدو وإن الحرج والوعيد باقٍ على من ولى العدو دبره إذا كان عددًا بعددين، فالفرار حرام على ذلك، والفرار أيضًا حرام على عدد أكثر من العددين، بل الصواب للمسلمين [لا تجاوز][3] العدو ضعفي عدد المسلمين ألا يناجزوهم [لحرب][4] إذا غلب الظن بضعفهم عن المقاومة، فالرأي على ذلك في المحاجزة لا في المناجزة، فإن غلب الظن في القيام لهم ورجاء الغلبة، وإلا فلا [يسيروا][5] العدو يظفر بالمؤمنين.

وبالجملة: فالمناجزة على أكثر من العددين نافلة، وإن زحفوا إليهم فظهرت لهم كمائن ومكائد لم يشعروا بها، فالتحيز إلى فئة المسلمين مباح لهم، والبلد فئة المسلمين [والإمام فئة المسلمين][6] والجيش الأعظم وجماعة المسلمين فئتهم.

قال رسول الله ﷺ لأهل غزوة مؤتة، وقد انحاز خالد بن الوليد بالمسلمين ناحية بعد معاركة، وقتل وقتال [كائن][7] بين القوم، فلما ورد المدينة خرج النساء والصبيان يقولون لهم: «هؤلاء الفرارون» قال رسول الله ﷺ: «**بل هم الكرارون إن شاء الله، أنا فئة المسلمين**»[8].

---

(١) في النسخة (ق): «يومئذ».
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «إذا جاوز».
(٤) في النسخة (ق): «الحرب».
(٥) في النسخة (ق): «يسروا».
(٦) سقط من النسخة (ق).
(٧) في النسخة (ق): «كان».
(٨) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤١٤٢).

ومعنى قوله ﷻ: ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال:١٦] هو والله أعلم لمن ولى العدو دبره، يريد بذلك ابتغاء الفتنة وجر الهزيمة على المسلمين كما قال فيهم: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة:٤٧] ولكل عمل نية، ولكن نية [حسنة][٢]، والله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [الأنفال:١٧] عطف ﷻ بالفاء في قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ فتبين من ذلك أن انتظامه [وهو][٣] أعلم بقوله جل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا...﴾ [الأنفال:٤٥] يقول [وهو] أعلم: أعدوا لهم قوة من أنفسكم وشدة بأس، وأضمروا لربكم نية صادقة [وخشية][٤] وصبرًا في سبيله غضبًا له ونصيحة للإسلام، فعند ذلك تستحقون النصر من الله والفتح والإمداد بالجنود من لدنه.

ثم عطف على هذا المعنى المحذوف المقدر قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال:١٧] أقام [لهم][٥] ذلك كالآية، والدلالة على وجود الفتح عقب الصبر [والخشية][٦] وألحق حركاتهم وقتالهم الكافرين، ورمي رسوله ﷺ [الحصى][٧] من كفه في وجوه المشركين [كان رميه بالقبضة يوم حنين، وهذا الإخبار غريب، فربما أخبر عما سيكون قبل أن يكون ليثبت][٨] بأنه هو المتوحد

---

(١) أي: صار بالمكان الذي يحق عليه غضب الله، مأخوذ من المبوأ، وهو: المكان. ومذهب الشافعي وأصحابه وموافقيه أن هذا على العموم محكوم به في كل مسلم لاقى عدوًا، وبه قال عبد الله بن عباس. وحكي عن الحسن وقتادة والضحاك: إن ذلك خاص في أهل بدر، وبه قال أبو حنيفة. النكت والعيون (٢/٥٤).

(٢) في النسخة (ق): «حسبة».

(٣) في النسخة (ق): «والله».

(٤) في النسخة (ق): «وحسبة».

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «والحسبة».

(٧) في النسخة (ق): «الحصباء».

(٨) سقط من النسخة (ق).

[المنفرد][1] وحده؛ ذلك بأنه هو محرك المتحركين، وقاتل المقتولين، ومتمم فعل الفاعلين، ومجدد قوى القادرين، هو الأول في ذلك والآخر، والظاهر والباطن. إنما عليهم ما حملهم وعليه ما تضمن ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ﴾ [التوبة:١١١].

إنما للعبد من فعله ما أوجد الله له من الحركة المضافة إليه بنسبة إليه، [وإنما][2] صورة الفعل التي هي كماله وتمامه فهو له، ولما كان التمام والكمال والبداية والنهاية والظاهر والباطن هما صورة العمل [لأن مآله][3] كلزوم الظل شخصه ألزم جل ذكره المكلف ثواب فعله وعقابه بما نوى وما اجترم، وهذا هو التوحيد الأعلى توحيد الصديقين، والذين هم شهداء الله ﷻ في عباده.

قال الله عز من قائل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد:١٩] وهو موجود عن اسمه الأول والآخر والظاهر والباطن، ولهذا التوحيد وعلمه شواهد كثيرة: أما من القرآن العزيز، فقوله جل قوله: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦].

وقوله ﷻ: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾ [الأنعام:٥٧].

﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ [الأنعام:٦٢].

وقوله جل قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:٢٦].

ومن الأذكار قولك: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير».

والذكر كله مأخوذ من هذا الفن من علم هذا التوحيد، ولذلك - وهو أعلم - رفع ثواب الذكر إلى أعلى [نهايته][4] حتى فات العقول دركه، وما نسب إليه من عمل واستخرج على مقتضاه إلى أرفع الثواب فهو من وراء الأسباب والأواسط.

واعلم يقينًا أنه من نظر بنور هذا التوحيد [موجودات][5] الدنيا والآخرة تطلعت

---

(١) في النسخة (ق): «بذلك المتفرد».

(٢) في النسخة (ق): «وأما».

(٣) في النسخة (ق): «لازمًا له».

(٤) في النسخة (ق): «نهاية».

(٥) في النسخة (ق): «موجد».

إليه، وقد رفعت سُجف الأسباب، وأسباب الأسباب سافرة عن وجوهها براقع الأواسط التي [تنقب][(١)] بها لأجل البلوى والاختبار، وقد [نرى][(٢)] عليها من نور التوحيد كضياء الشمس المنيرة، فاستفتح الأبواب، ثم ترقَّ في الأسباب وادعه فإنه كريم وهاب.

أتبع ذلك قوله: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا﴾ [الأنفال:١٧] فعطف بالواو، والمحذوف مقدر معناه والله أعلم ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [الأنفال:١٧] نصرًا لك وإظهارًا لدينه واستجابة لدعائك ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا﴾ ثم صرف الخطاب مواجهة للمؤمنين بقوله ﷻ: ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: من نصرنا لكم وما يكون في معناه، ثم عطف على المحذوف بوعد فأنجزه، وهو متممه في المستقبل إن شاء الله ﷻ.

قوله ﷻ: ﴿وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الكَافِرِينَ﴾[(٣)] [الأنفال:١٨].

ثم قال جل قوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ يريد: المؤمنين، ثم خاطب الكافرين، ومن عمل بما ليس من شيم الإيمان وأعمال الإسلام بقوله جل قوله: ﴿وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ﴾ يريد: [المؤمنين][(٤)] المعاقبين من أجل ذنوبهم ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١٩] أهل الإيمان الصريح والعمل الصحيح، الفتح على ألف أن منتظم المعنى بقوله جل قوله: ﴿وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الكَافِرِينَ﴾ [الأنفال:١٨].

﴿وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١٩] والكسر لها ابتداء وتحقيق لمعنى ما جاءت به، وهو منتظم بمعنى قوله: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلى المَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا

---

(١) في النسخة (ق): «تنقبت».

(٢) في النسخة (ق): «بدا».

(٣) يعني: مضعف كيد الكافرين؛ يعني: صنيع الكافرين ببدر. قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو «مُوهِنٌ كَيْدَ الكافرين» بنصب الواو والتشديد منونة «كَيْدَ» بنصب الدال، وقرأ عاصم في رواية حفص «مُوهِنُ كَيْدِ» بضم النون بغير تنوين «كَيْدَ» بكسر الدال على معنى الإضافة، وقرأ الباقون «مُوهِنٌ كَيْدَ» بالتنوين والتخفيف «كَيْدَ» بالنصب والمُوهِنُ والمُوهَنُ واحد؛ ويقال: وهنت الشيء وأوهنته: إذا جعلته واهنًا ضعيفًا. بحر العلوم للسمرقندي (١٨٧/٢).

(٤) في النسخة (ق): «المذنبين».

الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال:١٢] هذا بالمعنى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)﴾ [الأنفال: ٢٠ - ٢٦].

وأما بالمجاورة فعلى نسقها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢٠] المعنى إلى آخره، إلى قوله جل قوله: ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٣] فقوله جل قوله: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ تحذير من أحوال المنافقين وفعلهم، وملابسة الأعمال التي توجب النفاق، وهو منتظم المعنى بالمشار إليهم في قوله جل قوله: ﴿وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١٩] فقوله فيهم: يقولون: ﴿سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢١] [كقوله][(١)]: «آمنا» وهم لا يؤمنون، وقد يقول الكفار: «سمعنا» ظنًا منهم أنهم قد سمعوا وهم في دعواهم السماع كاذبون.

قال الله جل من قائل: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال:٣١].

ثم قال عز من قائل: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال:٢٢] وأخبر جل ذكره بأنهم صم وبكم، وإنما وقع الإخبار عن بواطنهم فهم

---

(١) في النسخة (ق): «كقولهم».

لا يسمعون الهدى ولا ينطقون به؛ لما أعرضوا عن الذكر بعدما جاءهم [فأعموا][(١)] عنه وصموا، وطبع [الله][(٢)] على قلوبهم فهم لا يفقهون.

ثم قال عز من قائل: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ﴾[أي][(٣)] كما أسمع المؤمنين وأما هؤلاء ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٣] وقد ضرب الله مثلاً لهذا الصنف بالكلب ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَو تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف:١٧٦] نعوذ بالله من عقوبة الإعراض بعد البيان.

قوله جل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤] إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال:٢٦] «إذا» وإن كانت ظرفًا للزمان المستقبل فإنها قد تكون بمعنى الحين واقتضاء الأمر بقوله جل قوله: ﴿اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤] [معنى][(٤)] الأمر بالإسراع والتحذير من التسويف [لذلك][(٥)] قال جل قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال:٢٤] إن أخرتم الاستجابة فعلى ذلك ترمونها، وقد حيل بين قلوبكم وبينها، والمرء هنا هو العبد الباطن والقلب صفة له، وقد يعبر عنه بأنه التقوى أو الهدى أو الإيمان أو العقل أو العلم والعمل به، وحقيقة الشيء المطلوب منه هو قلبه، ثم قال وقوله الحق: ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:٢٤] أي: على ما تكونون عليه من ذلك، فانظروا على ما تكون الحال وعيد منه وتهديد لمن أخر التوبة وسوَّف بالأوبة.

ثم قال جل قوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾[(٦)] [الأنفال:٢٦] يقول

---

(١) في النسخة (ق): «عموا».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «معناه».

(٥) في النسخة (ق): «كذلك».

(٦) نزلت عقب بدر، فقيل: خطاب للمهاجرين خاصة كانوا بمكة قليلي العدد مقهورين فيها، يخافون أن يسلبهم المشركون، قال ابن عباس: فآتوهم بالمدينة وأيدهم بالنصر يوم بدر، و«الطيبات» الغنائم وما فتح به عليهم.

جل قوله: كما اقتدر على أن يجعل في ضعفكم قوة، وفي قلتكم كثرة، وفي خوفكم أمنًا، وآواكم ونصركم ورزقكم [من][1] الطيبات؛ هذا لأنكم أطعتموه، وأسرعتم إلى الاستجابة له ولرسوله، فكذلك هو القادر على أن يجعل مكان كثرتكم قلة مع الخلاف، [وموضع][2] أمنكم خوفًا، ويغير ما بكم من نعمة، [لتغييركم][3] ما بأنفسكم حذر جل وعز مما قد علم أنه واقع، والله المستعان.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً

=

وقيل: الخطاب للرسول والصحابة، وهي حالهم يوم بدر، و«الطيبات» الغنائم، والناس عسكر مكة وسائر القبائل المجاورة، والتأييد: هو الإمداد بالملائكة والتغلب على العدد.

وقال وهب وقتادة: الخطاب للعرب قاطبة، فإنها كانت أعرى الناس أجسامًا وأجوعهم بطونًا وأقلّهم حالاً حسنة، والناس فارس والروم، والمأوى النبوة والشريعة، والتأييد بالنصر فتح البلاد وغلبة الملوك، و«الطيبات» تعم المآكل والمشارب والملابس. تفسير البحر المحيط (٦٢/٦).

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «ومكان».

(٣) في النسخة (ق): «ليغير».

وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنفال: ٢٧ - ٤٠].

قوله جلَّ وعزَّ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله﴾ [الأنفال:٣٩] المعنى إلى آخره، يقول جل قوله وهو أعلم: قاتلوهم حتى تضع الحرب أوزارها كما قال جل قوله: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ...﴾ [محمد:٤] وذلك لا يكون إلا مع [نزول][1] عيسى ابن مريم عليه السلام، ويكون الدين كله لله يومئذٍ، ويكون المعنى: قاتلوا هؤلاء حتى يدخلوا في الإسلام فلا تكون منهم فتنة، وهي [في][2] نظيرة هذا في سورة البقرة غير هذه عبارة عما يكون تمامه ومصداقه في آخر الزمان، والتي في سورة البقرة عما كان وتقضَّى وبقي منتظر هذه سلمة بن نفيل.

قال: بينما أنا جالس عند النبي ﷺ إذ جاء رجل فقال: يا رسول الله، إن [الخيل قد سبيت][3] ووضع السلاح، وزعم قوم ألا قتال وإن قد وضعت الحرب أوزارها، فقال رسول الله ﷺ: «**كذبوا، الآن جاء القتال، وإنه لا يزال من أمتي أمة تقاتل في سبيل الله لا يضرهم من خالفهم، يقاتلون على الحق، ويزيغ الله لهم قلوب أقوام ويرزِعهم منهم حتى تقوم الساعة، ولا تضع الحرب أوزارها حتى يخرج يأجوج**

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «إنجيل قد سيبت».

ومأجوج»[١].

﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤١ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٤٢﴾ [الأنفال: ٤١ - ٤٢].

قوله عز قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لله خُمُسَهُ...﴾ [الأنفال:٤١] اختلف الناس في قسم الخمس وخمس الخمس لمن هو؟ وفيمن تقسم؟ فقال ابن عباس ﷺ وقد سأله نجدة الحروري عن سهم [ذي][٢] القربى: لمن تراه؟ فقال: هو لنا أهل البيت، قسمه رسول الله ﷺ لنا، وقد كان عمر عرض علينا رأيًا رأيناه دون حقنا فأبينا أن نقبله، وكان الذي عرض علينا أن نُنكح منه أيِّمنا، ونخدم منه عائلنا، ونقضي عن غارمنا، فأبينا أن نقبله إلا أن يسلمه إلينا، وأبى [من][٣] ذلك فتركناه عليه.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عمر بن الوليد كتابًا فيه: «وقسم أبيك الخمس كله لك، وإنما سهم أبيك منه كسهم رجل من المسلمين، وفيه حق الله وحق الرسول وذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، فما أكثر خصماء أبيك يوم القيامة! وكيف ينجو من كثر خصماءه؟! وإظهارك المعازف والمزمار بدعة في الإسلام، ولقد هممت أن أبعث إليك من [يجز جمتك][٤] جمة السوء».

وسُئل الحسن بن محمد عن قول الله ﷻ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ

(١) أخرجه الطبراني (٦٣٦٠).

(٢) في النسخة (ق): «ذوي».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «يجرك بجمتك».

لله خُمُسَهُ﴾ [الأنفال:٤١] فقال: هذا مفتاح كلام الله الدنيا والآخرة.

ثم قال قائل: اجتمع رأي العلماء بعد اختلافهم أن هذين السهمين - يعني: الذين هما لله وللرسول - في الخيل والعدة والسلاح.

وقال آخرون: سهم [ذي](١) القربى لقرابة الرسول ﷺ، والأولى - والله أعلم - [ما قاله](٢) رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم**»(٣) يعني والله أعلم بما أراد رسوله: في الكراع والسلاح والعدة، ويعطى منه من فيه [عتاد منفعة](٤) لأهل الإسلام ومن أهل [الحرف](٥) والفقه والعلم والقرآن، ويعطى منه سهم ثانٍ لأهل البيت ولذي القربى الغني منهم والفقير والصغير والكبير والذكر والأنثى سواء؛ لأن الله جل ثناؤه جعل لهم ذلك، وقسمه رسول الله ﷺ [بينهم](٦) وليس في الحديث أن فَضَّل بعضهم على بعض، ثم سهم ثالث لليتامى، ورابع للمساكين، وخامس لابن السبيل.

وذكر الله جل ثناؤه نفسه في أول الخطاب افتتاحًا للكلام وابتداء له به، هو زين الدنيا والآخرة ونور السماوات والأرض، وكما تقول العرب: «قد أعتقك الله وأعتقتك».

وذكر أبو عبد الرحمن في هذا أنه ابتداء [الكلام](٧)؛ لأن الأشياء كلها لله ﷻ، قال: ولعله إنما استفتح الكلام بذكر نفسه في الفيء والخمس؛ لأنهما أشرف الكسب، ولم [يكتسب](٨) الصدقة إلى نفسه؛ لأنها أوساخ الناس، والله أعلم.

وقد قيل: يؤخذ من الغنيمة شيء فيجعل للكعبة، وهو السهم الذي [هو](٩) لله

---

(١) في النسخة (ق): «ذوي».

(٢) في النسخة (ق): «الذي قال».

(٣) أخرجه الحاكم (٤٣٧٠)، والبيهقي (١٧٥٧٧)، والضياء من طريق الطبراني (٣٦١).

(٤) في النسخة (ق): «غناء ومنفعة».

(٥) في النسخة (ق): «الحرب».

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «كلام».

(٨) في النسخة (ق): «ينسب».

(٩) سقط من النسخة (ق).

جل ذكره، وهو وجه حسن صواب والله أعلم، وعلى هذا فلتُبنَ منه المساجد، وليصلح منه قناطر المسلمين وجسورهم ومواضع منافعهم، وأما أئمة المسلمين فداخلون فيما هو للرسول ﷺ وإن أفضل عليهم من سهم الله جل ثناؤه فهو أيضًا منه هذا في خمس الخمس، والأربعة الأخماس يقسمها الإمام فيمن حضر القتال من المسلمين البالغين [الأحرار](١).

قوله ﷻ: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾(٢) إلى قوله جل قوله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢] [وصف العدوة التي كان فيها المؤمنون أنها الأدنى من الدنو، ولكونه عز جلاله مع المؤمنين والملائكة كما وصف العدوة التي كان فيها الكفار بأنها القصوى؛ إذ كانت هذه منه عز جلاله، فذكر الله جل ثناؤه](٣) موافاة الجيشين بدرًا بوفاق منه جل ثناؤه.

يقول جل قوله: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ إذ فعل المكتسب لا يخرج على الأغلب على وفق ما يريده، وفعل الله جل ثناؤه موجود على وفق ما شاءه ﴿لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً﴾ [الأنفال:٤٢] من نصرة رسوله والمؤمنين، وإظهار الإسلام يومئذٍ، وكبت [الكفار](٤) وقمع العدو؛ ليري على ذلك آياته في رؤية المؤمنين إياهم على أقل من عددهم، ويُري الكافرين المؤمنين على مثال ذلك قبل الزحف والمناشبة، فلما تناشبوا القتال بدت للكفار [في حوزة المؤمنين](٥) جموع أذعرتهم، وألقى الرعب في قلوبهم وثبت المؤمنين، وكانت الهزيمة والقتل، وهذا كان يومئذٍ الفرقان المعبر عنه بقوله جل قوله: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِالله وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال:٤١]

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: شفير الوادي ببدر، الأدنى إلى المدينة ﴿وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ يعني: شفير الوادي الأقصى إلى مكة، وقال الأخفش: عدوة الوادي: هو ملطاط شفيره الذي هو أعلى من أسفله وأسفل من أعلاه. النكت والعيون (٢/٧٠).

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «الكفر».

(٥) سقط من النسخة (ق).

يري القليل كثيرًا والكثير قليلاً، وينصر الضعيف ويخذل القوي، يفعل ما يشاء.

ثم قال عز من قائل: ﴿وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أي: بالإيمان والتصديق لله والرسول، والهدى والعمل بالطاعة، ويهلك من هلك عن بينة بالكفر والتكذيب والجحد للآيات، والبينة قد تقدم ما هي ﴿وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ﴾ لقول من قال ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:٤٢] بعمل العاملين أخالص هو أم غير ذلك؟ وهذه إشارة إلى نفاق المنافقين وتكذيب يهود.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال: ٤٣ - ٤٨].

أتبع ذلك قوله جل من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال:٤٥] الفلاح هنا بمعنى: الظفر بالعدو، ثم الظفر بثواب الله ﷻ والبقاء الدائم في جواره في كل خطاب له جل ثناؤه في هذا المعنى ضمان النصر مع الثبات [والظفر، وذكر الله جل ثناؤه والخشية](١) لا بد ولا محالة.

ثم قال جل قوله يحذر من فعل أولئك في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا

(١) في النسخة (ق): «والصبر والحسبة».

مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾[(١)] [الأنفال:٤٧].

ثم ذكر جل ذكره حضور الشيطان [معهم][(٢)] وضمانه لهم الجوار والنصر، ثم [خفره][(٣)] العهد، وخلفه الوعد كالمعهود منه.

﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٥١) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) ﴾ [الأنفال: ٤٩ - ٥٣].

قوله جل وعز: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال:٤٩] [أعلم جل ذكره هنا لمشاره في قوله: ﴿وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:٤٢] من ذكر المنافقين واليهود، ثم قال جل قوله][(٤)]: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى الله فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾ أي: منيع مانع ﴿حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:٤٩] في شأنه كله.

---

(١) نزلت في أبي جهل وأصحابه، خرجوا لنصرة العِير بالقينات والمعازف ووردوا الجحفة، فبعث خفاف الكناني - وكان صديقًا له - بهدايا مع ابنه وقال: إن شئت أمددناك بالرجال وإن شئت بنفسي مع من خفّ من قومي، فقال أبو جهل: إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد فوالله ما لنا بالله طاقة، وإن كنا نقاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوة، والله لا نرجع عن قتال محمد حتى نرد بدرًا فنشرب فيها الخمور وتعزف علينا القينات؛ فإنّ بدرًا مركز من مراكز العرب وسوق من أسواقهم حتى تسمع العرب مخرجنا فتهابنا آخر الأبد، فوردوا بدرًا فسقوا كؤوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القينات، فنهى الله المؤمنين أن يكون مثل هؤلاء بطرين طربين مرائين بأعمالهم، صادين عن سبيل الله، وقال رسول الله ﷺ: «اللهم إن قريشًا أقبلت بفخرها وخيلائها تجادل وتكذب رسولك، اللهم فاحنها الغداة». تفسير البحر المحيط (٨٥/٦).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «إخفاره».

(٤) سقط من النسخة (ق).

ثم ذكر جل ذكره كيف يتوفى الكفار الملائكة - عليهم السلام - حال الموت ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾[١] [الأنفال:٥٠].

ثم عطف بالواو على هذه الحال حالاً هي بعد الموت، ثم بعد البعث[قوله: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ﴾ [آل عمران:١٨١]][٢].

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) ﴾ [الأنفال: ٥٤ - ٦١].

قوله ﷻ: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى الله إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ [الأنفال:٦١] لا يخلو أن يكون الأمر مقبلاً أو مدبرًا، فإن كان مقبلاً كما كان الإسلام يومئذٍ، فالجنوح للسلم بعد أن تكون البداية منهم في ذلك أحسن؛

---

(١) فيه قولان : **أحدهما**: يتوفاهم ملك الموت عند قبض أرواحهم. قاله مقاتل.
والثاني: قتل الملائكة لهم حين قاتلوهم يوم بدر. ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ تأويله على القول الأول: يضربون وجوههم يوم القيامة إذا واجهوهم، وأدبارهم إذا ساقوهم إلى النار.
وتأويله على القول الثاني يحتمل وجهين: **أحدهما**: يضربون وجوههم ببدر لما قاتلوا، وأدبارهم لما انهزموا.
والثاني: أنهم جاءوهم من أمامهم وورائهم، فمن كان من أمامهم ضرب وجوههم، ومن كان من ورائهم ضرب أدبارهم. النكت والعيون (٢/٧٤).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

ليتفرع منهم إلى سواهم، وينتقص على ذلك كثرة مطالبتهم، ولا بد للأجل المضروب من حلول، فإذا جاء ذلك الأجل بلغ الله الأمل، وإن كان الأمر في نقصان فالجنوح [أيضًا][(١)] إلى السلم بعد أن تكون البداية منهم في ذلك أحسن انتظارًا [منا][(٢)] للفرج، وليتمكن في تلك المدة من أخذ العدة.

﴿ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنفال: ٦٢ - ٦٦].

قوله عز من قائل: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ...﴾ [الأنفال: ٦٥] شرط جل ذكره الصبر والفقه عن الله جل ذكره، وهو [في][(٣)] معنى قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء:١٠٤] وقوله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَو بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة:٥٢] وتمام الفقه عنه الثقة بوعده الصادق، وإن النصر مع الصبر والثبات مع الحسبة، والعمل بطاعة الله والإكثار من ذكره، وعزم الإيمان إن الله مع المؤمنين الذين وصفهم الله في كتابه العزيز بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢] المعنى إلى آخره، وإنه من كان الله معه فلا يغلب ولا يهزم.

ثم أتبع ذلك بقوله عز قوله: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ﴾ [الأنفال:٦٦] فأعلم أن

---

(١) في النسخة (ق): «إذًا».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

هذا الحكم منسوخ؛ أعني: بإيجاب الثبوت على واحد إلى عشرة، وأبقى الوعد؛ إذ الوعد خبر والخبر لا [يتطرقه](١) النسخ، وإبقاء القضية [الأولى](٢) ثابتة بالخط، وحكم التخصيص في الزمان قوله جل قوله: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ﴾ فأعلمنا بذلك أن هذا الوعد والإيجاب لزمان يأتي بعد إن شاء الله وأبقى الآن حكم الثبوت من واحد إلى اثنين، والوعد حاضر معه إن أحضر العبد الصبر والتقوى، ختم ذلك بقوله جل قوله: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦].

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٧ - ٦٩].

قوله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا...﴾(٣) [الأنفال:٦٧] هذا كقوله جل قوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الوَثَاقَ...﴾ [محمد:٤].

أتبع ذلك قوله: ﴿لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ الله سَبَقَ﴾ [أي بسعادتهم](٤) ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ أي: [من فداء الأسارى](٥) ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال:٦٨] [أي: لمفادتهم](٦) كقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح:١] إلى قوله: ﴿لِيُدْخِلَ

---

(١) في النسخة (ق): «يطرقه».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) وهذا نزل في أسرى بدر حين استقر رأي النبي ﷺ فيهم بعد مشاورة أصحابه على الفداء بالمال، كل أسير بأربعة آلاف درهم، فأنكر الله تعالى ذلك عليه، وأنه ما كان له أن يفادي الأسرى ﴿حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾ فيه وجهان: **أحدهما**: هو الغلبة والاستيلاء. قاله السدي. **والثاني**: هو كثرة القتل؛ ليُعزَّ به المسلمون ويذل به المشركين. قاله مجاهد. النكت والعيون (٨١/٢).

(٤) زيادة النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «في فدية الأسرى».

(٦) سقط من النسخة (ق).

الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ...﴾ [الفتح:٥].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٠) وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢)﴾ [الأنفال: ٧٠ - ٧٢].

قوله جل وعز: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [الأنفال:٧٢] إلى آخر السورة، هذا [حكم الله ﷻ][1] بألا تصح ولاية الدين إلا لمن آمن وهاجر لا لمن آمن ولم يهاجر، [بل إن استنصروا][2] في الدين الذي اجتمعوا معنا فيه وجبت علينا نصرتهم إلا أن يكون المستنصر عليهم [قومًا][3] بيننا وبينهم ميثاق.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)﴾ [الأنفال: ٧٣ - ٧٥].

ثم قال جل قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال:٧٣]

---

(١) في النسخة (ق): «هذا نص».

(٢) في النسخة (ق): «بلى إن استنصرونا».

(٣) سقط من النسخة (ق).

يريد وهو أعلم: إلا تفعلوا ما أمرتكم به وبخاصة [والله أعلم][(١)] وهو راجع على معنى القتال وتحريضه عليه وترك [الأسر][(٢)] وأن يعوض منه القتل والإغلال حتى يتحصل الإثخان، ثم ما أمر به من الموالاة في الدين والنصرة، والمناصحة وحفظ الميثاق.

قال رسول الله ﷺ: «**ما ختر قوم بالعهد إلا سلط عليهم [العدو][(٣)]**»[(٤)].

وقال ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»[(٥)].

وقال ﷺ: «**من كانت له ولية** - أو قال: ابنة - **فخطبها إليه كفؤ فليزوجه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**»[(٦)].

يشير إلى ما تكون الحال معها مع العضل [لها][(٧)] على الأغلب، ولو فشا ذلك - أعني: العضل - لكانت الفتنة من هذه الجهة والفساد الكبير كذلك في ترك أوامره وارتكاب نواهيه، فالمراد بقوله ﷻ: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ...﴾ جميع ما أمرنا به وحضنا عليه، و«**الدين النصيحة**»[(٨)].

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «الأمر».

(٣) في النسخة (ق): «عدوهم».

(٤) أخرجه مالك في الموطأ (١٦٣١) ونسبه إلى ابن عباس ﷺ.

(٥) أخرجه مسلم (٤٩)، وأبو داود (١١٤٠) والترمذي (٢١٧٢) والنسائي (٥٠٠٨) وابن ماجة (٤٠١٣) وابن حبان (٣٠٧) والطيالسي (٢١٩٦) وأحمد (١١٤٧٨) وعبد بن حميد (٩٠٦) وأبو يعلى (١٠٠٩) والبيهقي (١٩٩٦٦) وأبو نعيم في «الحلية» (٢٨/١٠).

(٦) أخرجه الترمذي (١٠٨٤) وقال: هذا الحديث قد خولف عبد الحميد بن سليمان فى هذا الحديث، ورواه الليث بن سعد عن ابن عجلان عن أبي هريرة عن النبى ﷺ مرسلاً، قال الترمذي: قال محمد: وحديث الليث أشبه، ولم يعد حديث عبد الحميد محفوظًا. وابن ماجة (١٩٦٧)، والحاكم (٢٦٩٥) وقال: صحيح الإسناد. والطبراني في «الأوسط» (٤٤٦).

(٧) سقط من النسخة (ق).

(٨) أخرجه مسلم (٥٥)، وأبو داود (٤٩٤٤)، والنسائي (٤١٩٧)، وأحمد (١٦٩٨٢)، وأبو عوانة (١٠١)، وابن حبان (٤٥٧٤)، والبغوي في «الجعديات» (٢٦٨١)، وابن قانع (١٠٩/١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٢٦٥)، وأبو نعيم في «المعرفة» (١٢٩١)، والطبراني =

ثم قال وقوله الحق بعد هذا: ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ﴾ [الأنفال:٧٥] يحتمل أن يكون معنى قوله جل قوله: ﴿فِي كِتَابِ اللهِ﴾ أي: إنه كذلك [في اللوح][1] المحفوظ، كذلك أنزلناه عليكم فامتثلوه، كذلك قال الله جل قوله: ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ﴾ من المؤمنين والمهاجرين.

ثم قال جل قوله: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء:٥٨].

كما قال جل قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى:١٨ - ١٩].

والقرآن متصل بالكتب قبله، وكلها منفصلة من [الكتاب][2] المبين كما قال جل قوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤] فأولوا الأرحام [بعضهم أولى ببعض لكل موفق][3] ونصرة ونصيحة وهبة وإنكاح وصلة وغير ذلك.

=

(١٢٦٧)، وابن عساكر (١١/٥٤).

(١) في النسخة (ق): «الكتاب».

(٢) في النسخة (ق): «كتاب الله».

(٣) في النسخة (ق): «أولى ببعض لكل مرفق».

تفسير سورة براءة[1]

التوبة

[مدنية، فيها من المنسوخ سبع آيات][2].

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى

---

(١) هذه السورة مدنية كلها، وقيل: إلا آيتين من آخرها فإنهما نزلتا بمكة، وهذا قول الجمهور، وذكر المفسرون لها اسمًا واختلافًا في سبب ابتدائها بغير بسملة، وخلافًا عن الصحابة: أهي والأنفال سورة واحدة، أو سورتان؟ ولا تعلق لمدلول اللفظ بذلك، فأخلينا كتابنا منه، ويطالع ذلك في كتب المفسرين. ويقال: برئت من فلان أبرأ براءة، أي: انقطعت بيننا العصمة، ومنه برئت من الدين، وارتفع براءة على الابتداء، والخبر إلى الذين عاهدتم، ومن الله صفة مسوغة لجواز الابتداء بالنكرة، أو على إضمار مبتدأ أي: هذه براءة، وقرأ عيسى بن عمر براءة بالنصب، قال ابن عطية: أي الزموا، وفيه معنى الاغراء، وقال الزمخشري: اسمعوا براءة، قال: فإن قلت: بم تعلقت البراءة، بالله ورسوله والمعاهدة بالمسلمين؟ قلت: قد أذن الله تعالى في معاهدة المشركين أولاً، فاتفق المسلمون مع رسول الله ﷺ وعاهدوهم، فلما نقضوا العهد أوجب الله تعالى النبذ إليهم، فخوطب المسلمون بما تجدّد من ذلك فقيل لهم: اعلموا أنّ الله تعالى ورسوله قد برئا مما عاهدتم به المشركين، وقال ابن عطية: لما كان عهد الرسول ﷺ لازمًا لجميع أمته حسن أن يقول: عاهدتم، وقال ابن إسحاق وغيره: كانت العرب قد أوثقها رسول الله ﷺ عهدًا عامًا على أنّ لا يصدّ أحد عن البيت الحرام ونحو هذا من الموادعات، فنقض ذلك بهذه الآية، وأحل لجميعهم أربعة أشهر، فمن كان له مع الرسول عهد خاص وبقي منه أقل من الأربعة أبلغ به تمامها، ومن كان أمده أكثر أتمّ له عهده، وإذا كان ممن يحتبس منه نقض العهد قصر على أربعة أشهر، ومن لم يكن له عهد خاص فرضت له الأربعة يسيح في الأرض أي: يذهب فيها مسرحًا آمنًا، وظاهر لفظة من المشركين العموم، فكل من عاهده المسلمون داخل فيه من مشركي مكة وغيرهم، وروي أنهم نكثوا إلّا بني ضمرة وكنانة فنبذ العهد إلى الناكثين.

(٢) سقط من النسخة (ق).

ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ [التوبة: ١ - ٣].

قوله عز من قائل: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ الله وَرَسُولِهِ إِلى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ المُشْرِكِينَ﴾ [التوبة:١] هؤلاء هم طائفة من المشركين كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد فظاهروا عليه، فأمر رسوله أن يتبرأ إليهم من عهدهم، وأجل لهم أربعة أشهر يسيحون [أي يسيرون][(١)] في الأرض آمنين انتظارًا للتوبة منهم، وأعلمهم أن الله تعالى [مجزي][(٢)] الكافرين، وأنهم ينقلبون في قبضته لا يعجزونه، ثم آذان منه في إعلام إلى جميع المشركين عامة بالبراءة والتبرئ منهم [وأعلمهم أن الله مخزي الكافرين][(٣)].

يقول الله ﷻ: قل لهم يا محمد: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: يدخلكم في [ولايته][(٤)] ورحمته ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي الله وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[(٥)] [التوبة:٣] الأسر والقتل في الدنيا وفي الآخرة عذاب النار.

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «مخزي».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «جواره وولايته».

(٥) جعلت البراءة شأنًا من شؤون الله ورسوله، وأسند العهد إلى ضمير المسلمين؛ للإشارة إلى أنّ العهود التي عقدها النبي ﷺ لازمة للمسلمين، وهي بمنزلة ما عقدوه بأنفسهم؛ لأنّ عهود النبي ﷺ إنّما كانت لمصلحة المسلمين في وقت عدم استجماع قوتهم، وأزمانَ كانت بقية قوةٍ للمشركين، وإلّا فإنّ أهل الشرك ما كانوا يستحقّون من الله ورسوله توسعة ولا عهدًا؛ لأنّ مصلحة الدين تكون أقْوَمُ إذا شّدد المسلمون على أعدائه، فالآن لمّا كانت مصلحة الدين متمحّضة في نبذ العهد الذي عاهده المسلمون المشركين أذن اللهُ رسوله ﷺ بالبراءة من ذلك العهد، فلا تبعة على المسلمين في نبذه، وإن كان العهد قد عقده النبي ﷺ ليعلموا أنّ ذلك توسعة على المسلمين على نحو ما جزى من المحاورة بين عمر بن الخطاب وبين النبي ﷺ يوم صلح الحديبية، وعلى نحو ما قال الله تعالى في ثبات الواحد من المسلمين لاثنين من المشركين، على أنّ في الكلام احتباكًا؛ لما هو معروف من أنّ المسلمين لا يعملون عملاً إلّا عن أمر من الله ورسوله، فصار الكلام في قوّة براءة من الله ورسوله ومنكم =

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [التوبة: ٤ - ٥].

ثم قال عز من قائل: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ المُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ [التوبة:٤] فاستثنى هؤلاء من الناس.

ثم قال عز من قائل: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الحُرُمُ...﴾ [التوبة:٥] وكان نزول هذه السورة في ذي الحجة من عام تسع من الهجرة، وكان أمير الحاج يومئذٍ أبا بكر الصديق ﷺ، فأتبعه [رسول الله ﷺ][1] علي بن أبي طالب ﷺ يقرؤها على الناس وينادي: ألا لا يحجن بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان، [وإتمام][2] هذا الأمر المجعول لهؤلاء في إكمال خمسين يومًا من يوم الحج الأكبر، وهو آخر شهر المحرم.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا

إلى الذين عاهد الله ورسوله وعاهدتم. التحرير والتنوير (٦/٢١٣).

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «وتمام».

ذِمَّةً وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ [التوبة: ٦ - ١٠].

ثم قال جل من قائل: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ الله ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة:٦].

ثم قال جل قوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ الله وَعِندَ رَسُولِهِ﴾ [التوبة:٧] يقول جل ذكره: لأي إيمان وإسلام؟ لأي قرب؟ لأي ولاية يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله؟ ثم استثنى من جملة المشركين [عهد عند الله][1] وهي الجملة التي أذن بالتبرئ منهم [قيل][2] قريشًا ومن كان في عهدهم، وهم الذين عوهدوا عند المسجد الحرام، وفي هذا إعلام بأن إسلام مسلمي الفتح كان [عنوة][3] فأنزلها منزلة المعاهدة، وفي هذا الخطاب إشارة إلى يهود خيبر، فهم أيضًا عند المسجد الحرام مسجد رسول الله ﷺ وحرمه.

ثم قال جل قوله: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾[4] [التوبة:٧].

ثم أعلم بما كانوا عليه بقوله جل قوله: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاً وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة:٨].

يقول جل من قائل: ﴿كَيْفَ﴾[تكون موالتهم استبعادًا لذلك وهم][5] ﴿إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاً وَلَا ذِمَّةً﴾ الإل: القرابة، وقيل: الإل: الله جل ذكره، فكان معنى الكلام لا يرقبون فيكم قرابتكم منهم ولا يرقبون من عاهدوا به، وتواثقوا بزمامه وحرمته، وهو الله تعالى، ثم أظهر هنا ما أبطنه من ذكر يهود بقوله جل قوله:

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «قبل».

(٣) في النسخة (ق): «عنده».

(٤) وليس ذلك إنكارًا على وقوع العهد، فإن العهد قد انعقد بإذن من الله، وسمّاه الله: «فتحًا» في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١] وسمّي رضا المؤمنين به يومئذٍ: «سكينة» في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤] والمعنى: إنّ الشأن ألا يكون لكم عهد مع أهل الشرك؛ للبون العظيم بين دين التوحيد ودين الشرك، فكيف يمكن اتّفاق أهليهما؛ أي: فما كان العهد المنعقد مَعهم إلّا أمرًا موقّتًا بمصلحة. التحرير والتنوير (٢٢٧/٦).

(٥) زيادة في النسخة (ق).

﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة:٨] إلى قوله: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاً﴾ [أي: الله](١) ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة:١٠] عهدًا عاهدوه به.

﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَٰنَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التوبة: ١١ - ١٥].

ثم قال جل قوله: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ ثم قال: ﴿وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ أي: في كل طائفة من الكافرين وفي كل وجه ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:١١].

ثم قال: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ من الإيمان ولا أيمان من اليمين ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة:١٢] تعريض بنكثهم العهد في مظاهرتهم قريشًا على غزوة الخندق وصفهم بأنهم أئمة الكفر؛ لأنهم كانوا أهل كتاب [فسلم](٢) المشركون عن رسول الله ﷺ وعما جاء به، فيجيبونهم بما يصدهم عن سبيل الله ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:٩] فهم لا أيمان لهم لأجل هذا، ولا أيمان لهم لما يعلم الله ﷻ منهم من نقضهم العهد متى أمكنهم، ومن إضرارهم بالمؤمنين متى ظهروا عليهم.

ثم أظهر وصف قريش وقد كان أبطنه بقوله عز قوله: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ [التوبة:١٣] إلى قوله: ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:١٥].

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «فيسألهم».

فصل

صدر هذه السورة منتظم بآخر سورة الأنفال، [لما ختم سورة الأنفال][(١)] بذكر الولاية ومن يوالي ومن أحق بذلك، وفصَّل ذلك ابتداء هنا بالبراءة ممن [يستحق][(٢)] التبرؤ منه، ولذلك أشكلت على الأئمة من الصحابة ﷺ فلم يفصلوا بينهما بسطر «بسم الله الرحمن الرحيم».

قوله ﷻ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ﴾ [التوبة:٦] الكلام يقال على وجهين:

أحدهما: معنى يعبر عنه، وهو في النفس كما قال القائل:

إن الكـــلام لفـــي الفـــؤاد وإنمـــا ... جُعـــل اللـــسان علـــى الفـــؤاد دلـــيلاً

وقال بعضهم: في كلام له إنما المرء بأصغريه لسانه وجنانه، إن تكلم تكلم بلسان، وإن أقدم أقدم بجنان فاعتمد على أن الكلام هو ما خرج على اللسان، فحقيقة الكلام فينا [هو][(٣)] صوت مؤدٍ لمعان قائمة في النفس تصورها حروف مقطعة مركبة أشكالاً، فالمسموع هو ما في النفس بواسطة الصوت المؤدي به إلى السامع، والسامع هو المؤدى إليه، والسماع هو صدور المسموع بواسطة الصوت [المشيع][(٤)] إلى سمع السامع، فالحروف وضعت [للمعنى][(٥)]، ولم توضع المعاني للحروف، [وموضع الحروف][(٦)] إنما هو في الفم واللهاة ومنفد الخيشوم والأسنان والشفتين، وهو القول المعبر عما في النفس من معنى هو الكلام، والله تبارك وتعالى متكلم وهو غني عن الآلات متعال عن الافتقار إلى الأدوات، فهو المتكلم بالحقيقة، ولا يجوز أن يشار بكلامه إلى آلة ولا يوصف بجارحة.

---

(١) سقط من النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «يجب».
(٣) سقط من النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «المسمع».
(٥) في النسخة (ق): «للمعاني».
(٦) سقط من النسخة (ق).

وكذلك لا يجوز أن يقال: «تكلم كله أو بعضه»؛ إذ القول بالكل والبعض، والشبه عنه منفي، والكلام صفة ليس هو الموصوف ولا هو غيره بوجه؛ إذ الغير لا يكون إلا لشيئين مختلفين أو مؤتلفين، [كما لا يجوز أن يقال كان الكلام بعد أن لم يكن لأن هذا صفة المخلوق][١] والمخلوقون لم يكونوا ثم كانوا، فلم يستَبِنْ لأجل ذلك لهم صفة كلامه ولا علمه في القدم، فعجزوا عنه لعدمهم، والعجز والاستبانة تجري عليهم ولهم لا على علمه وكلامه، وكان الله جل ثناؤه ولم يزل آمرًا، والأمر كلامه، ولا يكون الآمر آمرًا من غير كلام، ولا يكون المتكلم متكلمًا من غير كلام، ولا عالمًا من غير علم، ولا خالقًا من غير خلق.

[والخلق صفة ذات في الحقيقة، لكنه ترك أن يخلق ما شاء ثم خلق ما خلق إذ شاء وصفة فعل في اللغة][٢] وصفات الفعل ترجع إلى صفات الذات، فكلام الله جل وعز لا يدركه بالكيف البشر، وإنما يدرك أمره ونهيه بالمثالات والأمثال والأسماء [والحروف محدثة، وبذلك استبان لهم كلامه كما تقدم وصفه، والحروف المحدثة والأمثال والأسماء][٣] يكتبونه ليقرؤنه ويحفظونه ويتعلمونه، فيجري التغاير على الحروف والأمثال والأسماء، وبها يستدل على كلامه تعالى وأمره ونهيه.

فقوله جل قوله: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ﴾ [التوبة:٦] تنزل منه جل ذكره عن حقيقة ما هو كلامه الذي هو صفة ذاته إلى ما هو مبلغ له ووصف وعبارة عنه، وقد مضى التعارف بتحقيق قولهم متى حكى أحدهم حديث زيد وقول عمر، وقالوا: هذا كلام زيد وقول عمر، وربما طلبوا التحقيق فيقولون: هذا نص كلام زيد، وهذا حكاية قول عمر، وإذ المعلوم أن صفة زيد لم ينتقل عنه إلى من حُكي عنه قوله. وإذا كانت صفة زيد لا تنتقل عنه إلى سواه فصفة الله أعلى وأجل.

فعلى ما تقدم من البيان كلام الله هو الذي نتلوه بقراءتنا ونكتبه في [مضاجعنا][٤]، وهو المسموع منا في تلاوتنا بنص القرآن ودليل العقل، وهذا معترك

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) ما بين [ ] به تقديم وتأخير واختلاف في النسخ.

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «مصاحفنا».

اقتتال أهل السنة مع المعتزلة، والقائلين بخلق القرآن، وفي فهم المعنى فصل الخطاب ﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [التوبة: ١٦ - ٢٢].

قوله جل وعز: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا...﴾ [التوبة:١٦] هذه خاصة من وصف المنافقين وإخوانهم من يهود.

ثم أتبع ذلك بخاصة من وصف أهل المسجد الحرام بقوله جل قوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾[1] [التوبة:١٧] إلى قوله جل قوله: ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَائِزُونَ﴾ [التوبة:٢٠] [إلى قوله:

---

(١) مناسبة هذه الآية لما قبلها: إنه تعالى لما ذكر البراءة من المشركين وأنواعًا من قبائحهم توجب البراءة منهم ذكروا أنهم موصوفون بصفات حميدة توجب انتفاء البراءة، منها: كونهم عامري المسجد الحرام. روي أنه أقبل المهاجرون والأنصار على أسارى بدر يعيرونهم بالشرك، وطفق عليّ يوبخ العباس، فقال الرسول: «واقطيعة الرحم» وأغلظ له في القول، قال العباس: تظهرون مساوئنا وتكتمون محاسننا؟ فقال: أو لكم محاسن؟ قالوا: نعم، ونحن أفضل منكم أجرًا، إنا لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحجيج، ونفك العاني، فأنزل الله هذه الآية ردًّا عليهم. تفسير البحر المحيط (١٢٩/٦).

﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة:٢٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[التوبة: ٢٣ - ٢٤].

لما بلغ الأمر وحل الأجل المعلوم في علمه المقدر بحكمته المعبر عنه بقوله الحق: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة:١٢٥] فحان بحلول نبوتهم أجلهم المسمى قال وقوله الحق: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة:١٧] ومضمره ومحذوفه مع وجود من رفعت لهم قواعده وطهر من أجله.

أتبع ذلك [قوله][٢] جل قوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحَاجِّ وَعِمَارَةَ المَسْجِدِ الحَرَامِ﴾ [التوبة:١٩] ثم أتبع ذلك بوصف متردد بين الفريقين [بين][٣] أهل مكة ومنافقي أهل المدينة وإخوانهم من يهود، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ﴾ [التوبة:٢٣] إلى قوله: ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٤].

﴿ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ

(١) زيادة في النسخة (ق).
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) زيادة في النسخة (ق).

تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٥ - ٢٩].

ثم جعل يعدد نعمه عليهم [أعني المؤمنين](١) بقوله جل قوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ [التوبة:٢٥] إلى قوله: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٢٨].

ثم [أرجع] الخطاب إلى المؤمنين بالله يأمرهم](٢) بجهادهم عدوهم من هؤلاء وهؤلاء: يا أيها الذين آمنوا ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالله وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ هؤلاء المشركون وكفارهم ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ﴾ [التوبة:٢٩] إلى آخر القصة، هؤلاء أهل الكتاب مع [إسراد](٣) منهم في الوصف بأنهم لا يُحرِّمون ما حرم الله ورسوله.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «وصل الخطاب للمؤمنين فأمرهم».

(٣) في النسخة (ق): «اشتراك».

بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ [التوبة: ٣٠ - ٣٤].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ [التوبة:٣٤] وَعْظٌ من الله - جل ذكره - وَعَظَ به عباده المؤمنين أن يتلبسوا بشيء من هذه الصفة القبيحة [التي][1] وصف بها أهل الكتاب، والمراد بالعظة هؤلاء، لكنه [كرمهم][2] عن المواجهة بهذه الرذيلة، فمفهوم هذا أن من قرأ كتاب الله وتعلم العلم المصرف به وجوه الناس إليه فهو ملحق به هذا الوصف.

قال رسول الله ﷺ: «**إنه لا يجد رائحة الجنة، وإن ريحها لتوجد من مسيرة خمسمائة عام**»[3].

ثم قال جل قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [وحذف][4] ها هنا: «منكم» يقوله لرسوله ﷺ: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة:٣٤] يعني: الصنفين معًا قراء السوء والصنف الثاني، فكانت الأولى تعريضًا لهذه الأمة بالنذارة والثانية كناية والمعنيون نحن معشر هذه الأمة. انتهى.

فصل

ذكر بعض الناس أن كل ما أديت زكاته فليس [يكنز][5]، وذهب إلى ذلك

---

(١) سقط من النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «أكرمهم».
(٣) أخرجه الطبري في تهذيب الآثار (١٥٨٢).
(٤) في النسخة (ق): «وحلف».
(٥) في النسخة (ق): «بكنز».

جماعة، والذي تحقق من مجموع ما جاء به الأمر أن في المال حقوقًا لله - جل ذكره - زكاته بعضها، فمن حقوقه سوى الزكاة: إيتاء ذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفكاك الأسير، فالإنفاق في سبيل الله وعون المُفرج دينًا، وأما أداء الزكاة من المال فواجب على صاحبه يرحم ذا الحاجة، ويبدأ بها ثم ينفق ما فضل منه في منافعه، ثم إن فضل شيء فالعود بالفضل [في][1] وجوهه حق عليه، وأما كنزه [ودفنه][2] وقطع حقوق الأفضال منه على ذوي الحاجات العامة للمسلمين، وهو الإنفاق في سبيل الله، والخاصة منها هي [على][3] ما يخص به من أصناف ذوي الحاجات، فوعيد ذلك متوجه على فاعله.

وفي قوله جل قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ الله فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤] أدل دليل وأبين برهان على أن المتوعد عليه هنا ليست الزكاة، ولو كان ما قالوه كما زعموا لكان الكلام: «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا يزكونها فبشرهم» المعنى.

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [التوبة: ٣٥ - ٣٧].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ الله اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا...﴾ المعنى

---

(١) في النسخة (ق): «على».

(٢) في النسخة (ق): «ودفعه».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

[المضمر][(١)] الذي في قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة:٣٦] بالنسيء فهو زيادة في الكفر، كانوا ينسئون الأشهر الحرم [عائدًا على الاثنى عشر شهرًا، وعلى الخصوص على الأربعة الأشهر الحرم؛ أي: يؤجرونها][(٢)] لحاجاتهم في خروجهم وقضاء أوطارهم، وربما كان ذلك منهم ليوافقوا بالأشهر الحرم؛ لانتقالها في السنة أشهرًا ما من الأشهر الشمسية لثبوتها، وكانوا [يحسبونها][(٣)] على زمن الشتاء للمعهود من عسر السفر، وتعذر [التقرب][(٤)] من كنان الأوطان [من][(٥)] البرد والشتاء، ويفرغون سائر السنة [لخروجهم][(٦)] والخروج في أسفارهم، فكانوا يضلون بذلك عن الأشهر الحرم، فيحلون بفعلهم ذلك أشهرًا حرمًا ويحرمون منها ما أحلَّ الله.

﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [التوبة:٣٦] دين الإسلام، أسلمت له السماوات السبع والأرض، [وعلى كل][(٧)] شيء أسلم له، وعلى ذلك فطر كل شيء، وخلق ﷻ يوم خلق السماوات والأرض دون السماء الدنيا اثنا عشر برجًا، لكل برج من السنة شهره يقطع القمر البروج كلها في الشهر إلا موضع التقليب، وهو موضع الزيادة [بالسنة][(٨)] الشمسية على السنة القمرية.

قال الله ﷻ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة:١٨٩] وقال: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ

---

(١) في النسخة (ق): «الضمير».
(٢) في النسخة (ق): «أي: يؤخرونها».
(٣) في النسخة (ق): «يحبسونها».
(٤) في النسخة (ق): «التغرب».
(٥) في النسخة (ق): «زمن».
(٦) في النسخة (ق): «لحروبهم».
(٧) في النسخة (ق): «وكل».
(٨) سقط من النسخة (ق).

تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء:١٢] [[.....][(١)] هناك؛ أي: في الدار الآخرة تفصيلاً][(٢)] وقد تقدم الكلام في المنازل والدوائر من الأفلاك، فأغنى ذلك عن الترداد.

ثم قال جل قوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾[(٣)] [التوبة:٣٦] أي: في الأشهر الحرم وغيرها، [وإنما حرم عليهم القتال أولاً في الأشهر الحرم كما][(٤)] كتب عليهم في طول مدة ما بين إبراهيم وإسماعيل وبين نبوة محمد - عليهم السلام - من التخليط والردة التي ارتدوا فيها، ولما جاء الله ﷻ بالإسلام والخير صرفهم إلى [الأولى][(٥)] وهو حقيقة ملة إبراهيم، ومن أفضل أعمال [العباد][(٦)]: الجهاد في سبيل الله، والأشهر الحرم أولى بذلك الفضل.

ومعنى قوله جل قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة:٣٦] يريد: كما [فعل][(٧)] أولئك من ظلمهم بالنسيء والردة إلى ما كانت عليه [من][(٨)] الجاهلية الأولى التي أرسل إليهم إبراهيم ﵇، وعلى هذا فللأشهر الحرم فضل مراعاة كشهر رمضان، فإن المعاصي لا يرخص في شيء منها في

---

(١) ليس في (ف) وقطع في (غ).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) اختلفوا في تحريم القتال في الأشهر الحرم: هل نسخ أم لا؟ فقال الزهري: هو منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾. وقال عطاء: هو ثابت الحكم، وتحريم القتال فيه باقٍ غير منسوخ، والأول أصح؛ لما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه غزا هوازن بحنين، وثقيفًا بالطائف، وأرسل أبا العاص إلى أوطاس لحرب مَنْ بها من المشركين في بعض الأشهر الحرم، وكانت بيعة الرضوان على قتال قريش في ذي القعدة. النكت والعيون (١/١٥٤).

(٤) في النسخة (ق): «ولما».

(٥) في النسخة (ق): «الأُول».

(٦) في النسخة (ق): «العبادة».

(٧) سقط من النسخة (ق).

(٨) سقط من النسخة (ق).

غيرها من الأشهر، وبخاصة في رمضان بزيادة حرمة كذلك الأشهر الحرم.

ثم قال جل قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦] أي: ارتقبوا النصر على عدوكم، وانتظروا الفتح من الله مع التقوى، وفي الخطاب معنى التهديد؛ أي: إنكم إن لم تلتزموا التقوى أديل عليكم عدوكم، ثم جعل ﷻ يسرد صفات المنافقين ولواذهم عن الطاعة لله جل ذكره والرسول وصفًا بعد وصف، ويحذر منهم، وينهى عن توليهم، ويخبر عن بواطنهم ويصف المؤمنين بصفاتهم، ويسمهم بسماتهم، وفي أثناء ذلك يأمر رسوله بأمره ويتوعد أهل النفاق، ويزجرهم ويعرض بهم إلى آخر السورة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي

رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ
انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا
خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ
وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي
الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ
حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا
وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ
بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم
مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ
﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ
الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا
أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ
﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ
يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي
الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ
رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا
إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ
قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ

لَكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ
لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن
كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ
خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ
تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ
لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾
لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ
كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ
بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ
ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ
جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم
بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ
يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ
مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن
كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ
بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ
وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ
وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ

وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟
وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ
أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ
ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ
وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ
وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ
ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى
ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ
بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟
فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟
يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ
أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ
عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾
وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ
كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ
مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ

تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ
وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ
ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ
عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا
يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ
يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن
تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ
بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ
بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي
قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا
عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُواْ
بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ
ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ
وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ
لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ
لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ
وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ
ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ
لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ

﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: ٣٨ - ١٢٩].

قوله جلَّ من قائل: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾[(١)] [التوبة:١١١] وقوله جلَّ قوله: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:٧٢] هذه بيعة الله جلَّ ذكره لكل مؤمن ومؤمنة، والجهاد جهادان:

جهادًا أكبر: وهو جهاد النفوس دون شهواتها وقمعها في ذات الله جلَّ وعزَّ عن هواها.

وجهاد أصغر: وهو جهاد العدو الظاهر جمع الله الجهادين في قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩] فمن باع من الله جلَّ ثناؤه نفسه وماله فلا رجوع له عن إمضاء [بيعه][(٢)]، وإلا كانت ردة على قدرها، والفرار من العدو الباطن [الذي يجر][(٣)] إلى هوى النفس أشد من الفرار يوم الزحف.

ولاشتراك البيعتين أتبع ذلك قوله الحق: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ﴾ وقيل: هم الصائمون ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ﴾ [التوبة:١١٢].

ثم أتبع ذلك التحذير من الاستغفار للمشركين إكمالاً للبراءة منهم، [والتخير عنهم][(٤)] إلى حزب الله جل ذكره، فانتظم ذلك كله بما تقدم في سورة الأنفال من ولاية وبراءة، ومن تعريض بأوصاف المنافقين إلى غير ذلك من معاني ما تقدم، ثم ذكر الثلاثة المتخلفين في غزوة تبوك وتوبته عليهم، فمن رحمته وجميل توليه ﷻ أنه استفتح قصتهم بذكر توبتهم وأعرض عن ذكر الذي كان منهم من تردد وتلدن أنه

---

(١) نزلت في البيعة الثانية، وهي بيعة العقبة الكبرى، وهي التي أناف فيها رجال الأنصار على السبعين، وكان أصغرهم سنًّا عقبة بن عمرو، وذلك أنهم اجتمعوا مع رسول الله ﷺ عند العقبة، فقالوا: اشترط لك ولربك. والمتكلم بذلك عبد الله بن رواحة، فاشترط ﷺ حمايته مما يحمون منه أنفسهم، واشترط لربه التزام الشريعة وقتال الأحمر والأسود في الدفع عن الحوزة، فقالوا: ما لنا على ذلك؟ قال: الجنة، فقالوا: نعم ربح البيع، لا تقيل ولا نقائل. وفي بعض الروايات: ولا نستقيل، فنزلت. تفسير البحر المحيط (٢٣١/٦).

(٢) في النسخة (ق): «بيعته».

(٣) في النسخة (ق): «تحيزًا».

(٤) في النسخة (ق): «والتحيز».

بهم رءوف رحيم.

ثم أكثر التوصية للمؤمنين بلزوم الصدق فعلاً وقولاً وعقدًا، ثم رغب في الجهاد أحسن ترغيب ووعظ فيه، ورفع ثواب العمل فيه إلى أرفع غاياته، ووصى جدًّا بالإغلاظ على الكافرين، وأخذ الأهبة لقتالهم وإعطاء الجهد في جهادهم، ثم أرجع الخطاب إلى ذم المنافقين بوصف إظلام قلوبهم وحرج صدورهم، فقال جل قوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤] أي: بفضل الله ونعمته عليهم [مزيدة][١] إياهم من فضله، وما يجدونه من حلاوة الإيمان في قلوبهم.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[٢] [التوبة:١٢٥] ثم عدد على المؤمنين [نعمه][٣] برسوله وبأنه منهم رءوفًا بهم عطوفًا عليهم حريصًا على هدايتهم.

ثم واجه بخطابه رسوله ﷺ بقوله جل قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ [أي: عن الاستجابة لك][٤] ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٩] ما دله عليها وجعلها له عودة إلا لأنها [آمنة][٥] من المحذور، وقد قيل: إنما آمنة من الغرق، وهي إن شاء الله عامة [البركة][٦] كما جاءت.

[جاء عن رسول الله ﷺ أنه حذر يومًا بعض أصحابه فتنًا تكون في آخر الزمان، وبالغ في ذلك فقالوا: يا رسول الله، فماذا تأمرنا به إن أدركنا ذلك؟ فقال: «**قولوا:**

---

(١) في النسخة (ق): «بمزيده».

(٢) قالت المعتزلة: لا يجوز أن تكون زيادة المرض من جنس المزيد عليه؛ إذ المزيد عليه هو الكفر، فتأولوا ذلك على أن يحمل المرض على الغم؛ لأنهم كانوا يغتمون بعلو أمر رسول الله ﷺ، أو على منع زيادة الألطاف، أو على ألم القلب، أو على فتور النية في المحاربة؛ لأنهم كانت أولاً قلوبهم قوية على ذلك، أو على أن كفرهم كان يزداد بسبب ازدياد التكليف من الله تعالى. تفسير البحر المحيط (٦٠/١).

(٣) في النسخة (ق): «نعمته».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «مصاحفنا».

(٦) في النسخة (ق): «البركات».

حسبنا الله ونعم الوكيل عليه توكلنا»[1] وكانت هذه الآية مصداقًا لما قاله ﷺ][2]
﴿**وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب: ٤].

(١) أخرجه بنحوه أحمد (١١٧١٤)، وعبد بن حميد (٨٨٦)، وأبو يعلى (١٠٨٤) والترمذي (٢٤٣١) وابن حبان (٨٢٣)، والحاكم (٨٦٧٨)، والحميدي (٧٥٤) وأبو نعيم (١٠٥/٥) وقال: غريب.

(٢) زيادة في النسخة (ق).

تفسير سورة يونس عليه السلام[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

---

(١) هذه السورة مكية إلا ثلاث آيات، فإنها نزلت بالمدينة، وهي ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ إلى آخرهن، قاله ابن عباس، وقال الكلبي: إلا قوله ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به فإنها نزلت في اليهود بالمدينة، وقال قوم: نزل من أولها نحو من أربعين آية بمكة، ونزل باقيها بالمدينة، وقال الحسن وعطاء وجابر: هي مكية وسبب نزولها: أنّ أهل مكة قالوا: لم يجد الله رسولاً إلا يتيم أبي طالب فنزلت، وقال ابن جريج: عجبت قريش أن يبعث رجل منهم فنزلت، وقيل: لما حدثهم عن البعث والمعاد والنشور تعجبوا، ومناسبتها لما قبلها أنه تعالى لما أنزل ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ وذكر تكذيب المنافقين ثم قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ وهو محمد ﷺ أتبع ذلك بذكر الكتاب الذي أنزل، والنبي الذي أرسل، وأن ديدن الضالين وأحد متابعيهم ومشركيهم في التكذيب بالكتب الإلهية وبمن جاء بها، ولما كان ذكر القرآن مقدّمًا على ذكر الرسول في آخر السورة، جاء في أول هذه السورة كذلك فتقدم ذكر الكتاب على ذكر الرسول، وتقدم ما قاله المفسرون في أوائل هذه السورة المفتتحة بحروف المعجم، وذكروا هنا أقوالاً عن المفسرين منها: أنا الله أرى، ومنها أنا الله الرحمن، ومنها أنه يتركب منها ومن حم ومن نون الرحمن، فالراء بعض حروف الرحمن مفرقة، ومنها أنا الرب وغير ذلك، والظاهر أن تلك باقية على موضوعها من استعمالها البعد المشار إليه، فقال مجاهد وقتادة: أشار بتلك إلى الكتب المتقدمة من التوراة والإنجيل والزبور، فيكون الآيات القصص التي وصفت في تلك الكتب، وقال الزجاج: إشارة إلى آيات القرآن التي جرى ذكرها، وقيل: إشارة إلى الكتاب المحكم الذي هو محزون مكتوب عند الله، ومنه نسخ كل كتاب، وقيل: إشارة إلى الراء وأخواتها من حروف المعجم، أي: تلك الحروف المفتتح بها السور وإن قربت ألفاظها فمعانيها بعيدة المنال.

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ [يونس: ١ - ٤].

قوله ﷻ: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ﴾ [يونس:١] [أعلم الله جل ذكره أن ﴿الر﴾ من آيات الكتاب الحكيم][1] يريد وهو أعلم: اللوح المحفوظ كما قال جل قوله: ﴿حم * وَالْكِتَابِ المُبِينِ﴾ [الزخرف:١ - ٢] إلى قوله جل قوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤] وقد تقدم من هذا في صدر الكتاب مرددًا ما يغني عن إعادته إلى أن يفتح الله رحمته.

وروى معقل بن يسار المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «**أعطيت سورة البقرة من الذكر الأول، وأعطيت طه والطواسين من ألواح موسى، وأعطيت فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش، وأعطيت المفصل نافلة**»[2] وهذا موافق لما قدمناه والحمد لله رب العالمين في قوله جل ذكره: ﴿الم * ذَلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:١ - ٢] إن ذلك إشارة إلى اللوح المحفوظ، وإن «الم» واسطة بين حروفه وبين حروف هذا الكتاب.

وفي رواية أخرى: قال رسول الله ﷺ: «**أعطيت مكان التوراة السبع الطول، [وأعطيت مكان الإنجيل المثين، وأعطيت مكان الزبور المثاني]**[3] **وأعطيت فاتحة الكتاب وخواتم سورة البقرة من تحت العرش لم يعطها نبي قبلي، وأعطاني ربي المفصل نافلة**»[4].

وفي أخرى: «**وفضلت بالمفصل**»[5].

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) أخرجه ابن السني مختصرًا (٦٨٩)، والحاكم (٢٠٨٧) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٤٧٨)، والطبراني (٥٢٥).

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) أخرجه البغوي في تفسيره (١/٤١).

(٥) أخرجه بنحوه أحمد (١٧٠٢٣) والطبراني (١٨٦) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٤١٥) والطيالسي (١٠١٢) وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٦٤٨٥).

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب كتابًا قبل أن يخلق السماوات والأرض بألفي عام، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، فلا يقرأن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان»[(١)].

قوله ﷻ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا...﴾ [يونس:٢] العجب يكون على أوجه: منها: [الإيعاد][(٢)] لوجود الشيء والإنكار لكونه، من ذلك قوله جل قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق:٢ - ٣].

وقوله جل قوله حكاية عن رسوله نوح ﵇: ﴿أَو عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف:٦٣].

﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص:٤].

وقد يأتي لإعظام كون الشيء كيف كان هذا مع وجود أضداده، كقول الكفار: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥] وذلك لجهلهم بالحقيقة.

وكقول الله جل ثناؤه: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات:١٢] أي: إنك لتعجب منهم كيف يبعدون ما جئتهم به مع وجوبه؟ كيف يكذبونه مع تحققه؟ وهم يسخرون بك أن جئتهم بما لا تبلغه عقولهم، فيتخرج ذلك عجب حق كيف أنكروا ما هو في [فطرهم][(٣)]، كيف كذبوا بما هم يصدقونه بألسنتهم وأحوال اضطرارهم، وقد قرئ: «بل عجبت ويسخرون» وذلك يكون موجودًا - أعني: معنى التعجب - في قوله جل قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف:٨٧].

فمعنى التعجب هو في قوله: ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي: من أين يصرفون؟ كيف

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٤٣٨)، والدارمي (٣٣٨٧)، والترمذي (٢٨٨٢) وقال: حسن غريب. والنسائي في «الكبرى» (١٠٨٠٣) وابن حبان (٧٨٢) مختصرًا، والحاكم (٣٠٣١) وقال: صحيح على شرط مسلم. والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٤٠٠)، والطبراني في «الأوسط» (١٩٨٨)، والبزار (٣٢٩٦).

(٢) في النسخة (ق): «الإبعاد».

(٣) في النسخة (ق): «نظرهم».

يغلبون عن حقائق الحق وهم يعلمون لكنهم لا يعقلون؟ [فيكون التعجب على هذا من قدرة الله كيف استاقهم إلى هلاكهم بإرادتهم، وكيف استعملهم بهم فيما يضرهم ويوبقهم][1] كما قال جل قوله: ﴿قُلِ الحَمْدُ للهِ﴾ الذي هدانا ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت:٦٣].

وقد يأتي التعجب بمعنى الحب للشيء، ولطف موقعه من نفس المعجب به؛ [أعجبني كلامك وأعجبني ما جئت به ومن هذا النوع من التعجب يكون معنى قول رسول الله ﷺ: «إن الله ليعجب للشاب التائب ليست له صبوة»[2] مع معنى ما تقدم في قوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات:١٢].

ثم قال ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس:٢] هذا خطاب معبر عن الرحب وحسن المآب، ومعنى «قدم صدق»: التقدم يقال: «لفلان قدم في الصالحات» فالقدم [متقول][3] أبدًا في التقدم في الأمور، [كاليد][4] مقولة في النعمة، فمعنى سياق الكلام إن شاء الله وهو أعلم ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [أي][5]: قد تقدم لهم بقوله: «هؤلاء [بعمل][6] أهل الجنة يعملون»[7] وأنذر الكافرين بأنهم قد تقدم لهم بضد ذلك حتى بلغ من إنكارهم وإبعادهم هذا الأمر أن قالوا: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس:٢] ويقرأ: «إن هذا لسحر مبين» هذا من فضل النبوة والرسالة.

ثم يسرد عليه من فضل الألوهية والربوبية بمعنى الوحدانية، والإعلام بالإعادة بعد البداية، والعمل في الحكم عاجلاً وآجلاً بين الفريقين في الدارين، والتنبيه على

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) أخرجه أحمد (١٧٤٠٩) والطبراني (٨٥٣) وأبو يعلى (١٧٤٩) وابن أبي عاصم في «السنة» (٥٧١).

(٣) في النسخة (ق): «مقول».

(٤) في النسخة (ق): «كما اليد».

(٥) في النسخة (ق): «أن».

(٦) في النسخة (ق): «للجنة وبعمل».

(٧) تقدم تخريجه.

العبرة من موجودات الدنيا إلى موجودات الآخرة، [وسبيل](١) حكمته في ذلك بقوله جل قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [يونس:٣] إلى قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس:٤] لما كان اسمه ﷻ هو المفطور على معرفته من كل شيء، [ولزوم الوله النفوس به](٢) والألسنة اللهج بذكره؛ ذلك لأنه الأول والآخر والظاهر والباطن بحقيقة هذه الأركان، وهو الذي لا أحق منه حقيقة، ولا أكرم وجودًا حضورًا وشهادة وقربًا.

وعلى مقدار وجود المعارف يكون وجود أضدادها، أوجد ﷻ لهذا التيقظ من المخلوق لكريم هذا الظهور نومة عنه، وغفلة عن تذكره، وغيبة عن مشاهدته، ثم أنشأ ذلك في حق البعض حتى غلظ الحجاب وأعضل الداء، ولأنهم جبلوا على الفقر وخُلقوا [بفرق](٣) طلبوا منافعهم التي دفعتهم [لها](٤) ضرورة الفاقة، ولاختلافهم في أولية الاصطفاء ومقتضى المشيئة فيهم اختلفوا في تطالبهم ذلك، وعند من يطلبونها، وكيف [يمتثلون ذلك، وبطلبهم](٥) إياها نسبوها إلى من ليس بولي لها، [وسألوها](٦) من لا يملكها، واستنصروا واستدفعوا مضارهم بمن ليس إليه دفعها [فتعبدوا](٧) للأسباب وأسباب الأسباب عندما رأوا أن الله جل ذكره قد جعلها [ظرفًا](٨) لمقاديره وخزائن لأنعمه، وطلبوا الشفاء لحوائجهم، وتوسلوا إلى موجدها جل وتعالى بمن لا يملك لهم ضرًا ولا نفعًا.

ثم قصرت عقولهم عليها فدانوا لها وأشركوا بها [لما](٩) لم يرتقوا في

---

(١) في النسخة (ق): «ومثل في».
(٢) في النسخة (ق): «ولزم النفوس الوله به».
(٣) في النسخة (ق): «للرق».
(٤) في النسخة (ق): «إليها».
(٥) في النسخة (ق): «يسلون ذلك ويطلبهم».
(٦) في النسخة (ق): «وسلوها».
(٧) زيادة في النسخة (ق).
(٨) في النسخة (ق): «طرقًا».
(٩) سقط من النسخة (ق).

الأسباب إلى [منشئها][١] ولا عَبَروا من الموجودات إلى موجدها، فأعلاهم عند أنفسهم مرتبة أضلهم [سبيلاً][٢] عن هدايته، وأعدمهم فيما [جادلوا][٣] دليلاً على مطلوبه، فعبدوا الشمس والقمر والنجوم والنار والملائكة والجن والأكابر منهم، ومنهم من يشفع إلى بعض هؤلاء المذكورين بالشجر والحجارة والخشب المنحوتة إلى غير ذلك من ضلالهم، نعوذ بالله من الضلال عن الهدى.

ألا تسمع إلى قول قائد المعتبرين وإمام المتقين، خليل الرحمن - صلوات الله وسلامه عليه - كيف قررهم على ضلالهم فطفق [يتقيد][٤] على [وضعهم للأصغر ثم للأكبر منه، ثم للأكبر منهما][٥] في كل ذلك يريهم استحالة ما ظنوه عندها، ولما فرغ من ذلك قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٧٩].

وإنما جعل الله ﷻ هذه [الفرطة][٦] في النفوس لترجع إليها عند جورها عن [سواء][٧] قصدها وبثها في السماوات والأرض، وأوجدها في جميع الموجودات؛ لتأتم العقول بها في مهامة التوهم، وتستنير بنورها في الظلمات، وتقتدي بمعارفها في [مضائق][٨] المشكلات حال تطوافها في أسفار أفكارها، وترجع إلى حقيقتها [إلى][٩] مجاهل جهالاتها، والله عليم حكيم.

والرب جل ذكره هو المنعم، يرب نعمه على المنعم عليهم، وهو المالك بوجه أيضًا، فقال الله جل ذكره لهؤلاء ينبههم من نومتهم، ويرشدهم إلى الحق عن ضلالهم: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى

---

(١) في النسخة (ق): «مسببها».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «حاوله».

(٤) في النسخة (ق): «يتعبد».

(٥) في النسخة (ق): «وضعهم الأصغر ثو للأكبر منهما».

(٦) في النسخة (ق): «الفطرة».

(٧) في النسخة (ق): «سوء».

(٨) في النسخة (ق): «أضيق».

(٩) في النسخة (ق): «في».

العَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ [يونس:٣] [وقوله][1]: ﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ هو خالقهن وموجدهن وممسكهن، وبه قيامهن، وهو المدبر للأمر كله فيهن وفي سواهن ﴿بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون:٨٨].

وهو رب كل شيء [وهو][2] المالك لكل موجود ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:٢٥٥] ومن ذا الذي يملك دونه دفعًا أو نفعًا أو موتًا أو حياة أو نشورًا، يعلمهم جل وعز بما علمه في [فطرتهم][3]؛ ليرجعوا عن ضلالتهم إلى هدايتهم الأولى ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون:٨٤ - ٨٥] فأمرهم جل وتعالى أن يتذكروا ما نسوه مما استقر علمه في جدر قلوبهم.

ثم قال جل قوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ * سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون:٨٦ - ٨٧].

ثم قال عز من قائل: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨ - ٨٩] [يقول][4] كيف تذهلون عن هذه الحقائق وتؤفكون عن حاصل هذا العلم؟

ثم قال عز من قائل: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس:٣] أي: إلى ما هو مستقر علمه في بواطنكم مركب عنه ظواهركم.

ثم قال جل قوله متوعدًا لمن كفر به، ومبشرًا لمن أطاعه ومعلمًا لهم ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ لفصل القضاء وعدل الحكم ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ [يونس:٤].

لما آمن المؤمنون بالدار الآخرة، وعَبَروا من موجودات هذه الدار إلى موجودات تلك، فعبروا من كواكبها إلى مكوكبها، ومن نور هذه إلى منورها، ومن

---

(١) في النسخة (ق): «فمن له».

(٢) في النسخة (ق): «في».

(٣) في النسخة (ق): «فطرهم».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

حق ما [ها][١] هنا إلى ما تحقق ذلك في موجودات ما هناك عن الحق المبين بخلع الأواسط وطرح الأسباب كان إدخاله إياهم الجنة وإعطاؤه إياهم جميع ما هنالك [على قسط][٢] وجزاءً وفاقًا ولما أن كان الكافرون به عندوا عن هذا الحق، ونكصوا عن الإقرار به أبعدهم عن جواره][٣] [لقولهم: فأدخلهم][٤] جهنم التي كانوا [يعدون في نفسيها ويرجون][٥] وهم مع ذلك بوجودها لا يؤمنون، ويتقلبون في فيحها ويترددون، وهم بحقيقتها لا يشعرون، بل هم إذا أخبروا عنها هم بها [كافرون][٦]؛ لذلك قال عز من قائل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾[٧] [يونس: ٤].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦) إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨)﴾ [يونس: ٥ - ٨].

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «عطاءً قسطًا».

(٣) ما بين [ ] به تقديم وتأخير بين النسخ.

(٤) في النسخة (ق): «وأدخلهم».

(٥) في النسخة (ق): «يغدون في نفسيها ويروحون».

(٦) في النسخة (ق): «يكفرون».

(٧) معناه: ويجزي الذين كفروا بشراب من ماء جار وقد انتهى حره، وعذاب أليم بسبب كفرهم. فيظهر التقابل بين سببي جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين مع أنه لا وجه لتخصيص العدل بجزاء المؤمنين، بل جزاء الآخرين أولى به كما لا يخفى، وتكرير الإسناد بجعل الجملة الظرفية خبرًا للموصول؛ لتقوية الحكم، والجمع بين صيغتي الماضي والمضارع؛ للدلالة على مواظبتهم على الكفر، وتغيير النظم الكريم للمبالغة في استحقاقهم العقاب بجعله حقًّا مقررًا لهم، والإيذان بأن التعذيب بمعزل عن الانتظام في سلك العلة الغائية للإعادة بناء على تعلق؛ ليجزي بها أولها وإنما المنتظم في ذلك السلك هو الإثابة فهي المقصود بالذات. والعقاب واقع بالعرض. [الألوسي (٧/٤٣٠)].

قوله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ إلى قوله: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٥] أضاف جل وتعالى الضياء للشمس والنور للقمر، والضياء هنا هنا للحر واليبس كما النور للرطوبة والبرد، أقام الله - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - بهذين النوعين من أمره [دار][(١)] الدنيا، فالقمر يبرد ويرطب بإذن الله ما تيبسه الشمس [ويحمي فحرها][(٢)] وقد جعل الله ﷻ وله الحمد في فصل الشتاء للشمس دولاً يصلح الله ﷻ بها زيادة الماء والبرد، وقال جل قوله في القمر: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس:٣٩].

وقال جل قوله في هذه: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ ثم قال عز من قائل: ﴿مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [يونس:٥] يقول جل من قائل: دلالات وآيات على وجود ما هنالك، وليتم بذلك أمره لا ليُعبد شيء من ذلك.

فصل

الحق اسم واقع على معارف كثيرة، فالحق هو الله جل ذكره، وهو الحق المبين؛ أي: المبين لهذا الحق [المبثوث][(٣)] فيما خلقه، فالحق أسماؤه والحق صفاته، والحق أمره ونهيه، [ويعمل][(٤)] بمقتضى ذلك، والحق حكمه وعدله [وفصله][(٥)] والحق الموت وما بعده، والحق البعث بعد الموت، والحق الحشر [والنشر والحق بقاء][(٦)] الله، والحق الحساب، والصراط والميزان والحوض والشفاعة.

وبالجملة: فالحق خلقه، والحق أمره وفعله وقدره إلى آخر الشهادات، وإحاطة هذه المذكورات من أوصاف الحق، [ولما][(٧)] لم نذكره منها كالوجود كله علوًّا

(١) في النسخة (ق): «في».
(٢) في النسخة (ق): «ويحتمي بحرها».
(٣) في النسخة (ق): «المثبوت».
(٤) في النسخة (ق): «والعمل».
(٥) في النسخة (ق): «وفضله».
(٦) في النسخة (ق): «والنشور والحق لقاء».
(٧) في النسخة (ق): «وما».

وسفلاً كإحاطة الحياة بالحي وأسلكه بأنواعه ومختلف معانيه كلها في الموجودات كسلوك الأرواح في الأجسام، وقسمه في مسالك وجودها تقسيم الأغذية في [المغذيات][(١)] بل هو أكرم مسلكًا وأعم وجودًا، وتمثل في اعتبارك بذرة من البذور أي بذرة كانت، وخص منها بذرة الخردلة مثلاً أنبتها الله تعالى على صغرها ودقتها، وقد وقفت بمشاهده على حرارتها ولونها وشكلها وصورتها [وطعمها][(٢)] ورائحتها ومعانيها كلها [أو جلها][(٣)] وجميع أوصافها التي استوجبت لأجلها وقوع اسم الخردلة عليها، [فينسيها][(٤)] الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه حتى يبلغها [إلى][(٥)] أن تكون شجرة قائمة لها عروق، وللعروق عروق إلى أقصى ذلك، ولها أصل يجتمع إليها ما يصعد من أسفلها، وينقسم منها إلى أعلاها، ولذلك الأصل فروع، [وللفروع فروع][(٦)] وللفروع أفنان، وللأفنان أفنان وورق وزهر بما يتبع ذلك كله.

أليس من الحق المقطوع بوجوده أن الله جل ذكره قد أسلك في تلك الشجرة طعم تلك البذرة ويبسها وحرارتها ونفعها وضرها وجميع معانيها التي أوجدها له ظاهرًا، وقسمه باطنًا أبطنه فيها ليظهره، فكذلك هذا الحق الذي نحن بسبيل تبيانه.

وكذلك [يحق][(٧)] على العقل أن يقطع، والإيمان أن يصدق بما [أراه][(٨)] الله جل ذكره حال نظره إلى البذرة يقضي أن تلك الشجرة بعروقها وعروق عروقها إلى أقصاها، وما أعلى منها بأفنانها وأفنان أفنانها إلى أعلاها، وزهرها [بانقسام ما حصل][(٩)] في البذرة من كل معنى [بقوله: أفيعلم][(١٠)] بذلك أن الشجرة متوهمة في

---

(١) في النسخة (ق): «المتغذيات».
(٢) في النسخة (ق): «وطبعها».
(٣) زيادة في النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «فينشئها».
(٥) سقط من النسخة (ق).
(٦) سقط من النسخة (ق).
(٧) في النسخة (ق): «فحق».
(٨) في النسخة (ق): «أراده».
(٩) في النسخة (ق): «بأقسام ما انحصر».
(١٠) في النسخة (ق): «هو لها فيعلم».

تلك البذرة، وعلى هذا [تعلم أن][١] الآخرة من الدنيا، ثم يرجع بصره عودًا بعد بدء، فيعلم [ما في][٢] الدنيا من الآخرة، ثم يرجع البصر كرة ثانية [فيعرف][٣] بكل وجود هو في الدنيا موجودات الآخرة، فإن الدنيا هي [مفصولة][٤] من الآخرة، وهذه هي [المشاهدة لها][٥].

وعلى هذا فالشجرة بما حوته في هذا المثل هي الدار الوسطى، [وإن][٦] الدنيا هي البذرة بما [انحشر][٧] فيها وما انقسمت إليه، وأول ما خلق الله جل وعز الدنيا لم يسبق البذور، وإنما خلق الشجر والنبات، ثم عن ذلك أوجد البذر عن الشجر، كذلك الدنيا منتزعة عن الآخرة، [فالدنيا بما هي الشجرة وكل حي فيها بمنزلة البذور، فإذا ماتوا صاروا بمنزلة الشجر الذي يكون عنها البذر، ثم إذا بعثوا بمنزلة البذرة.

يقول الله جل من قائل: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة:٦٠ - ٦١] وليس القول بأن يكون الميت في الدار الوسطى شجرة، إنما هو مثل مضروب على منزلة الشجرة من الحبة، ومنزلة الحبة من الشجرة، فافهم][٨].

ثم تعلم بذلك أن معاني أسماء الموجد جل ذكره ونعوت صفاته العلا وموجودات الدنيا والآخرة [وآياتهما][٩] فيهما جارية في المخلوقات كجريان الماء بما احتمله من أوصاف تلك البذرة [باطنًا][١٠] في إنشاء تلك الشجرة؛ إذ بذلك الماء

---

(١) في النسخة (ق): «يُعلم».
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «فيتعرف».
(٤) في النسخة (ق): «المفصولة».
(٥) في النسخة (ق): «المشاهد لنا».
(٦) سقط من النسخة (ق).
(٧) في النسخة (ق): «انحسر».
(٨) زيادة في النسخة (ق).
(٩) في النسخة (ق): «وآياته».
(١٠) زيادة في النسخة (ق).

أنشأها منشئها جل وعز، وبه غذاها، وبه أكملها، وهو الأول فيها والآخر والظاهر والباطن.

ثم توهم كما أنت في حال اعتبارك هذا إن معاني الأسماء والصفات العلا من مقتضياتها [هي][(١)] التي قامت بجملة العالم علوه وسفله ظاهره وباطنه مقام البذرة، فإن الشجرة هي جملة العالم كله قد أجرى الله ﷻ فيها الحق جريان الماء في الشجر، ثم اعلم أنه قد بقي عليك أن تفصل بوهمك موجودات الآخرة وتمييزها من موجودات الدنيا، وتتعرف تلك [بما ها هنا][(٢)] معلومًا فيما هنالك بمعلوم [ما ها هنا]، فإن الله جل ثناؤه قبض هذه عن تلك، وبسط تلك عن أوصاف هذه، لكن بعد أن ميز خيرها من شرها، ولذيذها من [مكروهها][(٣)] وطيبها من خبيثها، فجعل هذا في دار النعيم، [وجعل هذا][(٤)] في دار الجحيم، نسأل الله الرحيم رحمته، ونعوذ به من عذابه وغضبه.[وعلى معتقد المزيد فيما هنالك الذي عبر عنه قوله الحق ﷻ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]][(٥)].

يقول الله - عز من قائل - وقد وصف الماء: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان:٥٠] هذا في النبات وما تحته من عالم الجماد، [وفي][(٦)] الحيوان أظهر، ثم في الإنسان أوضح وأشرح، وفيه بدا ما هو [آية على][(٧)] المعنى بقوله الحق: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ [يونس:٣] إلى قوله جل قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤] المعنى [إلى آخره][(٨)] فافهم وتفطن فإنه الحق، فهمنا الله وإياك عنه.

---

(١) زيادة في النسخة (ق).
(٢) في النسخة (ق): «مما هنا».
(٣) في النسخة (ق): «كريهها».
(٤) في النسخة (ق): «وهذا».
(٥) زيادة في النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «وهو في».
(٧) سقط من النسخة (ق).
(٨) في النسخة (ق): «حيث وقع».

واسمه الله - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - بما هو الله حضر فشهد ما غاب، ولا يغيب عنه غائب حضر ما نأى وما دنا وقرب، فسمع السر وأخفى، فهو لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أكبر من ذلك ولا أدنى، جميع الأسماء له شارحة، ولمعانيه مفسرة ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة:٢٥٥] هو أول ما أظهر من أسمائه، ففطر على معرفته جميع مخلوقاته، وأجرى مقتضياته في جميع ما فطر جريان الماء في العود الناضر، [وأحله][1] في جميع ما أوجده سلوك الأرواح في الأجسام، وأحله في كل ما أوجده حلول الحياة في الأحياء، فهو الذي لا [يمشي][2] ولا يُرى، وكل شيء منه ملأ [يتضمن][3] جميع العالم، وانحصرت إليه جميع غرائبه؛ إذ جميع الأسماء يجمعها اسم الألوهية، وجميع الأسماء تجمعت في الصفات، والصفات يجمعها اسم الألوهية، وتضمن ذلك كله تعريفًا هذا الاسم العظيم الذي لم يسعه أرض ولا سماء ولا كرسي ولا عرش، ووسعته بالمشيئة، ولزمت الأسماء مراتبها، وسلكت في جميع العالم مسالكها.

واعلم أن اسم الألوهية غير متكثر ولا منقسم، فهو الله، وهو الرحمن، وهو الرحيم، هكذا إلى جميع ما تسمى به هو هو هو، فكثرت الأسماء للإفهام والمسمى [بهذا][4] واحد، والمطلوب معرفته بها وبسواها واحد أحد صمد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] هو حامل الكل تدبيرًا وقيامًا عليه، ومنه الكل خلقًا وأمرًا، وإليه يرجع الكل بكل وجه وبكل معنى ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤] شاهد ما ذكرناه في الآيات في آخر سورة الحشر، وتردد في القرآن العزيز فقرب على متأمليه، وتيسر وجوده على طالبيه.

يقول الله جل قوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧].

ألا تسمعه يقول جل من قائل: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى

(١) في النسخة (ق): «وأسلكه».

(٢) في النسخة (ق): «يُحس».

(٣) في النسخة (ق): «تضمن».

(٤) في النسخة (ق): «بها».

العَرْشِ﴾ [الحديد:٣ - ٤] إلى آخر الآيات.

هذا [وإليك][١] النص المرفوع في البيان إلى [رفع][٢] غاياته، فتسمَّع وتقرَّب وتفرَّغ كي تُنادى من [كل][٣] قريب.

ولما استوى على العرش المحيط حييت الجملة به؛ لأنه الحي القيوم، وأشاع في الجملة روح الأمر، وقد تقدم إلى هذا إلماع يشير بذوي الألباب والنُّهى إلى المطلوب [العلي][٤] الأعلى.

روى ابن عباس عن عثمان بن عفان - رضي الله عنهما - أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:١] فقال: هو اسم من أسماء الله، وما بينه وبين اسم الله الأكبر - أو قال: الاسم الأكبر - إلا كما بين سواد العينين وبياضهما من القرب، وفي قوله: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] شفاء لمن استشفى؛ إذ قد حصر الحمد كله لله، وقد تقدم وصفه، والذي هو رب العالمين كأن قائلاً قال: من الله الذي له الحمد كله؟ قال: هو رب العالمين، ثم [إنه][٥] قال: ومن رب العالمين؟ قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣] ثم كأن قائلاً قال: من الرحمن الرحيم؟ قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] له الجزاء في الدنيا والآخرة، وله تعبد الكل وقنت كل شيء.

وفي شرح قوله: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣] علم عظيم لمن بحث ونظر وردد التذكار [والتفكير فسيفتح][٦] عليه في معرفة الجزئيات وانقسام الكليات، وقيام الحي القيوم بالمخلوقات، ولا يبلغ إلى ذلك إلا من نبذ الشواغل ورفض الشهوات وتفرغ وأطاع الله جل ذكره واتقاه.

---

(١) في النسخة (ق): «وأبيك».
(٢) زيادة في النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «مكان».
(٤) زيادة في النسخة (ق).
(٥) في النسخة (ق): «كأنه».
(٦) في النسخة (ق): «والتفكر فيستفتح».

فصل

قد تقدم ذكر جملة من رفيع العلم، وإشارة إلى استنان [سبيل][(١)] الاعتبار وأن بالوقوف على معرفة الأسماء، والبحث عن سلوكها مسالكها من العالم يوقف على تفصيل [جملة][(٢)] ما أنبأنا به في كتابه العزيز، وإن ذلك لا يطمع فيه إلا بلزوم التقوى، وتقديم صحيح الإيمان، وإطراح الحول والقوة، ونبذ الحرص على حسن الثناء، بل ملازمة الخمول والتواضع والإزراء على النفس؛ [إذ هو][(٣)] نوع من العلم لا [تسومه][(٤)] النفوس من ذاتها، ولا تشعر به ولا تعرفه إلا بهداية وتوفيق وإشعار وإلهام إلى ما هو الصواب، فأنى للنفس مطمع في منال منزلة بذلك وحرص في مدح من أجله ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ...﴾ [آل عمران:١٨٨] ثم ما بعد هذا بالمجاورة.

فصل

ربما رُمنا شيئًا من تعرف التفصيل تدريبًا للنفس واستصحابًا للتذكر واستدامة للتفكر، وإنما حملنا على إثباته في كتاب وزمّه [هي][(٥)] في زمام توقعًا لحال [الكرم][(٦)] فعلى قربها [منا][(٧)] التي هي أم النسيان، ومعالجة الإشغال الذي هو معدن تعطيل العقل وعذاب الروح، واغتنامًا لصحة الجسم قبل سقمه؛ إذ بذلك يسقم الذهن وتضعف صفات الباطن.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ

---

(١) في النسخة (ق): «سبل».
(٢) في النسخة (ق): «جمل».
(٣) في النسخة (ق): «وهو».
(٤) في النسخة (ق): «تسأمه».
(٥) سقط من النسخة (ق).
(٦) في النسخة (ق): «الكبرة».
(٧) زيادة في النسخة (ق).

اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ [يونس:٣] إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ [يونس:٧] المعنى إلى آخره هنا وفي سائر القرآن كقوله جل قوله: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ [النحل:١٢] وقوله جل قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت:٣٧] ما حكاه عن خليله ﵇ قائد المعتبرين وإمام المتقين، فإنه تبرأ من الكوكب والقمر والشمس لأجل الأفول، وإنه توجه بوجهه ظاهرًا وباطنًا لمن لا أفول له ولا فقد يعروه.

وقال الله ﷻ ووصف الجنة وأهلها: ﴿لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلاَ زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان:١٣].

وقال جل قوله: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ١ - ٢].

وقال جل قوله: ﴿وَخَسَفَ القَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ المَفَرُّ﴾ [القيامة: ٨-١٠].

[ويقول الله جل من قائل][١]: «**لتتبع كل أمة ما كانت تعبد**» قال: «**فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ومن كان يعبد القمر القمر**»[٢].

وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨].

وقال ﷺ: «**ليس عند ربكم ليل ولا نهار**»[٣] [وصلوات الله وسلامه عليه لما عندنا][٤] الليل والنهار آية عليه. انتهى.

وقال الله جل من قائل ووصف الجنة وأهلها: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:٦٢].

وذكر رسول الله ﷺ أن فيها أيامًا، وأن يوم الجمعة الزيارة.

قال جبريل ﵇: «ونحن ندعوه يوم القيامة يوم المزيد» وساق الحديث.

وقال رسول الله ﷺ: «**نحن الآخرون السابقون**» وفيه: «**فهذا يومهم الذي**

---

(١) في النسخة (ق): «وقال رسول الله ﷺ».

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه بنحوه البزار(٢٨٨١).

(٤) في النسخة (ق): «إنما عنده ما».

أضلوه هدانا الله إليه، فاليهود والنصارى لنا فيه تبع، اليهود غدًا والنصارى بعد غد»(١) فأخبر بصدق قيله أن للمهتدين من اليهود والنصارى يومين يختصون بهما.

[قوله](٢): نختص نحن بيوم الجمعة، وإن ذينك اليومين السبت والأحد، ولا يبعد [أن تأتي](٣) أيام الجمعة لغير أهل الكتاب من مهتدي الأمم.

قال الله عز من قائل: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ...﴾ [الأعراف:١٨١] وقد تقدم الكلام في ذلك.

قال الله عز من قائل: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤] فخلق الله هذه الدار [الدنيا سماواتها وأراضيها](٤) وما فيهن وما بينهن بالحق، وقد تقدم الكلام في [شرح قوله](٥) الحق المخلوق به السماوات والأرض [وأنه به كلم عقول عباده وبه ظهر للبصائر وبه استشهد وإلى تعرفه دعا عباده بالنظر في آيات السماوات والأرض](٦) من أجله خلق التذكر والتفكر والتدبر، وأوجب النظر والاعتبار، وهو باطن الحق المخلوق به موجودات الدار الآخرة، وظاهره هو الذي في الآخرة بالإضافة إلى أهل الآخرة، وهذا الحق قد حجبه بالوسائط والأسباب، وظواهر المخلوقات حجب الصنعة في المصنوع، وإخفاء القدرة في المقدور، وذلك لعلة الابتلاء بالإيمان بالغيب، فأما في الجنة فهو الحق المبين لا أفول ولا فقد يرونه كما يرون الشمس صحوًا لا سحاب دونها، وكما يرون القمر ليلة البدر.

وقد أظهر من هذا الحق المخلوق به العالم أمره في الشمس والقمر والنجوم كما أبطنه في تسبيح الخلائق إياه وتعبدها له وقنوتها وخشوعها وخشيتها وبكائها،

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) في النسخة (ق): «كما».
(٣) في النسخة (ق): «أيضًا أن في باقي».
(٤) في النسخة (ق): «سماواتها وأرضوها».
(٥) زيادة في النسخة (ق).
(٦) زيادة في النسخة (ق).

ومعرفتها له بشهاداتها، وذكرها إلى غير ذلك مما [قد][(١)] تقدم صدر من ذكره في مواضع دفعت الحاجة إلى التعريف به، ثم ما أبطنه [من][(٢)] فيح جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - وفتحه برحمته في الماء والرياح المبشرات الملقحات إلى غير ذلك، وإن كان قد ظهر فيما هذا سبيله للعيان.

وإنما [خذلت][(٣)] العقول من معرفة ما ها هنا [لفعله][(٤)] فاستولت من أجل ذلك عليها البلدة حتى أعمت الأبصار وأغشت البصائر وأصمَّت الأسماع، وذهبت بالحياة وجلبت الموت بوصف الأكثرين من أجل ذلك [كما][(٥)] قال عز قوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١].

﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:٢١].

فصل

جعل الله جل ذكره ملكوت هذه الدار في تعاقب نفسيَّ جهنم، وفتح رحمته بالماء إلى غير ذلك من رياح وسحاب وهواء وتراب [وثراء][(٦)] وشمس وقمر ونجوم، فكل الملائكة - عليهم السلام - يعملون في ذلك بأمره وإذنه وعونه، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، فجميع ثمار الدنيا وزروعها ونباتها وحيوانها ومنافعها ومضارها [وسقائها وريها][(٧)] وسقمها وصحتها وجميع شؤونها من جهة الأمر فيما جعله في هذا الحق المبثوث مما أظهر منه كالشمس والقمر والنجوم وما تقدم ذكره وما أبطن منه، فإذا أذن ﷻ بالانقراض لهذه والإزالة لتلك جلا الحق الظاهر فيما هنالك.

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «في».

(٣) في النسخة (ق): «عدلت».

(٤) في النسخة (ق): «بالغفلة».

(٥) في النسخة (ق): «بما».

(٦) زيادة في النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «وشقائها وبلائها».

[وكذلك][1] هو الحق المبين؛ أي: المبين بهذا الحق الظاهر والباطن، وكان ملكوت ما هنالك عن [ذا][2] الحق القريب المشهود المتجلي، وقد كان قبل هذه الدار محجوبًا بالوسائط والأسباب والغفلة والصرف عنه؛ [ليتم][3] كلمته في قوله جل قوله: «**وهؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**»[4].

وقد كان أهل هذه الدار في غربة وغيبة وحجب، ومن هذه [المقال][5] قال القائل:

أنـــا فـــي الغـــربة أبكـــي ... مـــا بكـــت عـــين غـــريب

لـــم أكـــن يـــوم خروجـــي ... مـــن بـــلادي بمـــصيب

عجـــبًا لـــي ولتركـــي ... وطـــنًا فـــيه حبيبـــي

وهذه الدار مطبوعة مجبولة عن [عز رحمته][6] ممتزج بجزء عذاب، غير أنه كان قد سبق رحمته في هذه، لكن مع ما تقدم ذكره من حال الغيبة والبعد والحجب قال رسول الله ﷺ وقد أنبأ عن مسراه: «**لما هبطنا السماء الدنيا إذا برهج ودخان وأصوات، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذه الشياطين تحرق على قلوب بني آدم** - أو قال: «**عقول بني آدم**» - **لئلا يتفكروا في ملكوت السماوات، ولولا ذلك لرأوا** [**العجائب**][7]»[8] وإن كان وله الحمد قد غلب رحمته على غضبه لولا ذلك لكان الأمر أشد وأفظع.

---

(١) في النسخة (ق): «وكان».

(٢) في النسخة (ق): «ذلك».

(٣) في النسخة (ق): «لتتميم».

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) في النسخة (ق): «الحال».

(٦) في النسخة (ق): «جزء من رحمته».

(٧) في النسخة (ق): «الأعاجيب».

(٨) أخرجه أحمد (٨٨٧٢)، وابن أبي شيبة (٣٦٥٧٤).

فصل

يقول الله جل من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [يونس:٥] فلذلك الحق المتصل بالحق المبين ﷻ ضياءً ونورًا، الضياء هو في مدة [ما](١) النهار عليه هنا آية، والنور هو في مدة ما هو الليل فيما ها هنا عليه آية، فهو جل وعلا يولج الضياء في النور ويولج النور في الضياء، فيكون [عن](٢) ذلك ما هو زيادة النهار وقصر الليل، وزيادة الليل وقصر النهار عليه آية ويغشى النور الضياء ويسلخ الضياء عن النور فيكون عن ذلك فيما هنالك ما هو وجود النهار والليل والإصباح والإمساء والغشيان [آية](٣) فيما ها هنا.

أما النهار فقد كان [على ما](٤) ها هنا آية على الهدى وعلى الإله الحق - جل وتعالى - وعلى الحياة بعد الموت، وعلى وجود الجنة، وهذا كله قد تقضى وقد تجلت الجنة، وأما الليل فقد كان فيما ها هنا آية على آلهة باطلة، وعلى الكفر والجهل، وعلى الموت، وعلى وجود جهنم، وهذا كله موجود في النار، فليس فيما هنالك ليل ولا نهار، إنما هو الضياء والنور، يولج جل وتعالى هذا في هذا وهذا [في هذا](٥) دون فقد ولا أفول، ويكون عن ذلك فيما هنالك ما هي الأربعة الفصول: الصيف والخريف والشتاء والربيع عليه آية.

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت:٩ - ١٠].

وقال رسول الله ﷺ: «**جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة**

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «عند».

(٣) في النسخة (ق): «آيات».

(٤) في النسخة (ق): «فيما».

(٥) سقط من النسخة (ق).

آنيتهما وما فيهما» ثم قال ﷺ: «**وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**»[١].

والكبير من أسمائه، [والكثير][٢] من صفاته سبحانه وله الحمد، وبمفهوم ما تقدم ذكره فيما ها هنا وفيما هنالك يعلمون في تلك الدار الآخرة الأيام والشهور والسنين والحساب، وانقضاء الآماد، وتعاقب الدهور التي فيما هنالك ينوب مناب الأزمنة ليس فيما هنالك زمان لعدم الشمس والقمر والنجوم [يعملون إنما هو الدهر، والزمان][٣] مدة دوران الكواكب، والدهر مدة فعل الله سبحانه وله الحمد.

وأما الرؤية العلية: فإنه تبارك وتعالى لا يبدو لعباده بمرأى واحد مرتين إن ذلك اختلاف الليل والنهار، وكون الشمس والقمر اليوم في مطلع ومغرب لا يكون فيه غدًا، وما تكون فيه بالغد لا تكون فيه بعده، كذلك القمر والنجوم، وكذلك من آيات هذا تقليبه الليل والنهار.

يقول نوح عليه السلام [لقومه][٤]: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لله وَقَارًا﴾ [نوح:١٣] أي: [لنا][٥] والوقار عبارة عن تقليبه الرؤية [وما يكون فيما هنالك من عظيم شأن وكريم لقاء وظهور ما لا تحسن العقول الآن وصفه ولا توهمه][٦].

ثم قال: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح:١٤].

جاء: «**إن إبراهيم عليه السلام لما رأى الشيب قال: ربِ ما هذا؟ قال جل قوله: وقار يا إبراهيم. قال: ربِ زدني وقارًا**»[٧] لما قلبه من سواد الشعر إلى بياضه، ومن حد الصِبا إلى ما يعبر عنه بالكبر عبر عن ذلك بالوقار.

ثم قال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) في النسخة (ق): «والكبرياء».

(٣) في النسخة (ق): «وإنما الدهر إذ الزمان».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «لقاء».

(٦) زيادة في النسخة (ق).

(٧) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١٢٥٠) ومالك (١٦٧٧) والبيهقي في «الشعب» (٦١٢١).

وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح:١٥ - ١٦] أي: على نحو هذا [من التقليب والظهور. فافهم فهَّمنا الله وإياك عنه بمنِّه ورحمته مصداق][١] ما تقدم ذكره.

قوله جل قوله: ﴿مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ هنا على ما هي فيما هنالك آيات ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٥].

ثم سرد جل ذكره على ذلك [جل][٢] قوله: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦] أي: إنه لا يحضر ذلك، ولا يشهد تلك [المشاهد][٣] إلا المتقون.

ثم سرد على ذلك قوله الحق: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس:٧] إلى قوله جل قوله: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾[٤] [يونس:١٠].

فصل

قال الله جل من قائل: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ فهذا هو الحق فيما تقدم، وظاهره فيما ها هنا الشمس والقمر والنيرات، وهو الممثل بالمشكاة فيها مصباح، والزجاجة في هذا هو الهواء في [ساحة][٥] الجو ﴿يُوقَدُ﴾ المصباح ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ هذا نص على الأقرب الحق المخلوق به السماوات والأرض، وهو على الحقيقة لا يطلع من مشرق [فينسب إليه، ولا يغرب من مغرب فينسب إليه][٦]،

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «المشاهدة معرفة وعلمًا ثم عبره إلى ما هو عليه فيما هنالك آية».

(٤) وجه ذكر هذا في عدد أحوالهم أنها تدل على أن ما هم فيه من النعيم هو غايات الراغبين بحيث إن أرادوا أن ينعَموا بمقام دعاء ربهم الذي هو مقام القرب لم يجدوا أنفسهم مشتاقين لشيء يسألونه، فاعتاضوا عن السؤال بالثناء على ربهم، فألهموا إلى التزام التسبيح؛ لأنه أدل لفظ على التمجيد والتنزيه، فهو جامع للعبارة عن الكمالات. التحرير والتنوير (٦/٤٣٤).

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «ولا يغرب من مغرب فيتسب إلى ذلك».

وهذا الحق هو الذي ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ ونار هذا الزيت الفكر فبالترداد للفكر والتردد يضيء للمتذكر فـ﴿يَهْدِي﴾ به ﴿اللهُ﴾ [النور:٣٥] كما يهدي جل وتعالى إلى مبصرات الموجودات بالمصباح ونيرات الكواكب والشمس والقمر.

وعلى التحقيق فإنه قال جل من قائل: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ﴾ ثم نزل جل وعز بالخطاب إلى الأضواء الظاهرة، ثم قال جل قوله: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ ولا توقد الأنوار الظاهرة والباطنة إلا من نوره العلي، وعلى التدريج ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور:٣٥] إلى أن ينتهي إليه جل ذكره، فهو الذي هو المسبح عن الأفول غربًا والطلوع شرقًا، [وإلى][(١)] هذا نزع إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ [الأنعام:٧٦].

﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور:٣٥].

ثم جعل جل جلاله يستاق ذكر [الحق والنور][(٢)] الباطن بقوله جل قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ إشارة منه عز جلاله إلى أن كلاً قد أوتي في علم فطرته [على][(٣)] ما هو عليه [وجوده الآن، ثم قال][(٤)]: ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور:٤١] إشارة منه إلى [الحضور][(٥)] العلي.

ثم قال جل قوله: ﴿وَللهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللهِ المَصِيرُ﴾ [النور: ٤٢] هذا من نوره الباطن إقرار من جميع الخليقة له بالملك، وتدينها له بالرق، [وشهادتها على أنفسها بالفقر وله بالغنى، وبالعود بعد البدء][(٦)].

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «في وجوده هذا وإن ذلك آيات على الفاطر بما هو عز جلاله والآيات عبارة عت الأنوار التي تبصرها البصائر ما غاب وبطن عن الأبصار الظاهرة».

(٥) في النسخة (ق): «حضوره».

(٦) في النسخة (ق): «وشهادة بعلم الفطرة ثم شهادتها له بالغنى وعلى أنفسها بالفقر إليه ثم شهادتها أنه هو المبدئ المعيد».

ثم قال جل قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ إلى قوله: ﴿يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾ [النور:٤٣].

ثم قال جل قوله: ﴿يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [ثم][١] قال جل قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [النور:٤٤] أي: يعتبر المعتبرون من ظاهر هذا النور العلي ثم عاود الوصف لنوره الحق لقوله: ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور:٤٥] فعدد ﷻ إن من نوره الذي يبصر به المعتبر [به][٢] الغيب تسبيح الخلائق وصلاتهم، وإن له الملك والمرجع، وفعله في إرسال الرياح، وخلقه السحاب وتسييرها، وإنزاله الماء [منها][٣] والبرد، [وإصابته بها][٤] من يشاء ويصرفه عمن يشاء، وتقليبه الليل والنهار، وخلقه من الماء كل شيء حي، وكل ذلك آثار قدرته ومشيئته [وحياته][٥] وعلمه في الموجودات من الحق الذي به خلق السماوات والأرض ومقتضى أسمائه.

وإن ذلك نوره وإن كان باطنًا كما أن نوره الذي هو نور الشمس والقمر والنيرات والنار، وإن هذا كله الظاهر منه والباطن يُوقد من الحق [المبين][٦] الذي كَنى عنه بالشجرة المباركة، ليست تطلع من مشرق ولا تغرب في مغرب فتنسب [إليه][٧]، فإذا تمهد أن بهذا الحق المبثوث في العالم خلق [الخلق والأرض، وهو

---

(١) في النسخة (ق): «هذا كله وصف لنوره العلي لذلك».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «يخوف به ويذكر بإصابته».

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «المخلوق به السماوات والأرض».

(٧) في النسخة (ق): «إلى ذلك وفي الدار الآخرة يتجلى الحق المبين فتبين هذا فيعلمون يومئذ أن الله هو الحق في هذه المبين له فافهم وتفطن والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم».

المتصل بالحق المبين، وإنه[1] منه تُقتبس أنوار ما هنا ومن ضيائه توقد نيرانه، وذلك ظاهر [في][2] الآخرة، وهذا [اليوم][3] ظاهر الدنيا، فاطلب الوفاق والمشابهة فيهما هنالك، واستدل عليه بما [ها][4] هنا، فإنما هذا على تلك ﴿آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور:٤٦].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس:٧] أرجع جل وعلا الخطاب إلى معنى قوله جل قوله: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [يونس:٦] إلى آخر الآية، وإلى معنى التعريف بنفسه لما في اختلاف الليل والنهار، والدلالات على لقاء الحق بانقضاء الآجال وطلوع النيرات، ولذلك ذكر جل ذكره اللقاء، وأوعد على التكذيب به، وعلى عدم الرجاء في لقائه.

[تنبيه][5]:

كيف يتصور التكذيب بلقاء الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه وما زال المؤمنون في لقاء الحق المتصل به إيمانًا به وتصديقًا [ومشاهدة][6]؟

بل كيف لا يُرجا لقاؤه وما يعرف العباد لهم رزقًا [من السماوات والأرض][7] ولا دفعًا ولا نفعًا إلا من [ذلك][8] الحق المبثوث في العالم المخلوق به كل شيء؟

وإلا فكيف كانت الحال تكون ولو لم تكن الشمس [ولا][9] القمر ولا النجوم

---

(١) في النسخة (ق): «السماوات والأرض وهو الظاهر الموصل إلى معرفة الله الحق المبين وأن».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «وشهادة».

(٧) زيادة في النسخة (ق).

(٨) في النسخة (ق): «لدن».

(٩) في النسخة (ق): «ولم يكن».

ولا السماء ولا الأرض ولا الرياح ولا السحاب ولا الماء ولا الحر ولا البرد ولا نبي ولا رسول [إلا عمل بطاعته][1] ولا ملجأ يلجئون إليه ولا ملاذ يلوذون به؟ [وإنما متع المكذبين والكاذبين والمشركين بلاطائف من تسخيره ما في السماوات وما في الأرض ليجزي كلاً بسعيه][2].

وكيف لا يُرجا لقاؤه والخير كله [بيديه][3]، والشر ليس إليه، وبه يُستعاذ من كل مكروه، ومنه ينال كل محبوب؟

بل كيف يختار [العباد][4] الحياة الدنيا على الآخرة وقد ظهر الفضل العظيم بين الدارين، [وتبين][5] البون الكريم في [إحدى][6] المنزلتين، والغبطة العليا في إحدى [المحلين][7] إن لم يعتذروا باستعداد للقائه [والحرص][8] على توفير الزاد لمنال كريم ثوابه؟.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [يونس: ٩ - ١٢].

---

(١) في النسخة (ق): «ولا كتاب ولا عمل بطاعة».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «منه وإليه».

(٤) في النسخة (ق): «المؤمنون».

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «كلا».

(٧) في النسخة (ق): «المحلتين».

(٨) زيادة في النسخة (ق).

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله جل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾[(١)] [يونس:٩] أي: [في][(٢)] النظر في آياته، والعبرة من الدنيا إلى الآخرة، ويهديهم [في الآخرة عند المحنة في المحشر][(٣)]، ويهديهم في [دار][(٤)] البرزخ بالثبات [وقول الحق والصدق بالإيمان][(٥)] والعمل الصالح، وكذلك يعبرون من المصنوع إلى الصانع، [ومن المفعول إلى الفاعل ومن المفطور إلى الفاطر ومن المدبَّر إلى المدبر هكذا إلى آخر الأسماء][(٦)] ومن الدليل إلى المدلول عليه، ومن الآيات إلى ما هي آيات عليه، ومن الدنيا إلى الآخرة، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن [المعاصي][(٧)] إلى التوبة النصوح.

قوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ [يونس:٩] كناية عن الملك الكبير [الذي أعده][(٨)] لهم فيما هنالك.

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللهُمَّ﴾[(٩)] [يونس:١٠] أي: إن هذا جل كلامهم.

---

(١) أي: يهديهم بسبب إيمانهم إلى مأواهم ومقصدهم، وهي الجنة، وإنما لم تذكر تعويلاً على ظهورها وانسياق النفس إليها، لا سيما مع ملاحظة ما سبق من بيان مأوى الكفرة وما أداهم إليه من الأعمال السيئة، ومشاهدة ما لحق من التلويح والتصريح، والمراد بهذا الإيمان الذي جعل سببًا لما ذكر: الإيمان الخاص المشفوع بالأعمال الصالحة لا المجرد عنها، ولا ما هو الأعم، ولا ينبغي أن ينتطح في ذلك كبشان، والآية عليه بمعزل عن الدلالة على خلاف ما عليه الجماعة من أن الإيمان الخالي عن العمل الصالح يفضي إلى الجنة في الجملة. ولا يخلد صاحبه في النار، فإن منطوقها أن الإيمان المقرون بالعمل الصالح سبب للهداية إلى الجنة، وأما إن كل ما هو سبب لها يجب أن يكون كذلك فلا دلالة لها ولا لغيرها عليه. كيف لا وقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ ءامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢] منادٍ بخلافه بناءً على ما أطبقوا عليه من تفسير الظلم بالشرك، ولئن حمل على ظاهره أيضًا يدخل في الاهتداء من آمن ولم يعمل صالحًا، ثم مات قبل أن يظلم بفعل حرام أو بترك واجب. تفسير الألوسي (٧/٤٤٠).

(٢) في النسخة (ق): «إلى».

(٣) في النسخة (ق): «في المحشر عند المحنة».

(٤) زادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «وقوله الحق والإدلاء بالحجة بواسطة الإيمان».

(٦) زيادة في النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «العصيان».

(٨) في النسخة (ق): «المُعَد».

(٩) هو ظاهر في أن الترتيب الذكري حسب الترتيب الوقوعي أيضًا، لكن يدل على أن الدعوى =

قال رسول الله ﷺ: «**يُلهمون التسبيح كما يُلهمون النَّفَس**»[١].

ثم يكون [هجِّير لهم][٢]، وهو تسبيح تعجب لغريب ما يرونه، وعظيم ما يرد عليهم من تلك الدار [الآخرة][٣] من بُعد البون بين مسميات عَبَروها في دار الدنيا وبين ما ألفوها هنالك، ولما يفجؤهم من عجيب موجودات لم ترها أعينهم، ولا خطرت على بال أحدهم، ولا تحدثت بها نفوسهم، فأتت أمانيهم، وأربت على علومهم، فليس لهم هجيرًا إلا قولهم: ﴿**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ**﴾ الملائكة [﴿**فِيهَا سَلامٌ**﴾ [يونس:١٠] عليكم][٤]، ويُحيّي بعضهم بعضًا [﴿**سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**﴾ [الرعد:٢٤] ذلك بأن الله جل ذكره يُحيّيهم بذلك][٥].

قال الله سبحانه وله الحمد: ﴿**سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ**﴾ [يس:٥٨] وكان سلامهم في الدنيا: «السلام عليكم» تذكيرًا باسم الله جل ذكره الذي هو السلام، وهو من الحق المبثوث في العالم وبخاصة بين المؤمنين.

قال رسول الله ﷺ: «**السلام اسم من أسماء الله فافشوه بينكم**»[٦].

وقول الله جل ذكره أبين بيانًا وأوضح برهانًا، قال عز من قائل: ﴿**فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ**﴾ ثم قال: ﴿**تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ الله مُبَارَكَةً طَيِّبَةً**﴾ [**فأخبر أنها تحية من عند الله حيانا بها على ألسنتنا بعضنا على بعض**][٧] ثم نبّه على أن [هذا][٨]

بمعنى الدعاء، ومعنى كون «سبحانك اللهم» دعاء وطلبًا لما يشتهون حينئذٍ أنه علامة للطلب، ونظير ذلك: تسبيح المصلي إذا نابه شيء في صلاته، وفي بعض الآثار: إن هذه الكلمة علامة بين أهل الجنة والخدم في الطعام، فإذا قالوها أتوهم بما يشتهون. تفسير الألوسي (٧/٤٤٤).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) في النسخة (ق): «هجيراهم».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «سلام عليكم سلام عليكم ويقول الله جل من قائل لهم سلام يسلم عليهم لذلك».

(٦) أخرجه الطبراني (١٠٣٩١) والبخاري في «الأدب المفرد» (١٠٣٩) والبزار «كشف» (١٩٩٩).

(٧) زيادة في النسخة (ق).

(٨) في النسخة (ق): «معنى هذا من قوله الكريم هو».

من مكنون العلم ورفيعه بقوله جل قوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تعْقِلُونَ﴾ [النور:٦١] أي: تعقلون عنه ما أعد لهم فيما هنالك مما هذا آية عليه كما قال جل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ إلى ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ [النور:٢٧] أي: تذكرون ما هنالك بما هنا [وما في الجنة، فهي][1] بشارة بالسلامة من العذاب والموت، والنجاة من غضب الله ومن جميع المكروهات كلها،[ولما كان ذلك دائمًا مستمرًا؛ أعني: السلامة كانت التحية على ذلك المعنى على الدوام][2] وهو أيضًا [تذكير][3] وتجديد لذكر من هو القريب منهم الراضي عنهم الرحيم الرءوف.

﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾ [ما هو معناه][4] ﴿الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [يونس:١٠] وقد قال في غير هذا الموضع: ﴿وَقَالُوا الحَمْدُ لله الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر:٣٤] أكثر ورود الحمد منهم على لأجل حال فرحهم بربهم الصادق الوفي الذي لا يخلف وعده، ولا يعجزه ما يوجده لهم من إكرام وتنعيم [﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الزمر:٧٥]][5].

قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث النبيين [والمرسلين][6] مبشرين، ولا أحد أحب إليه المدح من الله، من أجل ذلك خلق الجنة»[7] وإنما ذلك لأنهم يسبحونه مع الأنفاس، ويختمون تسبيحهم له بالحمد لله رب العالمين.

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَمَا كَانُوا۟

---

(١) في النسخة (ق): «المتذكر بما هنالك بأمره ﷺ بالاستئذان وتستر الأهل في هذه؛ أي: أهل الجنة - عليهم السلام - لا يرى أحد منهم أهل أحد، بل هن المقصورات في الخيام، وربما لم ير بعض الأهل بعضًا إلا ما شاء الله من ذلك، وأما في الجنة فذلك».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «فيها أن».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «وأرسل المرسلين».

(٧) أخرجه أحمد (١٨١٩٣)، والبخاري (٦٩٨٠)، ومسلم (١٤٩٩)، وابن أبي شيبة (٢٧٨٨٤).

لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٣ - ١٨].

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ الله بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ...﴾[1] [يونس:١٨] أرجع الخطاب إلى معنى قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة:٤] وإلى ذم الذين لا يرجون لقاء الله، الذين قال فيهم جل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس:٧] فانتظم المعنى، وما لا يعلمه الله فليس بموجود، وهو من المحال [المجحود][2] المستحيل وجوده، أفيكون ما ليس بكائن أبد الآبدين، ويستحيل [وجود شريك له في ملكه أو

---

(١) قرأ أبو السمال العدوي: «تنبئون» بالتخفيف من أنبأنا ينبئ. وقرأ من عداه بالتشديد من نبّأ ينبّئ. والمعنى: أتخبرون الله أن له شركاء في ملكه يعبدون كما يعبد، أو أتخبرونه أن لكم شفعاء بغير إذنه، والله سبحانه لا يعلم لنفسه شريكاً ولا شفيعاً بغير إذنه من جميع مخلوقاته الذين هم في سماواته وفي أرضه؟ وهذا الكلام حاصله: عدم وجود من هو كذلك أصلاً. وفي هذا من التهكم بالكفار ما لا يخفى، ثم نزّه الله سبحانه نفسه عن إشراكهم، وهو يحتمل أن يكون ابتداء كلام غير داخل في الكلام الذي أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يجيب به عليهم، ويحتمل أن يكون من تمام ما أمر النبي ﷺ أن يقوله لهم جوابًا عليهم. فتح القدير (٣٥٧/٣).

(٢) سقط من النسخة (ق).

ولد أو صاحبة أو ند أو كفؤ أو شبيه، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا][١].

﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [يونس: ١٩ - ٢١].

أتبع ذلك قوله جل قوله: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: على التوحيد لله جل ذكره والديانة بدين الإسلام ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس: ١٩] هكذا كان آدم عليه السلام [ونبوة الأمة][٢] من بعده - عليهم السلام - على الصراط المستقيم والدين القيم حتى طال الأمد، وخلف الخلف منهم السلف [مُبينة][٣] لمن بعدهم الآراء، فاختلفوا بعد العلم بأن الله هو خالقهم ورازقهم [ومالكهم][٤]، وإنه خالق السموات والأرض، ورب العرش العظيم، وإنه منزل الماء من السماء يحيي به الأرض بعد موتها لا يشركه في ذلك أحد [وإنه يحيي ويميت][٥].

ومع تقرر هذا العلم ونحوه عندهم تفرقوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق؛ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ﴿فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من الأمم الخالية والقرون السالفة ﴿لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ﴾ بإذنه، ثم لم يزل الاختلاف يعقب الائتلاف ويدال الحق من الباطل إلى أن جاءت نبوة محمد ﷺ ﴿فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [من أمته][٦] ﴿لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [أولئك][٧] ﴿مِنَ

(١) في النسخة (ق): «وجوده تعالى الله عن قبح افترائه».
(٢) في النسخة (ق): «وبنوه الأئمة».
(٣) في النسخة (ق): «تشتت».
(٤) سقط من النسخة (ق).
(٥) زيادة في النسخة (ق).
(٦) زيادة في النسخة (ق).
(٧) زيادة في النسخة (ق).

﴿الحَقِّ﴾ من قبلهم ﴿وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:٢١٣].

فهذا خطاب [مستقبل متوجه][(١)] - والله أعلم - إلى إخوان الأنبياء في هذه الأمة الذين قال رسول الله ﷺ فيهم: «وددت أني قد رأيت [إخواننا][(٢)]» قالوا له: ألسنا بإخوانك؟ قال: «أنتم أصحابي [وإخواننا][(٣)] الذين لم يأتوا بعد»[(٤)] وهم سبعون ألفًا وسبعمائة ألف مع كل ألف سبعون ألفًا وسبعمائة ألف، ذلك قوله: ﴿فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:٢١٣] وهم ورثة الأنبياء عليهم السلام.

ثم قال عز من قائل: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس:١٩] والكلمة السابقة من ربك ﷻ [وتعالى علاؤه وشأنه هي][(٥)] توفية آجالهم، واستنفاد أرزاقهم وأيامهم وأعمالهم إلى قيام الساعة، وإنهم سيفترقون إلى فريق في الجنة وفريق في السعير، وتتخرج أعمالهم على ذلك كما قال: ﴿أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الكِتَابِ﴾ [الأعراف:٣٧].

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا

(١) في النسخة (ق): «متوجه إلى الاستقبال».
(٢) في النسخة (ق): «إخواني».
(٣) في النسخة (ق): «وإخواني».
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) في النسخة (ق): «وهو أعلم».

حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٢ - ٢٥].

قوله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ﴾ إلى قوله جل قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:٢٤] [ثم][1] عرض بقوله الصدق: ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ﴾ إلى ما يكون من فتح وفيح مثَّل الله جل ذكره الدنيا كلها من أولها إلى آخرها بسنة واحدة منها، فيسر [الله][2] للمتفكرين النظر، وقرب للمعتبرين المعتبر، أنزل من السماء ماءها، وأخرج به من الأرض نباتها كله.

وعرض بقوله جل قوله: ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ﴾ إنه يخلقهم من نبات الأرض ومن الأنعام، وبعضهم من بعض على سبيل التناسل والاسترزاق كالرضاعة والكفالة [والعطيات][3] والهبات ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾[4] أي: على أخذ فوائدها من زروعها [وثمارها][5] ﴿أَتَاهَا﴾ [يونس:٢٤] من أمر الله ﷻ ما غلبهم عليها وقطع بهم دونها، كذلك الدنيا يأخذها أحسن ما كانت، وأطيبه دار عيشهم، [ويجتمع أمرهم لا من حيث الدنيا من

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «والأعطيات».

(٤) ﴿أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ جملة بديعة اللفظ جعلت الأرض آخذة زخرفها متزينة، وذلك على جهة التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون، فاكتست وتزينت بأنواع الحلي، فاستعير الأخذ وهو التناول باليد لاشتمال نبات الأرض على بهجة ونضارة وأثواب مختلفة، واستعير لتلك البهجة والنضارة والألوان المختلفة لفظة «الزخرف» وهو الذهب؛ لما كان من الأشياء البهجة المنظر السارة للنفوس، و«ازينت» أي: بنباتها وما أودع فيه من الحبوب والثمار والأزهار، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ تأكيدًا لقوله: ﴿أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ واحتمل ألا يكون تأكيدًا؛ إذ قد يكون أخذ الزخرف لا لقصد التزيين، فقيل: «وازينت» ليفيد أنها قصدت التزيين، ونسبة الأخذ إلى الأرض والتزيين من بديع الاستعارة. تفسير البحر المحيط (٢٨٧/٦).

(٥) في النسخة (ق): «وثمراتها».

حيث الدين][1].

وقد [قيل][2]: إن الساعة تقوم يوم الجمعة في أول ساعة منها، أو فيما يقارب ذلك، وفي آخر زمن الربيع عند استقبال [زمن][3] المصيف، والأرض قد أخذت زينتها، والأشجار قد [أظلت][4]، والزمان في [إقباله][5] وفي مثل ذلك من الزمان خلقها، وبذلك ترجع الحكمة في حكمه، هذا آخرها على أولها.

[وقد جاء أن الله خلق الدنيا على أكمل هيئاتها كما تقدم، وقد أينعت ثمارها وأورقت أشجارها واستوى نباتها][6]، وإنما فصلها يومئذٍ من الجنة، فحكمها أن تكون على [ما بها][7] كما خلق آدم عليه السلام كهيئته يوم توفاه كذلك وافاه رسول الله ﷺ وهو في السماء الدنيا ليلة أسري به كاملاً [ستين][8] ذراعًا في السماء كما يدخله الجنة.

وقال رسول الله ﷺ: «**إن الزمان قد استدار [كهيئة][9] يوم خلق الله السماوات والأرض**»[10].

وكما خلق كل نفس منفوسة على الفطرة [وعلى][11] الإسلام كذلك خلق الزمان مقبلاً، والشمس في برج الحمل أو ما يقارب ذلك، يدل على ما [ذكرناه][12] قول رسول الله ﷺ في خطبته المشهورة التي قام بها في الناس [الغد من يوم النحر

---

(١) في النسخة (ق): «جميع أمرهم دنيا لا دينًا».
(٢) في النسخة (ق): «جاء».
(٣) سقط من النسخة (ق).
(٤) في النسخة (ق): «أورقت وأظلت».
(٥) في النسخة (ق): «اقتباله».
(٦) سقط من النسخة (ق).
(٧) في النسخة (ق): «تمامها».
(٨) في النسخة (ق): «سويًا ستون».
(٩) في النسخة (ق): «كهئته».
(١٠) أخرجه البخاري (٥٢٣٠) ومسلم (١٦٧٩) وأحمد (٢٠٤٠٢) وأبو داود (١٩٤٧).
(١١) سقط من النسخة (ق).
(١٢) في النسخة (ق): «قلناه».

في حجة الوداع حجة الإسلام][1] [فقال][2] وهو راكب على ناقته استنصت الناس، فحمد الله وأثنى عليه، وخطبهم خطبة مُودِّع قال فيها: «**إن الله حرم أموالكم ودماءكم وأعراضكم [عليكم][3] كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا فليُبلِّغ الشاهد الغائب، [فإني][4] لا ألقاكم بعد عامي هذا**» ثم قال ﷺ: «**أيها الناس، إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق السماوات والأرض**»[5].

فكانت حجته تلك زمن الربيع؛ دل على ذلك أنه رجع منها وبقي بالمدينة شهر المحرم كله وصدرًا من ربيع الأول، وأخذ ﷺ في التوجه إلى غزوة تبوك وقد دخل زمن الصيف، ولذلك قال كعب بن مالك في قصته المشهورة: وكان رسول الله ﷺ قد استقبل سفرًا بعيدًا وعدوًا كثيرًا، وذلك حين طابت الظلال وبردت المياه.

وقال [الله][6] جل ذكره يحكي قول المنافقين في هذه الغزوة: ﴿**وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ**﴾ [التوبة:٨١] فوضح بهذا كله أن الحجة كانت زمن الربيع، وأن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، وأن إيجاد ذلك كان والأرض في زينتها والشمس في برج الحمل [وهو في شرقها][7]، وإذا كان ذلك كذلك والقمر يومئذٍ كان في الميزان؛ [إذ هو وقت][8] الحمل، وكانت الشمس في [شرقها][9]، والقمر في كماله، والأرض قد أخذت زينتها، والليل والنهار في حال استوائهما عند استكمال الشمس [البروج][10] الجنوبية وصعودها في الشمالية.

---

(١) ما بين [ ] به تقديم وتأخير بين النسخ.

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «ولعلي».

(٥) انظر التخريج السابق.

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «أو ما يقارب ذلك وذلك شرفها».

(٨) في النسخة (ق): «وما يقاربه إذ هو رقيب».

(٩) في النسخة (ق): «شرفها».

(١٠) سقط من النسخة (ق).

وفي قوله ﷺ: «**إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق [الله]**[١] **السموات والأرض**»[٢] وجه آخر به يتم ما تقدم ذكره، [وهو][٣] من النبأ العظيم، وذلك أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق، وعلى الدين القيم، [واستدار به][٤] الدوائر [كذلك إلى أن خلق الله آدم ﵇ على الدين القيم، وخلقه على ذلك الأئمة من بنيه على جميعهم السلام.

ثم اختلفوا كما قال الله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس:١٩] فخلف في ذلك الاختلاف أنهم كفار ومشركون عبدوا الشمس والقمر والكواكب والأوثان والطواغيت وغير ذلك، ولما كان يومئذٍ أكمل الله الإسلام، وأظهر دينه الحق، والزمان استدار كهيئته الأولى خلقة وشرعة، واستدار على قوم ضالين إلى عباد مهتدين، أنزل الله ﷻ ذلك اليوم قوله الحق جل قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] والحمد لله رب العالمين، نسأل الله الرحيم إتمام نعمته وسبوغ منته إلى يوم الدين، إنه أرحم الراحمين وخير القادرين][٥].

[عبرة]:

قد تقدم قوله الحق: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ...﴾ [يونس:٢٤] وهذه الحياة الدنيا لا يحين حين انقراضها إلا بقيام الساعة.

قال الله ﷻ: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف:١٨٧] وينقسم هذا اليوم الذي هو الدنيا على دارين الحياة والموت: دار الدنيا ودار البرزخ، وهو مدة لبث الخلق في القبور حال البلى، فمثل مدة إحدى الدارين نصف العام.

أعرب عن هذا قوله في كتابه العزيز: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) انظر التخريج السابق.

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «واستدارت».

(٥) ما بين [ ] فيه تقديم وتأخير واختلاف بين النسخ.

[الكهف:٤٥] وإنما يكون إنزاله الماء أول الخريف، فتأخذ الأرض زينتها في خامس الشهور ويكمل ذلك منها في آخر السادس، ثم يأتيها من أمر الله ما يحطم نباتها ويهشم زهرتها، ثم تصير في الثامن والتاسع كما قال الله ﷻ: ﴿هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ هذه حال نباتها الكائن عن الماء من آب وقضب وزرع ومرعى وأزهار وزينة المعبر عنها باسم الزخرف فذلك بالعبرة كمدة المؤمن في هذه الحياة؛ أعني: من إنبات الله النبات إلى استوائه إلى تحطمه فيكون وقت وفاته حين ضحك الأرض وأخذها زينتها واستبشارها بما هي فيه فرحًا وشبعًا وكسوة وسرورًا.

ثم هو يستقبل إن كان مؤمنًا صالحًا موجودات الجنة من فاكهة على أنواعها إلى آخر زمن الخريف، وذلك تمام يوم الدنيا كما يستقبل الكافر من فيح السعير وورود النار وعذابها من غير كفاية ولا وقاية ما هو إليه صائر، هذا وهذا ما هو موجود بعدما أحد الله ﷻ زينة الأرض، وقبضه وروح حياتها من هذه الجهة ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٨ - ٨٩] إلى قوله: ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ...﴾ [الواقعة:٩٢] إلى آخر السورة][1].

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)﴾ [يونس:٢٦ - ٣٠].

[قوله جل ذكره: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾[2] [يونس:٢٦] الحسنى:

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) أي: الذين أحسنوا بالقيام بما أوجبه الله عليهم من الأعمال، والكفّ عما نهاهم عنه من المعاصي، والمراد بالحسنى: المثوبة الحسنى. قال ابن الأنباري: العرب توقع هذه اللفظة =

حسن المآب، وهو الجنة، والزيادة فيها النظر إلى وجه الله الكريم، ويوم المزيد في الدار الآخرة يوم الجمعة، وهو يوم الزيادة العليا والحسنى][١].

قال الله جل قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى﴾ [الكهف:٨٨] أي: جزاء العمل الصالح، والزيادة أيضًا تكون ما [يكسبه][٢] الله جل ذكره الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعين إلى سبعمائة ضعف إلى أكثر من ذلك، إلى قوله جل قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور:٣٨] [والزيادة من الله جل ذكره غير محصورة العلم][٣]؛ لأنها من فضله العظيم، وهو يعطي [ويزيد ويهب][٤] ويزيد أبدًا.

قال الله جل وعز: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [النساء:١٧٣] والسيئات [مثلاً بمثل][٥] جزاء سيئة بمثلها، والحسنات والسيئات لها وزنها، [وأما ما يقابلها][٦] من نعيم الجنة وعذاب [النار][٧] فعسير الوقوف عليه، إنما علمه إلى الله ﷻ.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن

=

على الخصلة المحبوبة المرغوب فيها، ولذلك ترك موصوفها؛ وقيل: المراد بالحسنى: الجنة، وأما الزيادة فقيل: المراد بها: ما يزيد على المثوبة من التفضل. فتح القدير (٣/٣٦٥).

(١) ما بين [ ] فيه تقديم وتأخير واختلاف بين النسخ.

(٢) في النسخة (ق): «يكتبه».

(٣) في النسخة (ق): «والعلم بزيادة الله عباده غير محصور ولا محاط بعلمها».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «وما هو جزاؤها».

(٧) في النسخة (ق): «جهنم أعاذنا الله الكريم منها».

يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [يونس: ٣١ - ٣٧].

قوله جل وعز: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا القُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ الله وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يريد جل وعز: التوراة والإنجيل والزبور والصحف كلها ﴿وَتَفْصِيلَ الكِتَابِ﴾ [يونس:٣٧] أي: الكتاب المبين؛ أي: اللوح المحفوظ، وتصور بعض التفصيل في ذلك إن شاء الله تعالى هو أن علمك بأن القرون الخالية والأمم الماضية قد تقدم في الكتاب الذي هو اللوح المحفوظ [أنه سيكون](١) على صورهم وهيئاتهم وأعمالهم، وسيكون منهم كذا فيرسل إليهم رسول كذا، فيكون منهم [كذا](٢) إما هداية وإما ضلالة، فيكون من عقابهم وثوابهم كذا، [وكذلك](٣) كل شجرة وماء، وأرض [وهواء وسماء](٤) وكوكب، وعمل ورزق، وحركة وسكون، وخلق وأمر مزموم كله في أم الكتاب الذي هو اللوح المحفوظ مثبت في زمام، وقد ذكر القرآن ذلك بذكر خصوص وعموم وعلى الاستقراء يأتي الذكر على [كثير من ذلك](٥).

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ

(١) في النسخة (ق): «أنهم سيكونون».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «وكذا».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «أكثر ذلك ثم يتيسر الإجمال بعد».

وَأَنَا بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يونس: ٣٨ - ٤٦].

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾[(١)] [يونس: ٣٩] أما القرآن العزيز فعلى قلوب المكذبين أكنة أن يفقهوه، وفي آذانهم الوقر، وعلى أبصارهم غشاوة، [فلا يرون آيات الله في السماوات والأرؤض][(٢)] وأما تأويله - يعني: الجزاء العاجل والآجل - فلم يكن [يأتيهم][(٣)]؛ إذ إنزال هذه السورة مكية، وهو حقيقة ما ذُم في أم الكتاب من عقاب أو ثواب على كل عمل، ومتى يكون وكيف وأين وما مقداره ولمن يحل؟.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ

---

(١) ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ عطف على الصلة أو حال من الموصول؛ أي: ولم يقفوا بعد على معانيه الوضعية والعقلية المنبئة عن علو شأنه وسطوح برهانه، فالتأويل نوع من التفسير، والإتيان مجاز عن المعرفة والوقوف، ولعل اختياره للإشعار بأن تلك المعاني متوجهة إلى الأذهان منساقة إليها بنفسها، وجوَّز أن يراد بالتأويل وقوع مدلوله، وهو عاقبته وما يؤول إليه، وهو المعنى الحقيقي عند بعض، فإتيانه حينئذٍ مجاز عن تبينه وانكشافه؛ أي: ولم يتبين لهم إلى الآن تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب حتى يظهر أنه صدق أم كذب، والمعنى: إن القرآن معجز من جهة النظم. تفسير الألوسي (٦/٨).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «آتاهم بعد».

تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: ٤٧ - ٦١].

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ﴾ [يونس: ٦١] فيه المعنى إلى آخره، أرجع معنى الخطاب إلى معنى قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا...﴾ [الحديد: ٤] إذ هو الله ﷻ [مستوٍ][1] على العرش، وهو في كل مكان ومع كل شيء من حيث هو جل ذكره، هذا من حيث الخلقة والعلم والتدبير.

ثم ينشأ ذلك في المؤمن، ثم في الولي، ثم في النبي والرسول، [ويلازمه][2] ذكره والعمل بطاعته حتى يكون سمعًا وبصرًا [ولتحقيق ذلك وشياعه في الوجود

---

(١) في النسخة (ق): «المستوي».

(٢) في النسخة (ق): «وملازمة».

ولزومه اللزوم كله خلق لغة العرب محققة لذلك، فقال: «زيد ثاني اثنين وعمرو ثالث ثلاثة ورابع أربعة» إلى نهاية ذلك هذا في «لسان العرب» كذلك في سائر اللغات[١] والله أعلم.

---

(١) **فيه مسألة**: هل اللغات توقيفية أو اصطلاحية؟ اختلف العلماء فى اللغة كيف تثبت؟ إلى أربعة مذاهب: الأول: تثبت بدلالة الألفاظ على المعاني بذواتها، وهو مذهب عباد بن سليمان. الثاني: تثبت بوَضْع الله إياها، وهو مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري وابن فُورَك والجبائي والكعبي. الثالث تثبت بوَضْع الناس إياها، وهو مذهب أبي هاشم والمعتزلة. الرابع تثبت بعضها بوَضْع الله والباقي بوضع الناس؛ وهو إما أن يكونَ الابتداءُ من الناس والتَّتِمَّة من الله - وهو مذهب قوم - وإما أن يكون الابتداءُ من الله والتتمة من الناس - وهو مذهب الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني.
احتجَّ عبّاد بن سليمان بأنه لولا الدّلالةُ الذاتيّةُ لكان وضعُ لفظٍ من بين الألفاظ بإزاء معنًى من بين المعاني ترجيحاً بلا مُرَجِّح وهو محال. وجوابُهُ أن الواضعَ إن كان هو الله فتخصيصُه الألفاظَ بالمعاني كتخصيص العالَم بالإيجاد في وقتٍ من بين سائر الأوقات وإن كان هو الناس فلعلَّه لتعيّن الخَطَران بالبال ودليلُ إمكانِ التوقيف احتمالُ خَلْقِ الله تعالى الألفاظَ وَوَضْعِها بإزاء المعاني وخَلْقِ علومٍ ضروريةٍ في ناس بأن تلك الألفاظَ موضوعةٌ لتلك المعانِي ودليل إمكان الاصطلاح إمكان أن يتولّى واحدٌ أو جمعٌ وضَع الألفاظِ لمعانٍ ثم يُفْهِموها لغيرهم بالإشارة كحال الوالداتِ مع أطفالهن وهذان الدليلان هما دليلا إمكانِ التوزيع. واحتجّ القائلون بالتوقيف بوجوه: أولها قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ فالأسماء كلها معلّمة من عند الله بالنَّص وكذا الأفعالُ والحروف لعَدم القائل بالفَصْل ولأن الأفعال والحروف أيضًا أسماء لأن الاسم ما كان علامةً والتميزُ من تَصَرُّفِ النحاة لا منَ اللغة ولأنَّ التكلمَ بالأسماء وحْدَها متعذّر. وثانيها أنه سبحانَه وتعالى ذَمَّ قوماً في إطلاقِهم أسماء غيرَ توقيفيّة في قوله تعالى ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ [النجم :٢٣] وذلك يقتضي كونَ البواقي توقيفية. وثالثها قوله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ [الروم:٢٢] والألْسنةُ اللُّحْمَانية غيرُ مُرادة لعدم اختلافها ولأن بدائعَ الصُّنْع في غيرها أكثرُ، فالمراد هي اللغات. ورابعها - وهو عقليّ - لو كانت اللغاتُ اصطلاحية لَاحْتِيج في التخاطب بوَضْعِها إلى اصطلاحٍ آخر من لغةٍ أو كتابةٍ ويعودُ إليه الكلامُ ويلزم إما الدَّور أو التسلسلُ في الأوضاع وهو محال فلا بد من الانتهاءِ إلى التوقيف.
والجواب عن الأولى لِمَ لَا يَجُوزُ أن يكون المرادُ من تعليم الأسماء الإلهامَ إلى وضْعها ولا يقالُ: التعليمُ إيجادُ العلم؛ فإنا لا نُسَلِّم ذلك، بل التعليم فعلٌ يترتب عليه العلم ولأجله يُقال علَّمْتُه فلم يتعلَّم ؛ سلمنا أن التعليمَ إيجاد العلم لكن قد تقرّر في الكلام أن أفعالَ العباد مخلوقةٌ لله تعالى فعلى هذا العلمُ الحاصل بها مُوجَد لله سلّمناه لكنَّ الأسماءَ هي سِماتُ =

=

الأشياء وعلاماتُها مثل أن يعلِّمَ آدَمُ صلاحَ الخيلِ لِلْعَدْو، والجمال للحَمْل، والثيران للحَرْث، فَلِمَ قلتُم: إن المراد ليس ذلك؟ وتخصيصُ الأسماءِ بالألفاظ عرفٌ جديد؛ سلمنا أن المرادَ هو الألفاظُ ولكن لِم لا يجوزُ أن تكون هذه الألفاظُ وضَعَها قومٌ آخرون قبل آدمَ وعلَّمها الله آدم؟ وعن الثانية أنه تعالى ذمَّهم لأنهم سمُّوا الأصنامَ آلهة واعتقدوها كذلك. وعن الثالثة أن اللسانَ هو الجارحة المخصوصة، وهي غيرُ مرادة بالاتفاق، والمجازُ الذي ذكرتموه يعارِضُه مَجازاتٌ أخر نحو مخارجِ الحروف أو القدرة عليها، فلم يثبت التَّرجيح. وعن الرابعة أن الاصطلاح لا يَسْتَدعي تقدُّمَ اصطلاحٍ آخر بدليل تعليم الوالدين الطفلَ دون سابقةِ اصطلاحٍ ثمة.

واحتجَّ القائلون بالاصطلاح بوَجْهين: أحدهما لو كانت اللغاتُ توقيفيةً لتقدَّمت واسطةُ البعثةِ على التوقيف، والتقدّمُ باطلٌ، وبيانُ الملازمة أنها إذا كانت توقيفيةً فلا بدَّ من واسطة بين الله والبشر - وهو النبيُّ - لاسْتِحالة خطابِ الله تعالى مع كلِّ أحد، وبيانُ بُطْلَان التَّقَدُّم قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم:٤] وهذا يَقْتَضِي تقدُّمَ اللغة على البعثة. والثاني لو كانت اللغاتُ توقيفيةً فذلك إما بأن يَخْلُقَ الله تعالى عِلماً ضروريًّا في العاقل أنَّه وَضَع الألفاظ لكذا أو في غير العاقل أو بألَّا يخلقَ علماً ضرورياً أصلاً؛ والأول باطلٌ وإلّا لكان العاقلُ عالماً بالله بالضرورة لأنه إذا كان عالماً بالضرورة بكَوْن الله وضَع كذا لِكَذا كان علمُه بالله ضروريًّا ولو كان كذلك لبطَلَ التكليفُ والثاني باطلٌ لأن غيرَ العاقل لا يمكنُه إنهاءُ تمام هذه الألفاظ والثالثُ باطل لأن العلمَ بها إذا لم يكن ضرورياً احتيج إلى توقيفٍ آخر ولَزِم التسلسل. والجوابُ عن الأولى لا نُسَلِّمُ توقُّفَ التوقيف على البعثة؛ لجوازِ أن يخلق الله فيهم العلمَ الضروري بأن الألفاظَ وُضِعَت لكذا وكذا. وعن الثانية لِمَ لا يجوز أن يخلق الله العلم الضروريَّ في العقلاء أن واضعاً وَضعَ تلك الألفاظ لتلكَ المعاني ، وعلى هذا لا يكونُ العلم بالله ضرورياً ؛ سلَّمناه لكن لِمَ لا يجوز أن يكون الإله معلومَ الوجود بالضرورة لبعض العقلاء؟ قوله "لَبَطَلَ التكليف" قُلْنا : بالمعرفة أمَّا بسائر التكاليف فلا. وزعم الأستاذُ أبو إسحاق الإسفراييني أن القَدْرَ الذي يدْعو به الإنسان غيرَه إلى التَّواضع يَثْبتُ توقيفاً، وما عدا ذلك يجوز أن يثبت بكلِ واحدٍ من الطريقين. أما المحققون فإنهم متوقفون في الكل إلّا في مذهب عباد ، ودليل فسادِه أن اللفظَ لو دلَّ بالذات لفَهِم كلُّ واحد منهم كلَّ اللغات لعدم اختلاف الدلالات الذاتية واللازمُ باطلٌ فالملزوم كذلك. قال القاضي أبو بكر: يجوز أن يثبت توقيفًا، ويجوز أن يثبت اصطلاحًا، ويجوز أن يثبت بعضه توقيفًا وبعضه اصطلاحًا، والكلّ ممكن. وعمدة القاضي أن الممْكن هو الذي لو قُدِّر موجودًا لم يعرض لوجوده محال؛ ويعلم أن هذه الوجوه لو قُدِّرَت لم يعرض من وجودها محال فوجب قَطْعُ القول بإمكانها. انظر: (المحصول ١/٢٤٧ - ٢٥٩) (المستصفى ١٨١) (إرشاد الفحول ٣٥ - ٣٧) (روضة الناظر ١٧١ - ١٧٢) (الإبهاج ١/١٩٨ - ٢٠٢) (التمهيد ١٣٧ - ١٣٨) (المزهر ١/١٦ - ٢٠).

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم:٢٢].

قال الله سبحانه وله الحمد في حديثه الصدق عن رسوله ﷺ يوم آوى إلى الغار مع أبي بكر الصديق ﷺ: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠] فقال له: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ والمشار إليه بهذه العبارة أبو بكر ورسول الله ثانيهما، ولذلك قال ﷺ لأبي بكر لما قال له: «يا رسول الله - وأرجل القوم تبدو لهما في حال الطلب لهما - لو خفض أحدهم بصره لأبصرنا» قال: «**يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما**»(١) فهذا عبارة عن لزوم الولاية، وما شاع في عبارة اللغة فعن لزوم ولاية الخلقة، فكان ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه مع رسول الله ﷺ وأبي بكر بولاية الخلقة والولاية العلا.

ألا تسمع إلى قوله العَلي: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى*وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ [النجم:١٩ - ٢٠] فذكر اللات مقدمة وثنى بذكر العزى، ثم قال: ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ فجعلها ثالثة للثنتين المذكورتين قبل، ثم قال في مناة: إنها ثالثة أخرى؛ لبراءته، سبحانه وله الحمد منها ومن صاحبتيها المذكورتين].

وهذه أوصاف الحق المخلوق به السماوات والأرض المتصل بالحق المبين، وهو المواجه العبد إذا صلى، وهو الذي تقع الصدقة في كفه قبل أن تقع في كف السائل، وهو الذي مع عبده إذا ذكره وما تحركت به شفتاه، ذلك بما هو الله جل ذكره لا إله إلا هو الرحمن الرحيم غرب فلا يُحس ولا يُرى وقرب القرب كله، فكل شيء منه ملأ هو العلي الأعلى وعلى العرش استوى [هو الأحد الصمد الأول الآخر الظاهر الباطن](٢).

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٣) ومسلم (٢٣٨١) والترمذي (٣٠٩٦) وابن سعد (١٧٣/٣) وابن أبي شيبة (٣١٩٢٩) وأحمد (١١) وابن حبان (٦٢٧٨).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٦].

أتبع هذا ما هو في معناه قوله جل قوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ الله لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[١] [يونس: ٦٢ - ٦٣] إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٤] [المشار إليه بهذا المعنى المضمن في هذا الخطاب][٢] من وقع له طائره في قبضة اليمين [فقال فيه: «هذا للجنة وبعمل أهل الجنة يعمل»][٣] لقد عظم حظه وفاز [يومئذٍ][٤] فوزًا عظيمًا.

قال رسول الله ﷺ: «**الشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد من سعد في بطن أمه**»[٥] [وكان][٦] ما يأتي بعد من علم وإيمان وعمل فهو تبع لعلم الله جل وعز ومشيئته السابقة، يومئذٍ [فاز الفائزون وخسر الخاسرون][٧].

ثم قال - جل قوله - [يعزيه][٨] في ضلالهم وتكذيبهم وعظيم افترائهم [وقبيح

---

(١) ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ الله لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وفي ارشاد العقل السليم أنه بيان على وجه التبشير والوعد لما هو نتيجة لأعمال المؤمنين، وغاية لما ذكر قبله من كونه سبحانه مهيمنًا على نبيه ﷺ وأمته في كل ما يأتون ويذرون، وإحاطة علمه جل وعلا بعد ما أشير إلى فظاعة حال المفترين على الله تعالى يوم القيامة، وما سيعتريهم من الهول إشارة إجمالية على طريق التهديد والوعيد، وصدرت الجملة بحرف التنبيه والتحقيق؛ لزيادة تقرير مضمونها، والأولياء: جمع ولي، من الولي بمعنى القرب والدنو، يقال: تباعد بعد ولي؛ أي: قرب، والمراد بهم: خلص المؤمنين؛ لقربهم الروحاني منه سبحانه. تفسير الألوسي (٨/٥٠).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «المقول فيهم بقوله الصدق: هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨٥٣٠)، والديلمي (٢٥٩٤).

(٦) في النسخة (ق): «وكل».

(٧) في النسخة (ق): «ضحك أهل الضحك لأجل فوزهم وبكى أهل البكاء لأجل خسرهم».

(٨) في النسخة (ق): «تعزية».

فعالهم وتهديدهم إياه][1]: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لله جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يونس:٦٥] هو الذي لا يدركه أذى المفترين، ولا يضره ضلال الضالين، كما لا ينفعه طاعة المطيعين، هو السميع لمقالتهم [العليم][2] بجميع أعمالهم [يقول عز من قائل هذا سبق لهم في تقديرنا وعلمنا فيما لم يزل][3].

ثم قال ﷻ: ﴿أَلَا إِنَّ لله مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ﴾ [يونس:٦٦] وقد تقدم قوله: ﴿أَلَا إِنَّ لله مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس:٥٥] ثم [أتبع ذلك][4]: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ اللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس:٥٩].

وقال جل قوله [هنا][5]: ﴿أَلَا إِنَّ لله مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ﴾ والمراد منها: نفي الشفعاء والشركاء والأنداد المتخذة من دونه من يوصف بالعقل، كالملائكة وعيسى ابن مريم - عليه السلام - [والأول نفي][6] الأصنام والأوثان والمعبودات من النيران والنيرات.

ثم قال جل قوله وقوله الحق: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[7] [يونس:٦٦] إنما كانوا يقولون: ﴿هَؤُلاءِ

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «العالم».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «أتبعه بقوله».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «وفي الأولى هي».

(٧) المناسبة ظاهرة في هذه الآية لما ذكرأن العزة له تعالى وهي القهر والغلبة ذكر ما يناسب القهر؛ وهو كون المخلوقات ملكًا له تعالى، ومن الأصل فيها أن تكون للعقلاء، وهنا هي شاملة لهم ولغيرهم على حكم التغليب، وحيث جيء بما كان تغليبًا للكثرة؛ إذ أكثر المخلوقات لا تعقل. وقال الزمخشري: يعني: العقلاء المميزين، وهم الملائكة والثقلان، وإنما خصهم؛ ليؤذن أنّ هؤلاء إذا كانوا له في ملكه فهم عبيد كلهم، لا يصلح أحد منهم للربوبية، ولا أن يكون شريكًا فيها، فما دونهم مما لا يعقل أحق ألا يكون ندًّا وشريكًا. تفسير البحر المحيط (٦/٣٣٥).

شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ﴾ [يونس:١٨] وهو [تخرص][١] منهم وظن كاذب؛ إذ المشفوع عنده لم يأذن في ذلك ولا [وعدهم][٢] به.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِىُّۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٞ فِى ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس:٦٧ - ٧٠].

ثم قال جل من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس:٦٧] الليل بضيقه وظلامه ووحشته والسكون فيه، والنوم آية على الموت بعد الحياة، [وهو أيضًا يعني الليل آية على جهنم][٣] والنهار بضيائه [وإشراقه][٤] والانتشار فيه واليقظة [والانبساط واتساع البصر وانكشاف المبصرات آية على الحياة، وجواز الإحياء بعد الموت، والليل أيضًا بما هو آية على إله باطل، والنهار بما هو آية على إله حق، والليل آية على الضلال والكفر والجهل][٥] والنهار بما هو آية على الهدى والإيمان والعلم، وقد مضى في تفسير آية البقرة مستقصى حسب الاستطاعة لذلك.

قال عز من قائل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس:٦٧] وكان [سياق صفة][٦] السمع أولى من حيث إنه استجلب الشاهد على إبطال إله باطل

---

(١) في النسخة (ق): «خرص».
(٢) في النسخة (ق): «وعد».
(٣) زيادة في النسخة (ق).
(٤) زيادة في النسخة (ق).
(٥) ما بين [ ] به تقديم وتأخير واختلاف بين النسخ.
(٦) في النسخة (ق): «وصف سياقه».

[تقدم][1] ذكر الليل الذي هو عليه آية في قوله جل قوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس:٦٧] والسمع هو المتصرف في الظلام دون البصر؛ لهذه العلة كانت صلاة الليل جهرًا.

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس:٧١ - ٨١].

قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس:٧٩] إلى قوله جل قوله: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ...﴾ [يونس:٨١] وفي حرف أبي عمرو: «آلسحر» على الاستفهام على سبيل التقرير، وقراءة الجماعة هي موافقة لما في سورة طه.

قوله: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى * وَأَلْقِ

(١) في النسخة (ق): «فتقدم».

﴿مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه:٦٧-٦٩] ومعنى قوله: ﴿لَا يُفْلِحُ﴾ أن عمله لا حقيقة له [فلا][١] يفلح به خصمًا [دنيا، ولا][٢] في الآخرة حظ لذلك.

قال موسى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[٣] [يونس:٨١] ولا يفلح الساحرون، ومحذوف هذا وأنا قد أفلحت بما جئت به، وهذا من التحدي بالآيات [ويتخرج أيضًا قوله ﷺ: «ما جئتم به آلسحر» على الاستفهام الذي بمعنى التقرير أنه قال ذلك لهم وقد أعلمه الله بما أعلمه قوله: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ [طه:٦٨ - ٦٩] المعنى إلى آخره، فقال لهم ذلك على معنى التبليغ منذرًا لهم محذرًا ولعل ذلك مما نفعهم وأحسن عونهم على الإيمان والتبر؛ لأنه من التحدي] والإخبار عن المقدور الغائب قبل وقوعه [هذا إلى ما رأوه من التحقيق مجاز القول ما جئتم به هو السحر السحر هو ما جئتم به ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ [يونس:٧٧] وقد أفلحت أنا بما جئت به وعليت أفلا تعقلون أتبع ذلك][٤].

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟

---

(١) في النسخة (ق): «فهو لا».

(٢) في النسخة (ق): «خفيًا ولا لهم».

(٣) أي: جنسهم على الإطلاق، فيدخل فيه السحرة دخولاً أوّليًا، ويجوز أن يراد بالمفسدين: المخاطبون، فيكون من وضع الظاهر موضع الضمير للتسجيل عليهم بالإفساد والإشعار بعلة الحكم، والجملة تذييل لتعليل ما قبلها وتأكيده، والمراد بعدم إصلاح ذلك: عدم إثباته، أو عدم تقويته بالتأييد الإلهي لا عدم جعل الفاسد صالحًا؛ لظهور أن ذلك مما لا يكون؛ أي: إنه سبحانه لا يثبت عمل المفسدين ولا يديمه، بل يزيله ويمحقه، أو لا يقويه ولا يؤيده، بل يظهر بطلانه ويجعله معلومًا. تفسير الألوسي (٨/٨٤).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمۡوَٰلًا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس: ٨٢ - ٨٩].

قوله تعالى: ﴿وَيُحِقُّ اللهُ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [يونس:٨٢] [إن المعهود جري العوائد وقضاء القضايا على أسباب لها معهوده فإذا قضى أمرًا على أسباب غير معهوده في تيسير أو قضاه بغير سبب معلوم فهو من المقدور وهذا مما تقدم ذكره من الإخبار عن الغائب الذي لم يقع][1] إذا أحق الله الحق بكلماته لم يجرِ ذلك القضاء على سنة معهودة، بل هو أن يقول له: «كن كذلك».

قال جل ذكره: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا فَإِن يَشَأِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ البَاطِلَ وَيُحِقُّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [الشورى:٢٤] [أي: من المعهود جري الأمور وقضاؤها][2] على أسباب لها معهودة، فإذا قضى أمرًا على [سبب غير معهود][3] في تيسير أو قضاه بغير سبب معلوم، فهو من المقدور الغائب، وذلك هو المقضي بكلمة الله فافهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِالله فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس:٨٤] الإيمان أولاً ثم العمل بالمفروض فذلك الإسلام ثم التوكل، وهو من عمل الإسلام بمشاركة الإيمان فيه أما حظ الإيمان فيه فالعلم بأن فعل الله لا يفعله سوى الله، وأن [ما][4] سوى الله عباد مملوكون لا يملكون [ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا ولما حظ][5] الإسلام فيه فترك التصرف في أكثر الأسباب لأجل العلم الذي وقر في القلب.

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «إن من المعهود جري العوائد وقضاء القضايا».

(٣) في النسخة (ق): «أسباب غير معهودة».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «دفعًا ولا نفعًا وأما حظ».

فصل

من التوكل ما هو فرض، ومنه ما هو فضيلة، ومنه ما هو مباح، ومنه ما هو مكروه، ومنه [أيضًا][1] ما هو حرام.

أما ما هو منه فريضة: فهو إذا تقدم الإيمان والعمل فالتوكل على الله ﷻ في الوفاء بوعده [بمثال][2] الثواب فريضة.

قال الله ﷻ: ﴿**وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ**﴾ [هود:١٢٣].

وقال: ﴿**ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ**﴾ [البقرة:٥٨].

وقال: ﴿**فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ**﴾ [إبراهيم:٤٧] [وهو كثير] [3].

وأما ما هو منه فضيلة: فالتوكل على الله جل ذكره في ترك بعض الأسباب، [لا سيما][4] الأسباب التي توصف ببعض البعد عن [مثال][5] المطلوب، وكلما بعد السبب عن [مثال] المطلوب في الأغلب فالسعي في ذلك داخل في خبر المكروه [واتباع ذلك إشغال للقلوب عن العمل للآخرة وترك ما هو الأولى][6].

وأما هو منه حرام: فهو أن يترك العمل الذي أمره الله به اتكالاً على ما سبق له في الأزل، فإن تركه للعمل [بما أمره الله به من طاعته هو من علامات شقائه السابق له في الأزل؛ إذ كل يسعى فيما سبق له][7].

[قوله تعالى: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ**﴾ يعني: بيوتهم التي كتب الله لهم في الأرض المقدسة، وهو بيت المقدس وغيره بيوت الله فيها، ثم قال عز من قائل: ﴿**وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [يونس:٨٧] هذا مصداق لقول رسول الله ﷺ: «**الصلاة إلى الصلاة**

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «بمنال».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «وهي».

(٥) في النسخة (ق): «منال».

(٦) زيادة في النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «بطاعة الله أمارة على شقائه السابق في الأزل إذ كل يسعى فيما سبق له».

كفارة لما بينهما، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما»[١] وقوله: «**من صلى ركعتين مقبلاً عليهما بوجهه وقلبه غفر له ما تقدم من ذنبه**»[٢].

والأظهر في معنى هذه الآية أن قوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ خطاب مستأنف المخاطب به ﷺ ليبشر المؤمنين من أمته بما بلَّغه إليها عن ربه عز جلاله في قوله: «**إذا توضأ العبد المؤمن فتمضمض خرجت الخطايا من فِيهِ، ثم إذا استنشر خرجت الخطايا من أنفه، ثم إذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من أشفار عينيه**»[٣].

وذكر مثل ذلك في الذراعين والرأس والقدمين، ثم يخرج نقيًّا من الذنوب، وكان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة له، وفي أخرى قال عند تمام الوضوء: «**ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله فتحت له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء**»[٤] فهذا من معنى ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كما قال ﷻ في آخر الآية من قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ إلى قوله جل قوله: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:٥٨] فهذه زيادته، إن ربنا لغفور شكور، والحمد لله رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾[٥] [يونس:٨٨] هذا دعاء على فرعون وقومه بألَّا يؤمنوا بالله ويموتوا

---

(١) أخرجه أحمد (٧١٢٩) والحاكم (٤١٢) وقال: صحيح على شرط مسلم. والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٦٢٠) وإسحاق بن راهويه (٤٣٥).

(٢) أخرجه بنحوه أبو داود (١٢٧٧)، والحاكم (٥٨٤)، والبيهقي (٤١٧٩).

(٣) أخرجه مالك (٦٠)، وأحمد (٩٠٩١)، والنسائي (١٠٣)، وابن ماجة (٢٨٢)، والحاكم (٤٤٦) وقال: صحيح. والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٧٣٤)، والنسائي في «الكبرى» (٣٨٨).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) لمَّا بالغ موسى في إظهار المعجزات، ورأى القوم مُصرّينَ على الجُحُود والعنادِ دعا عليهم، ومن حقّ من يدعُو على الغير أن يذكُر سبب جرمه، وجرمهم كان حُبَّ الدنيا، فلأجله تركوا الدِّين؛ فلهذا قال ﷺ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ والزينة عبارة عن: الصحَّة ، والجمال، واللباس، والدوابِّ، وأثاث البيت، والمال ما يزيد على هذه الأشياء من الصَّامت والنَّاطق. تفسير اللباب لابن عادل (٣٢/٩).

كفارًا، وهذا خلاف المعهود من رأفة الرسل والأئمة، فمن احتج بدعوة نوح عليه السلام على قومه؛ إذ قال: ﴿رَّبِ لَا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦] فقد كان أعلمه عز جلاله بأنهم لا يؤمنون بقوله: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾ [هود:٣٦] فدعا عليهم؛ إذ قد يأس من إيمانهم [بالكلية] ويقول تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:٢٧].

وقال نوح عليه السلام: ﴿رَّبِ لَا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦].

وقد جاء عن نوح عليه السلام: إنه يعتذر يوم القيامة لأهل المحشر في ترك الإقدام على الشفاعة لأهل الجمع بدعوته على قومه، ونبذه لهم وتبرئتهم من ذلك! وكيف هذا وقد جاء المدح من الله ﷻ لنوح وموسى وهارون في دعائهم ذلك، وهم لا ينطقون عن الهوى، كيف لاوإنما استاق ﷻ ذلك عن نوح وموسى وهارون - صلوات الله وسلامه عليهم - في معرض المدح لهم والرضا بما فعلوه من ذلك، وقال موسى لقومه: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٢٩] ففي هذا رجاء منه أن يهلك الله عدوهم فرعون وأتباعه، فيهلكهم الله، وهم عدو له وللمؤمنين، ومنه يتخرج - أعني: دعاء الرسل على قومهم الذين يئسوا من إيمانهم [.... الملائكة] [١] فالشفاعة فيما أذن لهم فيه بأن يتمه.

وقال جل قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ﴾ [القصص:٥] إلى قوله جل قوله: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:٦] وقال لهما: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الغَالِبُونَ﴾ [القصص:٣٥] ثم أذن لهما في الدعاء عليه، كالشفاعة فيما أذن الله جل ذكره في فعله.

وقال عز من قائل: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود:٣٦ - ٣٧] المعنى: فقيض عبده ورسوله فيما قدره أن يتمه] [٢].

---

(١) ليس في (ف) وبياض في (غ).
(٢) ما بين [ ] به اختلاف ألفاظ بين النسخ.

فصل

إنه لا يؤهل للشفاعة في عباد الله في الآخرة إلا من دعا لهم ونصحهم في الدنيا، ومن دعا عليهم مُنع ذلك، لا سيما الشفاعة العليا، [ولا][١] يستحق درجة الوسيلة [العظمى][٢] فيما هنالك إلا من وسل بين الله وبين عباده [في الدنيا][٣] وأصلح بينهم، وعدل فيهم ونصح ودعا لهم، دل على ذلك قول رسول الله ﷺ: «**اللَّعانون لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة**»[٤].

ورجم رسول الله ﷺ ماعزًا، ثم لم يُصلِّ عليه، وأبقى ذلك في أمته سنة، ولا يصلي الإمام على من قتله في حد من حدود الله آية على هذا المعنى، وتنبيهًا على [حكمه، ألا ترى أن][٥] رسول الله ﷺ في ماعز «**لقد تاب توبة لو قسمت [بين][٦] أهل المدينة لكفتهم**»[٧] [وفي أخرى: «**إنه لينغمس في أنهار الجنة**»[٨] ومع هذا من علمه [به][٩] فقد ترك الشفاعة له في الدنيا والصلاة عليه من أجل أنه قتله في حد من حدود الله.

وإلى هذا ففي قول الله - جل ثناؤه - لموسى وهارون: ﴿**قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا**﴾ أي: على سبيل أولي العزم من الرسل، ولا [تستعجلوا][١٠] بالعذاب على أحد ﴿**وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [يونس:٨٩] يعني والله أعلم بما ينزل: الذين لا يعلمون صدق أسماء الله ومضاء صفاته من عفوه ومغفرته وحلمه وأناته

---

(١) في النسخة (ق): «بل لا».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٩٨)، وإسحاق بن راهويه (٣).

(٥) في النسخة (ق): «حكمة الله في ذلك وقد قال».

(٦) في النسخة (ق): «على».

(٧) أخرجه بنحوه أبو داود (٤٣٧٩)، والترمذي (١٤٥٤) وقال: حسن غريب صحيح.

(٨) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٣٢٨).

(٩) في النسخة (ق): «بهما».

(١٠) في النسخة (ق): «تستعجلا».

وإمهاله لعباده، وقرأها الضحاك: «[قد أجيبت][1] دعواتكما»[2] بالجمع، وأبو عبد الرحمن قرأ بذلك، وفيه تعريض بالتوصية لهما بما تقدم.

[وكون هذا المعنى منزلاً من عند الله في معرض الرضا بذلك عن موسى عليه السلام يعلم بأن الله قد كان أعلمه وأخاه هارون عليه السلام بإهلاكه فرعون وقومه، كقوله جل من قائل: ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان:٢٤] وقوله هو عليه السلام له: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:١٠٢] أي: مهلكًا، ونحو هذا من إعلام الله رسله ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة:١٤٧]][3].

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣) فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥)﴾ [يونس:٩٠ - ٩٥].

قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾ [وقالها][4] الحسن: «فاتَّبعهم» بوصل الألف وتشديد التاء، ورويت عنه بقطع الألف، وقرأها الحسن وأبو رجاء: «بغيًا وعدوًا» بضم العين والواو مثقلة ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠].

---

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) انظر: زاد المسير لابن الجوزي (٣٠٦/٣).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «أي: أتبعهم جنوده وأنصاره وآله، وقرأها».

يقول الله جل من قائل: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[(١)] [يونس:٩١] ظاهر قوله: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ كقوله: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس:٥١] أي: الآن آمنتم حين لا ينفعكم الإيمان [عند وقوع العذاب][(٢)] وقد كنتم حال المهل والعافية بالعذاب تستعجلون، أو يكون قوله لما لم يستطع إظهار الاسم [فيقول: «آمنت][(٣)] أنه لا إله إلا الله [وأن موسى رسول الله][(٤)]» بل قال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ وذلك يدل [منه][(٥)] على ضغن وعداوة [عتيدة][(٦)] مستصحبة لفؤاده، فكان لعدم [المنة][(٧)] ووجدان الضغن لا يحتمل [ذكره وحال][(٨)] الضرورة لم يتركه والكبر فذلك الذي منع لسانه من [البوح][(٩)] بذكره جل ذكره فاستمر على العادة من مقتضى حالته المعهودة.

[في هذا من الفقه أن قول الله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٤١] وأمره بالذكر الكثير إنه التكرار مع حضور القلب حال الذكر ومشاهدة ذلك، هذا ما لا خفاء به إن شاء الله تعالى.

ثم إن كثرة الذكر أيضًا قد تكون ملازمة الذكر بالتكرار بعد التكرار، فذلك يورث اللهج بذكر المذكور، منه قول الرسول ﷺ: «**من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد مائة مرة فله كذا، ومن قال: سبحان الله كذا فله كذا،**

---

(١) هو مقول قول مقدّر معطوف على ﴿قَالَ آمَنتُ﴾ أي: فقيل له : أتؤمن الآن؟ وقد اختلف من القائل لفرعون بهذه المقالة؟ فقيل: هي من قول الله سبحانه. وقيل: من قول جبريل. وقيل: من قول ميكائيل. وقيل: من قول فرعون، قال ذلك في نفسه لنفسه. فتح القدير (٣/٤١٠).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «الكريم فقال مكان قوله».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «عنيدة».

(٧) في النسخة (ق): «المقة».

(٨) في النسخة (ق): «الذكر حال».

(٩) في النسخة (ق): «اللهج».

ومن قرأ مائة آية من كتاب الله إلى ألف آية أصبح وله قنطار من الأجر، القيراط من مثل جبل أُحد»[١] ونحو هذا من الترغيب في الذكر وتكثير العمل لما في ذلك من الدلالة على ابتهاج القلب ولهج اللسان بحب المذكور وذكره، فمتى اتصل لهج اللسان وفرح القلب وابتهاجه بالحب فذلك الإتمام إن شاء الله ﷻ، وإلا فلهج اللسان أيضًا أمر مبلغ والحمد لله، وذلك إذا كان ابتداء الذكر بتجديد نية وعزم على تحقيق في ذلك، فإن للنية في أول العمل روح تصحب العمل بركته، فكيف إن كانت النية مع الذكر مقرنين معًا؟][٢].

[فمعنى قول الله جل ثناؤه: ﴿آلآنَ﴾ أي: في حالك هذا لا تحتمل ذكري، ولا تفوه باسمي وقد عصيت قبل؛ أي: إنك أضفت إلى حالتك تلك هذه كما يقول القائل: «كيدًا وأنت في الحديد» وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين، فلو كنت قبل على غير ذلك لاحتمل ذلك منك، وخرجت كلمتك هذه عن معهود إيمانك وصحيح ودك، لكنه قالها على حالها، وعلى ما كان عليه من رؤية العذاب.

ومن سنة الله جل ذكره في عباده: إنهم متى رأوا العذاب لا يقبل توبتهم إذ قد ردوا عليه أمره وأعرضوا عن تذكيره إياهم، وكذبوا رسله إليهم، فحكمة أن يطبع على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم فيؤمنوا، فلا ينفعهم إذ ذاك إيمانهم، وأكثر الأمم سوى فرعون إنما دعواهم التلاؤم والقول: ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٤] ونحو هذا من القول][٣].

ولما قصد فرعون إلى الكلمة وتكلم بها على علاتها منه لم يضيعها له، ولقد كادت أن تنفعه لولا ما سبق له [الذي ظهر من كفره وفساده وإخراج الشهادات على ما هي عليه][٤] ظهر ذلك بقول جبريل ﵇ جاء عنه - والله أعلم - أنه قال: «لو رأيتني وأنا آخذ [من][٥] حال البحر فأملأ به فاه خشية أن تدركه رحمة الله».

---

(١) لم أقف عليه هكذا.
(٢) زيادة في النسخة (ق).
(٣) ما بين [ ] يوجد به اختلاف ألفاظ بين النسخ.
(٤) زيادة في النسخة (ق).
(٥) زيادة في النسخة (ق).

فسبحان الله [وله الحمد](١) ما أوفاه بعهده، ما فعل ذلك جبريل عليه السلام إلا بأمر ربه جل جلاله، [ولا حرمه رحمته إلا بعدله، وبما](٢) سبق له في علي علم الله أنه عامله.

يقول الله جل ثناؤه: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾(٣) [يونس:٩٢] لو كانت شهادته تلك في وقتها وعلى حقيقتها المقة وحسن النية وصحيح التوبة من قرار نفسه لإنجاءه وأتباعه من عذابه، ولما كانت في غير وقتها وعلى علاتها نجاه ببدنه فقط؛ ليجعله [لنا](٤) آية على أن الشهادة بهذه الكلمة المباركة عنده في غاية القبول [عنده](٥)، فانظر إليها لما كانت شهادته ميتة نجاه الله بها ميتًا، ولو كانت حية لنجاه [بها](٦) حيًا، لا جعلنا الله عن آياته من الغافلين ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٧) [الأعراف:٦٩].

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «ولا حرص على منعه ورحمة ربه إلا بعدل الله وربما».

(٣) وهي عبارة لم يأتِ مثلها فيما كتب من أخبار فرعون، وإنها لمن الإعجاز العلمي في القرآن؛ إذ كانت الآية منطبقة على الواقع التاريخي، والظاهر أن الأمواج أَلْقَت جثّته على الساحل الغربي من البحر الأحمر فعثر عليه الذين خرجوا يتقصون آثاره ممن بقُوا بعده بمدينة مصر لما استبطأوا رجوعه ورجوع جيشه، فرفعوه إلى المدينة، وكان عبرة لهم. التحرير والتنوير (٦٤/٧).

(٤) في النسخة (ق): «لمن خلفه».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) زيادة في النسخة (ق).

(٧) قال القرطبي في «تفسيره»: فيه ثلاث مسائل: الأولى: قوله تعالى: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فيه محذوف، أي: بوأكم في الأرض منازل ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي: تبنون القصور بكل موضع، ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ اتخذوا البيوت في الجبال لطول أعمارهم، فإن السقوف والأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم، وقرأ الحسن بفتح الحاء، وهي لغة، وفيه حرف من حروف الحلق فلذلك جاء على فعل يفعل. الثانية: استدل بهذه الآية من أجاز البناء الرفيع كالقصور ونحوها، وبقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ ذكر أن ابنا لمحمد بن سيرين بنى دارا وأنفق فيها مالاً كثيرًا فذكر ذلك لمحمد بن سيرين فقال: ما أرى بأسًا أن يبني الرجل بناء ينفعه، وروي أنه ﷺ قال: «إذا أنعم الله على عبد أحب أن يرى أثر النعمة عليه»، ومن آثار النعمة البناء الحسن، والثياب الحسنة، ألا ترى أنه إذا اشترى جارية جميلة بمال عظيم فإنه يجوز وقد يكفيه دون ذلك، فكذلك البناء، وكره ذلك آخرون، منهم الحسن البصري وغيره، واحتجوا بقوله ﷺ: «إذا =

كذلك وهو أعلم قال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس:٩٢] أي: عن آياتنا [في][1] فضيلة شهادة أن لا إله إلا الله على الخصوص والعموم وعن كل آياته.

[قال رسول الله ﷺ: «من كان آخر قوله: لا إله إلا الله، دخل الجنة»][2].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ [يونس:٩٣] [بغيًا][3] ينبغي أن يستشعر العبد خشية الله جل ذكره مع العلم أكثر من المحافظة على ذلك مع الخلو من بعض العلم، [فإنه ما][4] هلك من هلك [من كان قبل][5] إلا من بعد العلم، وعند تناهي الأمور يبدأوا نقصانها رجوعًا إلى أوائلها [والله يحكم لا معقب لحكمه وتلك من آياته إنه يهدي بما به يضل ويضل بما به يهدي ويميت بما به يحيي ويحيي بما به يميت وهو على كل شيء قدير][6].

قوله ﷻ: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس:٩٤] لم يؤهل ﷺ لشك يقدح في قلبه كيف وقد أزاح عنه حظ

= أراد الله بعبد شرا أهلك ماله في الطين واللبن»، وفي خبر آخر عنه أنه ﷺ قال: «من بنى فوق ما يكفيه جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه»، قلت: بهذا أقول، لقول ﷺ: «وما أنفق المؤمن من نفقة فإن خلفها على الله عز وجل إلا ما كان في بنيان أو معصية» رواه جابر بن عبد الله وخرجه الدارقطني، وقوله ﷺ: «ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال بيت يسكنه وثوب يواري عورته وجلف الخبز والماء» أخرجه الترمذي.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ﴾ أي: نعمه، وهذا يدل على أن الكفار منعم عليهم.

(١) في النسخة (ق): «على».

(٢) في النسخة (ق): «لمن خلفه».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «فإن الله يأخذ بالعلم وبالجهل، وليس إلى العلم شيء، والهداية فعل الله لا يفعل فعل الله إلا الله ﷻ، وما».

(٥) في النسخة (ق): «ممن كان قبلنا».

(٦) زيادة في النسخة (ق).

الشيطان وأخرجه من قلبه [في أصل الإيمان بما أنزل إليه][1] وإنما يأتي الوحي إلى النبي والرسول [مفروغًا منه تامًا بيقينه معه][2] ويقين كل امرئ على قدر منزلته. وشكه هو ﷺ على ذلك دقيق، هو أرفع قدرًا في تثبيت العلم من يقين أرفعنا درجة.

وإنما يسمى شكًّا لنزوله عن درجة يقينه هو، وإلا فهو العلم، وإنما يخاطب كل امرئ على درجته، وقوله جل قوله: ﴿فَاسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس:٩٤] لم يرد اليهود [والنصارى][3]، وإنما أراد الأنبياء والرسل والكتب [ومن][4] قبله، وكيف يأمره بأن يسألهم ويستفتيهم فيما [جال][5] في نفسه وهو ينهاه عنهم ويأمره [بالبدأة][6] منهم، ويخبره بأنهم قد بدلوا ما [جاءهم][7] وحرفوه، وبأنهم ﴿يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ الله لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ [البقرة:٧٩] وبأنهم ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ الله وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ الله وَيَقُولُونَ عَلَى الله الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧٨].

[ويقول رسول الله ﷺ][8]: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [العنكبوت:٤٦]»[9] وإنما أمره ﷻ أن يسل الرسل والأنبياء قبله بأن ينظر فيما بلغوه قومهم، وما أمروهم به عن ربهم عز جلاله، ولذلك قال جل قوله: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٥].

---

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «مقرونًا بيقينه مفروغًا منه».

(٣) في النسخة (ق): «ولا النصارى».

(٤) في النسخة (ق): «المنزلة».

(٥) في النسخة (ق): «حاك».

(٦) في النسخة (ق): «بالبرأة».

(٧) في النسخة (ق): «أنزل إليهم».

(٨) في النسخة (ق): «ورسول الله يقول لأصحابه».

(٩) أخرجه البخاري (٤٢١٥) والنسائي في «الكبرى» (١١٣٨٧) والبيهقي (٢٠٤٠٢).

وقال له جل قوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ [الأنبياء:٢٤] إلى قوله جل قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥] هذا معنى الآية، ومعنى [أن][1] جاءوا به لذلك ختم الآية بقوله الحق: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس:٩٤].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [يونس:٩٦ - ١٠٠].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦ - ٩٧] [سبقت لهم من الله جل ذكره أن يكونوا ممن قال الله فيهم: «**هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون**»[2]][3] نعوذ بالله من شر ما سبق لا يكون منه إيمان أبدًا حتى يعاين العذاب، فحينئذ يؤمن، ثم لا ينفعه إيمانه ولو [أنه][4] آمن فيما قبل ذلك لارتد بعد إيمانه، فإن ذلك من مقتضى قوله: «**ويعمل أهل النار يعملون**»[5] كما قال عز من قائل: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٣].

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ [يونس:٩٨] قالوا:

---

(١) في النسخة (ق): «ما».

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ما بين [ ] به اختلاف ألفاظ بين النسخ.

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) تقدم تخريجه.

«لولا» بمعنى: «هلا» وقيل [أيضًا: إنها][1] بمعنى «لم» وقرأها أُبي: «فهلا كانت» يقول - وهو أعلم - على تأويل «هلا»: فهلا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها؛ أي: حين ينفعها إيمانها، وإنما هي ثلاثة أحيان: وقت مجيء الرسول، والمسارعة إليه هي السبق وهم السابقون.

والحين الثاني: هو حين يؤخذون بالبأساء والضراء كما قال عز من قائل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [كما قال عز من قائل][2]: ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ [الأعراف:٩٤ - ٩٥] ففي هذا [يحين الأجل][3] الثاني إن آمنوا نفعهم إيمانهم، وقلما يؤمن أحد على ذلك؛ لأن عقوبة الإعراض قد حاقت بهم، [وهو الطبع][4].

يقول جلَّ من قائل: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ [وهنا محذوف يعقد عليه الاستثناء في قوله جلَّ قوله][5]: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [أي][6]: فلم يكن ذلك لقرية إلا قوم يونس، فإنهم آمنوا بعد الإعراض والتكذيب حين [داولتهم][7] البأساء والضراء فنفعهم [في][8] ذلك الإيمان وكثير ما يمنعون النوبة بعد الإعراض والتكذيب.

[يقول][9]: فلم يكُ من وفق للتوبة [بعد الإعراض][10] إلا قوم يونس ﴿لَمَّا

---

(١) في النسخة (ق): «هي».
(٢) سقط من النسخة (ق).
(٣) في النسخة (ق): «الحين».
(٤) في النسخة (ق): «والطبع قد قرب حكمه منهم إلا ما شاء الله».
(٥) سقط من النسخة (ق).
(٦) زيادة في النسخة (ق).
(٧) في النسخة (ق): «تداولتهم».
(٨) سقط من النسخة (ق).
(٩) في النسخة (ق): «فمعنى قوله هذا».
(١٠) زيادة في النسخة (ق).

آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ﴾[1] [الهلاك][2] ﴿فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إلى حِينٍ﴾ [يونس:٩٨] وإنما الإيمان حين نزول العذاب، ومعاينة أعلام الآخرة كالحجر المحجور دون القبول، والسد المسدود دون العُتبى ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ الله الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكَافِرُونَ﴾ [غافر:٨٥].

وقد ذكر أهل التفسير إيمان هؤلاء[حين رأوا العذاب][3] وتضرعهم وكيف تداركهم الله، ويمكن أن يكون الحق فيما قالوه ما خلا ما ذكروه [من أن ذلك عند][4] المعاينة للعذاب المهلك، وهذا فليس يعطيه حقيقة الخطاب ولا الوجود الذي هو سنن الله في عباده.

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٠٣) قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ

---

(١) اعلم أنَّ هذه السُّورة من أوَّلها إلى هنا في بيان شبهات الكفار في إنكار النبوة والجواب عنها، وكانت إحدى شبهاتهم أنَّ النبي ﷺ كان يُهَدِّدهُم بنزول العذاب على الكُفَّار وبعد اتباعه أن الله ينصرهم ويعلي شأنهم ويقوي جانبهم، ثمَّ إنَّ الكُفَّارَ ما رأوا ذلك؛ فجعلوا ذلك شبهة في الطَّعْنِ في نبوته وكانوا يبالغون في استعجال العذاب على سبيل السخرية، ثم إن الله تعالى بيَّن أنَّ تأخير الموعود به لا يقدحُ في صحَّة الوعد، ومن ثم ضرب لهذا أمثلة، وهي قصَّة نوح ﷺ وموسى ﷺ إلى ها هنا، ثم في هذه الآية بيَّن أنَّ جدَّ الرسول في دخولهم في الإيمان لا ينفعُ ومبالغته في تقريرِ الدلائل في الجواب عن الشبهات لا يفيدُ؛ لأن الإيمان لا يحصلُ إلا بخلق الله ومشيئته وإرشاده وهدايته إذا لم يحصل هذا المعنى لم يحصل الإيمانُ. تفسير اللباب لابن عادل (٩/٤٧).

(٢) في النسخة (ق): «أي: الهلاك والهون».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «أن ذلك كان عند».

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس: ١٠١ - ١٠٩].

قوله ﷻ: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [أي: من آية][١] ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ﴾ [أي: الرسل] [٢] ﴿عَنْ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١] كل ما في الأرض والسماء من جماد ونبات وحيوان، وإنس وجان، ورياح وسحاب وماء، وأفلاك ونجوم، وليل ونهار، وخلق وأمر يشهد بفطرته، وتعرب عما جعل عليه آية، لكنها أمرت ألا تؤدي شهادتها إلا عند من آمن بها وعند من استشهدها، ولا تكلم إلا من جاورها وقدم الإيمان قبل نظره فيها، وتصديقها [في تبليغها] [٣] عن ربها قبل تكليمه إياها لذلك وهو أعلم.

قال جلَّ قوله: ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١] وكذلك فلو [أنهم][٤] ساروا في الأرض، وتسمعوا للسائرين فيها، فيرون الديار العافية والمساكن البالية [آثارًا للقرون الخالية][٥] والأمم الماضية كيف أهلكوا دونها، وأخرجوا عنها ولِمَ أهلكوا وأخرجوا عنها وإلى ما آله إليه أمرهم الآن حيث هم لبغت إليهم أنفسهم، وأعلم بما آل إليه أمرهم، ولو وقفوا بالفهم السليم على المعنى بقول الله جلَّ ثناؤه: ﴿أو لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا....﴾ [الأعراف:١٠٠] لذلك - وهو أعلم - أعقب [ما تقدم قوله][٦] جلَّ قوله: ﴿فَهَلْ

(١) سقط من النسخة (ق).
(٢) زيادة في النسخة (ق).
(٣) زيادة في النسخة (ق).
(٤) زيادة في النسخة (ق).
(٥) في النسخة (ق): «الخالية الخاوية آثارًا للقرون السالفة».
(٦) في النسخة (ق): بقوله».

يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء ﴿فَانتَظِرُوا﴾ أن ينزل بكم مثلما نزل بهم ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس:١٠٢] كل مثلين، [فإن هذا واحد منهما يحل به ما حلَّ بصاحبه، ويجوز عليه ما جاز عليه][١] من حيث تماثلا أو تقاربا أو تباعدا.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:١٠٣] أي: [إذا حل بهم ما ينتظرونه][٢] ﴿نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ هذا هو وعد الله الحق للذين آمنوا مع رسلهم، إنما يستحق الصالح [بعد ذهاب الرسول][٣] أن يناله في بعض المواطن ما نال الطالح من أجل كونه مع أهل الفسق ومقامه في محلتهم، وقد قال رسول الله ﷺ: «**لا يورد ممرض على مصح**»[٤].

وقال: «**فر من المجذوم فرارك من الأسد**»[٥].

وقال الله ﷻ: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال:٢٥].

[كما قال في الذين هم مع رسوله: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾[٦] [الأنفال:٣٣]][٧].

---

(١) في النسخة (ق): «فإنه يجوز على أحدهما ما جاز على مماثله من حيث».

(٢) في النسخة (ق): «في الدار الآخرة نعذب الكافرين وننجي المؤمنين يقول عز من قائل: فإذا أحل بكم ما تنظرونه».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) لم يجيء التركيب وما كان الله ليمطر أوليائي بعذاب وتقييد نفي العذاب بكينونة الرسول فيهم إعلام بأنه إذا لم يكن فيهم وفارقهم عذّبهم ولكنه لم يعذبهم إكرامًا له مع كونهم بصدد من يعذب لتكذيبهم، قال ابن عطية: عن أبي زيد: سمعت من العرب من يقول: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لَيُعَذِّبَهُمْ﴾ بفتح اللام وهي لغة غير معروفة ولا مستعملة في القرآن وبفتح اللام في «ليعذبهم» قرأ أبو السّماك وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو بالفتح في لام الأمر في قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ وروى ابن مجاهد عن أبي زيد أن من العرب من يفتح كلّ لام إلا في نحو: الحمد لله يعني لام الجرّ إذا دخلت على الظاهر أو على ياء المتكلم والظرفية في فيهم مجاز والمعنى: وأنت مقيم بينهم غير راجل عنهم.

(٧) زيادة في النسخة (ق).

[قال ﷺ][1]: «**يردون موردًا واحدًا ويصدرون مصادر شتى**»[2] وفي [أقوال][3]: «**يحشرون على نياتهم**»[4].

وتمام هذه الكلمة قوله تعالى: ﴿**كَذَٰلِكَ**﴾ في الآخرة ﴿**حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [يونس:١٠٣] [أي: أحكام القيامة][5]؛ لذلك - وهو أعلم - أدخل كاف التشبيه، المشبه به [هو حكم الآخرة، ولما بيَّنه قال: ﴿**كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾][6] وموجودات الدنيا آيات على موجودات الآخرة.

---

(١) في النسخة (ق): «وقال في المهلكين من أهل الفسق».

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) في النسخة (ق): «أخرى».

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) سقط من النسخة (ق).

فهرس المحتويات